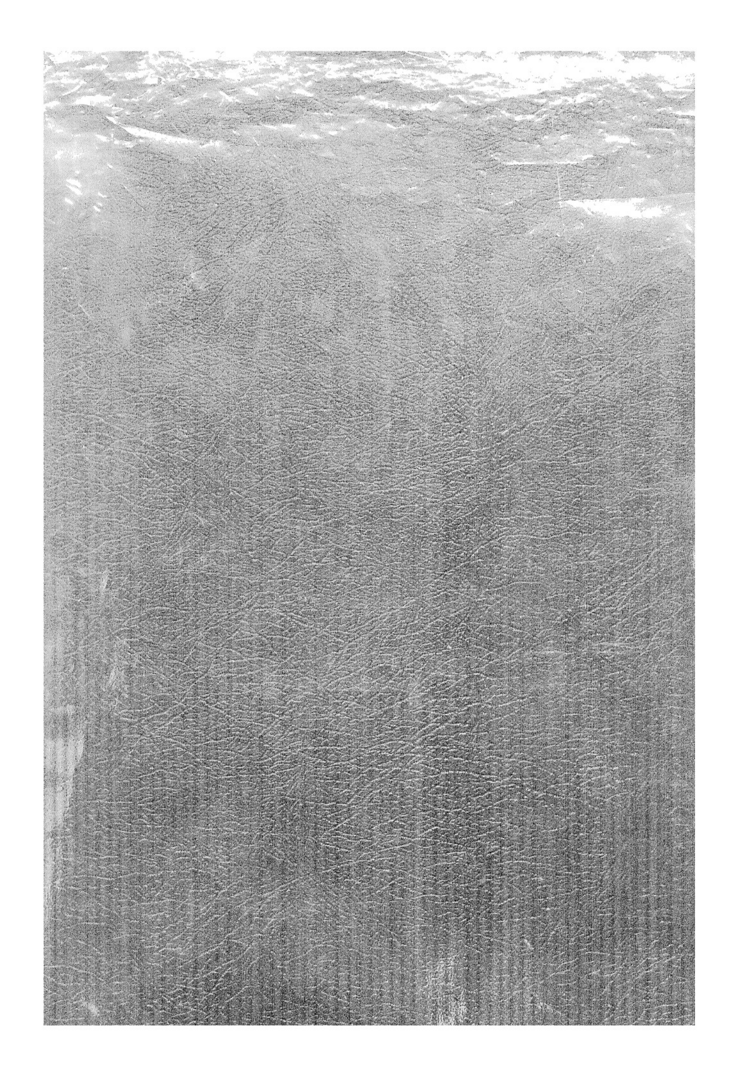


عالم الفكر

المجلد الثامن - العدد الثالث - اكتوبر - نوفمبر - ديسمبر ١٩٧٧



- التحول السياسي من الشيوعية إلى الديجولية
- مالرو - سنجور وحضارة الإنسان
- الفعل الثوري في رواية الأمل
- اندريه مالرو: قدر الإنسان



مجلة دورية تصدر كل ثلاثة أشهر عن وزارة الاعلام في الكويت * اكتوبر - نوفمبر - ديسمبر ١٩٧٧
المراسلات باسم: الوكيل المساعد للشئون الفنية - وزارة الاعلام - الكويت: ص.ب ١٩٣

المحتويات

التراث

★★★

آفاق المعرفة

★★★

أدباء وفنانون

★★★

عرض الكتب

اندريه مالرو



جيد : لا يوجد اغبياء او بلهاء فى كتبك .
مالرو : اننى لا اكتب لكي اثير الملل في النفس ، اما عن البلهاء فهناك الكثيرون جدا منهم فى الحياة الواقعية .
(عام ١٩٣٨)

حين التقى اندريه مالرو لاول مرة بالجنرال ديجول عام ١٩٤٣ بادره ديجول بقوله : « الماضي أولا » . وكان ذلك فى رأى مالرو مدخلا غريبا لمثل هذه المقابلة الهامة ، ولكنه أجاب مع ذلك : ــ

« الأمر بسيط .. لقد خضت معركة ، ولنقل انها من أجل العدالة الاجتماعية ، أو اذا اردنا مزيدا من الدقة من أجل ان نعطى الناس فرصتهم ... كنت رئيسا مع رومان رولان للجنة العالمية المعادية للفاشية ، وذهبت مع جيد لأحمل الى هتلر ــ الذى لم يستقبلنا ــ الاحتجاج على قضية ديمتروف والذين اتهموا كذبا بحرق الرايخستاج . ثم كانت حرب اسبانيا وذهبت لأقاتل هناك .. ليس فى الفرق والألوية الدولية التي لم تكن قد تكونت بعد ... اذ كان الحزب الشيوعي لايزال يفكر فى الأمر ... ثم كانت الحرب الحقيقية (الحرب العالمية الثانية) وأخيرا جاءت الهزيمة ... ومثل الكثيرين غيرى اخترت فرنسا ... عندما عدت الى باريس سألنى البير كامى : هل سنضطر يوما الى ان نختار بين روسيا وأمريكا ؟ ... لم يكن الاختيار في نظرى بين روسيا وأمريكا ولكنه كان بين روسيا وفرنسا ، حيث كانت فرنسا الضعيفة تقف وجها لوجه أمام روسيا القادرة القوية . لم اعد أؤمن بحرف مما كنت أؤمن به حينما كانت فرنسا القادرة تقف بمواجهة الاتحاد السوفيتي الضعف . ان روسيا الضعيفة تريد جبهات شعبية ، اما

روسيا القوية فتريد ديموقراطيات شعبية ... لقد قال ستالين امامى « فى بداية الثورة كنا ننتظر الانقاذ على يد الثورة الأوروبية ، اما الآن فالثورةالأوروبية تنتظر الجيش الاحمر » . لست أؤمن بثورة فرنسية يقوم بها الجيش الاحمر ، ولاأؤمن بالعودة الى عام ١٩٣٨ » .

« وفى مجال التاريخ ، فان الواقع الرئيسيالاول الذى ساد السنوات العشرين الاخيرة هو فى نظرى ، أولية الامة ، وهو شيء يختلف تماماعن الوطنية . فهو لاينبنى على التفوق ولكن على الخواص المميزة » (اندرية مالرو ــ لا مذكرات ــ الجزء الاول ــ الترجمة العربيــة مــع بعــض التصرف) .

هذه الفقرة الطويلة المعبرة من حديث مالرو تكشف لنا عن عدد من النواحى الهامـــة فى حياته وتفكيره ومواقفه ونظريته الى الحياةوالانسان ، كما تبرز بعض جوانب شخصيتــه الفذة التى تجمع بين حب المغامرة بحيث ملأتحياته ورواياته ، وحب فرنسا الذى أملى عليه ان ينخرط فى سلك المقاومة بعد الهزيمة ، وانيقف موقف العداء من الشيوعية بعد انكان ضالعا معها ، وان يقارن فى مواقف كثيرة بين (الوجودالفرنسى) و (الوجود السوفيتى) الذى يحاول ان يطمســه فى المستعمرات ودول العالم الثالثولكن دون جدوى ، بل ان حبه لفرنسا كان يملى عليه ان يقارن دائما بين مبادىء الثورة الفرنسيةوالثورة الروسية وما حققته كل منهما للانسانية. سبق ان التقيت ، ثم التقيت مرارا بعد ذلكبهذا الوجود لفرنسا . ان روسيا السوفيتية لم تطمسه . ان الآلة تصطنع للبلاد الحديثة النموعمالا مهرة اكثر مما تصطنع بروليتاريا عاملة . وفي كل مكان يدعو الشعب الى الثورة وليسالبروليتاريا ، فان دعوة الثورة الفرنسية وحماس المعركة المعلنة من اجل العدالة ، من سان جوستالى جوريس الى ميشيليه وعلى الاخص فيكتور هوجو ، هذه الدعوة تحتفظ بتأثير يصـــارعالماركسية على اقل تقدير . وفى افريقيا وفى امريكا اللاتينية ، حتى عندما كان تكتيك الثورة روسياكانت لغتها لا تزال فرنسية . لقد رايت فىبرشلونة أيام الحرب الاهلية اكواما من كتاب (البؤساء)بين (باكونين) وكتابات تولستوى النظرية (لا مذكرات) . كذلك تكشف هذه الفقرة عن مدىحب مالرو للحرية وايمانه بالانسانية الذى يجب أن يعطى الفرصة كاملة لتحقيق وجوده ، ومناجل الانسان والحرية تطوع مالرو فى عدد من الحروب للدفاع عن المستضعفين . وقد اعطاه هذاكله بغير شك ابعادا جديدة فى نظرته الى الانسان والمجتمع والحضارة الانسانية .

• • •

والشيء الذى يلفت النظر حقا هو انه علىالرغم من شهرة اندريه مالرو ورغم الدور الذى لعبه فى الادب والفن والسياسة بحيث اصبح يعتبرواحدا من اكبر المفكرين الذين اثروا فى سير الثقافة المعاصرة ، فان هناك كثيرا من نواحيحياته ــ وبخاصة حياته المبكرة ــ لا تزال غامضة بل ومجهولة تماما . والظاهر ان مالرو نفسه كانيحب ان يحيط نفسه بالغموض ، او على الاقل يترك بعض جوانب حياته وبعض نشاطه وبعضالاحداث التى تعرض لها في منطقة الظل بعيدا عن الضوء . وحتى الذين يزعمون انهم على بعضالصلة الوثيقة به لا يعرفون فى الحقيقة كثيرا عن حياته الخاصة فيما عدا بعض الحقائق الاساسيةعن مولده عام ١٩٠١ فى احدى العائلاتالبرجوازية

فى باريس ، وعن ميله فى ايام الصبا والشباب الى الترف وحب الظهور والتباهى فى اول الامر الى ان اصطدم بوقائع الحياة القاسية المريرة فى الهند الصينية حين ذهب الى كمبوديا للتنقيب عن الآثار والبحث عن كنوزها فوجد نفسه غارقا الى اذنيه فى مآسى البشر تحت وطأة الاستعمار . كذلك هناك معلومات كافية عن المآسى الشخصية التى تعرض لها في السنوات الاخيرة من حياته وبالذات منذ اوائل الستينات ، حين قتل ولداه الصغيران فى حادث سيارة عام ١٩٦١ ، ثم موت صديقة عمره الكاتبة لويز دو فيلموران Louise de Vilmorin عام ١٩٦٩ قبل أن يتحقق ما تعاهدا عليه من اتمام الزواج بوقت قصير ، وذلك بالاضافة الى ادمانه الخمر والمخدرات على الاقل فى فترات محددة من حياته ، الى جانب سوء حالته الصحية . ولكن كل هذه امور يمكن ان تضاف الى رصيده الهائل من التجارب فى الحياة التى انعكست فى كتاباته ، بحيث نجد احد النقاد يقول ان اهم واروع اعمال مالرو كانت حياته .

هذه الشخصية الفذة المتعددة الجوانب والتى تبدو متناقضة لاول وهلة ، كانت ولا تزال موضوعا للبحث والتحليل بقصد ردها الى نوع من المنهجية والاطراد والنظام والترتيب ، وذلك عن طريق دراسة انتاج مالرو وتصنيف اعماله الى (اتجاهات) رئيسية ، والزعم بان كل اتجاه من هذه الاتجاهات يميز مرحلة معينة بالذات من مراحل حياته . وتمثله هذه المحاولات على انه كان مغامرا اول الامر ، وحين سئم المغامرات وحياة المخاطر ، ونال كفايته من الرحلات والحروب انقلب روائيا ومفكرا اديبا ، وحين فكر فى التقاعد عن ممارسة هذا اللون من النشاط تحول الى (عالم الفن) فأصبح ناقدا فنيا . ولكن مثل هذه المحاولات لا تخلو من السذاجة الناجمة عن المبالغة فى التبسيط ، لان مالرو دخل (عالم الفن) منذ كان فى الثامنة عشرة من عمره ولم يغادره قط على ما يقول ارمان هوج Armand Hoog . فلقد احب مالرو وهو فى تلك السن الفن الشرقى ، وحضر محاضرات عنه في مدرسة اللوفر ، ثم قام هو نفسه بالقاء محاضرات عنه فى متحف جيميه Musee Guimte ومع انه مارس كثيرا من الوان النشاط الادبي والسياسي والثقافي فان هوج يحب ان يجعل مهنته الحقيقية — او على الاقل المهنة التى تمسك بها طيلة حياته — هى نشر كتب الفن . ومنذ بدايات كتاباته لم تخل رواية من فقرات تعكس نظرات عميقة فى الفن .

ولقد راس مالرو بعثة اثرية الى الهند الصينية وهو فى الثالثة والعشرين من عمره للتنقيب عن الآثار الكمبودية ، ولكن اتصاله بثوار كمبوديا الذين كانوا يكافحون للتحرر من الاستعمار الفرنسى دفع الحكومة الى تلفيق تهمة له بمحاولة تهريب بعض الآثار ، وحكم عليه بالسجن ثلاث سنوات ، لولا ان انبرى للدفاع عنه بقوة عدد من كبار المفكرين والادباء الفرنسيين من امثال اندريه جيد واندريه موروا واندريه بريتون ولوى اراجون ، مما اضطر الحكومة لاطلاق سراحه . وزار مصر وبهرته حضارتها القديمة وفنها الاصيل الذى اوحى اليه بكثير من الآراء . ويقول فى ذلك فى كتابه (لا مذكرات) : « لقد التقيت فى مصر بالآراء التى ظلت لعدة سنوات تحكم وتوجه تفكيرى فى الفن .. ولد اولها من ابى الهول ولم يكن قد تخلص من الرمال .. ولكنه لا يزال يتحدث بلغة الاطلال التى اخذت تستحيل الى مواقع اثرية » وظل ارتباطه قويا بمصر وآثارها الى ان اسهم فى الحملة لانقاذ معابد النوبة » مكتبة المتحف تعرض ايضا الخطبة التي القيتها من اجل انقاذ آثار النوبة ، وتعرض صورا فوتوغرافية كثيرة للاعمال الجارية .. انا اذكر صخور اسوان

المستديرة السوداء يعكسها نيل بلـون انهـــار الجحيم .. لا شك ان هذه الصخور لم تتغير منذ الوقت الذي أخذ فيه فلوبير الشاب مرض الزهري من فتاة تدعي كوتشيك هانم، كان منبهرا باسمها، قدر انبهاره باسم ملكة سبأ، ومعناه على ما اظن: السيدة الصغيرة .. وجذبته مملكة سبأ فقـام برحلة مليئة بالاخطار اليها ـ « كيف ادخلت في رأسـي منـذ ثلاثين سنـة ان اعثر على عاصمة مملكة سبأ، كان للمغامرة الجغرافية عندئذ فتنة فقدتها .. فيم كانت ولا تزال شاعرية سبأ ؟ الملكة بلقيس ؟ قليل من النساء قد دخلن التوراة، وقد جاءتها من المجهول بفيلها المتوج بريش النعام .. (الخ) .. مملكتها تنتمى الى الحضـارات الضائعة » .. وحين تولى وزارة الثقافة فى فرنسا حقق انجازات هائلة فى الفن، ونشر الثقافة الفنية وانقاذ كثير من الكنوز وتشجيع الاعمال الفنيـة والفنانين .. لقد عهد الى الرسام الشهير شاجال مهمة رسم سقف الاوبرا في باريس، واشــرف على ترميم قصر فرساى الشهير، ونفض التراب عن كثير من اعمال الفن الرائعة فى اللوفر نفسه . ولقد كان يؤمن ـ كما يقول فى كتابه الضخـم « **اصوات الصمت** » بان الفن هو بمثابة الدين، وان كل فن انما هو ثورة ضد قدر الانسان ومصيره ونوع من الثأر من العالم المعادى، وان الفـن الاوروبى ليس يعد كل شىء سوى فن واحد ضمن فنون كثيرة لدى سائر البشر .

وربما كان ذلك هو ما دفع موريس بلانشو Maurice Blanchot الى ان يقول « انـا نعرف ان مالرو يهتم بفن التصوير والرسم ولكننا نعرف ايضا انه يهتم بالانسان » . وهذه عبارة لها مغزاها لانها تبين الى حد كبير اهتمامات مالرو، ولكن الاهم من ذلك انها تعكس العلاقة القوية بين الفن ومصير الانسان وقدره ـ او الوضع الانسانى على العموم ـ كما تظهر فى كتابات مالرو . وتتبع هذه العلاقة ومحاولة ابرازها هى التى تجعل من مالرو فى حقيقة الامر ليس مجرد روائى او دارس للفن، وانما تجعل منه فى الوقت ذاته مؤرخـا وباحثـا فى الحضارات والثقافات وبخاصـة الحضارات القديمة، والى حد ما الثقافات (البدائية بحيث تصطبغ بعض كتاباته بصبغة انثربولوجية واضحـة، وتجعـل منهـا مصدرا للمعلومات الاثنوجرافية الموضوعة فى قالب قصصى جذاب . ورغم اعجابه بانجازات الحضارة الحديثة فانـه يعتبرها مجرد حضارة واحدة ضمن حضـارات كثيرة عرفها الجنس البشري خلال تاريخه الطويل، تماما مثلما يعتبر الفن الاوروبى مجرد فن واحد ضمن فنون كثيرة .. « على الرغم من ان شبابى عرف الشرق شبيها بعربى عجوز يسير على حماره بينما يغط العالم الاسلامى في نومه الذى لا يقهر، فقد اصبح المئتا الف من سكان القاهرة اربعة ملايين، وبغداد تستبدل الزوارق البخارية بقوارب البوص والقـار التى كـان فلاحوها البابليـون يصطادون بها، وتاهت ابواب طهـران المطعمـة بالفسيفساء فى غمار المدنية كما تاهت بوابة سان دينيس .. امريكا تعرف منذ زمن بعيد المدن التى اطلقوا عليها اسم الفطريات (والتى تتسع وتنتشر وتتشعب فى كل مكان)، ولكن هذه المدن لم تكن لتمحو حضارات اخرى ولم تكن ترمز الى تحول صور الانسان » . (لا مذكرات) .

وبقدر ما كان مالرو يهتم بالحضارات القديمة التى اندثرت (وان تكن خلفت وراءها معالم حية تتمثل فى آثارها الرائعة كما هو الحال بالنسبة لحضارات مصر القديمة) بقدر ما يهتم بالاحداث الجارية فى المجتمعات المعاصرة على مختلف درجات تطورها . ومن هنا كان يمزج فى كتاباته بين الماضى والحاضر .. حضارة مصر القديمة، وما يمثله ابو الهول بحاضر مصر وما يمثله انقاذ معابـد

النوبة .. وهذا المزج الذى يسيطر على معظم كتاباته يتخذ اتجاهات ومتاهات مختلفة وبخاصة حين يتكلم فى رواياته عن تجربته فى الشرق الاقصى حيث اندمج في احداثه السياسية المعقدة ، بحيث نجد **ادموند ولسون** Edmund Wilson يقول فى عام ١٩٣٤ ان مالرو اسقط المشكلات الحضارية والثقافية بكمبوديا القديمة من اجل المشكلات السياسية الراهنة على ما فعل بالذات فى رواية « **الغزاة** » Les Conquerants التى تدور حول احداث الثورة الصينية ، وتعرض لهذه الاحداث بطريقة تدل على فهم ومعرفة وثيقة بها وبالقوى المتعارضة فى الصين الحديثة بوجه عام . ولقد قال **تروتسكى** Leo Trotsky عن رواية «الغزاة» « انهم يسمون هذا الكتاب رواية ، ولكن الذى اراه امامى فى واقع الامر هــو سجل تاريخى موضوع فى قالب خيالى للثورة الصينية خلال مرحلتها الاولى المعروفة باسم مرحلة كانتون » .

والمهم هنا هو ان ذلك المزج بين الحضارات القديمة والثقافات العديدة المعاصرة ، او بقول آخر الرحلة عبر الزمان وعبر المكان والتي تكشف فى مالرو عن روح المغامر الاثنولوجي او الانثربولوجى الى جانب روح المغامر الاركيولوجى انما تعكس فى آخر الامر الرغبة العميقة الصادقة فى فهم طبيعة الانسان ووضعه فى هذا الكون .

• • •

ولقد خضع مالرو لفترة من حياته ، وبخاصـــة بين عامى ١٩١٨ و ١٩٢٣ لتـأثير عالـم الانثروبولوجيا الشهير ليو فروبنيوس Leo Frobenius الذى كانت سمعته الدولية قد انتشرت فى كل انحاء العالم فى ذلك الحين . والمعروف ان فروبنيوس الذي ولد عام ١٨٧٣ كان قـد بدأ عددا من الرحلات في افريقيا ــ وبخاصة فيما كان يعرف حينذاك باسم الكاميرون الالمانية ــ امتدت حتى عام ١٩٠٤ ، وكتب عددا كبيرا من الكتب والمقالات حول الثقافات الزنجيــة ، ووجدت كتاباته صدى عميقا فى الاوساط العلمية واوساط المثقفين فى العالم قبل الحرب العالمية الاولى . وقد ترجم كتاب فروبنيوس **عن تاريخ الحضارة الافريقية** في نهاية الحــــرب العالمية الى اللغــــة الفرنسية ، وذلك فى الوقت الذى كانت فيه باريس تشهد انتشار موسيقى الجاز وتتعرف بعمق على فن النحت الزنجى . ومن هنا دخل مالرو الى هذا العالم (البدائى) بشعوبه وثقافاته وافكاره واساطيره وطقوسه وتعاليمه الغريبة عن الثقافة الاوروبية ، والتى تكشف على اى حال عن جوانب جديدة من الطبيعة الانسانية . وقد زاد ذلك من شغف مالرو بالرحلة والسفر والمغامرة للدراسة والكشف والمزيد من المعرفة .

ولقد شغل مالرو نفسه ببعض الافكار التى شغل بها فروبنيوس من قبـل وبخاصة المشكلة الرئيسية التى كان فروبنيوس قد اثارها حول : هل لفكرة الانسان اى معنى على الاطلاق ؟ ، وهو سؤال وجد كثيرا من الاهتمام وحاول الكثيرون الاجابة عليه ، وتراوحت اجاباتهم بين الـذين يرون أن الانسان ليس الا نتاجا للظروف الايكولوجية والاقتصادية والثقافية اى انه محصلة لعوامل وضرورات خارجية ، والذين يرون ان الانسان هو ما يفعل او ما يصنع كما ورد على لسان احدى شخصيات مالرو نفسه ، وليس نتاجا لما يصنعه الآخرون او يريدونه منه . فالانسان وليد ارادته ، وهى فكرة آمن بها مالرو ، ووجهت حياته وتفكيره وانتاجه ، بل وعلاقاته مع الناس واعجابه بهـم

وارتباطه بهم . وقد ظهرت هذه الفكرة بوضوح في روايته « **اشجار الجوز في التنبرج** » وان لم تخل منها كتاباته الاخرى التى تمجد اعلاء الارادة الانسانية على كل العوامل والقوى الخارجية التى لا يمكن انكار الدور الذى تلعبه ـ رغم ذلك ـ في تشكيل حياة الفرد . ولكن المشكلة التى يبدو انها كانت تشغل بال مالرو فى كل ما كتب هى ـ كما يقول هو نفسه ـ كيف يمكنه ان يساعد الانسان على أن يدرك ان فى استطاعته ـ وبدون ان يستعين بالدين ـ أن يبني عظمته على ذلك العدم الذى يكاد يسحقه .. وفى « **اشجار الجوز في التنبرج** » التى ظهرت عام ١٩٤٣ يقول :

« اننا نعرف انه لم يكن لنا حق الاختيار في ان نولد ولن يكون لنا حق الاختيار في ان نموت، مثلما لم يكن لنا حق اختيار آبائنا او امهاتنا . كذلك نحن نعرف اننا لا نستطيع ان نفعل شيئا حيال الزمن ، وان ثمة هوة واسعة عميقة .. تفصل بين كل فرد منا وبين الحياة الكونية . وحين اقول ان كل شخص يشعر بين جنباته بشعور عميق عن وجود القدر ، فاننى اعنى انه يحمل فى داخله شعورا عميقا ـ مأساويا فى بعض اللحظات ان لم يكن فى كل الاحيان ـ بموقف اللامبالاة الذى يقفه العالم منه » .

والواقع ان مالرو نفسه يقول عن شخصيات رواياته انها تقوم اساسا على فكرة الحاجة او الرغبة فى ترجمة نسق معين من القيم الاخلاقية عن طريق افراد معينين من الناس . ولذا كانت رواياته تزخر بالافكار ، بل وايضا بالمبادىء الانسانية والاخلاقية الراقية العميقة عن الانسان ووحدته ـ تلك الوحدة المفروضة عليه والتى لا مفر منها ولا علاج لها ، ولهفة الانسان الغريبة للتخلص من الزمن والانتصار عليه ، والتزامه بان يتحمل عبء الحرية والدفاع عنها بحيث يضحى بحياته في سبيل تلك المبادىء والقيم التى يعتنقها، فيتحدى الموت ، ويعتبر ذلك هو التوكيد النهائى للبقاء « الحقيقى » او الحياة « الحقيقية » .

● ● ●

فى بحثه عن ماهية الطبيعة الانسانية ومحاولته الوصول الى فهم اعمق للسلوك الانسانى اهتم مالرو اهتماما خاصا بنواحى العظمة ومظاهر النبل والسمو والتعالى فى السلوك ، باعتبارها اهم الملامح التى يجب ان تتوفر فى الشخصية الانسانية التى ترتكز على الارادة الحرة الطليقة التي يستعين بها الانسان فى صنع نفسه والتحكم فى مصيره وقدره . فهذه الملامح هى التى تتوفر فى الانسان الذى يقهر الصعاب ويتغلب على كل ما يصادفه من عقبات ، والذى يشعر شعورا عميقا بان له فى هذه الحياة رسالة يتعين عليه ان يحملها ويؤديها وينفذها ايا ما يكون ثمن ذلك .. ثم هو الانسان الذى يتمسك بشدة وقوة وايمان بوطنه ، ويعتز به كل الاعتزاز وخاصة حين يمر هذا الوطن بازمة شديدة كتلك التى كانت فرنسا تمر بها تحت وطأة الهزيمة والاحتلال . والمعروف انه حين عقد الروس والالمان اتفاقية عدم الاعتداء عام ١٩٣٩ نبذ مالرو افكاره اليسارية ، ثم قاد احدى فرق المقاومة اثناء الحرب العالمية الثانية تحت اسم (بيرجين) وانه التقى بشارل ديجول قرب نهاية الحرب، ثم تحول بعد ذلك الى الديجولية المحافظة ، وهى حركة قوبلت بكثير من الامتعاض والنقد والهجوم من المثقفين والمفكرين الفرنسيين الذين وصفوه بالانتهازية فقال لهم عبارته المشهورة

« لقد تزوجت فرنسا » . وفي اللامذكرات جملةعميقة الى ابعد حدود العمق وردت على لسان بيرجيه (مالرو) مخاطبا صاحبة الفندق الفرنسيةحين قدمت اليه بعض الخدمات البسيطة وأبدت نحوه قليلا من العطف بعد ان وقع فى ايدى الالمانايام المقاومة .. « اشكرك يا سيدتي ؟ لقد كنت رائعة .. كنت تشبهين فرنسا . » ثم هو يقول فيموضع آخر : « ان ما يهمنى فى اى انسان هو الحال الانسانية ، ويهمنى فى الانسان العظيموسائل عظمته وطبيعتها ، وفى القديس طابع قداسته ، وبعض الملامح التى تعبر عن صلةخاصة بالعالم اكثر مما تعبر عن الطابع الفردى » .

ومن الطريف ان عددا من النقاد لاحظوا انروايات مالرو تخلو من الشخصيات الشريرة حقا، لان الشر الحقيقى العميق المتاصل يتنافى معالعظمة والسمو والنبل والتعالى ، ولا يمكن أن يتوفر نوع البشر الذين يهتم بهم مالرو فى كتاباته،والذين يكرسون انفسهملصنع التاريخ وتغيير الوضع المؤلم للانسان ، والذين يتميزون بالبطولةوالعطاء والتضحية ويقفون من القضايا الانسانية موقفا ايجابيا بحيث يحملون عن غيرهم اعباءالحياة ، ويبعثون في نفوسهم الهدوء والراحة والطمانينة كما هو الحال بالنسبة لديجول مثلااو نهرو . وهذا النوع من الهدوء مختلف اشد الاختلاف عنالرضا بالواقع . انه الهدوء الذيينجم عن التحريض على رفض هذا الواقع ،والامل فى حياة اكثر اشراقا واكثر ابتساما ، والعمل مناجل ذلك .

وتتجلى هذه العظمة فى كثير من الافعالوالانجازات التى حققها اشخاص معينون يتميزون بالارادة الصانعة الخاصة . ويستشهد مالرو علىذلك بما كتبه سكوت Scott مثلا ،وهو يموت فى القطب الجنوبى « لقد فعلت ذلك لكى ادلك علىما يمكن للرجل الانجليزى ان يفعل » . كذلك الحال بالنسبة للذينذللوا طريقخيبر الذى يعتبرهمالرو احد الرموز او العلاقات الدالة على الارادة الانجليزية ويصفه بانه (طريق ملحمى) ويصفالذين ذللوه بانهم لم يموتوا وانما حفروا حقا وعن جدارة اسم انجلترا على هضبة البامير . ولقدكان ذلك الممر ميدانا لكثير من المعارك حين وقف الوطنيون هناك يهيلون جوانب من الهملايا علىالطوابير الانجليزية فيبيدونها ، ولم ينج من الابادة الا ملازم واحد . وحين سئل : اين الطابور ؟اجاب الملازم بروح الفكاهة وروح اسبرطة : « انا الطابور » .. فهذه اذن انماط من الشجاعةوالبطولة والتحدى والعظمة تهز النفس ، وتعتبر فى نظر مالرو المعيار الحقيقى الذى يجب ان يقاسبه الانسان العظيم .

• • •

ولكن هذه العظمة تتجلىبافضل واعلى صورها فى اثنين من الساسة وكبار قادة الامم فى العصر الحديث ، اولهما هو نهرو ، والثانى ، وربما كانفى نظر مالرو اعظم الاثنين ، هو ديجول .

لقد هزه من نهرو هدوءه ،وسكينته وموهبتهفي اسكات ما يسميه مالرو « قطيع البشر » حين ظهر اليهم نهرو بشخصيته القويةالمتفردة الهادئة. ولكن لعل اكثر ما اعجبه فيه هو ما يسميه أيضا « ميزة الانسان » ، لان الموهبة وحدها ليستكافية . ولقد ذكر له نهرو انه لا يزال مؤمنا بما سبق ان كتبه فى الماضى . « قيل ان العملاللاعنيف خرافة ، ولكنه كان هنا (فى الهند) هو

الوسيلة الوحيدة الواقعية للعمل السياسي . ولكل عمل سيء نتائج سيئة .. حتى في السياسة .. وهذا فيما اعتقد قانون من قوانين الطبيعة يضارع في صحته اي قانون فيزيائي او كيمائي » . ثم قال اثناء الحديث : ــ « كنت اذكر راماكريشنا وقوله (لا يمكن ان يظهر الله حيث تكون الكراهية او العار او الخوف) ، ولكنني اذكر ايضا غاندي وقوله (افضل للانسان ان يناضل من ان يخاف) » . فروح النضال كانت تكمن وراء اللاعنف ، واللاعنف لا يعنى ابدا السلبية او الاستسلام .. ولقد سجن نهرو ، ولم يكن السجن بالنسبة اليه مجرد حادث عابر كما هو بالنسبة لكثير من المناضلين ، وانما كان غاية .. ويذكر مالرو انه اثناء زيارته لنهرو وبعد العشاء اصطحبه نهرو عن طريق سلم حلزوني مع بعض كبار المدعوين الى مسرح صفير اقيم تحت الارض .. « وبعد ان جلسنا مال نحوى وقال (كان السجن بالنسبة اليك حدثا عارضا ، وكان بالنسبة الينا غاية . وكلما القى القبض على واحد منا كان غاندى يبرق الينا مهنئا . وفى تلك الايام كان يقول : تطلب الحرية بين جدران السجون واحيانا فوق اعواد المشانق ، ولا تطلب ابدا فى المجالس والمحاكم او المدارس ») ــ **لا مذكرات** .

الا ان الشخصية التى يبدو انها فاقت فى نظره في عظمتها وقوتها وجبروتها اى شخصية اخرى عرفها مالرو عن قرب كانت هى شخصية **الجنرال ديجول** ... رجل الفعل ، الذى يهب نفسه للقضية التى يؤمن بها .

وكانت هيبة ديجول او عظمته تتبدى بوجه خاص من تلك المسافة التى يشعر بها الناس دائما وهو بينهم حتى وهو يتلطف معهم ، وهي نوع من المسافة الفريدة التى لاتظهر بين ديجول وغيره ممن يحدثونه فحسب ، بل انها تظهر ايضا بين قوله وشخصيته ، وهى اشبه شيء بالمسافة التى يشعر بها المرء امام العقول الدينية الكبيرة التى تبدو كلمات اصحابها العادية وكأن لا علاقة لها بحياتهم الداخلية . الا ان هذه المسافة لاتعنى عدم وجود اتصال قوى بين ديجول ومن يحدثه ، ولكنه اتصال يصعب تفسيره نظرا لوجود تلك المسافة . اى ان ثمة اتصالا قويا رغم الشعور بهذه المسافة او ذلك البعد ، وهذا فى رأى مالرو مظهر من مظاهر العظمة الحقيقية . فديجول يفرض على الانسان الاحساس بشخصيته الشاملة ، ومع انه كان دائما سيدا مهذبا فى معاملة الآخرين ــ حسب تعبير مالرو ــ فان المرء كان يشعر دائما انه فى وضع الشخص الذى يتعين عليه تقديم كشف حساب له . « لقد رأيت جنرالا يحب الافكار ويحييها فى الطريق تحية لاتكاد تحس ... كل امرىء يشعر أمامه بالمسئولية لانه كان يتحمل المسئولية فى مصير فرنسا ... هذا المصير الذى استولى عليه وملأ حياته وفكره وكان لزاما عليه ان يكتشفه ويؤكده » . **(لامذكرات)** .

ويقارن مالرو فى **اللامذكرات** بين ديجول ونابليون ليبين مايقصد اليه فيقول : « ما ان يخلع الامبراطور دوره ، بل وفى بعض الاحيان وهو يتقمص هذا الدور ــ حتى يظهر نابليون السريع الغضب او الممثل ، زوج جوزفين ومدبر المقالب . وكانت الحاشية كلها تعرف هذا الشخص . اما الجنرال ديجول في حياته الخاصة ليس عند معاونيه بالرجل الذى يتكلم فى الشئون الخاصة ، ولكنه فقط الرجل الذى لايتحدث فى شئون الدولة ... لايرضى لنفسه الانسياق وراء انفعالاتها ولا التوانى عن ضبطها . وكان يتقبل عن طيب خاطر فى اثناء الحفلات او فى المناسبات التى يختارها

بنفسه أن يخوض فى حديث سطحى ، ولكن ذلك لايعدو ما تمليه عليه الكياسة التى لاتنفصل عن شخصه ... نابليون قد انزع جاراته ، اما الجنرال فهو فى راى جاراته متباعد وجذاب (جذاب معناها يحسن الاصغاء) لان هذا الرجل حتى وهو يحدثهن عن اطفالهن لايزال هو الجنرال ديجول ... » . بل ان مالرو يذهب الى ابعد من ذلك للتدليل على قوة شخصية ديجول كرجل أفعال حين يعزو اليه انه هو وحده الذى كان قادرا على انتشار فرنسا من وهدتها ومن الاضطراب السياسي والتخبط الذى وجدت نفسها فيه ، وانه كان يريد حقيقة ـ وحده ـ ان يقف فى وجه الدول الشيوعية بفرنسا اخرى قوية ومستقلة ، ويعترف بان الناس لم يكونوا يعرفونه ، وبخاصة في المستعمرات ، « فهو لم يضع شيئا لاستمالة قلوبهم ولا حتى معرفتهم ، وكان يمتلك من الهيبة اكثر مما يمتلك من الشعبية » .

• • •

فى الصفحة الاخيرة من رواية « **قدر الانسان** » يقول جيسور موجها حديثه الى ماى : « انت تعرفين هذه العبارة (لابد من تسعة أشهر لصنع انسان ، ويكفى يوم واحد لقتله) . وقد عرفنا ـ انا وانت ـ ماتنطوى عليه هذه العبارة من صدق بقدر مايمكن ان نعرف ... ماى ، اسمعى : ان الأمر لايحتاج الى تسعة اشهر فحسب ، بل لابد من خمسين عاما لنصنع انسانا ... خمسين عاما من التضحيات .. ومن الارادة .. ومن ... أشياء كثيرة ! وحين يتكون هذا الرجل ، وحين لايعود فيه شيء من الطفولة اوالمراهقة .. وحين يصبح رجلا حقا ـ لايصلح عندئذ الا لأن يموت » . (**ترجمة فؤاد كامل**) .وحين نضج مالرو واكتملت رجولته وتفكيره وكتاباته ، جاءه الموت فى نوفمبر ١٩٧٦ ، وهو فى الخامسة والسبعين من عمره .

وفى روايته « **الطريق الملكى** » La Voie Royale « يقول مالرو على لسان احدى شخصياته » ان مايثقل على هو ـ كيف استطيع ان اقوله ؟ ـ قدرى الانساني ، وقصورى وحدودي الضيقة ، وانه لابد لى من أن تتقدم بى السن واشيخ ، وان الزمن ـ ذلك الشيء الكريه ـ لابد من أن ينتشر فى كيانى انتشار السرطان » ـ وقد انتشر السرطان بالفعل فى رئة مالرو حتى قتله .

ومهما كانت الآراء فى مالرو وادبه وفنه وتفكيره بالذات في مواقفة السياسية اثناء حياته ، فقد شعرت فرنسا والعالم اجمع بفداحة الخسارة حين مات ، وخرج مفكرو فرنسا وادباؤها وفلاسفتها جميعا لتحية البطل الذى مات ، وشاركهم فى ذلك مثقفو العالم . وخرجت فرنسا عن بعض تقاليدها العريقة لتحيته حين اطلقت اسمه على المسرح الفرنسى الذى يقع امام مسرح الكوميدى فرانسيز الشهير ، وهو اجراء لم يسبق له مثيل فى الاغلب ، حيث تقضى التقاليد أن يمر خمسة اعوام على الاقل على موت اي شخص قبل ان يطلق اسمه على اى مكان عام ... ولكن مالرو لم يكن بالنسبة لفرنسا وللفكر وللثقافة مجرد « اى شخص » .

ولقد كتب الكثير عن مالرو اثناء حياتـهومنذ مات فى ألعام الماضي . والدراسات الاربعة التى نقدمها هنا قام بها ن لأول مرة فى تاريخ هذهالمجلة ـ اربع سيدات من المتخصصات فى الأدب الفرنسي الحديث ، وهذا اسهام جدي وجديديضاف الى تلك الكتابات العميقة التى ظهرت فى مختلف انحاء العالم حول الاديب الثائر المغامرالفنان السياسي اندريه مالرو . وهي تحية مـن المفكرين والمثقفين العرب الى أحد رجال الفكروالثقافة العالميين الذى اتيح له ان يعرف عن قرب بعـض ملامح الحضارة العربية فى بعـضمراحل تاريخها القديم او الحديث وان يكتب عنها بعمق وفهم وتقدير .

* * *

ضحى عبد العزيز شيحه

اندريه مالرو
التحول السياسي من الشيوعية الى الديجولية

ان الطريق السياسى الذى سلكه اندريه مالرو لم يكن طريقا سويا ، ولم يظل في اتجاه واحد ، فالرجل الذى كان يميل للعقيدة الشيوعية فى الثلاثينات من هذا القرن لم يلبث أن أصبح من أكبر معارضى ، بل ومحاربي الشيوعية فى وزارة الجنرال ديجول . هذا التحول الضخم لا يدل باى حال من الاحوال على ضعف أو تهاون من قبل الكاتب الاديب بل ياتى فى اطار مرحلة تطور ونضج اعمق واكبر .

لقد كان من رأى اندريه مالرو ان الوفاء المتحجر لا يمكن أن يعتبر دليلا من دلائل القيم وذلك على حد قول الكاتب الفرنسي **فيكتورهيجو** الذى كان قد كتب في مؤلفه **مذكرات احد ثوار ١٨٣٠** : « انه لثناء باطل أن يقال عن رجل ان اعتقاده السياسى لم يتغير منذ أربعين عاما فهذا يعنى أن حياته كانت خاليةمن التجارب اليومية والتفكير والتعمق الفكرى فى الاحداث . انه كمثل الثناء على الماء لركوده،وعلى الشجرة لموتها(١) » .

لقد كان لمالرو مكان ومواقف فى كل منعطفات هذا القرن . فقد اشترك فى الاحداث التى كانت نتائجها المرجوة لاحداث تغييرات هامة في مصائر الناس : « فقد كان فى شنجهاى عندما

---

(١) فيكتور هيجو ، مذكرات احد ثوار ١٨٣٠ ــ اكتوبر .

كان يتحدد مصير الكومنتنج ، وفى برلين لانقاذشالمان وديمتروف . وكان فى ميدلين معالطير الجمهورى ، وكذلك فى تولوز داخل احد معتقلات الجستابوحيثاطلقت القوات الفرنسـ بالداخل سراحه . وكان فى الالزاس على راسكتيبة الالزاس لورين التى كان قائدا لهـا المعارك وحرص على المحافظة على الكنائسوتتشد ، واخيرا كان مع ديجول عندما شـ حكومته(٢) » .

يعتبر اندريه مالرو الوحيد من بينالمفكرينالذى لم يكتف بالكتابة دفاعا عن قضية يؤ بها ، بل عمل ايضا فى سبيل هذه القضية .

لقد اراد مالرو أن يقاوم ما اعتبره عبثالوجود الانسانى ، والذى يتميز به مصيره الحياة ، والذى يحده الموت وينهيه . وقد كانمالرو دائم التفكير في الموت ، وقد كان ذلك شغله الشاغل . فقد خيم شبح الموت عليهطيلة حياته اذ راى الموت يختطف كل من احبهم فقد مات ابوه منتحرا فى عام ١٩٣٠ ، وقتلشقيقاه كلود وورولاند فى عام ١٩٤٥ ، كما قتـ ولداه في حادث سيارة فى عام ١٩٦١ .

وقد نتج عن انشغاله الشديد بالموت انحاول مقاومته بشتى الطرق والوسائل ووجد أن الانسان اثناء بحثه عن وسائل مقاومةالموت يستطيع مثلا أن يلجأ الى الدين والايمـ لمساعدته ، فهما قد يشكلان وسيلة فعالة في هذا المجال . لكن مالرو يرفض هذا العون مـ قبل الدين فهو يريد أن ينقذ الانسان من مصيرهالمحتوم بواسطة وسائل بشرية .

اتخذ الكفاح فى اعمال مالرو اشكالاوصورا مختلفة ومتعددة فذكر منها كفاحالمغام وكفاح الثائر ، وفى نهاية المطاف كفاح الانسانالواعى بمصيره كانسان . وفي روايته **«الفزاة»** اختار جارين (بطل الرواية) طريق الثورةلانه وحده الذى يستطيع أن يولد الاحساس بالكرامة الانسانية عند الجائعين البؤساء الذين يملاون المدن الصينية « والذين يقضى المـوت على دهشتهم من وجودهم فى الدنيا بعد أن عانوا طيلة ثلاثين عاما من الاصابة بالجذا والسل أو الزهرى وسط لا مبالاة لاحد لها من الآخرين (٣) » . كما تسمح الثورة بازالـ الاضطهاد الذى يمحو شخصية الفرد ، وفىنفس الوقت تساعد الثورة على خلق هـذ الكرامة التى لا غنى عنها للانسان .

« لكن هذا الطريق من وجهة نظر مالرويعتبر مرفوضا ولا يجب التفكير فيه فهـو ــ أى مالرو ــ وان لم يكن يخشى المخاطر التى يجلبهامثل هذا الارتباط الا أنه لا يوافق كلية على طرق العمل التى تترتب عليه(٤)» .

---

(٢) BIOSDEFFRE (Pierre de), Malraux, Editions Universitaires,Paris, 1969, 127 p. p. 70.

(٣) مالرو « الفزاة » ص ٢٨٠ .

(٤) MOSSUZ (Janine), Andre Malraux et le Gaullisme Paris, Armand Colin, 1970, 313 p. p. 17

بعد ان اختار طريق مالرو الثورة فى فترةما من حياته نجده يرفضه في النهاية ، لانـه لم يجد فيه الحل والعلاج الناجع لمأساة الانسان امام الموت القاهر ، ووجد أن الوسيلة المثلى للكفاح ضد هـذا العـدو القاهر هي أن يبصرالانسان ويرشـده ويوعيه بمصيره المحتوم . ويضع مالرو « الانسان نفسه فى مواجهة الموت فهو — أى الانسـان — بسبب وجوده وتفكيره كانسان ينفى عن نفسه حتمية مصيره«ويصبح»انسانا رافضا وعدوا قويا لقوى القدر(٥) » .

وتعتبر السياسة فى نظر مالرو هى المجال الامثل لممارسة الافعال التى تمكن الانسان من التعبير عـن نفســه وتاكيد وجوده . كمايعتبرارتباطه بقضية الشيوعية فى الثلاثينات ثم تحوله الى الديجولية اعتبارا من عام ١٩٤٥ مرحلتـين متتابعتين لهذا المسلك الطويل في الكفاح ضد عدوه **المـوت** وضد « موكب الضـغوط التى تلازمه ، مثـل الشر والاضـطهاد والعبـودية والقيود المتنوعة (٦) » وقد أثار مثل هذا التحول من جانب مالرو دهشـة الكثيرين ، كمـا أن الكثيرين اعتبروه تحولا جذريا ومتناقضـا من الشيوعية الى الديجولية .

وهنا نجد من الواجب علينا أن نطـرح سـؤالا يتبادر الى اذهان الكثيرين وهو : هل كان **أندريه مالرو بالفعل ماركسيا ؟** للاجـابة على هذا السؤال الهام نقول ان مالرو فى فتـرة الثلاثينات من هـذا القرن كان زميلا للثـوار الشيوعيين،وشارك فى معاركهم وتغنى ببسالتهم وأثنى على شجاعتهم فى كل من الصين والمـانيا وفي أسـبانيا .

ففى آسـيا كما هو الحـال فى أوروبـا« كان الشيوعيون دائما أول المضطهدين وأول من يشترك فى المعارك(٧) » وفى ذلك الوقت كان لزاما على كل مفكر واع وملتزم بقضية الحرية أن يساير الشيوعية اذا ما أراد أن يقاوم الديموقراطية البرجوازية او بالأحرى الفاشية » . (٨)

فمثل هذا المفكر يتبنى الشيوعية للوقوف فى وجه البرجوازية التي تفوح منها « رائحـة الموت » أو الوقوف ضد الاضطهاد الرأسمالي. وهكذا نجد أن جارين احد أبطال مؤلف الغزاة يقول « ومن المؤكـد اننى لا أشـعر تجـاه البرجـوازية التى انتمى اليهـا الا بالاشمئزاز والكراهية الشديدة ... واشعر فى أعمـاقي بأحقاد قديمة ضـدها وهى السبب الاول فى ارتباطى بالثورة(٩) » .

وفى رأى الناقد الفرنسى **روجيه ستيفان** ان مالرو « لم يرتبط بالشيوعية الا بقدر ماكانت النظرية الماركسية لا تتجـاوز مرحلة المنهـج الثورى وبقدر ما كان هذا المنهج يبدو بالنسبة

---

(٥) Ibid, p. 18

(٦) MOSSUZ (J.) op.cit., p. 19

(٧) GAILLARD (Pol.), Malraux, Paris, Bordas, 1970, 224 p., p. 176

(٨) Id,. Les Critiques de notre temps et Malraux, Paris, Garnier, 1970 191 p. Article de Roger Ste phane, Les Silences de Malraux, p. 126.

(٩) مالـرو : الغزاة ص

له وسيلة فعالة من وسائل التصدى للتخريب الفاشى(١٠) » ولكن أندريه مالرو لم يعتنق كليـة الفكـر الماركسى للثورة ونحـن نعتبـران راى جايتان بيكون اكثر حسما في هذا الشأن فهو يؤكد أن « فكر مالـرو لم يتوقف لحظـةعند « الحقيقة الماركسية (١١)» فهو لم يستبق من العقيدة الماركسية الاتهام التفاؤل البرجوازى والتنبؤ بهذه « الساعة الجديدة التي سوف تكون صعبة للغاية » والتى سـبق أن تنبأ بهارامبـو (١٢) « وهكـذا نجد أن الماركسـية لم تكن تشكل فى نظر مالرو دينا ولا عقيدة ،وانما كانت تشكل ارادة رفض عنيد ومتحمس للهزيمة . وكذلك تشكل أيضا احدى الوسائل الاكثر فعالية لكفاح الانسان ضد المهانة . وهذا يتفق مع ما يقوله كيو فى رواية « قدر الانسان »أعتقد أن الشيوعية سوف تعيد الكرامة وتجعلها ممكنة لكل من اناضل معهم « ويقول ايضا فى تعريف الكرامة انها » عكس أو نقيض المهانة(١٣)

« فالشيوعية اذا تعيد للانسـان الاحسـاس بالكرامة والخصوبة (١٤) »

وقد اكتشف مالرو أثناء كفاحه ضد عبث الوجود الانسانى ان الاخاء الانسانى هو اقوى حصن يمكن ان يقـام صد عدوه القدر وهـوحساس للعون النفسى الذى تجلبه المشـاركة فى قضية مشتركة للانسان الذى يعانى من ماساة العزلة .

فالشيوعية اذا فى نظر مالرو لا قيمة لها الا بقدر ما تقدم من قيم تحررية تمنح الانسان الاحساس بمسئوليته وذاتيته . ولكن الاسلوب الذى تطورت به الشيوعية فى الاتحاد السوفيتى فى الفترة من ١٩١٧ ــ ١٩٤٧ جعلت مالـرويجزم بافـلاس الشيوعية على الاقـل في هذا البلد . وتعلق على ذلك الناقـده الفرنسـية جانين موسوز فتقول « لاحظ اندريه مالرو انحدارا مظلمـا جعـل من الشـيوعية نظاما استبداديا مطلقا . فهو اذا يقاوم بشدة النظام الستالينى(١٥) »

وعلى ذلك عنـدما خانت الشيوعيـة أو الشيوعيون المبادىء الاساسية والانسانية التى فتنته ، وكانت سر انضمامه لها ، اعتبر مالروان تضامنه مع الشـيوعية قد انتهى وكان رد فعله غاية فى العنف ضد ما اعتبره « خيانة للآمال العريضـة وتغيـيرا للطبيعـة واسـتسـلاما لارادة الاسـتعباد » وهكـذا حين اصـبحت الشيوعية سلاح قمع وعدوان وأداة للطغيان ، وعنـدما بدت فى صـورة مضادة للفردية تمنع الانسان من أن يعبر عن نفسه بحرية ، بل أكثر

---

(١٠) Stephane (R.) op. cit. p. 126

(١١) PICON (Gaetan), Malraux par lui-memo, Paris, Editions du Seuil, 1955, 192 p., p. 91

(١٢) Ibid., p. 92

(١٣) مالرو : قدر الانسان ص ٢٤٢ ــ ٢٤٣

(١٤) مالرو : مقدمة عصر الاحتقار .

(١٥) Mossuz (j.) op. cit. p. 108

من ذلك تجعله يحتقر نفسه ويملؤه الخجل ،حينئذ قطع مالرو كل علاقة له برفاق الطريق القدامى .

• • •

وتظهر لنا بوادر الخلاف بين مالرووالشيوعية من خلال اعماله الروائية قبل القطيعة النهائية بينهما . فقد بدأت هذهالروايات تشكك من قيمة القضية السياسية وعلى الاخص القضية الشيوعية وتظهرها وكانهاتمثل تهديدا للحريةالشخصية للانسان . فنجد أن رواياته **الغزاة ، وقدر الانسان ، والامل** (١٩٣٧) تكون مجموعة من الاعمال تعلن كلها أن الانسان لا يستطيع ، دون أن يقلل من قيمتهكانسان ، أن يحرم من حقه المقدس فى الحرية .

وهذا ما يعكسه لنا حزن جارين واساهفي قوله « عندما أفكر انى كنت طيلة حياتى ابحث عن الحرية ... من يمكن أن يعتبر حراهنا منظمة العمل الدولية أو الشعب ؟ أنا أم الاخرين(١٦) » أما فى رواية « **قدر الانسان** »فنلاحظ أن آراء ابطالها حول قيمة الشيوعية متناقضة فى أغلب الاحيان ، فمثلا يجد كيو فىالشيوعية وسيلة للوصول الى الكرامة الانسانية ، وعلى النقيض من ذلك نجد أن كونجيعتبرها مرادفة للمهانة . ونجد ان كلا من بيني وهمرلش يرى في الشيوعية طريق الخلاص .بينما لا تجد فيها ماى الا تعبيرا عن التعصب الفكرى . وينتقد مالرو ايضا من خلال اعمالهالروائية استبداد الراى عند الحزب الشيوعى وهذا بالضبط ما تفصح عنه كلمات فلوجين فىرواية « **قدر الانسان** » حتى لو كنت من عمال شنغهاى فسيكون من رأيى أن الطاعة للحزبهى الموقف المنطقى الوحيد . وفى روايته «**وقت الاحتقار** » يندد مالرو بوحشية اى سياسةاستبدادية ، ولكن مساوىء الحزب الذى ينادى بتحطيم اى فكر فردى تظهر فى رواية « الامل » فيقول أن كل الذين لا يبدون الاستعداد لاعتناق ومسايرة السياسة الشيوعية محكوم عليهم ، كمايقول على لسان جلوكين «بالتغيير أو بالموت (١٧)»

ففى راى مالرو ان الحزب الشيوعي لا يتميز فقط بقتل الحرية الشخصية للفرد لكن بالاضافة الى ذلك فهو حزب انتهازى علىالرغم من استبداده بالراى . وتعكس رواية « الغزاة » ذلك فنرى أن برودين لا يتردد فيقبول أموال البرجوازية حتى يدفع لقواته روايتهم . وكذلك نجد فى رواية **قدر الانسان**أن فلوجين يقر صراحة بأن الحزب الشيوعي بستغل « الكومنتنج » **وشانج كاى شك**ويضحى بالمناضلين الشيوعيين فى شنغهاى . وتظهر لنا نفس هذه الروح الانتهازية حيث نفهم من كلام فلوجين أن الفرصة سانحة أمام الحزب لاستغلال **تشن** فى حالة ارتكابه محاولة اغتيال**شانج كاى شك** ويبدو اذا ان الانضمام الى الحزب الشيوعى يهدم كل مظاهر الاصالة فيالانسان .

ولابد لنا ان نشير فى هذا الموضع الى انهعلى الرغم من اطار اعمال مالرو الروائية يدور حول الثورة فلا يمكن بحال ان يقال ان مالروكان كاتبا ثوريا بالمفهوم الماركسى ، والدليل على

---

(١٦) الغزاة ص ١٨٩ .

(١٧) الامل ص ٢١٥

ذلك أن رواد حركة النقد الماركسي لم ينخدعوا بكتابات مالرو . ففي عام ١٩٣١ كتب تروتسكي بعد ظهور « الغزاة » ان مظاهر التعاطف من قبل الكاتب تجاه الصين الثائر لا يمكن التشكيك فيها ولكنها فسدت من المبالغات الذاتية والنزوة الفنية(١٨) « ويضيف تروتسكي » لو تفهم وتشبع الكاتب جيدا بالماركسية لكان من الممكن ان يتجنب المفارقات الحتمية التى من هذا القبيل (١٩) » وكتب عنه الناقد الفرنسي كلودروا فقال « ان فهم مالرو للماركسية غير عميق وانه من السهل ومن العدل اذا استرجعنا الماضي ان نجد فهمه غير كاف لها ، والذى يريد أن يتعرف على ماركس من خلال اعمال مالرو فسوف يجهل كل شيء عن تطور ونمو التحليل التاريخي ، وكذلك يجهل الطريق الذى ادى بماركس للتحول من المشاهد المذكورة فى اعمال مالرو الى العمل الثورى نفسه(٢٠)» اما جايتان بيكون فيرى أن « الثورة الشيوعية مرتبطة فى اعماله بالرمزية البحتة فقط وليس بالفحوى(٢١) »

وتقول جانين موسوز بعد أن بحثت عن الاسباب التى ادت بمالرو من زمالة الشيوعية الى القطيعة الكاملة مع الفكر الشيوعى أن هذه الاسباب ليست معروفة معرفة أكيدة .

ويبدو ان الاسباب التى دفعت مالرو الى أن يقاطع الشيوعية لا ترجع الى التفكير فى الآراء الفلسفية ، بل ترجع الى التفكير فى العوامل السياسية والاقتصادية والدبلوماسية المحددة . فهذا التفكير أوضح له عمق الخلاف وبعد الشقة بينه وبين الشيوعية . واعتبارا من عام ١٩٣٧ أصبح كل مفكر حر يعرف أن الاتحاد السوفيتي البلشفي يتحول الى دولة ذات حكم مطلق تشمل نظاما معنويا وتزمتا وطنيا ونظاما بوليسيا وتحقيقا تعسفيا وتعذيبا وقتلا (٢٢) »

لقد بدأ الاستبداد الستاليني واضحا للعيان ، ومع ذلك فلم يجاهر مالرو رسميا بشيء ضد الشيوعيين أو ضد الاتحاد السوفيتي بل حتى يصل به الحال لدرجة أن ينصح اندريه جيد بعدم نشر كتابه « العودة من الاتحاد السوفيتي » .

لكن سرعان ما تبدأ الحرب العالمية الثانية ودخلها الاتحاد السوفيتى منضما لمعسكر المانيا الفاشية وأصبح الاتفاق السرى بين ستالين وهتلر على تقسيم مناطق النفوذ واحتلال ستالين لدول البلطيق وفنلندا يمثل أسبابا كافية من وجهة نظر مالرو تعفية من اى التزام ، وهكذا انفضى الاتفاق المضاد للفاشية بين مالرو والشيوعيين واصبح مالرو حرا فى ان يقطع علاقاته مع الشيوعية .

---

(١٨) TROSKY (Léon), La Revolution Etranglee, in p. GAILLARD, Les Critiques......p. 38

(١٩) Ibid, p. 39

(٢٠) ROY (Claude), Le Marxisme de Malraux, in p. GAILLARD, Les Critiques......p. 118.

(٢١) Interrogation a Malraux, in Esprit, Octobre 1948

(٢٢) STEPHANE (R.) op. cit. p. 127

وقد قال مالرو شارحا التحول الذى طرأ على النظام السوفيتي واسباب زوال تعاطفه مع الشيوعيين « ان الايدلوجيةالاشتراكيةفي مقدمتها ماركس لم تلق بالعدل ابدا في سلة المهملات وعندما طلب مني الحزب الشيوعيان اتوجه الى برلين مع أندريه جيد لتسليم احتجاجات أوروبا كلها ضد الحكم علىديمتروف الذى كان بريئا من جريمة حرق المجلس التشريعى الالمانى فلم يكن الموضوع يخصالبروليتاريا وحدها (...) ولم نكن نناضل لنستبدل الرأسمالية بهذه القوة الرابعة التىآل اليها بوليس الدولة(٢٣) »

وهكذا أصبح مالرو يرى في الخمسيناتأن الخطر الحقيقى الذى يجب التصدى له ومواجهته قبل اى خطر آخر لم يعد الفاشية بل الستالينية ، أى الاستعمار السوفيتي ، الذى أصبح يهدد حرية الجميع . وكذلك منبين الاسباب الاخرى التى ادت الى القطيعة بين مالرو وبين الشيوعية موقف بعض الشيوعيينأثناء حرب المقاومة الفرنسية « فقد انتاب مالرو الشعور بأن الكثير منهم كانوا يحاولون الحصول من أعضاء المقاومة الآخرين على كل المعلومات التى يريدونها دون اى مقابل (أىدون مقابلة هذا الاجراء بالمثل (٢٤) » وهذا هو نفس ما صرح به للجنرال ديجول عندما قابله فيما بعد فقال له أن الشيوعيين يستفيدون من الموقف لصالحهم الخاص لكن دون الاشتراك فيه (٢٥) » .

لكن يجب علينا ان نلاحظ ان كل هذهالتحفظات التى ابداها مالرو تجاه الشيوعيين الفرنسيين لا يمكن أن تمثل حكما اجماليا أو كليافنجد أنه احيانا كان يمتدح بعض الذين قابله منهم أثناء المقاومة وكان يقول عنهم انهم رجالعظماء . واحيانا كان يراوده الحنين حين يعود بفكره الى اخوة الكفاح القدامى ، وهذا يبدو فيماكتبهعام١٩٤٥عند رجوعه الىالجبهة «أثناء عودتي الى جبهة القتال (...) كنت افكر في زملائيالشيوعيين باسبانيا وفي اسطورة البناء السوفيتي على الرغم من البوليس السياسى وفي الجيشالاحمر وفي المزارعين الشيوعيين في الكوريز لقد كانوا دائما مستعدين لاستقبالنا على الرغم منوجود الميلشيا ... » (٢٦) لكن هذا الحنين لرفاق الكفاح القدامى كان يتوقف عندما تصبحالعلاقة ليستبين شخص وآخر ، بل بين مجموعة ومجموعة اخرى .

واعتبارا من ذلك الوقت بدأ مالرو حملة الهجوم ضد الحزب الشيوعى الفرنسي لأن الشيوعية لم تعد تمثل في نظره الا نقيضا للديموقراطية وهذا ما صرح به « لا توجد ديموقراطية عظيمة الا في البلاد الاسكندنافية وفي البلادالانجلو ـ سكسونية أو بمعنى اصح في البلاد التى لا يوجد بها حزب شيوعي . » (٢٧) وانه منالآن فصاعدا سوف يقف في وجه اقامة أى حكم

---

(٢٣) CITEPAR G. PICON, Malraux par Lui meme, p. 96

(٢٤) MOSSUZ (J.) op. cit., pp. 49-50

(٢٥) مالرو اللامذكرات ص ١٢٩ .

(٢٦) مالرو : اللامذكرات ص ١١١٨ .

(٢٧) Cite, Par MOSSUZ (J.) op. cit., p. 107

شيوعى فى فرنسا ، وانه سوف يقاوم التلاحم بين حركة التحرير الوطنية والجبهة الوطنية « التي تسيطر عليها اغلبية شيوعية حتى لا يصبح مجلس ادارة المقاومة المتحدة فى ايديهم » (٢٨) ولمنع هذه السيطرة الشيوعية على حركة التحرير الوطنية فى فرنسا بذل مالرو اقصى ما يستطيع كعضو مجلس ادارة للوقوف ضد هذا التلاحم .وكانت العداوة للشيوعية فى ذلك الوقت تعنى اولا وقبل كل شيء العداوة للستالينية « بالنسبة لهؤلاء الرجال على حد قول مالرو فان الستالينية تعنى نقيض كل المعانى والقيم التى كانوا يناضلون من اجلها » . (٢٩)

وفى رأيه ان الستالينية قد خانت القضية الثورية « ان ثورة اكتوبر حاملة الامل العظيم قد غمرتها لأمد طويل موجة الحكم الاستبدادى»(٣٠)وتعبر « دعوة الى المفكرين التى وجهها عام ١٩٤٨ عن حزنه وخيبة أمله » لم يكن متوقعا أن الغد المشرق سيصبح هذا العويل الطويل الذى يأتى من بحر قزوين حتى البحر الابيض ، وان غنائهم سوف يتحول الى انين المساجين « ان الستالينية تعتبر اذا فى نظره جريمة بشعة ارتكبت ضد الفكر الانسانى . ومن ثم فان الشيوعيين الذين يمثلهم فى فرنسا الحزب الشيوعى الفرنسى يشكلون فى نظر مالرو أخطر اعداء البلاد الذين يهدفون للوصول بها الى الهلاك والدمار . ان هذا الحزب الشيوعى يمثل خطرا كبيرا ، ومما يزيد من خطورته انه ليس حزبا كسائر الاحزاب الاخرى ،بل انه عميل لقوة اجنبية هى الاتحاد السوفيتى. ويمكن القول ان انتقاده للنظام وللحزب الشيوعى وموجهيه ليس له اسباب ايدلوجيه فقط بل له اسباب اخرى ايضا اكثر خطورة . « فقد طرأ تغيير جعل من الستالينية ظاهرة تتعدى نطاق الحدود الروسية ذلك هو مولد قوة عسكرية سوفيتية حقيقية » (٣١) وعندما كان يفكر مالرو فى هذه القوة العسكرية التي يتمتع بها الاتحاد السوفيتى محاولا معرفة قدراتها كان يشعر بشيء من الخوف من أن تصبح خطرا على فرنسا.

وبناء على ما تقدم يمكننا القول بانه فى نضاله ضد الستالينية لم يفكر الا فى مصلحة فرنسا وانه لذلك سوف يتبع مبادىء **جارسيا** احد ابطال روايته **الامل** الذى قال « لا يمكن ان نتصور العمل الا مقرونا بأساليب العمل ، فليس هناك فكر سياسى الا عند مقارنة شيء مادى بشيء مادى آخر ومقارنة امكانية بامكانية اخرى » (٣٢) ولماكانت الامكانية الوحيدة المتاحة لفرنسا فى ذلك الوقت لمقاومة خطر اقامة الستالينية هى الديجولية فقد انضم اليها مالرو بقوة وكتب عن ذلك فى **اللامذكرات** « لن يستخدم الحزب الشيوعى المقاومة ضد الجنرال ديجول » .

عندما قابل مالرو الجنرال ديجول لاول مرة فى يونيو ١٩٤٥ قال له « ان الحدث الاول فى ميدان التاريخ خلال العشرين عاما الاخيرة هو اولوية الوطن » (٣٣) ونضيف نحن فنقول انه ان كان

---

(٢٨) مالرو : اللامذكرات ص ١١٤ .

(٢٩) مالرو : اللامذكرات ص ١١٦ .

(٣٠) MOSSUZ (J.) op.cit., p. 114

(٣١) MOSSUZ (J.) op.cit. p. 115

(٣٢) مالرو : الامل ص ٢١٦ .

(٣٣) مالرو : اللامذكرات ص ١٢٦ .

الحدث الاول بالفعل فقد كان ايضا الاكتشافالعظيم بالنسبة لمالرو نفسه ، والذى كان سببا فى بدء التزامه بالديجولية .

ويمكن القول انه عند التحول من الشيوعيةالى الديجولية مر بمرحلة انتقالية تمثلت فى اكتشاف الوطن . وكانت المقاومة هى التىهيات السبيل لهذه المرحلة الانتقالية فلم تكن حرب ٣٩ ــ ١٩٤٥ صراعا طبقيا ولكنها كانتنضالا ضد امبريالية اشد خطرا من غيرها لانها كانت فى نفس الوقت عنصرية .

وهكذا امتزج النضال فى سبيل العدل والحرية بالنضال القومى واشترك جميع المفكرين سواء منهم من كان من اليمين او اليسار فى هذا النضال ضد النازية فعلى سبيل المثال نجد ان اراجون وهو من الكتاب الشيوعيين يتغنى ويقول « حزبى اعاد لى الوان فرنسا حزبى حزبى شكرا لدروسك » (٣٤) ويقول مالرو « اثناءالمقاومة تزوجت فرنسا ولم اكن الوحيد » (٣٥) وقد بدت فرنسا فى نظرة فى هذه الفترة فى اجملصورها من الاخاء والتضامن « (....) كانت فرنسا تتمثل فى تلك الفلاحة التى تراك مارا وانت محاط بدورية المانية فتتصور أنها سوف تنفذ حكم الاعدام فتتقدم نحوك خطوة وتنظر اليكفتشير برمز الصليب فى منطقة لايذهبون فيها الى القداس (٣٦) . وقد ساعدت عدة عوامل علىظهور وطنيته الشديدة : أولها مشاهدته لموت زملاء النضال والجنود الذين استشهدوا علىأرض الوطن وكان من المستحيل أن لايؤثر ذلك فيه تأثيرا بالغا » وتحول حب الوطن الى وفاءلهؤلاء الرجال ووفاء للمتطوعين الذين حاربوا تحت قيادته « وكما كان لزاما عليه حتى يلغيفكرة مواجهة الموت أن يضع من الآن فصاعدا الوطن قبل كل شيء » (٣٧)

ومن بين الاسباب الأخرى التى ساعدت على ظهور وطنيته ما شاهده أثناء زيارته لالمانيا بعد الحرب ، وما رآه من مناظر الهدم ، فتصوربخوف شديد ما كان يمكن أن يحدث لفرنسا لو انتصر هتلر فقد كانمن الممكن انيصبح الوطنالحبيب « دارا شاسعة للموتى » (٣٨)

وهكذا نرى أن خوفه وحرصه على وطنه زادا من ارتباطه به فلأول مرة فى حياته يحارب مالرو على الأراضى الفرنسية وفى سبيل وطنهفرنسا « فى عالم اندريه مالرو سوف تبقى آثار هذا النضال الجديد لن تمحى ابدا ، وسوفيكونلوطنه منذ ذلك الوقت قيمة اكبر لم تكن له من قبل » (٣٩) وسوف تبدو له نتائج هذا النضالاكثر فاعلية لأنه كان يحارب لمصلحة وطنه وليس لمصلحة الآخرين » .

---

(٣٤) ARAGON (Louis) La Diane Francaise

(٣٥) مالرو : اللامذكرات ص ١٢٥ .

(٣٦) حديث ادلى به الى جابريل دوباريد . GABRIEL D'AUBAREDE

(٣٧) Mossuz (J.) op.cit., p. 35

(٣٨) Ibid, p. 36

(٣٩) Ibid, Loc. cit.

فهم مالرو فجأة فى ذلك الوقت سبب فشلت • أ • لورانس فى بلاد العرب وفشل بر
عند قبائل مويس وفشل « جارين » فى كانتون وفشل فانسان برجيه فى السهوب الأفغانية
« ان التهجين لا يجدى مـع الاجسام الغريبة فحتى اسبانيا الجمهورية اضطرت للانفصال
القوات الدولية التى ساعدتها بكل بسالة وكان ذلك أمرا صعبا عليها ويعطينا كل من ثوار
٩٢ والثوار الصينيين والجمهوريين الاسبان نفس الدرس وهو وجـوب العمل فى وطـن اا
نفسه قبل اى مكان آخر » (٤٠) وهذا نفس ما صرح به الكاتب لجانين موسوز أثناء حا
جمعهما بتاريخ ٢٢ أبريل ١٩٦٨ « لايمكن صناعة وطن الآخرين » (٤١)

**اذن فقد اكتشف مارو وطنه ونظرا لحرصه على مستقبله فقد بدأ يتساءل عن القوى ا
تتصارع داخله وكذا عـن مستقبـل النظـام السياسى الفرنسى** . واعتبارا من ذلك الو
فسوف يبدأ مالرو القتال والنضال فى ميدان آخر ليس ميدان المقاومة او الجبهة بل ميدان السيـ
واصبحت فرنسا من الآن فصاعدا هى الأهـم بالنسبة لمالرو ، واصبح للفكرة الوطنية والاك
بجانب شخصية بطل تمثل الامة قيمة خاصـة لديه فهى الوحيدة التى يمكن أن تدوم .

لقـد اصبح واضحا لمالرو فى عام ١٩٤٥ والاعوام التالية ان القوتين الحقيقيتين الوحيد
اللتـين تمتلكان الفرصة لحكـم فـرنسا همـا الديجولية والشيوعية . ولكن كما ذكـرنا
مالرو يرفض الشيوعية التى انحصرت فى ذلـك الوقت فى الصورة الستالينيه فقط والشيو
لا يمكنها انقاذ فرنسا بعد سنوات الحرب . ولكن الديجولية هى الوحيدة التى بوسعها انقاذه
فالشيوعية تبغى صراع الطبقات ولكن الديجولية تهدف الى « تجميعها » .

والجنرال **ديجول** هو الرجل الذى يستطيع ان يفرض على فرنسا سياسة تتمثل فى العظ
والحرية وهى السياسـة التى كانت تتبعها فرنسا على الدوام . فالديجولية اذاً فى نظر مالرو ت
وكأنها الامل الوحيد فى البقاء . وعلى هذا نراه يعـرف الديجوليـة للجنرال ديجـول فيقـ
« اثناء المقاومة كانت الديجوليـة فى نظري شيئا يشبه الاهواء السياسية فى خدمة فرنسا كنقي
لفكرة فرنسا فى خدمة الاهواء السياسية سواء كانت يمينيه أم يسارية وبعـد ذلك اصبحـ
شعورا بالنسـبة لى » (٤٢)

**ولكن السبب الرئيسى لتفرق الديجولية فى نظر مالرو هو انها كانت تمثل الاسطورة الوط
فالديجولية ليست عقيدة من السهل تعريفها مثل الماركسية او الفاشيـة ولكنها « حـركة سـ
وطنى » (٤٣) وارادة وطاقة .**

والديجولية كما يتصورها اندريـة مالرو « تجد مكانها فى التقاليد الوطنية الثورية بعـ
ميشليه وبيجي وباريس والجنرال ديجول ، نجد ان مالرو يتغنى بالثورة والوطن دون ان يفـر

---

(٤٠) Gaillard (Pol) Andre Malraux, p. 190

(٤١) Entretien avec J. Mossuz, 22 avril 1968

(٤٢) مالرو : شجر الزان الذى يقطع ص ٩٥ .

(٤٣) Carrefour, No. 195, Mercredi 31 mars 1948

بينهما » (٤٤) وتعتبر أيديولوجيته الديجولية ايمانا منه بقدرتها على اقامة عالم افضل ليس بمقدور احد غير شارل ديجول ان يبنيه ، اذ بالنسبة لاندريه مالرو فان الديجولية بدون ديجول « لايمكن تصورها » (٤٥)

ربما يبدو مفيدا أن تتوقف قليلا للبحث عن اسباب هذه الثقة الكاملة من قبل مالرو نحو شارل ديجول ترى متى وكيف تقابل الرجلان ؟

لقد قابل مالرو الجنرال ديجول لأول مرة فى باريس عام ١٩٤٥ وذلك على العكس من الحكاية التى روت انهما تقابلا على جبهة الألزاس لورين فى خريف عام ١٩٤٤ . وينفى مالرو نفسه هذه الرواية بقوله «ان المشاعر التى تربطنى بالجنرال ديجول قديمة على الرغم من الرواية التقليدية حول مقابلتنا الأولى والتى هى من نسج الخيال، فمن المؤكد ان الجنرال ديجول لم يقل عنى فى الالزاس العبارة الشهيرة التى قالها نابليون عن جوته (« اخيرا قابلت رجلا ») وذلك لسبب بسيط هو ان على جبهة الالزاس لم يحدث أن قدم الكولونيل برجيه (الاسم الحركى لمالرو) الى الجنرال ديجول » (٤٦)

حقا تمت محاولة تقارب بينهما فى نوفمبر ١٩٤٠ بعد هروب مالرو الاول من الاسر فقد كتب مالرو لرجل ١٨ يونيو (ديجول) يعوض خدماته كطيار ولكنه لم يتلق ردا على خطابه فاعتقد أن اشتراكه غير مرغوب فيه وذلك بسبب اشتراكه فى حرب اسبانيا . ولكنه فيما بعد اكتشف أن خطابه هذا لم يصل على الاطلاق الى الجنرال ديجول . ولكن فى ذلك الوقت ورغم ذلك كان مالرو قد فهم نداء رجل ١٨ يونيو (ديجول) الذى جاء فيه : « مهما حدث فان شعلة المقاومة لا يجب ان تخبو ولن تخبو » (٤٧)

ولكن قدر لمقابلتهم الشخصية الأولى ان تتم بعد ذلك بخمس سنوات أى فى يونيو ١٩٤٥ . وقد تمت أول محاولة تقريب بين الرجلين باسم فرنسا ، وقد أعطانا مالرو شرحا تفصيليا لهذه المقابلة الاولى وللظروف التى تمت فيها وللعوامل التي ساعدت على نجاحها وذلك فى مؤلفه اللا مذكرات . ففى ذات مساء اتصل به تلفيونيا شخص غامض لم يفصح مالرو عن اسمه أو شخصيته فى روايته وأبلغه ان لديه رسالة شفوية هامة يجب أن يوصلها له وطلب أن يقابله مساء اليوم نفسه . وبعد مضي بضع ساعات وصل الزائر الغامض وسأل مالرو دون سابق مقدمات أن الجنرال ديجول يسألك باسم فرنسا هل أنت على استعداد لمعاونته « وعلق مالرو على ذلك بقوله » كانت العبارة غريبة »(٤٨) وقبل مالرو الدعوة وانتظر تحديد موعد المقابلة الاولى مع الجنرال ديجول .

---

(٤٤) Mossuz (J.) op.cit. p. 135

(٤٥) Carrefour, No. 284, 23 Janvier 1952

(٤٦) مالرو ، اللامذكرات ص ١١٤ .

(٤٧) شارل ديجول ، خطابات وكلمات (١٩٤٠ ــ ١٩٤٦) ص ٤ .

(٤٨) مالرو اللامذكرات ص ١٢٣ .

وقد كشفت جانيين موسوز من شخصية هذا الزائر الغامض بقولها « يبدو ان الزائر الغامض لم يكن الا جاستون بفلسكى الذى تعرف واعجب بمالرو عند مقابلته عند كورنيليون مولينيه » (٤٩)

وبعد ذلك بايام تلقى مالرو دعوة لمقابلة الجنرال ديجول فى وزارة الحربية ، وتعلق جانيين موسوز على هذه المقابلة فتقول « من اللحظات الأولى ساد تفاهم حقيقي واتفاق عميق بين الرجلين (٥٠)

وقد بدا على الفور حديث غريب بين اندريه مالرو والجنرال ديجول ، فقد كانت كلمات الجنرال مختصرة وفى صورة اسئلة قصيرة كان يرد عليها الكاتب الفرنسى باسهاب ، ويبدو من وجهة نظرنا ان الجنرال كان يود معرفة « ماضى » هذا الرجل فى الفترة التي لم يكن يعرفه خلالها والتي كان يتوقف عليها مصير ومستقبل علاقتهما بعد ذلك . ويبدو ان مالرو فهم مايدور بخاطر الجنرال فنراه يرد عليه يشبع فضوله ويرضيه قائلا : « لقد تطوعت فى نضال من اجل العدالة الاجتماعية ان صح القول او لاكون اكثر دقة لاعطاء الانسان فرصته » (٥١) وكان مالرو حتى ذلك الوقت قاد النضال خارج حدود فرنسا الى ان جاءت بعد ذلك « **الحرب الحقيقية ثم بعد ذلك تلتها الهزيمة وكثيرين غيري تزوجت فرنسا** »(٥٢) وكانما نطق مالرو بالكلمة السحرية التي تفتح جميع الابواب وهي « **فرنسا وحب فرنسا** » ثم تناول الرجلان بعد ذلك بالحديث مسائل اخرى ، وادى اتفاقهما فى الراى وتلاقى وجهتى نظرهما الى زيادة قوة التفاهم بينهما .

لقد تحدث مالرو فى هذا اللقاء بافاضة فى المواضيع التى تحتل المكانة الأولى فى تفكيره ، وهى اكتشاف الوطن والشيوعية وخطورتها وموقف المفكرين ... الخ ولم يكن ديجول يقاطعه بالمرة رغبة منه فى اعطاء الكاتب الفرصة فى التعبير عن نفسه وعن آرائه وتصوراته وآماله بكل حرية .

وبعد أن تعارفا وزال الجمود وذاب الجليد بينهما وتلاقت وجهتا نظرهما واتفقا فى الراي بدآ يفكران معا فى الموضوع الذى يشغلهما ويسبب لهما الارق وهو مستقبل فرنسا ، فقال ديجول « لقد اعدت الجمهورية ويجب عليها ان تعيد بناء فرنسا » (٥٣) ومنذ هذا اللقاء فصاعدا فسوف يعمل الرجلان بكل جهد لتحقيق هذا الحلم المشترك .

شكل الجنرال ديجول وزارته فى يوم ٢١ نوفمبر ١٩٤٥ وكان مالرو وزيرا للاعلام بها ونجد لدينا فى اللامذكرات تعليقة على هذا المنصب الهام والدور الذى لعبه فيقول : « لقد كانت مهمة مفيدة وكان المراد منها بصفة خاصة منع كل حزب من ان يستغل الموقف لصالحه » (٥٤) ولقد كانت مهمة

(٤٩) Mossuz (j.) op.cit. p. 53

(٥٠) Mossuz (j.) op.cit. p. 53

(٥١) مالرو : اللامذكرات ص ١٢٥ .

(٥٢) مالرو : اللامذكرا ت ص ١٢٥ .

(٥٣) مالرو : اللامذكرات ص ١٢٥ .

(٥٤) مالرو : اللامذكرات ص ١٢٦ .

شاقة وعسيرة فى نفس الوقت لانه وديجول كاناعلى وعي بهـذا « التسابـق بين الاحـزاب على التضليل » (٥٥) وهو التسابق الذى سبب تحطيم الحلم الجميل الذى كانا يحلمان به وهو الوحدة الوطنية .

وفى ٢٠ يناير ١٩٤٦ ترك ديجول الحكم وهويتهم « نظام الاحزاب بالتحيز » وكما كان متوقعا فان اندريه مالرو ترك الوزارة فى نفس الوقت وتبعرجل ١٨ يونيو فى عزلته فقد كان محالا عليه ان يتصور الديجولية بدون بطلها شارل ديجول وقررالا يعود ابدا الى اضواء الحكم طالما ان الجنرال ديجول لم يعد للحكم مرة ثانية ويتنـاول مصير فرنسا بين يديه .

ولحسن الحظ ان الديجولين لـم يفقـدواالامل ابدا ، ورفضوا البقاء فى عزلة دون عمل او نشاط ، وكان هدفهم الذى وضعوه نصب اعينهم هو اعادة الجنرال ديجول الى الحكم . وحتى يتهيأ هذا الرجوع يجب عليهم أن يتحدوا فى « حـركةرائدة يجب ان تكون مختلفة عن التنظيمات الاخرى الموجودة وتكون مزودة بروح المقاومة ويجب عليهاان تحاول تجميع كل فئات الوطن تحت قيادة رجل واحد » (٥٦) .

كان هذا هو الحلم الذى يراود مالرو ايضا وللعمل على تحقيق ذلك نشأت حركـة تجميـع الشعب الفرنسى فى يوم ٦ ابريـل ١٩٤٦ وعـين مالرو مندوبا للدعاية بها . لم يكن العملاقان مالرو وديجول متفقين على طول الخط بخصوص الطرق والوسائل التى يجب ان يسلكها التجمع للوصول الى الحكم .

لقد حاول مالـرو ان يطبق المعادلـة التى اعطاها « لجارسيا » فى رواية **الامل** وهى « لاتوجد فكرة سياسية الا عند مقارنة شىء مادى بشىء مادى آخر او مقارنة امكانية بامكانية اخرى (...) وليس بمقارنة تنظيم برغبـة او حلـم تغيـيـر شامل » (٥٧)

وكان مالرو يتمنى ان يكون التجمع باعثا على تغيير شامل جديد ، ومع ذلك فقد حذره ديجول حينما تقابلا لاول مرة عام ١٩٤٥ قائلا « لاتـدع الامر يلتبس عليك فان فرنسا لاتريد ثورة بعد الآن فقد مضى زمن الثورات » (٥٨)

لكن كان هـدف مالـرو ان يكون التجمـع « حركة ثورية » تستولى على الحكم حتى لـو اضطرت الى استخدام القـوة والعنـف وان تاتى بسياسة اجتماعية . وعن ذلك تقـول جانـين موسوز « كـان مـالرو يكرس التجمع ليستولى فجـاة على الحكـم وان يحـرر فرنسـا المكبلـة بالقيود » (٥٩)

---

(٥٥) مالرو : اللامذكرات ص ١٣٦ .

(٥٦) J. Mossuz op.cit., p. 64

(٥٧) مالرو : الامل ص ٢١٦ .

(٥٨) مالرو : اللامذكرات ص ١٣١ .

(٥٩) J. Mossuz, op.cit. p. 67

ولكن كيف يمكن الوصول الى الحكم ؟

هناك امكانيتان يمكن استغلالهما للوصول لهذا الهدف أولهما احتمال قيام الحرب العالمية الثالثة والتى يكون الاتحاد السوفيتي مسئولا عنها ، وفى هذه الحالة يهب الديجوليون الذين فى الحكم لسد الطريق امام الشيوعيين . أما الامكانية الثانيـة فتكون بخلق موقف ثورى يهيىء السبيل لانقلاب يقوم به الديجوليون .

لكن تجمع الشعب الفرنسى جاء مخيبا لآمال كل من مالرو وديجول ، وبالتالي ابتعد عنه مالرو تدريجيا . اما اسباب انفصاله عنه وزوال المحبة تجاه هذا التجمع فهي عديدة . منها ان مالرو لم يتخل نهائيا عن حلم العدالة الاجتماعية ، وكان يتحتم على التجمع فى تصوره ان يرفع القيم التى يدافع عنها حزب اليسار بوجه خاص ، كما كان مالرو بالاضافة الى ما سبق يحلم بنظام ديجولي كريم وبرجال ديجوليين فى خدمة الانسان ، وكان يحلم برؤية الجنرال ديجول ملتفا حوله الرجال الذين قابلتهم منذ سنوات فى صفوف المناضلين ضـد الفاشية الذين حاربوا فى مقاومة الكوريز وكل من كانوا يكونون فى نظره شعبا بأكمله (٦٠)

هذا التجمع بعد ان غمرته اغلبية من حزب اليمين اصبح هو نفسه تجمعـا لليمين . وسبب آخر لنفور مالرو ولخيبة املة وهو غياب المفكرين الذين كان يحلم بتجمعهم حول ديجول . وفى عام ١٩٥١ رفض مالرو ان يكون ممثل تجمع الشعب الفرنسى فى الانتخابات التشريعية وبذلك الرفض عبر عن ارادته ورغبته فى قطع كل الصلات بينه وبين تنظيم لايرجو منه شئيا .

وفى عام ١٩٥٣ حل ديجول التجمع وسمح لزملائه بحرية التصرف كل حسب مايراه وهكـذا انتهى عمر تجمـع الشعب الفرنسي . وعنـدما تكلم عنه مالرو بعد ذلك بعدة سنوات فانه لم يخف مرارته قال «منذ ان بدأ فيه التجمع يتصرف كحزب مشابه للاحزاب الاخـرى فقد كـل معنى لـه فى نظـرى » (٦١)

ان اشتراك ومساهمة مالرو فى نشاط هذا التجمع ، وكذلك جهوده التى قام بها لانجاحـه تستحق منا كثيرا من الاهتمام . فقد كان مالرو بصفته كاتبا على حد قول جائين موسوز « الوسيط الامثل بين الجنرال ديجول ومجموعة من القراء المجهولين » (٦٢)

وقد حدد مالرو لنفسه المهمة التى يقوم بها ، وهى الكفاح لنشر الديجوليـة وفى نفـس الوقت فضح الشيوعية وسوف تتولى المجلة الشهريـة تحقيق هذين الهدفين اللذين سوف يكمل بهمـا التجمع وكانت هذه المجلة تسمى « حرية الفكر » وكان العنوان وحده يمثل برنامجا ومجاهـرة بالعقيدة . ولكن للاسف لم تـدم هذه المجلـة واختفت نهائيا عام ١٩٥٣ .

---

(٦٠) Mossuz (J.) op.cit., p. 89

(٦١) جاء فى جريدة الحدث « L'Evenement » عدد ١٤٨ ، السبت ١٨ فبراير ١٩٥٠ .

(٦٢) Mossuz (J.) op.cit., p. 74

وبصفة مالرو مندوبا للدعاية عن التجمع فقد اراد ان يرتبط بالديجولية فى مظاهرها « التاريخية » والعظيمة وكان تجمع الشعب لفرنسى يهمه بوجه خاص لانه يبدو كتعبير وقتى للديجولية » (٦٣) كما يجب على الديجولية ان تمثل « مدرسة طاقة » (٦٤) لكل الفرنسيين .

من اجل ذلك كان على التجمع ان يسلك طرقا مختلفة عن طرق واساليب الاحزاب الاخرى تتميز بانها مجردة تماما من الخسة والدناءة . ولكى يعمل على ايجاد اتصال مباشر بين الأمة باسرها والرجل الذى سوف يمثلها بدا اندريه مالرو حملات « السلام العام » التى كان يهدف من ورائها الى اثبات متانة وقوة الروابط التى تجمع بين الجنرال ديجول والشعب الفرنسى .

لكن كما ذكرنا من قبل لم ينجح الشعب الفرنسى فى اداء المهمة المحددة له طبقا لاحلام وآمال كل من الجنرال ديجول وصحبه من الديجوليين ، وبدأ اندريه مالرو يكرس وقته كله لكتابة اعماله الفنية العظيمة التي كان قد بدا العمل فيها عام ١٩٣٥ . واستمر كذلك حتى عاد ديجول الى الحكم فى مايو ١٩٥٨ فأسرع مالرو بالحضور اليه من فينيسيا وقال له ضاحكا « لدى شعور بأنى ذو فائدة » .

وللمرة الثانية نجد مالرو يقص علينا فى اللامذكرات لقاءه مع الجنرال ديجول فى باريس فى فندق لابروز . ويشرح عودة ديجول الى الحكم فيقول « لم تفارقه ابدا العزلة الشديدة التي تركها ليبدأ المفاوضات ، وكذلك ليتولى مصير فرنسا الذى كان يلاحقه منذ سنوات طويلة . لم يطرأ اى تغيير على حديثه الرصين مع هذا الظل . وفى هذه الايام التى كان يعتبر فيها الاشخاص الذين يطالبون بعودته بشدة فاشيين والتي كان فيها اكثر من يهاجمونه هم الشيوعيون والتي كانت فيها فرنسا محكوم عليها بتلاحم الاحزاب المستبدة لم يكن يفكر هو الا فى اعادة بناء الدولة » . (٦٥)

ولقد استمر اندريه مالرو وزيرا للثقافة فى حكومة ديجول حتى عام ١٩٦٩ . وظل التزامه بالديجولية يتسم بنفس الدرجة من الامانة والاخلاص النادرين والحق ان اخلاصه كان تاما فلم يحاول ابد خيانة التضامن الذى يربطه بالحكومة على الرغم من انه لم يكن يوافقها على طول الخط « ولابد ان سكوته فى بعض الاحيان وكذلك فى بعض المواقف كان شاقا عليه » . (٦٦)

كذلك اصبح مالرو المدافع الكبير عن الديجولية التى سوف تسلك « سياسة التاريخ » والتى تمثل فى نظره قيمة اكبر من « سياسة رجال السياسة » . (٦٧)

---

(٦٣) Mossuz (J.) op.cit., p. 78

(٦٤) جاء فى جريدة التجمع ، Le Ressemblement عدد ٥٣ ، السبت ٢٤ ابريل ١٩٤٨ .

(٦٥) مالرو : اللامذكرات ص ١٤٩ .

(٦٦) Gaillard (p.) Andre Malraux, p. 183

(٦٧) جاء فى جريدة التجمع Ressemblement ، عدد ١٤٨ ، السبت ١٨ فبراير ٩١٥٠ .

وظل مالرو يبذل ما في وسعه جاهدا لهدم الادعاءات التي يسوقها اعداء الديجولية . وكان يرد على الذين يتهمون النظام بالفاشية ورئيس الدولة بانه دكتاتور بقوله « ان الجنرال ديجول ليس فاشيا والدليل على ذلك انني معه ، ولدي اربع عشرة اصابة في سبيل الحرية » . (٦٨)

ولقد ادرك مالرو ببعد نظره وشفافيته ان سبب هذا الاختلاط بين الفاشية والديجولية يعود في المقام الاول الى عدائهما للشيوعية . ومن ثم فقد عمل على وضع تمييز بين هذين النظامين ، فقال ان لكلا النظامين عدوا مشتركا هو الشيوعيــة ولكنهما يحاربانه لاسباب متناقضة « فالنازية تحاربها لكونها شيوعية اما الديجولية فتحاربها لانها الستالينية » . (٦٩)

فعندما تكون الديجولية هي الحاكمة والسائدة فان ذلك يبشر ببدء عصر جــديد هــو عصر الأمل ، ولسوف تولد فرنسا من جديد ولسوف تعود الى صورتها الحقيقية . ولكن لكي يتم تحقيق ذلك كله فيلزم كما اوضــح مالــرو ان يتعــاون الفرنسيون ويتكاتفوا ويتحدوا ويجمعوا صفوفهم حتى يبدأوا بناء وطنهم من جديد وفقا لاساليب العالم الحديثة .

لقد ظل اندريه مالرو في الوزارة بجوار الجنرال ديجول بصفته وزيرا للثقافة وذلك حتى عام ١٩٦٩ . لكن عندما سقط ديجول في الاستفتاء بعد احداث مايو ١٩٦٨ ترك الحكم . ومثلما حدث في المرة الاولى تبعه وزيره وصديقه الحميم في عزلته دون اى تفكير او تردد .

وهكذا ينتهي فصل من حياة ديجول الحافلة ويسدل الستار على تدخله في تاريخ فرنسا بعد ان ترك بصماته وآثاره التي لن تنسي . ويشرح ديجول بنفسه الدور الذى لعبه بالنسبة لوطنه فيقول « لقد كان بيني وبين فرنسا عقد (...) لقد كان عقدا دون ما سند من حق ورائي وبدون استفتاء وبدون اى شيء على الاطلاق ، لقد كتب على ان آخذ على عاتقي الدفاع عن فرنسا وكذلك الدفاع عن مصيرها ، ولقد استجبت الى ندائها الصامت والآمر الذى لا يحتمل الرفض » . (٧٠) لقد كانت فرنسا متسلطة على ديغول ، كما كانت البروليتاريا متسلطة على لينين وكما كان الحال بالنسبة لماو والصين ونهرو والهند (...) . لقد تزوج ديجول من فرنسا قبل زواجه من ايفون فاندرو » . (٧١)

وربما يفسر لنا ما سبق السبب الرئيسي لهذا الاتفاق القوى الذى لم يشهد اى صدع ولم يمر بفترات فتور والذى جمــع بــين الرجلين العظيمين لمدة تجاوزت العشرين عاما والذى بدأ منذ مقابلتهما الاولى في عــام ١٩٤٥ . وتعتقــد جانين موسوز ان مقابلة الرجلين كانت اشبه ما تكون بمقابلة « رجلين يشعران بالوحدة والعزلة ، رجلين يميز بينهما وبين سواهما توفــر موهبــة التنبؤ لديهما ، رجلين استبعدا بسبب ذكائهما التنبؤى . لقد كان ينتاب كلا منهما شعور غير

(٦٨) محاضرة القاها مالرو في ساوباولو ، يوم ٢٦ اغسطس ١٩٥٩ ونشرت بجريدة لوموند يوم ٢٨ اغسطس ١٩٥٩ .
(٦٩) مالرو ، شجر الزان الذى يقطع ، ص ١٩ ــ ١٨ .
(٧٠) مالرو ، شجر الزان الذى يقطع ، ص ١٩ .
(٧١) مالرو ، شجر الزان الذى يقطع ، ص ٢٠ .
(٧٢) Mossuz (j.) op.cit., p. 55

عادى بالعظمة ، وكانا يبحثان على الدوام عن هذهالعظمة وبفضل ذلك كانـا متشـابهين » (٧٢) وينسب « بييردى بوادیفر » أسباب هذا التوافقوالانسجام بين الرجلين الى ما اسماه « عزلـة متشابهة وشغف متشابه بالافعال التي تتسـمبالعظمة » وكذلك الى تمتع كل منهما بنفس قوة الارادة وقوة الاحتقار . (٧٣)

• • •

على ضوء ما تقدم يمكننا اذا القول بأن العزلـة المشتركـة هى التي قـربت بين الرجلين .
فمن جهة كان شارل ديجول يقف وحيدا فى عالمالتاريخ وربما كان نداء ١٨ يونيو « بمثابة اعلان لهذه الوحدة القاه الى كل من يريد أن يضمهمالى عالم التاريخ هذا ».(٧٤) ومن جهة اخرى كان اندريه مالرو يقف وحيدا هو الآخر حتىعندما كان فى وسط الزحام وهو يناضـل مـع الآخرين ، وحول هذا المعنى تقول جانين موسوز« أن انضمامه الى هذه المعارك كان يحتوى على صفة ميتافيزيقية ملحة كان الهدف من اقحامنفسه فى قضية اجتماعية هو أن يتحدى الموت وينكره ويتغلبعليه . وهكذا نظرا لعدم استطاعتهان يمزج اهدافه بأهداف الآخرين فقد ظل وحيدا وسط الجماعات الاكثر التئامـا ، والحشـودالأشد ازدحاما » (٧٥) وعلاوة على هذه الوحدة التى جمعت بينهما يمكننا ان نضيف صفة اخرىمشتركة ايضا بينهما هى الحلم بالعظمة والرقى وهي صفة تعتبر من اشد عوامـل تفاهمهمـا .ومصداقا لذلك نجد انمالرو كتب فى اللامذكرات « الذىيهمنى (...) فى اىرجلعظيم هىالوسائلالتى توضح عظمتهوطبيعة هذه العظمة » (٧٦) .

لقد فتن كل من الرجلين بقوة شخصيـة الآخر ، كما وجد كل منهما لدى الآخـر نفس الموقف الاخلاقى تجاه الاحداث التي دافع عنهابقوة . وحول ذلك تقول جانين موسوز أن « كلا منهما قد جعل من الارادة التى بمفردها تساعد على الفعل مبدأ أساسيا » . (٧٧)

لقد وجد كل من ديجـول ومالـرو عنـدالآخر تجسيدا للآمال والاحلام التي كان ينشدوها دون الوصول اليها .

وتضيف الكاتبة الفرنسية فتقول « لقدقابل اندريه مالرو رجلا (نقصد ديجول) علـى الرغم من انه كتب فانه قد نجح فى فعله وأوصلهالى النهاية المرجوة (....) ومن ناحية اخرى فقد قابل ديجول رجلافعال استطاع ان يجعل منأعمالـه الروائيـة عالمـا مطابقـا لعالـم القـرن العشرين » .(٧٨)

---

(٧٣) Boisdeffre (p.de) op.cit., p. 7
(٧٤) Mossuz (j.) op.cit., p. 55
(٧٥) Ibid, Loc. Cit.
(٧٦) مالرو ، اللامذكرات ، ص ٢٠ .
(٧٧) Mossuz (j.) op.cit., p. 55
(٧٨) Ibid, p. 56

لقد بدا ديجول بالنسبة لمالرو منذ اول لقاء بينهما كرجل استطاع ان يحقق احلامه « اما بالنسبة لمالرو فقد اكتشف رجلا عظيما » . (٧٩)

ولم يقتصر الامر على ما سبق ذكره فقد عزا نقاد آخرون قاموا ببحث أسباب التفاهم التام بين مالرو وديجول الذى كان مثارا للاعجاب الى موقفهما الموحد ضد الشيوعية أو الستالينية.

ويجدر بنا ان نذكر هنا جزءا مما كتبه مورياك فى جريدة الفيجارو : « عندما كان باريس (BARRES) فى الخامسة والعشرين من عمره ممثلا لحزب بولنجييه بمدينة نانسى كان دوره يتلخص فى ان يقوم باتباع حصان أسود ورجل ذى لحية شقراء يرتدى الزى العسكرى ، أما مالرو وهو فى عنفوان الشباب فنجده يرتبط بقائد يعتقد انه ليس بقادر على تغيير المصير الفرنسى فحسب بل ايضا على منع تحقيق أطماع ستالين فى اوروبا .

فى الواقع ان كفاح هذا الرجل الذى يمكن ان نقول عنه انه مثل سيدنا داوود غير مرتبط باى سن او زمان كان كفاحا موجها قبل كل شىء ضد ستالين العظيم . لقد كان يحارب ستالين اكثر من انه كان يحارب مع ديجول .

هل ينبغى ان أقول ما أفكر فيه صراحة ؟ أننى اعتقد ان اندريه مالرو كان يتميز بشىء من الكبرياء لدرجة انه يعتبر ديجول ورقة تعضد لعبته » (٨٠)

هذا ورأى نقاد آخرون فى المعاونة بين فانسان برجيه (Vincent Berger) وآنفر باشا فى رواية « شجر الجوز فى اللالتنبرج » تجسيدا مسبقا لما سوف يكون عليه التعاون بين مالرو وديجول بعد ذلك .

فنجد برجيه يقول فى رواية **شجر الجوز فى الالتنبرج** « انه من الصعب علينا الآن نظرا لقوات الوقت ان نؤثر على الاحداث لذا لا يمكن الااستخدام رجل ، وهذا الرجل لا يمكن الا أن يكون آنفر باشا » . (٨١)

ويعلق جايتان بيكون على ذلك قائلا « علينا ان نستبدل اسم آنفر باشا باسم ديجول وربما سوف نتوصل الى فهم شخصية وتفكير مالرو بالامس » . (٨٢)

اما بيير دى بوادفر فيقول ان مالرو تبع الجنرال ديجول كما تبع « برجيه » آنفر باشا ، وذلك لكى ينتزع من ايدى افراد مقاومة سبتمبر ورجال السياسة فى الجمهورية الرابعة فرنسا التى كانت مفككة ومشتتة التفكير » (٨٣)

---

(٧٩) Ibid, Ioc. cit.

(٨٠) Mauriac, article parudans le Figaro, cite par Gaillard (p.) Les critiques.- p. 14

(٨١) مالرو ، شجر الجوز فى اللالتنبرج ص ١٤٦ .

(٨٢) Cite par Gaillard (p.) Les critiques......p. 109

(٨٣) Boisdeffre (p.de) op.cit., p. 20

وبالنسبة لجورج مونان فمن رايه أن مالرو قد وجد فى ارتباطه بديجول والتزامه بالديجولية الفرصة التى كان يحلم بها لكى يلعب الدور الذىقد يتمناه فكتب « وهو نفس مالرو الذى أعطى الى بركن فى رواية **الامل** تلك الصرخة الصادرة عنشخصية انسان ذي طموح بسكالى : « اريد ان اترك اثرا على هذه الخريطة » والذي يمكنه أنيفهم شخصية الرجل العسكرى الذى كانت كلمته الاخيرة فى مؤلفة **حد السيف** تعد مدحاوتعظيما لاصحاب الطموح الكبير الذين لا يجدون سببا للحياة سوى أن يتركوا آثار بصماتهم علىالاحداث » . (٨٤)

ويذكرنا هذا التوافق الفكرى التام بين الرجلين باساطير القرون الوسطى الشهيرة وبالصداقة التى تربط الامير بشاعره والسيدبفارسه . وسوف تتغلب الصداقة والتفاهم المتبادل بين ديجول ومالرو على جميع العقبات ،وسوف تواجه الفشل وخيبة الامل والمصاعب بشتى انواعها ، ولسوف يظل مالرو وفيا علىالدوام لديجول ، وكان الاخير واثقا كل الثقة انه اذا تخلى عنه الناس اجمعين فسوف يبقى مالروعلى الدوام بجانبه ولن يتخلى عنه ابدا .

لقد قرن مالرو وديجول مصيرهما معا ،وذلك لانهما أرادا ان يجسدا مصير فرنسا ، وفى اعتقادى ان السبب الحقيقى للصداقة والتفاهموالترابط بينهما يكمن فى هذه الظاهرة . وهذا يوافق ما عبر عنه مالرو نفسه عندما كتب بعدزيارته الطويلة لديجول فى كولمبى فى ديسمبر ١٩٦٩ « أيها الليل اهبط ببطء تحوطك زوبعةالثلوج . هذه هى نهاية زمن هذا الرجل وزمنى. نهاية زمن مسيرة غاندى نحو المحيط ليجمعالملح ، ومسيرة ماو نحو التبت ليستقبل الصين » (٨٥)

● ● ●

اذا خطر لنا أن نحاول اكتشاف الجنرالديجول فى اعمال مالرو لوجدنا انه ظهر فيها ثلاث مرات ، ونجد أن الكاتب حاول فى كل مرة أن يحدد ملامح القائد وتعبيراته ويسجلها ، وهكذا اكتملت لدينا صورة حية للجنرال ديجول منخلال ثلاث فترات متباعدة . كانت المرة الاولى خلال اللقاء الاول بين الكاتب و « رجل ١٨ يونيو»فى عام ١٩٤٥ . وجاءت المرة الثانية بعد ذلك خلال المقابلة الثانية التي سجلها الكاتب فىاللامذكرات عام ١٩٤٨ . اما المرة الثالثة فقد وقعت فى ديسمبر ١٩٦٩ . ونلحق ان النقاد تداعطوا اهمية كبيرة لصورة ديجول فى اعمال مالرو وذلك باعتبارها انعكاسا لصورة الجنرال فى مخيلةالكاتب ، وحول هذا الموضوع يقول بول جايار « كان الجميع يرتقبون الصورة التى سوف يبدوبها ديجول فى كتابات مالرو ولم يخيب الظن فقد بدا بسيطا للغاية ووقورا ودقيقا لا يقبل اىتجاوز » . (٨٦)

وفى الفترة التي امتدت من لقاءهما الاول فىعام ١٩٤٥ وحتىعام ١٩٦٩ تكتمل الصورة وتعطى لنا نموذجا للجنرال ديجول فى صورة حية ومعبرةوجذابه فى نفس الوقت .

---

(٨٤) Mounin (Georges) article in P. Gaillard, Les critiques......p. 109

(٨٥) مالرو ، شجر الزان الذى يقطع ص ١٤٩ .

(٨٦) Gaillard (P.) A. Malraux, p. 151

قبل اللقاء الاول بين الرجلين لم يكن ديجول في نظر مالرو الا بطلا لاسطورة ، ولكن بدون ملامح محددة ، وفجاة يتجسد بطل الاسطورة امامه فاراد مالرو لاول وهلة ان يثبت كل شيء بواسطة الكلمات فكتب بعد اللقاء « لقد كنت احتفظ فى ذاكرتى بصورة محددة عن وجهه فحوالي عام ١٩٤٣ اراني رفائيل (Ravanel) وهو احد قادة المجموعات غير النظامية صورة له ، وكانت صورة نصفية وصلتنا بالبراشوت ولم نكن نعرف أن الجنرال ديجول كان طويل القامة لهذه الدرجة (....) فحتى عام ١٩٤٣ لم نكن نعرف وجه الرجل الذى نحارب تحت قيادته »(٨٧) لقد نظر الكاتب الى وجه القائد ولم يغب شيء عن نظره وبعد مفاجأة اللحظات الاولى حاول مالرو ان يكتشف الشيء الذى يميز وجه الجنرال فكتب« لم اكتشفه ولكنى اكتشفت الشيء الذى يجعله مخالفا للصورة ، فقد كان الفم فى الحقيقة اصغر والشارب اكثر سوادا ونجد ان الذى اثر بشدة فى نفس مالرو هو« النظرة النفاذة المركزة » . (٨٨) ثم تزداد الصورة اكتمالا باضافة بعض التفاصيل الصغيرة بعد المقابلة الاولى بعدة سنوات وذلك فى المقابلة الثانية التى تمت فى عام ١٩٥٨ فنجد ان مالرو يعود بذاكرته الى ديجول الذى قابله فى المرة الاولى ويلاحظ على الفور التغيرات التى طرات على ملامحه فكتب بعد ذلك يقول « لم يكن شاربه الذى ظهر فيه الشيب واضحا وكان فمه ممتدا بتجاعيد عميقة حتى الذقن » ثم يضيف مالرو « ربما يجلب التاريخ قناعة معه » (٨٩) لقد ترك الزمن بصماته على ملامح القائد هذه الملامح التى زودت بمسحة من « الطيبة الظاهرة ولكنها ما زالت وقورة (...) . كانت كلماته وتعليقاته تنم عن الذوق واحيانا عن روح الدعابة وعندئذ كانت العين تصغر وتلمح وتستبدل النظرة العميقة لبرهة وجيزة بعين الفيل بابار»(٩٠)

ثم يتم الجزء الثالث من صورة الجنرال ديجول نتيجة المقابلة التى تمت فى ديسمبر ١٩٦٩ فقد كتب مالرو عنها قائلا « ان عناء الايام الاخيرة من الحكم قد اختفى (...) كانت قامته الطويلة التى انحنت قليلا الآن تملأ فراغ الحجرة الصغيرة التي كانت تدفئها النار المشتعلة فى المدفأة » (٩١) لقد كان مالرو ملاحظا لادق التفاصيل ولم يفته شيء ونجده يضيف « لقد اكتشفت وانا اشد على يده الى اى حد كانت يدا هذا الرجل الطويل القامة صغيرتين ودقيقتين » (٩٢) وقد جعله هذا الاكتشاف يتذكر الزعيم الصيني ماوتسي تونج اذ حسب قوله كانت « ايدى ماو المحترقة من الماء المغلى تبدو كأنها ايدى شخص آخر » . (٩٣)

وهكذا فما بين اللقاء الاول فى عام ١٩٤٥ الذى سجله مالرو فى **اللامذكرات** وحتى اللقاء الاخير عام ١٩٦٩ نجد أن ملامح ديجول وصورته تفرض نفسها علينا حية ومثيرة للمحبة .

---

(٨٧) مالرو : اللامذكرات ص ١٢٥ .

(٨٨) مالرو ، اللامذكرات ، ص ٢٥ .

(٨٩) مالرو ، اللامذكرات ص ١٤٢ .

(٩٠) مالرو ، اللامذكرات ، ص ١٥٠ .

(٩١) مالرو ، شجر الزان ، ص ١٧ .

(٩٢) مالرو ، شجر الزان ، ص ١٧ .

(٩٣) مالرو ، شجر الزان ، ١٧ .

هذا ولم يكتف مالرو بتحديد وتسجيل ملامح رجل ١٨ يونيو ولكن اراد ان يعرفة لنا كما عرفه هو واحبه فنجده يكشف لنا عن جوانب شخصية ديجول من خلال اقواله عموما ومن خلال صمته خصوصا الذى يبدو اكثر لباقة ، وهكذا يكشف الجنرال ديجول عن نفسه بنفسه ، وكما حدث بالنسبه لصفات الجنرال الجسمية فسوف نجد ان طباعة واخلاقه هى الاخرى سوف تتطور من لقاء الى آخر او على الاصح من حديث لآخر .

نجد فى عام ١٩٤٥ ان شخصية ديجول فرضت نفسها على مالرو بسبب ما اسماه « شكل صمته » (٩٤) ففى اثناء هذا اللقاء لم يتكلم ديجول بل كان يوجه الاسئلة ولكن ليس بالاسلوب الفاتر العابر الذى يميز الاستجوابات بأسلوب آخر متميز قال عنه مالرو « انه يجب دقة الفكر ويمكن أن نتكلم بخصوص ديجول عن نوع من البعد الداخلي لم أجده فيما بعد الا عند ماوتسي تونج» (٩٥) لقد كان صمت الجنرال يبدو وكأنه تساؤل موجه الى محدثه . وقد ثبت فى ذهن مالرو منذ اللقاء الاول ذكرى هذا البعد الداخلى فكتب عنه يقول « هذا البعد الغريب كان يبدو وكانه ليس فقط بينه وبين الشخص الذى يتحدث اليه ولكن بين قوله وطبيعته هو أيضا » (٩٦)

لم تكن أقوال ديجول تكشف شيئا من حياته الشخصية ، وكانت شخصيته القوية تفرض نفسها على محدثيه وتحدث ما اسماه مالرو بالحضور المركز وهو مالم يجده الا عند « الشخصيات الدينية العظيمة (...) ولهذا السبب فكرت فى المتصوفين عندما تحدث (ديجول) عن الثورة » (٩٧) كان ديجول يفرض « الشعور بشخصية كاملة وكان لكلامه » الوزن الذى تعطيه المسئولية التاريخية لبعض التصريحات البسيطة جدا »(٩٨) .

ان كل هذه التعليقات التي دونها مالرو بعد اللقاء الاول لا تكشف شيئا عن ذاتية ديجول ، فهي لم تكشف له الناحية الشخصية من هذا الرجل الاسطورى .

لقد تمكن اندريه مالرو من خلال المعيشة لمدة طويلة بجوار القائد أن « يتعود على بعض السياق الفكرى وعلاقة ديجول نفسه بالشخصية الرمزية التى يسميها ديجول فى مذكراته أو بالأصح التى كتب مذكراتها حيث لا يظهر شارل أبدا (٩٩) فقد حرص ديجول على أن يخفى حياته الشخصية ، وعمل على أن يظل دائما الجنرال ديجول الرجل الاسطورة وذلك حتى بالنسبة لأقرب المقربين اليه من زملائه وأعوانه ومساعديه ، فلم يكن باستطاعة المحيطين به ان يدعوا أبدا انهم يعرفون «الرجل الخاص» الذى يمكنه أن يتحدث عن موضوعات شخصية ، اذ لم يكن يترك ابدا شخصيته الأسطورية أى الجنرال ديجول . وعن ذلك الأمر يقول مالرو فى اللامذكرات « لقد كان يبدو للجميع فيما عدا أفراد اسرته كصورة مهذبة لشخصيته الاسطورية (١٠٠) ولقد عمدت

---

(٩٤) مالرو ، اللامذكرات ، ص ١٣٤ .
(٩٥) مالرو ، اللامذكرات ، ص ١٣٤ .
(٩٦) مالرو ، اللامذكرات ، ص ١٣٤ .
(٩٧) مالرو ، اللامذكرات ، ص ١٣٤ .
(٩٨) مالرو ، اللامذكرات ، ص ١٣٥ .
(٩٩) مالرو اللامذكرات ص ١٥٠ .
(١٠٠) مالرو اللامذكرات ص ١٥١ .

مذكراته الى استبعاد شخصية شارل كلية ولم تظهر الا ديجول فقط ، والسبب فى ذلك فى رأى مالرو يسترعي الانتباه فهو يقول « لان الحياة هي التى شكلت شارل أما القدر فهو الذى شكل ديجول (١٠١) . فشارل اذاً انسان عادى صنعته الحياة بحلوها ومرها كأى انسان آخر ، أما ديجول فهو شيء آخر مختلف تماما ، فهو الرجل الاسطورى الذى أعده القدر وشكله ليتحمل المسئولية الضخمة مسئولية تغيير مصير فرنسا وانقاذها .

لقد لاحظ مالرو أثناء مقابلته للقائد عام ١٩٥٨ أن ديجول يمتاز بالروح العسكرية التى تتبعها فكرته عن الفعل . وفى رأيه أن تكوينه العسكرى قد أثر على فكره والدليل على هذا أنه ينظر الى الحكومة « كأداة نضال فى سبيل تنمية فرنسا » (١٠٢) ثم يسوق لنا الكاتب دليلا آخرا يتميز به غالبية الرجال العسكريين المتمرسين بالحياة العسكرية وهو سرعته فى صنع القرارات « لأن القرار التاريخي لا يمكن فصله عن الوقت الذى صنع فيه » (١٠٣) . نستخلص من ذلك أن حياته العسكرية قد لعبت دورا هاما فى تشكيل شخصيته كقائد اسطورى .

ثم يلتقى الرجلان وجها لوجه : رجل كان له تأثير ضخم فى التاريخ لا يمكن أن ينسى ، وكاتب كان دائم الاخلاص له وكان يعتبره القائد والقدوة والمثل الذى يحتذى ، وظل على رأيه هذا طوال حياته ، ويحاول مالرو فى هذه المرة الثالثة والاخيرة أن يسجل هذا اللقاء أيضا فى عمل أدبى لا ينسى يقول عنه الكاتب والناقد الفرنسي جان جروجان « ان هذه الصفحات تكشف أكثر من أى اعترافات عن ديجول من الداخل نرى فيها جوانب فكره وروحه كما كشفها لصديقه وهو يتقدم نحو نهايته » (١٠٤) . وسوف يؤكد لنا مالرو ذلك شخصيا وذلك فى مقدمة كتابه « ان كل ما يقوله الجنرال ديجول هنا يكشف عن شخصيته وأحيانا عن نواح سرية (١٠٥) لقد اراد مالرو هنا أن يصور لنا لأول مرة ديجول الرجل وليس ديجول القائد وذلك على خلاف سابق نهجه . لقد أراد كما صرح فيما بعد « أن يعطى صورة من الجنرال ديجول داخل التاريخ وخارجه ... لم أهتم بصورة فوتوغرافية لقد حلمت بعمل للجريكو ، ولكن ليس عملا من جريكو يكون الموديل فيه من صنع الخيال » (١٠٦) .

تعتبر هذه المقابلة الثالثة التى رواها لنا مالرو أكثر ألفة ، فقد كشف فيها ديجول جانبا أكبر من طبيعته الذاتية ومن حياته الخاصة عندما كان يسترجع بعض الذكريات العائلية ، ورغم كل ما ذكره ديجول نجد أن مالرو يستخلص فى نهاية الأمر أن من المستحيل معرفة جوانب شخصية شارل الخاصة من خلال الحديث مع ديجول فيقول « لقد كان يعبر عن مصير فرنسا وكان لا يزال يعبر عن هذا المصير حتى عندما كان يعلن عن انفصاله عن هذا المصير . ان الألفة مع ديجول

---

(١٠١) مالرو اللامذكرات ص ١٥٣ .

(١٠٢) مالرو اللامذكرات ص ١٥٥

(١٠٣) مالرو اللامذكرات ص ١٥٥ .

(١٠٤) Grosjean (Jean) Les Chenes qu'on a bat Preface.

(١٠٥) مالرو ، شجر الزان الذى يقطع ص ١١ .

(١٠٦) مالرو ، شجر الزان الذى يقطع ص ١١

لا تعنى جواز الحديث عن شخصه لأن ذلك يعتبرموضــوعا محرما على العكس من الحديث عن فرنسا (...) أو الموت » (١٠٧) .

لقد قال مالرو يوما لصديق له « ان قوةالجنرال ديجول تكمن فيما فعل وفيما يفعل » . ان جزءا كبيرا من هيبة وقــوة الجنرال ديجوليأتى من أعماله وقت الحرب والمقاومة وهــو ما يسميه مالرو « ما فعل » .

لقد حافظ مالرو طوال حياته على تســجيلهذه الناحية الهامة من شخصية رئيسه ، ولقد اعتبر الجنرال ديجول قدوة ومثلا للبطل القوميالذى يجب ان يحتذى ، فهو وحده الذى استطاع أن يواجه العدو بجراة وشجاعة دون خــوف اومواربة ، وهو الذى استطاع على حد قول مالرو أن يقول « لا للعدو وللخيانة دون تباطؤ أو مراوغةمنذ اليوم الأول » (١٠٨) .

لقد احس مالرو بحساسيته وشفافيته منذاللقاء الاول بينهما عام ١٩٤٥ أنه قد اكتشــف اخيرا الشخصية الحقيقية التى كان دائما يحلمبلقاءها ويتطلع الى العمل بجوارها . لقد كــان ديجول يمثل وقتئذ أســطورة الوحدة الوطنيةلمعظم الفرنســيين ، وكان بالنســبة لمالرو يمثل شيئا أكبر ، وفى ذلك تقول جانين موســوز عنديجول « كان يمثل اســطورة ولكن لديه ايضــا ســمات الابطـــال الذين فتنوا مالرو طـــوالحياته » (١٠٩) .

لقد رفض ديجول الاحتلال والعدوان الالمانىمن اليوم الاول وهب بشــجاعة منقطعة النظير للدفاع عن وطنه الحبيب فرنسا الذى كان يئنمن ضربات العدو المجرم. لم يقبل ديجــول أن تموت فرنســـا أبدا فكيف تموت وهى غنيــةبرجالها من حوله . منذ الأيــام الاولى للاحتلال جمع كل الفرنسيين الذين « يريدون ألا تموتفرنسا » .

ولكى يتمكن من تحقيق هذا الهدف النبيلالذى كان يعد حلما فى ذلك الوقت غامر ديجول بكل شيء وضحى بالنفس والنفيس فى ســبيلوطنه . لقد كانت فرنسا على الدوام هى شغله الشاغل ولا شيء غيرها ، لقد تزوج ديجول منفرنسا على حد تعبير مالرو المفضل وكان دائما يمثل مصيرها .

لقد تجسد أمام مالرو أثناء اللقاء الاول ماذكره بوضوح فى اللامذكرات حول ديجول فوصفه بانه « الرجل الذى اراد أن يتحمل مســئوليةمصير فرنسا وهو رجل تسيطر عليه فكرة ثابتة . رجل يشغل فكره فقط هذا المصير الذى استطاعأن يكتشفه واراد ان يعبر عنه » (١١٠) وهكذا من نص كلام مالرو نكتشف بســهولة ويسر انمصير فرنسا قد اقترن بمصير الرجل الذى التقى

---

(١٠٧) مالرو ، شجر الزان الذى يقطع ص ١١

(١٠٨) مالرو ، خطابات تابين ص ٢٦ .

(١٠٩) Mossuz (j.) op.cit., p. 271

(١١٠) مالرو ، اللامذكرات ، ص ١٢٥ .

به فى اول لقاء بينهما عام ١٩٤٥ ولقد كان هـذااللقـاء بحق لقاءً تاريخيا انعكسـت آثاره على الصداقة التى ربطت بينهما بعد ذلك .

ثم تمضى الايام والسـنون مليئة بالمحن والخطوب ، ها قـد مضى ما يربو على العشرين عاما على اللقاء الاول وبدء الصداقة بينهما فنجدمالرو يتساءل عما يمثله ديجول ليس للفرنسيين فحسب بل للعالم الثالث أيضا ، ثم يجيب أنديجول كان يمثل بالنسـبة للفرنسـيين الذين استجابوا وانضموا له والتفوا حول رايته « أحدالرجال الذين بدونهم تكون فرنسا مختلفة عما هي عليه ، أما بالنسبة لشـعوب العالم الثالثالتى تكافح الاستعمار وتتطلع الى الاستقلال فقد جسد ديجول الاستقلال (...) لقد أعاد فرنساالـى صـورتها التى أحبتهـا فى المـاضى دول كثيرة (١١١) لقد بدا ديجـول بالنسـبة لمالروكتحقيق للأمانى التى كان يحلم بها كل الفرنسيين، فهو بطل من أبطال التاريخ كما أن « مجده مرتبطبالمشاعر التى جمعها » (١١٢) .

يتضـح لنا من أعمـال مالرو القيمة أنديجول كان واعيا تماما لنفسه ولقيمة عمله فنجد انه يقول لمالرو « لم يكن ما أقوله هو المهم بل كانالامل الذى أحمله معى هو المهم لقد أعدت وجود فرنسا لأنى أعدت أمل العالم فى فرنسا » (١١٣)ومن هذا المنطلق فقد سمى ديجول الجزء الأول من مذكراته « مذكراتا الأمل » .

لقد كان شـارل ديجول يمثل دور المنقذبالنسبة لفرنسا الذى حمل مسئوليتها كما سبق وحملتها البطلة الشهيرة جان دارك وكما حمل كل المنقذين مسئولية اتباعهم . ولقد بدا هذا الرجل وكأنه رائد لحركة دينية فقد أعاد بناء فرنسـاابتداء من العقيدة ، وفى ذلك يقول مالرو « ان اى عقيدة تشتمل على ارشاد ربانى فى سـبيلالمسيح أو فى سبيل فرنسا تعتبر معدية للغاية ، ان ايمانه بفرنسا لم يكن كافيا ليصبح الجنرالديجـول ولكن بدونه لكان منتصرا دخيـلا على المنتصرين الحقيقيين ، أو مهزوما تميز بشىء منالبسالة » (١١٤) .

ان رجل ١٨ يونيو يبدو فى نظر اندريه مالرومثالا للمفكر صانع الاحداث الذى اسـتطاع ان يفكر ثم يحقق عملا عظيما ، وقد تطابقت افعالهمع أفكاره ونجد أن « الرجل ذو الشخصـيـة » الذى يتحدث عنه ديجول فى كتابه « حد السيف »هو نفسه الذى سيصبح قائدا لفرنسا الحرة بعد ذلك .

ان اعجاب مالرو بديجول كان لا حد له ،كان ديجـول يمثل أعظم شيء بالنسـبة له ولفرنسا فقد جاء فيه فى مؤلفه « شجر الزانالذى يقطع » انه « آخر رجل عظيم سوف يشغل فرنسا » (١١٥) وهو يجد مكانه فى صفوف أعظمرجال العالم ولقد كرر مالرو عـدة مرات مكانة ديجول بين الرجال العظماء فى العالم فيقول مرة« كان الجنرال ديجول الرجل الوحيد الذى يمكنه

---

(١١١) مالرو ، شجر الزان ، ... ص ٤٠ .
(١١٢) مالرو ، شجر الزان ... ص ٤٠ .
(١١٣) مالرو ، شجر الزان ص ١٢٣ .
(١١٤) مالرو ، شجر الزان ص ٣١ .
(١١٥) مالرو شجر الزان ص ١٥١ .

ان يأخذ مكانا بعد غاندى وماوتسى تونج وآخرين فهو وحده الذى يمثل الاسطورة القومية » (١١٦) وهذا الشعور نحو ديجول هو ما أحس به مالرو منذ البداية . ففى عام ١٩٤٨ عندما كان يعمل مالرو مندوبا للدعاية لتجمع الشعب الفرنسي كتب فى جريدة التجمع « منذ ثمانى سنوات واجه رجل تسيطر فرنسا على فكره جميع الاصوات التي ادعت انها اصوات الواقع والعقل واجهها بقوله « لا » التى تحدد من بعدها تاريخ بلادنا » (١١٧) واخيرا نجد فى اللامذكرات بعد لقاءهما الأول ما أحس به مالرو وأعجب به وشده برباط لا ينفصم الى ديجول فيقول « **لقد كان مطابقا لاسطورته** » (١١٨) .

ان الشيء الذى كان يضايق دائما العديد من قراء اندريه مالرو الذين كانوا فى وقت ما من اشد المعجبين بأدبه وبأعماله الروائية هو انضمامه لتجمع الشعب الفرنسى R.P.F. ثم اشتراكه فى حكومة الجنرال ديجول التي كانت بعيدة فى نظرهم كل البعد عن اليسار . ونسوق هنا بعضا مما عبر عنه ايمانويل مونييه Emmanuel Mouniea فى مجلة الفكر عام ١٩٤٨ عن هذا الموضوع فقال « حقا اذا كان مالرو كما يؤكد فى كل مناسبة وكما تدل قيمة أعماله ما زال مخلصا لعقيدته السابقة فان موقفه اليوم ليس سهلا (١١٩) . لقد كان الاعتقاد السائد فى فرنسا وقتئذ ان مالرو قد قطع الصلة بما كان يعتبره قدوة ومثلا فى سنوات شبابه ، وكذلك قطع الصلة وتخلى عن الافكار التي جعلته يشترك فى كفاح المناضلين بالصين واسبانيا ، ومن هنا جاء الاتهام الموجه الى مالرو بانه قد تحول بسهولة من اليسار الى اليمين وانه انضم الى « الحزب المضاد » وكان البعض قاسيا ومتطرفا فى حكمه على مالرو الى حد ادانته بالاتجاه فى طريق نهايته المحتومة وهي الفاشية . والأثر الغريب الذى زاد من قسوة اتهامهم له هو أن اندريه مالرو لم يحاول من جانبه قط أن يدحض هذه الافتراءات والشبهات التي حامت حوله ، ولم يحاول ابدا أن يبرىء نفسه أو يدافع عنها وهو ما نراه غريبا فى رأينا .

• • •

بعد هذه الدراسة التفصيلية للفكر السياسي عند اندريه مالرو يمكننا القول بان التطور الايدولوجي عند الكاتب يمكن ان يتصف بالاتصال وليس بالقطيعة كما ادعى البعض من اعداءه . وذلك لان الاتجاهين اللذين سلكهما فى التزامه السياسي وهما اليسار ثم اليمين يحتويان على اوجه تشابه لا يمكن تجاهلهما وانكارهما ، فاذا ماقمنا مثلا بمقارنة مبادىء الشباب بمبادىء فترة النضج الفكري نجد ان هناك اشياء كثيرة تدل على الاخلاص الفكرى لمبادئه فعندما أصبح اندريه مالرو المتحدث (الشاعر) باسم تجمع الشعب الفرنسى ونظمه ، وعندما انضم كلية للديجولية لا يصح أن نقول انه قد قطع اتصاله بمثالية شبابه . ونجد أن اليساريين الذين كانوا فى فترة ما رفاق طريقه وعلى نفس دربه لا يفهمون جيدا مغزى عمله وتعاونه مع الجنرال ديجول . ويعود سبب هذا الفهم الخاطىء الى الصورة غير الصحيحة التى كانت مأخوذة عنه واعتباره رجلا ثوريا فى البداية ثم شيوعيا انضم الى صفوف الماركسيين وانخرط فيهم .

لكن فى رأينا أن اندريه مالرو على وجه اليقين لم يتوغل ابدا فى طريق الماركسية المظلم فهو لم ينضم مطلقا الى الحزب الشيوعي الفرنسي وعندما وقف يوما يناضل بجوار بعض افراده خلال الثلاثينات كان هدفه هو مقاومة الفاشية فقط .

---

(١١٦) مالرو شجر الزان ص ١٥١ .

(١١٧) جريدة التجمع Le Ressemblement عدد ٦٢ ، ٢٦ يوليو ١٩٤٨ .

(١١٨) مالرو ، اللامذكرات ص ١٣٥ .

(١١٩) Cite par Moossuz (j.) op.cit., p. 264

لم يكن مالرو ابدا خائنا لعهد قطعه على نفسه تجاه الشيوعيين كما انه لم يحنث أبدا بهذا العهد وعندما صار ديجوليا لم يتخل عن آماله وأمانيه التى عبر عنها فى أعماله « قدر الانسان » و « الامل » . وفى رأيى أن جايتان بيكون كان محقا فى قوله عن هذا الموضوع « فى حالة مالرو تبدو لى القطيعة مع الشيوعية وكأنها توصل الى الوحدة والمخاطرة وليس للسهل (...) فلقد كان مالرو مع الشيوعيين فى الوقت الذى كان فيه من الصعب على المرء أن ينضم اليهم ، ولقد تركهم فى الوقت الذى كان فيه من السهل على المرء أن ينضم اليهم » (١٢٠) .

ان محاولة مالرو للشيوعية لم تكن فى يوم من الأيام صدى أو انعكاسا لليمين الكلاسيكى فلقد انفصل هو نفسه عن تجمع الشعب الفرنسى عندما اصبحت تسيطر عليه أغلبية من اليمين . كما يمكن القول أن محاربته للشيوعية لا تشبه محاربة «القوة الثالثة» لها ولا يمكن ابدا تلخيصها فى مجرد ادانة الحزب الشيوعي الفرنسي . ويرجع السبب الرئيسي لمعاداته للشيوعية الى انها لم تعد تعمل على تحرير الانسان كما كانت تدعى ، فقطع صلته بها أى أنه قطع صلته بأيدلوجية لم يعد لها معنى بالنسبة له ولكنه فى نفس الوقت لم يتخل أبدا عن مبادئه الاساسية وظل محافظا عليها ومتمسكا بهـا .

وهكذا يبدو لنا أن افكاره فى مرحلة الشباب لا تتناقض مع افكاره فى مرحلة نضجة بل تكملها وعن ذلك تقول جانين موسوز « من وجهة نظر مالرو تبدو الديجولية فى صورتها التي يشعر بها وبدافع عنها وكأنها تحقق ثلاثة مطالب هى الحرية والاخاء والسلطة (...) فالديجولية هي وحدها التي تسمح باقامة الحرية الحقيقية (...) وتعنى الديجولية الاخاء أيضا (...) الاخاء بين المواطنين المتحدين والمتجمعين فى صورة شعب واحد . واخيرا فالديجولية كما يتصورها مالرو هي ظهور السلطة فى المكانة الاولى على مسرح الاحداث ، وأن السلطة التي تعطى لرجل هي الوحيدة التى يمكن أن تكفل حرية الافراد ، وهى الوحيدة التى يمكن أن تقدم المثل الاعلى الذى يجب أن تعمل من أجله كل الطاقات (١٢١) اذا فقد بدت له الديجولية وكأنها الصيغة الوحيدة التي تستطيع أن توجد وتحافظ على الاخاء بين افراد الشعب الفرنسي ، وقد بدا ديجول لمالرو كالرجل الوحيد القادر على « اعادة بناء فرنسا » اذا فلم تكن الديجولية الا مسيرة الاخاء التى تجمع رجالا احرارا يقودهم قائد الى تحقيق هدف عظيم . اما فى مرحلة كفاحة ضد الاستعمار والتي اثارت جدلا كبيرا فقد كان هدفه فى الهند الصينية وفى كفاحة ضد الفاشية فى فرنسا والمانيا وروسيا هو دائما خدمة قضية الحرية ، ولم يكن هدفه أبدا الدفاع عن العقائد المتطرفة التى كانت تسعى بكل قواها للسيطرة على العالم . اذ لم يعتنق مالرو ويتبنى الايدلوجية الماركسية وحول ذلك تقول جانين موسوز « لقد كان التزامه محددا بقيمة ثمرة هذا النضال وهي الحرية التي كانت تهددها الفاشية وليس العقيدة الشيوعية التى كان ينتمى اليها بعض المناضلين » . (١٢٢) وعندما سافر الى برلين مع اندرية جيد André Gide بصفتهما مندوبين عن الحزب الشيوعى الفرنسي للدفاع عن ديمتروف لم يكن الدافع وراء عمله هذا مساندة الشيوعية بل كان هدفه الدفاع عن حرية الانسان . وكذلك عندما سافر الى موسكو بعد سفره الى برلين ببضعة أشهر مدعوا من قبل مؤتمر الكتاب السوفييت لم تكن الكلمات التى القاها فى هذه المناسبة تتضمن مديحا للنظام القائم فى الاتحاد السوفييتى ، بل كانت تتضمن مطالبة عنيدة مصرة بالحرية .

(١٢٠) PIGON (G.) Le Rupture avec le communisme, in P. Gaillard, Les Critiques.........p. 110

(١٢١) Mossuz (j.) op.cit., pp. 244-245

(١٢٢) Ibid, p. 246

لسوف تبقى الحرية دائما بالنسبة لمالروو جها معبرا ونبيلا لا يمكن أن يمحى باى حال من الاحوال . ومن أهم مظاهر هذه الحرية حرية الفكر للأدباء وهذا النوع من الحرية غير موجود فى الاتحاد السوفييتى . فالفن مثلا خاضع للنظام الستالينى وعندما يضطر الفنانون أن يصمتوا على مضض او يخضعوا للقوانين الظالمة خوفا من الهلاك نجد أن مالرو يثور باسم الحرية .

وهكذا نرى لزاما علينا الا نشوه أو نتجاهل الدافع الانساني والتحررى الذى كان على الدوام الطابع المميز لالتزامه السياسي ، وسوف يجد هذا الالتزام ضالته المنشودة فى الالتزام بالديجولية التى تبدو وكأنها على حد قول جانين موسوز « نهاية المطاف لبحث طويل » (١٢٣) ويبدو وكأنه وجد اخيرا « نجمه الثابت » الذى كان يبحث عنه وهو الجنرال ديجول . وبناء على ذلك فاذا اعتبرنا هذا المبدأ نقطة انطلاق لا يمكن أن ننظر الى تحوله نحو الديجولية وكأنه نقطة ضعف فى خط سير فكره السياسى ، فقد كانت الديجولية كما اتضح لنا تلبية لمطالب مالرو الأساسية والمستمرة وهي الحرية والاخاء والسلطة .

بناء على ما تقدم يمكننا ان نستخلص ان التزام اندريه مالرو السياسي بالديجولية لم يكن دليلا على الاخلاص لمبادئه السابقة فحسب ، بل يمكننا أيضا أن نعتبره انتصارا لها . فلأول مرة لم ينتهج مالرو منهجا فكريا وسياسيا لبضعة أشهر أو سنوات طارئة فى حياته بل اعتنق والتزم الديجولية كنهاية لمطافة الفكرى والسياسي ، وعندما وجد فيها بغيته نجد أنه تحمل بشجاعة

مسئولية هذا الالتزام واشترك اشتراكا فعليا فى الحكم الديجولي . ولكى يجعل هذا الحكم الحبيب الى نفسه فعالا وحتى تجعل الديجولية من المطالب الاساسية الثلاثة الحرية والاخاء والسلطة حقيقة واقعة كان لزاما على مالرو أن يساند على طول الخط الرجل الذى يجسد بالنسبة له الاسطورة القومية .

لقد كان مالرو يناضل على الدوام فى جميع مراحل حياته من أجل قضية نبيلة كانت لها أهمية أساسية فى نظره وهي قضية الانسان . ونجد هذا واضحا فى التصريح الذى أدلى به فى عام ١٩٤٦ حيث قال « ان المسألة التى تطرح نفسها علينا الآن هي معرفة ما اذا كان الانسان قد مات أم لا على هذه الأرض القديمة أوروبا ... ان الانسان اليوم يجد نفسه مضطرا ليس فقط الى الاجابة على ما أراد أن يفعل وليس فقط مايريد أن يفعل بل أيضا على ما يعتقد أنها طبيعته » (١٢٤) ويمكننا القول أن مسيرة مالرو الفكرية والسياسية لم تكن الا محاولة منه للاجابة على هذا السؤال .

• • •

اخيرا ونحن بصدد ختم مقالنا لا نجد أبلغ من أن نسوق للقارى عبارة لجانين موسوز نستشهد بها على صحة رأينا فيما رأيناه من أن تحول مالرو من الشيوعية للديجولة ، ثم التزامه التام بها كان استمرارا لطريق ومنهج اختطه لنفسه طوال حياته فتقول « ان الديجولية التى انضم اليها اندريه مالرو لا يمكن اعتبارها انشقاقا ، ولكن كالتزاماته السابقة محاولة للتوصل الى مثل لا يتغير الا وهو ايجاد الانسان الحر فى عالم الاخاء . لقد اتخذت محاولات مالرو صورا مختلفة وبدت أحيانا ذات وجهين لكن لم يتغير مغزى بحثه ومغزى ارادة الاكتشاف عنده » (١٢٥) .

---

(١٢٣) Mossuz (j.) op.cit., p. 273

(١٢٤) Ibid, p. 286

(١٢٥) Mossuz (j.) op.cit., p. 287

قائمة باسماء المراجع التي ورد ذكرها في البحث

I. Oeuvres de MALRAUK : — اولا ـ اعمال مالرو

1. **Les Conquérants,** Paris, Le Livre Moderne Illustré, 1933, 189 pages.

2. **La Condition Humaine,** Paris, Gallimard, 1946 284 pages (Collection Folio)

3. **L'Espoir,** Paris, Gallimard, 1937, 505 pages (Collection Folio)

4. **La lutte avect l'Ange,** I-Les Noyers de l'Altenburg, Editions du Haut Pays 1943

5. **Antimémoires,** Paris, Gallimard, 1967, 605 pages.

6. **Les Chênes qu'on abat,** Paris, Gallimard, 1971, 151 pages.

7. **Oraisons Funèbres,** Paris, Gallipard, 1971, 139 pages.

II. Etudes consacrées à Malarux : — ثانيا ـ ابحاث عن مالرو

1. Biosdeffre (Pierre de), **André MALRAUX,** Paris, Editions Universitaires, 1969, 127 pages (Classiques du XXèmesiècle)

2. Gaillard (Pol) **André MALRAUX,** Paris, Bordas, 1970, 244 pages.

3. Id. ; **l'Espoir de Malraux,** Paris, Hatier 1970, page (Profil d'une oeuvre)

4. Id. **Les critiques de notre temps et Malraux,** Paris, Garnier, 1970, 191 pages, Cette ouvrage comprend des articles de :
   —Berl (Emmannuel) : **L'Intellectuel et La Révolution.**
   —MAURIAC (Francois) **Le Romantisme au pouvoir.**
   —Picon (Gaetan) **La Rupture avec le Communisme.**
   —Bor (Claude) **Le Marxisme de Malraux.**
   —Stéphane (Roger) **Les silences de Malraux.**
   —Trotsky (Léon) **La Révolution Etranglée.**

5. —Harris (G.T.), **André Malraux, L'Ethique comme fonction de l'Esthétique,** Paris, Minard, 1972, 153 pages.

6. —Mossuz (Janine) **André Malaurax et le Gaullisme, Paris,** Armand Colin, 1970 313 p.

7. —Picon (Gaetan) **Malraux par lui-méme,** Paris Editions du Seuil, 1955, 132 pages

8. —Id. **André Malraux,** Paris, Gallinard, 1945, 127 pages.

چوزين جودت عثمان

مالرو، سنجور وحضارة الانسان

اندريه مالرو ، وليوبولد سيدار سنجور

قد يتساءل البعض عن العلاقة التى تربط بين هذين الاسمين ، وما مدى أوجه الشبه أو الأختلاف بين اديبين يتمتعان بمكانة خاصة فى تاريخ الفكر المعاصر .

فالى اى حد تصل المقارنة بين أندريه مالرو وليوبولد سنجور ؟ اسمان يبدوان على النقيض فى أول وهلة . فقد يبدو من العجيب أن نتحدث عن نقاط الالتقاء أو حتى مجرد التشابه بين مؤلف « **القدر الانسانى** » (١) اى مالرو وبين مؤلف « **اغانى الظلال** » (٢) أي سنجور .

ذلك أن مالرو كاتب فرنسى بمعنى انه أوروبى ، أما ليوبولد سنجور فهو شاعر افريقيا السوداء الناطق بالفرنسية .

ولكن يقرب بينهما أكثر من عنصر ، ممايجعل المقارنة بينهما هامة ومثمرة ، الأمر الذى سنتناوله فى بحثنا هذا .

---

(١) La Condition Humaine

(٢) Chants d'Ombre

لم تتح للكثير من الناس فى التاريخ ـ تلك الفرصة التى يتحدث عنها الشاعر الفرنسى « شارل بودلير » الا وهي : « ان يعيش المرء حياة يقترن فيها العمل بالخيال » .

فالعمل والخيال اقترنا بالفعل فى حياة وانتاج مالرو ، كما اقترنا فى حياة وانتاج سنجور **وهناك اكثر من لقاء بين الكاتبين ، لقاء فكرى ايديولوجى** (Ideologique) **ولقاء فنى استيتيكي** (Esthetique) **واخيرا لقاء اخلاقي روحي** (Ethique) .

١ ـ **الالتقاء الذهنى الفكرى :** الذى يرتكز على الايمان المطلق بافريقيا الغد ، والاعجاب الشديد بشخصية الجنرال شارل ديجول .

٢ ـ **الالتقاء الفنى الاستيتيكى :** الذى يقوم على مفهوم معين للفن ، الا وهو اصدق وسيلة لتحقيق الذات للنفس البشرية من خلال الحضارات . ووسائل التعبير الفنى عند مالرو اساسا هى : الرسم والنحت ثم الموسيقى والرقص ، وعند سنجور هى : الموسيقى والرقص والنحت ثم الرسم . ولكن اللقاء هنا يأتى من أن كل عمل فنى هو خلود للانسانية ووسيلة مقدسة لقهر عقبات القدر وانطلاق الانسان .

٣ ـ **الالتقاء الروحى الاخلاقى :** الذى يتلخص فى موقف سنجور ومالرو تجاه مفهوم معين للانسان الحديث ، والتمسك بقيم اجتماعية مثل الارتباط الاخوى ، والانتماء الى الجماعة التى نعيش فيها ، والاعتقاد فى ضرورة مزج الحضارات المختلفة لخلق حضارة القرن العشرين وهى الحضارة الانسانوية (٣) . فالحضارة فى المجتمع المعاصر لا يمكن ان تكون الا حضارة قائمة على مزج الحضارات المختلفة للانسان عبر العصور المختلفة وعبر الأجناس والاديان والقارات ، مما يؤدى بالضرورة الى ايجاد موقف اخلاقى معين يسلكه الانسان اينما كان تجاه اخيه الانسان فى أى مكان وزمان .

• • •

١ ـ الالتقاء الايديولوجى :

« ان المرء ليس ما يخفى وانما المرء ما يفعل » .

تلك العبارة وردت على لسان (Vincent Betger) « فانسات بيرجيه » بطل قصة مالرو **« اشجار الجوز فى الالتنبيرج »** (٤) ويقصد مالرو بهذه العبارة ، اى بلفظة « الفعل » : اقدام المرء

---

(٣) كلمة الانسانوية Humanisme توضح وتميز معنى اعتبار الانسان ركنا رئيسيا فى الفلسفة وهى ـ تختلف عن كلمة الانسانية (Humainite) التى استعملها معظم المترجمين ونحن متفقون مع الدكتور محمد غلاب استاذ الفلسفة بالجامعة الازهرية عندما استعمل هذه الكلمة فيما كتبه عن علاقة الاسلام بالثقافة والانسانوية فى عدد ١٩٥٩ من مقال « هذا هو الاسلام » (دار الشعب) .

(٤) Les Noyers de l'Altenburg

على فعل الحدث نفسه ، فالفعل عند مالرو هوالذى يحدد الأنسان تماما ويميزه عن غيره من المخلوقات .

ذلك هو مفهوم مالرو الذى مارسه فعلا فيحياته كما مارسه فى انتاجه .

ان حياة مالرو معروفة للجميع ، كما نعرفايضا نشاطه السياسي وشغله لمناصب وزارية وثقافية هامة ، وكلنا نعلم الدور البطولي الـذىلعبه هذا الكاتب الديجولى فى المقاومة الفرنسية اثناء الحرب العالمية الثانية .

واذا ما عدنا بالذاكرة الى سنوات ما قبلالاربعينات رأينا : مالرو شابا فتيا أى فى الثالثة والعشرين من عمره ، يكثر من رحلاته الى الشرقالأقصى وينظم حـركات تضـامنية تحررية مع شباب الهند الصينية المعروف آنذاك باسم « آنامالفتية » فبلاد الآنام هذه ــ وهى جزء من الهند الصينية ــ كانت خاضعة للاستعمار الفرنسى . فقاوم مالرو هذا الاستعمار بل استنكره وندد به فى اعماله وبفكره .

وهكذا يبدو لنا منذ بداية حياته ان تلكالحياة ما هى الا استجابة لاحداث توالت عليه . كما ان انتاجـه الفني مـا هـو الا تلبية لنداءاتومحاولة اجابة عن تساؤلات فى فترة تتميز بكثرة الأحداث الفنية والسياسية التى اشـترك فيهابالعمل وبطريقة ايجابية . فحياة مالرو كما يعلم الكثير منا ــ تعتبر مسيرة من تاريخ سياسى الىتاريخ الابداع الفنى ، وانتاجه الفنى ما هو الا لقاء الانسان بالقدر . بمعنى أن كل ما كتبه أندريهمالرو هـو تعبير حقيقى وفعلى نتج عن موقفه وفعله تجاه الاحداث التى طرحها عليه القدر . واعمال مالرو الأدبية تحليل شغوف للمصـــير البشرى الذى طالما راود فكره فكتب عنه الكثير ،ولا نكون مغالين لو قلنا انه كتبه .

أيمكن ان ننسى انـه مـؤلف « القـــدرالانسانى » .

ودور مالرو الـذى لعبه بجانب الوطنيينالاسبان فى المقاومة الاسبانية يظهر لنا بجلاء فى بعض اعماله الأدبية خاصة روايته ((**الأمل**)) (٥).

واخيرا لايقلّ نشاط مالرو فى المجال الثقافىوالفني البحث عن دورة فى المجال النضالي .

فاعمال مالرو الفنية تكاد تكون لاحصر لها . ونذكر منها اهمها : ــ

ــ اللامذكرات : (٦) .

ــ الحبل والفيران : (٧) .

---

(٥) L'Espoir

(٦) Les Antimemoires

(٧) La Corde et les souris Hotes de passage Les chenes qu'an abat Tele dèObsidienne Lazare

ــ الذى يتجزأ الى : ــ

ــ زوار ماريق .

ــ اشجار الزان التى نقطعها .

ــ راس السبج البللورية .

ــ عــازر .

ــ مرثيــات (٨) .

ــ اغراء الغرب (٩) .

ــ عطارد (ساتورن او بحث عن الرسام جويــا) (١٠) .

ــ اصوات الصمت (١١)

ــ المتحف الخيالى (ويشمل عدة اعمال فى الفنون التشكيلية) (١٢)

ــ تحول الآلهه (١٣) ويشمل : مابعد الطبيعة

ــ اللاواقعيــة (١٤) .

ــ اللازمــنى (١٥) .

وفضلا عن كل هذه الأعمال فهناك نشاط ملحوظ ومستمر لمالرو فى المجال الثقافى نفسه ، فما أكثر ما كتبه من أبحاث ومقالات ومحاضرات عن مفهوم الثقافة ودلالتها ودورهـا فى حضارة القرن العشرين ، ومايمكن ان تقوم به من دور خطير فى تحديد معالم الانسان المعاصر ؛ **فالأنسان فى مفهوم مالرو انسان شامل متكامل ومزيج من مختلف حضارات البشر .**

وهذا المفهوم هو بعينه منهج شاعر القارة السوداء **ليوبولد سنجور ، ومفهومه عن الثقافة والانسان .**

وليوبولد سيدار سنجور وان كان غنيا عن التعريف (١٦) فهو شاعر ومفكر أولا وقبل ان يكون سياسيا ناجحا وزعيما مناضلا . فرئيس جمهورية السنغال لم يقتصر على النضال من أجل

---

(٨) Oraisons funebres

(٩) La Teutation de l'occident

(١٠) Saturne (Essai sur Goya)

(١١) Les Voix du silence

(١٢) Le Music Imaginaire

(١٣) La Mitamorphose de Dieux

(١٤) L'Fuiel

(١٥) L'Intemporel

(١٦) ولد ليوبولد سيدار سنجور يوم ٩ اكتوبر من عام ١٩٠٦ فى قرية « جوال » على بعد حوالى مائة كيلو متر من جنوب العاصمة السنغالية داكار . وبعد ان حصل على شهادة الاجربجاسيون من باريس بدأ حركة نضال من اجل استقلال بلاده من الاستعمار الفرنسى واستقلال دول افريقيا كما ناضل من أجل مكانة الرجل الاسود فى العالم المعاصر وخلق هو ورفيق نضاله وفكره الشاعر المارتينيكي ايمــى سيزير ــ مفهوم « الزنوجية Negritude » كما اشترك سنجور اثناء الحرب العالمية الثانية مع المقاومة الفرنسية ضد الغزو النازى .

تحرير بلاده واستقلالها الذى ناله عام ١٩٦١ وانما كرس كل جهوده فى تعريف ونشر قضية الزنجي الحديث (Negre Nouveau) الذيهو اساسا عضو هام فى المجتمع المعاصر فهو يشغل مكانة لها أهميتها فى الانسانية الحديثة حيث الأنسان مزيج من مختلف الحضارات من بينها حضارة افريقيا السوداء .

وبعبارة أدق فالأنسان الجديد فى مفهوم سنجور هو تطعيم الرجل الابيض الذى يضعف وتتلاشى فيه قيم ومعان حضارية بدأت تضمحل تحت تأثير حضارة الآلة والتكنولوجيا الحديثة تطعيمه بدم الرجل الاسود ، دم القارة الفتية الذي سيحيى البشرية بقيمه وتراثه الحضاري الاصيل .

يجوز لنا أن نقول عن مالرو كما نقول عن سنجور أن كليهما « شاعر » مناضل وفنان مؤمن بالانسان كما سنرى فى بحثنا هذا . فلا عجب فى أن نرى مالرو يكتب أول ماكتب من مؤلفات سنة ١٩٢٠ بحثا معنونا « اصول الشعر التكعيبى »(١٧) ، ولا عجب أيضا أن نرى الشاعر الأسود يعمل بالمقاومة ويناضل طول حياته من أجل استقلال الشعوب السوداء فكل مافعل وماكتب محوره هو تكامل الحضارات والأجناس واحياء أمجاد وتراث الجنس الأسود عن طريق أسترداد الرجل الأسود لمكانته الحقيقية فى المجتمع المعاصر . كل هذا يظهر ويتلخص فى شعر سنجور فى فكرة العودة الى الوطن الأم — (أفريقيا) .

ولكن الذى يقرن أعمال سنجور باعمال مالرو عاملان : —

أولهما : نظرية تكامل الحضارات ومزج الأجناس لخلق الأنسان من جديد .

وثانيهما : ايمانهما برسالة الفن كعنصر أساسي يرتكز عليه المجتمع .

فأن سنجور عندما يتحدث عن تجربته الشخصية يتغنى أيضا بكل آمال وطموح وآلام أبناء جنسه ، وبالتالي فهو يعبر بصدق عن تجربة حقيقية تعرض لها : الا وهي بحث الانسان عن ذاته وعن حريته وتحقيق مجتمع مؤمن بالقيم الحضارية الاصيلة ، وهذا فعلا — كما سوف نرى — مايصبو اليه مالرو من خلال تجاربه فى الفن والسياسة والحياة .

فكلاهما مولع بالفن مؤمن برسالته الحضارية القيمة كعنصر اساسي يرتكز عليه مجتمع القرن العشرين المتفتح لكل الحضارات والمؤمن بالقيم الثقافية العريقة التى تخلق الأنسان ، بمعنى أن الأنسان هو الذى يسيطر على العالم ولا يخضع لسيطرة الآلات وعبودية الايديولوجيات المزيفة فى المجالات السياسية والاجتماعية .

وتركت الحرب بصماتها الأليمة على مالرو وعلى سنجور فقد مارسا التجربة المروعة التي جعلتهما بمجتمع السلام والبناء والقيم الحضارية بدلا من مجتمعات الخراب والدمار وأستغلال الشعوب بعضها البعض نتيجة لهذه الايديولوجيات المزيفة التي تجعل قلة قليلة مسيطرة ، ودكتاتورية تتحكم فى مصير البشرية جمعاء وتذيقهم المهانة والذل فتمحو من وجوههم ومن قلوبهم الملامح

---

(١٧) Des origines de la pocsie cubiste

الانسانية . ويؤكد مؤلف « اللامذكرات » هـذهالحقيقة فى احدى مقالاته وذلك عندما يطرحبجدية هذا السؤال : « ماهو الفن » ؟

فان السؤال الثاني يأتى على الفور الا وهو :« ماهو الانسان » ؟

فمفهوم الفن اذن عنـد مالرو هو تعريفللانسان ، ودلالة على كيانه البشرى الذى يصنع القدر ويتمرد عليهحينما يخالفهمعاييره ومقاييسهوطموحه لتحقيق ذاته .

الفن اذن ليس خضوعا للقدر ولكن بفضلهيتغلب الانسان على القدر وعلـى المصير المحتوم ويخلق العالم طبقا لطموحه وآماله ، وبذلك يصبحهذا الفن السلاح المقدس الذى يغزو به الانسان العالم وان لم يستطع الغزو الفعلى المادى الملموسفعلى الاقل يتحرر من الاغلال والقيود والسيطرة أيا كانت ، وينطلق انطلاقة الحرية معبرا عن ذاتهفى أعمق اعماقها ؛ وماعمل سنجور الشعرى الا صرخة انطلاق .

• • •

لقد كانت أول مقابلة بين مالرو وسنجور فىبداية عام ١٩٦٦ وفى مدينة داكار بالسنغال وقد ترك هذا اللقاء فى نفس مالرو أنطباعا عن شخصيةسنجور وعن أفريقيا عامة ، أوضحه مالرو نفسه فى مذكراته حيث يقول فى احداهما : (١٨) .

« داكار مارس سنة ١٩٦٦ .

قـدم الرئيس ليبولد سـنجور ، رئيسجمهورية السنغالفى داكار المع مجموعة من النحت الافريقي الموجود فى أفريقيا ، وهي تتكون منستمائة قطعة .

وهناك أيضا قالب القناع الشهير الذى يظهرالفن الافريقي لكل من دورين (١٩) وفلامينج (٢٠) ولفنانين كثيرين غيرهم . وقد أقيم المعرض فىالمتحف الجديد المصنوع مـن الزجاج والصلب الذى اتم الرئيس بناءه مؤخرا .

ولقد ذهبت أمس الى المعرض لأنني أعرفبالخبرة انه لايمكن رؤية شيء أثناء الافتتاح ولا أعتقد أنني شعرت يوما الى هذا الحد بمدى تحولالآلهة حتى عندما كنت أعمل فى المتخف الخيالى للنحت ؛ أن متحفنا هذا للانسان وماهو الا معرضلعلم الاجناس وفيه تقص الآلهه لبعضها البعض قصة الوهيتهم وعلـى بعـد بضعة كيلـو متراتمن هنا توجد قرى كثيرة وغريبة وهـي تتميز بالاكواخ المخروطية الشكل .

---

(١٨) لواد مارين Hotes de passage

(١٩) رسام فرنسي ١٨٨٠ ــ ١٩٥٤ (Deraiu) .

(٢٠) رسام فرنسى ١٨٧٦ ــ ١٩٥٨ (Vlaminck) .

ولاتصبح الآلهة أبدا تماثيل بهذه الدرجةالاخاذة الا بعد تجردها الكامل وهؤلاء فضلا عن ذلك يكونون عادة من الاجداد ، ان للغرب قدسيةوللصين موتاها أما أفريقيا فلها أصنامها ؛ وقد أشتركت منذ بضع سنوات فى احتفالات تحريرالسنغال ومن قبل كنت قد طالبت باسم الجنرال ديجول التحرر لبلاد افريقيا الاستوائية القديمةمن السيطرة الفرنسية ...

... تشاد ، جمهورية أفريقيا الوسطى ،الكنغو ، وجابون ، وقد كانت أفريقيا الاستوائية هي أفريقيا قلب الظلمات كما وصفها جوزيف‌كونراد ــ وهي أيضا الادغال تترصد للعوآصم . وفى تشاد ... فى فور لامى عند رحيل ليكلارككان عدد السكان ستة ملايين نسمة ، ولكنهم أصبحوا الآن خليطا من خمسين الف نسمة ،وعندما أردنا الرئيس تومبالباى وأنا الذهاب من قصره الى عربته الكاديلاك وطولها ٢٠ مترا ، كان‌علينا اختراق مجموعة من الراقصين العراة الذين طلوا أجسادهم باللون الأزرق ، وفى الميدان الكبيركان ــ هناك عشرة آلاف من المنتمين الى القبائل تهزهم نفس الرجفة ...

سوف تفتح قريبا الجمعية الوطنية ــ ماأعجب هذا التناقض بين أفريقيا الماضى وافريقيا اليوم ! ومن حولنا كانت تشاد ماقبل التاريخوأفريقيا اللانهائيةالتي رأيتهامن الطائرة والشمس تشرق فوقها .

وهاهي رقصة « الرجال الفهود » تقام فى‌وسط دائرة من النساء يحملن على رؤوسهن الجرات .

بالامس كانت كلمة تشاد تعني بعض‌الوظائف‌المتناثرة فى عزلة الصحراء البعيدة ، أما الآن فتشاد تعنى كل هذه الجموع التى لا ادرى من‌اين اتت . ويبدو لى هنا فى أفريقيا الظاهرة نفسها التى شاهدتها فى آسيا من قبل فمن اى سافانابرزت هذه الجموع التى منذ الآن وصاعدا تبدو كانها جاءت من كل مكان ؟

وكان على الرئيس تومبالباى أن يقيم دولةمن هؤلاء الراقصين ، المطلية أجسامهم باللون الأزرق، وحاملى الاقنعة والفرسان الكارو لنجيين(٢١) اسلام افريقيا السوداءووثنيتها وعلى‌امتداد الطريق من داكار الى برازافيل ترتفع المبانى‌الحديثة لتشاد الجديدة ، هذه المباني التي تعلو الرقص العريق وتعد الأمم الصاخبة بقيام‌الدولة ...

... كان رفاقى يرقبون انزال علم فرنساورفع علم تشاد بغضب مالوف لم أشاركهم فيه . فقد انسقت الى الثورة كما كانت مفهومة سنة١٩٢٥ بدافع من كراهيتى للأستعمار الذى عرفته فى الهند الصينية .

احد المحافظين الفرنسيين الذين حكمواتشاد فى الآونة الأخيرة ويدعى مارسيل دوكوبيت كان ليبراليا وقد دعا الكاتب « اندرية جيد »لزيارة تشاد . وتكفينى هنا يوميات جيد : « توجد بعض المستشفيات ولكنها لم تستطع انتعوض المشاريع ذات الامتيازات الكبرى ؛»ويرجع

(٢١) الكارولنجيين : الجيل الثانى لملوك فرنسا الذى‌يستمد اسمه من شارلمان وقد حكموا من ٧٥١ ــ ٩٨٧ .

لنا الفضل نحن الديجوليين فى ان كل هذه الأعلام القومية ترفرف على سماء أفريقيا فقد نفذنا ماوعد به عبثا خصومنا منذ أمد طويل ، واذا كان اسلافنا قد انبهروا بالامبراطوريات فقد انبهرت أنا بالمغامرة التى قادتنا الي الميادين الأفريقية اللامتناهية حيث يصرخ الراقصون المطلية اجسادهم ، قادتنا ايضا الى الحدائق التابعة لقصور رؤساء الجمهوريات حيث يتحدى الرجال السود بعضهم البعض أمام المتفرجات المنبهرات فى زيهن القومى كما يحدث فى قرطاجنة (٢٢) ..

فكما رأينا بادىء ذى بدء هناك لقاء أندريه مالرو بأفريقيا السوداء فمالرو تعلم أن يكتشف أفريقيا من خلال زياراته لها .

« فبين الزيارة البروتوكولية للرئيس سنجور وبين افتتاح متحف الفنون الزنجية بداكار ، ذهبت الى منطقة كازامانس ، اذ كنت أحلم بها منذ أمد بعيد ، ربما بسبب تغنى سنجور بهذه المنطقة التى تعرف بمنطقة الجزر » (٢٣) .

• • •

وفعلا هناك قصائد عديدة للشاعر الاسود تغنى فيها بجنوب السنغال اى الكازامانس . تلك المنطقة الشبه أستوائية ذات الخضرة الخصبة والمستنقعات العديدة والغابات الشاسعة ، وخاصة غابات ـ النخيل الذى هو الشجرة المفضلة عند الشاعر الأسود ؛ وعلى سبيل المثال نذكر هذه المقتطفات من ديوان « حبشيات » وعنوان القصيدة : « رسائل الى الاميرة ـ الماركيزة دانييل دى بيتفيل » (٢٤) :

« وصلتنى رسائلك يا اميرتى ، فى قلب البلاد العالية بين غامبيا وكازامانس حيث مكثت عند الأجداد القدامى ... » .

ولكننا لانستطيع أن نتحدث عما كتبه سنجور عن افريقيا ، لان كل ماكتبه سنجور هو افريقيا ، فهي الامل والحلم والواقع والحاضر والمستقبل ، منبع الحياة وموطن الجمال ، ورمز الامومة والأنوثة والحب فى مؤلفات شاعر أفريقيا الأسود .

ويستطرد مالرو حديثه قائلا عن القارة الشابة العريقة : ـ

« ولكن من وراء كل هذا بدلا من المركبات الصغيرة كانت هناك افريقيا الشامخة بمناظرها الخلابة : جزيرة جوريه التى توحي بأجمل اللوحات الفنية ، وتوحى بشهامة الماركيز دى بوفلير (٢٥) ومغامراته العاطفية العديدة ، والنساء أى سيدات المجتمع « السنيار » (٢٦) بملابسهن

---

(٢٢) زواد مارين : Hotes de passage

(٢٣) زواد مارين

(٢٤) والدة زوجة الرئيس سنجور .

(٢٥) الماركيز دى بوفلير كان فارسا فى القرن السابع عشر عين حاكما بجزيرة جوريه من قبل فرنسا وجزيرة جوريه امام داكار فى المحيط الاطلسى وهى مشهورة تاريخيا حيث كان العبيد السود يرحلون منها الى اوروبا وامريكا .

(٢٦) السنيار : كلمة تأتى من اللغة البرتغالية بمعنى سيدة من طبقة عالية .

الزاهية الجميلة ، والقمر الزاهي فوق الرأس‌الاخضر (٢٧) فنسيم جزيرة جورية المنعش كان يهتف على ليل افريقيا .... » .

وهذه الصورة بالذات تكاد تكون حرفيا فى‌قصائد سنجور الا وهى « جوال » مسقط رأس الشاعر حيث يقول : ـ

« جــوال » :

أننى مازلت اذكر ....

مازلت اذكر السيدات السينار فى ظلال‌الشرفات الخضراء ، السينار ذات العيون البراقة الخيالية كضوء القمر فوق الشاطىء ... » (٢٨).

وعندما يتأمل مالرو من بعيد منظر جزيرة‌جورية هذه التى تطل على شواطيء داكار فهو يتذكر بالأخرى كل ماكتبه سنجور عن‌تلك‌المنقطة؛ فنافذة الشاعر فى مكتب قصره بداكار تطل على نفس المنظر ، وكم من مرة نظر الشاعر واستلهم‌أجمل ماكتب من تلك المناظر الآخاذة ...

ويحدق مالرو النظر لعله يعيش ثانية هذاالعهد الذى أنطوى مع قرون مضت والذى طالما تحدث عنه سنجور وأثر على مالرو حتى انــه‌اصبح يرى افريقيا بعيون سنجور من خــلال ما كتبه .

وترد على خاطره صور السيدات الجميلات‌بأطرافهن الناعمة التى تتالق تحت ظلال الخضرة الوارقة والورود الحمراء ، بملابسهن الهفهافــة‌الرقيقة ... ولكنه لايسرح بخياله فقط وانما يعايش أيضا من خلال اعمــال سنجور واقــع‌السنغال الحالى، فيذهب ليكتشف بنفسه ماكتبه شاعر السنغال عن الشــاطيء والغابــة والبئروالقرية والتحضر والتأخر (اذا جاز لنا هــذا التعبير بمعنى المنظر التلقيدى للبلاد) فيعجب‌مالرو بالطقوس والعادات ـ والتقاليد فى نظام اختيار وانتخاب زعيم القرية الذى لــم يعد لهـ‌ســوى دور رومانى ، وعن ملوك القبائل الذين يجتازون كل انواع التحديات حتى يفوزوا عن‌جدارة بمناصبهم ... فمثلا يضرب حتى الموت ، فان نجح فى الصمود يصبح ملكا ، اى ان هنــاك‌قيما ومقاييس للشجاعة والاقدام مازالت حيــة وقوية فى ادغال القارة السوداء تسترعي انتباه‌مالرو بل تثير اعجابه وتقديره .

• • •

وقصة لقاء سنجور ومالرو ترجع الى امدبعيد ، ولكن الالتقاء هو اعمق ، وطالما وجد فى فكر وعمل كل من الكاتبين . فمــا أكثر لقاءات‌سنجور بمالرو الفعلية ولعل اهمها هو أولهــا ، حضور أندريه مالرو لافريقيا السوداء من أجل‌افتتاح أول مهرجان للفنون الزنجية الذى اقيــم فى داكار عاصمة السنغال فى سنة ١٩٦٦ بمناسبة‌أعياد استقلال السنغال .

---

(٢٧) الرأس الاخضر : رأس من الارض ممتدة فى المحيط‌الاطلسى فى منطقة داكار .

(٢٨) من اغانى الظلال .

ويجب ان نتوقف لحظة عند هذه العبارةالاخيرة اى استقلال السنغال .

فقد يتساءل القارىء ، وماعلاقة هذا بذاك ؟اى ماعلاقة استقلال السنغال باندرية مالرو ؟

الواقع أن هناك علاقة وثيقة بين الثقافةورجل النضال أندرية مالرو فى عهد شارل ديجول وبين مولد دولة ناشئة فى افريقيا السوداءالسنغال فربطتنفس المبادىءبين قارتين متناقضتين فى الحضارة والثقافة والسياسة آنذاك الا وهىأوروبا وافريقيا .

وحدث هذا بفضل رجل واحد حقق الكثيرمن أجل بلاده : شارل ديجول وعلاقة مالرو بالجنرال شارل ديجول لاتخفى على أحد ،والدور الذى لعبه مالرو سواء فى الكفاح مع ديجول فى احياء فرنسا سياسيا وعسكريا ، أوكوزير لديجول فى المجال الثقافى ، فكان أندرية مالرو خير سفير لبلاده ليمثل احترام الحضاراتوتقوية الصداقة والأخوة بين مختلف الأجناس والشعوب .

فما من احد لايعلم الكثير عن وطنية الجنرالديجول ومافعله من اجل احياء فرنسا الممزقة المهزومة فى مستهل الحرب العالمية الثانية ضدالالمان ، ومامن احد يمكنه أن يتجاهل الدور البطولى الذى قام به ديجول فى صنع فرنساالحديثة ، ومامن احد من قراء مالرو يمكنه ان ينسى ما فعلهمالرو ، وكاتب **الأمل واشجار الجوزبالالتنامبرج** فى هذه الحرب الشعواء التى طالما مزقت وهددت كيان أوروبا وتسببت فى قيامحركات النضال من أجل استرداد الحرية على الصعيد السياسي فكانت حرب المقاومة ، كماكانت كانت سببا أيضا فى قيام حركة فكر واسعة الابعاد عنها نشأت فلسفة العبث مثلا على أيدي البير كامو وأندريه مالرو وآخرين .

وعلى ذكر العبث ، فمن العبث فعلا انتتجاهل فرنسا فى الثلاثينات ومابعدها حقوق الشعوب السوداء فى الحرية والاستقلال فى تقدير سنجور .

ففرنسا بلد الحرية التى طالما كافحت منأجل تحقيق العدالة والمساواة والحرية ، بلد الفكر والعقيدة الحرة ولذلك فكانت هناك علىحد تعبير ديجول ومالرو نفسه حتمية تاريخية واجتماعية تحتم على فرنسا التي تحمل مشعلالحرية ان تترك لبلاد افريقيا السوداء حق تقرير المصير ، ولذا ايضا وعلى يد شارل ديجول كاناللقاء التاريخي بين سنجور وديجول الذيائمر عن استقلال السنغال .

اما اعجاب الرئيس الشاعر سنجور بديجول فيمكن ان نلخصها من خلال رؤية لشخصية ديجول نفسه والذى أطلق عليه الشاعر الاسوداسم « الجيلوار » اى الفارس الهمام باحدى اللغات السائدة فى السنغال وهى الولوف .

وترجع قصة سنجور مع ديجول الى عهدالحرب العالمية الثانية حيث أسر سنجور كجندى فى الجيش الثاني للفرق الاجنبية التي كانت تحتاللواء الفرنسى ضد الألمان ، واصبح الشاعر اسير حرب فى معسكر مدينة اميان بفرنسا لمدة ثلاثسنوات تقريبا ذاق خلالها الوانا من العذاب هو وأمثاله من الرجال السود الذين على حد تعبيرسنجور نفسه « قدموا انفسهم قربانا لكى تعيش

فرنسا » . وكان هذا الموقف ينجم عن اعجاب سنجور الشديد بشخصية الزعيم ديجول الخارقة الاسطورية ، فبينما رفضت قوات ساحل العاج أن تحارب مع فرنسا ضد الالمان ، دخلت السنغال الحرب وضحت بجنودها ودماء أبنائها الشهداء الذين يصفهم سنجور فى ديوانه « القرابين السود الذى ظهر فى عام ١٩٤٨ فى قصيدته المعنونه : » Assassinats على هذا النحو :—

« هاهم ممددون على طريق الاسر ، على طريق الكارثه .

هؤلاء ، أشجار الحور المشوقه .

تماثيل الآلهة السوداء ملتفين بغلاف براق من الذهب .

هؤلاء شباب السنغال الاسرى الممددون تحت تراب أرض فرنسا ..... »

كتبت هذه القصيدة فى معتقل رقم ٢٣٠ أثناء الحرب العالمية الثانية حيث اسر سنجور مع رفاقه السود عندما اقتحم الالمان فرنسا .

وبناء على ذلك نجد ان فى الازمات والشدائد يقف الجميع صفا واحدا ، ويساند المرء اخاه ، فالكل يقف وقفة واحدة ويدا واحدة فى مواجهة الصعاب .

وربما يظهر هذا الموقف جليا فى موقف سنجور تجاه الزعيم شارل ديجول فى قصيدته الشهيرة « الى الجيلوار » التى كتبها فى معتقل اميان فى عام ١٩٤٠ وهى استجابة من سنجور ورفقائه لنداء الجنرال ديجول لتحرير فرنسا مقابل وعد منه لتحرير بعض دول افريقيا السوداء من الاستعمار الفرنسى الشىء الذى تم فعلا فى حضور مالرو نفسه ! .

« جيلوار » ! (٢٩)

لقد انصتنا اليك ، واستمعنا اليك بآذان قلوبنا ، وانفجر صوتك براقا فى قلب ليل السجن الذى نعيش فيه ، دوى صوتك مثل صوت ملك الغاب وكم انتفضنا حرارة واستجابة فى ذل السجن ومهانته ! .

اننا كصغار العصافير الذين سقطوا من عشهم ، اجساد محرومة من الأمل تتعرض للأذى .

حيوانات متوحشة لكنها مقطوعة الاظافر ، جنود بغير سلاح رجال عراة .

وها نحن نتخبط ونتوه كالضرير الذى لا يجد الأيدى التى تساعده .

اشرف الأشراف قد ماتوا : لانهم لم يقدروا على ابتلاع خبز العار فى الأسر .

---

(٢٩) كلمة الجيلوار : وهى باحدى اللغات القومية فى السنغال تعنى الفارس المقدام الهمام الذى اشتهر فى حضارة افريقيا السوداء باصالته وشهامته فى الحرب وفى حماية المرأة والطفل والشيخ وهو الفارس المغوار الذى يتمثل به كل شاب فى القبيلة والعشيرة ويتمنى ان يصل الى مرتبته فى الشجاعة والكرم ونبل الاخلاق .

وها نحن واقعون فى الفخ ، فى قبضة يدوحشية نبدو فيها كالحشرات ، فالمجد للعربات المصفحة والدبابات وقنابل الطائرات ! .

لقد بحثنا عن مأوى ، عن سند ، ولكن كل هذه الآمال كانت تنهال كتلال الرمال لقد بحثنا عن زعماء وقد كانوا غائبين ، وبحثنا عن رفاق ولكنهم لم يعودوا يعرفوننا ولم نستطع أن نتعرف على فرنسا .

وصرخنا لليل الامنا ، ولكن ما من صوت أجابنا . أسياد الكنيسة قد التزموا بالصمت وأسياد الدول قد أشادوا بعظمة الضياع الحقير .

هل هذا هو وقت الزنوج ؟! أهذا وقت الرجال ؟! : لا ! فالآن ما من شيء يهم سوى أوروبا ! .

جيلوار !

ان صوتك ينطق بالشرف والأمل والنضال ، وترفرف أجنحته فى أعماق صدورنا .

ان صوتك سيعلن لنا الجمهورية التي سوف نشيدها فى مدينة المستقبل فى اليوم الأزرق . فى مساواة الشعوب الشقيقة وعندإذن نرد عليك :

« نعم يا جيلوار ! ها نحن بجوارك ورهن اشارتك ! »

ولعل هذه القصيدة تعبر أصدق تعبير عن اعجاب سنجور بديجول وعن موقفه كصديق وكأخ رفيق للكفاح ضد مستعمر ظالم ، جهور ، وحشى ، دنس أرض الوطن الحبيب .

فالصديق لا بد أن يسعف صديقه فى وقت الشدة . ولعل أصدق مثال على ذلك هذا البيت من شعر شوقي فى قصيدته « دمشق »

« كلنا فى الهم شرق » !

وهكذا سمع ديجول النداء ووفى بوعده وتحررت السنغال وعلى أيدى مالرو نفسه !

ولكن اعجاب مالرو لافريقيا لا يقف عند كونها قارة المستقبل وانما هو شديد الإعجاب بتراثها الفنى السخى المعبر ، وبذا نصل الى نقطة اساسية تجمع بين سنجور ومالرو ، اى الالتقاء الاستيتيكى (الفنى) :

• • •

٢ ـ الالتقاء الاستيتيكى :

كثيرا ما يتعرض مالرو لأمر يرجعه الى حد كبير ، فهو يروى أن الفن فى المجتمع المعاصر أصبح ذهنيا ، اى أننا عندما نرى فى اى متحف اى تحفة فنية نراها بأعيننا فقط ونقيمها

بمقاييســـها الجمالية التى اعتدناها واتخذناهامعايير لقـوانين الجمـــال ، ولكن أين معناها الحقيقى ؟ أين جوهرها الذى يتضــمن المعـانىالعميقة ، والفلسفة دينية كانت أو روحانية التى من أجلها خلقت هذه التحفة ؟ .

ان الأمر يختلف تماما بالنسبة للفن البدائىأو الفن فى أقصى الشرق والحضـــارات القديمة وافريقيا الســوداء ، حيث ان الفن كما يشرحهسنجور ما هو الا تعبير عن ذات الانسان البدائى بغض النظر عن المعــايير الجمـــالية والمقاييسالاستيتيكية . ولذا يخلق المرء العمل الفنى من خلال رؤيته هو للواقع ،فالفن عبادة وتعبير وليسأداة جمالية وانما اداة للوصول الى المقدسات وعالم الارواح والاتصال بالعالم العلوى . وعلىهذا الاساس فالعمل الفنى مثل القناع أو التمثال أو الاصنام أو أى تيمة من هذا القبيل انما هوفى حد ذاته تعبير واتصـــال روحانى مـــع الآلهة والاسلاف والاجداد ومن ثم فصانع التيمة اوالقناع لا يصنعها طبقا لمقاييس جمالية او معايير استيتيكية ، ولكن يجعلها تحمل معانى ورموزامعينة تعبر عن فلســفة محددة ومفاهيم معينــة لأناس ينتمون الى قبيلة أو عشيرة لها معتقداتهاومقداساتها ، وبالتالي فان هذا العمل الفنى يعبر عن مشاهرهم تجاه تلك المقدساتوالمعتقداتويجسد افكارهم واحاسيسهم .

والفن فى افريقيا السوداء كما يقول سنجورملتزم ، بمعنى انه لا يوجد هنــاك فن جمــالى بالمعنى المألوف . ولكن الفن له شكل وظيفى اىانه يقوم بوظيفة معينة يؤديها من أجل غرض معين وكل انسان فى القرية فنان ، وان كانت هنــاكدرجات مهارة تتفاوت فى الاداء . ولكن أى شخص فى القبيلة يستطيع ان يخلق قطعة فنية او تيمةأو قناع أو يقوم برقصته ، لأن المقصود من اداء العمل الفني هو الاتصال بالأجداد والآلهة وجعلهم يتأثرون ويحققون الأمنية المطلوبة من البشر ، ثم يملون رغبتهم عليهم بدلالات معينة تبدو للبشر عنطريق العمل الفنى نفسه ، فالفن اذن مشاركة وجدانية وعاطفية قبل أى اعتبار آخر . فالزنجىيلمس ويحس العالم المحيط به عن طريق حواسه التى يعبر عنها فى كل عمل فنى .

وهنا يتقابل فكر مالرو بموقف ســـنجورالـــذى ما زال يعيش فعلا ما تمناه مالرو ، اى اعادة الأبعاد المقدسة والمعانى العميقة لكل عملفنى .

وهذا هو سر الصداقة والاعجاب الذى كانيربط مالرو بالرســـام العـــالمى بابلو بيكاســـو Picasso الذى يعتبر أيضا صديقا للشـــاعرليوبولد سنجور ، فعلاقة سنجور ببيكاسو وطيدة وقديمة نذكر منها هذه القصيدة المهداة لبيكاسومن ديوان « أغانى الظلال » وعنوانها « قناع زنجى ــ الى بابلو بيكاسو » :

« نائمة هى هادئة فوق طهارة الرمال .

كومباتام (٣٠) نائمة تســتر نخيلة خضراءشعرها الأحمر وجبينها النحاسى

الجفن مغلق والحاجب والمقلة الى الأبد .

---

(٣٠) كومباتام : ربــة الجمـــال عند بعض قبائلالسنغال

هذا الهلال الرقيق ، هذه الشفاه السوداءالرقيقة اين منها الآن ابتسامة الأنثى المتواطئة الحنون ؟ .

ورقة الخد ، ورقة الذقن ينشدان توافق الخط والرسم فى متحف

يا لك من راس نحاسية كاملة يصـــقلهاالزمن ،

لا تعرف دنس المساحيق ولا احمرار ولاتجاعيد ولا علامات للدموع او للقبلات .

يالك من وجه خلقه الله قبل ذاكرة الزمن .

وجه فجر العالم ، لا تنفرج بحنان حتى لاتثير شهوتى .

اننى أعبدك يا جمال بعين « احادية الوتر »

• • •

اكتشف بيكاسو الفنون الزنجية فى حوالي الثلاثينات ومن هنا نرى تشابها الى حد كبير بين اسلوب بيكاسو واسلوب الفنون الزنجية . فاولايعتبر بيكاسو شديد الاحساس باشـكال قديمة للغاية مرت بحضارات عريقة نذكر منها « جمجمةالموتى » « عنكبوت الكابوس » و « ثورة الشمس» و « جـواد الموت » ونســتطيع ان نرى هاتين الأخيرتين فى لوحة بيكاسو المشهورة « جرنيكا » Guernica .

وبذلك فأن اعمــال بيكاســـو تنادى عبر القارات تلك الأقنعة والتماثيل المقدســة بأدغال افريقيا التى تجذبنا بسبب مالا نعرفه عنها تمامامثل تماثيل الآلهة فى مصر القديمة التى لم تعــد بالنسبة الينا تجسيدا لموتى اختفوا ، ومثل آلهةسومر التى لا نعتقد فيها الآن ، او آلهة الهند أو المكسيك أو الشرق الاقصى او حتى القديســين الذين لم نعد ندعوهم ، او الأقنعة والاصنام التى لم تعد بالنسبة الينا ارواح الأجداد ، ان كل هذاالآن لا يحمل لنا المعانى نفسها التى كان يحملها لأولئك الذين ابتدعوه ، ولكن يكمن فى كل عمل فنى مما ذكرناه هنا ، يكمن شيء ما زال يحيرنا ويسترعى أعجابنا .

وفن بيكاسو يتماشى بل يلتقى مع الفنون البدائية ، فبيكاسو يحيى تلك الفنون من جديد ويقترب منها لانه اساسا يحطم بفنه كل التقاليد ،ولا يعترف بأن هناك شيئا يسـمى اسـتمرار اسلوب أو مذهب . فيقول مالرو على لســان بيكاسو (٣١) :

« فليسقط الاسلوب ! هل كان لله اسلوب ؟ان الله خلق القيثـارة والكلب والقط والبــوم واليمام ، مثلى . والفيل والحوت ، نعم ، ولكن الفيل مع السنجاب ؟ انما خلق الله ما لم يكن موجودا ، اى خلق من العدم ، وها أنا أيضــاأخلق من العدم ، وخلق الله أيضا فن الرســم ، وأنا أيضا » .

---

(٣١) « راس السبع » ص ٢٥ Tete d'Obsidienne

وبذلك وعلى يد بيكاسو وكما هو الحال فى الفنون الزنجية فان الخلق الفنى يأتى من أعمق أعماق اللاشعور ، وباطن الانسان بكل ما هو قريب منه اعتاد عليه والفه ، وبكل ما هو غريب يجهله الانسان ، ومن هنا يأتى الشعور بشىء مالا نعرفه ، أو بفراغ كانت الحضارة الغربية تحاول ان تملأه بمعتقدات أو تقاليد أو مقاييس ولكن بقى هذا الفراغ الروحانى فى القرن العشرين بل تزايد . فبينما ناشد الفن الكلاسيكى سعادة الانسان فى الطبيعة والتوازن بين المرء والأشياء وجمال الكون ونظامه ، وبينما ناشد الفن المسيحى عموما رضاء النفس بما منحه الخالق ، نرى الفن فى القرن العشرين يحث الانسان على التمرد على الاوضاع وتدمير المعتقدات الزائفة والتقاليد الخانقة ويدعوه الى التعبير الصادق لما يعرفه من قلق وغضب وتوتر من موقفه المهدد بالحرب والدمار فى عالم دون معونة الله .

ولعل سر أجمل عمل فنى هو قابليته للتغيير ، بمعنى ان كل واحد يرى فيه شيئا يختلف عما يراه الآخر . وكل مذهب او مدرسة فنية تكتشف فيه أبعاداً جديدة واسرارا جمالية أو فلسفية اخرى ، قد تتعارض مع الاكتشافات السالفة ولكن يستمر العمل الفنى ويفرض نفسه فرضا على الزمن وعلى المفاهيم والنظريات المختلفة التى تكسبه كل مرة بنظرة جديدة .

فهو يحمل بداخله معانيه ، وبالتالي فهو قائم بذاته مستقل عن الذى خلقه وعن الذين يشاهدونه عبر الاجيال والعصور .

ويضرب مالرو امثالا عديدة فى هذا الشأن نذكر منها الآتى : ـ

ان الرسام العالمى « رامبراندت » (٣٢) مثلا لم يعد يفهم ويقيم بعد رؤية « فان جوخ » (٣٣) لم يعد يفهم بنفس الطريقة التى كان يفهم بها **ويقيم فى زمن دولا كروا (٣٤) اذ ان دولا كاروا** كان يرى فيه المقاييس الرومانسية التى كان هو نفسه متأثرا بها ، أما فان جوج فقد رأى فيه كل عناصر المدرسة التأثيرية التى ينتمي هو نفسه اليها .

ويعتقد مالرو ان ميزة الفن الحديث انه لا يحاكى الطبيعة ولا يسرد ولا يحكى مثل الفن الكلاسيكى أو الرومانسى ، وانما هو يحطم الشكل المألوف ويعبر عن رؤيته الخاصة للعالم الخارجى ولأحاسيس الفنان شخصيا ، ومن هنا يلتقى بالفن البدائى ، فالفن الحديث حطم الشكل التقليدى وخلق لنفسه معايير شخصية للابداع الفنى ، مثلما هو الحال فى فن بيكاسو مثلا . وكما هو مبين فى نفس اللوحة التى رسمها الفنان الأسبانى الكلاسيكى Velasquez « فيلا سكويز » وبعدها رسمها بيكاسو والمسماه « **المنين** » Les Menines (٣٥) .

ويتضح اختلاف الأداء فى اسلوب الرسم فى معالجة نفس الموضوع .

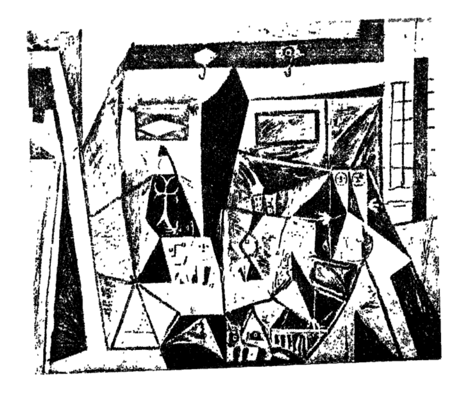
---

(٣٢) Rembrandt

(٣٣) Vau Gogh

(٣٤) Delanoix

(٣٥) المنين : هكذا تسمى كل سيدة تصاحب اميرات اسبانيا كوصيفات الشرف او مربيات . Les Menines



٦٣١

مالرو ، سنجور وحضارة الانسان



ويقول سنجور لصديقه مالرو :

« شاء القدر لبيكاسو يوما ما أن تهتز مشاعره أمام قناع باوليه (٣٦) Baoule ، كما شاء القدر أيضا لابولينير أن يتغنى بأصنام الخشب الزنجية كي يغير الغرب نظرته للفن ويوافق بعد ألفي عام أن يترك محاكاة الطبيعة على حسب المعايير الكلاسيكية انني ليس لي دراية عميقة مثلك يا صديقي بتاريخ تطور الفن ، ولكنني أعترف ان فننا الزنجي هذا انما انبات عنه فنون قبله ، فمهدت له الطريق ، فبشرت حضارات قديمة أخرى عن قدومه ، حضارات لها ميزة خاصة في اكتشاف كل ما هو وراء الطبيعة من الطبيعة ، وكم تكون افريقيا منطلقة في التعبير الفني بالنسبة لمدرسة بيزنطة التقليدية ! فنحن ونحن فقط هم الذين استبدلوا بمنطق الرؤية منطق اللمس » (٣٧) .

وهكذا يتفق مالرو مع سنجور على أنه يرجع الفضل لافريقيا السوداء في ايجاد فن معبر قبل ان يكون خاضعا لأي معيار جمالي آخر ، وهذا الفن شديد الحرية في تعبيره اذ أنه يجسد الواقع على حسب حواس الزنجي وعلى حسب منطقه وفلسفته للأشياء المجاورة ، معتمدا كل الاعتماد على كل حواسه وليس على قوانين وتقاليد فنية معينة أو مذهب أو مدرسة ، فلا اضاءة خاصة ولا أحجام ولا خطوط ولكن رموزلها معاييرها ومفاهيمها ودلالتها المختلفة عند كل رجل زنجي عندما يرى هذا العمل .

والمدرسة التكعيبية والسريالية الفرنسية قد فهمتا كل هذا ، بل ادركتا أيضا ان أهم سمة للرسم الحديث على غرار الفن الافريقي يكون التعبير والانفعال ولعل سر نجاح المدرسة السريالية بمختلف تشعباتها وبأسمائها اللامعة يرجع أيضا الى هذا الاتجاه في الانفعال بالواقع أولا ثم التعبير عنه بالتحرر المطلق عن الخطوط والالوان والاحجام التقليدية .

وهكذا يدمر الفن الواقع تدميرا كي يعيد بناء العالم على حسب الرؤية الداخلية للفنان ، ومن هنا تبدو أهمية الفن الافريقي بالنسبة للفنون المعاصرة . فالفن منذ اكتشاف الغرب لفنون افريقيا السوداء في بداية القرن العشرين لم يعد اسلوبا فقط أو حتى مدرسة أو مذهبا ولكنه هو فن مجرد بلا أى تعريف آخر . ان الفنانين السرياليين تأثروا كل التأثير بالفن الزنجي لأنهم رأوا مثله في ما وراء الطبيعة ، أى كل الابعاد المقدسة والخفية التى تربط الواقع بما وراء الواقع ، أو ان شئت هذا الذى سماه القديس بولس على حد قول مالرو : « بداية الذى لا نراه » . فكل الاشكال للفنون المعاصرة كما يوضح مالرو (٣٨) اصبحت طليقة ليست حبيسة الأشكال التقليدية كما هو مبين في هذا التمثال الخشبي الذى نحته بيكاسو مثلا . وقد أسماه بيكاسو « الحاصد » (Le faucheur) كناية عن تلك التى تحصد رؤوس العباد مثلا ، والملاحظ هنا تجريد العمل الفنى من أى معايير تقليدية للنحت كلاسيكية كانت أو رومانسية أو غيرها ، وانما يقترب أشد الاقتراب من الفن البدائي وخاصة الزنجي .

---

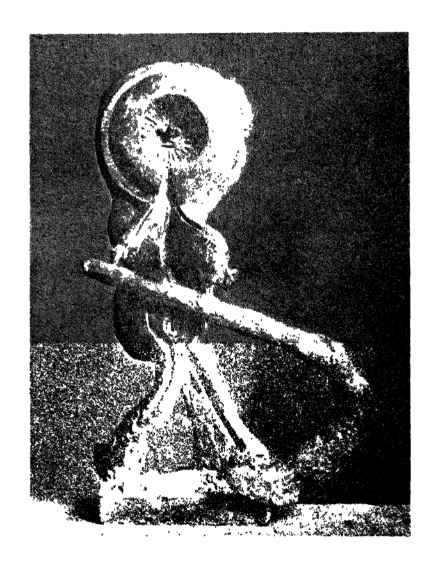
(٣٦) باوليه : قبيلة من افريقيا السوداء ذات حضارة عريقة مشهورة بمهارتها في النحت وصنع الاقنعة الذهبية .

(٣٧) « زوار مارين » ص ٣١ .

(٣٨) راس السبج البلورية .

٦٣٣

مالرو ، سنجور وحضارة الانسان



من هنا يلتقى هذا الاتجاه الحديث فى الفن بخط المقدسات فيبدأ بينهما الحوار ، وهذا ما يحدث بالفعل فى الفن الزنجى . فالفن يأتى بمقدساته أيضا وهى كامنة فيه مستقلة به لأنه يحمل الحقيقة الداخلية لكل انسان ، ولكن ميزة الفن الزنجى انه لا يؤدى الى العزلة بل يؤدى الى الاتصال بالآخرين فبينما يعبر تصوير الأشياء فى الطبيعة فى الفن الاوروبى فقط عن مقدرة الفنان فى الرسم فان تصوير الأشياء فى الشرق الأقصى يكشف لنا عن الحياة ، لماذا ؟ لأنه كما يوضح مالرو سواء كان فى الشرق الأقصى أو فى افريقيا فالأشياء تعبر عن رؤية الفنان لها وعن احساسه بها ، بمعاييرها المقدسة له ، وبذلك يلقى بالمظهر الخارجى للأشياء ويبدله بعملية خلق من جديد بكل أبعاده المقدسة . وكما يوضح مالرو ، بل كما وضح سنجور مرارا نفس الفكرة ، هناك عملية مشاركة وجدانية ومشاركة كلية بين خالق الشيء اى الفنان ، والشيء نفسه حتى انه يصبح هناك ايضا فى المرحلة التالية عملية سيطرة وتملك من قبل الأخير على الشيء ، فالفنان عندما ينحت التيمة أو القناع انما هو يسيطر بخلقه هذا على القوى الخفية التى وراء هذا الشيء ومن ثم يسيطر على عنصر من عناصر الطبيعة المحيطة به فيتغلب عليها ، ومن هنا أيضا تأتى المعتقدات الكثيرة حول مقدرة السحر فى الفنون فى أفريقيا السوداء وفى أقصى الشرق وعند قدماء المصريين .

فكما رأينا فان مالرو شديد الأعجاب بكل فن بدائى لأنه معبر ولأنه يعيد الأبعاد المقدسة لعملية الابداع الفنى . وربما هذا هو الذى شده نحو الفن الزنجى بالذات الذى غير مفهوم الفنون فى القرن العشرين . ورأينا كم كانت نظرة سنجور تلتقى بآمال مالرو بالنسبة لمقدرة احياء الفنون الحديثة بحيث تحقق للمرء الوصول الى الجمال فحسب ولكن التحرر من الرؤية التقليدية ، وبالتالى اعادة تكوين العالم الخارجى على حسب اعمق أحاسيس ورغبات الانسان . ومن ثم فهى عملية سيطرة الانسان على الطبيعة لا خضوعه لها ، ورأينا أيضا سر الفنون الزنجية واقتحامها للعالم الحديث . فالفن فى افريقيا طالما يعبر عن مدى اتصال المرء بالعالم الخارجى والعوالم الخفية ، يحمل معه قدرته الفريدة فى الدوام ، ويحمل معه أيضا أبعاده الدينية ، فالفنان مثل رجل الدين يتجاهل الواقع أو ينقص من قيمته لأنه مثله واثق بأنه يحمل فى نفسه مصدر الخلود ، وان كان طبعا خاضعا الى حد ما لحضارته ومجتمعه وتاريخه ، ولكنه يتخطى كل هذا بل يسبقه فى عملية تغيير الواقع واعادة صياغته من جديد . وهناك صلات خفية تربط بين كل فن صادق فى التعبير عما يبحث عنه الانسان فى اى مكان فى عملية الخلق هذه ، بل هناك حوار خفى يربط بين كل الفنون عبر القرون والحضارات ، فلا عجب اذا رأينا تشابها كبيرا بين تماثيل بيكاسو الفخارية وبين تماثيل قبيلة البنان (٣٩) ، ولا عجب أيضا ان نرى عمل كراسي الملك العجوز للفنان « رووه » (٤٠) يشبه الى حد مذهل ملوك الداهومى فى افريقيا السوداء .

---

(٣٩) Benin

(٤٠) Rouault

والملاحظ بالنسبة لمالرو كما هو الحال بالنسبة لسنجور ان هناك ايضا نقطة تشابه كبيرة على النمطين الستاتيكي (Statique) التاملي والديناميكي (Dynamique) الحركي عندما يتاملان اى عمل فنى .

• • •

١ ـ النمط الديناميكى :

ان الشيء الغريب والهام الذى يجمع بين مالرو وسنجور فى هذا المجال هو انهما كليهما يتخذ الفن وسيلة للاقدام على الفعل ، على الحدث فى الحياة ، ويؤمنان بانه بفضل الفن يقبل المرء على الاقدام على الفعل (الحدث) فى صنع التاريخ . فبالنسبة لمالرو راينا كيف لعب الفن دورا فى حياته وراينا كيف ذهب الى اقصى الشرق كى يتعرف على حضارة الصين والهند الصينية العريقة ، وطاف العالم بحثا عن معرفة الحضارات والفنون المختلفة . وهذا يبدو واضحا فى « الطريق الملكى » (٤١) مثلا حيث نرى البطل كلود فانيك (Claude Vannec) يغامر بحياته بحثا عن تحف فنية فى الأدغال ، تلك التماثيل التى ترجع الى عهد بعيد فى حضارة الخمير (Khmer) بالصين .

اما بالنسبة لسنجور فالمعروف انه كرجل اسود لا يتخذ اى خطوة الا عن طريق فن من الفنون . فكما ذكرنا من قبل فان كل تعبير اوانفعال للزنجى انما هو اتخاذ موقف فى الحياة من خلال الفن ، او بعبارة أدق كلما يحتاج المرء الى الفعل او الحدث عبر عن هذا فى عمل فنى ، نحت او رقص او شعر .

وارتجال الشعر هو أكثر الفنون للرجل الأسود وهناك العديد من انواع الشعر كالرثاء والمدح والتفاخر وحث الشباب الى الصيد ، والحصاد ولعب الرياضة والاقدام على الحرب ، والتشبه بالاجداد .

وكل هذا ينعكس فى شعر سنجور نفسه الذى يترجم كل حدث الى شعر غنائى او حماسي ....

حقا يمكننا ان نقول ان الزنجى يغنى حياته .... » (٤٢) .

ويضيف سنجور متحدثا الى مالرو :

« هل تعلم يا صديقى ان فلاحينا فى السنغال اخترعوا رقصة لخطة التنمية وان موسيقانا تصاحب دائما الاحتفالات والمسابقات الرياضية ؟ وفى النهاية استطيع ان اقول ان كل فن زنجى ليس الا شعرا » (٤٣) .

---

(٤١) La Voie Royale

(٤٢) زوار مارين ص ٣٠ ـ ٣١ .

(٤٣) زوار مارين .

من هنا يمكننا ان نقول ان الفن الزنجي اساسا وقبل كل شيء حوار . فهو حوار مع العالم الآخر ، وحوار مع المشاهد له ، وحوار مع الحضارات المختلفة الاخرى لأنه اساسا وقبل كل شيء مخاطبة للوجدان ، وللأحاسيس البشرية فى محاولة لسيطرة الانسان على الطبيعة وصهرها فى قالب يناسبه ويجعله يتواءم مع واقع حياته .

ان الموسيقى والرقص شيئان فى دم كل زنجى يولد بهما وتجريان فى عروقه ، ويستطرد الحديث بين سنجور ومالرو فى هذا الصدد على النحو التالى فيقول سنجور لمالرو :

« ان اندريه جيد يقول ان اغانيكم الشعبية بالنسبة لاغانينا تبدو فى غاية الفقر والبدائية ، واذكر أن القس المسكين الذى كان يعلمنا التراويح الدينية فى صبانا فى الكنيسة ، ياله من مسكين ! انه كان يتعذب ! لانى انا واصدقائى كنا بالفطرة نرقص ونثب ونلهو على ايقاع الأيدى وانغام الجاز ! . .

والآن بدأت أوروبا تكتشف أسرار ومزايا الآلات الموسيقية الزنجية الايقاعية مثل الطبول والتام تام الذى سبق كل آلة فى الوجود .

هل تعرف ما هو روح الموسيقى عندنا ؟ انه الايقاع بالضرب بالأيدى أولا » ! .

ويكمل مالرو الحديث قائلا : ــ

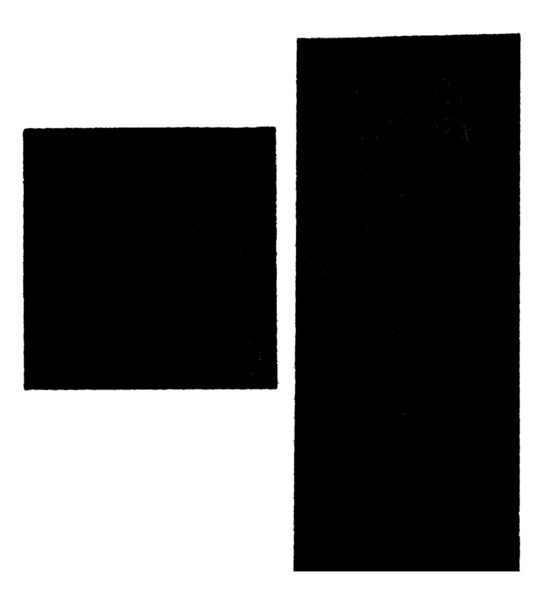
« ان لديكم ايضا موسيقى غطت العالم بأسره اعنى موسيقى « البلوز » فى الولايات المتحدة تلك الموسيقى الوليدة لاجيال من الالم والعذاب للجنس الأسود .

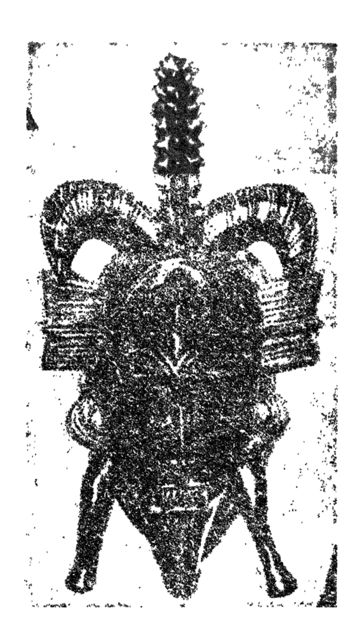
ويجب علينا هنا ملاحظة ان كانت كل الفنون تتساوى طالما هى تعبر عن الغرض الذى من اجله وجدت ، هناك فنون غير معروفة على الاطلاق مثل الرسم الذى لا يعرفه سوى الفن الحديث فى افريقيا مثلا ، اما الفنون التقليدية التى تعبر عن التراث الحقيقى لافريقيا السوداء فهى كما نعلم الرقص والموسيقى والنحت ، وخاصة نحت الاصنام والاقنعة .

وهنا لكل مناسبة قناع ، فللرقص وللحرب وللاعياد والمواسم يلبس افراد القبيلة قناعا معينا ملائما للمناسبة ويشترك فى الاحتفال فيتخذ هذا الاحتفال شكلا دينيا يتقمص فيه الفرد بشخصية ومعالم القناع الذى يلبسه ، كى يتغلب على صعوبات الطبيعة ، مثل الجفاف او الكوارث الطبيعية او المرض او العقم او ما الى ذلك ، وبالطبع هناك اقنعه لارواح شريرة كما هناك اقنعة لارواح خيرة واقنعة لالهة الشر والخير والقيم المختلفة . فكل قناع له معانيه وفلسفته وشكله ومعاييره ويتخذ شكل القناع احجاما مختلفة . فمنها الذى لا يبلغ طوله الا بضعة سنتيمترات ومنها ما يبلغ طوله بضعة امتار ، واحيانا يظهر القناع وحده ، واحيانا يركب القناع على جسد تمثال باكمله كما هو مبين فى هذه الاشكال فى فن قبيلة الدوجون (Dogon) فى وسط افريقيا السوداء .

٦٣٧

مالرو ، سنجور وحضارة الانسان





فالقناع حاضر وموجـود فى كل مناسبهتقليدية لانه يعتبر الأداة الرئيسية فى الاحتفاء بهذه المناسبة ، ومن « اغاني الظلال » نذكر مطلعهـذه القصيدة للشـاعر الأسـود : « ياأقنعـة يا أقنعه !

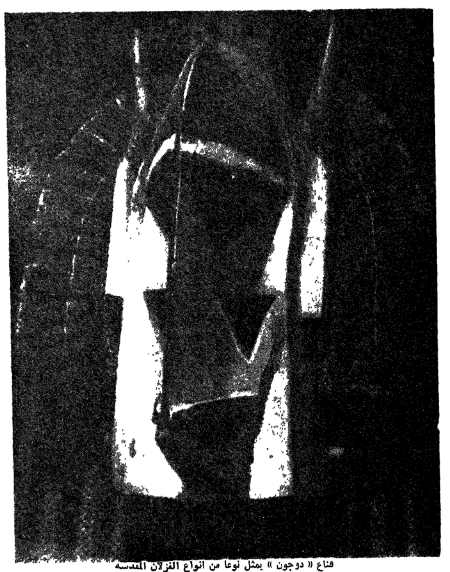
انت أيها القناع الأسود وانت ايها القناع الأحمـر ، وانتم الأقنعـة ذات اللـون الأبيض والاسود أيها الاقنعة فى الانحاء الاربعة التي تفتحمنها الروح تحيا البكم فى السكون .

تحية اليكم فى السكون !

وتحية خاصة اليك ياجدى أيها القناع ذورأس الاسد » (٤٤) .

ففضل القناع اذن تأتى روح الجد وتنطق فى علامات ودلالات معينة يكشف عنها عراف القرية الساحر عن ارادة الجد باتخاذ موقف معين تجاه مناسبة معينة او حل نزاع او اشكال او ما يعادله ، فبفضل القناع اذن يعيش الموتى مع الاحياء ويفرضون احترام ذكراهم وارادتهم .

وهناك أنواع عديدة من الأقنعة فمنها الذى يصور الأسد أو الثور أو التمساح ، أى حيوانات مقدسة لها ميزتها كطلسم فى القبيلة ، ومنها مايجسد شكل احد أفراد الاسرى الموتى القدامى، ومنها الذى يجسد فكرة الجمال أو التمر اوالخصوبة أو الحصاد الخ ...



قناع « دوجون » يمثل نوعاً من انواع الغزلان المقدسه



قناع نيمة من الكونغو خاصة بمراسيم الموت



قناع خشبي يمثل « ناميا لاية السيدات الحوامل في افريقيا السوداء »

وهنا يلتقى فكرا مالرو وسنجور حيث أن مالرو كثيرا ما كان يتحدث عن المعنى الحقيقي للقناع ، ذلك المعنى الذى يبدو واضحا كما رأيناه فى أفريقيا السوداء والذى افتقدناه فى الحضارة الحديثة ، اذ أن فى كل متحف نرى الأقنعة العديد من اقصى الشرق ومن ادغال افريقيا ، ولكن نشاهد من الخارج بنظرة ذهنية فقط وليست عاطفية ، او بعبارة ادق متعاطفة مع القناع نفسه مثلما هو الحال فى المكان الذى صنع به القناع ، وكثيرا ما تحدث مالرو عن هذه النقطة بالذات فى **المتحف الخيالى** وفى **اصوات الصمت** فأشار الى المعنى الأساسي للقناع بالنسبة للذى

يشاهده ، وأشار الى المقاييس الجمالية التي يخضع لها صنع القناع ، بل تناقش مع سنجور نفسه عن هاتين النقطتين .

وهذا الموقف يتقابل مع حضارات اخرى مثل حضارة الشرق الأقصى ، حيث ان الفن اساسا مشاركة وجدانية وعاطفية وانفعالية مع الفنان وتحفته ، او بعبارة ادق وما خلق . فلا يوجد فى أفريقيا فن جيد وفن ردىء ، وانما هو الفن بمعناه المقدس المطلق ، اى تصوير الواقع من خلال رؤية مقدسة . ونفس الشيء يحدث فى حضارة سومر القديمة وفى الشرق الاقصى ، فهى عملية الخلق بعينه ، على غرار الخالق سبحانه وتعالى وما خلق . ولذا فكل عمل فنى قديم يحمل معه وينبثق منه هذا المظهر المقدس وهذا العمق الديني الذى يجعله يوحي للانسان المعاصر بمعان خفية من الروحانيات والأبعاد التى ترتقى بالانسان الى أسمى واعلى معانى الرؤية الجمالية ، فان كانت الملامح تختلف تماما والمقاييس الفنية تكاد تتعارض من الناحية الجمالية والأستيتيكية عامة فالتحفة الفنية فى هذه الحالة تخلق مناخا واحدا ، وينبعث منها احساس واحد مثلما نستطيع ان نتأكد منه من خلال هذه الاشكال المختلفة لفكرة الخصوبة ، التي تبعد كل البعد فى هذا الشكل الموضح أدناه عن المعايير الجمالية المعتادة ، ولكننا نحس بمعناها العميق من خلال التركيز المناطق الخصبة فى المرأة كالبطن والثدى .

رأينا كيف ان النحت يعبر فى مظهره السائد فى افريقيا السوداء اى ان نحت القناع ونحت التماثيل له فلسفته وله اهمية بالغة فى حياة القبيلة .

ورأينا أن لكل مناسبة فنها الذى هو لغتها ووسيلتها للتعبير ، مثل الميلاد والحصاد والطهور والزواج والموت والحرب ، وهذه المناسبات لها موسيقاها وقصتها الخاصة .

حتى أن الشاعر الأسود يقول فى هذا الصدد بيت شعر صار خالدا :

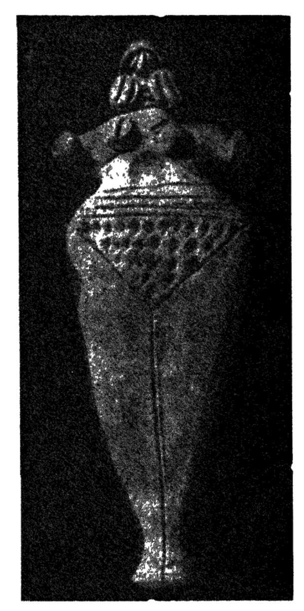
« اننا رجال الرقص ، الذين لاتثبت خطاهم الا اذا ضربوا الأرض ضربة قوية بأقدامهم فتنطلق ! » (٤٤)

(٢) ــ النمط الستاتيكي التأملى : هناك شيء آخر وهو موقف الفنان نفسه من اى عمل فنى آخر ومدى تأثيره به ، وهو الوضع التأملى المتعمق الذى تحمله التحفة الفنية ، فلدينا

---

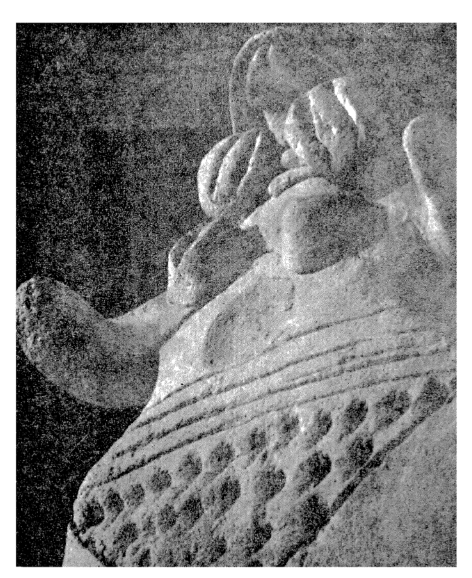
(٤٤) من ديوان اغانى الظلال قصيدة « لتصحبنى آلات الوترية ... » .

بالنسبة لمالرو كما رأينا أعمال عديدة عن فلسفة الفن والتأمل ، أهمها سيكولوجية الفن (٤٥) بالبعيد حيث يحدق ويتفحص مالرو كل تحفة فنية يراها أو يتمنى أن توجد بالمتحف الخيالي من نحت ورسم وقطع زجاجية وفسيفساء وصور فوتغرافية ... الى آخره ... ومن هنا ثمرة انتاج مالرو فى فلسفة الفن وايجاد العلاقات والصلات بين مختلف الفنون عبر القرون .



ربة الخصوبة فى حضارة ما بين النهرين القديمة
(منطقة العراق الحالى)

(٤٥) La Psychologie de l'Art



نفس القطعة مكبرة

كذلك الحال بالنسبة لسنجور الذى كثيراماىتأمل القطع الفنية فتوحي له بالتراث ال ق والتفاخر مثلما نراه بشاهد القناع الذهبي الشهير« الباولية » حيث يتغنى الشاعر فى قعال ، ل بالخطوط والرموز والايقاع لهذا القناع المشهور .

ويستطرد مالرو قائلا ان علاقتنا بالفن منذاكثر من قرن لم تتوقف عند كونها ثقافة بحـ ، فتتخذ الاتجاه الذهبى البحت اكثر فأكثر .

فمعلوماتنا أكثر من احساسنا الفنى التلقائى ــ وبالتالى فالزائر الذى يقوم بزيارة لمتحف الـ ر مثلا يعلم تماما أنه عندما يشاهد رسومات جويا ،أو مايكل أنجلو فهو لايشاهد سوى تحفة ة من أعمال هؤلاء العباقرة وانما وجدانيا وعاطفيا ، فهو لا يشعر بتلك الرهبة الرائعة والانفعال الـ ع

الذى أحس بهما الفنان نفسه عندما خلق هذهالتحفة مجرد صـورة تعكس أول انطباع فقط للأحساس الحقيقي الذى حاول أن يعبر عنـهالفنان والمشاعر العميقة التى هزته حينما خلق هذا العمل المبدع ، وهناك كثير من الأمثلة لمثلهذا الموقف نذكر منه مع مالرو نفسه الأحساس بالرهبة العظيمة والتقـوى التي تملكت الفنـانعندما قدم لنا « المسيح التقى » المعروض بمدينة بربينيوه بفرنسا والتابع لمدرسة كولونيا للفن .

وهنا نستطيع أن نلمس الى أى حد يمكنالفنان أن يعبر عن أحساس صادق ، وكيف ينتقل هذا الاحساس الينا نحن الذين يشاهدون هذهالتحف الفنية مـن خـلال القـرون والاجناس والثقافات المختلفة .

وكلنا نشعر بالأعجاب ونشترك سويا فىدنيا الفن للمتحف الخيالي وان كلمة أعجاب لاتكفى وانما نستطيع أن نقـول أننا نشـارك وجدانيـاوعاطفيا هذا الذى يعبر عنه الفنان العظيم .



أن مالرو شديد الأحساس بالرسم وبالنحت. اما سنجور فهو شديد الاحساس بالموسيقى وبالنحت . ولكن الذى يجمع بين الأثنين هـوالربط بين الأحاسيس والانطباعات التي تنتج من رؤية منظر معين فى الطبيعة فيترجم كل هذاالى أبداع فنى بمعالجة فنية ترتكز على تاثير كل منهما لفن من الفنون او لاكثر من فن ، فالحيــاةعامة ترى من خلال هذا الفن ، ومن زاوية معينة تخدم مقوماته .

ونستطيع أن ناتي بمثل لما نقوله من رواية« الأمل » لمالرو عندما نرى أن احد الابطال وهــو لوبيس (Lopez) النحات لايرى الواقع الا من خلال فنه ، حتى انه عندما يصف رجل الكنيسة يسترعى الأنتباه فيه انه مهمل المنظر ، لحيته بيضاء قبيح المنظر ولكن « يتمتع بيدين يستحقان الرسم » .

والحــرب بالنسبة لنفس « لويز » تعنى فرصة المرء لكى يسخر الفن فى خدمة النضال الوطني فيقول : ــ

« لقد نعطى الجدران العارية للرســامين ياصديقى وهيا ارسم وأرسم ، أن الذين يمرون أمام هده الجدران ونحن نتحدث اليهم ، يحتاجون الى الحوار . لايمكن أن يخلق فى جماهيرى عندما لانجد شيئا نقوله للجماهــير . ولكننا يمكن أن نناضل سويا ونفعل حياة سويا نضع أسسها معا، وفى هذه الحالة يكون لدينا كل شيء نقوله سويا» .

اما موقف سنجور من الفن فما علينا الا أن نتذكر ان كل مظاهر الحياة بالنسبة للشــاعر الأسود هى فن ، فالرقص والموسيقى والنحت جزء لايتجزأ من حياة كل زنجي ، فهو يعبر عن كل مظاهر الحياة بهذه الفنون ، حتى أن طبول التام تام نفسها تعتبر لغة قائمة بذاتها ، يتحدث بها سكان الأدغال من فوق الجبال والوديان .

وعندما يتحدث ســنجور عن الموســيقى والرقص الزنجي أو يتأمل أيا من الأعمال الفنية ، زنجية كانت أو من حضارة البحر الأبيض المتوسط العريقة التى طالما تفاخر بها سنجور على أساس أن هذه المنطقة منبع الحضارات والمدنية، نستطيع أن ندرك الى اى مدى تتقارب أفكاره مع أفكار مالرو ، فالتحفة الفنية تلعب دورا هاما عند هذين الكاتبين حيث تجعلهم يتأملون طبيعتها ومعدنها ومدى صلتها بالفنون الأخرى أو بتراث آخر .

ومن ثم يكون الفن بالنسبة لهما ذا طبيعة تاملية هامة ، فيتأثران به وينفعلان معه ويوحي لهما بعلاقات بعيدة ومثمرة بين مختلف الشعوب، ومن هنا تاتي عملية « فلسفة الفن » عند مالرو وعند سنجور التي تؤدى بهما الى مواقف مميزة تجاه الحضارة عامة .

أن الفن فى مفهوم سنجور ومالرو طليقليس حبيسا او مرتبطا بمنهج سياسي او اى أنتماء آخر غير أنتمائه لقيمة الذاتية النابعة منه نفسه ، يمكن للفن أن يخدم فكرة أو مذهبا او فيما برجوازية او اشتراكية او شيوعية او ما الى ذلــك .

وطالما ان الفن يعبر عن ذاته فقط ، وينفذ على أيدى مؤمنة بقيمه بل مؤمنة بقدسيته ويحتكره الحرفيون المهرة المؤمنون بما يفعلون فانه فن بمعنى الكلمة ، وفن نحت يســتحق أعجابنا وتقديرنا

ومحاولتنا لفهمه وهذا هو الحال بالنسبة للفن المصرى القديم وفن الصين وسومر والفن الزنجي ، لأننا نستطيع أن نرى أن الأبداع الفني يلتصق فيه كما راينا من قبل بأسمى معانى العبادة فى الدين ، بل الفن نفسه يضع الطريقة المقدسة الوحيدة للوصول الى الروحانيات والمقدسات فى محاولة لاكتشاف أسرار الكون .

فما الفن المسيحى فى تقدير مالرو الا البحث عن الله من القرن الحادى عشر الى القرن الرابع عشر .

وما الفن الزنجي الا البحث عن الانسان فى وسط الكون ، أما اذا اخضع الفن الى عوامل اخرى مات واضمحل وفقد معانيه .

• • •

هذا هو الذى حدث بالنسبة لفن النحت ابتداء من القرن السابع عشر حيث فقد النحت اتجاهه الديني المعبر واتخذ الشكل الأكاديمي الذى كان يخدم قضية سياسية واجتماعية وهي تخليد لويس الرابع عشر مثلا . تماما كالرسم الذى سلك نفس المنهج ، والأمثال عديدة تحت قلم مالرو حتى يصل الى الفن المسخر فى خدمة البروليتاريا ، الملتزم بمبادىء الأشتراكية المتطرفة أو الشيوعية فتدخل الرقابة والسياسة والسلطة وتحد من حرية الفنان وترسم له بالأمر خط الالتزام الذى يجب ان يتبعه . كذلك هناك عنصر آخر هو ظهور الأنتاج المتزايد بالجملة والرغبة فى الارضاء لرغبة العميل الذى يشترى الفن بالمال .

وهناك فرق شاسع بين الابداع الفنى وبين الانتاج الفني الضخم الذى يرضخ الفن بسببه لمقتضيات مادية واعتبارات اجتماعية غيرت مجراه فى أوروبا قرونا طويلة ، حتى ظهر الفن الحديث السريالى فعاد بالفن الى أصالته فاصبح لايرضخ لشخص معين ولا لنظام معين ولا ينافق ولا يتملق العظماء من رجال الدين ورجال السياسة وسيدات المجتمع ، ولا يحاكى الطبيعة فيقبل عليه عامة الذواقة ، وانما يعبر أصدق تعبير عن مأساة الأنسان الحديث وبأسلوب يبعد كل البعد عن الأساليب المتبعة فى الفنون حتى هذا القرن ، وبذلك يستعيد الفن أصالته ويتصل مباشرة بكل فن بدائى تلقائى زنجي كان أو غيره يعبر عن نفسه مجردا من كل شيء آخر سوى رؤية الفنان البحتة . ويستطرد مالرو فى شرحه لنظريته هذه قائلا « انى لا أقول أن براك (Braque) (٤٦) يكمل النحت السومرى ولكن بقدر ما يجعلنا ندرك تلك السمات المميزة للفن فى حد ذاته فانه بأسلوبه التحررى اعاد لبصرنا ذلك النحت السومرى الذى كنا قد افتقدناه . وكذلك الحال بالنسبة لبيكاسو كما رأينا .

ان زمن الفن لايطابق زمن الأحياء . فالموت يقهر الفنان نفسه ولكن عمله لايفنى عبر الدهر والأجيال ، ولكن هناك شيئا هاما الا وهو ان الفنان بصفته رجلا يفنى ولكن بصفته فنانا لايرحل أبدا عن هذه الدنيا لأن عمله يخلد . ويوجد الحوار بينه وبين الأجيال والأجناس ، فمايكل

(٤٦) براك رسام فرنسى سريالى معاصر .

« أنجلو » و « روفائيل و «وبودلير» و «بيكاسو»و « مالرو » نفسه وغيرهم ان كانوا رحلوا عن هذه الدنيا فبفضل أعمالهم يعيشون ويخاطبون الشر، وهذه هى اهم واسمى رسالة للفن ، اى ايجاد الحوار علـى أعلـى مستوى ، وهـو المستوى الوجدانى والعاطفى فى الانسان مع نفسه اولا ومع الآخرين ثانيا .

وكما يقول الشاعر شارل بودلير :

« أن الروائـح ، والالـوان والاصـوات تتقابل » على أساس أن كلا مـن حواس الفنان تستجيب الواحدة للأخـرى ، وتجعلـه اكثر حساسيـة لنوع معين من مظاهـر الطبيعـة ، فبالنسبة لمالرو أقتران رؤية الشجر بمجموعة من الأحاسيس والانفعالات التي تعود به الى الوراء فى حياته هو أو فى حياة البشرية جمعاء يجعله يستعيد دائما المواقف فى ذاكرته بنفس القوى والتعمق ، ولشدة حساسيته بفن الرسم مثلا .

كثيرا ما يتوقف مالرو عند انطباعه من انعكاس الضوء على منظر الأشجار . فالضوء سواء كان ضياء الشمس أو اضاءة جانبية يشغل مكانا هامافى تحديد المنظر فى كل رؤية ، ويؤثر كل التأثير على البطل بحيث انه يتخذ القرار او يقدم على الحدث تحت تأثير مشهد انعكاس الضـوء علـى الأشياء المجاورة .

فمن خلال الضوء تكتسب الأشياء والمناظر شكلا جديدا يختلف عما تظهر به فى واقعها ، فمثلا فى رواية « الطريق الملكـى » (٤٧) تعكس الشمس نوعا من الضوء الباهت على شـاطىء جزيرة سومطره فتبدو المياه عكرة وتبدو أشجار النخيل من بعيد كانها سور رهيب من الوحوش المفترسة السوداء ، فيملأ النفوس كآبة ورهبا .

ونفس الشيء بالنسبة لضوء القمر الذى يلعب دوره فى تكوين الاحداث ، وهكذا نرى أن الضوء هو طريقة المعالجـة الفنية الاساسيـة فى ابداع اندريه مالرو الروائى .

ويأتي النحت فى المرتبة التالية ، فاندريه مالرو شديد الاحساس بحركـة الأيدى بهيئة الجسد ، كما يشده دائما احساس عميق بشكل الاشياء . اما بالنسبة لشاعر « أغاني الطـلال » فاحساسه بالضوء لا يعتبر أهم معالجة من الابداع الفني ولكن هو الاحساس بدفء الضوء ، اى بحرارة الشمس مثلا وانعكاسها على الألوان ، الوان طبيعة السنغال من خضرة النخيل وحمرة زهرة الكانا المقترنتين دائما باصفرار زهرة الكاسيا ورمال الصحراء وحمرة الورود التى تتألق مع بريق الشمس على أرض أفريقيا، فيأتي الاحساس بالنبات قبل مظهره واساسا برائحته لتحديد المكان وتغير الفصول بين الحياة والموت أي بين الجفاف والحصاد .

فالرسم لايسترعى انتباه سنجور فى المقام الاول وانما الذى يستند عليه فى معالجته الفنية هو أولا الايقاع ونعنى بالأيقاع ايقاع الطبيعة فى الدرجة الاولى مثلا كالايقاع الثنائى لليل والنهار ،

---

(٤٧) La Voice Royale

وللجفاف والخصوبة ، ايقاع المواسم الدائرى ،ايقاع الفلك الذى تدور فيه العوالم فضلا عن ايقاع التحفة الفنية ، فهناك ايقاع الملمس والشكل واللون بجانب الايقاع الموسيقى بمعناه الضيق وايقاع الشعر والنغم وما الى ذلك .

ويقول الشاعر نفسه : « الصورة والايقاع تلك هى المقومات الأساسية لكل فن زنجي وكل زنجى يعيش العالم الخارجي بفضل الصورة والايقاع لانه يجب ان يتأثر بحواسه لابمنطقه ولا بعقلــه » .

وأخيرا فهناك قيم مستمدة من مناظر الطبيعة نفسها مثل : الايمان بالنبات ، وحب الاشجار التى تربط الأنسان بالبيئة وتوصله باجيال مضت وبواقع مشحون بالأحاسيس والانفعالات يتجاوب فيها البطل أو الشاعر مع الاحداث .

ونجد نفس الشىء فى معظم روايات مالرو : ـ

وأكثر من هذا نجد ان هناك ارتباطا وثيقا بين البطل وباقي اشخاص القصة، وبين منظر الاشجار التى توحي اليهم بأحاسيس معينة . وفى كـل الحالات فهم لايمكنهم أن يتجاهلوا هذا المنظر .

وعلى سبيل المثال : يظهر هذا الارتباط فى قصة « القدر الانساني » : حيث نرى ان جيزور (Gisors) والد البطل كيو Kyo بعـد وفاة ابنه لايستطيع أن يتحمل الالم ، ولكن الشىء الوحيد الذي يساعده على الصمود أمام مآسـي الدهر هو جمال الطبيعة والاستماع الى الموسيقى، بينما لم يستطع ان يهرب من الحياة بالغرق فى متاهات الأفيون الذى يتناوله ولكى ينسى جروحه وفشله فى الحياة . ومنظر الطبيعة هو مايمكن ان يراه من خلف النافذة مـن أشجار النوير التي تنشد انشودة الربيع بالرغم من أن كل شىء فوق المدينة حزين .

وبذلك نجد أن هناك تشابها فى كل أفكار مالرو وسنجور من ناحية ارتباط الأنسان بالمكان الذى يعيش فيه ، فالطبيعة تلتصق به ولايمكن أن يبتعد عنها أو يتجاهل وجودها .

وفضلا عن هـذا الأرتباط فهناك أيضـا ارتباط وثيق بين مظاهر الطبيعة وبين جميع الفنون الأخرى التى تترجم فى معظم الأحيـان رؤية الفنان للطبيعة الموجودة حوله .

● ● ●

وطريقة مالرو والمسـلك الطبيعى الـذى يسلكه فى قصصه هو تجميع للاحساس العام فى احساس معين مركز يتجسد فى لحظة وينطبع على المشهد كما يظهر فى المشهد المذكور تماما .

وبهذه الطريقة نجد ان كل عنصر من عناصر السرد مرتبطة بالآخر بحيث يشكل بناءا متكاملا ويجيب كل عنصر منه على الآخر . فهو يختار الاشخاص والابطال ـ فى عملية الخلق الأدبى تبعا لتطور الأحداث وطبقا لما يعطى له الواقع من مناظر ومشاهد ، ولكن الشىء الذى يهمنا هو أن كل بطل يعايش العالم . عند مالرو كما كان سنجور ـ فى الشعر من خلال احاسيسه ومشاعره الخاصة . فكل من مالرو وسنجور يتمتع بهذه الحاسة الفريدة التى تجعله مثل الفهد او النمر أو الأسد يشم من على بعد كبير ، ويرى بريق الضوء ويحس بالحدث قبل وقوعه .

ويمتاز مالرو أساسا بهذه القدرة الفائقةعلى خلق الجو المناسب للبطل وايجاد هذه الاحاسيس والانفعالات التى تعطى المناخ المطلوب لمتابعة القصة ومعايشة الأحداث من وجهة نظر البطل او الشخصية التى يسلط عليها الضوء .

أما سنجون : أيمكن ان ينسى أنه ابن الادغال ؟ وانه لايصف الشيء الا من خلال احاسيسه المتربصة اليقظة دائما ؟ ! ربما يكون هذا هو الربط الحقيقى بين الانسان والطبيعة ، فالاشجار مثلا هى الصلة الوثيقة التى تربط بين الانسان وبين البيئة التى يعيش فيها ، ففيها يرى الماضى بتاريخه ، والحاضر بقوته ، والغد ببشائره .

فعندما يقف الكولونيل بيرجيه (Berger)(٤٨) الذى هو مالرو نفسه ويتأمل ، يحس ان كل شيء تحت الاشجار « من بذور ، وخشب ، وجلد ، أو قش » فرائحة الطبيعة تفرض نفسها فرضا على بيرجيه وتتغلغل الى اعماقه ، وحفيف اوراق الشجر يجعله « يسمع حفيفا يأتي من تحت هذه الخضرة الخصبة الخلابة ، فيأتي ايضا بهدير من أجيال مضت ، آتية من أعماق الظلام الحالك » . وربما هذا يعني قدرة الاشجار على الاستمرار فى الحياة من الجذع حتى القمة ، تحمل معانيا كثيرة بين اوراقها وفروعها . واول هذه المعاني الصلابة وثانيها الجمال ، وثالثها الصبر والجلد .

وهكذا نرى أن شجرة الجوز المتقلص كماتبدو لاتحمل ثقل الدنيا وانما « تترعرع » وتزدهر فى حياة لاتنقطع .

وهناك أيضا ذلك المنظر الذى يراود فكر مالرو فيظهر لنا مرتين الاولى : فى **اللامذكرات** ، والثانية : فى **الامل** ، وهذا المنظر هو دائرة من الفاكهة الناضجة المتناثرة حول شجرة ، ويرمز قطعا الى امكانية تطور ، او نهضة ، فهذا المنظر يقترن بوجود القس على منبره بالكنيسة وهو يردد فى صلاته : ـــ

« وانى الموت لكل شيء ، وانى مولد كل شيء وانى سكون الاشياء الخفية ... »

واثناء هذه التراتيل كان البطل بيرجيه يفكر فى حلقة الفاكهة ، حلقة الجوز الملقى حول الشجرة فى منطقة الالزاس ، وكان يبدو له وكانه حلقة اناس احياء ملتفين حول جسد يحترق ببطء يمنح الحياة ...

ويستمر دائما فى مخيلة مالرو ـــ او بعبارة ادق ابطال روايات مالرو هذا الاقتران الوثيق بين منظر الشجرة والطبيعة عامة بمواقف معينة تتعلق بأحداث تحدد موقفا انسانيا ، وهكذا يستمر دائما هذا الربط بين الطبيعة والانسان ، بل كل عناصر الطبيعة بالانسان .

فمثلا ان صرخة الغراب تأتي من اعماق الهند حيث يسرح الكاتب بخياله عبر المحيطات فيعيش لحظة مشاهدة الاشجار المقدسة التي يلتف من حولها الرجال مثل عنقود الفاكهة الذى

(٤٨) Les Noyers de l'Altenburg

سبق ان تحدثنا عنه ، ويجول فكر المؤلف تارةفى بناريس لتخيل هذا المنظر المالوف لديه ، وتارة يعود به الخيال الى سبورج الالتانبورج بالالزاس حيث تبدأ للحياة اول البراعم من فوق الجوز الميت منذ الشتاء الماضي .

وهكذا نرى أن هناك عند الانسان هذه الرغبة فى الدوام وفى الاستمرار وقهر الزمن وتحدى الطبيعة . ويرمز الى ذلك منظر اشجار الجوز بالالتانبرج واشجار التفاح ايضا فى رواية الامل وحتى منظر الرجال الملتفين حول حلقة النار ببناريس فى الهند تدل ايضا فى هذه الحركة الدائرة التى تكون هي ، وفى الوقت نفسه تتغير فى كل دائرة جديدة ولكنها محتفظة بنفس الشكل الدائرى ، تدل ايضا مثل مشهد تاج الفواكه الذى يطوق الاشجار ، كل هذا يدل بالطبع على طبيعة الاشياء القابلة للتغيير بصفة مستمرة ولكنها فى جوهرها كما هي ، وهذا هو سر الحياة التي تعود وتجدد دائما .

ويبدو هذا واضحا فى مشهد آخر من نفس رواية اشجار الجوز بالالتانبرج حيث نرى احد الابطال « موليبرج (Mollberg) يتحدث بحماس بالغ مع الآخرين بينما يسترعى انتباه بيرجيه فجأة بالخارج منظر بعض الرجال يحملون جذوع اشجار الجوز تماما مثلما قام جده منذ اربعين عاما بنفس الحركة أمام مبنى البلدية المدينة بالالزاس ولكن هذه الحركة ايضا الم يكن يفعلها ايضا رجال القرون الوسطى فى الغابة المقدسة بينما كانت النافورة فى وسط المدينة بمياهها تنعش المساء ؟

وهذه الجذوع ، والخطابون والنافورة انما تجسد بالنسبة الى والد البطل هذا الشعور باللا مبالاة الذى يحمله الانسان تجاه مرور الزمن .

نفس الحركة انما تتكرر منذ قرون مضت واجيال سلفت وستتكرر فى المستقبل .

وهكذا تصبح القرون الوسطى حاضرا مستمرا وتنتقل تذكرة الدوام البشرى من الجذوع الى الاشجار المليئة بالحياة ، اشجار الجوز التي تسيطر على القرى من فوق علوها بالالتنابرج فيصفها الكاتب على النحو التالي : —

« أن كثافة الاشجار العريقة تنبثق من كتلتها الممتلئة ، ولكن هناك احساس بجهودها المستديمة لاستخراج فروعها بأوراقها الخضراء من هذا الخشب المعوج القديم ، الثقيل الذى يبدو وكأنه يفرس غرسا فى باطن الارض ويثبت فيها لايخرج منها هكذا يعطى الاحساس بالارادة القوية أولا ، وبالتغيير المستمر ثانيا ، فيجسد شجر الجوز لفنان بيرجيه الرغبة الاساسية لبلوغ الابدية .

ونفس الشيء يتكرر فى رواية الامل ، فى مشهد اثناء النزول من الجبل حيث يتوقف البطل ويتأمل شجرة التفاح فيرد على خاطره ان ثمرات التفاح لم تجن بعد ، ولكنها وقعت وتلتف من حول ساق الشجرة كالخلخال السميك يذوب شيئا فشيئا مع النجيل . وكانت شجرة التفاح فقط هى التى تنبض بالحياة فى وسط الحصى والحجارة التى تكسو الجبل ، فالنبات وحده ينبض بالحياة التى طالما تتجدد ومن حوله هذا الجمود الجيولوجى للجبل .

ويتحدث الشاعر الأسود بدوره عن ذلك المدار الدائرى للطبيعة وبالاحرى المدار الدائرى للنبات الذى يرتبط بالانسان ارتباطا وثيقا، بل يبدو هذا اوضح واهم فى شعر سنجور حيث الانسان الاسود تقترن كل حياته بمظاهر الحياة الطبيعة ــ وترتبط ارتباطا وثيقا بحلول الفصول أولا وقبل كل شيء .

فدائرة الفصول هى التى تتحكم فى حياة الافريقي لأنها مرتبطة بالحياة الدائبة القريبة من حياة القرية حيث راى النهار . ولذلك فمعنى الطبيعة وخصوصا انعكاس مظاهر الطبيعة على النبات يرمز الى معان كبيرة بالنسبة للشاعر الأسود الذى يرفض ان يكيف حياته على النظام الأوروبي ويرتبط بهذا النظام « الطبيعي » (اذا جاز هذا التعبير) الذي يعيشونه فى افريقيا .

وعلى اية حال فما هو أبيض فى اوروبا يكون اسودا فى أفريقيا ، والعكس ، بمعنى أن فترة الجفاف فى أوروبا ، اى جفاف البرد القارس توازى فترة الخصوبة فى افريقيا السوداء ، وبالعكس ففترة جفاف الأمطار فى أفريقيا توازى فترة الخصوبة اى الربيع والصيف فى اوروبا . والشاعر حساس للغاية لكل مظهر يشير الى اختلاف الفصول وقدومها فى معادها الدائرى .

ولذا نراه يحس بقدوم الربيع بمجرد شمه لرائحة الخضار : خضار الاوراق والنجيل من قبل ان تورق الأشجار أو تظهر البراعم ، فهو يسمع ويرى مالا يسمع ويرى الاخرون من الأوروبين .

فقدوم الربيع مثلا يأتي له وهو فى أوروبا على هيئة هفهفة النسيم القادم ببشائر القارة السوداء الدافئة فيعيش بأحاسيسه دفء أفريقيا حيث الشمس الحارة وموسم الحصاد بينما مازال البرد والصقيع والثلوج تغطى اوروبا ، ولا نبالغ عندما نؤكد ان كل حياة ومشاغل واحاسيس سنجور تحكمه وتتحكم فيها هذه الحركة الدائرة للفصول الأربعة .

فكل مناسبة هامة أو حدث او احساس مرتبط بموسم الحصاد او موسم الجفاف او موسم الرياح حتى انه عندما يحدد ميعادا يصل به الى انه لاينظر الى المفكرة الأوروبية المألوفة المكتوبة فى جيبه أو على مكتبة ولكنه يتحدث عن مفكرة الحصاد .

واحساس سنجور بالنبات يكاد يكون محور كل ماكتب وتحدث عنه لانه يقرن دائما النبات بالمرأة بتربة افريقيا عامة فى فكرة الخصوبة والانجاب والتفتح ، فالبذور تنبت وتترعرع وتثمر وتحصد ، والارض تثمر وتستغل فتزرع وتعزق بطنها ، اى تربتها الخصبة بعمل الرجل الذى يستغلها ويجعلها خصبة ومنتجة تماما مثلما يقترن الرجل بأنثاه فى فكرة الحب والأنجاب والخصوبة المثمرة . كل هذه الصفات موجودة فى النبات عامة ولكنها تتضح أكثر فى الاشجار . فكل شجرة تلخص معانيا كثيرة وتوحي بفلسفة الحياة بعينها .

ويرمز النبات عند الشاعر الأسود للأمل والصبر والتكاتف والقوة . فضلا عن انه يمثل ايضا الظلال والحياة فى المناطق الصحراوية الشاسعة فى ارض الستقال .

فالأشجار أولا تعنى التفاف الجماعة من تحتها فى النظام القبلي للقرية السوداء ، فالرجال يجلسون أسفلها للتشاور فى أمورهم فى رطبة المساء وسكونه ، ومن هنا يأتي الارتباط بين الانسان والشجرة . فهي بمثابة الشاهد الذي يسمع ويرى ويحضر كل القرارات الهامة التي يتخذها زعماء القرية وأهل القبيلة لقضاء وتسوية أمورهم اليومية ، ومن هنا تأتي المكانة الخاصة التي تلعبها الشجرة فى حياة أفريقيا السوداء . حيث نجد أن كل قرية بها شجرة تسمى « شجرة المشورة » يجتمع تحتها أهل القرية .

والشجرة أيضا تعنى الجمال : بقامتها الفارعة المشوقة كالنخيل والحور ، أو بفروعها الممتدة كأشجار الجميز والصنت والزان والبلوط ، أو بقوتها الجبارة كأشجار الباوباب المعروفة فى أفريقيا السوداء والتى هي دلالة مميزة للمناطق الأستوائية والمدارية فى القارة السوداء .

والشجرة أيضا تعنى الخضرة أى الحياة لتلك المناطق الموحشة المحرومة من الخضار وتحت ظلا لها يستقر ويستريح الفرد من قسوة الصحراء وشراسة الشمس المحرقة .

والشجرة أيضا نحصل منها على الثمار ، فتطعم وترطب وتروى ، فبالاضافة الى قيمتها الجمالية فهى ذات قيمة انتفاعية .

وأخيرا — وهذا هو الأهم — فالشجرة توحى بفلسفة فى الحياة فعلى حد تعبير الشاعر الفرنسي « بول فاليرى » (Paul Valery) .

« الصبر .. الصبر
الصبر فى الأفق الأزرق

فكل ذرة من السكون
فرصة تفتح زهرة ونضج فاكهة ... »

فالنبات أيا كان يوحي بالصبر الأزلى طالما عرفه الانسان : فهو يزرع ، ثم يروى ويتتبع الزرع حتى يجنى الثمار . وهذه هى الحكمة الكبرى فى حياة البشرية وهى حكمة النبات الذى يمثل دقة الطبيعة فى مدارها الدائرى الذى لايخلف الميعاد .

وحكمة النبات تتجلى أيضا فى استقرار الحياة ، منذ الجذور الممتدة فى باطن الارض وحتى القمة الشامخة التى تشق زرقة السماء .

وسنجور كشاعر ، يتتبع بهدوء وباهتمام بالغ تفتح الزهور ، وعطر الورود وانطلاق الشجرة وحفيف الاوراق ، وكل نوع يوحى اليه باحساس معين ، فأشجار الجوافة رائحتها تفيض بالانوثة وكذلك أشجار المانجو ، والجمال المشوق يتمثل فى النخيل السنغالي وفى شجيرات اللورا البيضاء والوردية .

وكثيرا ما ينطبق منظر الاشجار على أحاسيس الشاعر نفسه ، فاذا كان تعيسا فيحس بأشجار الباوباب الضخمة تتلوى من الألم ، واذا كان — يرتجف من البرد فى أوروبا فيرى الأشجار ترتجف بردا ، أما اذا كان سعيدا منتعشا فان الأشجار تضحك معه .

وهكذا نرى أنه بينما يشد مالرو منظر معين فى الطبيعة كما راينا فى مشهد الاشجار فالاحساس بمظاهر الطبيعة وخاصة بالنبات يتبلور فى ذهن سنجور فى حاسة الشم واقتران اللون الاخضر والاحمر والاصفر اى الوان مظاهر الطبيعة فى السنغال نفسها . وهنا نقف لحظة لنتأمل ماذا نقصد من عبارتنا هذه ، فهناك بالنسبة لكل فنان تطابق بين مختلف مظاهر الفنون بعضها ببعض وبين مخيلته هو وملكته الفنية النابعة من بيئته الاصيله بمعنى ان كل فنان يخلق لنفسه فى عمله الذى يقدمه لنا مناخا معينا يستوحى منه الالهام ويخلق الجو والمناخ المناسبين لما يتحدث عنه ، وقد تحدثنا عن فلسفة الفن والآن لنتناول دور الفن فى فلسفة الحياة : فالفن عند مالرو كما هو عند سنجور موقف اخلاقى يؤدى الى سلوك الانسان المعاصر تجاه اخيه .

• • •

٣ — الالتقاء الاخلاقى (Ethique)

وهناك ياتي على الفن ان يقول :

« اننى لم اجيء كى اعطى لكم الجزء الالهى الذى أتمتع به ولكنى جئت كى يسترد الانسان مكانته الصحيحة فى الكون وبصوت خافت اهمس له بعظمته » .

ان الفن الحديث سمح لنا أن نرى كل الاشكال فى العالم المحيط بنا بحرية تامة لاتخضع لاى أعتبار آخر سوى رؤية المناخ الذى ينبع منه ويترعرع فيه عبر تراثه الثقافى .

فالفن فى مفهوم مالرو هو اللاقدرية لانـه المجال الوحيد لاختيار الانسان ، اختيار ماذا ؟ اختيار موقف اخلاقى ومعنوي .

اختيار تقرير مصير كل انسان ، اى رفض القدرية والمحتوم والتحرر من فكرة المكتوب علينا الذى نستسلم له لأن الفن يعتبر تجربة وانطلاق عن كل مايجول فى النفس البشرية ، عن كل ماهو كامن ومكتوب وموقف الانسان من القدر فان فكرة الانسان ماتت بعد فكرة موت الله وكان على الانسان احياء نفسه من جديد .

ويعتبر عمل مالرو «**سيكولوجية الفن**»(٤٩) محاولة لأبراز أعظم مظاهر الانسان . ويطرح مؤلف سيكولوجية الفن عدة أسئلة فى هذا الشان ولعل اهمها السؤال الآتي : « كيف يمكن للمرء أن يتفق مع العالم الخارجي » سؤال حير البشرية من قبل ، اما اليوم فنزيد عليه سؤالا آخر كيف يمكن للمرء ان يتفق مع نفسه » ؟ على مدى التاريخ نرى أن الانسان يتفق مع نفسه من خلال هذا الذى يتخطاه دائما ، فاذا كان المرء اليوم يعتقد ان لاشىء يتخطاه ، وأن الالهة لم تعد اى شيء سوى أثبات لمقدرته الفائقة فى الابداع فكان لزاما عليه اذن ان يجد فى نفسه ، ونفسه فقط ، هذا التواقق بينه وبين نفسه .

(٤٩) La Psychologie de l'Art

فان آلهة المتحف الخيالي فى مخيلة مالروهو « الممكن » (Le Possible) وأهم ما يتسم به هذا المتحف هو الكفاح مــن أجل الحيــاة ،النضال ضد الموت ونقصد هنا مع مالرو الموت بمعنى الفناء وليس الموت المحتم على نهاية كل انسان يرحل عن الدنيا .

فالفناء هنا يعني العدم ، العدم الذى يلاحق البشرية فيقضي على كل سماتها الانسانية ، ولكن الامر الذى يعنيه مالرو هو ذلك الشعور بالانفعال الأساسي الذى ينتاب المرء أمام الحياة ، بادئا فى أول الأمر بحياته الذاتية أمام الخلود .

« لماذا يوجد شيء على شكل هذه التحفة الفنية بدلا من العدم ، بدلا من الا يوجد شيء » ؟ ذلك هو السؤال الذى حير مالرو امام الحضارات القديمة التى تلاشت عبر العصور ، او بعبارة ادق انقرض الذين عاشوها ورحلوا ولم يعد لهم أثر سوى هذا التراث الفنى يفرض نفسه فرضا على الدهر وعلى القدر ويرمز دائما الى البقاء . فضلا عن انه يحيي لنا هــذه الحضارات بكل معانيها ، بذلك تصبح المشكلة الحقيقية فى تقدير أندريه مالرو هــي ليســت توارث الحضارات وتداولها ، ولكن كيف وصلت الينا كل حضارة بتراثها الانسانى وكل ثقافة بمعالمها الخاصة بها وتوصلت الى اذهاننا بتراثها الانسانى وعواطفنا ووجداننا بأعمق معانيها الســامية الجماليــة والروحانية .

يعتقد اندريه مالرو الذى يرفض معونة الاديان وخاصة المسيحية أن عظمة الانسان ومجده هى فى ان يتوصل الى حل مأساة وجوده وحده بدون اى استناد الى قوى دينية . كيف نجعل المرء يدرك انه يمكن ان يقيم عظمته اى معونة أخرى غير تلك التى تنبع من نفسه .

ويصيح فى وجه الصحفيين :

ان الأنسانية لاتعنى ان نقف ونقول :

« أن الــذى فعلته لايمكن لاى حيوان فى العالم أن يفعله » .

لا ، بل ان الانسانية هي ان أرفض ما يمكن فى نفسى من حيوانية وأن أقول انى أصبحت انسانا بدون عون الآلهة :

ولكن مازالت المشكلة الأساسية غير محلولة بالنسبة له الا وهي « من هو الانسان وماجوهرة ؟ وهل هناك اى دلالة أو مفهوم يمكن ان نرسى اونقيم عليه تعريفا للأنسان ؟ وكل انتاج اندرية مالرو الفنى والأدبى بل وكل حياته ايضا وماحقق فى مجال السياسة والثقافة ماهو الا محاولة ايجاد حل ورد على هذا السؤال المطروح بشغف بل بقلق شديد من كاتب **« القدر الأنسانى »** .

هل مات الانسان حقا ، الم يبق منه مايشير الى معالم الانسانية ؟

ففي محاضرة ثقافية فى قاعة السوربــون يصيح فينا مالرو محاكيا نيتشه Nietzsche الفيلسوف الألمانى الذى تحدى العالم فى يوم ماحينما صرح « الله مات » لم يعد هناك رب فهل الانسان قد مات بدوره « الم يعد هناك انسان » ؟

وهذا التساؤل المحير فى الواقع لايقتصر علىاندريهمالروولكن كثيرا منالكتاب يتساءلونبنفس الطريقة ، والمقصود بهـذا السؤال طبعا القيمالأنسانية التى لم تعد لها ميزة للبشر تحت تأثير التطور والحضارة الحديثة حضارة القرنالعشرينالتى خلقت للانسان مع التقدم والرخاء كثيرا من المتاعب والمشاكل ، بل المآسى ، مثـل الحـرب واستعباد الآلهه للانسان الذى لم يعد يعرف هل يمكنه الاستقرار فى الحياة ككائن حـر مدركاوواعيا .

وهنا يتأمل مالرو مصـير القارة الاوروبيةفيقول انها تحتضر ، وانها مهددة بالفناء وتراجع نفسها فى قيمها مما يؤدى الى انشقاق فظيع بينالانسان والحضارة ، والفن المعاصر ما هو الا التعبير الحقيقي عن هذا الانفصام .

ان القرن العشرينمبصوم ببصمة«القدرية»على النقيض من القرن الذى سبقه ، ولكننا وصلنا الى نقطة بلغت بنا هذه القدرية الى حد يحتمعلينا اننسيطر عليهااما ان نستسلم لها فنموت».

فيما مضى كان مالرو يؤمن بمثل أعلى واحدهو « بروميثيوس » Promethee بطل أسطورة الاغريق الذى سرق سر النار من الآلهة فيرجع لهالفضل فى تقدم البشرية .

والمقصود هنا ببروميثيوس هو الانسـانالماركسى المعاصر الذى يصنع التاريخ ويغير وجهة تنمية امكانياته المادية والتكنولوجية فقط ، ولكنفيما بعد لم يعد مالرو يقتنع لا بالمذهب الشيوعى ولا بالماركسية لأنها لم تشـبع متطلبات أخـرىروحانية فى اعماق نفسه ، ولذا توجه الى نواح اخرى : فبدأ يعجب بالأساطير والتاريخ،والثقافةوالفن وبالتـالي بدأ يقتـرب من « أبوللو » ـ (Apollou) اله البطل الاسطورى الأغريقى الآخرعلى النقيض من بيروميسيوث ، ومن ثم فـرجل أبوللو هو الـذى يثـور على اسـتبعاد الالهةوالتكنولوجيا الحديثـة ، وهكذا يصـل المطاف بأندريه مالرو فى أهم مراحل فكره الى ردع حتميةالتاريخ ، بالتركيز على سيادة الروح والفكر ، وهذا هو اهم مظهر يؤكد عظمة البشرية .

ولكن أيا كان الانســـان المعاصر ، بيروميسيوثكان او ابوللو فمامنشكان المنطلق واحد عندهما الا وهو تأليه الانسان ، هذه الفكرة التىوردت على لسان أحد أبطال مالرو :

« ان كل رجل يحلم بأن يكون الها » (٥٠).

ومن هنا جاء المدلول الجديد لمفهومالانسانيةالحديثة فى عمل وانتاج مالرو .

فلم تعد النظم السياسية والمذاهب اينماكانت تكفى لتغطية الانسانية فى النفس البشرية ، كذلك الحال بالنسبة لذواقة الفن الذين يكتفونبتقييم التحف من الفنون بالنسبة لحضارتهم هم فقط . الأمر تغير واصبح يشـمل مضمون كلالبشرية فى انحاء الكرة الأرضـية على مختلف الأجناس والبلاد والأديان والقارات ، وبالتاليكلمة « حضـارة » الآن يجب أن تعنى شـمول الحضارات وكل مظهر من مظاهر الفن والحضارةفى العالم عبر عن الانسان فى اى ركن من الدنيا .

---

(٥٠) القدر الانسانى ص ٢٧١ : (La Condition Humaine)

ويتساءل الكولونيل « بيرجيه » (٥١) الذىهو الكاتب نفسه :

« فما الذى يراود فكرى منذ عشر سنوات وانا اكتب سوى الانسان ؟ .... ان أبى لم يكن اكبر منى سنا بكثير عندما بدات هذه الفكرةتسيطر عليه ، فكرة لغز الانسان التى تسيطر علي اليوم والتى تجعلنى ربما أبدأ فى فهمه ، وهناك شيئان جعلا فنسان بيرجيه (او ان شئت مالرو) يفهم البشرية ، أولهما ايجاد قيم انسانوية (٥١)جديدة ترد على هذه المشكلة المطروحة التىلخصها مالرو فى هذه العبارة « ان مشكلتى الآن هى ان اجعل المرء يعى ويدرك مدى انسانية اليوم » ، **وثانيهما** ايجاد حوار الفن والانسان .

١ ـ البحث عن القيم الانسانية الجديدة :

ما من شك ان المرء حبيس كما هو فى مصيره الذى يخضع له تماما ولكنه يتطلع فى نفس الوقت الى متطلبات تصعد به دائما الى اسمى وأعلى ، هذا المرء يجب عليه ان يخلق لنفسه قيما انسانية جديدة وصورة للانسان يمكنه أن ينظر اليها فلا يرى تلك الصورة التعيسة لمصيره الآن ، ولكن صورة تسمح له بالسمو وبالتوصل الى مجال اقوى من المصير نفسه ، ولذا كان لزاما على المرء فى عصرنا هذا ان يحاول صنع اسلحه تسمح له بالتغلب على القوى المضادة التي تثقل عليه فى العالم الحديث ، ونستطيع ان نلخص مشوار مالرو فى الفكر بأنه انطلق من العدمية الى الانسانية .

وما هى تلك القيم الجديدة التى يعرضها كاتب الأمل للانسان ؟

يسردها مالرو سردا فى منتهى الوضوح فيقول ، فى خاتمة رواياته **الغزاة** : (٥٢)

« نعلن أن القيم هى : ـ

ليس اللاشعور بل الادراك والشعور ،

ليس الهجرة بل الارادة ـ ليس شحن الرؤوس ولكن الحقيقة ......

واخيرا الحرية كل الحرية فى الاكتشاف » .

كل هذا لا نكمله بهذا السؤال : « الى أين »لأننا لا ندرك شيئا عن هذا ، ولكن نتساءل من أين نبدأ تماما كما يحدث فى العلوم المعاصرة فأمام العدمية التى تهدده فى كل مكان يتحتم على المرء ان يختار : خلق موقف أخلاقي جديد لنفسه اوالانتحار . والمقصود بالانتحار اما الانتحار الفعلى أو الانتحار بوسائل اخرى : الذهنى أو الروحانى الذى يفرض على المرء أن يقبل مذلة مصيره فيخضع للقدرية او ان يهرب منه ليخلق لنفسه اللهو عنه بشتى الطرق ، ولكن مالرو يترك اللهو ويترك الانتحار ويختار وضوح الرؤية بشجاعة تامة لمواجهة الحياة وهذا يتجسد فى شخصية « بركن » (Perkan) فى الطريق الملكى .

(٥١) اشجار الجوز بالالتنبورج ص ٢٩ .

(٥٢) Les Conquirants

وبعد كتابة ست قصص اى بعد اكثر من عشرين عاما تكلم مالرو مرة ثانية بوضوح بطريقة مطولة وباسلوب واقعى عن مشكلة الغرب وفي هذه المرة لم يكتف بعرض مجرد بل ويضع النقط على الحروف .

وقد أبرز مالرو فيما كتب « أصوات الصمت » و « سيكولوجية الفن » تدهور الحضارة الغربية خلال القرن السابع عشر الذى كف فيه الانسان عن التوجه الى الوجود وخلال القرن الثامن عشر والتاسع عشر الذى شاهد كل آماله أولا فى آلهة المنطق ثم آلهة السياسة حتى أدركته اخيرا اللحظة التى انهارت فيها كل مقدساته السالفة فتحقق هو من حقيقة واحدة انه لا شيء، او يكاد لا يساوى شيئا ، وهنا بدأ دور الثقافة الغربية الحديثة فى التساؤل عن مفهوم الانسان وعن البحث عن قيمه .

ولكن فضل مالرو يرجع الى انه لم يكتف بطرح هذه المشكلة التى ظهرت فى اعماله الأولى بل اعطى ، أو على الاقل ، عرض حلولا من خلال اعماله .

فالانسان عندما يقدم على الفعل يحل مشكلة لا وجوده ، والفعل هنا لا يقف عند الاقدام على صنع الأحداث فقط بل يشمل الفعل الفنى أى الأبداع . فالفن وحده اذن ، ولا شيء سواه ، هو السبيل لاسترداد الانسان الحديث لانسانيته.

وفى الابداع الفنى سبيل اعمق لاتصال الانسان بأخيه عبر العصور والمجتمعات المختلفة ، فاذا كانت الثقافات والحضارات تنهار او تختفى هناك القطع الفنية نفسها التى تحفظ التراث وتعبر عنه ، واخيرا وهو الأهم تثبت لنا دائما استمرارية قدرة الانسان الخلاقة بالرغم من العدوانية والشراسة التى تحيط به فى العالم الخارجي .

كيف يعيش الانسان فى عالم عابث به ، ليس له أى معنى ؟ بل يعيش الانسان كى يعطي لهذا العالم معنى ولا يترك العبث يلعب به واهم رسالة للانسان المعاصر هى ان « يعطى معنى للامعنى » على حد تعبير الكاتب الفرنسي الشهير « مونية » (Emounier) .

ويبدأ مالرو من البداية حيث يبنى نظريته على العدمية كمنطلق لكل انسان ومن هذا المنطلق الذى يدفعه الى الاقدام على الحياة ، على فعل الحدث ، فيعطى معنى لحياته ، تتبلور فكرة الانطلاق من العدم للوصول الى الانسانية التى هى الايمان بالقيم الايجابية للانسان فتترك وراءنا عالما باكمله من معتقدات وافكار وتصرفات وايدولوجيات ، ولنواجه امامنا مصيرنا عاريا مجردا من أى اعتبار آخر . والملاحظ هنا أن ترك تلك القيم الحضرية والفلسفية مصحوب دائما بالنسبة لابطال رواياته ، ان مالرو نفسه ترك اوروبا اى الغرب وذهب الى اقصى الشرق للبحث عن مجهول يبنى به الانسان قيمه وعالمه الجديد . فمالرو نفسه هرب من فرنسا كى يتامل فى هدوء وفى اعجاب عوالم اخرى ، والملاحظ ايضا ان ابطاله على غراره هم يبحثون عن انفسهم ، فهم لا ينتمون الى حضارة الغرب التقليدية المألوفة لديهم ، ولا ينتمون ايضا الى حضارة الشرق او البلاد الغربية عليهم اينما كانت ، فلا سبيل اذن لخلق قيمهم لانفسهم بعد ان يواجهوا مصيرهم بشجاعة ويقظة ووضوح رؤية تجعلهم يدركون انه لا مفر لهم سوى الاعتماد على انفسهم فقط كبشر .

ومن ثم اصبح لزاما على المرء ان ينظر لمصيره نظرة متفائلة بناءة من لحظات يأس شديد ، وتمرد على القدر ، وبالرغم من كونه يعلم جيدا ان مصيره يكاد يكون لعبة يلعب بها القدر ، صار لزاما عليه ايضا أن يعتقد فى دوام البشرية المهددة دائما بالزوال كما يراها مثلا لينج (Ling) احد أبطال **القدر الانسانى** فيقول :

« انكم تعتقدون أن هناك فيما تسمونه الانسان دائما لا يوجد على الاطلاق » بل يوجد هذا الشيء . ومالرو بفكره يؤكد هذه الحقيقة ، **فهو لا يؤمن بدوام الانسانية فى الحاضر** وفى المستقبل فحسب بل يؤكدها بالنسبة للماضى فى كل حضارة قديمة وفى كلّ مظهر من مظاهر الفنون العريقة .

وبكل احاسيسه وجوارحه يبحث مالرو مع ابطاله عن هذا الشيء الذى يحقق دوام البشرية ويؤكد معالم الانسانية منذ بداية الحضارات ، هذا الشيء الذى قهر الزمن والموت والتهديدات المختلفة وصمد عبر الازمنة والأجناس حتى أنقذ الانسان من الهلاك ، فهذا الشيء هو الايمان المطلق بقيم ايجابية نابعة من الانسان نفسه ، ولا تستند على اى شيء آخر سواه بقدراته وامكانياته لمجابهة واقع مصيره ، وهكذا تؤدى فلسفة العدم الى فلسفة الايمان بالانسان اى الانسانوية .

هناك بين كل الثقافات التى سبقتنا ترابط وثيق فنحن تعلمنا الآن أن نرى بأعيننا وبأذهاننا وبكل عواطفنا ، وبفضل فكرة المتحف الخيالى لكل الفنون نستطيع ان نقارن ونقيم ونكتشف العلاقات والصلات بين مختلف الثقافات والحضارات ، « فنوجد لها لغة مشتركة » وهذا الاتجاه واضح كل الوضوح فى رواية الطريق الملكى حيث يسترد البطل كلود فانيك (Claude Vannec) حديثه فى هذا الشأن قائلا :

« ان المتاحف بالنسبة لى انما هى أماكن حيث تصبح كل الأعمال الفنية الماضية أساطيراً تنام حياة تاريخية طويلة فى انتظار أن يوقظها الفنان من جديد ويأتى بها الى الحياة الحقيقية ..... » .

فنكون كالمكفوفين اذ لا نرى امام هذا المشهد ما تحمله هذه الأعمال الفنية من قيم حضارية وانسانية تشكل لنا الانسان الجديد بالمقارنة والوصول الى المعنى العميق لكل الفنون فنصل الى الفن العالمي ومنه الى « الانسان » مجرد من المكان والزمان والحضارة الخاصة به .

ولكن متفتحا الى العالم بأكمله تذوب خصائصه فى خصائص كل البشر .

وهنا تتسع فكرة الأخوة والجماعة وتشمل أخوة المجتمعات بأشملها ومحاولة التعمق فى العلاقات الانسانية عبر الحضارة ، وهكذا يصل الانسان الى جوهر الاشياء لا الى مظهرها بفضل هذه النظرية الى الفن العالمى والى الحضارات المختلفة التى تجمع فى معنى واحد هو تعبير المرء عن جوهره بفضل تعبيره الفنى الصادق ، ولعل هذا الذى يسميه مالرو « الانسانوية العالمية » انتصار الانسان على القدر ، بمعنى أن الفنان ، والبطل والقديس يتغلبون «بفعلهم» على القدرية ، ومن ثم يؤكدون انفسهم كبشر فى المجتمع المعاصر .

وكلتا التجربتان لمالرو وسنجور تلتقيان في نفس المجال : المعايشة لاحداث الحياة ــ فالفن مثل الثورة كل منهما مجال شاسع اى حقل واسع النطاق الى ابعد الحدود . فهناك صورة تأتى من الفن وهناك صورة تأتى من الحياة ولكنهما تلتقيان وتلتصقان التصاقا وثيقا في مخيلة المؤلف .

ولنأخذ مثلا على ذلك في رواية الامل : ونذكر كيف أن « مانويل » (Manuel) اى البطل كان اثناء تجوله على طرق اسبانيا يصطحب كلبه الكبير كما صوره مالرو « كان ذات الجسد الممتد مثل الرسوم البارزة على المبانى العتيقة ويمشي على الطريق مثل حركة الشير الأزلية منذ بدأت هجرة المسيح الى مصر » .

ومثل آخر من قصته : **اشجار الجوز بالالتانبرج** » هو الذى يعبر عن فرحة جموع المساجين والصحة وعلامات السعادة التى كانت تبدو على وجوههم مثلما يبدو تماما هذا الشعور فى رسومات بروى (٥٣) .

ويأتى هنا دور المتحف الخيالى كما كان يروق لمالرو ان يتخيله . فأى متحف فى العالم هو من أكثر الأمكنة التى تعكس عظمة الانسان . فهو يفرض على المرء أن يتساءل عن معانى هذه التحف الفنية التى تعرض فى المتحف ، ومدى علاقتها ببعضها ، ومن ثم فيتساءل المرء عن رسالة الفن نفسه .

والمتحف الخيالى الذى بدأ فى مخيلة مالرو بدأ فعلا يجسده قبل وفاته عن طريق افتتاح متحف يجمع بين مختلف الفنون التشكيلية مثل النحت والخزف .

والمتحف المثالى هو الذى يشمل كل الفنون بشكل يجعل تداول الحضارات مستمرا ويسيرا من مختلف العصور والاجناس ، مهمته الاساسية الرد على المتطلبات الجمالية المختلفة الكامنة فى أعماق البشر والتى تعبر عن تراث عريق فى كل مراحل البشرية ، وهل هناك اجمل واسمى من تعارف الشعوب عن طريق الفن ؟

وكل انتصارات نابليون بونابرت فى ايطاليا لم تستطع ان تحضر الى فرنسا سقفاً فيه الفاتيكان الى اللوفر ــ بينما أن مجرد عرض الموناليزا (اى الجو كوندا) لليوناردو دافنشى فى اللوفر مثلا جعلت حضارة النهضة الايطالية تزدهر وتترعرع فى عقول الفرنسيين عبر الأجيال حتى يومنا هذا بفضل هذا العمل الفنى مثلا .

ونضيف هنا نحن مثلا آخر : ان ما تركه معرض توت عنخ آمون المتنقل فى أوروبا وامريكا منذ سنوات قليلة من تأثير واعجاب وتقدير فى نفوس كل الذين شاهدوه اكثر بمراحل من دوى اى انتصار عسكرى ، او حتى ما يعمله النشاط الاعلامي والسياسي على الصعيد الدولى من أجل معرفة مصر ، ومتابعة قضاياها .

---

(٥٣) بروجيل (بيير) (Purre Brueghel) رسام فلامنكى من القرن السادس عشر مشهور باتقانه للوحات الجماعية التى تعبر عن مشاهد طليعة ورهيبة تتخبط فيها جموع البشر .

ان الفن اذن يلعب وحده دورا هاما وخطيرافى العلاقات الانسانية وانطباعات البشر بعضها عن بعض وبالتالى فرسالة الفن هى اسمى معانيالرسالات ، وتأتى فى تقدير مالرو فى المرتبة الاولى قبـل الديانات الســماوية وقبل الايدولوجياتالسياسية ، لانه أصدق تعبير حضارى عن العمق الانسانى فى البشرية .

ولذلك يتعين أن يكون الفن الحديث حلقةتربط بين مختلف الفنون ومختلف الحضارات كى يصــل الى المفهوم العصرى فى تكامل الحضــارةالعالمية .

فنظرتنا الحديثة للثقافات المختلفة يجب أنتكون نظرة احترام وتفتح واعجاب لان كل مايعبر بصــدق عن بيئته يستحق ان يعامل باحتــراموتقدير وهذا هو الأهم ، يستحق ان نقف عنده فنأخذ منه ونعطى له فى حوار مثمر اخوى مثيرانسانى .

ان كل ابداع فنى يكشف عن امكانية البشرفى تخطى العصــور وتجاوز الزمن وحتى لو ان الحضارات اختفت او ماتت فان فنها لم يمت .فمثلا كما يقول مالرو اننا لا نعرف شيئا عن الفلاح المصرى القــديم أو الفراعنة لكننـــا نعلم الكثيرونتجاوب فعلا مع الفن الفرعونى القديم ، فنجد التماثيل المصرية فى متاحفنا بفرنسا » .

وهكذا نرى على حسب نظرية مالرو أن الفنيخلق لنفسه قيمه الاساسية بل قيمه المطلقة . ولعل أهم هــذه القيم هى كما ورد مــرارا علىلسان مالرو قدرة الفن على تحدى القدر .

فالفن يرفض العدم والعبث الــذى يهددالانسان فى العالم الحديث ويعطى للانسان فرصة تغيير الواقع والأشياء فى عالم جمالى مســتقل ،متماسك ومميز .

وهكذا فأن الفن ما هو الا بعث وهو الشيءالوحيد الذى يمنح للانسان فى هذه الدنيا فالقدر يكسر ، والزمن يغير ، أما نحن البشر فبفضلالفن فنختار وندوم فنحيي أنفسنا من جديد خلال اعمالنا الفنية ....

ان الثقافة فى تقدير مالرو فى أوسع نطاق لهاهى تراث فكــرى فنى وخلقى ويصــفها مالرو كالآتى : ـ

« ان كل ثقافة عميقة عندما تصبح عالميةتبدأ فى الظهور لنا فى شكل مغامرة تماما كعلم الفيزياء الذى هو مغامرة لغزو العالم الحديث . فلنذكر أن علم الفلك عاش قرونا بأكملها بينما قيل فى قليل من الوقت ان الارض لا تدور ، كذلكالحال بالنسبة للثقافة الحالية التى ولدت لنــا تساؤلات موجهةتنبعمنها ارادةقويةفى ازديادتداركالانسان لمعنــى حياتــه علــى الارض » (٥٤) فالانسان هو اللغز الاساسي فى الكون .

---

(٥٤) 31 mai 1952congris de I' Oeuvre du XXsicile sur La Culture. (Paris)

مؤتمر حول الثقافة ٣١ مارس ١٩٥٢ (باريس).

ويمكننا ان نقول ان مالرو قطع أكثر من نصف الطريق بحثا عن الانسان ، أما سنجور فقابله فى النصف الآخر الذى قطعه هو كى يلتقى بالوجه الاخر للانسان المعاصر اى الانسان الغربى فأكد سنجور « بالفعل » ما نادى به مالرو بالفكر .

معنى اعتقاد الشاعر الأسود أنه لا يمكن ان تقوم حضارة الا اذا كانت شاملة متكاملة تجمع بين كل الحضارات وخصوصا تلك التى نعرفها بالحضارة الغربية والتى على شبه النقيض من الحضارة الافريقية ، ولكن هذا هو سير الكون نفسه الذى يقوم على نظرية التكامل والتعارض ، فالابيض على النقيض من الأسود ولكن لا بد من وجودهما فى الحياة سويا

والليل عكس النهار والشمس على النقيض من القمر ولكن كل هذه العناصر المضادة لازمة لتكوين الكون فى مداره وفى فلكه وفى حركته ونستشهد هنا بالآية الكريمة : ــ

« لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون » (٥٥). (صدق الله العظيم) .

وهذا بالضبط ما يعتقد فيه ليوبولد سنجور حينما يتحدث عن نظريته ، اى السكينه التى يسبح فيها الفلك ويدور فيها العالم .

فالزنجى بطبيعته كالرجل الشرقي لا يعرف القلق والضياع فى الدنيا لأنه يتلاءم مع الطبيعة المحيطة به ولا يعرف سوى التسبيح والتكبير لهذا الذى خلق السموات والارض وكل ما عليها وان كان يحدد بالضبط اسم الله سبحانه وتعالى باسم « مونتو » الاعلى ومونتو يعرف عند الرجل الأسود بكونه اعظم رجل واكمل الرجال خلقا وشكلا ولهذا فهو يستحق العبادة وهو أقوى الكائنات فخلق كل شيء وكل شيء فى مكانه ويؤدى وظيفته على خير وجه . فلا تمرد ولا انشقاق ولا قلق فى حضارة الرجل الأسود حتى جاء اليوم المشئوم الذى سحق فيه الرجل الابيض كل شيء واقتحم البلاد واستغل اخاه الأسود أسوأ استغلال عرفه تاريخ العالم الحديث، فدنس المقدسات وحطم الحضارات ورفض الحوار .

ولكن لا بد للظلم يوما أن ينجلى ولا بد من يقظة شعوب افريقيا حتى تحقق الحرية وتسترد الكرامة وتوجد الحوار ، فتبنى الحضارة الجديدة للانسان المعاصر هذا هو بعينه خط سير الشاعر الاسود حتى يلتقى فكره بفكر صديقه مالرو وكيف كان هذا ؟

اذا كان اندريه مالرو قد رحل كثيرا بعيدا عن بلاده باحثا عن مفهوم جديد لحضارة الانسان المعاصر فان الجواب على بحثه يوجد بافريقيا حيث تعلم ان الفن يعبر عن الانسان ، حيث تعلم الانسان أن يجد لنفسه فلسفته وحكمة وجوده فى هذه الدنيا .

« لا يجب ان يبدا نحاتونا فى نحت اقنعة حديثة على ذوق اوروبا ، انك على حق ! ولكن الشيء الذى يجب ان يكون هو ان يحس نحاتونا انهم فى منتهى الانطلاق ، فى مجال الفن العالمي

---

(٥٥) الآية ٤٠ من سورة يس .

بطريقتهم ، ويجب ايضا ان يدركوا أن قوةالانفعال والتأثر بالشيء (التى هى أصدق تعريف لكلمة افريقيا نفسها) قد منحت لهم وهذا سر تفوقهم ، نقطة امتيازهم عن الآخرين فى مجال الفنون . ان الأقنعة سوف تموت يوما ولكن أفريقيا سوف لا تخضع ابدا الى الفن الأوروبى الحديث .

اننا نعلم تماما ان هناك فى الطبيعة وفى كل بقعة بها وجود للانسان وسنتوصل يوما الى الامساك به ! » (٥٦) .

« فى ذات يوم أنزعج سرطان البحر (٥٧) العجوز « كو كروفو » من زوال الحكمة فى العالم ، فلا أحد يعير لها الاهتمام الكافى ويتبع ارشاداتها ولذا قرر « كو كروفو » ان تجمع كل الحكمة ويضعها فى حبة قرع كبيرة ثم يصعد بها الى اعلى شجرة عالية حيث يخفيها عن الناس ويحكى الاجداد انه بعد قليل من الوقت تعب « كوكروفو » من الصعود وتضايق من حمله الثقيل ومن مجهوده الضخم ولذا فألقى بحبة الفرع من فوق الشجرة فانكسرت الحبة وتبعثرت فى ارجاء العالم كله ولذا فهناك اناس اكثر حكمة أو اقل حكمة من الآخرين ! » .

هذه هى اسطورة زنجية تعلل درجة حكمة الشعوب ورقيها وأصالة الحضارات بين مختلف الاجناس .

والحكمة عند ليوبولد سنجور تتلخص فى أمرين : ـ

اولهما العودة الى الوطن الام افريقيا ، والايمان بالانتماء المطلق الى أرض الأجداد والى تراثها العريق هذا من ناحية ، والبحث عن الحكمة عند مختلف شعوب العالم لكى يكمل الحكمة المطلقة التى هى مزيج وخليط من الحضارات لكل الشعوب من ناحية أخرى .

فموقف سنجور من الحضارة المعاصرة ينقسم الى شقين : ـ

الشق الأول : الانتماء الى الأصل العريق للانسان الأسود بكل مظاهر هذا الانتماء الساسى ، الفنى والفلسفى .

الشق الثانى : هو ايجاد الحوار مع الحضارات الاخرى لبناء المجتمع العالمى المعاصر .
ورأينا أن كل ما كتبه سنجور هو افريقيا ، أى أن انتماؤه مطلقا على الصعيد السياسي ، والايديولوجى ، والوجدانى والفنى . . .

وبوفاء مطلق استمر الشاعر الاسود على مدى اكثر من اربعين سنة فى نشر حجته ، غير مبال بالمفاخر ولا بتقلبات الدهر ـ فهو يحب مجابهة الحقائق وكم هى مريرة وصعبة ، المواجهة فى بلد متخلف وفى قاره فتية خضعت قرونا طويلة للاستعمار الأوروبى : فكيف اذن الكفاح ضد الفقر والجهل والمرض والتخلف والأمية ، والأمر من هذا ذل الاستعمار ؟ كيف يكون استرداد

---

(٥٦) زوار مارين ص ٣٤ .

(٥٧) ويعرف بالفصحى باسم « السلطعون » .

الكرامة وتتم استعادة الحرية واحياء التراث للقارة الشامخة ؟ لا سبيل الا فى الثقافة أولا ، فالثقافة سلاح الرجل الاسود ولكن اية ثقافة ؟ الثقافة التى تعتمد على تكامل وشمول الثقافات وبالتالى ايجاد الفرصة للرجل الأسود لاسترداد مكانته الصحيحة فى المجتمع العالمى المعاصر الذى يعلمه الكثير ولكن ايضا يستفيد منه أكثر .

فلا يمكن لمجتمع يناشد العالمية حيث المنظمات والهيئات الدولية المختلفة مثل هيئة الأمم المتحدة ومجلس الأمن وما الى غيره أن يتجاهل الغرب مثلا وجود العالم الثالث التى تعبر القارة الافريقية أهم عنصر فيه . هذه القارة التى حتما ستلعب دورا هاما فى مسرح التاريخ القادم على الصعيد الحضارى كما تنبأ بهذا اندريه مالرو نفسه (٥٨)

« .. الآن من يسمع هديرا هائلا مدويا يأتي من أركان الأرض سوى أوروبا ... » وفى نفس الوقت يعلن عن جنازة عالم قديم ترى هل ينبىء بقدوم افريقيا ... ؟

أفكر فى طائرتى عام ١٩٥٩ التى كنت أجوب بها فجرا مستنقعات التشاد الشاسعة ؟ افكر فى الجندى الاسود المجهول تحت شمس باريس المتواضعة بميدان الكونكورد ، حيث احتفلنا يوم ١٤ يوليو بتوزيع اعلام اتحاد دول افريقية المستقلة ... أفكر فى الرئيس سنجور ــ وفى الزنوجيه التى كان يعلنها على الملا ...

... أن سنجور أيضا تنبأ بالدور الذى سيلعبه العالم الثالث على مسرح التاريخ فى عام ٢٠٠٠ هل سيقف العالم الثالث امام الحضارة التى تغزو القمم وتضيع شيئا فشيئا بها ؟

ان مالرو اذن مثل سنجور لا يمكن ان يتجاهل الحقيقة الجلية للقرن العشرين الا وهي تكامل الحضارات ومزج الاجناس المختلفة التي فعلا تنادى بعضها البعض بسبب هذا التناقض.

ان عطاء الحضارات المتبادل يساعد على ازدهارها وتفتحها ويوجد السكينه والسلام فى سير مشوار العالم القادم على غرار مسيرة الكون نفسه التى طالما تغنى بها سنجور فى شعره ، لم يعد من الممكن ما يعتقد سنجور انه حتى على الصعيد الداخلي لاى بلد أن نتجاهل بعض الحقائق الخاصة بالانسان المعاصر .

« ... أن ندرس الانسان فى ماهيته فقط فلا نعود الى اصله وجنسه وتاريخه وبيئته وجغرافيته ، فهذا موقف خاطىء ومائع وغير واقعى أن كارل ماركس عرف الانسان على حسب نظرية العلم الحديث بانه حيوان على المستوى يفعل نفسه ويتكون فى الطبيعة وبواسطتها فى المجتمع المحيط به وبواسطته . » (٥٩)

ويرجع فضل سنجور فيما كتبه واخذ به دائما فى انه يعيد الرجل الاسود على كل المستويات الى الجماعه الاساسية التى ينتمى اليها ثم يعطيه فرصة التفتح الكامل تجاه

---

(٥٨) اشجار الزان التى نقطعها .

(٥٩) Senghor : Pierre Teilhard de Chardin au la politique africaine p.25

الحضارات المختلفة وخصوصا حضارة الرجل الابيض الذى كان العدو الاول والذى اصبح أهم صديق . وبذلك تتحقق فى افريقيا نفسها أولاما ينادى به مالرو وما حلم به وحققه سنجور اى « الافريقانية » (L'Africanite) خليطا سعيداموفقا بين الزنوجيه (Negritude) والعربية (Arabite) والخطوط التاليه هى تفتح القارة كلها الى العالم الخارجى فتعطى وتأخذ بدلا من ان تعطى وتمنح دائما حتى أيامنا المعاصرة نفس الثروات البشرية والاقتصادية التى سلبها المستعمر الابيض من أرض افريقيا .

آن الاوان اذن أن تتمتع افريقيا الآن بثروتها أولا على الصعيد الاقتصادى والسياسى والفنى ، تزدهر فنونها العظيمة لتعرف للعالم اجمع انها أصدق تعبير للانسان فى البحث عن ذاته وعن وضعه فى العالم ، ثم تأخذ من الحضارات الغربية مايلائمها وما يتواءم مع تكوين الرجل الاسود وبيئته ولاتحاكى ولا تقلد تقليدا أعمى ، ولا تخضع لعبودية جديدة تحت ستار «الثقافة» أن أبشع انواع الاستعمار هو الاستعمار الفكرى ، الذهنى الذى يعرف الآن بالاستعمار الجديد . »

وكثيرا ما يحذر سنجور الشباب الاسود بل شباب افريقيا كلها من الوقوع فى هذا الفخ المريع الذى ينصبه لنا ثقافة الاستعمار الغربى . فالثقافة وان كانت متفتحة الى كل التيارات وهذا شيء طبيعى بل مرغوب ، لا يمكن ان تأتى من الخارج فتلطخ علينا لطخا بدون صلة ولا ارتباط لتقاليدنا الدينية والاجتماعية والاخلاقية ، ولاتراعى البيئة والظروف التى نعيش فيها ولذا ـ يصبح الرجل الاسود عبارة عن مجرد دميه هزيلة تقلد تقليدا اعمى كل ما يفعله الغربيون ولا يمكن لها ان تصبح انسانا بمعنى الكلمة لان جوهرها لا يتلاءم مع هذه الحضارة . ثم أن هناك شيئا آخر يجب ان يؤخذ فى الاعتبار فحتى اذا حدث أن قلد المرء شخصا آخر من حضارة وثقافة مختلفة تماما عنه فان هذا الشخص لا يحمل له الا الاحتقار والتسفيه والاستخفاف به ، لان الذى ينسى أصله لا أصل له على الاطلاق ، وبالطبع يصبح موضع سخرية واحتقار للجميع ، فلا مكان له لا فى مجتمعه الاصلى ولا فى المجتمع الجديد الذى يحاول أن يجد فيه مكانا دون جدوى .

والحقيقة ان هذه الظاهرة حدثت بالفعل لكثير من السود بعد حركات الاستقلال فى افريقيا ، ولذا فقد ادرك سنجور هذه الظاهرة الخطيرة وقد نجا هو شخصيا منها عندما تدارك الموقف فى صباه وحس بشدة انجذابه الى فرنسا وكل ما يأتى من فرنسا وخصوصا ثقافتها العالمية وحضارتها البراقة ولكنه كان دائما يتذكر ايضا انه أسود وأن موطنه الاصلى السنغال وقد عانى الكثير لكى يخرج منتصرا من هذه التجربة الصعبة التى تتلخص فى الآتى : ـ

أن سنجور شاعر أسود ورجل ثقافة فرنسى ...!

والثقافة هى شغل سنجور الشاغل فهو مؤمن تماما بأن الثقافة هى التى تصنع الشعوب، وتكون الرجل ، وبالتالى يصنعها الانسان وانتصر بالفعل سنجور فجمع واشتق من الحضارة الغربية ما يعجبه وما يلائمه فقط ورفض منها الآخر ، ونذكر انه ابن السنغال قبل كل شيء ولذا احتفظ بأصالته « وطعمها بثقافة الفرنجة » وربما هذا الذى انقذه هو اولا الاعتزاز باصالته

وثانيا تفتحه المطلق على كل حضارات العالم فهو مؤمن تماما بان « الزنوجية هى انسانية » (٦٠) حتى انه تجنب الكثير فى هذا الشأن .

ولقاء الانسان بالانسان يكون أولا مع ابناء الجنس نفسه ولكن يمكن لمعنى الاخوة ان يمتد فيشمل رفاق النضال فى ماساة واحده وضد عدو واحد وهذا يبدو اكثر وضوحا عند مالرو مثلما نرى فى هذا الموقف من روايته « المصير الانسانى » فلا يحتاج المرء ان يقدم نفسه للآخر ولكن يتم لقاء الاخوة فى همسة أو لمسة يد ،وهذا هو مانراه فى قصيدة سنجور : البحر الابيض المتوسط : (٦١)

« وارددْ اسمك : ديالّلو !

ويدك تشد على يدى ، وافكارنا تتلاقى فى نصف الليل ، ليلك ، ليل لغتينا الشقيقتين .

كنا فى البحر الابيض المتوسط ، ملتقى الاجناس الفاتحة وزرقته لم تر عيناى مثلها فى المحيط وابتسامته على مليون شفة من الضوء الناصع ...

... وكنا نتحدث عن افريقيا وكان النسيم الدافىء يأتى لنا برائحة الخلابة اكثر دفئا من روائح المراة السوداء ....

كنا نتحدث عن الوطن الاسود فى المساء على الجبال وكتفانا تتجاوران فى اخوة ومحبة فكانت افريقيا تعيش هنا على مرسى الافق بوجهها الاسود المضىء ... وكنت اردد اسمك : ديا للو .

وكنت تردد اسمى : سنجور »

ان فكرة الاخوة فى افريقيا السوداء عريقه منذ الازل ، وهى مرتبطة بالتراث المعنوى والديني والروحاني ومفهوم الاخوة فى الشرق الاوسط او بمعنى اصح فى البلاد العربية توغل عن طريق الفتوحات الاسلامية الى اعماق افريقيا السوداء وهذا المفهوم مرتبط بنظام الحياة البدوى القبلى ، فالانتماء الى القبيلة يقوى روابط العم والخال والقريب والنسيب ... ، واكثر من ذلك فمجرد « المعرفة » بمعنى التعرف على شخص بمجرد أن يذكر انه ينتمى الى شخص آخر معروف لدينا . فالتفاخر بالنسب والانتماء القبلى والارتباط الاسرى والاحساس بالاخوة وكل معانى الرجولة والشهادة ، والسعى لنجدة الآخرين فى وقت الشدة فى كرم : كل ذلك يعتبر من العلامات المميزة للتراث الحضارى الافريقى وكثيرا ما تغنى شاعرنا سنجور بهذه الصفات الحميدة : فعندما يخاطب زميل الصبا ورفيق الكفاح : الشاعر ايميه سزير (٦٢) يقول له فى قصيدته الشهيرة : **خطاب الى شاعر :**

---

(٦٠) S : La Nigigritude est un humanisme

(٦١) S ; Hostes Nories (Miditerrance)

(٦٢) اغانى الظلال : .(S : Chants d'Ombre Letter a un poete)

« الى الاخ الحبيب والصديق ... تحيةوسلام جاد واخوى ...

سانتظرك ـ .... »

ان معنى الاخوة يتخذ اقصاه عند سنجورحيث يشعر الشاعر بانتمائه الى ابناء دمه في المحنة ، بل يمتد هذا الشعور فيشمل كلأصدقاء الاسر ايا كان لونهم او جنسهم او عقيدتهم .

فالتضامن الانسانى لمواجهة موقف صعباو محنة هو الذى يربط بين المرء واخيه ، وهو الذى يميز الانسان عن الحيوان ، فالاخوة يمتداحساسها الى كل مظلوم ومقهور ومفهوم تحت قبضة عدو غاشم أو نظام قامع غاشم : ولـذافيرى سنجور فى معنى الاخوة أعمق الابعاد فيقول عن رفاق الاسر :ـ

» مختلفى الملامح والهيئة والملبس والعادات واللغات ، ولكن فى عمق الا عن نفس انشودة الالم تحت الجفون المريضة .

فالكافر والكابيل والصومالى والموريتانىوالغانى والفينى والبامباره واليوبو ـ والمانداجو اخوة .

وليد الرعاة وعامل المناجم والفلاح والحرفىوالطالب والقناص وكل العاملين البيض فى النضال اخوة .

وها هو ذا عامل المناجم بجبال الاستورى،وعامل الميناء بليفربول واليهودى والمشرد من المانيا ودويون ودوبوىوكل ابناء ساندونى» (٦٣)نفس الموقف الانسانى ينجلى ويتبلور فى اعمال مالرو بشكل ملحوظ يوضحه لنا موقف كيوتشين(٦٤) فى السجن .

فعندما مات كيو على ايدى قوة الصينينعرف كاتوى معنى اليأس والرعب فكان يتخيل الموت البشع مصرع رفيقه البشع .

وكان يعلم ايضا ما بشاعة مصيره هـوايضا والزملاء الذين التقى بهم فى هذه الزنزانة الكئيبة السوداء الضيقة فبدأ يشعر بالوحدةالمريرة ولكنه ايضا تداركا للموقف الرهيب اراد أن يفعل شيئا من أجل هؤلاء الذين يتقاسمونمعه نفس المصير والذين لا يعلم عنهم شيئا ولكن يحسن بوجودهم من أنفاسهم المضطربة فقط . فكان يرجح انه ما زال منهم على قيد الحياة وسط اشلاء الجثث الملقاة فى الزنزانة ولذلك قرر انيتقاسم معه كل ما تبقى له لانقاذ نفسه من المصير المحترم الا وهو جريمة الزرنيخ التى كانيحتفظ بها لنفسه لينتحر قبل ان يأتى الجنود

---

(٦٣) من ديوانه : القرابين السود : Hosties Nories

(٦٤) القدر الانسانى .

فينفذوا فيه الحكم ، وبما انه كان لا يستطيع الحركة خوفا من ان يوقظ انتباه الحارس فهمس لسوان وهو الوحيد الذى كان يعرف اسمه قائلا هيا ياسوان ضع يدك على صدرى برفق وخذ منى جرعة الزرنيخ الخاصة بى فور أن تصل يدك الى جسدى كن حذرا فليس عندى الا لاثنين فقط » .

وهكذا ضحى كانوى بنفسه فى سبيل انقاذ اثنين من التعذيب المهين والهلاك فقدم نفسه للهلاك بدلا منهما وأعطى لهما فرصة الانتحار بدلا منه لانه يؤمن بروح التضامن . التى تربط بينهم فى مثل هذه الظروف .

وهناك فرق كبير بين المذهب الايديولوجى وبين معايشة حياة الجماعة . ولذلك فما أكبر الفجوة بين الشيوعية كمذهب وبين حياة الشيوع أى مشاركة الجميع فى كل موقف وهذا وحده هو الذى يجعل معنى الاخوة مطلقا وملموسا .

فبينما يرى « كيو » (Kyo) فى الشيوعية نوعا من الوصول الى الكرامه نجد أن هذه الشيوعية نفسها تعنى بالنسبة ل « كونينج » وهو بطل آخر فى نفس القصة ـ المذلة والاستبعاد وبينما يرى الابطال الآخرون « بييه » و « هملريسن » فى مذهب الشيوعية هذا وفى الاتحاد السوفيتى طريق الخلاص والامان . فترى « مى » أن هذا المذهب لا يعنى الا ضيق الافق والتعصب الفكرى . فالشيوعية لا تعنى الجماعة ، والمذهب ـ السياسى لا يعنى الاستقرار الاجتماعى . فالفرد مرتبط بجماعة معينة وليس بمذهب سياسى .

ولذلك فالواقع بالنسبة لبطل قصة « زمن الاحتقار » (٦٥) ليس له الا وجه واحد هو الحياة الجماعية وليس تطبيق الشيوعية ولذلك فهو عندما يضرب الحائط فى سجنه فلا يكف عن ضرباته حتى يسمع نداء أخويا يأتى اليه من أى مكان ، ولذلك أيضا نستطيع أن نقول أن تلك الضربات انما ترمز الى ايمان مطلق بالاخوة البشرية .

وعندما يسمع فانسان بيرجيه (٦٦) رجال الاعداء يتحدثون فى الظلام فأصواتهم لا تعنى بالنسبة اليه أصوات الالمان ، ولكن تعنى صوت البشر اجمعين .

« ولاول مرة فى هذا الظلام الحالك ، سمع أبو الشعب الالمانى الشعب فقط ، وبما الرجال أى البشر » .

فالدم الذى يربط بين الذين يتحدثون والذين ينصتون ليس دم قومى وانما هو دم خفى يظهر وقت القتال وتتلاشى امامه كل حجة وكل مصلحة وكل حرب ليحل محلها انطلاق عميق ينبت منه شعور القلق وشعور الاخوة معا ويلتقيان دون فصل بينهما بانطلاق الى ابعد الحدود يأتى من أعمق أعماق الدهر » .

---

(٦٥) La Temps du Mepris

(٦٦) اشجار الجوز بالالتانبرج : Les Noyers de l'Atenburg

وبهذه الطريقه يكشف لنا مالرو عن مفهوم الصداقه او الاخوة التى يلتقى فيها المرء باخيه فيشعر انه انسان أمام لا انسانية القدر . ويتمثل ذلك فى هذه الروايه **(اشجار الجوز بالالتنبرج)** فى اطلاق الغازات السامة على العدو وهذا الشعور يصعد ويتخطى الامم والشعوب والزمن، وهاهنا نجد الرمز القوى الذى يرمز الى صلابة الشعور بأخوية الانسان يتجسد لنا فى شماخة اشجار الجوز التى تعرض قامتها الهائلة متحدية بذلك كل التحديات ولذلك نجد أن بطل الرواية — فى نفس اللحظة — يتذكر تلك الاشجار العريقة التى تحيط به — فى الريف — من كل مكان والتى تكتسب دائما صفة الابوة حيث انها لا يتحدد عمرها بالسنوات فهى نفسها تحمل علامات الدهر ولكنها لا تخضع له وأن كانت تحتفظ بلمسات الرفق عليها . فالاشجار عامة ، وخاصة اشجار الجوز تتحدى الدهر فى شموخها ومتانتها وتعيش الاجيال تلو الاجيال .

ويقول مالرو من ناحية — معلقا عن موقفه من الصداقة والأخوة التى تربط بين بنى الانسان :

« اريد الوفاء فى الصداقة حتى النهاية وليست الصداقة المعلقة على مجرد موقف سياسي » .

ونفس الشيء يحدث بالنسبة للشاعر الأسود سنجور الذى يرى أن معنى الأخوة ليس فقط رباطا وثيقا بأهله وأبناء جنسه وانما هو رباط بكل البشر فى شتى انحاء العالم وذلك يبدو واضحا فى موقفه وعمله السياسي وخصوصا شعره حيث نجد أكثر من قصيدة تحمل هذا المعنى للأخوة كما رأينا .

• • •

ان الفن وحده هو السبيل الوحيد فى اعتقاد سنجور ومالرو لتحقيق الذات واعلان تلك المظاهر التى تجعل البشرية انسانية تتحدى القدر والزمن والظلم ، والطغيان والعبودية ، فالفن لغة الشعوب جمعاء ، تربط بين كل حضارات الكرة الأرضية ، فتكمل بعضها البعض لتجعل المجتمع الحديث مجتمع ثقافه متحضر وانسانى .

وبالتالى نستطيع القول أنه اذا كان عمل مالرو الفنى يسمى كما كان يحلو له ان يقول « باللاقدرية » اى انه التعبير الوحيد عن حرية الانسان فى مجال حياته التى تخضع للقدر فى معظم ظروفها فان الشاعر الأسود هو الآخر يعتبر الفن المخرج الوحيد بل المنطلق الوحيد للرجل الأسود منذ الازل للتعبير عن ذاته ، فالزنجى كما نعلم جميعا وكما يقول سنجور دائما « يغنى حياته » « ويرقص حياته » ، بل ينحت حياته فكل مظاهر الفن فى افريقيا السوداء ما هى الا انعكاس مستديم لمظاهر الحياة اليومية .

الفن موقف واختيار وتعبير : ان الفن فى اعتقاد مؤلف المتحف الخيالى (٦٧) هو بالدرجة الاولى مع العالم ، فالفنان عندما يخلق تحفته فى أى من الفنون التشكيلية : نحتا كان ام تصويرا ،

---

(٦٧) . Le Musee Imaginaire

أم موسيقى فانما هو يوجد الحوار مع كل مايحيط به ، بل ان هذا الحوار يمتد الى الانسانية جمعاء من خلال هذا العمل الفنى ، فأن هذهالتحفة تصبح تحفة لكل انسان فى كل مجتمع ، فهى نفسها فرضا ، أيا كانت المعايير والمقاييسالتى تخضع لها من ناحية الشكل والحجم والملامح فكل منا يحمل فى أعمق اعماقه هذا النداءالشديد نحو الجمال الفنى ، نحو جمال الابداع بصرف النظر عن قيمه وعن حضارته وعن تكوينهالشخصى الذى قد يختلف كل الاختلاف بل يتعارض احيانا مع الحضارة التى ينبع منهاويتشبع بها الفنان الخلاق الذى منحنا هذه التحفة الفنية .

ويعطى مالرو أمثالا كثيرة فى هذا الشأنمنها تحفا فنية من مجاهل افريقيا السوداء ومن حضارات آشور وبابل وسومر والهند والشرق الأقصى ، وحضارة بيزنطه وامريكا الجنوبية فكل هذه المناطق على اختلاف الأجيال والعصوروالحضارات تعطى لنا تحفا لا يمكن للبشر الأختلاف فى أنها تحف ، والكل يجمع على قيمتهاالجمالية الاستيتيكية وخصوصا الذين لا ينظرون اليها الا من الناحية الجمالية فقطمثل مالرو نفسه . فأن العالم الذى تخلقه لك هذه التحفة يكشف لنا عن لغة مختلفة تماما عنلفتنا الفنية وعن التراث الذى خلقه لنا الاجداد ، ولكن هذه التحفة تتحدث الينا وتتكلم لغة جديدةهى نفس لغتنا لانها تتجه الى نفسنا العميقة التأملية ، وبالتالى تصل الى العمق البشرى فيناوتحرك فينا أسمى المشاعر اى الأحساس بالجمال أمام روعة ما خلق الفنان والأحساس بالجمالوان كانت معاييره تختلف من حضارة الى أخرى .

بل فى خلال حضارة واحدة تختلف عبر القرون مثلما حدث فى معايير الجمال عند الاغريق فمقاييس ربة الجمال نفسه فينوس تصبح الآنشبه مضحكة فى الحضارة الأوروبية الحديثة ـ الا ان هناك شيئا لا يختلف عليه وهو الاعترافبمقدرة الفنان فى التعبير عن ما يجول فى نفسه وما يخطر فى مخيلته ، وهنا يأتي دور المتحفالخيالى الذى يجمع فى ذهن كل منا كل انواع التحف الفنية العالمية بحيث يجمع حضارة فنيةمثالية متكاملة تشمل كل ما ينتجه الأحساس البشرى فى مختلف الأزمان والقارات .

ان الانسان موجود بفضل الحضارة ويترك بصماته فى العالم حيث هو ملقى بمجرد الصدفة بين زحمة الكون وتراكم المادة وتوالى الكواكب ،وفى سجنه هذا ترجع عظمة الانسان الى انه يستطيع أن يستخرج من نفسه صورا تبلغ من قوتها انكارا للعدم واثباتا للوجود .... الانسان ؟ ملاح عظيم غامر بحياته تاركا قارة أوروبا القديمةمتجها الى العالم باحثا عن اخيه .

اننا نعيش جميعا فى هذه السنوات الأخيرةعملية التطعيم او المزجهذهالتى يتكلم عنها سنجور فمن منا لم يتأثر بالثقافات الغربية وبحضارةأوروبا ؟

ولكننا نحتفظ بالتراث العربى والأفريقىالذى يجرى فى عروقنا ، وبالتالي فنحن نحقق يوميا ما كان الأملمالرو وما هو الحقيقةلسنجور ،ولبى الشاعر الاسود نداء « بلد النبيذ الرطب والاغانى » (٦٨) كما يسمى فرنسا ، وسمع مؤلف **القدر الانسانى** دقات طبول التام التام فى أعمال افريقيا . فالكلمة والتحفة والعمل الفنى خيرسفير لكل انسان يود أن يبدأ الحوار ويرسى حجر الاساس لحضارة عالمية جديدة ، حضارةالانسان .

---

(٦٨) من ديوان : اغاني الظلال : S : Chants d'Ombre

BIBLIOGRAPHIE

I—OEUVRES :

de SENGHOR : **Poèmes** (chants d'Ombre1945 - Hosties Noires 1948) - Ethiopiques 1956 Nocturnes1961 - Poèmes Dicers - Traductions).

Ed. du Seuil - PARIS 1964.

de MALRAUX :

...Des origines de la poésie Cubiste in La Connaissance lère année no 1 janvier 20

...Les Conquérants - Paris - Grasset 1928.

...La Voie Royale - Paris Grasset 1930

...La Condition Humaine - Paris - Gallimard 1933.

...Le Temps du Mépris è Paris - Gallimard 1935.

...L'Espoir - Paris - Gallimard 1937.

...Les Noyers de I'Altenberg - Lausanne 1943

...La Psychologie de I'Art - Genève - Skira 1947

...Saturne,Essai sur Goya - Paris - Gallimard 1950

...La Voix du Silence - Paris - Gallimard 1951.

...Le Musée Imaginaire de la sculpture mondiale - Paris - Gallimard 1952.

...La Métamorphose des Dieux - Paris -Gallimard 1957

...Discours au Congrès pour la liberté de la culture - Paris 1952.

...Les Antimémoires : Paris - Gallimard nf. 1968 réédité dans

...Le Miroir des Loimbes - Paris- Gallimard 1975

...Antimémories

...La Corde et les Souris

Hôte de Passage

Les chênes qu'on abat... Lazare

La tête d'Obsidienne

—Oraisons funèbres - Gallimard 1975

—La Tentation de 1,Occident - Paris - Gallimard 1975.

—Saturne, essai sur Goya - Paris Galimard 1975

—Les Voix du Silence - Paris - Gallimard 1975.

—Le Musée imaginaire de la sculpture mondiale - Paris- Gallimard 1975.

La Statuaire

Des bas-reliefs aux Grottes Sacrées.

Le Monde Chrétien.

—La Métamorphose des Dieux - Paris - Gallimard réédité en 1975.

Le Surnaturel.

L'irréel.

L'Intemporal

II — OUVRAGES CONSULTES :

—Piere de Boisdeffre : **André MALRAUX** (Ed. Univers. Paris/Bruxelles 1955

—Pol Gaillard **Les Critiques de notre temps et Malraux** - Paris Garnier 1970
Malraux - Présence lit téraire 801 - Bordas 1970

—Gaetan Picon : **André Malraux** mf. - Gallimard 1945.
Malraux par lui-même - Ecrivains de toujours - Le Seuil 1955

—Pascal Sabourin : **La réflexion sur l'art d'André Malraux** : origines et évoluted. Klincksiek 1972.

—G.T. Harris : **André Malraux : l'Ethique comme fonction de I'Ethétique** - Letters Modernes - Situation 27 1972.

—Joseph Hoffmann : **L'Humanisme de Malraux** - Ad. Kilncksieck 1963.

سلوى محمد مطر

الفعل الثوري في رواية الأمل

حينما نشبت الحرب الاهلية الاسبانية فى١٦ يوليو ١٩٣٦ لم يتردد اندريه مالرو فى الذهاب الى هذا البلد بعد مرور يومين من اندلاع الحرب لينضم الى صفوف الجمهوريين .

ولقد أكد الكاتب مرارا على هذه النقطة ،اذ أنه ذهب الى أسبانيا من تلقاء نفسه وقبل أن تقرر الدولية الشيوعية ارسال متطوعين للاشتراك فى الصراع .

وكان الجنرال فرنكو FRANCO يسيطر فى هذه الاثناء على جنوب البلاد ويشرع فى الزحف على مدريد مدعما بقوات مغربية وبالضباط الذين انضموا اليه .

ولقد تبين لمالرو ـ خلال بضعة أيام ـ أنه من المستحيل تنظيم جيش من الجمهوريين بينما اتضحت امكانية الحصول على طيران يتيح لهؤلاء تدمير الطرق واعاقة زحف طوابير فرنكو ، واستطاع مالرو بواسطة طائرات اشتريت تقريبا فى أسواق « المخلفات » وبفضل طيارين من مختلف الجنسيات من تكوين سرب » « أسبانيا » ESPNA، وهو السرب الذى سيطلق عليه الضباط ، بعد ثلاثة أشهر ، سرب « آندريه مالرو » .

واشترك مالرو فى ٦٥ مهمة جوية وحارب ضد طائرات موسيلني الحديثة « سافويا » Savoia وطائرات هتلر « دورنيه » Dornier وحضر الهجوم الذى شنه الجمهوريون ضد قوات فرنكو فى « مدلين » Medellin و « طليطلة » Toledo و « مدريد » Madrid و « جواد لخرا» Guadalajara واشترك أخيرا فى موقعة « ترول » Teruel التى تحطمت خلالها احدى طائرات السرب ، غير ان مالرو تمكن من انقاذ المتبقين من الحادثة وارجاعهم سالمين .

ولقد لعب سرب « أندريه مالرو » دورا هاما فى الحرب حتى ديسمبر ١٩٣٦ ، ويمكن القول أنه بفضله قد تمكن الجمهوريون من اعاقة زحف قوات الجنرال « فرنكو » على مدريد وتثبيت القوات الفاشية على مشارف العاصمة مدة ثلاث سنوات .

وبعد ان انهار السرب الذى لم تستطع طائراته الصمود أكثر من ستة اشهر ، قام « مالرو» ابتداء من مارس ١٩٣٧ بدورة اعلامية فى الولايات المتحدة حيث القى المحاضرات وجمع الاموال والمساعدات والتأييد لصالح الجمهوريين .

ان حرب اسبانيا التى اثارت كثيرا من العواطف والمشاعر ، أثرت ايضا على الاوساط الادبية والفنية المعاصرة لها ، ولعلنا نذكر مثلا ان التدمير الفاشى لمدينة « جرنيكا » Guernica قد الهم « بيكاسو » Picasso احدى لوحاته الشهيرة و « أرابال » Arabal احدى مسرحياته ، بل و « اليوار » Eluard الشاعر السريالى احدى قصائده . وهى اعمال تحمل جميعا اسم المدينة الباسلة الصغيرة وأثرت هذه الحرب كذلك فى « برنانوس » Bernanos الذى أحنقه موقف الكنيسة الاسبانية فكتب « **المقابر الكبرى تحت ضوء القمر** » Les Grands Cimetieres sous la lune و « **همنجواى** » Hemingway **الذى نشر بعد الحرب « لمن تدق نواقيس الموت »** For whom the bell Tolls و « **سارتر** » Sartre **الجدار** de Mur **ومالرو ، بالاضافة الى نشاطه الدعائى ، روايته « الامل »** L'ESPOIR .

• • •

وفى الفترة التى نشرت فيها رواية « **الامل** » كان مصير « جمهورية » اسبانيا لم يحسم بعد ، ولقد اثار هذا الكتاب ، الذى ظهر خلال شهر ديسمبر ١٩٣٧ ، ردود فعل عنيفة اختلطت فيها الاحكام السياسية بالاحكام الادبية : اذ ان بعض الناس اعتبره لونا من اليوميات الحربية لمناضل متطوع ، وبعضهم عده مؤلفا من مؤلفات « الدعاية الشيوعية » او نوعا من التقارير الصحفية الممتازة وليس من شك فى أن الاحداث التاريخية التى يرد ذكرها بدقة فى هذه الرواية تقربها من هذا الشكل الاخير من اشكال التعبير ، ولقد رد مالرو ، على « ايف سالج IVES SALGUES » الذى لاحظ ذلك بما يلى فى عام ١٩٤٨ :

« تقرير صحفى ، أجل : ولكن بالقدر الذى التزمت فيه بصحة الوقائع ، ومن ثم هذه الوفرة من الاخبار . ولكن هناك ايضا التفسير الفلسفى للاحداث اذ ان الحرب الاسبانية تعد بمثابة

الضربات الثلاث التى تعلن عن مأساة أوروبا : فهىحرب تجريبية بالنسبة للفاشست ، وحرب جس نبض حذر بالنسبة للسوفييت ، واخيرا حـرب الوهم الشاعرى بالنسبة للجمهوريين .. »

ويضيف الكاتب :

« هذه الحرب كان كل فرد يخوضها مـن اجل الجميع ، ولا فرد من اجل ذاته ، ولم تتالق البطولة قط مثلما تألقت فى فوضاها التى تذكرنا بلوحة « البوراكوس » لفيلا سكيز ... (١)

تقرير عـن الاحداث وتفسير فلسفى لهاإذن ، ويمكننا ان نضيـف الى ذلـك « المعنى الميتافيزيقى » الذى تتخذه هذه الاحداث بالنسبة للانسان . الا ان مالرو حينما يذكر لفظة تقـرير لا يقصد بذلك التقرير الصحفى بالمعنـى المألوف ولكن التأكيد فقط على صحة الاحداث التاريخية التى يسردها فى روايته وهذا ليرد ـ بلا شك ـ على النقاد الكثيرين الذين اتهموه بالتحيز للقوميين . وفى هذا المعنى نذكر ، على سبيل المثال ماكتبه « اندريه روسو » فى جريدة ((**الفيجارو**)) :

« ان مالرو لا يعد نفسه مخلصا للثورة الابتسخير قلمه لها ، وهذه هى نقطة ضعف رواية « الامل » التى تظهر للقارىء فى صورة كتاب من كتب الدعاية الشيوعية . فى هذه الرواية نـرى كل الشعب الاسبانى وهو يدافع عن نفسه ضـد مضطهديه ، اما اتباع فرنكو فيظهرون كمجموعة مـن « البلهاء » المضللين . ولا نجـد بجانـب الجمهوريين الا ابطالا وشهداء ، اما مـن جهـة الفاشيين فلا نجد الا مغاربة مرتزقـة وايطاليين والمانا ...

وحينما شرع « فرنكو » فى ضرب مدريد من الجو فانه قصد الاحياء الفقيرة وتجنب الاحيـاء الفنية . الخ .. ايمكن القول بأننى لا اريد فى هذا كله تمييز الحق عن الباطل هذا ببساطة لا يحسب له حساب ولا قيمة له بالنسبة لتاريـخ الحـرب الاسبانية وهـو ايضا يفسـد ثلاثة اربـاع الرواية .. » (٢)

وليس من شك فى ان السيـاق التاريخـى يحتل مكانا هاما فى رواية **((الامل))** وهو امر مرده الى

---

(١) راجع : GALANTE, Pierre - Malraux, Paris, Plon, 1971, p. 237

والبوراكوس « Borrazhos » هم السكارى ، وتعد هـذه اللوحة من اشهر لوحات فيلاس فيلاس كيز Velas Quez فى متحف البرادو Prado بمدريد .

(٢) ROUSSEAUX, Andret- Un anarchiste total in Le Figureo, ler Janvoier 1938

وهذه الدراسة عن مالرو قد عالجها الكاتب من جديد تحت عنوان :

ANDREM Malroux, ecrivain revolutionnaire in A. Rousseaux Litterature du XX sierle, t. II, ed Varietes, Montrecl, 1944, pp. 53, 54

وراجع كذلك مقالة :

BRASILLACH, Robert- Lauserie Litteraire in L' Action Francaise, 6 Janvier 1938

حيث قام « برازيلاك » بتوجيه نفس ملاحظات « روسو » ثم ختم كلامه بقوله : « يسمى مالرو قصته « الامل » وهو يائس ، ويهديها الى زملائه فى « ترول » فى الوقت الذى سقطت فيه « ترول » .

الظروف التى كتبت فيها . ومع ذلك لم يقصد« مالرو » قط كتابة حوليات او تاريخ هذه « الحرب التى هزت العالم ... » (٣) ، الا اننا نلاحظ من وجهة النظر التاريخية ، ان الكاتب يغفل عن ذكر بعض الاحداث التى وقعت فى الفترة المعاصرة لموضوع الرواية بينما يتبين ان كل ما يشير اليه حقيقى وصادق (٤) .

واما بالنسبة لغياب اى تعليق على« ايديولوجية » المعسكر الآخر ، فان ذلك يرجع الى رغبة الكاتب ، من الوجهة الادبية فى تركيز اهتمام القارىء على المشكلة الاساسية التى يثيرها فى كتابه الا وهى انتصار الفعالية والتنظيم على« الحلم الفوضوى » . ولو كان من مقاصد الكاتب تصوير اتباع « فرانكو » ما كان ليتحرج عن فعل ذلك وفقا لعاطفتهم الحقيقية وهى القومية .

« **الامل** » ليست اذن وثيقة ، بل عملا روائيا الفه الكاتب على ايقاع الاحداث التى دارت فى اسبانيا بين يوليو ١٩٣٦ ومارس ١٩٣٧ ، اى فى خلال الاشهر الثمانية الاولى من الحرب الاهلية اما الوقائع التى يذكرها « مالرو » فهى : فشل الثورة فى « مدريد » Madrid و « برشلونه » Barrcelone وسقوط طليطلة Toledo فى يد القوات الفاشية ، القتال الذى حرر العاصمة ، سقوط « مالقا » Malga وهجرة سكانها ، استرداد « بريهويجا » Brihuega بواسطة الجمهوريين وانتصارهم فى « جواد لخرا » Guadalajara . وهذه المجموعة من الاحداث التى تكون هيكل الرواية تنقسم الى ثلاثة اقسام ، اما القسم الاول فهو ذو اسم معبر « الوهم الشاعرى » L'illusion Lyrique وهو يعلن بوضوح عن الموضوعين الرئيسيين لرواية « الامل » : التنظيم و « الابوكاليبس » أو الحلم (٥) وصراعهما . فهل يستطيع حلم الاخوة الثورى ان يحقق النصر بمفرده ؟ وفى القسم الثانى « المنزانريس » Le Monzanares يتطور الصراع ويتغير

---

(٣) راجع مقالات : HUGES, E. Y. - The War that Roused the World
In Life, New York, 18 December 1961 and Ist of January 1962

(٤) راجع بالنسبة لهذا الموضوع :
WILHELM, Bernard - Hemingway et Malraux devant la gurere d'Espagne. Porentruà (Suisse) La Bonne Presse, 1966, pb. 83-94,

حيث برهن « فيلهلم » على ان الحقيقة التاريخية للاحداث قد لقيت احترام « مالرو » الا انه يلاحظ بعض التناقضات الزمنية بين الواقع ورواية « الامل » .

والغرض من هذه التناقضات ــ كدمج مثلا حادثتين فى زمن واحد ــ هو تكثيف الموقف « الماسوى » لبطل الرواية .

ونرى من جانبنا ان دراسة « فيلهلم » تعالج اساسا الجانب « الفنى » فى الرواية مثل « وصف العمليات والاسلحة » ، « الملاحظات الجغرافية » و « الزمنية »..... الخ .

(٥) كلمة معناها الاشتقاقى : « الوحى » وهى تكون : L'APOCALYPSE
عنوان الكتاب الاخير من العهد الجديد ، كتاب القديس حنا الذى يشمل مجموعة الاحداث التى اوحيت اليه وخاصة عن نهاية العالم وحلول ملكوت الله . والكلمة تاخذ فى رواية الامل معنى « الثورة » ، التى تعد الانسان بالحرية والكرامة والاخوة وكذلك معنى « كشف الصداقة والاخوة » ــ ولقد أبرز مالرو فى كتابه : « اللامذكرات LES ANTIMEMOIRES » تفصيلة لكتاب القديس حنا ويستشهد ببعض نصوصه ، لذلك لا يعد اختيار هذه الكلمة اختيارا عشوائيا لان لها دلالة شبه روحية بالنسبة للكاتب .

اذ ان البطولة وحدها لاتكفي حتـى ولو تميـزت بالفعالية ، واذ ان الدفعة الثورية لابد لها ــ لكى تنجح ــ من أن تنصب فى تنظيـم . وفى القسـم الثالث والاخير يتحد الحلم والتنظيم ليولدا الامل « L'Espoir » وهو عنوان هذا القسم . وبما ان الكتاب يرتكز على الصراع وليس على حله ، فان هذا يكشف لنا التفاوت فى الطول الذى يميز الاقسام الثلاثة . فمن الطبيعى أن يكون « الوهم الشاعرى » أكثر الاجزاء طولا اذ انه يحوى موضوع التنظيم وموضوع الحلـم وصراعهما ، والجـزء الثانى متوسطا فهو الذى يوضح الصراع ، والجزء الثالث قصيرا لانه يبرز قصور كل حل للصراع ويظهر طبيعته التى لاتخرج عن نوع من التوازن المؤقت الذى يصعب الحفاظ عليه .

● ● ●

من وجهة النظر الميتافيزيقية ، وبالنسبة لمجمل العمل الروائي للكاتب ، تقوم رواية «الامل» منذ البداية على تمجيد القيمة التى تجلت فى عمله الروائى الآخر « زمن الاحتقار » Le Temps du Yepris ، الا انه بينما يقبل البطل « كاسنر » Kassner الثورة برمتها ، نرى معظـم المحاربين فى « الامل » يتساءلون عما اذا كانت العقيدة الماركسية لا تتعارض مع المطامح الاولية التى أملت عليهـم تطوعهم . أو بعبارة اخرى فـان الوسائل التـى يستخدمها التنظيم الثورى من أجل الوصول الى غاية محددة كثيرا ما تصطدم بالدفعة الاخوية التى حثت هؤلاء الابطال على الانضمام الى « القضية »؟

وانطلاقا من هذه الملاحظة يقوم هؤلاء باثارة قضايا السياسة والاخلاق ، والنظـام والحريـة وقضية الفعـل الثورى : هـل يسمـح للانسان بتحقيق ذاته او الهروب من حتمية قدره ؟

على النقيض من روايات مالرو السابقـة التى كانت تصـور لنا بعض الابطـال الواضحـى الفردية ــ خاصة بالنسبة لمفهومهم للحياة ــ فان «الامل» تقدم لنا جمعا من الشخصيات لا يقل عن واحد وستين . ولا شك ان كل واحد منها يحمل هوية ، فهو اما فوضوى ، كاثوليكى ، شيوعـى ، مثقف او مرتزق . . . ولا يهمنا الا بدوره الوظيفى فى الجماعة التى ينتمى اليها . ولكن بالرغم مـن كونهم فى الغالب ، انعكاسا جزئيا لشخصية جماعية مجردة(٦) فانهم سرعان ما يكشفون لنا عن شخصيتهم الفريدة المؤثـرة . ومن بين هـذه الشخصيـات العديدة ، يمكن اعتبار « مانويـل » MANUEL . اكثرها اهمية ، نظرا لبروزه دائما فى الصف الاول وتواجده من أول الرواية الى آخرها ، اما بقيـة المناضلين فانهم اما يقتلون واما يختفون مؤقتـا من الساحة ليظهروا مؤخرا . كذلك يعد « مانويل»

---

(٦) هذا التعبير للوسيان جولدمان : GOLDMAN, Lucien
Pour une sociologic du roman, Paris, Gallimasd, 1965, p. 220

ولكنه يعبر ايضا عن وجهة نظر عديد من النقاد ، مثل لويس جيلليه
GILLET, Louist- L'Espoirtde in Les NouvelleI
LitteraireI, 8 Janvier 1938

الذى يقول : انا لا اميز جيدا ، لسوء الحظ ، بين الشخصيات :

اريد ان اعرف شيئا عن تاريخهم ، اريد ان اعرف على جراسيا هذا ، على هرنانديز ، على مانيان او اتمينيز ، ولكن المؤلف يستبعد مراسيم التقديم ويوجز فى التعريف ولايتبقى لنا الا مجموعة من الخطب المجردة ، والاحاديث الباهتة ، الاتية من أقصى العالم » .

المناضل الوحيد الذى يتضح نهجه الثورى تماما فى رواية « الامــل » فنحن نعاصر فعــلا تطــوره التدريجى منذ كان شابا يقلد عادات « مونبرناس» MONTPARNASSE ثوريا عاطفيا مليئا بالحماس، الى أن صار ضابطا يقــود فرقة مــن الجيــش الجمهورى ثم شيوعيا ملتزما يسيطر على عواطفه، ان هذه الشخصية تبرهن على نظرية الرواية وهى التطور الحتمى من « الوهــم الشاعــرى » الــى النظام كما توعز الينا بالمغزى الميتافيزيقى لهــذا التحــول .

• • •

أولا : ((وحى الاخوة))

« ان الرجال اذا اتحدوا بالامل والفعل وصلوا، مثل الرجال الذين اتحدوا بالحب ، الى ميادين لا يصلون اليها مفرقين . » **(الامل ص ٢٧٩/٠)** .

ان الاخوة الحقة تتدفــق منذ الصفحــات الاولى لرواية « الامل » وتجد لها وسائل تعبــير عدة مثل المصافحات اليدوية وكلمات التحية التى يتبادلها المحاربون والشعب :

« وانطلقت السيارة بين الايدى التى تربت على الاكتاف والايدى المرفوعة بالتحيــة وكلمات السلام ، وهكذا كان الليل ليل الاخوة . » (٧)

وفى مكان آخر من الرواية :

« كان النقابيــون يتصافحــون بالايــدى ويصيحون : « السلام » وكان هذا الجمع المنتصر يبدو متحدا بفضل هذه الصيحة كمــا لو كــان كورسا مستمرا واخويا » (٨) .

وكذلك :

« كانت التحية الملحة ، المهجورة ، المعادة ، المتكررة او الضائعة بين الحين والحين تجمع بين الليل والناس فى اخوة الهدنة » (٩)

وكان هذا الالتحام بــين الجمــوع وبــين الجمهوريين ، وهذا الاتحاد المباشر بين الشعب والمحاربين يظهر خلال الرواية كلها ويشكل خلفية الاحداث الرئيسية . وسوف نرى هذه الجموع

---

(٧) الامل ص ١٧/٠ — L'ESPOIR, Paris, Gallimasd, 1967

(٨) موضوع الجموع الذى نراه فى معظم الروايات الثورية للكاتب ، يكتسب كل معناه فى رواية « الامــل » . ويعقب على هذا الجانب من الرواية :

« يوجد فى كتب الفترة الثورية اكثر من التحام بــين البطل والشعب ، يوجد مزج بين تمجيد البطل واســطورة الشعب » .

راجــع : PICON, Gaetan Malraux par Iui -meme, Paris, Le seuil, 1953, pp. 46,46

(٩) رواية « الامل » ص ٣١/٠

وهى تحتل الصدارة عندما يعود الطيارون الذين سقطوا فوق الجبال معبرين بذلك أروع تعبير عن هذا الالتحام الذى نشير اليه ، ولنا عودة الى هذا الموضوع .

ولا شك أن هذا الحماس الاخوى الذى يلهب احاسيس الجموع يعكس ايضا المواقف الفردية للابطال ، فلا الخلافات الفلسفية اوالسياسية التى توجد بين المحاربين بقادرة على كبت الشعور الذى يوحدهم ولا شىء يمكنه أن يقف أمام وحدتهم التى يمليها المجهود والكفاح المشترك . وعلى هذا النحو نرى ان الفوضوى « بويج » Buig الذى يكره دعاة المسيحية يتضح له حينما تجعله الظروف يحارب بجوار الضابط الكاثوليكى « كسيمانز » XIMENS ان الاشتراك فى الفعل او النضال يلغى الكراهية ، ما دمنا نراهما : « اليوم وهما يحاربان معا فى اخوة غريبة »

وهذا الشعور بالاخوة يوجد ايضا عند المرتزقة ، وكثير منهم مثل الروسى « سيبرسكى » SIBRISKY طلب أن يحارب شهرا بأجر وشهرا بلا اجر « حتى لا تنقصهم النقود ولا الاخوة » (١٠). اما الالمانى « شراينر » SHREINER ــ الطيار القديم فى سرب ديشتوفن ــ فانه بالرغم من تحطيمه طائرة اثناء الانطلاق الى الجو لا يجد من زملائه الا صداقة لا حدود لها . وهكذا يبدو انه اذا « كانت الحرب تجمع بين المرتزقة والمتطوعين فى اطار الابداع الخيالي ، فان الطيران يوحد بينهم كما توحد الامومة بين النساء » (١١)

وبالنسبة لهذه العاطفة القوية التي توحد بين الطيارين فاننا نلاحظ تكرار ذكرها فى الرواية، اذ بينما كانت الطائرة التي يقودها « ماينان » Magnin تحاول خلال مهمة فى مايورك أن تتفادى الانوار الكاشفة والقذائف المعادية تبدو « صداقة السلاح لها كأنها ــ تحمى جسدها بهذه الاضواء المهددة » ويلاحظ قائد السرب « انه لاول مرة منذ انطلاقهم بدأ هؤلاء الرجال يرون بعضهم بعضا » بالرغم من الظلام وما أجمل ايضا هذا الموقف الانسانى : فلقد كلف « لوكلير » بتدمير طابور مدرع للفاشست ولكنه رجع الى قاعدته بذخيرته وحينما سأله قائده عن سبب ذلك تبين أنه فر هاربا وحينما حاول أن يبرر موقفه وبدا كالطفل العزيز متلعثما فان قائده « فارجاس » VARGAS لم يلمه « متألما لمحاولته تبرير الموقف كطفل تسلق مدرسته هربا مع علمه أن « لوكلير » لم يكن قط جبانا » (١٢)

وتتجلى هذه الصداقة التي تربط بين المحاربين فى مشهد آخر بين « مانيان » Magnin و « أتينير » ATTIGNIES : اذ ان هذا الاخير ، الذى يخشى من فقدان ثقة زملائه نظرا لفاشسية والده المعروفة ، يتلقى ردا رائعا من « مانيان » حينما يحاول ان يستنكر افكار ابيه ، يقول له مانيان :

---

(١٠) « الامل » ص ١٣٥/٠

(١١) « الامل » ص ٦٨/٠ و٦٩

(١٢) الامل ص ٢٤٥/٠

« الصداقة ليست فى ان تكون مع اصدقائك حينما يكونون على حق ، انها حينما تكون معهم حتى ولو كانوا على خطأ (١٣)

وفى موقف « مانويل » MAGNIN الذى لايحتقر الفارين من « طوليطلة » بل ويحاول تنظيم صفوفهم معرضا حياته للخطر ، انه يكاد يكرر امامهم قول « مانيان » :

« ليس من الصعب ان تكون مع اصدقائك وهم على حق بل حينما يكونون على خطأ » (١٤) ان صداقة السلاح ، كما يبدو لمناضلى « الامل » تتوثق عراها بسرعة وسهولة ، هكذا لايفترق « سيرى » SIRRY و « كوجان » KOGAN منذ ان التقيا فى الفرقة الدولية ويقول كوجان فى هذا الصدد قولته الرائعة : « لم تربطنى صداقة برجل قط فى مثل هذه السرعة » (١٥)

ولا شك ان النضال يوحى للجميع بهذا الشعور ، الامر الذى يدفع « جرسيا » GARCIA الى قول :

« ان ما نسمعه عبر النافذه ، ياسيد مانيان ، انما هو من وحى الاخوة ، وهو جد مؤثر وانى لافهم ذلك : هذه الأخوة اعظم الاشياء تأثيرا على سطح هذه الأرض واننا لا نراها الا نادرا » (١٦)

ولكن ما هو المعنى الحقيقى للاخوة ؟ انها اكثر من شعور جياش يتيح للانسان قهر وحدته ، انها قوة ترفع الانسان وتسمو به الى ما فوق وضعه . هى ليست ملجأ ضد الخزى ولكنها تتيح للابطال الذين يناضلون مجتمعين ضد قوى الاذلال والاستعباد من بلوغ اسمى واكمل المشاعر النبيلة التي يحملونها بين أضلاعهم ، والتى ماكانوا ليحسوا بها لو ناضلوا فرادى . وبعبارة اخرى ان الاخوة قوة تسمو بالبشر أكثر منها قوة موحدة لهم ويقول زارع الكروم العجوز « باركا » BARCA فى هذا الصدد الى « مانويل » MANUEL

« هذا هو ما أريد ان أقوله لك ، نقيض هذا ، اى الاذلال ــ كما يقول ــ ليس من العدالة فى شىء . ان الفرنسيين قد فهموا حتما شيئا وعبروا عنه فى كتاباتهم السخيفة على جدر مكاتب البلدية : فنقيض المضايقة هو لا شك الاخوة » (١٧)

اذا كانت المضايقة هى الأخوة ، فان « كيو » KYO بطل رواية « القدر الانسانى » La Condition Humaine يعلن الى « كوينج » KONING : « الكرامة نقيض الذلة » .

---

(١٣) الامل (راجع قولة الان) ان الصداقة التى لاتصمد امام اخطاء الصديق ليست بصداقة »
ALAIN, Props, Bibliothequen.r.f. de la pleiade, 1960, p.I.235

(١٤) « الامل » هذا القول يوضح مقالة « كاتو » HEMELRICH CATOH الى « هميرليخ » : « لا يجب ان نطالب الرفاق باكثر من طاقتهم »

(١٥) « الامل » ص ٢٨٥/٠ LA CONDITION HUMAINE

(١٦) « الامل » ص ٢٧٩/٠

(١٧) « الامل » ص ٨٩/٠

وهكذا نرى انه بتقريب هاتين الجملتين الاخريين يتحد معنى الاخوة مع معنى الكرامة وتصير الاخوة نفسها محل الكرامة . وهذه العلاقة بين الاخوة والكرامة يعبر عنها أيضا مؤرخ الفن « سكالى SCALI حينما يوضح « الفيار » ALVEAR ان الرجال اذا اتحدوا بامل والفعل وصلوا ، مثل الرجال الذين اتحدوا بالحب ، الى ميادين لا يصلون اليها مفرقين . ان هذا السرب فى مجموعة لاعظم وانبل من كل فرد من افراده على حده » (١٨) .

وعلى هذه الشاكلة نرى الملازم « مورينو » MORENO الذى يعرف السقوط واحتقار الذات حينما يحبسه الفاشست ويحكمون عليه بالاعدام . الا انه حينما يتمكن من الفرار والالتحاق بزملائه يصور لهم نفسه قائلا : « انك ، أيها الانسان ، لمثل رجل التزم بعهود فصارت كل حياته ماضيا ولكن هاهي ذى الحياة تتغير فجاة فتتغير الحقيقة التي تنتمي اليها » ، وفى الوقت نفسه الذى يكتشف فيه هذا الوجه الجديد من الحياة يألف « مورينو » مع كل من يحيط به . وان هذا الائتلاف لقوى بمكان ان خذلان الماضى والموت لا وزن لهما فى حساب القدر بالنسبة للبطل :

« هناك شيء لم أفطن اليه وانا أقدم ضابطا ماركسيا ، الا وهو الصداقة التي لا توجد الا فى الجانب الاخر من الموت » . (١٩)

ولا يكتفى « مالرو » فى « الامل » بتمجيد الاخوة بين الرجال ، ولكنه سيحدد خاصية هذا الشعور وسيعرف سماته فى الوقت نفسه الذى سيطلعنا فيه على تطور فكرة الاخوة ، وتحت هذا المنظور ، يمكن القول أن هناك تطورا فى فكرة الاخوة نفسها ، ففكرة الاخوة كواقع لم تعد تقدم فقط كقيمة أو طريق نجاة ، مثل ما كان الامر فى رواية :

« القدر الانساني » La Condition Humaine

و « زمن الاحتقار » Le Temps du Mepris

بل ان الاخوة لتبلغ ، بفضل وجود الجماهير ، بعدا جديدا كما كان الأمر فى حال نزول الطيارين الجرحى من الجبل :

استطاع فلاح من منطقة « البارسين » ALBARRICIN اجتياز خطوط العدو واعلام هيئة اركان حرب الجمهوريين عن وجود مطار فاشى ، الأمر الذى يتيح لمانيان وأعضاء سربه من تدمير مستودع وقود و ١٦ طائرة ، الا انه فى العودة تقوم طائرات المانية من طراز « هاينكلز » HEINKELS بمطاردتهم وتنشب معركة جوية فوق « ترويل » TERUEL وكانت النتيجة أن استطاع « مانيان » MAGNIN و موروس MOROS العودة سالمين الى القاعدة أما طائرة « جارديه » GARDET فتتحطم بعد اصابتها ويقتل « سعدى العربى » SAIDI ويجرح كل من « تايفير » TAILLEFER و « ميرو » MIREAUX و « سكالى » SCALI و « بوجول »

---

(١٨) « الامل » ص ٢٧٩/٠

(١٩) الامل ص ٣١٦/٠

PUJOL ويشو « جارديه » GARDET . ولقد استطاع « مانيان » MAGNIN ان يحدد بصعوبة مكان سقوط المصابين ثم انطلق مع فرقةمن المتطوعين لانقاذهم . .

وتم الانقاذ محاطا بمظاهر رائعة حقا ، فلقد كان الفلاحون يسيرون فى موكب خلف طابور الطيارين المصابين وهم ينقلون من« فالديليناريس » VALDELINARES الى قرية « ليناريس » LINARES الصغيرة ، الأمر الذىعمق الالتحام ــ كما سبق أن أشرنا الى ذلك ــ بين الشعب الاسبانى والمحاربين الأجانب . انالعطف الساذج الذى ابداه اهل الجبل نحو الطيارين والاحترام الدينى الذى أحاطوا به« النقالات » كانا من احدى هذه المظاهر المؤثرة التي يصعب تلخيصها ، **فلنرجع الى النص :**

« كانت النساء وقد اثقلتها وطأة السنينتؤدى علامة الصليب عند رؤية الدم . ثم رفع رجل يده نحو « جارديه » و « بوجول » ، وأشاربعد ذلك الى الأجساد الممددة فارتفعت جميع السواعد فى صمت وهى تشير الى الطائرة المحطمةوالى الأجساد التى كان يظنها الفلاحون قد همدت » .

وأوقف « مانيان » MAGNIN نقالة« جارديه » GARDET لحظة ليتاكد من ان صديقه لم يفقد بصره وحينما يجيبه هذا الأخيربانه يبصر . . يشعر « مانيان » برغبة فى معانقته وهزه ، ثم :

« عادت النقالة الى التحرك وقد غابنصف قرية « فالديليناريس » خلفها . وحينما جاوزت نقالة «سكالى» SCALI مكان «مانيان» MAGNIN تقدمت امراة عجوز مشدودة الراس فى منديل اسود واعطت للجريح حساء فى فنجان. كانت هذه المراة تحمل سلة بها زجاجة حافظة « ترموس » وفنجانا يابانيا قد يكون أفخمماعندها . وتخيل مانيان فجاة حافة الفنجان وهى تندس تحت ضمادات « جارديه » وقدرفعت لذلك . فقال للمراة : يستحسن الا تعطي من حسائها الى من جرح فى وجهه . وأجابت هذه بوقار : ان هذا يمثل الدجاجة الوحيدة المتبقية بالقرية » (٢٠) .

ووصل الموكب اخيرا الى « ليناريس » :

« كان حاملو الجرحى مشغولين بأحجارالطرقات وامكانية تأثر الجرحى بسببها . . من جراء اهتزاز النقالات يسيرون وئيدا فى خطىمنتظمة ومتباطئة عند كل لفة ، وكان ايقاع السير من شدة ملاءمته للألم على طريق جدطويل كما لو كان يملأ هذا الأخدود العظيم ، حيث تصيح بأعاليه العصافير المتخلفة . بضرباتمتانية على طبول فى موكب جنائزى . ولكن لم يكن الموت هو الذى يتلاءم فى هذه اللحظة مع الجبال ، انما كانت ارادة الرجال وكانت مسيرة هؤلاء الفلاحين السمر والنساء الغائبات الرؤوس فى مناديل لا يعرف لها عصر تبدو مختالة كموكب نصر جليل اكثر من انخراطها فى اعقابجرحى » (٢١) .

---

(٢٠) الامل ص ٤٠٧/٠

(٢١) الامل ص ٤١٠/٠

وفى « ليناريس » وأمام وجه « جارديه » المشوه رفع الفلاحون ايديهم ـ تماما مثل فلاحى فاليناريس ـ فى صمت .

● ● ●

فى هذه اللحظات لا يسعنا الا ان نترك الكتاب جانبا حتى نتخيل بفكرنا هذا المشـهد وقد نقله « مالرو » الى السينما ... ولنحاول أولا ان نقدم موجزا عـن الفيلم الوحيـد الذى انجزه مالرو وهو « الامل » ليقدمه تحية الـى الأخوة .

انجز هذا الفيلم فى برشلونه عام ١٩٣٨ ،(٢٢) اى فى خلال سنة بعد ظهور رواية « الأمل » الا أنه ليس تطويعا للرواية نفسها ولقد أطلق عليه « مالرو » تمييزا له عن الرواية اسم « سيرا دى ترويـل » SIEARA DE TERULE ولقـد منعت عرضه فى عام ١٩٣٩ حكومة « دالاديه » بفرنسا وحاول الألمان بين ١٩٤٠ و ١٩٤٤ العثور عليه لتدميره (٢٣) ولا يظهر هذا الفيلم الا ابان حكم ديجول عام ١٩٤٥ ، ويطلق عليه لأسباب تجارية وللاستفادة من نجاح الرواية اسم « الأمل » . وموضوع الفيلم هو تقدم القوات المغربية فى أول الحرب الأهلية نحو قريـة ليناريس . ويحاول مناضلو القرية المجاورة « ترويل » ارسال ذخائر الى الفلاحين المهددين ، وكان هؤلاء قد حاولوا صنع بعض القنابل البدائية ... ويتقدم مزارع الى اللجنة المحلية ويقدم معلومات هامـة عـن الأراضى المعادية فيقوم القائد « مينوز MUNOZ » (القابل لمانيان MAGNIN فى الرواية) بتجميع الطيارين ويشرع سرب المتطوعين الدوليـين فى تدمير القاعـدة الفاشية ، وتتحطم طائـرة عند العودة فيخرج سكان قرية مـن قرى الجبـال لجمع المصابين ونقلهم الى الوادى .

واذا كنا نعجب الى اليـوم لهـذا الفيلم فلا يرجع هذا الى روعة تمثيـل الممثلين ، اذا استثنينا « خوزيه لادو JOSE LADO » فى دور المزارع .. ولكن الى القيمة العالمية للفيلم . ان الحرب التى خاضها الجمهوريون ضد الفاشست لا تكاد تذكـر فى الفيلم والبـواعث التى دفعت المناضلين الى حماية الوطن لا يشار اليها الا لماما ، على العكس من هذا يركز المؤلف جل اهتمامه فى الفيلم على الأخوة التى تتولـد فى الحـرب بين الرجال وعلى موقف الفرد أمام الموت وتأثير ذلك على جموع الفلاحين . (٢٤)

---

(٢٢) راجع بالنسبة للصعوبات التى لاقاهـا مالـرو لتصوير هذا الفيلم اثناء الحرب

MARION, Denis Commcnt fut Tourni le film Espoir in Magazine Litterairc No. II. Octobre 1967

(٢٣) اذا فشل الالمان فى تدمير هذا الفيلم فهم قد نجحوا فى تدمير الجزء الثانى من مخطوط مالرو . La Lutte avec I'Ange الذى لم يعاود كتابته .

(٢٤) اذا كان تمثيل الرئيسيين لم يكن متقنا فان دور الجموع الذى قام به فلاحون وفلاحات اسبان حقيقيون كان رائعا . ولقد قال اندريه جيد فى هذا الصدد عام ١٩٤٥ لقد اكتسب هذا الفيلـم الان فخامـة ونوعا مـن الـوقار الوقار المأسوى . فليس به اى تنازل لذوق الجمهور او لما يسلى ويعجب . انه يتميز من خلال الاحاديث النادرة لابطال المأساة من خلال مواقفهم وتعبيرات وجوههم ومن خلال البساطة الجميلة للصور بهذا الشعور الكامن بكرامة الانسان ، وهذا الشعور يؤثر فينا بالقدر الذى يخص اناسا فقراء لاينفصلون عن الارض التى يزرعونها ، غير داعين بنبالة موقفهم . انهم فلاحون متواضعون ولكن خطورة الحادث ترفعهم الى مرتبة الابطال ، والشهداء » .

راجـع :

GIDE, Andre-Andre Malraux, I'Aventure Humaine in Terre des Hommes, Ier December 1945

ونلاحظ ان الكاتب لم يستخدم فى سيناريو الفيلم الا حادثة واحدة من حوادث الرواية وهى الغارة التى قام بها الجمهوريون على مطار العدو الخفى والتى تبعتها حادثة سقوط الطيارين الجرحى على الجبل . ان المشهد المنقول الى السينما يقارب فى قوته التأثيرية المشهد الروائى ويثبت تماما فى مخيلتنا ، اذ انه بفضل اللونين الأسود والأبيض والتناقص اللونى بين الطيارين والجموع من جهة وجدران القرية القائمة من جهة اخرى ، ثم مسيرة الفلاحين وهم يحملون الجرحى ، كل ذلك يتخذ امامنا طابع الأبدية : « وكان يبدو أن الموكب يفر من صمت الجبال الغريب بصوت قباقيبه بين صرخة الكواسر الأبدية وصوت النواح الخفى » (٢٥) .

الا انه بصفة عامة ينقص هذا الفيلم بعض الأبعاد الفلسفية التى ترفع من شأن الرواية والتى يستحيل تحقيقها خلال الزمن المتاح للفيلم ، وهذا ما لاحظه الكاتب حينما كتب فى « محاولة فى سيكولوجيا السينما » : « يبدو ان الرواية تتميز عن الفيلم بميزة عظيمة وهى القدرة على استكشاف سرائر الشخصية » (٢٦)

وانه ، بلا شك ، من طريق اكتناه بواطن الشخصيات يستطيع الكاتب فى رواية « الأمل » أن يكشف لنا عن « ثنائية » الفعل ، لأنه اذا كانت الثورة تتيح لأبطالها هذه الدفعة الجياشة التى تغير من شخوصهم وتسمو بها ، فهى أيضا حركة سياسية لابد لها لكى تصل الى اهدافها ، من تنظيم ومن خطة لا علاقة لهما بمصير هذا البطل او ذاك .

• • •

ثانيا : من الحماس الى النظام

« ان اى فعل لا يمكن ان ينجح الا باتفاق منفذيه ، وحينما تصدق عزيمتهم الى اقصى درجة فانهم لن يتفقوا الا على التنفيذ السريع للأوامر ولن يكون لأى تابع امكانية الحكم او المناقشة » . (آلان : اجايت ، ص ٥٦٢)

ان عالم الاجناس « جرسيا » GARCIA يعبر لأول مرة فى رواية « الأمل » عن ضرورة التنظيم العسكرى . وكان « جرسيا » قد صار رئيسا للاستخبارات العسكرية بعد مرور شهر من الحرب واخذ يناقش الأحداث الأخيرة مع « فارجاس » VARGAS ، و « مانيان » MAGIN انه يقول لقد أحرز « الدوليون » نصرا عظيما فى « ميديللين » MEDELLIN وخسر الجنرالات المتمردون محاولة انقلابهم بسبب البطولة التلقائية للشعب .. ولكن بالرغم من ذلك ، وبينما كان سرب « مانيان » MAGNIN ، يلقى على « بداخوز » BUDAJOZ اعلاما تحمل الوان الجمهورية استغل المغاربة فرصة حماس الجماهير ونشوتها للاستيلاء على المدينة ، ومن ثم شرع « جرسيا » GARCIA يؤيده « فارجاس » VARGAS ذو الخبرة الفنية ، يشرح للقائد ان حركة شعبية مثل حركتهم لا يمكن أن تستمر الا اذا دخلت فى اطار تنظيمى ، ويضيف موضحا :

---

(٢٥) الامل ص ١٢/٠ .

(٢٦) MALRAUX - Esquissc pour une psychologie du cinema, Paris Gallimard 1946, pas de pagination

« نحن نمثل الشعب ، أجل ، ولكن الثورة،لا ، بالرغم من أننا لا نتحدث الا عن هذا . اننى اسمى ثورة نتيجة تمرد تقوده كوادر (سياسية. فنية.وكل ما تريد) تمرست بالنضال وقادرة على الحلول محل الكوادر التى حطمتها » .

باختصار ، يختم « جرسيا GARCIA حديثه بقوله « من الآن فصاعدا ، لا يوجد تحول اجتماعى وبالأحرى ثورة من غير حرب ولا توجد حرب من غير فن أو تقنية (٢٧) » ، وحينما يحتج « مانيان » MAGNIN قائلا بأن« القوى المعنوية » ضرورية وأن حماس الشعب يشكل جانبا ايجابيا يرد عليه « جرسيان » بأن« دفعة الأخوة » لا شك من أعظم الاشياء المؤثرة فى العالم ولكنها غير قادرة على الحفاظ بالنصر الا بواسطة تقنية تقابل وسائل العدو :

« وهى الأخوة يريد كل شيء وفى الحال ،ولكن الثورة لا تحصل الا على القليل تدريجيا وبصعوبة . والخطر الماثل هو أن كل رجل يحمل فى قلبه رغبة أو باعثا على الأخوة ، الا أن هذا الشعور يمكن مع مضى الوقت ومع استمرار النضال أن يكون مصدر هزيمة لسبب بسيط هو أن شعور الأخوة ، كشعور فى حد ذاته ، لا مستقبل له ، حتى ولو زعم انسان ان له مستقبلا . ان وظيفتنا المتواضعة ، يا سيد « مانيان » ، هو تنظيم هذا الشعور » (٢٨) .

الأخلاق والسياسة — المثقفون والفعل

« اذا هاجم الثورة « مثقف » ثورى ، فهذا يعنى دوما وضع السياسة الثورية موضع التساؤل باسم اخلاقياتها » . (الأمل ص ٣٣٤)

على شعور الأخوة اذا أن يتحول « والا قضى عليه بالفناء » ، أى عليه أن يتجسد فى قوانين التنظيم الثورى . وبما أن الثورة فعل ،« فالفعل لا يمكن تصوره الا فى اطار الفعل (٢٩)». وهكذا ففى اللحظة التى يقرر فيها الأبطال النضال ضد الفاشية ، يجب أن يكون همهم الوحيد هو قيادة النضال بأكثر الوسائل فعالية . وبما انه « لا توجد خمسون طريقة للكفاح » ولكن واحدة وهى « أن تكون منتصرا » (٣٠)، فان الابطال عليهم أن يختاروا حتما اما التضحية بالفعالية فى سبيل المثل الأعلى واما بالمثل الأعلى فى سبيل الفعالية .

وفى بعض الأحوال ، يكون ، الاختيار صعبا ، وخاصة بالنسبة للمثقفين لأنهم رجال يحسون « بالفروق الدقيقة ، بالكيف ، بالحقيقة المجردة وبالطابع التركيبى للأشياء » (٣١) ولهذا السبب كثيرا ما يرفضون الانخراط فى الثورة لأنها — فى نظرهم — لا تعنى بالقيم « الأساسية » للانسان .

---

(٢٧) الامل ص ١٠٤/٠
(٢٨) الامل ص ١٠٧/٠
(٢٩) الامل ص ١٨٧/٠
(٣٠) الامل ص ٣٢٩/٠
(٣١) الامل ص ٣٣٥/٠

يعبر « ألفيار » ALVEAR العجوز ، فى المشهد الوحيد الذى كرس لـه ، على موقف المثقف ، اذ حينما يحاول « سكالى » SCALI مكلفا من قبل ابنه « جيم ألفيار » JAMES ALVEAR أن ينقذه من مدريد ، يرفض العجوز مفارقة كتبه فلقد عاش حياته كلها فى الفن ومن أجل الفن ولا يقبل لأية قوة أن تنتزعه من عالمه هذا. واذا حاول المغاربة أو فيما بعد الجمهوريون قتله ، فانه لن يقاومهم « احتقارا » كما يؤكـد ذلـك لسكالى . ويقـول لمنقده ايضـا : انهم سيجدوننى مثل الآن فى مكتبتى ، و « هل من الصعب حقا ، يا سيد سكالى ، ان ننتظر الموت (الذى قد لا يأتى) ونحن نشرب فى هدوء ونقرأ اشعارا بديعة » ، ثم يتناول ديوانا لكيفيدو ويقرأ بصوت عال :

« ماذا تريد هذه الخشية ، خاليـة التعقـل ، هذه الخشية التى تتولد من تفاهات الحيـاة ، والتـى تغذيهـا الـروح بتقواهـا » (٣٢)

ان « ألفيار » غريب عن الثورة بالقـدر الذى يعتبرها تقوم هى أيضا على التعصب أو على عقائد لا تقبل الجدال ، فهو يقول لسكالى : ما فائـدة عبودية اقتصادية أقـل اذا اضطر الانسان لتحقيقها « الى تقوية العبودية السياسية والدينية والبوليسية ؟ » (٣٣) ان الحرب تبدو للرجل العجوز كما لو انها خلقت لتنزع أوهـام المحاربين : فالثورة ، بالنسبة لكثير من الناس ، تلعب نفس الدور الذى كان يلعبه قديما العالم الآخر أو الحياة الابدية .

« ان بداخل الانسان أملا فظيعا وعميقا ، أمل الذى ادين ظلما ، أو الذى لم يلق الا غبـاء وجحودا وجبنا فى هذه الحياة ... انه يود ان يعيد الكرة مرة اخرى ... (٣٤)

غير أن المناضلين سوف يلحظون ان عاجلا او آجلا ان اى حـل جماعى لا يعفى الانسـان من المجهود الخلقى ، فمن الضرورى ، كما يقول « الفيار » أن تكـون علاقات الرجـال علاقات « انسانية » والا تكون محكومة بالموقف السياسى وأن يكون الفرد « مسئولا امام نفسه » (٣٥) ، وليس أمام قضيـة مهما كانت سـامية . ان « ألفيار » يضـع قبـل الأحـزاب والتقنيات والتنظيمات ضرورة المجهود المتجدد دوما والذى يبذله الانسان للسمو بذاته :

« ان الأمل الوحيد الذى تعقده اسبانيا الجديدة على نضـالكم ، انت وجيم وكثيريـن آخرين هو أن يبقى ما حاولنا ان نعلمه للناس طوال سنين عديدة ..

ــ ماذا تعنى ؟ ساله سكالى .

فالتفت العجوز « الفيار » وقال بلهجة الحسرة :

---

(٣٢) الامل ص ٢٧٦/٠

(٣٣) الامل ص ٢٧٧/٠

(٣٤) الامل ص ٢٧٨/٠

(٣٥) الامل ص ٢٧٨/٠

ــ قيمة الانسان .. » (٣٦)

الا أنه اذا كان « الفيار » يريد الدفاع عن القيم « الاساسية » ضد متطلبات الفعل الثورى واذا كان لا يثق فى الثورة فلا يرجع ذلك فقط الى أسباب ايديولوجية ، ان موقفه يتضح لنا فى آخر حديثه حينما يقطع « سكالى » كلام الأستاذ المسن ويسأله : « هل تعتقد أن «جيم» قد اخطأ فى اختيار النضال ؟ »

فيرد « الفيار » : « ايه ! فلتكن الأرض فاشية ولا يفقد ابنى نظره .. » (٣٧)

هكذا يتضح لنا أن موقف « الفيار » تجاه الثورة انما يرجع الى أن واقع الفعل الثورى قد انتزعه من عالمه انتزاعا حينما اتت رصاصة على نظر ابنه فى احدى المعارك . انه يشبه شخصية « جيزور » Gisors فى « القدر الانسانى » La Condition Humaine أى أنه يراقب الحرب من بعيد ولكن حينما تمسه الأحداث يفقد بصيرته ويدفعه الألم الى اساءة الحكم ، ولقد أشار « مالرو » الى ذلك بطريقة غير مباشرة حينما أفهمنا أن « الفيار » لم يعد يثق فى شيء أو فى أحد بعد ان فقد الأمل اذ حينما يخبره « سكالى » بأن الأطباء يؤكدون امكانية شفاء ابنه ــ وجيم سوف يشفى فعلا ــ يصيح :

« انهم يكذبون على اى ضابط فى هذه الآونة ! »

مخافة ان يقال عنهم انهم فاشست لو قالوا الحقيقة ،

هؤلاء الحمقى ! » (٣٨)

سوف يسيطر هذا الحوار مع « الفيار » على بال « سكالى » طويلا ، اذ أن الجانب الشمولى للفعل . الذى بدأت تؤكده تجربته الشخصية ، بدا له كما لو أنه يحقق تنبؤات الرجل العجوز ، ولقد أوضح عن خواطره امام « جرسيا » الذى قال له :

« لا أعرف أى كاتب قال : انا مسكون بالجثث مثل مقبرة قديمة .. ونحن منذ اربعة شهور مسكونون جميعا بالجثث ، أى سكالى ، جميعا ، على طول الطريق الذى يقود من الأخلاق الى السياسة . اذ أن بين كل رجل يفعل وبين ظروف فعله صراعا دمويا ... وهناك حروب عادلة ــ مثل حربنا فى هذه الآونة ــ ولكن لا توجد جيوش عادلة وتوجد سياسة للعدالة ولكن لا يوجد تنظيم عادل » . (٣٩)

وبعد أن فكر « جرسيا » فى حالة « أونامونو UNAMUNO الذى يرفض التطوع ويتذرع أمام الفريقين بالالزام الخلقى ، يقول : « اذا جاءنى مثقف ، أى رجل وظيفته التفكير ،

---

(٣٦) الامل ص ٢٨٠/.
(٣٧) الامل ص ٢٧٩/.
(٣٨) الامل ص ٢٨٠/.
(٣٩) الامل ص ٣٣٩/.

ليقول لى مثـل « ميجل » : « انا اتركم لانكم لستم عادلين » ساجد هذا الموقف لا اخلاقيا ، يا صديقى العزيز ! » (٤٠)

« معارضــة » أونامونو « اذا معارضــةخلقية » (٤١) . ومثله يوضــح طبيعــة الصراع الذى يوجد بين المثل الأعلى الثورى وبين الوسائلالمستخــدمة لتحقيقه : وهى وســائل تستبعد تلقائيا المثقف مــن نطاق الفعــل ، لأن المثقفبطبيعته ضد الثنائية :

« كل وسائل الفعل ثنائية لأن كل فعــلثنائى الطبيعة . وكل ثورى ثنائى وكذلك كــل سياسى . » (٤٢)

وبعبارة اخرى ، ولكي نلخص وجهة نظر« جرسيا » نقول :

ان « اللااخلاقية » بالنسبة لرجلّ ملتزمهى قبوله الظلم باسم العدالة ، او تخليه عن العدالة مخافة قليل من الظلم او لون آخر مــنالظلم ، وعلى الثورى الحق ان يخضع لمنطق الأحداث وأن يستفيد منها حتى ولو كانت هذهالأحداث تتعارض مرحليا مع مطامحه العقائدية» .

● ● ●

الكينونة والفعل ،

« اذا اردنا ان تكون الثورة اسلوبا للحياةمن اجل ذاتها فانها تصبح حتما طريقة للموت ». (الأملَ ص ١٧٦)

ما فائدة الثورة اذن « حينما لا تصلح منحال الناس ؟ » يتساءل بقلق القائد الكاثوليكى « هيرنانديز » HERNANDEZ فهو مثل كــلأسبانى يتهيب فكرة الموت ويخشى كل ما يعرِّض فكرة « خلاصه » وخلاص أمثالــه للضــياع ،ولذلك فان ما يضعه موضع التساؤل هو بالذات قدرة الثورة على حل المشاكلالفردية للمحاربين. اذ انه اكتشف ان الثورة « تجهلّ آلاف التعهدات التى اخذتها على عاتقها » وانه ليس على الرجالأن ينتظروا منها « حل مشاكلهم » وهنا يظهر جرسيا GARCIA من جديد ، حينما يعترفله « هيرناندير » بقلقه ، ليشرح ضرورة التنظيم الثورى وضرورة التفرقة بين المسائل الخلقيــةوالمسائل السياسية :

« هيرناندير » .. فكر فيما يجب ان يكونبدلا من التفكير فيما يمكــن ان نفعله حتى ولو كان ما فى مقدورنا ان نفعله ضئيلا . ان هــذاالموضوع سم بلا دواء ــ كما يقول جويا ــ وهو موضوع خاسر مسبقا بالنسبة لكــل انســانوموضوع لا امل يرجى منه يا صديقى الطيب .

---

(٤٠) الامل ص ٣٢٨/٠

(٤١) الامل ص ٣٢٧/٠

(٤٢) الامل ص ٣٢٥/٠

اذ ان الكمال الخلقى ونبالة النفس مسائل فرديةلا تتدخل فيها الثورة بطريقة مباشرة وللأسف ليس هناك اتصال بين الاثنين بالنسبة لك الافكرة التضحية بذاتك » . (٤٣)

الا أن « هيرنانديز » لن يقبل قط من ،جانبه ، أن يفرق بين ما يجب أن « يكون » وبين ما يستطيع ان « يفعل » . ولذلك حينما يحاصرالجمهوريون منطقة « الكزار » ويطلب منه قائد فاشى توصيل بعض الخطابات الى زوجة« موسكاردو » MOSCARDO يقبل « هيرنانديز » هذه المهمة عن طيب خاطر ، الأمر الذى يحيرزملاءه .

غير أنه يشرح لهم أنه يفعلُ ذلك عن كرم‌انسانى لأن زوجة « موسكاردو » مريضة .

وبعد ذلك نرى هذا البطل ، المسئول عن‌الدفاع عن مدينة « توليد » وهو يغمره الأسى حينما يرى الجنود يهربون أمام هجوم القوات‌المغربية، انه سوف يتحمل الى النهاية مسئولياته كقائد وسوف يحمى مؤخرته بواسطة مدفع‌رشاش :

« بدات مؤخرة الجمهوريين تتقهقر بغير‌انتظام بينما كان بعض زملائهم يداسون بالأقدام. اما « هيرنانديز » فما عاد يفكر فى شيء ، لقد‌اخذ يشد مدفعه على كتفه وكان فى تمام السعادة » . (٤٤)

واستطاع « هيرنانديز » بفضل حركته‌الفعالة أن ينسى مؤقتا مأساته ولكنه سرعان ما يجرح ويؤسر ، وفى السجن لا تساء معاملته‌لأنه تولى ارسال خطابات « موسكاردو » ، الأمر الذى يزيد من امتعاضه .

ونراه بعد ذلك وقد تسلط عليه الملل‌والتشاؤم اللذان يحولان بينه وبين الهرب — مثل زميل له — حينما يقاد الى منصة الاعدام ، انه« متعب لا يرى للحياة طعما .. ايجرى من جديد ... ومرة اخرى ... » . (٤٥) ان الموت‌فقط يمكنه أن يحرره من قلقه وعندئذ ينظر الى « الأرض بشهوة ويقول : ايتها الارض الميتة ‍!لا يوجد مللٌ وسأم الا لدى الأحياء .. » (٤٦)

وهكذا يجد البطل — بأسلوبه الخاص —« طريق خلاصه » . لقد بلغ المرحلة الوجدانية التى وصل اليها « جارين » بطل رواية « الطريق‌الملكى » فى لحظة مفادرته للصين : الثورة ستتم أو لن تتم ولكنه لن يكون احد روادها . الا انه‌مع ذلك ، فى لحظة الموت ، يعود بذاكرته الى محادثته مع « جرسيا » ويبدو انه يصوب رأى‌هذا الأخير : هل كان « كرما » حمله لخطابات العدو ؟ :

---

(٤٣) الامل ص ١٨٧/٠

(٤٤) الامل ص ٢١٥/٠

(٤٥) الامل ص ٢٢١/٠

(٤٦) الامل ص ٢٢٤/٠

« ما معنى هذا ، ما معنى نبالة الخلق في عمل مثل هذا ؟ الشهامة ؟ ... ان الشهامة هي أن تنتصر » (٤٧)

ان اعدام « هيرنانديز » HERNANDEZ الذي يختم به الكاتب الجزء الأول من روايته لبالغ التعبير لأنه يجسد نهاية «الوهم الشاعري». فهذا الصراع بين الأخلاق والسياسة ، بين الغاية والوسائل ، بين الدفعة الثورية المشبعة بحب الناس لذاتهم ، وبين ضرورة تقييمهم بمعيار منفعتهم (٤٨) ، كل هذه التناقضات التي ولدتها ظروف المعركة نفسها تلتقي في احدى أسماء الجزء الثاني للكتاب وهو : « **الكينونة والفعل** »: عنوان يذكرنا بصيغة « جرسيا » GARCIA حينما قال :

« ان الشيوعيين يريدون فعل شيء ما ، أما انتم المثاليون والفوضويون ، تريدون لاسباب مختلفة ، أن تكونوا شيئا ما ... (٤٩) »

واذا كان هناك جدال دائم بين الفوضويين واتباع « لينين » ، فذلك مرده الى ان الفوضويين يريدون الفكاك من التزامات العمل المنظم الذي لا يأتي بنتائج ملموسة الا في المدى الطويل . فبالنسبة لهم ليست الثورة الا نضالا يسمح لهم بأن يحققوا « كينونتهم » وبأن يحصلوا في الحال على ما يتوقون اليه : الاخوة ، الكرامة والحرية . ولا يهمهم بعد ذلك النتائج السياسية للصراع ، فالمهم هو التحمس ، هو هذه النشوة التي توصل اليها المعركة . وعلى هذا النحو ، يحاول « النجوس » LE NEGUS أن يفسر الامور للصحفي الامريكي « شاد » SHADE إبان هدفه « طليطلة » :

« اذا كنا قد سحقنا هنا وفي « مدريد » ، فان الرجال قد عاشوا يوما بقلوبهم ، اتفهم ذلك) ؟ فبالرغم من البغضاء هم احرار ولم يكونوا كذلك قط . انني لا اتحدث عن الحرية السياسية ، وانما عن شيء آخر ! اتفهمني ؟ » (٥٠)

وفي مكان آخر يضيف « النجوس » :

« لا داعي لنسج الروايات ، فالانظمة صنعت للرجال وليس الرجال للانظمة ونحن لا نود اقامة دولة أو كنيسة أو جيشا . اننا نريد ان نصنع رجالا » (٥١)

صنع الرجال ، « الكينونة » ... افكار يعبر عنها أيضا « بويج » PUIG وهو متطوع من

---

(٤٧) الامل ص ٢٢٤/٠

(٤٨) نلاحظ ان هذا الصراع كان موجودا في رواية « الغزاة » اذ كان « جارين » يلوم « بورودين » على معاملته للرجال كانهم « الات » وعلى رغبته في « صنع لوار كما يصنع فورد السيارات » !

(٤٩) الامل ص ١٨٦/٠ ـ نلاحظ ايضا انه ، منذ رواية « الغزاة » كان مالرو يقارب بين المثاليين (تشينج ـ داي) وبين الفوضويين (هونج) : وكلاهما يكونان برغم اختلافهما عقبة امام التحرك الثوري .

(٥٠) الامل ص ١٧٥/٠ ، ١٧٦

(٥١) الامل ص ١٧٨/٠

منطقة « كاتالونيا » . لقد قام « بويج » أثناء تمرد« برشوته » بدفع سيارة ضد مدافع العدو واستطاع ان ينجو من هذه العملية الجريئة ،وفى هذا الصدد كتب المؤلف :

« بالرغم مما كان يعرفه عن باكونين ، كانتالثورة فى نظره انتفاضة شعبية ، وتجاه عالم بلا أمل كان لا يتوقع من الفوضويين الا ثوراتمثالية ، لذلك كانت كل مسألة سياسية تحل بالنسبة له بالجرأة وثبات الخلق » (٥٢)

ولكن الفوضويين حياتهم قصيرة ، ففىمحاولة اخرى مثل الاولى ضد الحواجز الفاشية لقى « بويج » مصرعه ... وبذلك حقق ما يصبواليه : ان يموت « بأسمى طريقة ممكنة » بعد ان يعيش يوما «بكل احاسيسه » ولا شك أن هذاالمطمح العظيم بالنسبة للفوضوى نوعا من « اللاقدر » ويقول « لو نيجوس » وهو يفكر فى« بويج » على الارجح : « ان الرجال المصممين على الموت ، ينتهى بنا الامر بان نشعر بمرورهم » (٥٣)

ان ما يعتبه « لونيجوس » ـ المتكلم باسمالفوضويين فى الرواية ـ بالاخص على الشيوعيين هو بالضبط « خط » العمل الذى يحدده الحزب،والذى يمنعهم حينما تسنح الفرصة من انجاز اعمال بطولية مثل عمل « بويج » . وفى هذا يقولحكمة : « ان الذى يخشى الموت ليس ضميره مطمئنا » (٥٤) .

انه يعتبر الشيوعيين غير مخلصين القيمالتى يدافع عنها الجمهوريون ، بينما هم ، الفوضويون ، لم يكفوا قط عن خدمة هذه القيممنذ ثورة « الأستوريى » Les Asturies :

« ان يكون الانسان ثوريا ، بالنسبة لكم ،هو ان يكون خبيثا . ولكن بالنسبة لباكونين وكروبوتكين لم يكن الامر كذلك بالمرة . انتم اكالكم الحزب . اكلكم النظام : وبالنسبة للشخص الذى لا ينتمى اليكم لا تعاملونه بامانة أو واجب . انتملم تعودوا مخلصين . اما نحن فقد قمنا منذ ١٩٣٤ ، بسبعة اضرابات للتضامن فقط معالاخرين وبدون اى هدف مادى » (٥٥) .

ويرد « براداس » PRADAS الشيوعى عندئذعلى « النيجوس » LE NEGUS قائلا : « بصراحة انه من الافضل أن نكون غير مخلصين على أن نكونعاجزين » فالفوضويون ، فى رأيه ، حتى ولو كانوا « مستعدين للموت » لا يمكنهم ان ينجحوالثورة الاسبانية لانعدام النظام بينهم ، أما الشيوعيون فلقد اثبتوا ، حسب قوله ، أنهمالوحيدون الذين استطاعوا استغلال الظروف فى « بناء » الثورة ، ويقول . مستندا الى حجج« جرسيا » GARCIA التى نعرفها :

« لقد سيدنا دولة ثورية وهنا نكون الجيشعمليا بصفاتنا الحميدة وبعيوننا والجيش هو الذى سينقذ الجمهورية والبروليتاريا » . (٥٦)

● ● ●

---

(٥٢) الامل ص ٣١/٠

(٥٣) الامل ص ١٧٦/٠

(٥٤) الامل ص ١٧٦/٠

(٥٥) الامل ص ١٧٧/٠

(٥٦) الامل ص ١٧٧/٠

يتضح من هذا ان الحزب الشيوعي هـو احدى الوسائل التي يجدر استخدامها في الدفاع عن : قضية الجمهورية ، انه احدى الحقائق الواقعية التى تتبلور حولهــا الثنائية بــين « الكينونة » و « الفعل » . الا انه يتبقى مع ذلك ان الوسائل التي يستعملها هذا الحزب تشـبه كثيرا ما قامت ضده الثـورة ، ومن ثم ســوف يتجاوز الصراع حول مفهومى العمــل الثـورى الخلاف بين الفوضويين والشيوعيين أو حتى بين المثاليين والشيوعيين ... وعلى هــذا فالثـورة ليست غير مكلفة بحل المشاكل الفردية للمناضلين فحسب ، بل ان كرامة هؤلاء تظل معلقة حتــى تتحقق الاهداف .

وهكذا نرى « مانيان » MAGNIN الواعى بدوره الرئاسى مضطرا الى اطاعة اوامر المنظمــة وطرد « شرايئر » SCHREINER الذى يشك في كونه مرشدا فاشيا . الا انه بالرغم من اعترافه بفعالية الوسائل الشيوعية يعتب بمــرارة علــى « اينريك » ENRIQUE احد زعماء الحــزب ، لا انسانية اوامــره ، ويعتقــد ــ كما يعتقــد « النجوس » ــ بأن الرجال لهم الاسبقية علــى الحزب (٥٧) .

غير انه في آخر الرواية سوف يحير جوابا امام « جرسيا » GARCIA حينما يذكـر هــذا الاخير ، اثناء تقريره لنتائج الاحــداث ، جملــة « لجيرنيكو » GUERNICO : « الشيوعيون لهم كل فضائل الفعل ــ وهذه الفضائل فقط » ويضيف : « ونحن في هذه اللحظة نحتاج الى الفعل » (٥٨) .

ان « مانيان » لا يستطيع ان ينكر هذه البينة : « الفعل لا يمكن تصوره الا في اطار الفعل... » . « فالفعل هو الفعل وليس العدالة » (٥٩) .

موقف « مانيان » MAGNIN تجاه الثورة يذكرنا بموقف « روبيرت جــوردان » ROBERT JORDAN في روايــة « همنجواى » : « لمن تــدق اجراس الموت FOR WHOM THE BELL TOLLS فهو مثل هذا الاخير يترك فكره « معلقا » (٦٠) الى ان تنتهى الحرب ويمكن ان ننسب اليه ، ما يكتبه همنجواى عن بطله :

« كان تحت حكم الشيوعيين خلال فترة العمليات . وهنا في اسبانيا كان الشيوعيون يهيئون افضــل نظــام واعقلــه واســلمه لمتابعــة الحــرب ولقد قبل قيادتهــم لمدة العمليــات لانهــم ، في قيادة الحرب كانوا يشكلون الحزب الوحيد الذى يمكن احتــرام « برنامجــه ونـــظامه » (٦١)

ان المخرج الوحيد الذى يتبقى اذا امام المحاربين هو تطويع انفسهم لضرورات الفعل وقبول اوامر المنظمة والاعتراف بأسبقية النظام العسكرى ... حتى ولو كان ذلك ايضا يناقض المبادىء

---

(٥٧) الامل ص ١٣٨/٠

(٥٨) الامل ص ٢٢٧/٠

(٥٩) الامل ص ١٤٠/٠

(٦٠) همنجواى ، فى طبعة فرنسية :

E. Hemingway.Pour qui sonne le glas, ed. Heinmann 1968, p. 218

(٦١) همنجواى ، الطبعة المذكورة ، ص ١٨٠/٠

التى دفعتهم الى التطوع . وكما سيكتب « مالرو» بعد ذلك فى « اللامذكرات » Les Antimemoires ، انه منذ اللحظة التى يتبنى فيها المناضل قضية . فان هذا الاختيار يتضمن فى حد ذاته قبول منهج ما وتنظيم ما :

« اذا كانت المعركة مرتبطة بالخلق ، فكل شخص يعرف ذلك ، الا انـه قـد لا يعـرف ان المعركة تتضمن تنظيما خاصا للفعل علـى الـذى اختار النضال ان يقبله فى نفس الوقت » . (٦٢)

المرور اذا من حالة الحماس الى النظام ، ومن العفوية الشعبية الى التنظيم التقنى يفرض نفسه لنصرة قضية الجمهورية ، وليس الامر الآن فى ان يكون الرجال شيئا ما ولكن ان يفعلوا شيئا ما ، حتى ولو كانت المأساة التي يشـارك فيهـا المحاربون تتصـل بمأسـاة اخـرى روحيـة .
وهكذا يتكون الجيش الجمهورى ، جيش الشعب الذى لم يكن موجودا فى البداية ، من خلال الآلام والتضحيات حتى يصير اداة علمية منظمة يتبح للجمهورية الانتصار فى موقعـة « جـوادلخرا » GUADALAJARA . وهذا حادث جلل يصوب راى الذين اختاروا تحقيق الحرية بواسطة النظام .

ولكن ما مصير العلاقات الانسانية فى داخل الاطار التنظيمى للجيش ؟ والى اى مدى يبرر هذا النصر الاخير اختيار الرجال ؟ علينا فى هذا الصدد ان نتتبع « مانويل » فى طريقه الثورى حتى نرى الى اى حد يمكن ان يلتقى الالتزام الواعى بالفعل مـع السـعى الميتافيزيقـى او الروحـى للمناضل .

• • •

ثورية « مانويل » وايثار الفعالية .

« ان الشجاعة امر ينظم ، يحيا ويموت ، وعلينا أن نعنى بها كما نعنى بالبنادق ... ان الشجاعة الفردية ، ليست الا مادة اولية طيبة لشجاعة القوات ... » (٦٣)

منذ الصفحات الاولى للكتاب ، يقدم لنـا المؤلف شخصية « مانويل MANUEL كشـاب بوهيمى عين فى وظيفة مسـاعـد « لرامـوس »RAMOS» سكرتير نقابة عمال السكك الحديدية ، فى المقر المركزى للهاتف بالمحطـة الشماليـة فى مدريد . وكان « مانويل » قبل ان ينخرط فى جماعة الجمهوريين مهندس صوت فى استوديو سينمائي اسبانى ، موسيقيا هائما بفنه ورياضيا يمارس بانتظام التزلج على الجليد ، ونراه فى بداية الحرب يقود حرب عصابات بطريقة رومانسية واضحة بجانب « راموس » و « باركا » BARCA ، ومثل جميع المحاربين نراه مفتونا بالاخوة الشـاعريـة التي تتفتق بين زملاء السلاح ، مكرسا كل همه وفكره الى قضية الجمهورية . واكبر دليل على مشاعره الجياشة بالاخلاص هو تخليه للحرب عن « سيارته الصغيرة العزيزة » التي اشتراها ليذهب بها الى جبال السيرا حيث يمارس هواية التزلج على الجليد ، وبفقدانه هذه السيارة التي

(٦٢) اللامذكرات : A. MALRAUX - Les Antimemoires Paris, Gallimard, p. 1967 153

(٦٣) الامل ص ٢٢٨/٠.

كان جم التعلق بها ، شعر فجأة بنوع من اللامبالاة نحوها : « لم تعد هناك سيارة ، وكان هناك هذا الليل المحمل بأمل غامض وغير محدود ، هذا الليل الذى يجد به كل انسان ما يشغله على وجه هذه الارض » . (٦٤)

ولكن بسرعة ، ومع تدرجه فى السلك العسكرى ، تعود « مانويل » أن يسيطر على « شعور الاخوة » وان ينظمه . . .

وهناك حادث فى أول الرواية يوعز الينا بهذا التحول فى شخصيته : اذ بينما كان يشاهد منظر فلاح شاب وهو يخضب اصبعه بدم جندى مقتول ثم يكتب على جدار بحروف كبيرة « الموت للفاشيين » تأثر جدا واعتبر هذا المشهد نقطة تحول فى التزامه الثورى : « شىء ما تغير فى داخلى ، ولبقية حياتى ، قال لراموس ، شعرت ، أمام الشخص الذى يكتب على الجدار ، باننا مسئولون » . (٦٥)

منذ هذا اليوم ، فهم ان بناء اسبانيا الجديدة لن يتم الا بتضحيات جسام من هذا المعسكر وذاك .

وكان ترقية العسكرى سريعا ، اذ فى خلال شهرين من بداية الحرب ، يضعه حزبه تحت قيادة الكولونيل الكاثوليكى « يمينز XIMENES » ليتعلم فن القيادة : وبدأ « مانويل » الذى لم يكن منظما عن حب فى الطاعة أو رغبة فى القيادة ولكن بالسليقة واحساسا بالفعالية ، يتعلم كثيرا بفضل « النظام الفكرى » الذى يتميز به . ان « يمينز » وكان متشددا حتى فيما يتصل بمسئولياته الخاصة ، قد بدا بتلقينه خط السير الضرورى للزعيم الثورى وطبيعة العلاقات التي يجب ان تربطه برجاله :

« قريبا سوف تكلف انت نفسك بتكوين ضباط جدد . سوف يطلبون المحبة وهذا أمر طبيعي بالنسبة للانسان ، ولا افضل منه ولكن بشرط ان تفهمهم هذا : ان الضابط يجب ان يحب لطبيعة قيادته ــ حينما يكون دقيقا ، فعالا وممتازا ــ لا بسبب خصائص او مميزات شخصية. اتفهمنى ، يا ولدى ، حينما اقول لك أن الضابط لا يجدر به قط أن يلجأ الى الجاذبية ! »

وفهم « مانويل » ، الذى كان يصغى باحترام ، أن « اعظم اقدار الانسان هو ان يحب من غير ان يلجأ الى الجاذبية » (٦٦) ، ولكنه سرعان ما تبين له ان هذا ايضا « من اصعب الاقدار » كما تنبأ بذلك « يمينز » .

ثم طغت عليه مشاغل القيادة الى ان صار « كولونيلا » ولم يعد يهتم بما « يكون الناس » ولكن بما يفعلونه » (٦٧) ، وعلى هذا النحو أمر باعدام جنديين من فرقته بتهمة التعاون مع العدو ، وان كانت خيانتهما لم تثبت بشكل قاطع ، الا انه لم يعد يستطيع ان يفكر بطريقة اخرى .

---

(٦٤) الامل ص ١٩/٠
(٦٥) الامل ص ٨٢/٠
(٦٦) الامل ص ١٥٣/٠
(٦٧) الامل ص ١٤٧/٠

ونراه حينما يخرج من المجلس العسكرى وقد تعلق به المتهمان والتفا حول ساقيه طالبين العفو ، متخبطا بين شعورى النفاق والاستنكار وغير قادر على القول او الفعل : فهو لم يكن يقدر ان الحكم بالاعدام يقود الناس الى الترجى والى الضغط على النفس ، بالنسبة للحاكم ، لمقاومة هذا الترجى ، وحينما يكشف له الضوء برهة عن وجه مجهول الى هذه اللحظة ، يبدأ يلمس فيه « الوجه الا بدى لمن يدفع دائما .... » ـ « اذن ، لم تعد تنطق حرفا من اجلنا » صاح الجندى (٦٨) . وتبين « مانويل » فجاءه انه طوال المشهد لم ينبس بكلمة ، فهو « لم يشعر قط بحساسية الاختيار الى هذه الدرجة بين النصر والشفقة » (٦٩)

لقد اعدم الرجلان و « مانويل » واثق من انه ادى واجبه ، الا ان ذكراهما وهما ملتفين حول ساقيه ما زالت تعاوده . انه لا يستطيع الرضوخ الى الوحدة التي تفرضها عليه قيادته ويعترف « ليمينز » بقلقه :

« اننى احمل مسئولية هذا الاعدام ، فلقد تم لانقاذ الآخرين . رجالنا ، ولكن اسمعنى : لم يكن هناك حد تجاوزته من أجل فعالية اكبر وقيادة افضل الا وابعدنى اكثر عن الرجال . اننى اشعر بأن كل يوم اقل انسانية » (٧٠) .

ويحاول « يمينز » ان يواسيه وان يجد له مبررات : « الانسان صغير جدا » لكى « يفعل ولا يفقد شيئا من الاخوة » ، ولكن هناك ـ لاشك ـ تعويض : « فان ما يفرق بينك وبين الرجال يقرب بينك وبين الحزب .. » وكان « مانويل » يفتقد هذا الاعتقاد ، ولكن بتوجس احيانا نظرا لتجربته المريرة . « تقربنا من الحزب لا يفيد شيئا اذا بعدنا عن الذين يعمل الحزب من اجلهم » (٧١)

وعلى هذا يجيب « يمينز » : ايه ! ماذا تريديا بنى ؟ ان تحكم بالاعدام وتبقى هادئا .. ؟ انك تتعود حتى على هذا ... » (٧٢) .

ويتدخل الجنرال الروسى « هيريج » HEINRICH لفض هذه المناقشات قائلا « لمانويل » :

« نحن نعمل على تغيير مصير الحرب . هل تعتقد انه يمكن تغيير الاشياء من غير ان تتغير أنفسنا ؟ فانك منذ اليوم الذى تقبل فيه قيادة فى جيش البروليتاريا . ليس لك حق على نفسك ... احساسك يمكنك ان تحتفظ به ، هذا امر آخر . ولكن لا بد ان تفقد نفسك مثل ما فقدت شعرك الطويل ونغمة صوتك » . (٧٣)

---

(٦٨) الامل ص ٣٣٣/٠
(٦٩) الامل ص ٣٣٢/٠
(٧٠) الامل ص ٣٤٧/٠
(٧١) الامل ص ٣٤٧/٠
(٧٢) الامل ص ٣٤٨/٠
(٧٣) الامل ص ٣٥٠/٠

وحينما يسأله « مانويل » عما يعنيه ، وهوالماركسي عن « فقدان النفس » ، يوضح له « هينريخ » : « في كل حرب توجد خسائر . وليس فقط في ساحة القتال ... والآن لا يجدر بك أن تشعر ابدا بالرحمة على رجل فقد » . (٧٤)

هذا التباعد التدريجي وهذه العزلة المتصاعدة عن الرجال يعبران ايضا عن طبيعة العلاقات التي كانت تميز حياة « مانويل » الخاصة ، فنحن نراه في بداية الرواية يعترف « ليمينيز » بحبه العظيم (٧٥) لامراة تفصلها عنه تربيتها الدينية وتحول بينها وبين الزواج به ، الامر الذي يؤثر عليه تأثيرا شديدا ... وبعد بضعة اشهر بينما كان مشغولا بتنظيم الفارين من « طليطلة » أتى الى الضابط العجوز وقال له :

« لقد ضاجعت في الاسبوع الماضي امراة كنت قد احببتها سدى خلال سنوات عديدة : وكنت أشعر برغبة في الذهاب ... واني لآسف على ذلك ، ولكني اذا كنت اهجرها فلسبب : فنحن لا نستطيع ان نمارس القيادة الا لاداء خدمة والا .. » . (٧٦)

وهكذا يتخلى « مانويل » عن حبيبته لانها قد تشكل عقبة امام حرية فعله ، وبالنسبة له ، حتى المجندات ، ولهن فعاليتهن في جانب معين من الحرب ، قد يؤثرن على عزيمة الرجال . (٧٧) « ان الحرب تولد العفة » ، كما يقول . (٧٨) وهذا يدفعنا الى مسالة هامشية ولكنها هامة : فلقد اتهم « مالرو » بعداوته للمرأة ، فالمرأة بالنسبة له وخاصة في أوائل رواياته مثل « الغزاة » Les Cunquerants و « الطريق الملكي » La Voie Royale لا تمثل الا « القطب الآخر » في لذة الرجل . الا ان الكاتب يفسر هذا الموقف بانه يتحدث عن المراة « المحلية » وان ذلك تفرضه طبيعة البيئة التي تدور فيها الاحداث ، اما بالنسبة لعدم اهمية المكانة التي تحتلها النساء في مؤلفاته فان مالرو قد شرح ذلك « لبيير جالانت » ورد هذه الظاهرة الى نوع رواياته الذي يتطلب هذا اللون من البناء :

« في اللحظة التي تولج فيها ــ مثل همنجواي ــ قصة حب في نضال ثوري فاننا نهزا بالناس ، لانك اذا كنت في قصة حب لن تكون في نضال ثوري . واذكر « انه حينما قابل دانتون روبسبيير في ردهات مجلس الثورة وقال له : « انت تخوننا يا روبسبيير » ! افحمه هذا بقوله : « يا احمق ليس في مقدورنا ان نخون ونحن نمارس الحب ... » . (٧٩)

وحينما نعاود قراءة بعض فقرات رواية « **لمن تدق اجراس الموت** » تتضح ملاحظة « مالرو » اكثر . اذ أن « روبرت جوردان » الذي يغرم « بماريا » يعطينا احيانا الاحساس بان اونيس

---

(٧٤) الامل ص ٣٥٠/٠
(٧٥) الامل ص ١٥٥/٠
(٧٦) الامل ص ٣٤٧/٠
(٧٧) الامل ص ٨٢/٠
(٧٨) الامل ص ٤٢٢/٠
(٧٩) GALANTE, Pierre, op, cit., p.83,

يهمل مؤقتا التزامه بالنضال . وعلى هذا النحـو يبدو لنا ، فى فصل الرواية المسـمى «بالحـب الارضى » وكأنما الزمان معلق بالنسبة للحبيبين :

وبالنسبة لها لم يكن يوجد الا اللون الاحمراو البرتقالى . او ذهب الشمس المشوب بحمرة علىعينيه المغمضتين ، وكان كل شىء بهذا اللون،نعم كل شىء : الشمول،التملك،الرضا،كانوا بهذا اللونوكانكلشىء يشعبهذا اللون.اما بالنسبةله،فكان معبرا مظلما لا يؤدى الى مكان او الى شىء ، لايؤدى الى شىء ، ومرة اخرى لا يؤدى الى شىءوهكذا بلا نهاية لايؤدى ابـدا الى شىء . متكئـا بمرفقية على الارض بلا هدف كان يطالع هذا المعبرالمظلم اللانهائي وهو معلق طوال الوقت بعـدم لا مخرج منه ، هذه المرة ومرة اخرى الى الا بـد مناجل لاشىء ، الآن ، آه ! لو لم نولد مرة اخـرى من اجل لاشىء ، والآن عبر كل ما نستطيع تحمله الى اعلى ثم الى اعلى ثم الى علو اكبر فالى لاشىء. فجاة « انبهار » ثم سعادة « علوية فاختفاء لكلما كان مظلما وعدما ، اما الوقت فصار سكونـا ابديا وكانا هما الاثنان هاهنا والزمـان معلـق يشعران بالارض تتحرك ثم تغوص تحتهما » . (٨٠)

• • •

واضح اذا ان هذه القطعة بمفردها تبلـورملاحظة الكاتب التى اشرنا اليها ، « فمالرو » على العكس من « همنجواى » ، ولكى يبرز الجوانبالماسوية للفعـل يركـز اهتمامـة على العنـاصر الاساسية التى تكون عالم الحرب وهذا يتناسبتماما فى رواية « الامل » مع شخصية (مانويل) فمن الطبيعى اذا ان البطل الذى ضحى بالقيـمالمباشرة فى سبيل القضية الثورية يبتعد عن المراة الحبيبة حتى لا تشغل باله عن عمله القيادى .

ونلاحظ فى هذا الصدد حادثا آخر فىالروايةيدل على ان وجود المراة مضر ، بل وقاتل بالنسبة للمحاربين . لقد شاهد « جيرنيكو » و « جرسيا »حوارا بين زوجـة مناضل وزوجهـا تتردد فيـه الزوجة عن مغادرة مدريد كما يطلب منها زوجها :« يقول انه علي ان اغادر ، اخذت تندب حالها . يقول انه لا يستطيع ان يحارب اذا كنت هنا . .ولكنى لا استطيع العيش اذا علمت انـه يحارب هنا . . . حتى ولو لم اعرف ماذا يدور . . »ويعلق« جرسيا » على قول الزوجة هذا ببرود : « كلهن سواء . اذا رحلت فسوف تتحملة فى كثير من الالم ولكنها ستتحمله ، واذا بقيت فسوف يقتل(٨١)»

على النقيض مما يدور فى روايات « الطريقالملكى » و « القدر الانسانى » أو « زمن الاحتقار»، يكاد يكون شعور الحب غـير موجـود فى روايـة« الامل » او يمثل كعقبة فى طريق المجهود الثورى . . ، الامر الذى يقودنا الى ملاحظة التوازى الذىيوجد فى روايات « مالرو » بين الحياة الخاصـة للشخصيات ورؤيتها الشمولية للوجود ، فـفىهذا الكتاب الذى يمجد التنظيم العسكرى نـرى البطل الذى كرس نفسـه للنضال المنظم لا يجـدفرصة للتفكير فى علاقات عاطفية من اىنوع كانت.

---

(٨٠) راجع همنجواى (الكتاب المذكور ــ ص./١٧٦)

(٨١) الامل ص ٢٦٥/.

واذا رجعنا الى « مانويل » وجدنا ان تحوله كان شاملا . وليس الامر فقط مجرد ميلاد زعيم، او نجاح خارق استثنائي ، اننا بصدد تحول جذري ، وهنا يكمن الفرق الجوهري بين البطل في روايات مالرو المكرسة للثورة الصينية وبين البطل الشيوعي في رواية « الامل » المكرسة للحرب الاسبانية . فبينما « جارين » GARINE في « الغزاة » و « كيو » KYO في « القدر الانساني (٨٢) » يعرضان الى النهاية الصراع يشور في دخيلتهما ، ينتهي « مانويل » على العكس من ذلك بقبول ضرورات الفعل بلا نقاش :

« لما كان » مانويل « شيوعيا ، فانه لم يكن يتساءل عن سلامة اسس قراراته ، لم يكن يضع تصرفه موضع التساؤل ، وكل مسألة من هذا النوع كانت لا بد أن تنتهي في نظره ، اما بتغيير افعاله (وهذا التغيير لم يكن واردا) ، واما برفض التساؤل » (٨٣)

وبعض الملاحظات في الرواية توحي الينا بالرغم ـ او فلنقل ـ بفضل حزمة في القيادة بان « مانويل » كان محبوبا من قبل زملائه في السلاح وكان هذا الحب صادقا من غير افتتان . لذلك لا يرى، بعد حكمه بالاعدام على جنديين هاربين، في عيون رجاله الذين يستعرضهم الامودة واخوة :

لم تكن هذه النظرات وهي تخترق نظره في كل التقاء ، تتسم بالغموض او اللامبالاة : كانت اخوية باسى ، مليئة بهذا الظلام (٨٤) » .

بل واكثر من الاخوة :

« كانت نظرات » مانويل « تلتقى بتلك النظرات ، الواحدة تلو الاخرى ، وهى تعقد معها تحالفا بالدم (٨٥) » .

بعد انتصار الجمهوريين في « جواد لخرا » يحس « مانويل » الذى قطع ـ اثناء المعركة ـ كل صلة بينه وبين المتعة الشخصية والذى اعلن « لجارتنر GARTNER انه لا يقدر الموسيقى ، بان اهم ما يحتاج اليه في هذه اللحظة هو سماع قطعة موسيقى . . . فبسماعه سيمفونية لبيتهوفن كان يكتسب اليقين ـ حتى ولو شك أحيانا ـ بأنه يحمل في طيات نفسه كل الامكانيات الانسانية سليمة وكاملة :

امكانيات الفن والرقة والحب ، ولا شك ان السلام سيبعثها يوما ما فالمستقبل كله ملك له :

« كان يحس بالحياة تزخر حوله بالتنبؤات، كما لو كانت تنتظره ، خلف هذه السحب الدانية التي لا يهزها « المدفع » ، بعض الاقدار العمياء . كان الكلب ـ الذئب ينصت ممددا كما تصوره

---

(٨٢) في رواية « زمن الاحتقار » Le Temps du Mepris - كان البطل « كاسنر » Kassner يمثل الصراع ضد كل ما هو « لا انساني » . الا ان المسألة الخلقية ـ السياسية لم تكن مطروحة في هذه الرواية .

(٨٣) الامل ص ٣٢٨/٠

(٨٤) الامل ص ٣٢٦/٠

(٨٥) الامل ص ٣٢٦/٠

بعض النقوش البارزة . فى يوم ما سيأتى السلام وسيصبح « مانويل » انسانا جديدا ، مجهولا من ذاته كما كان يجهل مناضل اليوم الشخص الذى اشترى السيارة للتزلج على الجليد فى جبال السيرا .

ولا شك كان الامر كذلك مع كل واحد من هؤلاء الرجال العابرين بالطرقات او العازفين بعناد أغنيات الحنين الحزينة والذين حاربوا تحت اغطية الرأس المدببة (...) ان الحرب لا تكتشف الا مرة واحدة ، ولكن الحياة تكتشف أكثر من مرة .

كانت هذه النغمات الموسيقية التي تتوالى عبر الماضى تحدثه كما لو تحدثت اليه هذه المدينة ذات الماضى العريق ... وهذه السماء وهذه الحقول الابدية ، ولاول مرة كان « مانويل » يسمع صوتا اهم من دم الرجال واشد بأسا من وجودهم على البسيطة ، صوت الامكانية اللا محدودة لقدرهم — وكان يشعر فى داخله بهذا الوجود ممتزجا بهدير الجداول ، مختلطا بدبيب خطوات الاسرى ، متصلا عميقا مثل نبضات قلبه » .(٨٦)

● ● ●

ثالثا : الامل الثورى :

« فى عالم بلا امل يصعب التنفس » ،(الامل /ص ١٩٩)

هذا السطر الذى نستشهد به يختتم الرواية ، الامر الذى يقودنا الى رؤية للوجود ، كلها سلام وأمل ، كما وعدنا بذلك عنوان الرواية .

وليس من شك فى أن هذا الكتاب نشر فى فترة كان يتوقع فيها الجمهوريون نهاية موفقة لهذه الحرب، وخاصة وانه يشير من بين الاحداث الاخيرة الى انتصارهم فى « جواد لخرا » GUADALAJARA الا انه يبدو لنا معبرا ان «مالرو» احتفظ بهذا العنوان بعد الهزيمة السياسية للثوار . فمن الناحية « الفنية » يمكن ان نذهب مذهب « لوسيان جولد مان » LUCIEN GOLDMANN فى تعقيبه على هذا الجانب :

« يرجع رفض الاهتمام بالاحداث اللاحقة على الرواية الى ضرورة داخلية فى بناء القصة : اذ ان رؤية الكتاب كانت مرتكزة على التضحية فى سبيل النظام بكل القيم من أجل الفعالية ومن ثم فان هذه التضحية ستبدو هزلية وغير مبررة اذا ادت الى الهزيمة بدلا من النصر » (٨٧)

---

(٨٦) الامل ص ٤٣٢/٠

(٨٧) لوسيان جولدمان ، من أجل سوسيولوجيا الرواية، ص/٢٣٦
GOLDMANN, L. - Pour une sociologie du roman, p. 236

ومع ذلك فرواية « القدر الانساني » انتهت بفشل سياسي وكذلك « كيو » KYO

البطل الثوري الاصيل يموت في نهاية الرواية بالرغم من وجود فقرات عديدة في الكتاب توحي بانتصار المناضلين « حتى ولو هزموا أو عذبوا او قتلوا » ... وبالامل في حياة افضل للجماهير الصينية . ونحن لو فحصنا رواية « الامل » بهذا المنظور الميتافيزيقي لأيقنا بمدى دلالة هذا العنوان وعدم جدوى الاحداث اللاحقة على معركة « جوادلخرا » في تغيير مضمونه .

« **ان القوة الكبرى للثورة هي الامـــل** » يقول مناضلو (٨٨) الحرب الاسبانيــة ، وهــذا الشعور ، في الواقع ، هو الذي يلهم ثورتهم ويتيح لهم التغلب على مخاوفهم أمام القدر ...

هذا الامل هو امل الفلاحين الذين عاشوا في البؤس ويحلمون بالكرامة واحترام آدميتهم .

ولو فكر في ذلك « مانيان » وهو يحلق فوق قرى اسبانيا :

« كان يتذكر الاراضي البور ، التي لم يكن من حـق الفلاحـين المرضى مـن البؤس ان يستصلحوها ... ان الفلاحين الثائرين كانوا يحاربون تحت امـرته ليرفعوا هـذه الجـدران الصغيرة ، وهـي الخطـوة الاولـى في سـبيل كرامتهم » . (٨٩)

كان الجميع يحارب في سبيل تصور معين للانسان واذا كان المثل الاعلى الثوري هو الذي يؤجج حماس الشعب فلانه كان يجسد لديهم « املا غامضا وبلا حدود » (٩٠) ويرضي الرغبات والمطامح العميقة الكامنة في كل فرد .

الا ان الكاتب ، في الوقت الذي كان يصف فيه قمة الالتزام الثوري ، كان يدين الثنائيـة الناتجة عن الفعل : فالثورة ، كما راينا ، كانت تصطدم بالحماس الذي دفع بالابطال الى اللحاق بها ، هذا الحماس الذي كان يجب الحد منه بجهد مضن في سبيل النظام .

وهكذا فان افضل مـا في الانسـان ، اي تلقائيته الثورية ، هو الذي كان يدخل في صراع مع ضرورات النظام العسكري والسياسي ... وبهذه الصورة يشك في قدرة الثورة على حـل المسائل الميتافيزيقية للفرد . الامر الذي يرجع الى ان طبيعة المسائل السياسية وطبيعة المسائل الخلقية لا تنتميان الى نفس النسق كما يقول « باسكال » .

---

(٨٨) الامل ، ص/٤٤

(٨٩) الامل ص/١٩

(٩٠) الامل ص/١٩

ومن ثم عجز الثورة عن الارتفاع بمستوىالانسان من تلقاء ذاتهـا ... فلننصـت الـى « جرسيا » :

« اى دولة واى بناء اجتماعى لا يمكنه خلقنبالة الخلق او رفعة الروح ، ومعظم ما يمكـن توقعه هو ظروف ملائمة . وهذا كثير ... »(٩١)

ويوضح « مالرو » فى خطابه عن « الميراثالثقافى » :

« ان الثورة لا تعطى للانسان الا امكانيةكسب كرامته ، وعلى كل فرد ان يجعل من هذه الامكانية حقيقة ... » (٩٢)

عظمة الانسان لا تعتمد بلا شك الا علـىجهده الخاص .. ولكن الرجل الملتزم يجد فى الفعل ظروفا ملائمة لتجاوز وضعه ببذل افضلما فى طاقته ، وهنا يكمن الامل الثورى ، فالبطل يلقى فى صراعه من اجل الكرامـة والحريـة .محنـا وتجارب تناقض القيم التي يناضل مـن اجلها ولكن امله فى المستقبل الذى يعده يكفىلايجاد صلة بين التضحية المؤقتة بهذه القيم وبين العالم الجديد الذى يحلم به .

اذ انه حين ينخرط كلية فى فعل له معنىوهدف ، سوف يخرج من هذه التجربة وقد تغير جذريا ، ومن ثم تصبح الثورة ايضـا لا قـدراشخصيا وهذا ما يلاحظه « مانويل » فى آخـر الرواية حينما يقول :

« ان حياة اخرى بدات بالنسبة لـه مـعالمعركة ... » (٩٣)

وانه لفى ضوء هذا المفهوم تكتسب الروايةوعنوانها معناه الكامل .

وانه لجدير بالذكر منجهة اخرى ان يكتبالمؤلف ، بعد انتصار « جواد لخرا » بان الحرب قد بدأت (٩٤) ، مشيرا بذلك الـى ان معـاركاخرى قد لا تكون موفقة بالنسبة للجمهوريين ،

ولكن ... طالما ظل المجهود الثورى قائماكما يجب ان يقوم .. فان هذا المجهود سوف يؤكد للرجال « **الامكانية اللا محدودة لقدرهم** » .

● ● ●

---

(٩١) الامل ص/٣٢٨

(٩٢) راجـع : L'Heritage cultural in Commune No. 37, 1936, p.9

(٩٣) الامل ص ٤٢٢/٠

(٩٤) الامل ص ٤٣٦/٠

خاتمة :

ان شعور الاخوة الانسانية ، الذى يبرز فى كثير من صفحات رواية **« القدر الانســانــى »** ويغلب على معظم رواية **« زمن الاحتقار »** يلقى على رواية **« الامل »** اقوى تعبير له . الا ان قبول حقيقة هذا الشعور كواقع لا يجلب للانسان السلام التام ، اذ انه يتحتم على الانسان ان يؤكد بــلا تردد على القيم المختارة ليطرد هواجس القلق . . .

ان الاحساس بالحياة الجماعية لا يكتسب الا قليلا قليلا ، لان الاخوة المتولدة عن النضــال المشترك كثيرا ما تصطدم بالتزامات وضرورات الفعل ذاته .

وليس هناك شك فى ان « مالرو » يؤكـد على ضرورة التنظيم كعنصر اساسى لكل جيش ، غير أن روايته تمجد ايضا قبول النظــام ، هــذا النظام الذى يفرضه الانسان على نفسه حتى ولو كان احيانا قاسيا او لا انسانيا ، اذ أن الانسان الذى برهن على حريته بالنضال حتى ضد نفسه ، جدير من ثم بأن يرفض الخضــوع للأقــدار . ومثال « مانويل » يرينا ان الانسان الذى تخلص من حتميات الوجود يمكنه بسهولة أن « يكتشف سرا مقدسا وبسيطا » ،

الا وهو سر الحياة . (٩٥)

* * *

(٩٥) اللامذكرات ص ٣٢١/٠

عزه محمد هيكل

اندريه مالرو
قدر الانسان

ثورة فى الأدب

ينفصل القرن العشرون عن الاسلوب التقليدى للقصة المصطنعة تاليفا ، والتى تتتابع فيها الاحداث على وجه متسق ومنطقي ، بحيث اصبح تناول الرواية التحليلية والرواية الاخلاقية بالطريقة المعتادة موضوع قضية مطروحة ؛ويظهر من ثم خط جديد للرواية لايقوم على الشمول الكامل ، وانما يرتكز على الغموض والابهام . ويقول الناقد البيريس :

« ان رواية لفلوبير او لزولا كانت تحكى . ولكنك تعايش وتحيا قدر الانسان » (١)

وبينما كان بلزاك وفلوبير وزولا يوضحون ويشرحون التطور النفسى لشخوص رواياتهم .. فقد كانوا يعرفون مسبقا نهاياتها . امـا فى اعمال مالرو فكل الشروح والتفسيرات ضمنية .

(١) R.âM. Albérès, **Histoir du roman moderne.** Editions Albin Michel,1 1962. p. 130.
André Gide, **Journal** 10 Avril 1933.

ولا نعلم عنها شيئا اكثر مما يرى الابطال ويشعرون به ويفكرون فيه ، ولا يتدخل الكاتب فى السرد ابدا لمجرد التوضيح والبيان .

وفى **قدر الانسان** لا تبدو الشخوص فى وضوح ، وانما تتشكل تدريجيا ثم تتحلل وتتكون من جديد محتفظة دائما بغموضها ، تماما كما يحدث فى الحياة بالنسبة للاشخاص الذين نلقاهم ولا يسعنا التعرف عليهم حقيقة . فالامر لا يتعلق بتقديم شخصيات نلمس فى النهاية صورة منطقية وواضحة لهم ، وانما نجد فيهم تعقيدا غير قابل للتحديد ، وعالما متغيرا بالنسبة لكل شخصية وغير متكامل .

وفى **قدر الانسان** الذى اعتبر بالاجماع اشهر روايات مالرو ، وقد ظهرت فى عام ١٩٣٣ وحصلت على جائزة جونكور ، يقوم الموضوع على تكاثف فى الاحداث وتركيزها فى وقت ضيق وقد اشار الى ذلك **اندريه جيد** فى عبارة شهيرة :

« هذا الكتاب الذى اطلعت عليه خلال نشره مسلسلا فى احدى المجلات ، بدا لى شديد الكثافة ويوقف ثراؤه الاستمرار فى تلاوته ، وهو الى حد ما غير مفهوم ازاء وفرة تعقيداته . وقد لاح لى بعد قراءته كاملا ، انه ظاهر الوضوح ومتسق فى عدم انتظامه وعلى درجة كبيرة من الذكاء ورغم ذلك ــ اعنى القول رغم الذكاء ــ فهو عميق التداخل فى الحياة ومشوب بقلق غير محتمل » (٢)

ولأن الرواية مجزأة الى عدة مشاهد تتعاقب بلا اتصال او تفسير بحيث تفتقر الى اية رابطة واضحة فى السرد بين مشهد وآخر ، فيما عدا بعض البيانات المتعلقة بالتاريخ والساعة التى تعين القارىء على الفهم ، وتدل ــ بالعكس على اهمال متعمد للربط بين الاحداث . ولو نقلنا هذه البيانات يمكن تلمس ما يبدو انه خطة الكتاب .

الجزء الاول : ٢١ مارس عام ١٩٢٧ : بعد منتصف الليل بنصف ساعة ، فى الواحدة صباحا ، فى الرابعة صباحا ، فى الرابعة والنصف صباحا .

الجزء الثانى : ٢٢ مارس ، الساعة الحادية عشرة صباحا ، **الساعة الواحدة بعد الظهر الخ ..**

وبعد ذلك وفجأة فى **الجزء الثالث** ، فى ٢٩ مارس ، والاجزاء الرابعة والخامسة والسادسة ، فى ١١ ابريل . وينقلنا الجزء السابع الى باريس فى يوليو وتقع الخاتمة فى كوبيه .

وهكذا بدلا من الاستطراد التقليدى للسرد ، فان فصول الرواية تستمر وتتتابع مع تغاير الشخوص وفى مختلف الاماكن . ونمر بلا اى تمهيد من حكاية الى أخرى . **ويؤكد النقاد انه كان لأعمال مالرو سبق المبادرة فى « خلق المفهوم الثورى للادب** . ولم تعد الرواية للاستهلاك

(٢) ظهر قدر الانسان لاول مرة مسلسلا فى مجلة لانوفيل ريفى فرانسيز فى اوائل ١٩٣٣ ثم ظهرت الرواية فى كتاب بعد ذلك مباشرة .

الصرف وانما هي تحقق تعاونـا فى الانتـاج بين الكاتب والجمهور الذى يدعى للمساهمة بجهود بناءة لاقامة العمل الادبى . » (٣)

وقد لمس مالرو بذاته عدم الاستمـرار فى معادلة وجيزة مؤداها : انه يمكن فهم كل فـن من الفنون فهما ضمنيا لا تصريحا . (٤)

وغالبا ما قورنت طريقـة مالرو بمشهـد سينمائي واضح (٥) تمثل فيه الرواية بمجموعة من اللوحات ويوحى تتابعهـا وتباينها بالواقـع والثراء .

ويتردد الكاتب باستمـرار بين مشاهـد الافعال ومشاهد الفكر وبين التحقيق الصحفـى والفلسفة . وينتقل الانسان فجـأة من حالـة الثورة الى حالة التمعـن والتفكير . فبعـد ان ارتكب تشين جريمة قتل اخذ يتساءل عن معنى ما اقدم عليه ازاء قيمة حياة الانســان . كما ان الحوار بين كيو ومـاى الذى انصرف الى قيمـة الحب قد انقطع بفتة بتدخل كلابيك ومعه مستند لسرقة عتاد واسلحة على ظهر باخرة . وكذلك فانه بمجرد تركنا جيزور الذي يسـتلهم معنى الحياة والالتجاء الى المخدر وشعوره نحو ابنه ، نجد انفسنا فجأة امام ثوار يهاجمون سفينة .

● ● ●

التوازى بين الحياة والرواية

بينما نجد ان **الطريق الملكى والغزاة** يضعان على المسرح بطلين او ثلاثة ابطال فان **قدر الانسان** وفقا لما ينم عنه عنوانه ، يحيا عالما واقعيا على قيد الحياة وهو عالم الصين فى عام ١٩٢٧ . وتـدور الاحداث اساسا فى شنفهاى بين جماعات الثوار التى تعد للثورة . والحكاية هنـا معقدة جـدا الى حد القول بان هناك حكايـات بقـدر عـدد الابطـال .

وتختلف الثورة الصينية وتتباين تبعا لآراء الابطال وحسب ما يتصل الامر بتشين او كيو او جيزور او فيرال او هيمير ليتش او كلابيك .. ويؤكد مالرو : « ان الاطار غير اساسي (...) ولكنه ايضا غير عارض . واعتقد انه يوجد فى وقـت ما اماكـن قليلة تتوافـر فيها ظـروف للبطولة .. » (٦)

---

(٣) Claude-Edmonde Magny, "Malraux le fascinateur," **Esprit** octobre 1948.

(٤) Malreux, cite par Henri Dumazeau, **La Condition humaine de Malraux.** Paris, Hatier (collection "Profi d'une oauvre"), 1970. p. 68.

(٥) كان ايزنشتاين سيصور سينمائيا رواية قدر الانسان بموسيقى شوستا كوفيتش ولكن حالت دكتاتورية ستالين دون تحقيق ذلك المشروع . ولم يتم ايضا المشروع الذى اعدته هانسويين فى عام ١٩٧٠ . وفى فرنسا فى عام ١٩٥٤ قام تيرى مونييه ومارسيل تاسا تكور باعداد الرواية مسرحيا وكتب مالرو الفصل الاخير منها .

(٦) Lettre de Malraux a Géten Picon (1934) reproduite en fac-simile sur la page de garde de **Malraux par Lui-mêmo** de G; Picon, Editions du Seuil.

والسمـة الاوليـة لروايـات مالرو هـى معاصرتها . ويستغرق الكاتب فى المعارك المعاصرة ويحاول ان ييسر للقارىء معايشتهـا . ولقـد كانت مؤلفاته حتى عام ١٩٤٥ قريبة تماما من الاحداث ، الى حد ان بعض النقاد لم يروا فيها الا تحقيقا صـحفيا امينا للاحداث المعاصرة .

والصحيح انه اذا كان مالرو قـد كتـب « **الغزاة** » و « **قدر الانسان** » فان ذلك يرجع الى انه فى عام ١٩٢٥ ذهب الى الصين التى كانت فى اوج الحرب الاهلية . وهناك ، ـ ولبعـض الوقت ـ يبدوا انه باشـر منصـب قائم مقـام قوميسير الكو منتانج المكلف باعمال الدعاية لدى بورودينى ممثل الاتحاد السـوفيتـى فى اللجنـة المركزية للحزب الشيوعى الصينى .

ولا جدال فى ان اعمال مالرو هى نتاج لتجاربه ولقاءاته . وفى هذا المجال فان « سيرة حياته » تميز بين الصور الادبية غير الشخصية **لمؤلفـات مالرو الاولى عن اثاره اللاحقة . ومنذ عام ١٩٢٦ (اغراء الغرب)** اصبحت مؤلفات مالرو « مذكرات خيالية » (٧) لمغامراته الخاصة . وتذكر احـدى شخصياته :

« كيف تريد فهم الشىء عن غير طريـق الذكريات » (٨)

والواقع ان اغلب ابطاله من المغامريـن اوالسياسيين وهم يتماثلون تماما مع (خالقهم) فى الاحـداث والصرعات الحقيقيـة فى كانتون (**الغزاة عام** ١٩٢٨) ، وفى شنغهاى (**قدر الانسان** عـام ١٩٣٣) ، وفى المانيا (**زمن الاحتقـار** عام ١٩٣٥) ، وفى اسبانيا (**الامل** عام ١٩٣٧) ، وفى فرنسا (**الصراع مع الملاك** عام ١٩٤٣)

ولطالما اخذ على مالرو ، وعلـى الاخـص بالنسبه **لقدر الانسان** « القتال الوحشى والتذوق الدمـوى والتعذيـب والميـل الـى البطولـة السقيمة . » (٩)

وقام رد اندريه على ماذهب اليه النقـادوفى سطور واضحـة :

« **انا لم اختر هذه الوحشية لاننى تلاقيت معها** . وكل انسان يستخلص من حياته ، واننى اطالب بهذه وبتلك » . (١٠)

وفضلا عن التفاصيل المتعلقة بتاريخ حياة مالرو فان ما يميز روايته على وجه خاص هـو التاريخ الذى يتداخل فى السرد . فقد اشترك فى بطولة الرواية تشانج ـ كاى ـ تشيك الذى كان

---

(٧) Georges Mounin, ,,Les Chemins de Malraux'', **Les Lettres Françaises,** 7 juin 1946.

(٨) André Malraux, **La Condition humaine,** Paris, Gallimard 1933. Edition consultée : Gallimard (collection Folio), 1946. p. 176.

(٩) Robert Brasillach "Le goût malsain de l'héroïsme", **L'Action française,** 10 août 1933.

(١٠) André Melraux, ,,Réponse à Robert Brasillach''. Lettre du 23 août 1933. Ces deux textes figurent dans les **Oeuvres complètes de Robert Brasillach,** club de l' Honnête, homme, Tome VII.

وقتذاك على رأس القسم المعتدل للكومينتانج ،وبورودين الذى كان فى ذاك التاريخ المستشـار الروسى للحكومة الصينيـة . ولعـب كيو دورشواين لاى .

ولا جدال فى ان الحياة الخاصـة للبطل وموته من خيال المؤلف . ولقد الهمت مالـرو زوجته الاولى كـلارا جولـد شميـدت مشهـدالاعتراف بالخيانة . واستطاع مالرو ان يضـع نصب عينيه اندريه جيد عندما ابتدع شخصيةجيزور ، واندريه برتيلو عندما خلق شخصيـة فيرال . واخيرا فقد صور الكاتب اصل كلابيـكفى ((**اللامذكرات**)) على وجه دون شخصـية الروايـة .

وبالنسبة لعدد كبير مـن المؤلفين وعلـىالاخص مالرو فان العمل الأدبي ليس.الا انعكاسا وصدى للحياه : ويسعنا أن نؤكـد ان العكـسصحيح ايضا ، وغالبا ماحدث ذلـك ، ويؤكـد مالرو نفسـه :

« ان العالماخذ يتشابه معمؤلفاتى . »(١١)

وفى واقع الامر فان **قدر الانسان** ظلت علىمدى اربعين عاما رواية احداث ملتهبة . العالم الثالث والثورة والحرب والشيوعيـة والنـزاعالصينى السوفيتى وموضوع الحرية ، كل ذلك الشغل الشاغل دائمـا ، وفى الدرجة الاولـى ؛لاهتماماتنا . وفى هذا الكتاب الذى قـام علـى التنبؤ تكون بعض مـا قـدر المؤلف خطـوطا للمستقبل . ومنذ عـام ١٩٣٣ كان مالرو يعلـن « ان قدر الصين بين يدى الحزب الشيوعى » ، (١٢) ولقد استيقـظ « ثلاثمائة مليـون مـن الصينيين منطلقين من سبات استمر ثلاثين قرناوسوف لن يستولى عليهم النوم من جديد » (١٣)

وكان الكاتب قد تنبأ منذ سنوات سابقةبالتناقضات بين الحزب الشيوعـى الصينـى والشيوعية الدولية . واعلن ايضا ان قدر الغربربما يتوقف عى ذلك الحزب .

• • •

عالم الرجال

ذهب بعض النقاد الى حد انكـار عنـوانرواية مالرو **قدر الانسان** واعتبروا انه ممعن فى شططه .

ويؤكد الناقد السـوفيتى ايليا اهرنبورجان ما يعنى مالرو ليس هم الصينيون ولا مدينة شنغهاى وانما ماحل باربعة او خمسة رجال فىهذه المدينة فى ربيـع عـام ١٩٢٧ . ويضيـف

---

(١١) A. Malraux, cité par H. Dumazeau, op.cit., p. 24.

(١٢) قدر الانسان

(١٣) قدر الانسان ص ٢٧٩ .

اهرنبورج ان رواية مالرو ليست مؤلفا عن الثورة وانما هى « صورة راديو جرافية للكاتب مجزاة على عدة ابطال » (١٤) .

ويؤكد ايضا ادموند جالو فى مقال انطوى على الكثير من التقريظ والثناء :

« ان **قدر الانسان** هو قدر معين لنموذج من الناس وخاص بالسيد اندريه مالرو ، ونجده فى كل اعماله ، ويسعنا ان نطلق عليه اسم المغامر المفكر » (١٥)

ولو ان الموضوع الظاهر **لقدر الانسان** فى حقيقته هو الثورة الصينية ، فان المسألة العميقة فى تصوير الحالة المأسوية للانسان فى مواجهة قدره : غموض الوجود ، والشعور العميق بالوحدة ، والتبعية للغير ، وسيطرة فكرة الموت . . . ويرد تماما الكتاب بعد ذلك على عنوانه ، بانه يقدم انسانية معقدة خالية وعلى قيد الحياة .

ومع ذلك فثمة تحفظات يتعين ابداؤها فى شأن العالم الخاص لمالرو . فهو يرسم عالما من الرجال اساسا ، حيث تحتل المرأة مكانا ضيقا . وتقول ماى بحق :

« كيو ، ما هذه الافكار الخاصة بالرجال »(١٦)

وفى الواقع فان تلك افكار ومسائل من ايحاء الرجال ، وتشكل جوهر اعمال اندريه مالرو .

ولقد كان عالم الرجال من مميزات روايات ستاندال . وبالرغم من تدخل العاطفة الرومانتيكية ، قدم موريس باريس وهنرى دى مونتلران صورة لنشاط الرجال . وكان ارنست بسيكارى رائدا لعالم الفعل ، وجاء بعده لورانس فى بلاد العرب وارنست يونجر فى الحرب والمغامرة ، وسانت اجزيبيرى وهو من رواد الطيارين .

ومحاكاة لكل هؤلاء السابقين استخدم مالرو الحركة كنقطة انطلاق للبحث عن قانون اخلاقى وعن معنى للحياة . وعالمه الانساني « محدود بالفعل والذكاء الرجالى » (١٧)

ويركز جايتان بيكون على غياب الطفل وندرة وارتباك الشخصيات النسائية فى رواية مالرو . والواقع فكثيرا ما نرى ان ليس لابطال مالرو نساء أو أطفال . **ففى قدر الانسان** يشكو هيمير ليتش من وجود زوجة وابن عليل يتعين عليه حمايتهما . وهذه العلاقات الاسرية تحول دونه « والسعادة

---

(١٤) Ilya Ehrenbourg "La condition humaine vue par un écrivain d'U.R.S.S." Texte écrit en mai 1933, publié dans **Vus par un écrivain d'U.R.S.S.** Gallimard, 1934.

(١٥) Edmond Jaloux. „Unc puissance extraordinairc", **Les Nouvelles littéraires,** 16 décembre 1933.

(١٦) قدر الانسان ص ٤٦

(١٧) G. Picon, **Malraux par lui-même** p. 49.

فى ان تكون حواء وتمنعه من المساهمة فى الحركةالثورية . كما ان وفاة ذويه ستحقق الخلاص بالنسبة له .

ويكشف كاتوف ايضا فى ذاته هناءة خبيثة« لا نساء ولا اطفال» (١٨) للحيلولةدونهوالحرية.

وبينما لا يضع مالرو على المسرح فى **الطريقالملكى** وفى **الغزاة** الا رجالا بلا اطفال وعملا بلانساء (فيما خلا ساره ومدام كلاين والداعرات) ، ففى**قدر الانسان** لا نجد الا اثنين ماى وفاليرى . ومع ذلك فان وجودهما يتصل ويرتبط بزميل كل منهما كيو وفيرال . وتبعا لما اشار اليه هنرى ديمازو : « انها حالةوحيدةفىروايةمالرو : » (١٩)كيو يحب ماى ، وهى تحبه . ولكنه كانسان فى الدرجة العليا لا يسمح لكل من الجنسين بالحريةفى التصرف فى جسده ، وهو مبدا مطلوب فى الاوساط الثورية فى ذلك العصر . ويبين له منذلك انه ذكر فيه روح التملك والغيرة كالآخرين .

اما عن شخصية فاليري وكذلك المحظياتاللاتى تظهرن فى الرواية ، فانهن يوضحن الاهمية التي يعلقها مالرو على العشق الجسدى،والتمييزالاساسى بين ذلك الاحساس وبين الحب . وليست فاليري بالنسبة لفيرال الا الجنس الآخر.ويكرر الكاتب فى اكثر من موضع ان التعارض بين الجنسين يكمن فى العلاقات .

« بذل من المراة وتملك من الرجل » (٢٠)

« لم تكن المراة الا احد قطبي متعة الرجلالشخصية » (٢١)

ولا يرى فيرال فى فاليري الا تبعية وخضوعاواذلالا . ووفقا لقوله « ان الرغبة فى التعرف الى امراة هى وسيلة لتملكها او الانتقام منها . » (٢٢)

ويبدى ايضا تشين احتقارا شديدا للجنسالمؤنث ويفخر « بانه ليس من النساء » (٢٣)

وعلى ذلك فان التفرقة واضحة بين كل منالجنسين . ورغم ذلك فان مالرو يعرف نساء ويحبهن . وهو قد تزوج ثلاث مرات من سيداتمرموقات ، ولكنه كما يقول « ان المراة بالنسبة لى كائن مختلف ــ وانا اتحدث عن الفارق وليسعن المستوى ــ ولا استطيع ان اتصور شخصية نسائية . » (٢٤)

---

(١٨) قدر الانسان ص ١٥٢ .
(١٩) H. Dumazeau op. cit., b. 28.
(٢٠) قدر الانسان ص ١٠٣ .
(٢١) قدر الانسان ص ١٠٥ .
(٢٢) قدر الانسان ص ١٩١ .
(٢٣) قدر الانسان ص ٥٤ .
(٢٤) Malraux à d'Astierde la Vigerie, L'Evênement, août 1967, p. 60.

ولو أن ماى فى قدر الانسان قد وجدت الخلاص من العشق الجسدى وتعدت حالة المرأة المملوكة والمحتقرة ، فانما يرجع ذلك الى مشاركتها زوجها فى صراع الثورة . وهذه المرأة « المسترجلة » (٢٥) تتناقض فى وضوح مع زوجة هيميرليتش والعاملة الصغيرة لكاتوف . ولم تكن بحاجة الى حماية الذكور . « هل عشت كامرأة محمية ؟ (٢٦) ذلك هو السؤال الذى طرحته على كيو . انها مساوية للرجل ، واتحاد الزوجين يقوى ويشتد بالصراع الرجالى .

● ● ●

العنصر الباسكالى : بؤس الرجل بدون اله .

تكمن القوة والجمال فى قدر الانسان فى تطور الرواية على مراحل متعددة فى ذات الوقت. فمن جهة تمر بالناحية السياسية مما يجعلنا نفهم كيف اعتبر ذلك الكتاب الممتاز وقبل كل شيء رواية ثورية ، ومن جهة اخرى ندرك الانسانية العميقة للمناقشات . ففى كل لحظة ، وعند اقصى عنف للابطال ، فانهم يتساءلون فى لهفة عن مأساة قدرهم .

والذى يعطى العمل وحدة عميقة هو ذلك المجال المعنوى ، الذى يجعل للشخوص قيمتها . ومن خلال جيزور الفيلسوف الفرنسى العجوز ، يسعنا ان نلمس وحدة الرواية اذ اليه يتجه كل الاشخاص ليناقشوا معنى وجودهم . ولقد ابدى تشين حاجته ليراه بعد ارتكابه جريمته .

ويتحدث اليه كيو عن قلقه ، ويبحث فيرال عن صحبة جيزور معجبا « بثقافته الفائقة » و « وضع ذكائه دائما فى خدمة المتحدثين ». وكان يبدو لكلابيك ان « جيزور كان الرجل الوحيد الذى فهمه » ، واما عن الفيلسوف العجوز ذاته فكان يرى فى نفسه ما يرى فيه اولئك الذين كانوا يأتون اليه .

ويقارن جوزيف هوفمان بين دور جيزور ودور المنشدين فى المأساة القديمة لانه هو المكلف باستخلاص معاني الافعال واقوال كل الابطال .

« هذا الشخص يبين على وجه يستبعد كل غموض اين يمكن البحث عن الوحدة العميقة والتعريف بقدر الانسان . » (٢٧)

وهكذا ووفقا لشهادة مالرو نفسه فان العنصر الاساسي فى قدر الانسان ليس هو « الاطار » وانما « العنصر الاساسى الباسكالى »(٢٨) لان مأساة مالرو معنوية على الاخص . وكتابه يصور طبقا لما ذكر باسكال (مأساة الرجل بدون اله) . ويشير مالرو فى اكثر من موضع

---

(٢٥) قدر الانسان ص ٢٨٠ .

(٢٦) قدر الانسان ص ١٧٢ .

(٢٧) Joseph Hoffmann, L'Humanisme de Malraux, librairic Klincksiek, 1963. p. 157.

(٢٨) A. Malraux, Lettereà Gaëtan Picon, 1934.

الى اثر باسكال على انتاجه . وفى الصفحات الاخيرة من « **اشجار الجوز فى الالتنبرج** » يتحدث عن النص الباسكالى الشهير :

« نتصور عددا كبيرا من الرجال مكبلين بالاغلال ومحكوما عليهم جميعا بالموت ، وكان بعضهم يذبح امام الآخرين كل يوم ومن يبقى منهم يرى قدره فى مصير المماثلين له ... انها صورة قدر الانسان » (٢٩)

ويذكرنا ذلك المثال بمشهد اساسى فى **قدر الانسان** يشكله المسجونون فى ساحة السجن ؛ ومثلما هو الحال مع باسكال ، فان عبث العالم والقلق فى قدر الانسان والانشغال الدائم بالموت كل ذلك يكون الاسس فى اعمال مالرو .

وتتساءل كل شخوص الرواية عن معنى الحياة . ولقد اعتنق تشين ــ الذى تلقى بداءة التعاليم المسيحية ــ الماركسية تحت تأثير جيزور . ولكن الميول السياسية ، عندما حلت محل العاطفة الدينية ، تركت فيه فراغا كبيرا . وتساءل الشاب فى قلق .

« ما جدوى الروح اذا لم يكن هناك رب أو مسيح » (٣٠) .

ويقارن جيزور مفكرا فى معنى الحياة بين القلق المؤلم لتشين والايمان البطولى لكيو . فبينما الاول يائس لان الحياة بلا معنى فان العمل السياسى لكيو وبالعكس « يجعل للوحدة معنى (...) وكان لحياته معنى »

وبالنسبة لهيميرلتش فان العمل الثورى هو « الشىء الوحيد الذى له معنى فى حياته الراهنة » ويفكر فيرال شأنه فى ذلك شأن كل اشخاص الرواية ، وحتى الرسام العجوز كاما يتأمل فى معنى الحياة والموت . ويذهب الفيلسوف جيزور ، وهو هنا يروى عن مالرو ، الى :

« انه من النادر ان يستطيع رجل تحمل (....) قدره الانساني » (٣١)

وفى محاولة للتغلغل فى سر قدر الانسان يظهر مالرو كافة صور القدر ، اى كل ما نتحمله : الوحدة ، والعبث ، والقلق والموت ... هذه كلها مسائل هامة لقدر الانسان وهي ترعب كل الشخوص وتوجد فى كل صفحات الرواية .

ويستعيد مالرو فى ذلك الكتاب صورة الانسانية المحكوم عليها ، وكما قدمها من قبل فى **الغزاة والطريق الملكى** ، وهى تمثل ذات الاسطورة القاسية والدموية عن الشقاء والفشل والقدر ، وتشفى كل شخصيات **قدر الانسان** من وحدة مؤلمة . والفرد منغلق على نفسه ، وعاجز عن الاتصال بالآخرين .

---

(٢٩) مالرو شجر الجوز فى الا لتنبرج .

(٣٠) قدر الانسان ص ٥٨ .

(٣١) قدر الانسان ص ١٩٣ .

ولم يكن تشين قبل ارتكابه جريمته يعلم ،كما لم يكن قادرا على التكهن ، بما ينتظره . فقد كان يتأهب لاقتراف فعل كفيره ، ربما كان على درجة اكبر من الاهمية ، ولكنه على اى حال يعتبر كاى فعل عادى ارتكبه حتى ذلك الوقت فقد كان يرى انه سيكون « بعد » هذه الجريمة شأنه كما كان « قبلها » ، وكما لو كان قد اتى بعمل عادى ، ولكن « المجهول » كان فى انتظاره . ولم يكن باستطاعة ذلك العمل ان يدخل ضمن الاعمال السابقة .

« لم يكن هو الخوف ، لقد كان امرا مهولا وقاسيا فى ذات الوقت ولم يعرف له مثيل منذ طفولته : لقد كان وحيدا مع الموت ، وحيدا فى مكان بلا رجال ، ومسحوقا من البشاعه ومنظر الدماء » (٣٢)

كان هناك اذن « عالم الجريمة » الذى لم يستطع ان يتقاسمه مع الآخرين وحتى عندما يجد زملاءه ، يظل تشين وحيدا » علـى وجـه غير عادى » ولما يتوجه الى جيزور ، سيده ، آملا ان يجد عنده شيئا من الراحة لا يستطيع الفيلسوف العجوز ان يسدى اليه نفعا . ويأسف ذلك الاخير « لعزلة القاتل » . ولكن الذى لم يفهمه جيزور هو أن تشين ، الذى راى من جديد شركاءه فى الجريمة ، « يبدو بعيدا تماما عنهم » ،ولكن ذلك الغموض يبدو فجاة كامر واضح لتشين الذى يقول لجيزور :

« انت لم تقتل احداً ابدا . اليس كذلك؟ »(٣٣) ولم تكن وحدة تشين بعد جريمته وانعزاله شيئا آخر غير وحدة كل رجل . وايا كان عمق الحب الذى يجيش بصدر جيزور لابنه كيو فان جيزور وحده امام ذلك الحب

« هذه الوحدة التامة وحتى الحب الذى كان يكنه لكيو لم يحرره » (٣٤)

وكما هو الحال مع تشين ، ولكن فى مجال آخر ، فان موت كيو بالنسبة لجيزور هو « انفصال » حقيقى ، ووقف تام ليس له ما بعده. ولم يكن يعلم الى اى « تحول » يمكن للموت ان يقهر الرجل . « لم يعد للحياة معنى او وجود »وبعد سطور من الرواية يكرر جيزور :

« ليس موت كيو الالم وحده او التغيير وحده وانما هو تحول تام » (٣٥)

ان فيرال وحيد ومنغلق على « حياته الفردية ومنعزل ومنفرد » وليس هناك ما يمكنه من ان يقهر حواجز ذلك الضمير الذى لا يعرف الاذاته وجسده . وفى العلاقات بين فيرال وفاليري او من خلال زيارة العاهرة الصينيــة يصــطدم فيرال دائما بشخصه .

---

(٣٢) قدر الانسان ص ١٢ .

(٣٣) قدر الانسان ص ٥٣

(٣٤) قدر الانسان ص ٦١

(٣٥) قدر الانسان ص ٢٧٩ .

وخلافا لما يرى هنرى ديمازو الذى يؤكدانه يوجد عند كل الرجال فيما عدا كلابيك الالــم والوحدة ، (٣٦) فقد لاحظنا فى تلك الشخصية ،وكذلك فى باقى ابطال الرواية ، الاحساس المحزن بالوحدة المعنوية . ولم يستطع كلابيك الذى نجحفى الافلات من كل ما يقيم عليه الرجال حياتهــم كالحب والاسرة والعمل ان يتخلص من الخوف .

« كان الخوف يغمره ويشعره دائما بوحدتهالقاسية » (٣٨)

ويتساءل كيو فى لهفــة « ولكن مــن اكــونبالنسبة لحنجرتى ؟ »

وتظهر المسألة فى **قدر الانســان** فى الكشفالمفاجىء لسر ذواتنا ، ويدرك كيو مدى غربته . وتشغله هذه التجربة كثيرا ، ويظل يفكــر فيهــامرارا . وعندما يصرح لابيه عن متاعبه يرد عليه :

« لقد حدث ان وجدت نفسى فجأة امــــاممرآه ، ولم اتعرف على نفسى » (٣٩)

وتستمر هذه التجربة الغريبة فى ذهن كيو ويتذكر مرة اخرى عندما يترك ماىويدرك حينذاك سبب الوحدة المؤلمة للرجل : ولايمكن ابدا لاحــدان يكون لغيره مثلما يكون لنفسه . وفى كل كائن « غريب » (٤٠)

(لفظ يقدره تمامــا البير كامى) وهو غــيرمعلوم وغير قابل للتعرف عليه .

وترتيبا على ذلك فان التعبير عــن الضميرمستحيل ، وليس للرجل اى طريق ليكن مفهوما ولا يعرف احد الآخر ابدا . وهذا هو الرأى الدائملمالرو . ويؤكد الكاتب ذاته بهامش نصى جايتان بيكون :

« كلمة معرفــة التى تنطبق على النــاستجعلنى احلم دائمــــا . واعتقد اننــا لا نعــرف احدا » (٤١) .

• • •

والعالم الروائى لمالرو بدون اتصال . وليسالحوار المتعدد بالكتاب فى واقعه الا حديثا منفردا متتابعا حيث يتحدث كل شخص الى نفسه ومــاجل نفسه دون مراعاة للمتحدث الاخر الــذى لايتاثر بحديث الغير .

---

(٣٦) H. Dumazeau, op. cit., p. 49.

(٣٧) قدر الانسان ص ٢١٨ .

(٣٨) قدر الانسان ص ٤٩ .

(٣٩) قدر الانسان ص ٤١ .

(٤٠) قدر الانسان ص ١٩١ .

(٤١) Malraux in G. Picon, Malraux par lui-même p. 48,

ويلاحظ كيو فى قلق ان « ماى بعيدة عن فهمه تماما » .

ويقرر جبزور فى اسى ان « احدا لم يعـديعرف الآخر » وعندما تنطبق لاول مـرة العبارة التى كررها كثيرا « ليس هناك فهم لاحـد » على ابنه ، يسـيطر عليه بالغ الاحساسـات المؤلمة ترهق كل شخوص **قدر الانسان** . ولم يستطـع تشين طوال سطور الكتاب وحتى وفاته ان يبرأ من « القلق الاولى » الذى كان يلاحقه حتى فى احـلامه .

ورغم ان مارو يتقارب مع باسكال فى الكثير من النواحى فانه يختلف عنه فى وضوح فى شـأن الحلول المتعارضـة التى يقترحها كل منهما عن مشكلة القلق . هنا تتدخل وجهات النظر المتعارضة بين هذين المفكرين الكبيرين ـ وفى الوقت الـذى يتيسر فيه لبلسكال ان يجتاز قلقه لأنه يؤمن بالله ، فان مالرو الـذى يرفض العقيدة الدينية يبدو غامضا فى يأس عميق . ولا يستطيع جيزور بعد وفاة كيو ان يتغلب على آلامه وانما يأخذ يفكر فى « الحظ المزرى للآخـرين بصلواتهم وزهورهم الجنائزية » وكما قال الفيلسوف العجوز : ان الناس كلهم يتألمون لأنهم يفكرون .

« وفى الواقع فان العقل لا يفكر فى الانسان الا فى الخلود ، وليس الشـعور بالحياة الا القلق » (٤٢) .

ومن هنا يبدو القلق الفظيع لكيو « من ان يكون مجرد رجل » . وطبقا لنظرية «ارادة القوة» لنيتشه التى تقـول برفـع الرجـل الى مرتبـة السوبرمان (**هكذا قال زرادشترا**) ، يؤكد مالرو ان كل شخص يحلم « بالافلات من قدر الانسان » ، و « ان يكون اكثر من رجل فى عالم الرجال (...) وانها ارادة الالوهية : ان كل رجل يحلم بأن يكون الهـا » (٤٣)

ومن هنا يبدو عبث الوجود ، لانه من اللحظة التى يستشعر فيها الشخص القلق من انه الى موت عادى ـ « ذلك الشقاء فى ان يكون رجلا » ـ ويفهم حينذاك ان كل بحث يؤدى الى سراب . ومهمـا كانت ارادته فى الوصول الى اللا نهائى فان جهوده مقضى عليها بنهاية الفرد . ولو بدا قدر الانسان غير محتمل فمرجع ذلك ان مآل مشروعاته وذاته الى الموت .

والرجل لعبة القدر الـذى كان يـرى ان يسيطر عليه لانه عاجز امـام المـوت . ويعترف جيزور بانه :

« يمكن ان يخدع الشخص الحياة طويـلا ولكنهـا تنتهى دائمـا بأن تجعل منـا ما نحن عليه » (٤٤) .

وفى قدر الانسان فان الموت حاضر وماثل فى صفحات الرواية . ويستهل الكتاب بالجريمة التى ارتكبها تشين وينتهى باعـدام الثـوار . وكـل شـجون مالرو فى شـغل بالموت . ويبدو ذلـك

---

(٤٢) قدر الانسان ص ٢٨٢ .

(٤٣) قدر الانسان ص ١٩٤ .

(٤٤) قدر الانسان ص ٢٨٠ .

الموضوع بعمق فى الرواية الى حد انه يظهر فى اسلوب الكاتب واستعاراته : فكيو فى ضيق « من شعور مجهول هدام كالزمن او الموت » .

وبعيدا عن ذلك فان المؤلف يكرر :

« الشىء الوحيد فى ذاته والذى كان قويـاكالموت » كل تلك الصور الفنية بالفهم تعطى معنى للنص وتبرز اولوية ذلك الموضوع .

والفظيع فى الموت انه « يحول الحياة الـى قدر » . وبدءا من الموت ، لا يمكن تعويض اى شىء

وتلك الصيغة الشهيرة للامل يوضحها احدشخوص الرواية : « الشىء الرئيسى فى الموت انه يجعل ماسبقه غير قابل ابدا للعلاج : التعـذيب والاغتصاب الذى يتبعه الموت ، انه لامر فظيـع حقـا . » (٤٥)

والموت هو الذى لا رجعة فيـه . وعندمـا يضع نهاية للوجود بلاعودة فانه يعطى وجها للخلود لمن كان على قيد الحياة .

ولكن الموت لا يحل شيئا . فهو ليس حـلاللمأساة فى قدر الانسان ، وليس مفتاحا فى البحث عن قيمة الحياة ، كما انه ليس ردا على تسـاؤل الانسان .

ولو كانت حياة الرجل خالدة فهل تكون أكثر احتمالا ؟ لا ، يجيب جيزور ، لأن الرجل يهفو الى القوة الكاملة لا الخلود . وما المـوت الا احد أوجه القـدر . وذلك الاخير هـو الذى يسحقنا :

هناك ايضا بجانب الموت الوحـدة والاذلال والالم والتعذيب . . . وليس فقط الموت هو الذى يشقى كيو ولكنها ايضا الوحدة :

« من السهل ان يمـوت الانسـان عندمـا لا يموت وحده » (٤٦)

وقلق كل شخوص قدر الانسان ليس مبعثه الموت ، وانما فى ان يكون محدودا بالتبعية والانتماء

والذى يدعو جنود القطار المسلح الى اليأس ليس هو الموت ، ولكنه الغيظ من عدم القـدرة على الدفاع عن النفس ، والشعور بالشلل والتكبيل بالقيود .

وربما نتقبل الموت مثلما فعل العجوز جيزور كما يصح حتى ان نبتغى الموت لذاتنا وليس لمن نحب ولا لاولادنا مثلا . ولقد كان جيزور متصلا بالرجال ومتعلقا بالحياة عن طريق كيو وبعد وفاة ابنه تملكه حزن شديد .

---

(٤٥) مالرو الامل ص ٢٢٦ .

(٤٦) قدر الانسان ص ٢٥٦ .

« لقد هوى الى ذاته ولم يعد للعالم من معنى » (٤٧)

وهكذا ، وتبعا لمالرو ، فان الرجل مقيــد في عالم لا معنى له ولا يمكن الافلات منه الى الخلود ، وهو فاقد لكل سبب لمعنى وجوده . ولكن مالرو كرجل عملى لا يقع في التشاؤم . فهو يعمل ويقيم عملا ايجابيا يصبو الى السيطرة على القدر . وكان يلوح لكيو ، كما هو الحال مع خالقه ، انه « اذا لم يتمكن من ان يهيمن على الموت فانه يواجه حالــة قاسية من الذعر »

ويرفض مالرو بشدة الخضــوع للموت ، وليست كـل مؤلفاتــه الا ارادة السيطرة علــى الانشغال بالموت والقــدر . ولقــد قال جايتــان بيكون :

« لا شك في ان سارتر كان محقا في قولة بان الرجل في رأى مالرو وكذلك هيدجير هو كائن الى موت » . ويصحح مالرو في الهامش :

« وبدلا من القول الى موت نقول ضـــد الموت ؟ فان الظاهر قد يبدو متشابها . » (٤٨)

ونشير بداءة الى الحلــول الخاطئــة التى يعرضها جيزور . فالفيلسوف العجوز يرى انــه يتعين نسيان القلق بالمخدر او العشق الجسدى .

« يجب تخدير الانسان (هكذا يقول) : ذلك لبلد بلد الافيون والا سلام الحشيش وفي الغرب المرأة . وربما يكون الحب على الاخص الطريق الذى يلجأ اليه الغرب للتحرر من قدره الانسانى .... » (٤٩)

ويوضح الكاتب عدم جدوى تلك الوسائل ، ولقد حللنا من خلال فيرال فشل العشق الجسدى الذى يعجز عن الانشغال بشيء آخر غير ذاته ، فهو ليس سوى رغبة في اذلال المرأة ، ليشعر ذاته بأن فيرال يعمل على امتلاك كائن آخر ، ويظل بعد ذلك منطويا على نفسه في وحدته . والمخدر اداة اخرى للتهرب من الانشــغال بالموت ولكن ذلك السبيل للافلات من الواقع ليس الا وهما وليس هروبا حقيقيا . وعندما يلجأ جيزور الى المخدر ليتحرر من نفسه وينسى آلامه يقول : « ثمة عوالم للتأمل بفعل الافيون أو بدونه حيث كل شيء بلا اية قيمة » (٥٠) .

وهناك وسيلة خاطئة اخرى هى الميسر الذى انقاد اليه كلابيك بالمخاطرة بحياته وعلى الاخص « بحياة آخر » يتمثل باحساسات قوية يعجز عن أن يجدها في حياته المتواضــعة . ويدين الكاتب جبن تلك الوسيلة التى لا تعرض المقامر الى خطر حقيقى ، وليست بالتالى الا « انتحارا بلا موت » .

---

(٤٧) قدر الانسان ص ٢٦٢ .

(٤٨) G. Picon, Malraux par lui-même. p. 75,

(٤٩) قدر الانسان ص ١٩٣ .

(٥٠) قدر الانسان ص ٥٠ .

وأوهام كلابيك طريق ايضـا لنفى وجوده . وحتى يتمكن من التدليل على تحمله الحياة يتعين عليه ان يتغيب عن حياته ويخوله كل شيء لذلك. الكحول والخيانة وتغيير الحالة المدنية ...

« كلا فلم يكن للرجال وجود طالما تكفى سترة للافلات من ذواتهم ، وللعثور على حياة اخرى فى عيون الآخرين » (٥١) .

فليس هناك اذن سلام متاح فى الهروب خارج قدره . ولا تتوانى عوالم فيرال وجيروز وكلابيك عن كشف فشلهم . وليس العشق الجسـدى والفسق الا « جنات مصطنعة » .

ومن جديد يفرض نفسـه هنا التقارب مع باسكال . وذلك المجهود المستمر واليائس للافلات من ذاته هو الموضوع الاساسي للترفيه .

« الشـيء الوحيد الذى نجد فيه العزاء من بؤسنا هو الترفيه وهو ايضا مبعث تعاستنا لانه هو الذى يمنعنا اساسا من التفكير فى انفسـنا ويجعلنا نذوى بلا ادنى شعور » (٥٢) .

ولا يتوقف مالرو عند تلك المرحلة اليائسة ، فهو يؤكد ان فى الامكان دائما وجود سلام « لو كان الرجل قادرا على اجتياز حياته بقدره وتعدى قدره فى الحرية بأن يكون ذاته » .

وعكس ذلك الترفيه الذى لا يؤدى الى نتيجة ما والحلول الخاطئة ، يعارض الكاتب قيما حقيقية وخالدة . ولكى يقهر اغراء اليأس لا تكفى ارادة الحياة ، لأن الحياة للحياة بلا أى معنى . ويوضح الكاتب ان الامر لا يتعلق بالحياة فقط .. وانما بالتغلب على كل مـا يرهق الرجل : الوحـدة والاذلال والهزيمة ....

ولكن الاحساس بالانسانية المقضى عليها لحتمية الفشـل ، بدلا من ان يجعل مالرو يرفض كل قيمة معنوية فقد دفعه الى الاعتراف بالبطولة والكرم والاخاء والكرامة ....

• • •

ولا جدال فى ان تلك القيم الخالدة هي دعامة للدين وتجـد تعبيراتها الاخاذة فى عدة تجـارب دينية ، ولكن ــ وعلى سـبيل التحديد ــ فان أهمية وطرافة كتاب مالرو تمثل فى استعادة ذات القيم خارج كل دين واعطائها تفسـيرا وتبريرا جديدا ، لأن الفضـائل المعنوية لا قيمة لهـا الا بتعاملها مع الاخلاص والعاطفة للانسـان الذى يعبر عنها . ولقد عبر الكاتب بنفسه بوضـوح ودقة عن الوحدة العميقة « واستمرار » مؤلفه وفكره . وهو يؤكد ان المسـألة الكامنة فى كل كتاباته تبدو فى التساؤل التالى :

---

(٥١) قدر الانسان ص ٢٤٨ .

(٥٢) Blaise Pascal, Pensées (1669), Opusculcs et lettres. Henri Plon éditeur, 1873, p. 190,

« كيف ننبه الرجل بأن بوسعه ان يقيم عظمته ، بدون دين ، على الفناء الذى يسحقه » (٥٣) .

ويحاول مالرو ، مثل نيتشه فيما مضى ، ان يجد خارج كل عقيدة دينية سبيلا لرجل لتجاوز ذاته واسترداد فكرة التقديس .

ويصور **قدر الانسان** تماما ذلك البحث عن المطلق ، والبحث فيما هو اعلى من الرجل أى فيما يدعوه للحياة ، الأمر الذى لا يختلف عما يدعوه للموت .

لذلك يجعل مالرو ابطاله يواجهون دائما الموت . ولكن اذا لم يوجد هناك الخلود فلماذا يكون الرجل متأهبا للمخاطرة بحياته ؟ ويجيب بطل **قدر الانسان** على ذلك السؤال الاساسي :
« ما قيمة الحياة لمن لا يقبل الموت من اجلها » (٥٤) وحالة تشين خاصة . فهو يبدو لنا للوهلة الاولى كبطل يغامر بحياته لقضية الثورة . وتبينت لنا فيما بعد البواعث التى دفعته ليقتل : انه ماخوذ بجريمة القتل . ويصبح الارهاب بالنسبة له امرا جذابا يفتنه . ويحاول مع ذلك التخلص من ذلك القدر المأسوى بمحاولة « الموت فى ارفع مراتبه » وتلك الشخصية المعقدة « روح طموحه واضحة الى حد ما ومنفصلة بعض الشيء عن الرجال او مريضة » تحاول ان ترفع من شأن عمله وتعتزم ان تضحى بحياتها فى سبيل قضية الثورة . لأن لو كان قدرها هو الموت فيتعين السيطرة عليه – لانتفاء الخلود الذى لا يؤمن به تشين وخالقه – والتأكد من مدة غير فترة الوجود الفردى . ويمثل انتصار تشين فى أن يموت بمرأى وشهادة بي الذى يقول له :

« انت الذى تكتب ، سوف تقوم بالتفسير »

وليست شخوص مالرو بمغامرين عاديين ، فهم يريدون دائما ان يلقوا الموت فى بطولة تتماثل مع حياتهم . ولم يكن لكيو الا حلا واحدا وهو فى سجنه وقد علم بالحكم باعدامه : ابتغاء الموت بدلا من تحمله : لأن « الموت أمر سلبى ، ولكن قتل النفس عمل ايجابى » ويبتلع البطل قرصا من السيانور الذى يحتفظ به كل مجاهد فى جيب حزامه .

وبعد ان اعطى كاتوف السيانور بكرم الى اثنين من زملائه الفزعين ، يواجه بشجاعة فائقة الموت الفظيع الذى يفرضه عليه القائمون بتعذيبه ! ، وتقوم بطولة تلك الشخصية المثيرة على الرغبة فى الموت بدلا من انتظار السقوط والاذلال .

وتذكرنا تلك البطولة غير العادية ، والى حد معين ، ببطولة كيو الذى لا يسمح برؤية مجنون يجلده حارس السجن فى وحشية ويحول قسوة ذلك الاخير : الى شخصه . وبالنسبة لكيو مثلما هو الحال بكاتوف ، فان المبدأ واحد : ابتغاء الموت لا الاذلال .

---

(٥٣) A. Malraux, Lettre à A. Hoog, citée par J. Hoffmann op. cit., p. 369,

(٥٤) قدر الانسان ص ٢٥٦ .

ونتنقل الآن الى موضوع رئيسي فى كتاب مالرووهو : كرامة الانسان .

• • •

تاكيد كرامة الانسان

لتقديم افضل تعبير عن ارادة الكرامة ، اقتضىالأمر ان يبدأ مالرو بتصوير الامتهان فى احط درجاته الذى يفرضه رجل على آخر . ومبررات الاذلال فى **قدر الانسان** متعددة . ولا يذكر البؤس ابدا لذاته . فالكاتب يعمل على أن يبين آثاره علىالوجود الانسانى . فهو لا يؤدى الى الآلام وحدها ، والانهيار الجسدى ، ولكن آثارها اعمقواخطر من ذلك : فهى تلحق بالكائن ذاته وتسليه ماديا ومعنويا . ويقول الكاتب « هؤلاء الفزالونالذين يعملون ستة عشر ساعة يوميا منذ طفولتهم والشعب الجريح والمريض والجائع » (٥٥) .

ويبدو مالرو الذى كان فى عام ١٩٣٣ لا يزالفى عهده الشيوعى كأنه يتعامل مع موضوع من وحى كارل ماركس . ففى الصراع بين الطبقاتلا ينصرف بحث البروليتاريا الى تملك الاموال المحرومة منها وحدها وانما تحاول ايضا الحصولعلى استقلال يقلل من شأنها الحرمان منه .

ويقول ماركس فى **وثائق عام ١٨٤٤** :

« ان رفع الاجور (....) ليس الا سدادا لأجور اعلى للعبيد ولا يمهد للعامل مستقبله ولا كرامته الانسانية » (٥٦) .

والكرامة التى لا يوجد بدونها كيان انسانىحقا لازمة ايضا للرجال لزوم العلاقات المادية لهم . ولقد كانت فكرة الكرامة هنا غرضا اساسياللثروة ومطلبا للعديد من المفكرين الذين اهتموا بالمسائل الاجتماعية . ويؤكد روجيه مارتاندى جارد :

« يجب ان يعطى الفرد ليس فقط نصيبهالمادى فى ارباح العمل وانما ايضا ذلك النصيب من الحرية والراحة من العمل والرفاهية ، وبدونذلك لا يستطيع انيتشكل مع كرامته كرجل»(٥٧)

ويدين اراجون فى شدة النظام الرأسمالى الذىلا يترك للمحرومين الا « الموت والألم والاذلال » (٥٨) .

وفى **الذباب** لسارتر ، يقول اوريستلايجيت بين ضربتين من السيف .

---

(٥٥) قدر الانسان ص ٢١

(٥٦) Karl Mar, **Xanuscrits de** 1844.

(٥٧) Roger Martin du Gard, **Oeuvres complêtes,** Gallimard (Bibliothèque de la Pleiade), 1955. Tome II, L'Eté 14 p. 371.

(٥٨) Louis Aragon, **Les Beaux Quartiers,** Deno'él et Steel, 1936, p. 319.

« من العدل ان تسحق ايها النذل القذر وانتقوض امبراطوريتك على اناس ارجوس ، ومن العدل اعطاؤهم الاحساس بكرامتهم » (٥٩) .

وكما هــو الحــال عند مالرو فاننا نبعد عنالمذهب الماركسى للصراع بين الطبقات بينما تقدم رؤيتــه نقاطا مشــتركة مع العديد من المفكرين اليساريين وحتى الشيوعيين المتطرفين منهم .

وعن مالرو فان الصراع بين الثوار هو صراع قبل كل شيء من أجل الكرامة وابعد مرمى من ان يكون قهرا للسلطة وانتقاما للضمير الذى طــال المدى باذلاله والذى لا يسعه ان يتحمل اكثر مما احتمل من الهوان . ويحدد محاربو شنغهاى فى **قدر الانسان** « الذهــاب الى غــزو عيشــــهم وكرامتهم » (٦٠) .

وبالمقابلة مع لوحــة بؤس واحتقار المجندين الشيوعيين فان الكاتب يقدم صــــورة لانحدار روسية بيضــاء راقصـــة محترفة فى « القط الاسود » واستقلالا عن كل الآراء السياسية ينعى الكاتب على هذه المراة افتقارها للكرامة شــأنها فى ذلك شأن المقاتلين التعسـاء وتقول :

« كان لجدى الأكبر ارض طيبة .... ولقد رحلنا بسبب الشيوعيين ، اليس كذلك ؟ وحتى لا نكون مع الناس كلها وحتى نكون محترمات :

هنا نحن اثنتـــان علــى المائـــدة واربــع فى الغرفة ....

ويجب دفع الايجار . محترمات .... » (٦١)

وكلما يستغرق هيميرليتش فى ذكرياته يعترف فى مرارة بأن حياته لم تكن الا اســـتمرارا للذل والهوان .

« تلميذ خائب بالمدرســة : يتغيب يوما كل يومين ولتتمكن امه من ان تشل فى هدوء تجعله يقوم بأعمالها . والمصنع : يدوى . دوح شريرة فى وحدته العســكرية ، ودائما فى الســـجن . والحــرب . غازات ســامة . لمن ولأجل ماذا ؟ البلدة ؟ انه لم يكن بلجيكيا ، لقد كان بائسا » (٦٢)

وكما هو الحال فى الصراع مع الشغل بالموت فان شخوص قدر الانسان تتبع طرقا مختلفة فى السلوك وغالبا ما تكون متعارضة ، ففى الصراع ضــد الاذلال تلتزم كل شخصــــية بالطــريق المخصص لها .

وكان رد الفعل عند كونيج قاسيا ومهينا . فقد خدم ابتداء فى سيبيريا فى الجيش الابيض ، وعندما قبض عليه الشيوعيون قاموا بتعذيبه ، واحدثوا ثقبا فى كل من كتفيه ، وبكى امامهم .

---

(٥٩) Jean Paul Sartre, Les Mouches, Gallimard, 1943, p. 106.

(٦٠) قدر الانسان ص ٧٩ .

(٦١) قدر الانسان ص ٣٠

(٦٢) قدر الانسان ص ١٥٣ .

ولن يستطيع ابدا ان ينسى تلك الاهانة . ومنذذلك الوقت لم ينضم الى كومنتانج الا ليثأر بقتل اكبر عدد ممكن من الشيوعيين .

ويعترف كلابيك بأن رد الفعل القوى والعاصفلدى كونيج امر مألوف لدى اولئك الذين لحقت بهم اهانات بالغة .

« لقد شاهد خرابا خلفته الحروب الاهلية فىالصــين وسيبيريا بقدر يكفى ليعرف كم يدفع الامتهان الشديد الناس الى انكار العالم . وانالذى يسفك بعناد والمخدر والانهيار العصبي ، كل ذلك يغذى مثل تلك الوحدة » (٦٣) .

ولأن « الوحدة والتحقير التام » (٦٤) امرانملتحمان **بقدر الانسان** ، ويؤكد الكاتب فى اكثــر من موضع ، الصلة الوثيقة بينهما .

ولقد كان فيرال فى حاجة الى احتقار الآخرينليؤكد بنفسه « انه كان يحس بتبعيته لكل قوى العالم . ولكن كانت هناك « فاليرى » التى لم يكنيتبعها » (٦٥) . ويقرر بعد ذلك ان يخضــعها ويضغط عليها ويهينها . ولكنه ، وقد سخرتمنه فاليرى ، يحلمبمشاهد منالسلامةوالاغتصاب والتعذيب التى كان يريد اجبارها عليها .

ويبغى تملك أول غانية يقابلها بغرض التخلصمن الكبرياء الجنسى المرذول الذى كان يحطمه .

وعلى النقيض من الانفعالات السلبية الدنيئةالتى بدلا من ان تحرر الانســان فانها تهبط به به وتستعيده أكثر فأكثر ، وقد عرض الكاتبأمثلة عديدة ايجابية مصورا ارادة العز والكرامة.

ولو ان هيميرليتش قد أسهم بعنف فى المعركةالثورية فقد كان ذلك لأن الأمر يتصل بالنسبة اليه بثورة الكبرياء الانســـانية وباهانة يتعينمحوها . ويصرخ فى غضــب عند الهجــوم على العدو :

« كانوا سيقضون علينا طوال حياتنا ، ولكنذلك الشــخص سيمحو تلــك الاهانة » (٦٦) .

وعند نجاحه فى الافلات من اخماد شــانج ــكاى ــ تشيك للثورة يعمل منذ ذلك الحين كعامل بمصنع للكهرباء . وبفضــل ذلك العمل الجديديكتشف هيميرليتش اخيرا معنى لوجوده :

« انها أول مرة فى حياتى أعمل فيها وانا اعلملماذا دون ان انتظر الموت بفارغ الصبر .. » (٦٧)
ويكون العمل بالنسبة لمالرو جوهر الرجل،والفعلالذى يتطور به دائما . وذلك التوافق التام بين الحاجة الى العمل وازدهار ما يؤديه موضــوعاساسي لباسكال .

---

(٦٣) قدر الانسان ص ٢٢٧ .
(٦٤) قدر الانسان ص ٢٣٨ .
(٦٥) قدر الانسان ص ١٨١ .
(٦٦) قدر الانسان ص ٢٣٣ .
(٦٧) قدر الانسان ص ٢٧٧

Blaise Pascal.

« سعداء اولئك الذين يحبون تماما وبحرية مايجب عليهم ان يحبوا بالضرورة » (٦٨) .

وكم من المرات اشاد زولا بالعمل الذى يعتبربالنسبة اليه القانون الوحيد فى العالم :

« ليس لى الا عقيدة وقوة واحدة وهىالعمل » (٦٩) ويثنى شارل بيجى على « ذلك الاصل العامل » (٧٠) ، ويمتدح اراجون ايضا« عقيدة العمل » (٧١) .

ويرى مالرو فى الرجل كائنا اجتماعيا يتشكلبنشاطه . ويؤكد بطل **قدر الانسان** :

« ليس هناك كبرياء متاحا ولا حياة فعليةلرجل يعمل اثنتى عشرة ساعة يوميا دون ان يعرف لماذا يعمل . لقد كان يجب ان يكون لذلكالعمل معنى ويصبح وطنا » (٧٢) .

وفى الوقت الذى تتكيف فيه الحيوانات تبعاللطبيعة ، فان الرجال يغيرونها ويتغيرون انفسهم . ولقد كتب كارل ماركس فى **رأس المال** :

« ان العمل فعل يتم بين الرجل والطبيعة فىالدرجة الاولى » (٧٣) .

ذلك الفعل بين الرجل والطبيعة صوره مالرو مرات عديدة يتناول موضوع « القوى الانسانية » فى الصراع ضد الارض وذلك فى **قدر الانسان**وكذلك فى **اشجار جوز التنبرج** .

وطبقا للمفاهيم الماركسية يؤكد **بى** وهو الشيوعي الشاب فى **قدر الانسان** ان دور العامل الحديث يقوم اساسا على عمله . وبتخصيصحياة اكثر عملا دائما واكثر قوة واشعاعا فى خدمة الانسانية ، يشعر بدوره كخلاق .

« ان المدنية تتغير عندما يصبح فجاة لعنصرهاالاكثر ايلاما ـ اذلال الرقيق والعمل لدى العامل الحديث ـ قيمة وعندما لا يعود الأمر متعلقابالهروب من ذلك الاذلال ، وانما بانتظار أمن لذاته ، والهرب من ذلك العمل حيث يجد فيهسبب وجوده » (٧٤) .

ورد الفعل ضد الاذلال شيء آخر عند المفكر . فان كيو وقد ادمته خيانة **ماى** يئن من الألم الذى الحق به أكبر اهانة (٥٧) . ولكنه يصل الىالتغلب على غيرته وان « يعثر من جديد على حبه لزوجته » .

---

(٦٨) Emile Zola, Discours prononcé le 18 mai 1893.

(٦٩) Chasles Péguy, **Oeuvres en prose** 1909 - 1914.

(٧٠) Gallimard (Bibliothèque de la Pleiade), p. 1109.

(٧١) Aragon, **Les Beaux Quartiers** p. 383.

(٧٢) قدر الانسان ص ٥٩ .

(٧٣) Karl Marx, **Le Capital**, Paris, Editions sociales, Tome I, 1948. p. 180.

(٧٤) قدر الانسان ص ٢٧٧ .

(٧٥) قدر الانسان ص ٤٥ .

كيو من ابوين مختلفى الجنسية ولا يتبع اصلامعينا وهــو محتقر من البيض وعلى الاخص من النساء (٧٦) ، واعتناقه الشيوعية مسألة شرف فقط « ارادة الكبــرياء » (٧٧) . وليس الأمــر بالنسبة اليه تنظيم العــالم ولكن ان يكون نبيلاأو يموت (٧٨) . وهكذا يفسر كيو لكونيج انضمامه الى حزب الثوار :

« أرى أن الشيوعية ستوفر الممكن من الكبرياءلأولئك الذين احاربهم » (٧٩) .

ولقد كان انضمام المفكرين الى جانب العمالالموضوع الاساسي لكل الكتاب حول عام ١٩٣٣ . ووقععدد كبير منهم تحت اغراء الماركسيةوتقاربوا مــع الحــزب الشـــــيوعى الفرنســـــي . لأسباب مختلفة وظروف متباينة . وابدى اناتول‌فرانس الحاصــل على جائزة نوبل فى الآداب فى عام ١٩٢١ تأييده للحزب الشــيوعى الفرنسىواشاد بالمثالية الدولية والسلمية للشيوعية .

وقام المفكرون الشــبان الذين كانوا يديرونمجلة « كلارتيه » بتوجيهها نحو استنكار الحرب والثقافــة البورجوازية ، ودفــع الاحتجاج علىالقيم البورجوازية والرغبة فى الثورة الكاملة من هم أكثر من السرياليين الى الانضمام الى الحزبالشيوعى . ولقد كان تهديد الفاشية هو الذى شــجع الكثير من المفكرين للانخراط ضمن ذلكالحزب فى الوقت الذى كانوا يجهلون فيــه كل شيء عن الماركســـية . وفى الواقع فان تهديدالفاشية وفيما بعد نجاح الجبهــة الشــــعبية (عام ١٩٣٦) والحرب المدنية الاسبانية والمقاومةالفرنسية والصراع ضد الحرب فى الجزائر ... كل تلك الاحداث اسهمت فى اعطاء الحزب اهميةكبيرة لدى الاوســاط الفكرية . وتحت ضــغط الاحــداث التزم فى صــلابة اندريه جيد واندريهمالرو وجان بول ســارتر وجان جيــونو وجان جيهينــو ــ ونحن نذكر هنــا الكبــار ــ جانبالشيوعيين. واشتركوا فىأوجه الانشطة الضخمة فى ذلك الوقت وقدموا مراكزهم ونفوذهم الىالجانب الثورى كما وضــعوا احيانا اقلامهم فى خدمة الحزب الشيوعي الفرنسى . وتلك النخبةمن كبار الكتاب ، مع ميولهم للشيوعية ، كانوا على حذر ، ولم ينضموا رسميا للحزب الشيوعيالفرنسي . والكثيرون وعلى الاخص مالرو (فى عام ١٩٣٩) هجروا الحزب لقيام الخلاف علىخط سلوكه ومذاهبه الثقافية .

والجدير بالذكر هنا ان كتــاب مالرو الــذىيتناول مع ذلك الثورة الشيوعية فى الصــين لم يتبع اى حزب يمينى أو يسارى ، ولقد منعتروايته **الغزاة** من الدخول الى روسيا السوفيتية كما حدث ايضا فى ايطاليا الفاشية : ومن ثم فقدقامت دار النشر (جراسيه) بأعمال الدعاية لذلك الكتاب . ويمكن ان نطبق على **قدر الانسان** ذلكالرأى للويس جيليه الذى ابداه عن **الأمل** :

« اننا فى دهشة للغياب التام لمسائل الفائدةوالاجـــور وبالاختصــــار لكل مــا فى الفكــر الماركسى » (٨٠) .

---

(٧٦) قدر الانسان ص ٥٩ .

(٧٧) قدر الانسان ص ٢٢٥ .

(٧٨) Louis Gillet, Les Nouvelles Littéraires, 8 Janvier 1938.

(٧٩) قدر الانسان ص ٢٤٢ .

(٨٠) Louis Gillet, art. cit.

وشخصية تشين توضح تماما هذه الناحية . ولو كان ذلك الشاب قد ساهم فى العمل الثورى فان مرجع ذلك للعوامل الشخصية المحضــة . واذا عمل على قتل شانج ــ كاى ــ تشيك فان ذلك القتل كان حتميا بالنسبة له وحده . وكذلك فان المعنى السياسي والاجتماعي لعمله يتوارى تمامــا . فهو لا يرى فى جريمته الا اداءً لعمل بطولى وضرورى لسد فراغ أليم لروح متعطشة للمطلق . ويبدو ان تشين قد وجد فى لحظة وفاته ترضية كان يهفو اليها ، ومع ذلك نستشعر فشلا لا يسع انكاره : لقد دمر نفسه سدى . لأن عمله انصرف الى لا شيء ، وستظل وحدته بلا رجعة .

والاعمال الايجابية الوحيدة هى تلك التي قامت فيها الثورة بقهر الارهاب ، فتلك الاعمال التى تتمثل فى سلام الشعب الصينى تعلو على المثل الاعلى الذاتى .

وبالنسبة لبطل **قدر الانسان** كما هو الحال بالنسبة لمالرو فان اختياره السياسى مشروط فقط بالقيمة المعنوية التى يقدمها للعمل الثورى . والصراع فى جانب الثوار لا يعنى بالنسبة اليــه الا « أن يهزم هنا كرامة ذويه »

وكل اعمال مالرو ليست الا شدوا مؤثرا لمجد الكرامة الانسانية :

« كان لحياة كيو معنى يعرفه : ان يعطى كلا من اولئك الرجال الذين افنتهم المجاعة فى ذلك الوقت وكأنها طاعون بطيء ملكية الكرامة » (٨١)

تلك الكلمة التى غالبا ما يخطها قلم الكاتب تتوالى تقريبا فى كل صحيفة من صفحات الرواية وفى استطاعتنا ان نتبين عبارات عديدة تكشف عن اولوية ذلك الموضوع . ويقول كيو للعمال :

« طالما المصير الى الموت فلنمت لكى نصبح رجالا » (٨٢) والمبدأ الاساسى لكيو هو الآتى :

« كل ما يجعل الانسان يقبل ان يموت مــن اجله يتجه فى غموض الى تدميم ذلك القدر بجعله كرامة . » (٨٣)

وحتى يتضح استخلاص ثقة الرجل فى غيره ورغبته فى حياة افضل تعين على مالرو ان يظهر لنا بطريق التناقض سحق وتعاســة كل الذين تحملوا الاحتقار الانسانى . ذلك الهبوط الــى الحجيم لازم لفهم افضل لاحتجاج اكبر لا يمكــن اخماده من الثوار ضد الظالمين . وتلك البشاعة القبيحة للسجون وبؤس المسجونين ، وانحطاط الضحايا ، كل ذلك صوره مالرو بكفاءة فذّة ، وفرض علينا تلك المشاهد التي تؤثر فى اعماقنا .

« ومع هذا ، وايا كانت الاداة التى نقلتها الينا ، فان الذعر كــان موجــودا ــ ليس هــو الخوف ، ولكنه رعب الحيوان والرجال وحدهم تجاه الوحشية اللا انسانية » (٨٤)

---

(٨١) قدر الانسان ص ٥٩ .

(٨٢) قدر الانسان ص ١٣٢ .

(٨٣) قدر الانسان ص ١٩٣ .

(٨٤) قدر الانسان ص ٢٥٠ .

ويشعر كيو حتى « بالرغبة فى ان يتقيأ الاذلال الذىيحس به كل رجل امام رجل يتبعه »(٨٥)

• • •

اشخاص غير عاديين

طالما اخذ على مالرو الوجه غير العادىلشخوصه . وبلا شك فان ابطاله يبدون لنا كرجال يبحثون باستمرار عن تجاوز انفسهم ،وينجحون فى التفوق على ذواتهم بفضل ممارستهم الحرية ـ ويقول جان جيهينوعن **قدر الانسان :**

« كل الشخوص التى تظهر هنا غير عادية، وربما ندرك كيف يجب ان نعيش بدلا من كيف نعيش » (٨٦)

ويضيف جوزيف هوفمان :

« بقى ان نتساءل دائما ، اذا كان قدرهؤلاء الابطال امرا غير عادى بدلا من ان يكون مثاليا (٨٧)

وما يريد مالرو التعبير عنه فى اعماله هىالقيمة والعظمة الممكنة للرجل وارادته فى اقامة انسانية افضل . من هنا تحفل اعماله الفنيةبمشاهد البطولة والعديد من الامثلة عن الكرم والاخلاص والاخاء .... وكل المشاهد الكبيرةفى عمله هى كما قال جايتان بيكون « تمجيد للاخاء » بينما الاحساس بالعزلة الفردية احدىالمآسى الكبرى بالكتاب ، وانتصار كيو وكاتوف وهيميرليتش وبي وماى فى تضامنهم مع الشعبالبائس الصينى ويعكس العمل الوجودى والموت بلا جدوى لتشين يعارض الكاتب انتصار بطولةكيو :

« ان موت كيو وسط همهمة اخوية لمجموعةمن المقهورين حيث يعرف الكثيرون شهداءهم ، ومن خلال تلكالاسطورة الدموية يصنعون اساطيرذهبية » (٨٨)

وتظل المشاهد الشهيرةوهي اعطاء السيانور لرفاق النضال فى ساحة السجون اكبر رمز لانتصار الاخاء ، ويقابل مالرو عدم التلاقى بينالناس بتآلف كيو وماى **بفضل تأكيد حبهما . وان قلق كيو يعود الى شعوره المؤلم بتجاهل ماى وهوشعور خففه قوله « انا لا اعرفها الا بقدر ما** أحبها » .

وذلك التضامن اكثر تأثيرا عندما يدعم وحدة الثوار . ومن خلال الانتماء الى ذات المثل الاعلى والاحساس المماثل يتلاقى كاتوفوهيميرليتش :

---

(٨٥) قدر الانسان ص ٢٣٦ .

(٨٦) JeantGuéhenno,t,,Le Tragique et le auotidien'' Europe, 15 Juin 1933.

(٨٧) J. Hoffmann, op. ci-., p. 373.

(٨٨) قدر الانسان ص ٢٥٦ .

« يجب ان تفهمنى دون ان اقول شيئا . ليس هناك ما يقال » (٨٩)

وكل مؤلف مالرو يقوم على كتابة « اسطورة البروليتاريا » والثورة فرصة مواتية لتخلق للرجال اسبابا بطولية ليعيشوا ونظاما للقيم قادرا على تحويل الوجود وجعله اكثر نبلا . وموضوع الثورة هذا من اغنى اعمال مالرو اذ تلتقى فيه كل موضوعاته الاخرى ... وبالنسبة للثوار فى **قدر الانسان** فان الثورة هى الوسيلة الوحيدة لتحرير الرجل . ومن خلال المعركة يجابه الابطال مختلف اوجه القدر : العبث والقلق والخطر والموت ... وبالتالى يتعين عليهم اظهار فضائلهم الانسانية : الارادة والشجاعة وروح التضحية : مثل كيو وكاتوف اللذين يبذلان فى بساطة عطاء اكثر من حياتهما فى سبيل انتصار قضيتهما .

وتمثل الميزة الكبرى لكاتب **قدر الانسان** فى توفيقه المثير للاعجاب بين الفعل والفكر . فهناك مناقشات ذهنية ومعارك شرسة تتوالى على التعاقب . ولو كان الفعل فى **الغزاة والطريق الملكى** يبدو عند مالرو قوة فكرية محضة ، واحيانا استاذهما من نيتشه ، ففى **قدر الانسان** ، يصبح العمل البطولى المحض ، الذى يكاد يكون بلا مقابل ، اكثر انسانية . والامر لا يتصل بالعمل لمجرد العمل . وكل القيم المعنوية الرفيعة تحيى النص كله : ارادة وتضامن واخاء رجولى بين المحاربين الذين يتصارعون ويتألمون لتاكيد كرامتهم .

ولقد اخذ ايضا على مالرو حواره الطويل وآراء ابطاله الذين يتحدثون فيما بينهم عن معنى الثورة والقدر ، وكذلك مجموعة من الخطب المجردة للمفكرين الذين يتساءلون عن قيمة اهدافهم واعمالهم . ويؤكد هنرى دى مونترلان، وهو مع ذلك معجب بذكاء وعمق كتاب مالرو :

« آخذ احيانا على تلك المحادثات انها تلمس الافتعال وجيشا من المفكرين كما فى روايات ما قبل الحرب حيث الشخوص وبلا استثناء ذات ذكاء » (٩٠)

ويأسف مونترلان لان مالرو لم يقدم فى كتابه الا انسانية رفيعة ، متجاهلا من هم دونها . فى حين اننا فى الحرب كما فى الحياة لا نختار الاشخاص الذين نعيش معهم وبالتالى نقابل حتما « المغفلين » او المرافقين الذين لا يشاركوننا حتما افكارنا .

ذلك التعليق من مونترلان يذكر بالملاحظة الشهيرة التى وجهها جيد الى مالرو :

« ليس هناك مغفلون فى مؤلفاتكم » ويرد مالرو :

« انا لا اكتب لاضايق نفسى . اما عن الاغبياء فالحياة تكفى » (٩١)

ومن ثم يجب علينا ان نعترف بان **قدر الانسان** ، طبقا لعنوانه ، يبحث فى عمق المسائل الاكبر اهمية والاعظم اثارة للقلق والتي تطرح على الرجل . ومع ذلك فان تلك الرواية لا تقدم لنا

---

(٨٩) قدر الانسان ص ١٧٨ .

(٩٠) Henry de Montherlant **Carnets** 1930 - 1944 (année 1938) Editions Gallimard, 1957.

(٩١) Cité en marge du texte de G .Picon, **Malraux par Lui-même** p. 44.

نوعيات انسانية مختلفة كما هو الحال مع بلزاكوتولستوى او ديكنز مثلا . فكل شخصيات مالرو واحدة « الكل يتشابه بعاطفة فظيعة واحدةويأس فظيع واحد » . (٩٢) واختياراتهم دائما واحدة وبذات المعنى : والكل يتصارع ضدسحق الرجل . ومن اليسير تفسير تلك « الرتابة الواضحة » (٩٣) فان شخوص مالرو ليسوا الاصورة لشخصية الكاتب ذاته . وما يتميز به ذلك الصنف من الابطال الذى ابتدعه مالرو هوالقدرة على العمل والثقافة ووضوح الرؤية وهي ليست صفات عميقة للكاتب ذاته .

وانها لعقلية مالرو التى نجدها فى شخصياتهوفى احاديثهم . وتماثل هؤلاء الابطال وتشابههم فيما بينهم يرجع الى ان ملامحهم هى ذات ملامحخالقهم . فلهم ذات الذوق فى التفكير وفى العمل وهى الصفة الغالبة عند مالرو .

وكما ان شخوص الكاتب ليست الا انعكاساالذاته ، فانه لا يرسم بالتالى الا شخوصا هو قادر على تقديرهم ، او تحس بمشاعر يسعه هو ان يحس بها. لان« مالرو يفهم اكثر مما يصور ».(٩٤) ومثل ذلك الاتجاه يمنع الكاتب من تكوين شخصيات يستنكرها او تكون غريبة عنه . وكما اوضح جايتان بيكون فى تحليله فان كلابيك وجيزوراو فيرال ، لو كانوا قد قدموا بعض المظاهر التي يرفضها الكاتب فان مالرو لم يصورهم بوضوح الا لانه احس بمشاعر مشتركة فى بعض الاوقات من وجوده : اوهام كلابيك والتهدئة بالافيون وتذوق العمل للقوة عند فيرال ــ اذ هناك دائما بين الكاتب وشخصياته الاتفاق الكامل بين الخالق وبين مخلوقاته : وهو التفاهم .

وذلك التفاهم ذاته يعتنقه مالرو ايضا تجاه معاصريه .

« لم يوقع ابدا الا على نقد يقوم على الاعجاب » (٩٥)

ولم يتحدث ابدا الا عن كتّاب يقدرهم :نيتشه ، لاكلو ، فولكز ، جيد وبيرنانوس ....

ولما كان مالرو يرفض ان يصور شخوصا لا يستطيع فهمها فانه لم يصور ابدا الاعداء . ويتقاتل كل ثوار **قدر الانسان** فى شراسة ضد افكار مجردة وضد ظلال لم ترسم فى دقة . فليس لجنود تشانج ــ كاى ــ تشيك ولا لمعذبى كيووكاتوف اى وجود خاص بهم . ولم يمثلوا فى الكتاب الا تبعا للابطال ، وليس لهم من دور الا اظهار قيمة الابطال .

وبالنسبة لفيرال التابع للجانب المعادى والذى يقاتل الثوار فان الكاتب يرسمه بحياد وموضوعية . ولمالرو الفضل فى ان يحكم بانصاف وتفهم على هذا الشخص الذى يدينه مع ذلك .

---

(٩٢) Robert Brasillach, art. cit.,

(٩٣) G. Picon, Malraux par Lui-même p. 49.

(٩٤) Ibid., p.35.

(٩٥) Ibid., p.30

وخلافا لما ذهب اليه الكتاب الملتزمون المعاصرون ، فان مالرو يرفض تحقير العدو او امتهانه . فى حين ان اراجون فى رواياته يتخذ موقفا منحازا فى ثبات ، ويقابل صورا هزلية بتمجيد شخوص مثالية . وبالعكس فان مالرو يبرر اعمال فيرال ويمنحه صفات معينة : الاستقامة ، ومعنى العمل ، وقوة الخلق . (٩٦) ولو كان الازدواج ((Le manicheisme)) للعالم الروائي لاراجون واضحا فان كل ابطال مالرو قد رسموا بطريقة اخاذة تبرر اعمالها ، لان لا احد ضد الازدواج اكثر من كاتب **قدر الانسان** . وهو يؤكد فى **الامل** :

« ان المفكر الكبير رجل يبحث عن تلمس الدقة ، والمرتبة والصفة والحقيقة الذاتية . وهو طبقا لتعريفه وجوهره ضد الازدواج . ـ((antimanichéen)) . » (٩٧)

ويمنح مالرو فيرال ذات الذكاء اللامع الذى يختص به الثوار ... وعندما يدور الحوار بين فيرال وجيزور تكون اوجه النظر المخالفة والتى يتبادلانها صحيحة ايضا . واذا استطعنا ان نتثبت من ان المحادثات لن تؤدى ابدا الى حل تنتهى اليه فان كلا المتحادثين يظل عند موقفه فى النهاية . وتشبه كلود ادموند مانيى تلك المحادثات بمشاهد الفعل العنيفة والقوية .

« ان صلصلة الحوار عند اختلاف اوجه النظر تتلاقى كالسيوف » (٩٨)

وعندما يقول فيرال لجيزور :

الا ترى انه من الغباء المميز للجنس البشرى ان رجلا ليست امامه الا حياة واحدة يفقدها فى سبيل فكرة ؟ » (٩٩) هنا حقيقة لا يمكن انكارها. ويرد جيزور بحقيقة هى ايضا غير قابلة للانكار :

« من النادر ان يستطيع رجلا تحمل ماذا اقول ؟ قدره الانسانى .... » (١٠٠)

• • •

التركيب المزدوج للرواية

فن التناقض عند مالرو

كتب جان روسيه فى مقدمة كتابه **الشكل والمعنى** :

« ليس هناك من شكل نشعر به الا حيث يقوم اتفاق او علاقة او خط للقوى او صورة

---

(٩٦) قدر الانسان ص ٧٦ .

(٩٧) الامل ص ٢٧٩ .

(٩٨) Claude Edmonde Magny, art. cit.

(٩٩) قدر الانسان ص ١٩٣ .

(١٠٠) قدر الانسان ١٩٣ .

متكررة او صدى او شبكة للتجمع . ساسمي تركيبات كل تلك الاشكال الدائمة والعلاقات تكشفا عن عالم عقلى وكل فنان يبتكرها وفقا لحاجته . » (١٠١)

وانطلاقا من ذلك التعريف قمنا بدراسة التكوين الازدواجى **لقدر الانسان** الذى يفرض نفسه فى وضوح فى كتاب مالرو ويبدو كانه فكرة دائمة . ولقد راينا ايضا فى تحليلنا للنظام الذى قام لوسيان جولدمان بتطبيقه فى دراسته عن اعمال مالرو :

« ان دراسة كهذه تفترض فى الواقع (...) القاء الضوء على عدد من التركيبات ذات المعنى والقابلة لمراعاة الجانب الاكبر على الاقل من مضمون كتاباته وصفاته الشكلية » (١٠٢)

وثمة متوازيات فى **قدر الانسان**. ولقد سبق ان اشرنا الى ذلك التأرجح المستمر بين الفكر والفعل .

« طبعا ليس الامر مجرد اصطناع ، ويعلو مضمون الرواية على ان يكون سردا بحتا لان تصادم الاحداث الذى يثيره الكاتب هو الذى يعطى الرواية معناها . » (١٠٣)

ومن هنا تبدو الكثافة الشديدة للرواية غنية بالمتناقضات . وتسيطر على الكتاب المواجهة بين المتضادين الكبيرين وهما : الانسان والقدر . ويشكل ذلك التعارض القطبين الاساسيين للرواية . وتتوالى هذه الانقسامات من خلال قدر الانسان كله حيث تتواجد فى كل مجالاته . ويتكون مضمون الرواية من تمييز عميق بين الثورة والثورة المضادة . ولو اعتنقنا الفكرة المثالية للثورة والجهود فى سبيل تحرير المجموعات الصينية التى كرس لها ابطال مثل تشين وكيو وكاتوف كل جهدهم نجد ان كلابيك ، وعلى الاخص ، فيرال ، من الاعداء . وذلك لان الاخير راسمالى ومن رجال المال ، ومصالحه الكبيرة مهددة من الثورة .

ولقد سبق ان تناولنا فى مجال دراستنا التناقض بين الموضوعات المختلفة للرواية . فالاحساس بعدم الاتصال والوحدة والانفصال المطلق عن الآخرين يقابله ويعوضه الحب الذى يكنه كيو لماى وعلى الاخص التعاون المقدس بين اخوة المعركة . وان التحقير والامتهان العميق اللذين يصمان يتجاوزهما ويقهرهما الصراع فى سبيل تأكيد الكرامة . وفوق ذلك ، وعلى النقيض نرى ، ان صورة الثورة على تحقير الانسان ذات اثر شديد . وان ايمان الثوار بعالم افضل يبدو اكثر قوة وعنفا .

وذلك التقسيم المزدوج الموجود على مستوى الموضوعات الرئيسية يظهر ايضا على مستوى آخر فى نفسية الشخوص . ويتعارض فى وضوح وهم كلابيك وطريق نفى الوجود والهبوط بالحقيقة الى العدم مع البحث عن المطلق الذى يتسلط على ابطال الرواية ومع بحثهم عن القيم الخالدة التى

---

(١٠١) Jean Rousset, **Forme et significations,** Essais sur les structures littéraires de Corneille à Claudel. Paris, Librairie José Corti, 1962 pp. XI - XII.

(١٠٢) Lucien Goldmann, **Pour une sociologie du roman,** Gallimard, (Collection Idées) 1964 p.61.

تعطى معنى لوجودهم . ونشير ايضا الى تضارب عالم كيو مع عالم فيرال . وتناقض افكار ذلك الاخير وآراء جيزور ، وتناقض الاهداف التي يرمى اليها الثوار مع اغراض الكومنتانج . وبين ذلك الازدواج ايضا داخل الثور . وان بساطة شخصية كيو هى عكس تعقيد شخصية تشين . ويلاحظ جيزور التعارض الاساسي بين هذين البطلين ويتأمل فى مصير كل منهما ويقارن بينهما (١٠٣) .

ونشير ايضا الى موضوع من الموضوعات بكتاب مالرو : التفرقة بين الشرق والغرب . ويصور مالرو ذلك التعارض من خلال قلق القس اللوثرى ورعبه من المدنية التقليدية بالصين(١٠٤) وبالعكس فان عم تشين ــ وهو من اتباع كونفوشيوس يحذر ابن اخيه من تلقى العلم بالمدارس الارسالية وعلى الاخص فانه يحول دون ابن اخيه واعتناق فكرة جهنم التى كان يرهبها . ويقابل مالرو بين قلق القس الشديد وسلام المفكرين الشرقيين .

وفى **قدر الانسان** فان جيزور الفيلسوف الفرنسى العجوز هو الذى يمثل ذلك الرمز الصينى . لان الكاتب يريد التركيز بذلك على انه فى الامكان من وراء مواجهة مدنيتين متصارعتين خلق الكثير فى الرجل .

وبالنسبة لجيزور فان الافيون هو اداة التهرب من النفس والتعاون مع العالم جوهر الحكمة الشرقية :

« كان يرى الناس فى طيبة ، والعالم بكل ماهو متاح ومستطاع » . (١٠٥)

ويتأكد باستمرار ذلك الانفصال الظاهر بين الشرق والغرب فى رواية مالرو . والتفرقة صارخة فى الحب مثل ما فى غيره من الموضوعات . ويتعارض الخضوع التقليدى للمراة الشرقية مع ثورة فاليرى على فكرة سيطرة فيرال . « ان الحب المعنوى الفعلى والمبيد » (١٠٦) الذى ربط بين ماى وكيو وحتى بعد موت ذلك الاخير كان غريبا تماما عن جيزور :

« لقد احب يابانية لانه يحب الحنان ولان الحب فى نظره لم يكن نزاعا وانما التأمل بثقة فى وجه محبوب ، وتجسيدا للموسيقي الصافية ــ وهو عذوبة مؤثرة » (١٠٧) .

ولان ذلك الانسجام الكامل بين الجنسين يحكم علاقات الرسام الياباني كاما وزوجته(١٠٨) فان مالرو الذى يبدو ، كما لو كان يشيد بالزوجين الشرقيين ، يعلم تماما ان هناك بعض المبالغات العكسية فى علاقاتهما . وتدين ماى عبودية المراة الصينية وتبلغ فى كل ليلة عن انتحار

(١٠٣) Claude - Edmonde Magny, art. acit.

(١٠٤) قدر الانسان ص ٥٩ .

(١٠٥) قدر الانسان ص ٦٠ .

(١٠٦) قدر الانسان ص ٢٨٠ .

(١٠٧) قدر الانسان ص ٢٨٠ .

(١٠٨) قدر الانسان ص ١٦٢ .

المحظيات ، ولقد انقذت فتاة مسكينة كانت قدحاولت الانتحار بشــفرة فى هودج الزفاف ، وعندما علمت الام بان ابنتها لم تمت صاحت« مسكينة انت ايتها الصغيرة ! . ومع ذلك فقد كادت تتاح لها فرصة الموت .. » (١٠٩) وهوتعليق يغني عن اى مزيد من الشرح ويقدم لنا صورة وافية عن حالة المرأة فى ذاك الوقت .

ذلك التناقض بين الشرق والغرب ظاهرهفى جلاء فى مجال الاحاسيس . ويبدو مالرو بذلك رساما قادرا على تصوير الغربة . كما يمتــازبرسم ملامح الصين التى عرفها جيدا .

ذلك الروائى ذو حاسة الشم القوية مثلشارل بودلير ومارسيل بروست يميز بين الروائح الخاصة بآسيا واوروبا . ويفكر كيو فى الاراضىالمزروعــــة بنبــات الناردين المحــترق (١١٠) ويستنشق فى مدينة هان ــ كيو رائحة الكافورواريج البساتين (١١١) .

اما عن كلابيك الذى ارغم على ترك آسياوالذى يخشى العودة الى اوروبا فان اول ما ذكره بتلك القاره حاسة الشم :

« تنبعث رائحة الشجر والفحم المبتل منالحديقة . ذلك الاريج المر هي اوروبا » (١١٢).

ومع ذلك لا يجب ان يغرب عن البال ابداعند دراسة قدر الانسان ان الكاتب مهما كان ملتزما فى مناقشات مذهبية فهو يظل قبل كلّشيء فنانا كبيرا . ذلك الهاوى للفن يوضح على لسان الرســـام اليابانى كاما الفرق بين فرديةالرسم الغربى وعالمية فن الشرق الاقصى .

« عندما ذهبت الــى اوروبا شــاهدتالمتاحف . وكلما صنع رساموكم التفاح وحتى الخطــوط التى لا تمثل شــيئا زاد تعبيرهم عن انفسهم . وبالنسبة لى فالعالم هو الاهم » (١١٣).

ويمنح مالرو جيزور « تذوقه النقى للفن .(١١٤) وعندما ينظر الفيلســـوف العجوز الــى تشين وانفه المسحوق « كالمنقار » (١١٥) يتذكر« صقرا مصريا من البرونز احتفظ كيو بصورته لحبه لتشين » (١١٦) .

واوجه المشابهة مع الاعمال الفنية متعددةفى الرواية :

---

(١٠٨) قدر الانسان ص ٤٢

(١١٠) قدر الانسان ص ١٢ .

(١١١) قدر الانسان ص ١٢٩ .

(١١٢) قدر الانسان ص ٢٠٢ .

(١١٣) قدر الانسان ص ١٦١ .

(١١٤) قدر الانسان ص ٦٠

(١١٥) قدر الانسان ص ١٤ .

(١١٦) قدر الانسان ص ٥١ .

« ان الصين المسفوكة بالدماء مثل قرابين البرونز » . (١١٧) وكان لاحد ضباط الصف الصينيين « كل ملامح الوجه طولا والجسم مقوس قليلا الى الامام مثل تماثيل العاج التى تأخذ شكل انياب الفيل » (١١٨) . وتجعل خادمة شقراء صلبة كلابيك يفكر فى « لوحة من لوحات روبنس (....) ولكنها ليست تامة » (١١٩) .

وكذلك يعلن مالرو فى **قدر الانسان** فكرته الشهيرة عن الفن وهو عنده **« ضد القدر »** مثل البطولة وثورة التحرير والاخاء . ويؤكد فيمابعد انه الطريق الرفيع ليجاوز الرجل ذاته دون عنف وبالمناداة بالتعاون مع كل واحد فى ابتداع لانهائي .

وقد وُهب ذلك الفنان الكبير احساناعميقا بلعبة الاضواء ، ولاحظ جايتان بيكون نظرته المتفهمة للغة الالوان :

« لكل من كتبه لون ونور . فهناك لون **للغزاة** وهو غير ذلك الذى فى **الطريق الملكى** . ويترك لك **قدر الانسان** ذكرى متعارضة من الظلال والانوار ويجعلنا نشبهه بلوحة « فظائع الحرب » لجويا ، اكثر من اية رواية اخرى . **والامل** كتاب داكن واخضر غامق احيانا واحمر دموى احيانا اخرى » . (١٢٠)

وفى الواقع فان مايصدم القارى قبل كل شىء هو التناقض الدائم بين الانوار القوية المبهرة للابصار وبين الظلال .

ومنذ المشهد الاول فى الرواية يرسم الكاتب « جسدا اقل وضوحا من الخيال » (١٢١) وكنور وحيد « مستطيل كبير من الاضاءة الكهربائية الباهتة » (١٢٢) .

ولكن بعد تقديم تلك البيانات يعود اليها الكاتب عدة مرات فى ذات الفصل مصرا فى كل مرة على التناقض بين النور والظلام .

وحتى بالنسبة للتعبير عن المشاعر فان الكاتب يلجأ الى المقارنات المستعارة من مجال الاضاءة : « تلك الليلة المسحوقة بالقلق لم تكن الا نورا » (١٢٣) .

وبعد جريمة القتل تتغير انارة الحجرة وتتسق الاضاءة الجديدة تماما مع الانقلاب العميق لتشين « فى النور الثابت والصاخب »(١٢٤) .

---

(١١٧) قدر الانسان ص ٥١ .

(١١٨) قدر الانسان ص ١٣٥ .

(١١٩) قدر الانسان ص ٢٠٨ .

(١٢٠) Ca'étan Picon, l'Usage de la lecture, Mercure de France 1960.

(١٢١) قدر الانسان ص ٩

(١٢٢) قدر الانسان ص ٩

(١٢٣) قدر الانسان ص ١٠

(١٢٤) قدر الانسان ص ص ١٢ .

وثمة مناظر اخرى اكثر دلالة : « مهزوزةمن قلقة كان الليل يغلى كدخان اسود هائل ملىء بالشرر » . (١٢٥) ويقدر مايهدأ تنفس تشين قليلا « يخمد الليل وتظهر النجوم من خلال تمزق السحب » (١٢٦) وتسع متابعة تلك الدراسة الى مالا نهاية .. ولكننا نقتصر على الاشارة الى امثلة هى فى نظرنا آيات على عبقرية التعارض .

وعندما يقدم لنا مالرو كيو لاول مرة من والدين مختلفى الجنسية ، من ام يابانية واب فرنسي ، يذكر الكاتب بفضل القاء الضوء على مميزات هذين الاصلين اللذين يشاركان وجه البطل :

« يؤرجح الباب المغلق المصلح (....) وعندما يمر المصباح فوق راس كيو يميز بوضوح فمه المشابة لما فى اللوحات اليابانية . وعندمـا يبتعد المصباح تتغير اماكن الظلال ، ويبدو وجه ذلك المولد وكأنه وجه اوروبى تقريبا ولما يكون تأرجح المصباح فى نطاق ضيق يلوح وجه كيو اقل اختلافا » . (١٢٧)

تلك اللوحة اخاذة الى حد انهـا تجعلنا نشعر بالدوار . ونشير مع ذلك الى وفرة الظلام . فاغلب المشاهد تقريبا تدور فى الظلام .ونتخيل وجود اشخاص اكثر مما نراهم :

« ذلك الصديق الذى يكاد يكون ظاهرا »(١٢٨) وجوه ظاهرة الى حد ما فى الظل ».(١٢٩) « لم يكن الظل يسمح برؤية تعبير الوجوه » .(١٣٠) وخيال تشين « كان ينفصل فى غموض ». (١٣١) واذا كان زميلاه بصعوبة قد شاهداه .ويضيف الكاتب جملة قصيرة اكثر دلالة من شرح اطول : « ومع ذلك كان يملأ الحجرة »(١٣٢)

ولقد كان المنظر دائمـا غير واضح كالشخصيات » : منازل غير واضحة » (١٣٣) . الانوار المبهمة بمدن الضباب » . (١٣٤) وكان الجو الملىء بالضباب شبه مستمر وبتكيف تماما مع الظروف » : كانت الشمس ذات اللون الاصفر والمليئة بالضباط تجعل وجوه تشين وزميليه باهتـة » (١٣٥) بعد ان فشـلوا فى مؤامرتهم بقتل تشانج ـ كاى ـ تشيك . وابعد من ذلك « كانت السماء رمادية اللون وكانت تهيمن هناك على ضوء رصاصي مثل ذلك الذى

---

(١٢٥) قدر الانسان ص ١٢ .
(١٢٦) قدر الانسان ص ١٢
(١٢٧) قدر الانسان ص ١٦ .
(١٢٨) قدر الانسان ص ١٢٩ .
(١٢٩) قدر الانسان ص ١٣٢ .
(١٣٠) قدر الانسان ص ١٣٣ .
(١٣١) قدر الانسان ص ١٥٧ .
(١٣٢) قدر الانسان ص ١٥٧ .
(١٣٣) قدر الانسان ص ١٤٩ .
(١٣٤) قدر الانسان ص ١٩٧ .
(١٣٥) قدر الانسان ص ١٥٠ .

يسبق الرعد » . (١٣٦) عبارة مزدوجة المعنى لان تشين فى تلك اللحظة على الاخص يتخذ قراره بارتكاب جريمة الانتحار .

وبعكس تلك الانارة الهادئة وغير الواضحة والحزينة دائما فان لقوة الاضاءة مؤدى معينا . وعندما يتأهب الثوار للهجوم على السفينة تشانج ــ تونج ، يخاطرون بالقبض عليهم من السفن الحربية للاعداء: «كانت اضواء الكشافات تتنقل بسرعة من السماء الى الميناء وتتلاقي كالسيوف » (١٣٧) .

ويقتضي الامر ايضا الاشارة الى اهمية الشمس التي ندر ظهورها فى الرواية . وتفسر الشمس انتصار الثوار ولكنه انتصار « مؤقت » لايستمر الا قليلا .

« الشارع مليء بالشمس (...) وكان كيو ينظر الى الرصيف الذى يلمع تحت الشمس المؤقتة » (١٣٨) .

وفوق ذلك فان الانارة الاخيرة رئيسية :« كان جيزور يتأمل الخليج المليء بالشمس »(١٣٩) . وكذلك فان تلك الرواية التى كانت مليئة بالضباب والظلام تنتهي على صورة مضيئة وتترك شعاعا من « الامل » .

ومثل الانارة فى رواية مالرو التى تظهر وتختفى فان تتابع الجلبة والسكون يقوم على تضاربهما وتناقضهما . والصفارات المتزايدة وآلات التنبيه وطلقات المدافع ودقات التليفون والاصوات البشرية الصادرة عن الالم ، كل ذلك يرن مثل صوت القدر وينفصل حتما فى خلفية صامتة .

ومن الصحيفة الاولى للرواية يبدو ذلك التعارض جليا : « تنطق آلات تنبية اربع او خمس مرات دفعة واحدة » . ثم « تسكن هذه الموجة من الضجيج » . (١٤٠) ويستمر المشهد فى صمت عجيب .

ويميز الرواية كلها ذلك التتابع الدائم للرتابة والازعاج ويعطيها نسقا متهدجا متقطعا . ويظهر التعارض اكثر جلاء عندما يأتي فى ذات العبارة :

« الصمت ــ الجماعة الصينية عادة من الاكثر بريقا ــ كان يعلن عن نهاية العالم » (١٤١)

---

(١٣٦) قدر الانسان ص ١٥٦ .

(١٣٧) قدر الانسان ص ٦٣ .

(١٣٨) قدر الانسان ص ١٠٨ .

(١٣٩) قدر الانسان ص ٢٨٤ .

(١٤٠) قدر الانسان ص ٩ .

(١٤١) قدر الانسان ص ٧٧ .

وكذلك « خلال الصمت كانت تسمع نفمات من الجيتار » (١٤٢) وحتى ينتهى ذلك الازدواج الذى يتسنى لنا متابعته طويلا نذكر التعارضات العديدة التى توجد على مستوى الاسلوب .

لان الازدواج الذى يميز الموضـوع يؤثر علـى الشكل وينعكس تناقض الموضوعات على التكوين الازدواجي للروايـة . ونشـير الى الملاحظـات المزدوجة العديدة التى تتكرر فى صفحات الرواية. « هجر وسكون » . (١٤٣) « الصمت ، فيما عدا الالم » . (١٤٤) ...

ولنذكر ايضا الكثير من التناقضات الثرية بالمعاني دائما : « كان (كيو) يموت بين اولئك الذين كان يريد ان يعيش معهـم » . (١٤٥) وتقول ماى وهى امام جثمان زوجها : « حياتي » .... (١٤٦) .... ، « كانت هناك الوحـدة اولا ، الوحدة الثابتة وراء كثرة الموتى » (١٤٧)، وكاتوف « كان يشعر بانه ملقى فى وحدة شديدة ومؤلمة ، مع ان ذويه كانوا حـوله » ، (١٤٨) وعندما يكتب المؤلف « البعث ! » (١٤٩) فان ذلك يعنى : « سيانور » ...

● ● ●

خاتمة

فى ختام دراستنا عن **قدر الانسان** نخلص الى ان تلك الرواية ، كاعمـال مالرو كلهـا ، « انســانية » فى اساسـها . والرجل فيهـا الشخصية ذات الصدارة . وكل ما كتب يتجه الى الرد على ذلك السؤال الجوهرى :

« ايها الكاتب ، من عبث بى منذ سنوات عشر ان لم يكن هو الرجل » (١٥٠) .

وفى الواقـع فان كل ماكتب مالرو يقوم عليه التعبير عن المأساة فى قدر الانســان وقدر عصرنا . ولكن هل وجد ذلك الروائى الذى احاط بمشاكل الرجل حلولا لها ؟

ويقابل النقد الوجودى رواية مالرو برواية جان ــ بول سارتر ويعمل على اظهار اتســاق الفلسفة السارترية والتردد فى فلسفة مالرو . وطبقا لما قالت جان ديلوم ، بينما فكر سارتر « يتقدم من الصدفة التى هي اصل الوجود الى العمل التحريرى ، ومن اللامعنى الى المعنى

(١٤٢) قدر الانسان ص ١٦٣ .
(١٤٣) قدر الانسان ص ١٥ .
(١٤٤) قدر الانسان ص ٢٥٢ .
(١٤٥) قدر الانسان ص ٢٥٦ .
(١٤٦) قدر الانسان ص ٢٦٢ .
(١٤٧) قدر الانسان ص ٤٩ .
(١٤٨) قدر الانسان ص ٢٥٧ .
(١٤٩) قدر الانسان ص ٢٥٩ .
(١٥٠) مالرو شجر الجوز فى الالتنبرج .

والمؤدى ، ومن الوجود الى الجوهر فان فكر اندرية مالرو يسلك الطريق المضاد ، ــ من صوت العالم الى اصوات الصمت ، من العبث والوجودالى الشك فى الانسان » (١٥١) وتستطرد ج . ديلوم قائلة انه لايوجد عند مالرو « درجاتللقدر » ، « ولا درجات للمواقف » . و (لا درجات للاعمال » . (١٥٢) وعالم النسيانلجيزور صحيح ايضا كالبحث عن الاجل لتشين وكلابيك يتكافأ مع كيو ، من اجل ذلك كله فانروايات مالرو « بدون حل موضوعى او اخلاقى » (١٥٣) لأن مؤلفها « لا يميز شيئا او شخصا » . ويشكو النقد الوجودى من عدم وجود رد على سؤال مالرو العقلى الا اذا كان هو قلق الرجلالخاضع للقدر .

وعلى اى حال يتعين علينا الاعتراف بانوجه النظر الوجودى حاسم ومتطرف . حقا ان الكاتب ، كما اوضحنا من قبل ، لا مكان عندهللعدو ، وان ارادة القوة لدى فيرال تساوى حلم التأليه عند كيو ، ومع ذلك فان التمييز ملموسبين انتصار كيو ، وكاتوف ، وهيميرليتش ، وفشل تشين ، وفيرال وكلابيك ... لأن الابطالالايجابيين فى الرواية يحاولون السيطرة على قدر الانسان بدلا من تحمله . وذلك الجذب الدائم بينالانسان والقدر يدلل على الانسانية المأسوية عند مالرو . ويقول بيير دى بواد فر وبحق :

« لقد عرف مالرو ان يعبر عن الحتمية فىعصرنا ، ولكنه لم يقدم حلولا لها . وتظل انسانيته مفعمة باليأس اذا لم ينفتح نحوالحقائق الاكثر رفعة » (١٥٤) .

فمالرو يرفض البحث عن حقيقته فىالايمان بالله . وابطاله عاجزون عن ذلك الايمان فى عالم لايقدمه اليهم ، وهم مضطرون الى انيجدوه فى انفسهم وحتى فى « الجانب الالهي » فيهم . (١٥٥)

ومن ناحيتنا ننضم الى الدراسات التىتمت من وجهات النظر الدينية ، مثل دراسة جوزيف هوفمان ، وبيير دى بوادفر ، ونؤكدمع ذلك الاخير انه اذا لم يستطع مالرو ان يربط بين الرجل والخلود .. فان سبب ذلك رفضهوجود الله :

« يؤله مالرو الرجل والتاريخ ولكنه لايوفق بينهما . وللمواءمة بين الرجل وقدره ، يتعين الخضوع اليه اولا . ويعتبر مالرو القدر كحتمية عمياء بينما (المؤمن) يرى انه ايمان بالله : ذلك الايمان يجمع بين كل الناس ويقيم الاخاء ويمنيهم بسلام مشترك » . (١٥٦)

---

(١٥١) J. Delhomme, op. cit., p.245.

(١٥٢) Ibid., p.152.

(١٥٣) Ibid., pp.247 et 262.

(١٥٤) Pierre de Boisdeffre, André Malraux, Editions universitaires (Classiques du XXe siècle),1952 p.119.

(١٥٥) J. Hoffmann, op. cit., pp.369, 370.

(١٥٦) P. de Boisdeffre, op. cit., pp. 113 - 119.



مِن وحيِ العلوم

عبد العزيز أمين

اردت بهذا المقال ان استعرض تفاعل الناس مع الطبيعة من اجل المعرفة ، وبخاصة فى المجالات العلميــة ، فامســكت بقلمى لادون مذكرات عما صادفنى فى حياتـى العلمية ، مستلهما الموضوع من معاناة الأمة العربية فى السنوات الأخيرة من تاريخها ، وما صادفها بعد ذلك من نصر بفضل توحيد كلمتها،وجهود الأفراد والجماعات ، تحـت رايات القيادات الرشــيدة المؤمنة بالانتصار ، ونحن فى أول طريقنا لاســتعادة أمجادنا العلمية والأدبيـة والفنية . وذهب فكرى الى ملايين السنين التي مرت على الأرض منذ نشأتها الأولى الى أن ظهر عليها الانسان العاقل ، فتأملت الطريق الطويل الذى سلكه الانســان حتى بلغ كل ماتصبو اليه نفسه تقريبا ، كما تأملت ماصنعه الانسان في البيئة من زرع وحرث وتشييد وتعبيد وري وصيد ، ثم وجدته يستأنس الحيوان ويســخره لخدمته ويطوع الطبيعة حسب ارادته ، فرايت ان ابدأ بالكتابة عن علاقة الانسان بالأرض والمناخ ، ثم انتقل الى طريقه فى كشف المعرفة ، واهدافه ، وبعد ذلك اشير الى العلوم وتصنيفها،والعلماء وجهودهم، وشيئا غير طويل عن تاريخهم ومعاناتهم .

الانسان والأرض

ان الحضارة الانسانية هى ثمن التفاعل الطويل والمستمر بين البشر والبيئة ، مـن

يابسة وبحر وهواء وكائنات حية وأجسام ميتة . والانسان يجمع خبراته بنفسه ويختزنها فى ذاكرته القادرة على امتصاص ماتستقبله من حقائق، ويعمل دائما على تحقيق ما يريد بالدأب على العمل ، مستخدما فكره الواعى ، ومعتمدا على الصبر والأناة والارادة والتصميم . ويعمل على تحسين احوال الارض حتى يعيش فى بيئة افضل دائما . ونحن نجد فى كوكبنا ، الارض ، مانحتاجه من مواد ، ومع ذلك فيه ايضا الصحارى المقفرة والمناطق الجليدية الواسعة ، ولذلك لم يكتف الانسان بالرقعة المنزرعة من الارض بل أعاد النظر فى طبيعة الارض ، فأقام المشروعات الكبرى من اجل رفاهية الناس . وبين يدي كتاب طريف بعنوان « الانسان يصلح كوكبه » لمؤلفة السوفيتي أداباشيف . وقد ترجمته الى العربية دار التقدم بموسكو . ذكر فى مقدمته اشارة لما يجب على مختلف بلاد العالم في شتى الاوقات نحو الناس من أجل خيرهم . وكرس الكتاب موضوعه للمشاريع الرائعة التي تبدو اسطورية ، والتى يتوقع المؤلف ان يتم تنفيذها بجد العلماء والمهندسين ، مثل انشاء نفق تحت بحر قزوين لرى الصحارى بواسطة مياه جبال الثلج العائم، وتحويل الانهار الكبرى فى سيبيريا ، وتدفئة تلك الصحراء الجليدية الشاسعة فى الاسكا وكندا وسيبيريا الشرقية ، ومشاريع استخدام طاقة الرياح ، وتدفئة الاماكن الباردة بالدفء الطبيعي الكائن فى اعماق البحار . انها مشاريع واقعية تستند الى العلم والتكنولوجيا .

يدعى قدماء الكيميائيين انهم حضروا مادة زجاجية سحرية ابان القرون الوسطى يرى المرء من خلالها العالم كله فى آن واحد . وليت هذه المادة حقيقية وموجودة الآن لأرى الارض كلها وما عليها، أو ليتنى استطيع ركوب متن الفضاء لأرى روعة الارض وغناها وتنوع غاباتها وأحراشها وما بها من بحيرات عذبة ، وسط الحقول النضرة أو الذهبية أو المتلألئة بأزاهير مختلفة ألوانها تسر الناظرين ، وأن أرى عشرات الألوف من القنوات والمجارى المائية ، التى تجوس خلال الارض ، وتملؤها حياة من نبات وحيوان .

ان الثروة الطبيعية ليست موزعة توزيعا متجانسا فى كوكبنا ، بل كثيرا ماتوجد مناطق غنية بالموارد الطبيعية فى صحراوات قفرات أو جبال وعرة أو تحت سطح مياه آسنة أو فى قاع المحيطات السحيقة العمق ، وعلى الانسان أن يكد ليحصل على هذه الموارد اذا احتاج اليها .

وعلى العلم ان يعرفنا اسرار هذه الطبيعة وقوانينها وتفاعل كل من المواد والبيئة وكيفيته وسبب حدوثه ان امكن . وان يستخدم الانسان العلم ليحقق الاهداف التى يرسمها كى يشبع احتياجاته . وهذا العمل هو الفن التطبيقى (التكنيك) .

اننا لن نرضى او نقنع ابدا بحالة العالم التى نعيشها ، بل علينا بذل انشطة جبارة لنحدث مايلزم من تغييرات مستمرة وتطورات صاعدة لتحسين وسائل المعيشة واساليبها .

ان السكين المعدنى الذى تستعمله اليوم مثلا لا يشبه اطلاقا آلة القطع التى استخدمها الانسان منذ أكثر من عشرة آلاف سنة ، ولا يشبه خام الحديد الذى استخرج منه ، بل هو محصلة عمليات وانشطة انسانية طويلة وخبرات عملية اكتسبها آلاف الناس طوال آلاف السنين .

ان الثمرة التي نأكلها اليوم الغنية بما فيها من غذاء ورائحة وطعم لاتشبه الثمرة التي كانت تنمو في البرية ، بل هى نتيجة تطورات طويلة وبحوث مضنية عبر التاريخ . والثوب القطنى الذى نرتديه يختلف في مادته عن القطن الذى كان ينمو منذ آلاف السنين من حيث طول التيلة ، وخواص أخرى جديدة .

خشى الانسان القديم اخطار العواصف والرعود والبرق والامطار والتعرض للجوع والقحط والهلاك والزلازل ، ففكر في سر هذا الكون ، وعرف خالقه بما اوتى من عقل فآمن بربه ، وداب على تحصيل المعرفة ، وسار العلم مع الايمان جنبا الى جنب في تلازم عبر التاريخ .

الانسان والمناخ :

اننا ندرس علم الجيولوجيا ونعرف منه شيئا عن تركيب الارض . وندرس القوانين الطبيعية ونعلم انها غير قابلة للتعطيل ، فهي تعمل ونحن نستطيع توجيه قوى الطبيعة حسب ارادتنا ونطوعها لخدمتنا . والارض والكواكب الثمانية الاخرى وتوابعها تدور حول الشمس وحول نفسها ، وترتبط معا بقوى جذب متبادل مكونة المجموعة الشمسية . وتقترب الارض تارة من الشمس ، وتبتعد عنها تارة اخرى ، وتحدث الفصول الاربعة ويتعاقب الليل والنهار . ويتغير الاشعاع الشمسي دوريا في كل منطقة بالارض على مدار العام ، فلكل منطقة نظام للطقس هو ما يسمي بالمناخ ، يتحدد بالموقع الجغرافي للمكان . ويتحدث المناخ عن نظام الطقس الطويل الامد . وتؤثر فيه عوامل جغرافية كالتضاريس وتيارات الهواء والبحر ، التى تحمل الدفء والرطوبة ، كما يؤثر الموقع بالنسبة الى البحر ان بعدا او قربا ، وبالارتفاع عن مستواه . وتؤثر ايضا طبقة الرمال او الصخور او الجليد او مياه المحيطات الشاسعة .

ودرجة حرارة الجو في مكان معين قد لا تكون مناسبة لحياة الناس . وهنا يأتى دور العلم ليعدلها بأن يغير طبيعة الغطاء السطحى للارض . انك قد تندهش اذا علمت ان الماء يعكس خمسة فى المائة فقط من اشعة الشمس بينما يعكس الثلج خمسة وثمانين فى المائة منها ، ويمتص الرمل سبعين في المائة من اشعة الشمس ويمتص العشب منها اربعة وسبعين فى المائة . ان الانسان يكيف البيئة الجغرافية التي يعيش فيها ، كما يكيف الطبيعة كى تخدمه وتشبع حاجاته .

وكانت حيوانات هائلة من ذوات الدم البارد تعيش على الارض قبل ظهور الانسان بملايين السنين مثل الديناصور وغيره من الزواحف التي يبلغ طول انواع منها اربعة وعشرين مترا ، وتزن خمسين طنا ، وكان منها ما تحلق في الهواء باجنحة مكففة كالخفافيش ، وكانت درجة حرارتها غير ثابتة ، بل تتأثر بدرجة حرارة البيئة التي تحيط بها . كانت هذه الزواحف البائدة تجرى بالغابات ، وتطير في الهواء ، عند ما تسطع الشمس ، وتملا المكان بالدفء ، ثم تختفى وتبيت البيات الشتوى عندما تنخفض درجة الحرارة شتاء ، لكنها لم تستطع مقاومة البرد الشديد وتقلب المناخ ، ولم تصمد في معركة الحياة ، وتفوقت عليها الثدييات ذوات الدم ثابت درجة الحرارة (هومويوثرم) .

ان درجة حرارة جسم الانسان (٣٧ ٥م مئوية) هى المناسبة للتفاعلات الكيميائية الحيوية التى تحدث باجسامنا . ونحن قادرون على تنظيم التبادل الحرارى بين داخل اجسامنا وخارجها بطريقة تلقائية وغير ارادية (بين درجتى ٣٥ ٥م و ٣٨ ٥م مئوية) وعندما يكون متوسط درجة حرارة الهواء المحيط بنا حوالى ٢٥ ٥م مئوية . وكان هذا سبب استيطان الانسان والحيوانات الدافئة الدم بالاماكن الدافئة من العالم في شمال افريقيا وجزيرة العرب وايران والهند والصين واستراليا وفي مناطق عديدة من امريكا الجنوبية ، ثم انتقل الى مناطق اخرى اكثر برودة عندما عرف النار . وبنى البيوت وعرف الكساء ونظم حياته وكشف عيشه واهمية العمل للحصول على ما يقيم حياته ، فنمت معارفه ، وتراكمت خبراته وخبرات اسلافه ، وعرف الكثير من المواد النافعة كالمعادن والفحم ثم البترول ،

فلم يعد المناخ الرديء عقبة في طريق تقدم الشعوب . ان الشعوب التى ظلت متأخرة طوال سنى التدخل الخارجي قد نمت فجأة وسارت بخطوات سريعة في طريق التقدم بعدما حققت استقلالها . ومن اروع امثله هذه الشعوب الصين واليابان ، ثم الهند ، واخيرا وليس آخرا بعض دول من الامة العربية التى حولت ارادتها ارضها الصحراوية الى جنان ومنشآت عمرانية ومصانع متطورة ، وارتفعت معدلات الانتاج ومستويات المعيشة بها في سنوات معدودات بفضل العلم والتعليم واساليب التخطيط والتنسيق والتعاون بين الجميع بوعى واخلاص وايمان . ونأمل في المزيد من الازدهار للامة العربية وغيرها من الشعوب النامية .

طريق العلم وهدفه

فكرت فيما يجب ان يتصف به من يود الاسهام في تقدم العالم وانماء ثروته الروحية ورفاهيته ليشعر انه قام بدوره الحضارى ، فوجدت ان اول ما يجب ان نعرفة تلك النجاحات التي حققها الاسلاف وما صاحب اعمالهم من معاناة . وقبل ان اقلب صفحات تاريخ العلوم واستعرض معاناة العلماء من قتل او اضطهاد ، او نقد جارح الى غير ذلك مما يملا صفحات تاريخ العلم ، وددت ان اشير الى ما يجب ان يتصف به الذى يريد الاشتغال بالعلم ، فوجدت الصفحة الهامة الاولى ضرورة قدرته على اختزان ما يتعلمه من المعارف في ذاكرته الممتازة ، ثم الارادة القوية الصامدة ، والقدرة الفائقة على الصمود ، والتغلب على ما يصادفه من عقبات حتى يدرك اهدافه .

ان صمود « **توماس اديسون** » المخترع الامريكى فى عمله وهو يخترع المصباح المتوهج لمن اروع امثلة الصمود ، فقد جرب مئات المواد قبل ان يعثر على نوع الفتيل المناسب . ان امثال هؤلاء الرجال الصامدين يعملون بدافع تحقيق نجاح يخدم الجماهير ويرفع شانهم انفسهم . وهذه القوة الدافعة هي التى تجعلهم يستمرون في عملهم حتى يجنوا الثمار الطيبة . انهم لايذوقون طعم الراحة حتى تستفيد الملايين من مجهوداتهم . ويتعرض هؤلاء الى عاصفة من نقد المشككين الذين يقاومون كل جديد ، وعليهم ان يصمدوا ويكافحوا ويثبتوا صحة آرائهم او فائدة اختراعهم الجديد او نظرياتهم الجديدة .

ان العالم يسير في طريق التغيير المصاحب لما نستخدمه من مواد وطرق وآلات واساليب في حياتنا اليومية ، وعلينا ان نتكيف حسب هذا التطور والتغيير ، وان نتقبل ما يثبت نفعه ، ان الانسان يخشى بطبعه كل ما يجهل ، فنراه يتمسك باهداب القديم ، ولن يثق بالجديد حتى يالفه . ان العلماء والمخترعين يجب ان يكونوا مهرة في اقناع الناس وعدم التهور في مناوراتهم عند الدفاع عن مستحدثاتهم .

وقد عرفنا من العلماء المشارقة **ابا بكر الرازى** الطبيب الكيميائى ، وعالم البصريات **الحسن بن الهيثم** ، وواضع علم الجبر **الخوارزمى** ، ثم **جابر بن حيان** صانع زيت الزاج ، كما عرفنا من علماء الغرب **جاليليو ونيوتن ورذفورد ومدام كورى واينشتاين** وآلافا غيرهم من الافذاذ . ويزخر التاريخ بالمعاناة والصبر والصمود والنصر . واخيرا تقدير الناس لأعمالهم فى حياتهم واحيانا يأتي الاعتراف بفضلهم بعد وفاتهم بأعوام طويلة ، بعدما يصحو الناس ويروا نور الحق والمعرفة . ان **لفوازيية** الذى قطعت مقصلة الثورة الفرنسية راسه اقام له الفرنسيون تمثالا تخليدا لذكراه واعترافا بفضله فى وضع اساس الكيمياء الحديثة . **ويوسف بريستلى** القس الانجليزى الذى كشف الاكسيجين وصاحب الفضل فى كشف اكاسيد النتروجين لم ينجح فى الافلات من الاعدام . كان ذلك في عهد الثورة الفرنسية . وكان القرن الثامن عشر ميدانا لجهاد كيميائيين

يعملون بالبوتقة والميزان والانبيق ، ويجمعون الحقائق ويقيمون فلسفة كيماوية عامة .

والاشـتغال بالعلـوم يعنى التكريس لــه والتعرض للعناء والالم أحيانا . ولكن الامـل يتحقق بعد ذلك . ومن منا يجهل فضل عالم مثل **لويس باستير** كاشف الميكروب الذى بدا حياته العلمية مدرسا ،وتقلب في المناصب العلمية حتى ارفعها ، وكذلك **بيير كورى** وزوجته **مدام كورى** فقد كشفا الراديوم والبولونيوم ، اما العالم **لفوازييه** فقد كشف نظريـة الاحتراق وهـدم النظريـة القديمـة المعروفـة باسـم الفلوجستون . ومن منا لم يسـمع أو يعرف فضل العالم الروسـي **منديليف** الـذى رتب العناصر الكيميائية ووضع النظام الدورى لها . عاش بعض هؤلاء حياة مليئة بالمتاعب ،والآلام والظلم والاضطهـاد احيانا ولكننـا نأسـف الآن لما قاسوه فى حياتهم ، ونعترف بافضالهم ونخلد ذكراهم .

وكل يوم تظهر نظريات جديدة ومواد جديدة وطرق جديدة فى التكنيك العصرى ، فينشط الناس لنقدها والتشكك فيها والتوجس مـن نتائجها ، لكن الحق ينتصر دائما على الباطل ويكسب الافضل معركة النضال الذى يكلف صاحب النظرية الجديدة او الاختراع الجديد غير قليل من اعصابه وعصارة فكره ، ومع ذلك لا يبغى العالم من وراء كشفه العلمى جاها ولا مالا ، بل يعمل لاسعاد البشرية ويسعده ارضاء الناس .

وقد يتخبط الشاب اذا سئل عما يرغب ان يكون فى المستقبل ، وقد يستطيع بعضهم تحديد اهدافهم بشىء من الدقة . والطالب الذى لا يعرف هدفه يستذكر دروسه دون هدف سوى النجاح فى الامتحان،وقد يستذكر مادة صعبة فيما يرى مثل الكيمياء ، التى يدعى البعض انها سريعة التطاير من العقل كما تتطاير الكحول ، انهم مخطئون فيما يزعمون ، ولا يشعرون برغبة فى دراسة هذه المادة او تلك، ولا يدفعهم دافع قوى نحو المعرفة . وهؤلاء لن يصبحوا علماء حتى ولو حصلوا على درجات علمية عليا ، بل سوف يكونون متعلمين ـ اذا صح ان نصفهم بهذه الصفة ـ وسوف ينسون ما تعلموه بعد سنوات معدودات .

ان التقدم السريع فى العلم والتكنيك يوجه اغلب الشباب الى دراسة العلوم الطبيعيـة والتطبيقية، ولا يقبلون كثيرا على دراسة العلوم الانسانية ، حسب الاتجاه السائد في الحيـاة العصرية ، وفرص العمل ، لا حسب الميـول والرغبات الحقيقية .

واستطيع ايضاح طريق رسم السبيل لحياة علمية منذ دخول التلميذ بالمدرسة الثانوية وتقدمه نوعا ما بالدراسة فى الصف الاول منها، فانه يجد نفسه تجاه خليط من رغبات وميول، وتوجهه بعض اتجاهات سائدة، فتجده يتأرجح احيانا بين العلم والادب ، والواقع انه يشعر بالرغبة فى المعرفة ايا كان نوعها .

وحياتنا العصرية حافلة بانواع متباينة من الاجهزة والمخترعات والمعدات العلمية والآلات الميكانيكية والكهربية ، ونفاثات وسفن الفضاء، وعتاد حربى. والعلم ليس مجموعة من التكنيك الصناعى تختص به جماعة من الناس تعمل فى المختبرات ويرتدون المعاطف البيضاء ، وقـد اصفرت اناملهم من تأثير الاحماض ، وضعف بصرهم من كثرة القراءة والبحث ، ويهملون حياتهم الاسرية عادة او ينسون الحيـاة الاجتماعية . ان هؤلاء فى الواقع لا يتصفون بهذه الاوصاف الا فى خيال بعض مخرجى الافلام او المسرحيات ، والعلم ليس كذلك ، بل هو طريق وقوة ذاتية، لها معناها واسلوبها وآثارها الخاصة ، والثقافة الحديثة تكمن فى غمرة الآلات والصمامات والاسلاك والعدسات، وبين القوانين الرياضية والرسوم البيانية ، والاجهزة الزجاجية ، وبين حيوانات التجارب ومع فسائل سلالات نباتات وميكروبات ، الى غير ذلك مما يتناوله العلم والتكنيك فى العصر الحديث .

اننا نحصل على الثقافة من هذه المجموعات المتشابكة من المعارف ونحولها الى لغة سهلة الاستيعاب . وقد تأثرت لغة العصر بالعلوم الحديثة ونقرأ عناوين الصحف وبها مصطلحات لم تعرف من قبل في لغتنا اليومية مثل « كسر حاجز الصوت» او «اشعة الليزر» او «الطائرة الالكترونية » او « الحياة على المريخ » . ويجب ان يعرف المشتغل بالعلوم شيئا عن تاريخ العلم ليزوده بدعامة يبني عليها لبنات التطور والتنمية العلمية . وقد يترك هذه العناوين فتدفعك الى انماء معلوماتك في نوع معين من العلوم . ويقيم التاريخ العلمي جسدا يستطيع محب العلم الوقوف عليه ليرقب العالم وليدرك معنى الحياة العلمية .

ويشعر الشخص العادي بوحدة العلم والادب ، ويجمع ثقافته العامة من العلوم ومن الآداب . وتختلف وظيفة الفكر عن وظيفة الشعور ، ولكن تكمل احداهما الاخرى ، كذلك الادب يكمل العلم . والبشر لا ينقسمون الى مفكرين وشعراء مثلا . وُصِمَ العلم فيما مضى بالبعد عن الروحانية وقاومه رجال الدين، واعتبر في القرن التاسع عشر عيبا ، فترفع عن تحصيله اهل الادب كي يحتلوا مكانة رفيعة في المجتمع . واشتد الصراع بين العلم والادب في عقول الشباب في القرن الماضي . ولكن العقول الناضجة تسطيع استيعاب العلم او الادب على السواء . فالعوامل التي يتميز بها الشخص اللامع عن الخابي هي نفس عوامل الذكاء في المهتم بالعلوم الانسانية او المهتم بالعلوم الطبيعية . وعندما يمارس الناس اعمالهم ينقسمون الى اهل علم واهل ادب . ويظن البعض انهم لا يطيقون فهم الموضوعات الرياضية او الميكانيكية او لا يدركون معاني الاشياء العددية ، والواقع ان كل عاقل يستطيع استيعاب هذه الامور اذا امعن الفكر ودرب العقل ، مثلما يستطيع استيعاب الموضوعات الادبية او الانسانية . وقد تجد الفرد مهتما بالعلوم الرياضية ثم يصادفه نوع من التعليم او مدرس معين يقتل فيه هذا الاهتمام .

وكذلك قد يكون مهتما بالآداب ثم يقابله تعليم من نوع اخر فيقضي على هذا الاهتمام . ان المسرحيات الخالدة لكبار الشعراء امثال شكسبير وجوته لا تزال تؤثر في العلماء وتبعدهم ولو مؤقتا عن التفكير في العلم . وليس العلم حاسة خاصة او فكرا معينا بل هو معنى واسع . اما « العقل المتخصص » فاصطلاح جديد مثل كلمة علمي (Scientist) التي اخترعها الانسان حديثا .

وقد لا يقنع العلماء بما يعرفون، بل يعتبرون انفسهم افذاذا قادرين على الاتيان بالعجيب من المعرفة او الاختراع ، مثل كشف الالكترون والرادار واشعة الليزر واختراع اجهزة القياس الراديوي المستخدمة في علم الفلك الحديث ، او اجهزة العلاج باشعة جاما التي تنبعث من الراديوم ، فالعلماء يغيرون احوال الناس واساليب حياتهم كما تتغير احوال الناس بتأثير الادب او السياسة او الرياضة . ان العلم والادب يقومان بتنظيف طريق الحياة من ادران الماضي ويفسحونه للسير في موكب التقدم في حياتنا العصرية الفياضة بالقيم الجديدة ، ولكن الناس يتوجسون من كل جديد ولا يؤمنون به الا بعد الاقتناع والممارسة .

ويستطيع محب قراءة الادب ان يستمتع بقراءة العلم ايضا ولكنه قد يجد فيها بعض الصعوبة لعدم استيعابه لغة العلم ، وما بها من ارقام ومعادلات ورسوم قد لا يفهمها ، او قد لا يحاول فهمها، ظنا منه انها غير ميسورة الفهم .

وهذا يجعلني اعود بذاكرتي الى ايام الصبا عندما كنت واترابي نتردد على مكتبة البلدية باحدى مدن الاقاليم ، فكنت اقرأ بغير هدف في كتب تتعلق بمقررات الدراسة اولا في الجغرافيا وفي التاريخ ، ولكني وجدت نفسي لا اعرف الا القليل من هذين العلمين ، وكان مدرس الجغرافيا بالصف الرابع الابتدائي يشرح درسا عن الهند ، فدفعني الفضول الى

استعارة كتاب عن حياة الهنود ، كما جمعت بعض الصور عن الهندوعن اشياء اخرى لا تتعلق بالمنهج الدراسى . ولما كنت بالمدرسة الثانوية استهوتنى الاعيب كان يقوم بها احد التلاميذ الاكبر سنا، مستخدما بعض الاحماض والقلويات وبعض التفاعلات فولعت بالتقليد ، وفكرت فى اصل هذه المواد ، وقرأت عـن الفيلسوف الذى فكر لاول مرة فى بنية المـادة ووضع فكرة الذرة ، كما استهوتنى موضوعات اخرى تتعلق بالعلم كالتصوير الشمسى وصناعة الصابون المنزلى ، ثم تحول اهتمامى الـى موضوعات . بعيدة البعد كله عـن المقررات المدرسية .

قرات عن جاليليو وعن نيوتن وبيكن، وكانت لى جماعة من الاصدقاء المحبين للاطلاع ، وكثر اتصالنا وتبادلنا الافكار . وامتزجت مشاربنا وتفاعلت افكارنا وتركزت في بعض الافكـار الجديدة . وكان منا من يعتقد ان العلم لا يفيد الناس اذا كان لا يعود عليهم بالنفع المباشر . وكان منا من يؤمن بان العلم والادب معا يكونان اساس الحضارة والثقافة ، وانهما فى الواقع مقترنان ـــ ولعله قرأ هذا الرأى فى كتاب ـــ وكان ثالث يرى اننا نهذى عندما نتحدث بفائدة الادب ، ويقول ان الجائع لا يهتم بالفن او بالادب ، ولا بالنظريات العلمية التـى يشبع بها جوعه ، ان العالم يسأل ويطلب اجابـة شافية على اسئلته . كان احد زملائى الاكبـر منى سنا كثير التساؤل . وكان يسألنا عن اهداف العلم اذا لم تكن ابداع اشياء تنفعنا . واجابه احدنا بقوله ان العلم يميط اللثام عن حقائق جديدة ، ويظهر الارتباطات بين مختلف الظواهر . وعلى الرغم من وضوح كلامه اردت ان يسوق لنا مثلا او امثلة لما يقول . وبـدأ يستشهد بكشف تكوين الماء مـــن عنصرى الاكسيجين والهيدروجين ، وكشف الهـواء ومعرفة انه يتكون من خليط غازى خمســه اكسيجين واربعة اخماسه نتروجين تقريبا ، ثم كشف عالم فى الكيمياء خواص النتروجين ، كما كشف خواص الاكسيجين، وعرفت أكاسيد النتروجين واخترعت الطرق الصناعية لتخليق النشادر ، وصناعة الاسمدة الكيماوية ، مثل نترات النشادر ، كما صنع حامض النتريك وانواع من المفرقعات كالديناميت الذى يستخدم فى نسف الصخور وفتح الانفاق . هذه صور من كشوف ادت الى ظهور مواد جديدة نافعة ، فأساس العلم كشف حقائق جديدة وتوطيدها فى المجتمع . ورجل العلم القادر هو الذى تمكنه رؤية الآفاق البعيدة فى مجـال بحثـه ويعرف الارتباطات والعلاقات بين الظواهر .

وتشيّد البحوث العلمية طبقات عليا مـن صرح العلم، فيزداد سموا . وتمكننا الحقائق الجديدة من كشف علاقات عامة وارتباطـات متعددة بين الظواهر فتكشف القوانين الطبيعية العامة . واستطيع ان اورد مثلا من الكيمياء فقد ذكرت احدى دوائر المعارف فى القـرن الماضى ان اليورانيوم معدن قليل الفائدة ثقيل الوزن ، ولم تزد كثيرا عن ذلك ولكنى تبينت بعد ذلك خواصه واكاسيده ومركباته ، ثـم كشف الالكترون ، وعرفت بنية المادة واميط اللثام عن مكنونات نواة الذرة . واصبحت كيمياء وفيزياء اليورانيوم مـن أهم دعامات العلوم النووية والطاقة النووية . ان الفيزياء قد جمعت معلومات وافرة في علم الكهرباء عن التوصيل الكهربائى للمواد . وكشف احـد العلماء امكان تقسيم المواد من حيث توصيلها الكهربائى الى طائفتين : مواد تزداد توصيلياتها الكهربية كلما ارتفعت درجة الحرارة ، وطائفة اخرى تنقص توصيلياتها الكهربية بارتفاع درجة الحرارة . وبدراسة طبيعة هذه المواد تبيـن اختلاف كبير فى نمط البناء الوضعى للالكترونات فى ذرات كل من الطائفتين ، فالمعلومات تتراكم، كما تتراكم القوانين الطبيعية العامة حتى تصير اساسا لمفاهيم اوسع تربط الخواص الكهربية ببناء الذرة .

ويمكننا ان نجد مثلا آخر من القوانين العامة التى تحكم المجتمع الانسانى ، او قوانين تطور الحيوانات فى العالم ، ان هذه القوانين لا تكشف

الا ببذل الجهد واجراء البحوث ، اذكر اننا كنا نتجاذب اطراف الحديث ، وكان من بيننا الطالب والمهندس والطبيب والفلاح والعامل بأحد مصانع الحديد والصلب ، وكان اليوم عيدا ، وتطرق الحديث الى العلم والادب والزراعة والطب . وسأل احدنا عن امكان تحسين مواصفات الصلب وتخليصه من شوائب معينة . وسأل اخر اهذا النوع من العمل يدخل فى نطاق العلم ام الفن ؟ فرد عليه المهندس انه ينطوى على كشف حقائق علمية، وان تحسين جودة انتاج الصلب تدخل فى نطاق خاص من العلم هو العلم التطبيقى . اننا قد وسعنا مفهوم العلم وفرقنا بين نوعين من المشتغلين بالعلوم : عالم او مشتغل بالعلوم . فاذا وصفنا الشخص بانه عالم او بانه مشتغل بالعلوم فان هذا لا يعنى أكثر من ان لديه كمية من العلم يستخدمها فى البحث العلمى او الكشف عن المجهول . وتنقسم الانشطة العلمية الى ثلاثة اقسام : (١) **العلوم التطبيقية** (٢) **العلوم الانسانية** (٣) **العلوم الطبيعية** .

ويهدف اى بحث فى العلوم التطبيقية الى غاية عملية . فابتداع طريقة جديدة للتصنيع او مواد جديدة او وسائل اكثر سرعة فى تصنيع المنتجات او اوفر راحة او اسهل فى النقل او فريدة لخصوبة التربة او تخلق ادوية جديدة، كل هذه امثلة من اعمال علمية تطبيقية . ومن ثم فالفيزياء الهندسية والهندسة الميكانيكية والكيمياء الصناعية والزراعة والطب كلها علوم تطبيقية .

اما اتجاهات البحوث فى العلوم الطبيعية فواضحة ، وتقودها متطلباتنا او متطلبات الطبيعة . فاننا نجد ان الاحتياطى من الطاقة اخذ فى التناقص ويهددنا بالنفاذ، وهذا مايدفع الناس الى التطلع لايجاد موارد جديدة للطاقة. وفعلا تظهر الآن بوادر الطاقة النووية . وكذلك نظرا لتزايد سكان العالم ، تزايد احتياجنا للصوف وأصبح لايكفى متطلباتنا ، فعمل العلماء بجد واستنبطوا بدائل الصوف. وظهرت الالياف الصناعية الجيدة والرخيصة، فاحتلت بالتدريج مكانا مرموقا فى الاقتصاد العالمى بدل الصوف الطبيعى وغيره من الألياف الطبيعية ، كالقطن والكتان والحرير أيضا . فالانسان يعيش فى دنيا الموارد ويبذل قصارى جهده ليستبدل المواد الطبيعية بأخرى تخليقية ، ويطوعها وفق ارادته وحاجاته . ان العلوم الطبيعية تستطيع كشف المعلومات اللازمة لايجاد الحلول لمشاكل الانسان . واذا تساءلنا عن كيفية سلوك الاشياء مسلكا معينا ، كذلك اذا سألنا عن النظام الوضعى للاحداث فى عالم الاشياء والترابط بينها وعن ترتيب الكون المحيط بنا فان العلوم الطبيعية لديها الاجابة على هذه الاسئلة وهدفها النهائى معرفة أسرار الطبيعة وفهمها .

وليس تقسيم العلوم الى طبيعية وتطبيقية تقسيما جامدا ، فالفيزيائيون الذين يدرسون قوانين انتشار الجسيمات، والكيميائيون الذين يدرسون تحطيم الروابط الكيميائية بين الذرات وعلماء الاحياء الذين يستخدمون الميكرسكوب الالكتروني لمعرفة دقائق مكونات الخلية الحية للاوليات كلهم يجدّون فى ميدان كبير واحد هو العلم . أما الفيزيائى الذى يضع التصميم لمفاعل نووى، والكيميائى الذى يحسّن خصائص انواع اللدائن ، وعالم الوراثة الذى يعمل لتحسين سلالة من الأبقار وافرة الادرار للحليب ، فهؤلاء ينتمون الى قسم آخر من العلماء هم العلماء التطبيقيون. ومع ذلك فمن سمات العصر الحديث اذابة الفواصل المفتعلة بين أبواب العلوم التطبيقية ، واصبحت التفاعلات الكيميائية والعمليات الحيوية والظواهر غير الحية كلها تدرس بنفس الطرق ، وتبدأ من نفس الأوليات النظرية العامة .

بين العلم البحث والتطبيقى

واعود الى عهد الصبا عندما كنت اشعر برغبة في دراسة العلوم ، ولكنى لم احدد الفرع الدقيق الذى افضل التخصص فيه . وبدات افكر فى نوعين من الدوافع . بدات بالسلبية

التي تقصيني عن فروع معينة من المعرفة . وكانت فكرة التخصص فى التكنولوجيا قـد انهارت امامى منذ البداية ، فلم تكن بلادى قد بلغت مركزا ملحوظا فى العلوم التكنولوجية ، فكان لزاما على من يود دراستها السفر الـى اوروبا . وكنت اشعر بميل الى البحث الجاد عن المعرفـة ، واسـتخدم التحليـل المنطقى للمشاكل التى تصادفني . واستهوتنى دراسة العلوم وانا بالمدرسة الثانوية متأثرا باستاذ معين ، وتخصصت فى الكيمياء ، وتحولت الى التطبيق العلمى عندما التحقت بهيئة التدريب بكلية الهندسة، فاتجهت فى بحوثى الى استنباط طرق جديدة وسهلة لتحليل المعادن ومخاليط الاملاح والسبائك، ولما اتيحت لى فرص السفر الى الخارج التقيت بكثيرين من علماء الغرب . وانى لا ازال اذكر احد العلماء الفرنسيين ممن اشتهروا بالتنظيم العلمى ، وكان احد تلاميذه يبحث أشباه الموصلات الكهربية فتوصل الى كشف ادى الـى وضع خطـة لاجراء تجارب تلزمها اجهزة غالية . وكان الاستاذ يشكو من اقتناع المسئولين باهمية هـذا البحث فلـم يوافقوا على تزويده بالمال اللازم . واذكر ايضا من تاريخ العلوم ان أحد الباحثين اراد قبيل الحرب العالمية الثانية أن يجرى بحثا على نواة الذرة . وكان البحث يستلزم استخدام أجهزة ومعدات غالية فلم يحظ بموافقة المسئولين على تمويله. وقالوا أن النتائج قد لاتساوى المبالغ الباهظة المطلوبة . ونعلم الآن ما يجرى فى الدول المتقدمة المسماة ((**النادى النووى**)) من بحوث فى الذرة والطاقة النووية من أجل السلام ، ومن اجل التسابق في احراز أسلحة نووية حديثة .

ان العلـم البحت يخـدم ايضا الصناعة والتكنولوجيا كمـا يخـدم الدفاع الوطني . والبحوث البحتة تقودنا الى البحوث التطبيقية. ان الفرن اللافح الذى ينتج الحديد الزهـر بمعدل نصف مليون طن فى العام ، يتكلف نفس التكاليف مثل معجل سرعة الجسيمات النووية المسمى ((**سيكلوترون**)) **والذى يبلغ نفس حجم** الفرن العالى ، ومع ذلك فلا يتجاوز انتاجه الا القليل جدا من الذرات المنشطرة (جزء من مائة الف مـن المليجرام) فى السنوات الأولى مـن بحوث الطاقة النووية .

وكان استعمال الكهرباء فى الماضى قاصرا على المصباح المتوهج ، الذى اخترعه أديسون ، والتلغـراف والجـرس والتليفون والقنبلـة الزمنية ، اما اليوم فقد امتدت أيدى العلوم التطبيقية الى الكهرباء ، وفتحت آفاقا جديدة فى هذا العلم .

ان السير مع تاريخ العلوم واخبار العلماء ليبين روائع التراث فى التطور الحضارى . ويكفي ان اذكر أسماء علماء مثل **كوبرنيكوس وكبلر وجاليلو ونيوتن** ثم **هرشل واينشتاين** وهم مـن أعاظم رواد اسـرار الكون . نقـد **كوبرنيكوس** نظرية العالـم الاغريقى **بطليموس** عن الأرض التي ظن أنها مركز العالم . بعد أن ثبتت فى الاذهان منذ عشرات القرون ، وطلع على العالم بنظريته الجديدة التي تشير الى أن الشمس هى التى فى مركز المجموعة الشمسية، والأرض احد الكواكب التى تدور حول هذا المركـز . وجاء ((**كبلر**)) فحدد شـكل افلاك الكواكب . ورصد جاليليو الكواكب بالتلسكوب ووضع المبادىء الاولى للبحث العلمى . وجاء **اسحاق نيوتن** فأذهلنا بقوانين الحركة التى كشفها . ووضع قانون الجاذبية العامة . اما هرشل فبين ان المجموعة الشمسية جزء من مجرة هائلة بها ملايين الشموس . ووضع اينشتاين النظرية النسبية . كان هؤلاء رواد العلم وطلائع الفكر الحديث من القرن الخامس عشر الـى العشرين . وعاش في نفس الزمن علماء آخرون اهتموا بفروع اخرى من العلم ، فمثلا تجد في الكيمياء **تريفيان وباراسيلسوس** وقد عاشا في القرن الخامس عشر، وتبعهم **يشتر** الذى عاش في القرن السابع عشر ، وكانـوا رواد الكيميـاء القديمة في اوروبا التى تبحث فـي صناعـة الذهب واكسير الحياة الدواء الشافى لجميع الامراض . وكان القس الانجليزى **بريستلى** كاشف الاكسيجين اول رواد الكيمياء الحديثة

وعاصره **لفوازييه** الفرنسى كاشف نظرية الاحتراق وهادم نظرية الفلوجستون . وجاء كثيرون من بعدهم من علماء الكيمياء وعلى راس قائمتهم **جون دالتن** صاحب النظرية الذرية ثم الفيلسوف السويدى **برزيليوس** واضع الرموز الكيميائية الحديثة في شكل حروف الهجاء بدلا من الرموز القديمة التى كانت في شكل رسوم غير مفهومة . قضى برزيليوس على استخدام الرموز القديمة مثلما قضى لفوازييه على نظرية الاحتراق القديمة « الفلوجستون) . وظهر في القرن التاسع عشر **افوجادرو** صاحب الفرض المشهور باسمه في دراسة الغازات ومبتكر المصطلح « جزيئات » ، ثم اعقبه « **فوهلر** » ، اول من حضر مركبا عضويا من مادة غير حية ، وجاء من بعدهم العالم الكيميائى الروسى **مندليف** الملقب ب « نبى الكيمياء » لانه وضع النظام الدورى لترتيب العناصر وواضع جدول مندليف . وفسر « **ارهينيوس** » مسلك المحاليل الموصلة للتيار الكهربائي بالنظرية التى وضعها المسماة « النظرية الايونية » . ويختتم القرن الماضى الانتصارات العلمية الكبرى ببزوغ فجر العلوم النووية ، وكشف البولونيوم ثم الراديوم والنشاط الاشعاعى ، بفضل المدرسة الفرنسية في السوربون على ايدى « **بيير كورى ومدام كورى** ثم **هنرى بيكول** ثم كشف الالكترون في انجلترا على ايدى مدرسة طومسون **ورذرفورد** ، ثم **موصلي ولنجميور** ، وكلهم من بناة العلوم النووية . ويظهر من بعدهم فى القرن العشرين علماء كثيرون اسهموا في كشف اسرار نواة الذرة ، والانشطار النووى ، ومن بينهم «**لورانس**» صاحب المدفعية النووية الجديدة ، التى تحاصر نواة الذرة وتدك حصنها المنيع ، ثم **اينشتاين وماكس بلانك** اصحاب النظريات الجديدة فى النسبية والكم .

والمعتاد ان تظهر اهمية النظريات الجديدة والكشوف الجديدة بعد سنين عندما تنتقل من دور الكشف الى دور التطبيق . فنجد مثلا العالم الانجليزى **ميشل فراداى** واضع قانون التأثير الكهرومغناطيسى سنة ١٨٣١ ، ووضع ايضا قوانين التحليل الكهربائي ، ولكن لم تظهر اهمية هذه الانتصارات العلمية الا بعد ما اخترعت الآلات الكهربية ، واستخدمت بعد عشرات السنين من كشف فراداى لقوانينه . وكذلك كشفت الاشعة السينية واثبت « **هان وشتراسمان** » امكانية اقتحام نواة الذرة لما لاحظا ان النيوترونات البطيئة تشطر نوايات ذرات الهليوم ، وظلت هذه الافكار خامدة حتى تحقق التفجير النووى ، بعد سنوات عديدة ، فى ايطاليا بمعرفة « **انريكو فرمى وليزامايننر**» .

كانت هذه البحوث الثمار الطيبة لجهود العلماء الذين عرفوا طريقهم وهدفهم ، وكانت الحقائق التي كشفوها كامنة بين طيات غموض الطبيعة حتى نضجت المعرفة ، وتراكمت في مجالات العلوم البحتة اولا ، ثم وجدت هذه الاشياء التي ظلت مجهولة عيونا بصيرة وعقولا واعية لماحة ، فتمكنت من ادراك هذه الحقائق والتقاطها من وسط الجهالة العميق ، ونظفتها من الادران وهذبتها ثم صقلتها ، حتى تمكنت من اظهارها للعالم ووضعها فى خدمة المجتمع بالتطبيق العامى .

مع التطبيق من الحديد والصلب الى الذرة :

يدفعنا الفضول الى البحث لفهم اسرار الطبيعة، ونحن نكشف المعرفة ونختزن الخبرات ونطبقها فى التنبؤ بالاحداث المقبلة . وتتقدم العلوم في كل فروعها فى طرق متوازية ومتصلة بفروع جانبية في جبهة متماسكة قوية ، تكافح الجهل وتوسع التقدم الحضارى ، وتفيض على طرق حياتنا بنور الهدى . والحق ان تقدم العلوم واجب من واجبات الدول ، لانها غذاء العقول ونورها ، وثروة وذخيرة ودعامة قوية تشيد الصروح الاجتماعية والاقتصادية والسياسية . وتحمى الديار ، وتعزز وتكرم الشعوب . فعلى كل دولة تخصيص الاموال للانفاق على العلم والبحث النظرى والتطبيقى .

ان رغبة كل امة في النهوض يلزمها بالاهتمام بالعلم والبحث العلمى ، وتتصل الثروات

التكنولوجية بالكشف العلمى . وعلى الرغم من بلوغ بعض مجالات التكنولوجيا مراكز عاليــة قبل العلم البحث ، ومعرفة الكيمياء الحديثة والفيزياء الحديثة بزمن طويل ، فان بناةالاهرام القدماء ، وصانعى الزجاج ، وصاهرىالمعادن، ومن شقوا عباب البحر في سفن من البردى ، ومن جابوا الفيافى دون مساهمة مـن العلـم البحث،كانوا على دراية ببعض العلوم الطبيعية فى شكل بدائي وغير مرتب . ويقول البعض ان صناعــة الزجاج وصناعة الصلب لم تعتمــدا على القوانين الطبيعية عندما كانتا فيمهديهما . ويقولون ايضا ان ((**جيمس وات**)) المختــرع الانجليزى لم يكن يعرف قوانــين الديناميكــا الحراريــة ، بــل اعتمــدت هــذه البحــوث والاختراعات الحديثة احيانا على التجربة فــي المواد الطبيعية النافعة ، دون استخدامالتحليل الكيميائي لها ، او دراسة قوانين . وقد ساير اهل الصنعة الاحتياجات والمشاكــل التــى دفعتهم للعمل ، وعملوا على حلها دون الاهتمام بالعلوم الطبيعية النظرية . ومع ذلــك ، لمــا تدخلت العلوم في الصناعة تحققت مكاســب مادية كثيرة ، وتغلغلت افكار العلميــين فــي التطبيق المستخلص من العلم ، حتى لم يبــق شيء من العلم دون استغلال . فقــد تطــور التطبيق العلمي في السنوات الاخيرة بمعدلات كبيرة .

ولم يسر تقدم صناعة الحديــد والصلــب بهذه المعدلات المذهلة الا منذ السنوات الاولى من الخمسينيات من القرن التاسع عشر،بعدما احتاج الانسان الى صلب قاس ، فابتكر عملية انتاج الصلب القاسى ، واستمرت محاولات الاخصائيــين مــن المهندســين والكيمائيــين والفيزيائيين لا نقاص وزن الصلب وانقاصوزن الانشاءات والاقلال من نسب الشوائب الضارة والمدمرة لخواص الصلب الجيد . اننا بالصلب الجيد الذى يطابق مواصفات معينة نستطيع انقاص عشرة او عشرين فى المائة من اجــراء الآلة من حيث الحجم . وقد ابتكــر العلمــاء النظريون افكارا جديدة عن صلابة الاشابات (السبائك) ودرسوا تاثير الشوائب وتغيرهــا للاشكال البلورية واضعافها الروابــط بــين الذرات . فهذه الشوائب وجد انها تنتشر في بلورة الاشابة عندما يتعرض للاجهادات ، وان البلورة تفقد خواصها عندما تتكاثر فيها المواقع المشوهة بها وعند تعرضها لقوى صغيرة . ان العلم والتكنولوجيا قدتعاونا في نشر مصورات بيانية لانتشار اماكن العيوب في البلورات . وقد ابتكرت الطرق لتحديد اماكن العيــوب ومشاهده انتشارها فى البلورة المفردة . تابع علماء الفيزياء وعلماء الفلزات هذه البحــوث لايجاد حل مشكلة زيادة الصلابة للصلــب . والمعروف ان الكميات الصغيرة من الكربون في الحديد الطرى تحولهالى صلبشديد الصلادة . كما وجد ان ذرات الكربون صغيرة الحجمتمنع ما يسمى **التشويه الموضعى** في بلورة الصلب . وان هذه خاصيه لا تنفرد بها سبائك الصلب الكربونى ، بل تشملايضا عناصر اخرى توجد في الصلب . فيمكن استبدال الكربون بها فى صناعة الصلب .

انتشرت هذه الافكار العلمية والتجــارب العلمية وانتقلت من المعامل الى بيــوت علــم الفلزات (الميتالورجى) والى مصانع الحديد والصلب على مدى حقبة واحدة من الزمن . ان الفكرة العلمية تنتقل الى التطبيق العملى فى مــدة تتراوح بين سنة وعشرات الســنين حسب الظروف .

ومن الدوافع القوية للبحث العلمى البحث ، وحدة الحريــة والحاجــة الموجهة . وهــذا يتضح فى قصة الطاقة النووية التي بدأت ببحث علمي نظري منــذ عهــد الاغــريق لما ذكــر **ديموقريطس** ان المادة تتكون من دقائق صغيرة لاتقبل التجزئة سماها ذرات Atoms . فهو واضع اللبنة الاولى للنظرية الذرية ، ثم تبعه علماء كثيرون الى أن جاء **دالتون** ثم **رذرفورد** . وضع الاول النظرية الذرية الحديثة ، وكشف الثاني الالكترون ، ثم عرفت أســرار النواة ومكوناتها ، فانتقل البحث العلمى الحرالــى

البحث من أجل استخدام الطاقة النووية فى اغراض حربية . وبعدما تحقق هدف الولايات المتحدة ، والنصر بعد القاء قنبلة هيروشيما الذرية ، وما تبعها على نجازاكى اتجهت بحوث الطاقة النووية الى الاغراض السلمية ايضا .

وعرف البروتون ثم النيوترون وابتكرت المدفعية الذرية . وكانت جماعة **انريكوفرمى** تبحث فى روما امكان شطر نواة الذرة ، واستخدموا فى سنة ١٩٣٥ مدفعا نوويا يطلق قذائف نووية هي نيوترونات تنبعث من الغاز المشع المسمى « **رادون** » وهو يشبه الراديوم فى كونه يشع جسيمات الفية (نواة الهليوم) موجبة الشحنة . اطلق جماعة فرمى قذائف مدفعهم النووى على مسحوق فلزخفيف هو البريليوم ــ الذى يشبه نوعا ما الالومنيوم ــ فكانت القذائف تصيب نواة البريليوم بمعدل ضعيف للغاية بلغ الواحد فى المائة الف ، وعندئذ تتحد القذيفة بالنواة وهو تفاعل نووى ينتج عنه ذرة كربون وينطلق نيوترون . كانت الجماعة تعرف حقا أن الذرة تحتوى النواة فى الوسط وأن اغلبها الساحق فراغ (٩٩٩ ٩٩٩ ٩٩٩ و ٩٩ في المائة من حجمها) وتتركز مادة الذرة فى نواتها . ومن ثم فكثافة النواة قيمة اسطورية (٢٤٠ × ١٢١٠ جراما للسنتيمتر المكعب) . وكأن نواة الذرة حصن منيع يكاد يستحيل اقتحامه . ولكن **فريمى** ورفاقه اقتحموه وشطروا النواة. وقامت بحوث عديدة فى الطاقة النووية بعد ذلك . حاول « **ادون ماكميلان** » سنة ١٩٤٠ فى بركيلى بكاليفورنيا قياس المسافة بين أجزاء الانشطار النووى لليورانيوم ، فاخذ كتيبا من ورق لف لفائف التبغ ووضع على اعلاه طبقة رقيقة من ثاني اكسيد اليورانيوم ، على الورقة الرقيقة الاولى وترك الاوراق الاخرى كما هي ، كى تكون حائلا يمنع انتشار كسرات تحطيم النواة الذى سوف يصيب ذرات اليورانيوم . ووضع الكتيب وغطاءه اليورانيومى فى هدف السيكتلوترون (معجل السرعة للجسيمات) معرضا الهدف لقذائف النيوترونات . وبعد ذلك فصل أوراق الكتيب، وقاس نشاطها الاشعاعى ورقة ورقة، ووجد ضالته المنشودة . وجد ومعه صديقة « ايلسون » ان احدى نتائج الانشطار مادة مجهولة ، وكانت بالورقة الأولى ، تختلف تماما عن كل ما توقعاه ، فقد كانت عنصرا جديدا لم يعرف اطلاقا فى الطبيعة وسمى « **نبتونيوم** » وهو عنصر ابتدع ابتداعا ، فكان أول عنصر صنعه الانسان ، ووضع بعد اليورانيوم فى جدول منديليف . ثم أنتج العنصر التالى وسمى «بلوتونيوم» الذى كشفه **سيبورج سنة ١٩٤٠** وكان معه فريق من الزملاء **ارثروال وجوزيف كيندى وماكميلان** ، عندما قذفوا هدفا من اليورانيوم بالنيوترونات فى سيكلون . وكان وزن مانتج من البلوتونيوم في هذه التجربة الأولى من الضآلة بحيث لم يتجاوز الجزئين من ملين جزء من الجرام . ولايمكن ان يرى بعين مجردة . وكانت مشكلة جديدة . فكيف يستطيعون وزنها واذابتها وخلطها ، وهى فى نقطة من سائل؟ **ان هذه المشكلة تطبيقية تولدت من الاصل العلمى البحثمن اجل تحقيق هدف هو البحث عن اسرار الطبيعة .**

وشحذ العلماء القرائح بحثا عن امكانتخليق عناصر اخرى أثقل من البلوتونيوم يصنعها الانسان بواسطة هذه التفاعلات النووية المستحدثة، فابتكر **بريس كننجهام ولويز فونر** طرق دراسة كيمياء البلوتونيوم، فصنعا اجهزة وادوات لمعالجة ومناولة الكميات الضئيلة جدا من المواد ، التى يقل وزنها عن واحد من مائة مليون من الجرام . وصنعا انابيب شعرية ، تقيس حجوما صغيرة جدا من السوائل ، تبلغ جزءا من مائة الف جزء من اللتر . وادت هذه الكشوف والمبتكرات الى ظهور **علم الكيمياء الدقيقة** Microchemistry وقد استفيد منها فى علوم اخرى مثل الكيمياء الحيوية والكيمياء التحليلية الدقيقة وبحوث الهرمونات وبحوث الوراثة ،ومعرفة خواص المبيدات الحشرية وتأثيرها فى الخلية الحية ، وارتباط هذه التفاعلات بمرض السرطان .

وقد ادى هذا التطور العلمي الواسع المدى الـى اختراع الميزان فوق الدقيق للكميـات الضئيلة من مركبات البلوتونيوم ، مثل الميزان فوق الدقيق الـذى ابتكره الاستاذ المصرى المرحوم الدكتور حامد البدرى وصنعه فـى ايرلنده ، ثم فى الولايات المتحدة وهو الميزان المسمى فوق دقيق(Ultramicro — balance) الذى يـزن مركبات البلوتونيوم بدقـة بلغت ١×١٠-٨ من الجرام . ونشر بحثه وطريقة صنع ميزانه فى المجلات المتخصصة .

لما كانت غرب اوروبا ترزح تحت سيطرة الفاشية فى سنة ١٩٤٢ ، والحرب العالمية قد بلغت الذروة ، والنازية تستعد لغزو انجلترا، وكانت غواصات اليابان تهاجم سفن الولايات المتحدة بالمحيط الهادى ، كان اليوانيوم يجلب من تشيكوسلوفاكيا الى المانيا النازية فى سرية تامة . وكان الماء الثقيل ينتج بأقصى طاقة . وكان في الولايات المتحدة فريق من علماء الفيزياء يقومون بتصميم قنبلة نووية . وقد انقضى على عملهم عامان كاملان . وكانت السرية تشمل بحوث البلوتونيوم ايضـا . واقيم مصنع فى هانفورد بواشنطن لفصل البلوتونيوم على اساس النتاجى كبير اعتمادا على البحوث الاصيلة التى اجريت على المستوى فوق الدقيق Ultramicro بطرق الكيمياء فوق الدقيقة . كان هــذا البلوتونيوم اساس انتاج القنابل النووية . وكانت هذه التجربة التى مرت بها البشرية مثلا من امثلة الارتباط بين العلم والتطبيق . وهو سلاح ذو حدين ، فاما ان يسعد البشرية او يقودها الى الدمار .

ولعلنا نفكر فى نتائج كارثة هيروشيما، ونحد مـن استخدام الاسلحـة النووية او نمنـع استعمالها ، ونوقف استخدامها ونقصره على اغراض السلام .

•••

علاقات تنظيمية :

يتوقف من يعمل فى مجال علمي او فى البحث العلمي قليلا عن عمله المعتاد ليتأمل ولو مرة كل اسبوع فيما قام به من عمل وما سـوف يعمله فى الفترة القادمة ، وما سوف يقرره هو وزملاؤه بشأن طرق المشاهدة والتجريب وما يجب ابتكاره من اجهزة قياس . ويضع الباحث التصميم لجهازه الجديد ويبعث به الى ورشة مركز البحوث لتنفذ بناءه ، ويقتضى العمل فى البحث العلمى بعض التغيير من ان الى آخر . ورئيس المعمل هو الـذى يحدد الوقت المناسب ليتخذ قرار التغيير ويقرر نوعه . ففى الابحاث الكيميائية ، يقرر الرئيس متى يغير طرق الفحص ، من قياسات بصرية او كهربية الى قياسات راديوسبكتروسكوبية. ويحصل الباحث على نتائج قياساته ويوقعها بالرسم البيانى فى خطوط او منحنيات توضح النتائج بسهولة وسرعة ، وتشير الى اتجاه التفاعلات ، وتوحى بضرورة المراجعة احيانا للطرق المستخدمة او استخدام مواد جديدة.

والبحث **يحتاج الى اموال . وعلى مديـر المركز تدبير المال والقوة العاملة وتربية الاجيال، التى تستطيع الاشراف على الاعمال الفنيـة والادارية ، وعليه ايضا المحافظة على استتباب النظام فى خط موحد متناسق** من حيث الاقسام والافراد بالوحدة الواحدة ، **وكذلك حسن الاتصال والتعاون بين خلايا البحث ووحداته بالمركز وبالمنشآت المعنية والمتصلة بالمركز .** ويجب أن يعلم الباحثون ان الوحدات الصغرى ليست دويلات مستقلة ، بل اجزاء او اعضاء في جسم كبير هو مركز البحوث على المستوى القومى . وقد يكون عدد افراد الفريق فـى الوحدة صغيرا او قد يعمل الباحث بمفرده ، ومع ذلك يجب ان يوطد ارتباطه بشكل ما بوحدات البحوث الاخرى .

وتتمايز الوحدة عادة بنوع او تخصص فريد ودقيق . ويلتزم بالسير فى هذا التخصص

عدة سنوات بين الخمس والعشر سنين . اما اذا استمر العمل بها دون ما تمايز واضح لمدة عشر سنوات فان هذا يدل على كونها متوسطة الكفاءة وقليلة القيمة . ويمكن ان توصم بعدم استحقاق تسميتها وحدة في مركز بحوث كبير، بل يمكن ان تحول الى خدمة بعض الاغراض الجانبية او المساعدات لوحدات اخرى، وبذلك تبسط وحدة اخرى سلطانها عليها وتستغلها.

وبديهي ان **قائد الفريق يصدر قرارات بالخطة والخطوط العريضة التي يسير بمقتضاها الباحثون في دراساتهم . وهو الذي يحدد اساليبهم بالمعاونة** مع لجنة او جماعة صغيرة العدد من الباحثين القدماء بالمركز . وقد لا يدل اسم وحدة البحث دلالة واضحة على نوع البحث الذي يجرى بها ، بل يدل فقط على المجال العام له . ويجب ان تختلف وحدات البحث في خططها ومناهجها حتى ولو كانت تحمل نفس الاسم ، كما يجب ان تختلف ايضا في اساليبها وفي اتجاهاتها نحو التجارب المعملية . فقد تكرس معامل جهودها في انشاء اجهزة معقدة التركيب وابتكار طرق قياس دقيقة ، بينما تفضل معامل اخرى شراء الاجهزة ، وتبذل جهدها في تشغيل الاجهزة ، وتفسير النتائج التي تحصل عليها بواسطة هذه الاجهزة . وقد تختص معامل اخرى بمعالجة مشاكل واسعة التشعب ، فيلزمها مختلف انواع الاجهزة والمعدات ، بينما تركز معامل اخرى الجهد في بحث تفاصيل مشكلة معينة .

وهناك عوامل هامة تشكل اسلوب الخطة والمتابعة في البحث العلمي . ومن بين هذه العوامل المزاج الشخصي لقائد البحث وعقليته وانطباعاته بالنسبة للتطور العلمي العام ومدى تأثره بالتقدم في العلوم المتصلة بمجال بحوثه ، وتأثره باهتمامات الهيئات والمنشآت الصناعية في البلاد ابان الفترة الزمنية التي تجرى فيها البحوث . ويعتبر دور القائد حاسما في وضع الخطط ، اما دور الدولة فهو المراقبة والتحكم، وتوزيع مخصصات مالية على مختلف مجالات العلوم حسب ما وضع في الخطة العامة من اولويات . ولا يستطيع رئيس المعمل او رئيس مركز البحوث رسم الخطط التفصيلية كما يفعل مدير المصنع الذي يستطيع تقدير انتاجه الشهري والسنوي في الميزانية التقديرية التي يلتزم بتنفيذها . فقد يطلب من كل معمل تقديم خطته السنوية . ولكن كيف يستطيعون بيان ما سوف يحصلون عليه من نتائج ؟ ليس من الصعب ان نحدد ما يعتزم القيام به من القياسات وما نحتاجه من الاجهزة والمعدات وما نود اجراءه من تجارب ، لكن الصعب تحقيق ما عزمنا القيام به ، فالبحث قد تتراكم به اعمال نمطية مثل قياس درجة حرارة غاز او كثافة سائل او نقطة انصهار جامد . وقد يستطيع الباحث تقدير ما يحتاجه من الزمن لتصوير صورة بالاشعة السينية او لرسم طيف خطى لمادة ، او لاجراء عملية حسابية . ولكن من الصعب ان نقدر عدد الاسابيع التي قد يستغرقها العمل في بناء جهاز وفق رسم معين . **ان البحث الاصيل دائم التغيير والتطور، اما البحث الذي يعتمد على اعمال نمطية فليس بحثا . ولامعنى للبحث العلمي الا اذا كان يكشف سرا غامضا من اسرار الطبيعة** . والعمل التجريبي الناجح هو ما يستخدم فيه اقل ما يمكن من الاجهزة ويظهر اعظم ما يمكن من النتائج. والبحث الذي يبدو لنا لاول وهلة بسيطا وسهلا قد يتحول اثناء التجريب الى درجة عالية التعقيد. وبالعكس قد تبدو المشكلة صعبة ومعقدة ثم تحل بغاية البساطة والسهولة . انك تجد العلاقة بين الطاقة والضوء قد شغلت اذهان كثير من العلماء حتى حلها اينشتاين بالمعادلة البسيطة : (ط = ك × س٢) .

(الطاقة = الكتلة × مربع سرعة الضوء)

القراءة والبحوث :

يقول كثيرون انه يجب على الباحث تتبع كل ما ينشر من المؤلفات العلمية والمقالات المتعلقة بالموضوع الذي يبحثه . ولكن يخالف

بعض العلماء هذا الرأى . ويقولون ان كثرة الاطلاع امر غير حكيم وان قراءة اعمال السابقين تضيق زاوية رؤية الباحث فى مجال ما ذكر فى اعمالهم فلا يتفتق الذهن عن (شطحات) جديدة ، ولا تظهر طفرات علمية اصيلة . ويحبذ آخرون القراءة الكثيرة فى المجالات العلمية العامة المتعلقة ببحث المبتدىء . والغريب ان كثيرا من مشاهير العلماء والمخترعين لم يدرسوا دراسة نظامية فى نوع تخصصهم الدقيق ومع ذلك احرزوا انتصارات رفيعة القدر . ومن امثال هؤلاء ((**لويس باستير**)) الذى اثبت خطأ نظرية التولد الذاتى واجرى تجارب التخمر الكحولى ، وكشف التعقيم المسمى ((**البسترة**)) وحل مشكلة انتشار مرض دودة القز ، ومرض كوليرا الدواجن ، وكشف التعقيم ضد الجمرة وداء الكلب . وهو مع ذلك كيميائى لم يدرس البكتريولوجيا ولا الطب . ويقول « بسمار » مكتشف طريقة لانتاج الصلب رخيص التكلفة ما نصه ((**كانت لى ميزة كبيرة على الآخرين ممن عالجوا هذه المشكلة ــ اذ لم تتحكم فى فكرى افكار ثابتة مستمدة من خبرات معينة ومقررة منذ زمن طويل ، بل لم اتعرض لضرر تلك المعتقدات السائدة بان ليس فى الامكان ابدع مما كان**)) .

وكان **كلودبرنار** مؤسس الطب التجريبى يعتقد ان ما نعرفه هو الذى يعوقنا وليس ما نجهله . ويقول ((**بيرون**)) لأكون مبتكرا حقا يجب ان اكثر التفكير واقرأ قليلا . ولكن هذا مستحيل اذ يجب ان يقرأ الانسان قبل ان يتعلم التفكير » . اما **برنارد شو فيقول** : « القراءة تعطى العقل بيكن » « اقرأ ، لا لتعارض وتفند ، ولا لتؤمن وتسلم ، بل لتزن وتفكر » .

ليست هذه الآراء قوانين عامة ، لان القراءة من ضروريات التعليم وزيادة الحصيلة العلمية . وهى التى تعرفنا اساليب السابقين . وعلينا التأمل فى اعمالهم ونقدهـا وعدم التمسك بالنظريات والافكار القديمة . يقول « فرنسيس

وكذلك اختلفت بعض الآراء عن الاتجاه العام ، بان معرفة اللغات الاجنبية ضرورية للباحث فى العلوم . وعالم الكيمياء اعتقد ان معرفتـه الانجليزية والالمانية من اهم الضروريات . ولكن اعرف من العلماء « فيلهم او ستفالد » الالمانى الذى كان يؤمن بضرورة الاحجام عن دراسـة اللغة الاجنبية لكنه كان يقصد اللاتينية لا اللغات الحديثـة . امـا ((**هربرت سبنسر**)) الفيلسوف الانجليزى المادى فكان يعتقد ان تعلم اللغات يزيد احترامنا للمرجع ويعوق نمو ملكة الحكم المستقل . وأكد ان البحث فـى العصر الحديث يستلزم اتقان لغة اجنبية واحدة على الاقل .

واعتقد ان من الطرق الحسنة فى البحـث التدرج فى مراحل معينة مبتدئا بالقراءة فـى المراجع عن ما كتبه السابقون عن الموضوع ، ثم تتبع آراء السابقين بنظرية فاحصة ناقدة ، ويليها خطوة جمع حقائق ميدانية ــ اذا كانت الدراسة ميدانية ــ او حقائق فى الموضوعات المتعلقة بالعلوم الطبيعية . وبعد ذلك تأتـى مرحلة اجـراء التجارب الاوليـة واختبارات الفروض اختبارا عمليا ، وبعدما نحصل على معلومات نعمل على تنظيمها وترتيبها وايجـاد علاقات بينها ، ثم نربط هذه العلاقات بعضهـا ونحدد موضوع البحث . ونحاول التساؤل والاجابة الذكية بواسطة الفكر والفروض واثبات الفرض بالتجريب المخطط ، ثم اختيار اكثر الفروض رجاحة .

هل نعتمد على الصدفة فى البحث ؟

يتعرض الباحث لعوامل نفسية كثيرة فهو يلاحظ ويفكر ويفرض فروضا معينة ويحاول اثباتها بالتجربة . وهو يتصور ويستخـدم خياله المبدع فيصمم ويضع النظريات ، ثم يستنبط منها قوانين عامة . وهو يتأثر بدوافع نفسية كالفضول . وكثيرا ما يعتمد علـى

معلوماته فى علم تخصصه،وعلى التفكير والتأمل العميق وما تلعبه الصدفة فى بحثه .

ان تاريخ العلوم حافل ببحوث لعبت الصدفة فيها ادوارا هامة . وسأذكر بعض الامثلة على اثر الصدفة فى تسيير دفة بحوث هامة .

توقف باستير أياما عن البحث فى كوليرا الدواجن لما قام باجازة. ولما عاد وجد مستنبتات البكتريا التى كان يربيها قداصيبت بالعقم . وحاول انعاشـها ولو جزئيا بحسـاء ، ثم حقنها فى دواجن . ولشد ما ادهشه عدم تأثير الدواجن بالحقن بالميكروب . وكاد يهمل هذه المستنبتات المستضعفة ، ولكن برقت فكرة فى ذهنه ، نفذها على الفور . لقح الدواجن ذاتها بمستنبتات البكتريا غير المستضعفة ، فقاومت الدواجن التلقيح البكتيري الجديد . وادت هذه المصادفة الى كشف ((**التحصين بالتلقيح**)) بجراثيم بعد استضعافها .

وكان((**كريستيان جرام**))الطبيب الدانمركى، يستخدم صبغة بنفسجية يعقبها معالجة باليود ، لكى يصبغ نوى خلايا تبطن قنوات دقيقة فى الكلية وتلونها باللون البنفسجى ، اما بقية الخلية فكانت تصبغ بلون بنى . ووجد جرام أن الكحول يزيل اللون بسرعة بعد المعالجة وأن بعض أنواع من البكتريا تحتفظ بلون ازرق قاتم ، بسبب تفاعل اليود مع الصبغة بطريقة لم تكن فى حسبان احد ، لانها كانت تتفاعل مع مادة توجد فى انواع معينة من البكتريا دون الاخرى . وكان ذلك بمحض الصدفة ، فاستنبط صبغة للبكتريا وكشف ايضا اختبارا بسيطا عظيم الفائدة يعرفنا انواع البكتريا . وعلى اساس هذا الكشف صنفت البكتيريا الى بكتيريا جرامية ايجابية Gram Positive واخرى جرامية سلبية Gram Negative ولعبت الصدفة ادوارا اخرى فى كشف **رونتجن** للاشعة السينية ، وكشف **فليمنج** عقار البنسلين المضاد الحيوى .

والواجب على الباحث اليقظة والاهتمام بكل مايلاحظه . وليس الأمر مجرد حظ ، كما قد نتوهم ، فالحظ ا والصدفة ليست قوة غيبية تؤثر فى مجرى الاحداث ، بل الحظ كلمة اخترعها الانسان ليبرر فشله . والقدرة على الانتباه واليقظة وادراك الانحرافات عن المسالك الطبيعية ، والانتفاع بما شاهدناه من انحراف هى أسرار العقول الناضجة التى تستفيد من الاحداث العارضة . وقد تدهشك ملاحظات بسيطة ادت الى كشوف مشهورة ، والذكى من يظهر مغزى ما كشفه ويربطه بالمعلومات الأخرى ويستخدمه فى استخلاص معلومات جديدة . ان الصدفة نادرة الحدوث . ولا يجب أن نعتمد عليها وحدها فى البحث ، فهي لاتواتينا بصورة دائمة واضحة الدلالة ، بل علينا ان نعمل بجد ومثابرة ، والا نقصر عملنا على اجراء تجارب تقليدية نمطية وأدوات تقليدية ، بل علينا أن نبتكر الطرق الجديدة والاجهزة الجديدة المناسبة لعملنا المتطور .

حساسية الملاحظة :

وكثيرا مايحتاج الباحث الى ملاحظة الاحداث الفريدة بما أوتى من حكمة وقدرة حساسة على الملاحظة ويقظة وتنبه لكل مايحيط به من أشياء محتملة أو غير متوقعة الحدوث ، وعليه تفسير الاحداث وادراك اهميتها والاستفادة من التجارب الناجحة والفاشلة أيضا . لم يكن ((**وليم هارفى**)) أول من عرف وظيفة القلب كمضخة للدم . ولا ((**ادوارد جنار**)) اول من طَعَّمَ بلقاح جدرى البشر ليحصن الناس من مرض الجدرى . ولم يكن **دارون** أول من وضع فكرة التطور . ولا**كولومبوس** أول اوروبي رحل الى العالم الجديد . ولم يكن **باستير** أول من وضع نظرية الجرثومة للامراض ، بل كلهم مطورون لأفكار قديمة ، وقد فرضوها علينا بقوة الاقناع والايمان بصحتها فى وقت احجم الناس فيه عن قبول الفكر الجديد . ودافع هؤلاء عن نظرياتهم حتى تقبلها الناس ، لكن من سبقوهم من العلماء لم يدافعوا عن الافكار الاصيلة فطواها النسيان ، كما طواهم .

وتتمثل **الارادة الذهنية** في البحث العلمي في الفرض الــذى يضعــه الباحث ، لانه يفتح أبواب التجارب التي تقودنا الى كل جديد من مشاهدات تزيح الستار عن المجهول ، وتوضح الحقائق المستورة . **ويجب علينا عدم الافراط بالتعلق باهداف الفرض رغم ما يناقضه مــن مشاهدات ، والا نحاول تفسير المشــاهدات تفسيرا غير مقنع حتى تتمشى مع الفرض .** ويجب علينا الا نحكم على النتائج احكاما غير موضوعية ، بل أن نعدل الفرض ليتلاءم مــع المشاهدات ، ثم نرسم خطة تجارب جديدة لمحاولــة اثبات الفرض الجديد أو المعدل أو المتطور . ويجب علينا التزام الحياد في البحث والابتعاد عن أى تعصب فكرى أو تمسك بافكار ونظريات القدماء مهما بلغ شأنهم ورسوخهم في العلــم .

ويتعرض الباحث لخطر الالتزام بحمايــة فرضه من النقد والهجوم ، لأن ذلك يؤثر فيه تأثيرا عاطفيا يوقعه في أخطاء في التفسير والحكم دون وعى . وكذلك قــد يعرضه لأخطــاء في المشاهدة . ويجب عدم التقيد بالفرض الخاطىء او الباطل ، والا نفسر المشاهدات بالتلفيق أو التصحيح ، كى يطابق التفســير تلك الفكرة الخاطئة أو الزائفــة . فهــذه الافكار عرقلت مسيرة العلم مئات السنين ، مثل فكرة احتواء كل المعادن على عنصر الزئبق ، ومثل نظرية العناصر الاربعة ونظرية الفلوجستون ، واكسير الحياة وحجر الفلاسفة .

التفكير العلمي :

اننا عندما نفكر تفكيرا واعيا ندرك اولا وجود صعوبة او مشكلة فتشعر بالقلق النفسى الذى يدفعنا الــى محاولة حلهــا . وهكذا ينشــط العقل ، ويمحص فكرة تنبثق في الذهن لحلها . وقد يقبل العقل هــذه الفكرة او يرفضها . ويعاود الكرة بافتراض او اقتراح فكرة جديد وهكذا حتى يتوصل الى حل سليم للمشكلة .

وقد يكون التفكير واعيا ومنظما او حــرا طليقا في مختلف الاتجاهات بغير ضابط . وقد يكون التفكير المنظم فعالا أو عديم الفعالية . فالمرء الذى يفكر ولا ينقد فكرته عندما تطرا على ذهنه نقدا كافيا لا فعالية لفكره . وقد يتسرع في النقد والحكم ويتعرض للخطــأ . وينتاب المفكر اثناء نقد فكرته بعض الشك ، ولذلــك يجب أن يمعن التأمل والتفكير حتى يستطيع استخلاص النتيجة .

وقد يتعجل المفكر الحكم بعدما يفقد الصبر . والقلق النفسى هو الذى ينتابنا ونحن نشعر بالشك في الحكم . ومع ذلك فهذا الشك هو الذى يدفعنا الــى التمحيص والاستقصاء . فكلما أمعنا الفكر ازداد احتمال وضوح علاقات جديدة ، تربط نواحي متعددة في موضوعات البحث فتظهر الافكار المبتكرة ، وبخاصة اذا كانت حصيلتنا وخبراتنــا وافرة ، وذكرياتنا متنوعة .

ان التفكير الواعى الموجه هام في البحث العلمي . وهذا ماينادى به الفيلسوف الامريكى **((جون ديوى))** . ولكن مــن الفلاسفة أمثال هاردنج (صاحبة كتاب قانون الفكر الخلاق) (سنة ١٨٩٨ ــ ١٩٦١) أن كــل المفكرين الخلاقين حالمون . وقالت عن الاستغراق في الاحلام أنه يمكن الارادة من تركيز الذهن سلبيا على الموضوع بحيث يتابع تعاقب الافكار عند ظهورها ولا يوقفها الا عندما تكون غير مثمرة ، وتتفرع عادة على سجيتها حتى تتمخض عن بعض النتائج النافعة .

ولا غرو فقد ذكر العالم الالمانى **ماكس بلانك** أن الخطة الخيالية التى يحاول المرء بناء النظام عليها لاتنفك ان تنهار ، وعندئذ يتحتم عليــه تجربة غيرها . وبمثل هذا التصور والايمان بالنجاح نصل الــى مالاغنى عنه . اما العقل وحده فلا مكان له هنا .

اما «جيمس كلارك مكسويل» صاحب نظرية المجال المغناطيسى فكان من عاداته رسم صور

ذهنية لحل المشاكل . وبنفس هذه الطريقة اهتدى « كيكولى » الى بنية جزىء البنزين من من صورة ذهنية لثعابين وجد أن احدها يمسك ذيله بفمه . ومنها ابتكر الفكرة أن جزىء البنزين على شكل حلقة . فدارت صورة الثعبان فى مخيلته . ولما استيقظ من استغرافه ومضت فكرة الشكل البنائى لجزىء البنزين وميض البرق ، ولا يوجد غير الحدس الذى يساعد الشعور بوجود نظام ماوراء الظواهر . ان انتقال **نيوتن** من التفكير فى سقوط التفاحة الى الارض الى التفكير فى سقوط القمر كان فى الواقع من الاخيلة الوثابة التى قادت الى كشفه قانون الجاذبية ، وكذلك وضع **دالتن** النظرية الذرية دون تجريب ، بل بالخيال المبدع . وكان خيال السير **همفردى ديفى** غزيرا مما ادى الى كثرة كشوفه العلمية . وصاحب الخيال **فاراداى** فى اعماله الفلسفية . فالخيال يحفزنا للمزيد من العمل والتجديد ، ويبين لنا ما تظهره الجهود الجديدة من النتائج . فالاحداث والافكار في حد ذاتها لاحياة فيها ، ولا يبعث الروح فيها غير الخيال . ويندر ان تحل المشاكل بالخيال وحده ، وهو مصدر الهام قوى ، لكنه قد يكون خطرا على احكامنا واستنتاجاتنا اذا لم تخضعه لقيود ونظام . فهو دائما فى حاجة الى نقد وتقويم . ويجب الا نكبح جماح الخيال ، لانه ينقلنا من الواقع الى التجول فى غياهب وظلمات المجهول بفكرنا ، حتى نلمح وميضا خافتا لمعلومات غير واضحة المعالم ، فاذا ما اخرجناها الى نور الحقيقة وفحصناها فى ضوء مالدينا من خبرات نستزيد وضوحا، اذا لم تكن سوى سراب خادع . فقد يتخذ الخيال اشكالا تخيب الآمال .

ويدفعنا الفضول الى كشف العالم . ولا حد لفضول العلماء ، فهم يندفعون دوما نحو البحث عن الكيف . ويستمرون فى بحوثهم منتقلين من نصر الى نصر أعلى شأنا ، مفسحين مجال الرؤية فتتفتح اذهانهم ، ويخرجون الافكار والنظريات الجديدة .

ويحتاج الذهن الى استمرار تنبيهه كى يكون صاحبه من المفكرين او الباحثين عن المعرفة ، وقد يكون ذلك عن تبادل الرأى . وقد تمتزج الآراء والافكار والمعلومات فتظهر فكرة جديدة بين اكثر من شخص . لم يكن فى الامكان استنتاجها بفكر شخص بمفرده . ويكشف النقاش عيوب العيوب والاخطاء ، وينعش وينبه الفكر ، ويحررنا من التفكير المقيد . ويعودنا النقد المخلص البناء والثقة والاحترام بين الزملاء .

خطة البحث :

كان احد الأساتذة يستعد للقيام باجازته السنوية عندما كان يضع لمساته الاخيرة فى بحث يقوم به احد طلاب الدراسات العليا للحصول على الدكتوراة فى علم الفيزياء الجزيئية ، فاخذ يعطيه آخر تعليماته لاجراء تجارب توضح كيفية نقصان سرعة عملية جزيئية في بلورة جامد ما . وكانت هذه البلورات تأخذ فى الانحلال . وكان على الطالب ان يقيس معدل تناقص سير العملية الجزيئية وسافر الاستاذ وبقى طالب البحث بمفرده مع قياساته . ولما عاد الاستاذ اطلع على الرسم البياني للنتائج التى حصل عليها طالب البحث . وراعه أنه وجد المنحنيات البيانية تتخذ اتجاها يخالف ماكان يتوقعه ، لانها لم تشر الى نقصان معدل سير العملية ، بل الى تزايده أولا ثم تناقصه ، وكأن البلورات تعتاد العملية الجزيئية أولا ، ثم تأخذ بعد ذلك فى الانحلال . وقد ادى هذا الكشف الى وضع خطة جديدة للبحث وكشف ظاهرة جديدة اعتبرت اضافة هامة فى فيزياء الجزئيات ، وحصل طالب البحث على درجة الدكتوراه بتقدير ممتاز .

ان خطة البحث فى العلوم الاساسية لاتثبت على حال بل تتعرض دائما للتعديل والتغيير . وكلما ابتعد الباحث عن الخطة الاصلية اتت نتائجه بنظريات لها أصالتها ووزنها فى العلم . والعجيب ان تطلب الهيئات الادارية فى بعض

مراكز البحوث من رؤساء الوحدات تحريـر استمارات نمطية تمهيدا لرسم الخطة السنوية العامة للمركز، وتطلب تحديد بيانات يستحيل ان يتكهن بها رئيـس الوحدة ، مثل عـدد الصفحات المزمع طبعها ، أو عدد الساعات التي يستغرقها البحث ، أو عناوين البحوث والنتائج المنتظرة . ان هذا أمر مستحيل حتى لو كان البحث نظريا . فقد يقوم العالم بعمل نظرى وهو فى بيته او بمكتبه ، ولا شأن للخطة بترتيب وقت الباحث . وقد يتمكن المركز من تحديد عدد صفحات كتاب علمى دراسى ، وليس من الحكمة التحديد في البحوث بهذا الشكل . ان الاكاديميات العلمية تنشر تقاريرا عن الابحاث الرئيسية التى تظهر فعلا ، وتقبل نشـر مقالات لاتتجاوز صفحاتها عددا معينا وبها نتائج قد تكون استغرقت السنين مـن الجهد البدنى والعقلى . وكم من بحث متوسط القيمة لايســاوى قراءته ! وكم من رســالة ضخمة يتصفحها الاستاذ فقط ولا يقرأهـا بعناية لأنها لاتستحق القراءة ! .

وينصح محررو المجلات العلميـة بالايجاز فى كتابة المقالات فلا يكتب بها غير المهم بايجاز واضح . حتى لاتضيع المعلومات الجديـدة الهامة فى زحام الحشو الاجوف .

وتجرى البحوث فى المعاهد وفى الكليـات العملية تحت اشراف أساتذة لديهم الحرية العلمية فى اختيار الموضوع ، ولو أن الافضل ان تعطى فرصة الاختيار لطالب البحث .

والواقع أن الغرض الرئيسي مـن بحوث الطلاب بالدراسات العليا هو التدريب على اجراء البحوث واستخلاص النتائج،والتدريب على التفكير العلمى . وعلى الاستاذ القيـادة والتوجيه والمعاونة والتدريب والمساعدة فى وضع خطة عامة للمعهد او الكلية . ويتأثر المخططون بمتطلبات العصر وهـم يفكرون فى اختيار موضـوع بحث للمبتدئين . وتتأثر حرية الاختيار بمؤثرات نفسية ومادية تحث الطالب وهو على مفترق طريق حل المشاكل التى تصادفه في العلوم الطبيعية . انك تجد مثـلا اتســاعا هائـلا وتعميقـا فى بحـوث الالكترونيات وفى فيزياء الجسيمات الاولية في السنـوات الاخيرة . ونجـد ان البحـوث ليست من اجل كشف اسرار الطبيعة فحسب، بل اصبحت تهدف الى غايات محددة. فبحوث كيمياء الجزئيات العملاقة لم تكن لتبلغ الشأن العظيم الذى حظيت به ، اذا لم تهدف الـى غاية معينة هى تخليق اللدائن ، التى تستخدم كبدائل لمواد تقليدية ، مثل المعادن والاليـاف الصناعية . فقـد زاد الاهتمام باللـدائن منذ الاربعينيات من هذا القرن ، وزاد البحث فى بنية الجزيئـات العمالقة وعمليـة التكثيف الجزيئى والبلمرة . وتمكن العلماء من الاجابة على أسئلة واستفسارات هامة عن بنية اللدائن وخواصها والقونين التى تحكم تخليقها وبناءها.

ويرغب الباحث فى اشعار المجتمع بأهميته ونفعــه لغيره . وان يحس باسهامه فى حـل مشاكل البلاد واخيرا وليس آخرا المشاكل العالمية . فهذا الشعور الطيب يجعل الرؤساء فى معاهد البحث يهتمون بتمويل معاملهم بالمال الوافر ليحصلوا على كل ما يمكنهم من بلوغ هذه الاهداف النبيلة .

الانتماء للعلـم :

يتأثر الباحث بكفرة معينة تشده الى العلم وتحفزه للعمل والبحث الدقيق،ليسهم اسهاما كبيرا فى تقدم العلوم ويرفع مكانة صاحبه . ان علمـاء الفيزياء النوويـة والكيميـاء النوويـة مثلا قد علت مكانتهم لانهم مهدوا لنا طريـق البحث فى علوم اخرى عديدة خلقت علـوم البيولوجيا النووية وكشفت أسـرار العمليات الحيوية فى اجسام الحيوان والنبات .

وقلمـا يرغب الباحـث فى العلوم الطبيعية التحول عنها الى العلوم التطبيقية. فهو كالفنان أو كالشاعر اذا طالبته بأن يسلك مسلكا لايناسب

ميوله رفض بكل اباء . ولمهنة العالم الطبيعي قوة تدفعه وكأنها السحر ، تسري في جسد صاحبها فلا يجد لنفسه خلاصا منها ، بل يشعر برغبة جامحة في الكشف عن المجهول تملأ صاحبها رضاء وانشراحا .

ان حب المشرفين على البحوث العلمية قد يدفعهم الى اللجوء للتمويل عن طريق التعاقد مع دور الصناعة للعمل على حل مشاكل صناعية معينة ، ويستطيعون دعم معاملهم بالاموال التي تنفقها البيوت الصناعية راضية . ويستطيعون الى جانب البحوث الصناعية ايجاد الفرص المتاحة لاقتناء احسن المعدات والاجهزة والحصول على كل المساعدات التي تمكنهم من السير في بحوثهم بالعلوم الاساسية ايضا .

الاتصالات العلمية :

ولابد من اتصال العلماء ببعضهم لتبادل الافكار ، وهذا الاتصال يغذي البحث وينمي التفكير المنظم ويقوي النقد البناء ، وتعتبر الاجتماعات الدورية في مراكز البحوث والمعاهد وكذلك اللقاءات العلمية وما بها من حوار ومناقشات كالنسيج الضام لمختلف خلايا الجسم الحي في كيان العلم . اما الباحث المنفرد او الذي يعمل مع افراد قليلي العدد فلاتتسع افكاره ، وعليه الاتصال بآخرين من المهتمين بالعلوم . ويتأثر الباحث الذي يعمل منفردا بخط فكري واحد ، قد يستر مجال رؤيته للاشياء الهامة بستار كثيف من الجمود الفكري فيسلك دروبا تضلله ، وتبعده عن بلوغ اي نتيجة مرجوة ، أو قد توصله الى شيء سبق أن كشف وكأنه يدور في بحثه في حلقة مفرغة او يسير في طريق مسدود .

وقد يكون الاتصال العلمي بواسطة قراءة الكتب والمجلات المتخصصة ، ولو أن هذا لايغنينا عن الاتصال الشخصي ، فالمراجع لا تنشر الا المحاولات الناجحة في البحوث والكشوف الجديدة . ونستمع عادة الى متحدثين والى ضيوف من مختلف البلدان في حلقات البحث عندما يقرأون تقارير عن النتائج التي قام باستنتاجها ألزملاء . ويتوقع المتحدث نقدا ، ويسمع نصحا . فقد يغير هذا النقد او النصح اتجاهه ، فيخطو البحث خطوات واسعة وسريعة الى الامام .

وبعد ما تتاح الفرصة للباحث لتقديم اكثر من تقرير في حلقات المناقشة دون التعرض لهجوم او تهكم ، أو أن يوصف بحثه بعدم الاهمية او التفاهة ، فانه يعتز بقدرته ويملاه الرضا والاعتزاز بالنفس فيستمر في عمله العلمي بكل اطمئنان وثقة .

ونحن ، المستمعين ، ندون ملاحظات عن كل جديد مما نسمعه في هذه اللقاءات فتنعكس هذه على اهتماماتنا ، وتوحي الينا باحتمالات جديدة في التطبيق العلمي . والحق اني اشفق على الباحث المبتدىء وهو يجمع المعلومات المنشورة عن موضوع اختاره للبحث ، ويتابع كل ما نشر أولا باول ، وهذا كثير للغاية . كان علماء القرن الماضي يتابعون المنشور عن موضوعات بحوثهم بسهولة في المراجع العالمية التي كانت محدودة العدد . فكانوا يكرسون سويعات من وقتهم كل شهر للقراءة في امهات المجلات العلمية ، وفي تقارير الجمعيات المتخصصة وكان للعالم فرصة طويلة ينتظرها حتى يأتي موعد العدد الجديد من المجلة العلمية . ان تلك الايام قد ولت . والآن اتسعت مجالات البحث وتعددت المجلات العلمية . وقد أصبح عدد الباحثين أو العلميين الآن يقدر بالملايين في العالم . وسوف يزدادون الى مئات الملايين في القرن الثلاثين . وتدون جيوش العلماء نتائج اعمالهم في مجلات علمية يبلغ عددها الآن قرابة الخمسين الفا . وليست صناعة نشر العلم متمركزة ، بل تعالج المجلات المختلفة نفس الموضوعات أحيانا في مختلف الدول . وتتداخل الموضوعات في أكثر من مجلة . وقد يكون لنفس الموضوع أكثر من عنوان مناسب . فمثلا يمكن ان ينشر مقال بعنوان : « دراسات عن طيف

الاشعة تحت الحمراء لبلورات الهيموجلوبين» . ان مقالا بهذا العنوان تقبل نشره عدة مجـلات علمية منها ما يختص بفيزياء الجوامد او الفيزياء النظرية او التجريبية او علم البصريـات او الاطياف او التصويـر البلـورى او الكيميـاء العضوية او الحيوية او الفيزيـاء الحيويـة . اليس هذا كثيرا ؟ وكيف نستطيع متابعة مثـل هذا الموضوع فى مختلف المجـلات وفى مختلف بلاد العالم المتحضر .

ان الطريق الوحيـد للتغلب علـى هـذه الصعوبة هو اللجوء الـى قراءة الملخصـات فى مجلات مختصة بذلك ، فتدلنا على الموضـوع والمؤلف ومكان النشر وتاريخه . وتصدر هـذه المجلات دوريا وبها آلاف العناوين والخلاصات . وعلى الباحث ان يدون ما يتراءى له من أسماء الموضوعات والمؤلفين واماكن النشر ، اذا كانت تهمه ، كي يرجع اليها بالتفصيل عند الحاجة .

وتعقد أحيانا حلقات للمناقشة العلمية ـ كل شهر او كل ثلاثة شهور ـ فيما ينشر مـن بحوث خلال الفترة . وتساعد هذه المناقشات الباحثين فى أعمالهم وتعودهم على تقاليد المناقشة وآدابها . وتوجههم الى طريقة تلخيص اعمـال الغير ، وتدربهم على الكتابة العلمية . والمتحدث في هذه الحلقات لا يتعرض للحرج او الارتباك لانه غير مسئول عن ما يعرضه من نتائج وافكار ، فالمسئول هو صاحب البحث نفسه وهو عادة غريب عن حلقة المناقشة .

وتزداد متابعة البحوث المنشورة صعوبة من عام الى آخـر بسبب التقـدم السريع فى العلوم . ومن الصعب متابعـة كـل البحـوث بمختلف اللغات ، ومن ثم يهتم اغلب الباحثين بنشر بحوثهم الاصلية باللغة الانجليزيـة لكثرة انتشارها بين رجال العلم فى العصر الحديث .

وتقبل المجلات المتخصصة فى بلاد غير ناطقـة بالانجليزية نشر البحوث فيها بالانجليزية .

ويتطلـع العلمـاء الـى اسـتخدام آلات الكترونية لتزويدهم بالمعلومات . ويتوقعـون ان المستقبل سوف يجعلك تضغط علـى زر ، وتوجه سؤالك للجهاز الالكتروني فى ميكروفون صغير ، فيخبرك الجهاز بكل المعلومات التـى يدخرها عن موضـوع سؤالك ، ويكتب علـى آلة كاتبة كل ما تريده مـن اسـماء المقـالات والمؤلفين واسماء المجلات وارقام الصفحـات والتواريخ الى آخر هذه البيانات التى يهتم بها الباحث .

وتقوم المؤتمرات بتنسيق البحوث وتساعد على وضع خططها . وتقوم هيئات علمية بالاعداد والتنسيق لاعمال المؤتمرات ، وتحـدد مواعيد واماكن انعقادها . وتشكل لجنة للنظام لتقـرر المكان والزمان ولترسل الدعوات للمختصـين من الافـراد والحكومـات والهيئات ، وتطلب تقديم ملخصات للابحاث التي ستعرض بالمؤتمر وتقرأ البحوث العامة أمام ما يسمى بالجمعية العمومية للمؤتمر ، ثم يفضل انعقاد جلسـات فرعية متخصصة بالفروع المختلفة من العلـم . ويفضل ان يكون المؤتمر فى مكان يحب الاعضاء زيارته ، حتى يقبلوا على الحضور ، فيضمن له النجاح . ويسعد الاعضاء بلقاء زملاء لهم من مختلف دول العالـم ويناقشونهـم بقاعـات الاجتماعات وبلقاءات غير رسمية خارج الردهات او بالحديقـة المجـاورة ، او أثناء الرحـلات الخارجية ، التي يزور فيها الاعضاء بعض معالم المنطقة كالمتاحف ، والمنشآت الكبرى . ويكتفى اغلب الاعضاء بقراءة التقارير العامة ويفضلون الجلوس فى الردهات والتحدث مع الزملاء بدون جدول اعمـال وبحريـة كاملة عن موضوعات المؤتمر وعن غيرها من الاتجاهات الفكريـة

المعاصرة ، ويتبادلون الآراء والافكار والنقد . وبعد عودتهم الى اوطانهم يتراسلون ويتبادلون التهانى بالاعياد ويتبادلون الرسائل العلمية المنشورة .

الوالدان والتوجيه العلمي

نعرف كلنا علم الوارثة الذى وضع قانونه الاول **جريجورى مندل** . ونعرف كيف عالج هذا العلم انتقال الصفات الوراثية من الوالدين الى الابناء والاحفاد . ويتحدث العلماء المحدثون عن علم جديد من العلوم البيولوجية يسمى علم الوارثة الجزيئي . اى انه علم يبحث في التركيب الجزيئي لحامض النوويك ومشتقاته الكيميائية،ومن بينها الحامض النووى الدياكسى ريبوزى المسمى بالحروف الاولى من اسمه باللاتينية (د ن ا) DNA ، والحامض النووى الريبوزى المسمى بالحروف ر ن ا (RNA) فقد تعمقت بحوث كيمياء نواة الخلية الحية ؛ حتى تناولت سر شفرة الوراثة،وتتطلع العلماء الى يوم نستطيع فيه فحص الخلية الحية بالميكرسكوب الالكترونى ،وغيره من اجهزة سوف تخترع ،فنرى التفاصيل المتناهية الدقة بداخل الكروموسومات (حاملة الصفات الوراثية) فنقرا بها صفات ابناء المستقبل من بنية الجزيئات العملاقة التى بالخلية ،ونستنتج ماسوف يشب عليه ابناؤنا من صفات وميول وقدرات وراثية حتى نستطيع تحديد نوع التعليم المناسب لهم . ولكن هيهات ان يتحقق هذا الحلم البديع ، فالشخص بعدما يتم تشكيله قد يسلك مخالفا لصفاته المكتسبة وراثيا . ونحن نعلم ان التعليم والتهذيب يغيران طبائع البشر . انك تستطيع ان تدرب حيوانا على السير على رجليه الخلفيتين فقط ، او ان تدريب لاعب السرك على السير على يديه ، راسه الى اسفل ورجلاه الى اعلى، ولكن هذا السلوك يخالف طبيعة الحيوان او طبيعة لاعب السرك . ولا اعتقد ان احدهما يستمتع كثيرا بهذا المسلك الشاذ . ولكنه قد يسلك مسلكا يميل اليه من تلقاء نفسه ، فاذا اردنا تحديد افضل عمل يناسب شابا فعلينا مراقبة تصرفاته ومسلكه ، وهناك بعض الاختبارات السلوكية التى نتعرف بها على الميول الطبيعية ، ونسمع من ام من الامهات ان ابنها سوف يكون عالما لانه كثير الانكباب على الكتب . ان هذا راى سطحى ، فالقراءة لا تعنى الكثير بالنسبة لتكوين الشخصية . وقد تقول ام اخرى ان ولدها اجتماعى ، يحب الناس ، ولا يطيق الوحدة ، بل دائم الاختلاط باقرانه فقد يكون هذا المسلك نقطة بداية تنم عن ميوله الطبيعية . وقد تكون قوة الملاحظة غير واضحة في طفل ولكن تظهر فيه الصفة الهامة بوضوح اذا ترك وحده ليفكر ويتامل ، فاذا احب هذا الطفل التامل فقد يصلح لان يكون عالما . ويجب ان نتيح الفرصة له ليستمتع بالالعاب الرياضية والاشتراك في المباريات واللهو البرىء الى جانب العمل حتى يستطيع ان يكون من اهل العلوم التطبيقية ، كان يكون طيارا او مهندسا . اما الذى يظل منفردا مع كتابه ، او مع جهاز لاسلكى قديم ، او ماشابهه من اجهزة ، ويستمتع بهذه الوحدة فيجب ان يشجع على هذا الانفراد بالكتاب او بالجهاز ، حتى يتدرب على التفكير الحر ، فعالم الجيل القادم يجب ان يكون حر التفكير ، محبا لمعرفة حقائق الاشياء ، ومستقصيا للتفاصيل . ان فضول الطفل يدفعه الى التساؤل عن اشياء كثيرة ، ولكنه عندما يتدرب على التعامل والتفاعل مع البيئة تنقص تساؤلاته بالتدريج . اما اذا لاحظنا استمرار فضوله وازدياده فان هذه علامة طيبة يجب تشجيع انمائها بالاجابة على اسئلته ومنحه فرص التفكير . واذا لم يستطع الوالدان الرد عليه باجابه صحيحة فانه سيبحث عن الاجابة

الصحيحة بنفسه لدى الجيران او الاصدقاء او في كتاب ، فاذا لم يجد الكتاب المناسب ، فانه يبدأ التأمل وتصور اجابة يفترضها ، ثم يحاول التحقق من صحتها بالفحص ويطرق من ابتكاره . ان التأمل والفضول سمتان من سمات محب العلوم ، ودعامتان لمن يود ان يكون عالما .

وبعد التأكد من ان الصغير يصلح ان يكون عالما ، ياتي دور التعرف على المجال العلمي الذى يناسبه . وقد لانجد اختبارا يمكن ان يجرى لنعرف منه اى نوع او فرع من العلوم انسب له . ايصبح رياضيا او فيزيائيا او كيميائيا او مؤرخا ؟ ان اختيار مهنة التخصص تجيء عادة بمحض الصدفة . ومع ذلك ينقسم الافراد حسب ميولهم الطبيعية الى اقسام مختلفه . فاذا كان الشاب يهتم باقدار الناس والعلاقات الانسانية اوبمركز الانسان فى المجتمع او بالحياة الروحية للافراد المخالطين له فى المجتمع ، فان هذا يشير الى حسن استعداده لان يدرس العلوم الانسانية ، اما اذا كان يهتم بطرق صناعة الاشياء ، وكيفية استعمالها فان هذا يزكيه للسير فى اتجاه دراسة العلوم التطبيقية ، اما اذا كان يهتم بالطبيعة ذاتها فان ذلك يؤهله للدراسات الاكاديمية ، وان يختص في العلوم الطبيعية كالفيزياء او الكيمياء او الفلك او الجيولوجيا .

وقد يشك الوالدان في مقدرة ابنهم عندما يبدأ مهنة معينة ، لان مقدرته متوسطة ، ولكنه شديد الرغبة في دراسة العلوم . والواجب فى هذه الحالة عدم مقاومة رغبته ، بل علينا ان نبذل قصارى جهدنا لنحببه للعلم ، فسوف تظهر القدرة نفسها متأخرة قليلا حتى لو كانت متوسطة او اقل من المتوسطة . لان تكريس المرء لعمله وحبه له ، وقوة ارادته وصموده فى اتجاهه العلمى سوف تؤدى ، ولا ريب ، الى بلوغ الغاية ، والوصول الى مكانة موموقة في العلم . ان مثل هذا الشخص الذى يبدأ متوسط القدرة ، ثم يكرس الجهد ويصمد سوف ينتج ويبدع وسوف تكون متعته بالابداع العلمى اكبر مئات المرات من مساهمته الفعلية فى العلم .

ويجب ان يلاحظ الوالدان صفه اخرى فى ولدهم ، فيجب ان يكون محبا للتفكير المنطقى الواضح ، وان يكون قوى الذاكرة . وهاتان صفتان قد لاتظهران بجلاء اثناء الدراسة اذا كانت المدرسة ضعيفة .

ويكون الطريق العلمى للفتى والفتاة مامون العواقب اذا نشأ الفتى في اسرة اكاديمية وكان اصدقاؤه من اوساط تقارب وسطه ، واهواؤهم ومشاربهم متشابهة . ان العصر الحديث يتعطش الى الاستزادة من دراسة العلوم ، والى الشباب الراغب فى الدراسات العليا ، ومستقبل هؤلاء تحدده الجامعات ومراكز البحوث . والمهم في تشكيل هؤلاء قوة الاساتذة بالكلمة والمثل والعمل ، فالمحاضر الضعيف او الخالى البال من العلم قد ينفر الطالب عن العلم ، ويأتى المعلم بعد البيت في العلوم الطبيعية ومعرفة رغباتهم ومواهبهم ، ويمكن اظهارها في المقابلة الشخصية بين الطالب والاستاذ ، وكذلك باختبارات نفسية والتدقيق الشديد لمعرفة جهد المرشح ومثابرته .

●●●

ولا تخلو حياة من يكرس نفسه للعلم من الآلام والآمال والطموح . وقد يعمل باحث فى نفس الموضوع الذى تعمل انت فيه ويحصل على نتائج اكثر دقة من نتائجك وينشرها قبل

أن تقوم انت بنشر أبحاثك . وهذا يضيع قيمة عملك وجهدك . وهذا مايعانيه كثيرون ممن يتلكأون فى النشر ، اما لتشككهم فى أعمالهم أكثر مما ينبغي أو لعدم قدرتهم على صياغة نتائج أعمالهم في شكل قابل للنشر . ان هذا الضياع الذى يشعر به من فاتته فرصة النشر يصيب صاحبه بالحسرة ، لكن الصامد هو الذى يتحمل الصدمة ويثابر ويعاود البحث حتى ينجح فى كشف جديد . وعندئذ لايمكن وصف ماينالـه من السرور والانشراح والرضاء عندما يظهر بحثه الجديد بصفحات احدى المجلات العلمية واسمه تحت عنوان الموضوع ، يشير الى قدرته العلمية ، وكأنه ينادى صاحبه ، ويهتف له مشيدا بجهده الذى كرسه ، وفكرة المستنير الذى أدى الى هذه النتائج المنشورة . ومع ذلك ، قد لا يشعر به زملاؤه ، بل وقد لايقدرون جهده ، وربما لايلاحظون مانشر اطلاقا ... وتمر سنوات قليلة . ويظهر اسم صاحب هذا البحث بالمراجع العلمية . ثم تتكاثر الاشادة بنتائج البحث ، فيحس صاحبها بالاعتزاز ، لان الناس يقرأون اعماله ، ويستفيدون منها ، والانسانية تستفيد من عمله . عندئذ يحس الباحث باسهامه فى تقوية جبهة العلم وبالسعادة كل السعادة التى تغمر كل مشاعره .

● ● ●

مع تاريخ العلوم

يتحدث علم الجنين عن مبدأ استعادة جنين انسان تاريخ تطوره Recapitulation عبر ملايين السنين موضحا التطور من نطفة فعلقة ، الى أن يبلغ طور الانسان سيد الكائنات جميعا . وطبيعي أن أحاول فأقارن تطور الفكر منذ أيام الاغريق القدماء الى عصرنا الحديث بتطور المعرفة في طفل معاصر . فانك تجد بين فلاسفة اليونان ، ارسطو وديموقريطس ، ونجد التفكير البسيط الواضح فى فلسفة ديموقريطس يقارب فى روحه فكرنا المعاصر . لكن لارسطو انموذجا آخر فى الفكر ، كانت الثقة فى المعنى الداخلى للكلمات التى يقوم على أساسها تفكيره ، كما تميز عقلية بريئة لطفل . وكانت فيزياء أرسطو لاتتجاوز فى نظرنا كونها قراءات قديمة . ويمكن استعمال افكار ديموقريطس ، الى حد ما ، عن بناء المادة وكأنها عرض جديد لأساس العلم .

وقد احتضنت المسيحية تعاليم ارسطو غير مرتبة ، واستخدمت المنطق والبرهان فى العلوم الدينية التى ظلت متمسكة بالمذهب القومى ـ الذى وضعه الايطالى توماس اكونياس ـ ممثلا اساسا دينيا لدى الروم الكاثوليك . واحيا الناس الفكر اليونانى القديم وطبقوه فى مجالات لاتمت بصلة للدين .

وجاء عصر النهضة في اوروبا وحول الفكر من الأمور الدينية الى دنيوية تتعلق بالانسان وسميت الدراسات الفكرية « بالانسانيات » وانطلقت روح البحث فى القرن الثالث عشر واصطدمت الآراء الجديدة بالمعتقدات القديمة ، وكسب الفكر الجديد المعركة رويدا رويدا محمولا على اجنحة الفكر المستنير الى القرن السابع عشر فالثامن عشر ، بعد ازدهار الافكار الجديدة . وكان علم الفلك من العلوم القليلة التي لم تهمل ابان عهود الظلم والظلام ، وربما كان هذا بسبب حاجة رجال الكنيسة الى علم الفلك فى التقويم وتحديد مواقيت الاعياد ، أو لاعتقادهم فى رؤية الطالع . ولما فجر القرن الخامس عشر بنور العلم والاختراع واخترعت آلة الطباعة ، وترجمت التوراة وطبعت ، وترجم برباخ Purbach كتب بطليموس فى سنة

١٤٥٠ ، وتمكن الراهب البولندى كوبرنيكوس من دراسة الكواكب ، هاله ما رآه فى المريخ من التقلب الكبير فى حالات اشراقه بأوقات مختلفة. ولم يأنس لما كتبه بطليموس عن النظام الفلكى الذى يقــول أن الأرض مركــز الكــون ، وأن الشمس والكواكب تدور حولها . واحس بعدم توافــق قــول فيثاغوراس وارسترخس مــع ماشهده شخصيا فزعم أن الشمس هى التى فى مركز الكون وليست الارض ، وان الكواكب ومن بينها الأرض تدور حول الشمس . اهمل الناس نفس هذا الزعم الذى زعمه فيثاغوراس وارسترخس من قبل ، لأنهم كانوا متمسكين بآراء بطليموس حتى جاء كوبرنيكوس وايــد زعمهما . وكان نفوذ الكنيسة قويا جدا . وكانت عقيدتها تقتضى أن تكون الأرض موطن البشر ومركز الكون وان تكون ساكنة . وحاول كوبرنيكوس طبع كتابه ونشره ، لكنه خشى المصادرة وخاف من العقاب . وكيف لا يخاف وقد كان اسقفا متدينا ورعا ، وعالما يعرف معنى الحرية ، فرفع كتابة الى البابا . وكتب في مقدمته .. « أرفع بحثى هذا فى موضوع اقدمه الى قداستكم ثم الى اعلام الرياضيين ليحكموا عليه ... »

وتزعزعت بديهيات اقليدس فى القرن التاسع عشر على أثر تحديات علماء الرياضة كمـــا اثرت اعمالهم فى الفكر العلمى عندما ابتكروا « هندسة لا اقليدية » مفترضين فروضــا جديدة ، فاصبحت العلوم الحديثة تصــدر العالم بشكل عقلانى . وثار جاليليو ثورتــه (سنة ١٥٦٤ ــ ١٦٤٢) على الفلسفة القديمة. واســس علم الفيزياء الجــديد على اساس التجريب . ولكنه لم يقم يقينا بتجــارب عملية ، الا انه وصف التجارب الممكنة . واستخدم الطريقة العلمية التى نستخدمها فى العصر الحديث ، التى تعتمد على مشاهــدة الظواهر وتفسيرها بوصفها اولا . واهمــل جاليليو سبب حدوث هذا النوع من الحركة او ذاك ، وكان ما يعنيه هو التساؤل عن كيفية حدوثها ، فالمشكلة ليست فى تفسير الحركة ، بل فى وصفها . وكان يبدأ بالمشاهدة ثم يستنتج منها التعميم او البديهيات ، بدلا من طريقة القدماء الذين كانــوا يبدأون مــن عموميات مفترضة . وكان يعتبـــر المشاهدة العملية الاساس لكسب المعرفة ، وقال الا قيام لتعميم الا بتكرار الفحص للاحداث ، واعادة فحص النتائج بتجارب اخرى من انواع جديدة . وان التعميم لن يكتمل الا اذا صلح فى كل الظروف ودعمته ملايين المشاهدات دون استثناء . فلو حدث تناقض واحد بين هذه الملايين فان ذلك يستدعى تعديل الاستنتاج . فالشــك يصاحب كل نظرية بقدر معين ولو بنسبة ضئيلة ، ولا يقين تام مهما بلغت اعداد التجارب من الكثرة .

وقد اصبح مبدأ عدم التأكد (Uncertainty) حجر الزاوية فى الفسلفة الحديثة ، التى لا تدعى الصدق الكامل ولا الشك التام ، بل ان منتهى الصدق يخلو من المعنى ، اذ لا توجد ثمة طريقة تجرى المشاهدات فيها باعداد كافية لبلوغ الصدق المؤكد حتى يصبح في منتهاه .

وعلى الرغم من اعتماد العلوم ــ الفلسفة الطبيعية الجديدة ــ على المشاهدة والاستنتاج فهى فى الواقع فلسفة ، وتمنح الجامعات درجة الدكتــوراة فى الفلسفة فى مختلف العلـــوم كالرياضيات والكيميــاء والفيزياء والفلــك والاحياء . ويتسم هذا العصر بمبدأ التعاون والاتصال بين العلماء. ولم يكن التعاون واضحا فى فلسفات القرون الوسطى بل اعتمد كيميائيو

تلك القرون على التضليل احيانا فى كتاباتهم فى الكيمياء القديمة ليحتفظوا لانفسهم باسرارها.

وظهرت جماعات وجمعيات علمية فى القرن السابع عشر في اوروبا واهمها (الجمعية الملكية) بلندن التى بدات بجامعة من المولعين بالطرق العلمية التى اقام جاليليو اساسها وكان اعضاؤها علماء قد سبقوا عصرهم ، فلم يحفل بهم معاصروهم فى اول الامر ، حتى ظهر الفيلسوف الانجليزى السير اسحق نيوتن (سنة ١٦٤٢ ــ ١٧٢٧) وابدع اعمالا اصيلة غيرت مفاهيم الناس وثبتت وعيهم العلمى . فقد اعلن قوانين الحركة المعروفة باسمه وكشف قانون الجاذبية العالمية . فاخذ الناس بمبدأ الاعتماد على التجربة والمشاهدة والتحليل . ونبذوا اثبات النظريات بالجدال والنقاش المعتمد على الالفاظ ، وتطورت العلوم التجريبية وتداخلت وتشابكت ونمت على مر الاعوام حتى اصبح العلماء يؤمنون بالتخصص الدقيق الذى فرض نفسه على العلم الحديث . واستخدمت المعادلات الرياضية فى حساب حركة الكواكب ومواعيد ظهورها واماكنها . وكان فى مقدمة هذه البحوث حسابات « **اربان ليفرييه** » . وقد كانت حركة الكواكب قد حسبت واتفقت مع المشاهدات الفلكية ووصلت الكواكب فى مواعيدها المحسوبة بالدقة الا **يورانوس** الذى لم يخضع لهذه الحسابات ، بل حاد ايضا عن قوانين نيوتن . واعتقد ان هذا الحيود غير معقول ، وكانت الثقة كاملة فى تلك القوانين ، بعد ان اكدتها التجارب العديدة . وكانت الطبيعة لا تزال تخفى سرا من اسرارها .

وفكر **لفرييه** ، وقال باحتمال وجود كوكب مجهول ، يسير فى فلك ابعد من يورانوس ، ولم تدخل جاذبية هذا الكوكب فى الحساب . وربما كانت من الصغر بحيث لا تؤثر فى الكواكب الأبعد منه عن يورانوس ، واعتبر انه يقع الى جوار يورانوس ، ويؤخر وصوله في الميعاد . واذا صح هذا الفرض لنشأت مشكلة عكسية، ولامكن حساب بُعْد يورانيوس عن مساره الموصوف بالمعادلات التفاضلية . فهو ينحرف نحو اليسار عند نقط بعينها ، ونحو اليمين عن نقط اخرى . وحسب ليفرييه مسار الكوكب المزعوم . وعين وقت ظهوره ، ومكانه فى السماء . وفعلا كشف فى الزمان والمكان المحددين ــ فى سبتمبر سنة ١٨٤٦ وانضم **نبتون** الى المجموعة الشمسية . وكانت هذه الواقعة من انصع صفحات التنبؤ العلمى بالمستقبل . واثرت هذه الواقعة فى نفوس العلماء فى جيل ليفرييه . وكان طبيعى اجراء بعض التعديل فى قوانين الحركة التى وضعها نيوتن ، واعتقدوا بوجود ظواهر خفية فى مجالات اخرى من الفيزياء كالبصريات تحتاج من يميط عنها اللثام . ومع ذلك ظن بعض الفيزيائيين ان علم الفيزياء قد اكتمل ولم يعد به مجال للبحث عن اى جديد .

ووضع الفيلسوف الفرنسى ديكارت مفهوم « الاثير » الذى يقول ان الطبيعة لا تحتوى اى فراغ بل يتغلغل الاثير في كل شىء وينتشر بكل الارجاء . ونوقشت نظرية الاثير وافترض العلماء وجود انواع معينة من الاثير . بمختلف الظواهر ، فمثلا اثير كهربى وآخر ضوئي . وهذا فرض يناقض القوى الكهرومغناطيسية اللحظية الانتشار .

وتعاصر الفيلسوفان نيوتن وديكارت وجاء معهم **روبرت بويل** (سنة ١٦٢٧ ــ ١٦٩١) المعروف بقانونه المشهور الذى يعالج مسلك الغازات من حيث الضغط والحجم . وعالج

بويل الكيمياء من ناحية فلسفية ووضع كتابه « **الكيميائى المتشكك** » The Sceptical Chymist اوضح فيه خطأ مدرسة المشائين ، التى كانت تعتمد على فلسفة ارسطو ، والتى حكمت الفكر فى اوروبا طوال القرون الوسطى . وظلت تؤثر فيه حتى القرن السابع عشر ، وكذلك خطأ مدرسة ثيوفراتوس التى انشأها هذا العالم القديم فى القرن السادس عشر وهو المسمى باســـم الشهرة « **براسلسوس** » . ونادى بويل بالاعتماد على الممارسة والتجربة .

وظهر فى القرن الثامن عشر القس الانجليزى **يوسف بريستلى** (سنة ١٧٣٣ ـ ١٨٠٤) كما ظهر العالم الفرنسى لفوازييه (سنة ١٧٤٣ ـ ١٧٩٤) قبيل اندلاع الثورة الفرنسية . عاشا وسط احداث جسام . دافع بريستلى عـن الثورة الفرنسية ، وهاجم الخطباء والكتـاب الذين عارضوه فى انجلترا فاقتحم الجمهور داره ، ومزقوا كتبه وحطموا ادواته ودمروها . وهـــو العالم العبقرى مكتشف الاكسيجين واكاسيد الازوت وصاحب البحوث القيمة فى كيمياء الغازات . وكاشف ماء الصودا ومحضر كلوريد الهيدروجين من ملح الطعام وزيت الزاج . اما **لفوازييه** فقد عاش فى باريس بين الجماهير الهائجة . وكان يجرى تجارب بالوزن والقياس والمشاهدة والاستنتاج فكشف **نظرية الاحتراق** وهـدم **نظـرية الفلوجستون** . فر بريستلى من انجلترا ، اما لفوازييه فقد لاحقه الحاسدون واوقعوا به ، وحوكم محاكمـة سريعة واطاحت المقصلة براسه ، وكان اعدامه من افظع ما قامت به الثورة الفرنسية .

ولما هدم لفوازييه نظرية الفلوجستين واقام مكانها نظرية الاحتراق ، نفخ في العلم روحـا جديدة . وما كاد ينتهى القرن الثامن عشر حتى انجب مولودا جديدا اضيف الى تاريخ العلوم . هو السير **همفرى ديفى** (سنة ١٧٧٨) الذى صار استاذ الكيمياء بالمعهد الملكى بلندن فى مطلع القرن التاسع عشر . عاش ديفى فى اسرة رقيقة الحال . ولكنه كد وكافح لاعاشة اسرته . وتعلم الصيدلة والجراحـة لـدى صيدلانى عمل لديه وعكف على الدرس والتدقيق والاستفادة . ولخص كتبا كثـيرة ، ودرس الكيمياء والفيزياء ودرس ابحاث نيوتن . وقرأ كتاب «اصول الكيمياء» الذى وضعه لفوازييه . وفحص ما به من علم بالتجربة وبحث الحرارة والضوء والاشتعال والاكسجين والخـــواص المخدرة لاكسيد النتروز . وحلل الماء بالكهرباء واثبت ان الماء يتكون من الاكسجين والهيدروجين وكشف الفلزات القلوية ، فهو كاشف البوتاسيوم بالتحليل الكهربى ، كما كشف عناصر اخرى بنفس الطريقة ، مثل الاسترنشيوم والباريوم والكالسيوم والمغنسيوم . واثبت ان الكلور احد العناصر بعدما كان يعتقد انه احد مركبات الاكسيجين . ودرس خواص اليود ، وتعاون مع فراداى فى اسالة الغازات ، وكان **فراداى** (سنة ١٧٩١ ـ ١٨٦٧) ابنا لحداد متنقـل وعاش فى فقر مدقع ابان الضائقة الاقتصادية الشديدة التى حلت بانجلترا . ولم يتعلـم بالمدرسة بل كان يقضى اوقاته لاهيا بالبيت او الشارع . ولما بلغ الثالثة عشرة من عمره كان يساعد احد بائعى الكتب ، وتوصيـل الصحف للمشتركين . وتعلم تجليد الكتب . قرأ الكثير منها واستمع الى محاضرات عامة عن الفلسفة الطبيعية . رحل الى اوروبا بعدما الحق بالمعهد البريطانى معاونا وامينا للسير همفرى ديفى . وتصادق مع اعضاء الجمعية الفلسفية . وسافر مع ديفى فى رحلة الـى اوروبا (سنة ١٨١٣ ـ ١٨١٥) وعرف علماء كثيرين واطلع على ابحاثهم فى الكهرباء مثـل

الفرنسى **امبير** والانجليزى **ولستون** فدرس الكهرباء وكتب فيها كتابه « تاريخ البحوث الكهرومغناطيسية وتقدمها » واعلن نظريته عن المجال الكهرومغناطيسى معتمدا على اساس متين من الايمان بالاثير . ولكن ما هو الاثير فى اعتقاد القدماء ؟ ربما كان سائلا خاصا ذا حركة دوامية ، او مائعا ساكنا تنبض به كرات اكثر منه كثافة . وكان من الضرورى افتراض خواص للاثير كخواص الجوامد لتفسير الضوء لانه ينتقل على شكل امواج عرضية .

وفي نهاية القرن التاسع عشر ظهرت البحوث الدقيقة التى قام بها كلاوزيوس Clausius **وبولتزمان** Boltzman **وجيبس** Gibbs موضحة قوانين علم الميكانيكا ونظرية الاحتمال على مسلك تجمعات كبيرة من الجزئيات ، وبخاصة الغازات . ولم يكن فى ذلك الوقت ثمة امل فى دراسة العالم الدقيق للاجسام التى لا يراها الميكرسكوب . وادى هذا النقص الى عدم التعرض لبحوث الجسيمات وبنية المادة ، فقد ظلت هذه الموضوعات فى راى القدماء من صميم الفلسفة . او من ابحاث الميتافيزياء ، وانها خارجة عن مجال العلوم الطبيعية . وكان المعتقد ان الجسيمات تتحرك حسب قوانين نيوتن . وظنوا ان كل مسائل الفيزياء تحل بالمعادلات .

تقول احدى دوائر المعارف التى نشرت بالقرن التاسع عشر كلمات قليلة عن قوانين الديناميكا الحرارية وطرق قياس الحرارة . وكانت الحرارة معتبرة من طبائع الحركة ، وشجعت الفكرة القديمة ، التى تقول ان علم الفيزياء قد اكتمل ، علماء اواخر القرن الماضى الى ان يقول احدهم لتلميذه ماكس بلانك ناصحا اياه بعدم التخصص فى الفيزياء ، لان كل شىء قد عرف عنها ، لكن ماكس بلانك اصر على تعلم الفيزياء ونشر بحوثه المعروفة عن ما سمى « كمات الاشعاع » Radiation Quanta التى اصبحت اساس الفيزياء الحديثة ، وحتى **اللورد كلفن الفيزيائى** الانجليزى الموهوب شبه علم الفيزياء بعمارة كاملة بديعة . وقال **ان سماء الفيزياء لم يبق بها سوى غيوم قليلة ستنقشع سريعا وتترك السماء صافية فى القرن العشرين .**

وكانت غيوم سماء الفيزياء فى زعمهم ثبات سرعة الضوء وهى حقيقة كشفها بالتجربة مايكلسون Michelson ثم ظهرت **النظرية النسبية** من بين حجب الغيوم المزعومة . اما الكشف الهام الاخر فهو العلاقة بين طاقة الاشعاع وطول موجته ، وهى نظرية تتنبأ بان المنحنى الدال على هذه العلاقة يستمر في اتجاهه صاعدا ، فكلما نقص طول الموجة زادت طاقة الاشعاع الى ان تصل فى النهاية الى ما سمى « **الكارثة فوق البنفسجية** » . ولكن الرسم البيانى العملى دل على خط منحنى ذى سنام ، فبعد بلوغ طاقة الاشعاع نهاية قصوى من الارتفاع تأخذ فى التناقص بنقص طول الموجة . وقد انتجت هذه الظواهر « فيزياء الكم » وهى العلم الذى ينسب الى واضعه العالم الالمانى **ماكس بلانك** الذى نصح بالا يتخصص فى الفيزياء .

ان هذا درس من تاريخ العلوم يحذرنا من التعرض الى الثقة الكاملة فى العلم المعروف عندما يدعى انه بلغ الكمال ومنتهى الصحة . ويجدر بنا ان نراعى ما ظهر فى القرن الحالى .

الفكر الجديد مع النظرية النسبية :

لم تدم المفاهيم العلمية التى شيدها العلم فى القرن التاسع عشر طويلا ، بل تداعت عندما اعلن اينشتاين نظرية النسبية سنة ١٩٠٥

وهو في الخامسة والعشرين من عمره . نظرية نشرها في عشرات الصفحات ربط بها العلاقــة بين بديهيتين محطما المفاهيم التي كانت سائدة ، واضعا اساس الفيزياء الحديثة ومعتمدا على المنطق الرياضي والتعمق والدقة في كل مــا افترضه . واجمع اهل الفكر المستنير على ان اينشتاين عبقري من اعلى مرتبة وانه صاحب خيال وثاب ، تمكن به من قلب النظرية الكونية القديمة راسا على عقب . فهو القائل في احدى البديهيتين « اذا كان مشاهدان يتحركان حركة مستقيمة ومنتظمة كل بالنسبة للآخر فانهما في حالتين تامتي التطابق » . وهذا يعني عدم وجود طريقة تعين اى منهما يتحرك وايهما ساكن . ولا معنى لان نسأل « ايهما في حركة حقيقية ؟ » فالحركة نسبية ولا وجود لشيء يسمى حركة مطلقة .

وقد عرف مثل هذا المبدأ منذ ايام جاليليو في علم الحركة وهو ينص على امكان التمييز بين السكون من الحركة المستقيمة المنتظمة . وهذا ما يتفق مع العقل . فاذا جلست في سفينة او في طائرة ، واغمضت عينيك يكــاد يستحيل عليك ان تميز بين السكون والحركة المنتظمة .

اما البديهية الثانية فهي حالة اخرى . يعرف العلماء ان سرعة الضوء ثابتة بالنسبة لمختلف المشاهدين مهما اختلفت سرعاتهم ، ومع ذلك فهم يعتبرونها حقيقة تجريبية غريبة تحتاج الى المزيد من البحث . ولكن اينشتاين رفع هذه الحقيقة العجيبة الى مرتبة البديهية . وفعلا كان **نيكلسون ومورلي** قد كشفا هــذه الظاهرة منذ سنة ١٨٨٧ . وكرس الباحثون جهودهم للمقارنة بين سرعتي انتشار الضوء من الشرق الى الغرب ، ومن الشمــال الى الجنوب . وهذا يشبه المقارنة بيــن نتائج قياسات في مختبرين احدهما يتحرك مع كوكب الارض بينما لا دور للآخر بالحركة اليومية التي تسبب تعاقب الليل والنهار . وكشفت التجربة ان سرعة الضوء في الحالتين واحدة . وصعب هذه النتيجة مسلك الاثير وهو عديم اللون — فيما يفترضون — والذي قيل انه ينشر الضوء . وحاول كثيرون تصديق تجربة مايكيلســون باستخدام فيزياء القرن الماضي دون جدوى حتى سنة ١٩٠٥ لما حل اينشتاين هذه المشكلة برفع الحقيقة المفسرة الى مرتبة مبدأ او مفهوم اساسي ، يتقبله الناس كحقيقة واقعة . وبجمع البديهيتين معا يتكون مبدأ النسبية .

والجميل ان ما يصدق على سرعة الضــوء يصــدق ايضــا على مظاهــر مختلفــة للكهرومغناطيسية . وقد اعلن اينشتاين بناء على هــذا التطور الــذي جــدده في الفيزيــاء **الا وجود لتجربة فيزيائية تستطيع ان تميز مجموعة عن اى مجموعة اخرى من المجموعات اللانهائيــة العدد التي تتحرك بانتظــام وعلى اســتقامة واحــدة . فكل هــذه المجموعات متساوية تماما .**

وهنا قد نتساءل « الى ماذا تقودنا هاتان البديهيتان ؟ » ربما يدرس طــلاب الجامعات بعد الف سنة هذه النتائج على اسس تجريبية . بعد أن صعب على معاصري اينشــتاين قبول فكــرة كون الزمن نســبي وليس مطلقا ، بل يتوقف على حركة المشاهد . والحدث الواحد يقع بسرعات مختلفة اذا ما شــوهد من نقط مختلفة . وقد يبدو ذلك غريبا وغير طبيعي ويناقض المعقول . فقد وجــد ان الزمن كمية نسبية . وهذا يعني ان للحدث الواحد ازمان مختلفة اذا شوهد من نقط مختلفة . وواضح ان هذه النتيجة للنظرية النســـــبية تخطىء العقل . وقد يكون من الحكمة للمزيد من ايضاح النسبية ان نسأل اى مدينة اقرب من الاخرى ، باريس أم الاســكندرية ؟ فبالنســــبة لقاطن

القاهرة الاسكندرية هى الأقرب ، أما بالنسبة لمن يعيش فى لندن فباريس هى الأقرب . ولكن بالنسبة لساكن المريخ ــ ان وجد به سكان ــ فالمدينتان على بعدين متساويين تقريبا .

وقد نسأل ايضا « وما الزمن ؟ » اننا جميعا نعرف الزمن .. انه ما نقيسه بالساعات . هذا أفضل ما نجيب به على السؤال . فالمعتاد اننا نحمل ساعاتنا معنا ونقيس بها زمننا الخاص بكل سهولة مثلما نقيس بها زمن الآخرين . ولكن هذا هراء ، ان الزمن واحد اليس كذلك ؟ وارد بقولى لا ، انه مختلف ، فالمسافران لكلمنهما ساعته واذا أراد احدهما أن يضبط الوقت عنده ، فلا بد من أن يرسل كل منهما اشارة الى الآخر . يشاهد احدهما الزمن لحدوث شيء ما حسب ساعته ، بينما يرسل الآخر ــ المتحرك ــ اشارات تقولُ ان ساعته تبين الوقت عند بدء الحدث وعند نهايته . ويمكننا ان نستنتج ان الفترة بين الحدثين بقياس المشاهد الاول هى الاطول . وانك عندئذ تتحدث عن الساعاتبينما يتحدث عالم النسبية عن الزمن . وما هو الزمن ؟ وقد اجبنا بأنه ما يقاس بالساعات . وقد يبدو لك أن فى الامر خطأ . وقد لا يقبل عقلك هذا الكلام . فالكفاح ضد المعقول أمر عسير ، ولكن الأعسر منه أن نجادل مع شخص يضرب بالتفكير المنطقى عرض الحائط ، من أجل التمسك « بحقائق يرى انها مقبولة » . والأمر لا يحتاج الى الاشارة الى ان آلاف العلماء هللوا للنظريةالنسبيةوفرحوا بظهورها ، لأنها طورت الفكر العلمى ، وجعلتهم يمعنون الفكر فيها . ولم يجدوا بها نقصا أو ضعفا او عوجا . وقد اثرت هذه النظريةتأثيرا ثوريا فى العلمالحديث، وتعمقت فى المفاهيم التى تتعلق بزيادة كتلة الجسم كلما زادت سرعته . وكذلك فى مفهوم تكافؤ الكتلة والطاقة .

واثبتت النسبية سهولة تأكيد زيادة الكتلة بطريقة علمية على الالكترونات . واصبحت معادلة اينشتاين هامة جدا فى معالجةالتحولات النووية وتفاعلاتها . ومن أحدث الاخبارات التي حققت مباشرة زيادة الزمن فى حالة جسيم يتحرك فى ظروف المعمل . ويعتبر العلماء اليوم هذه التجارب تحقيقا للنظرية النسبية . وقد اصبحت مقبولة دون تحفظات وصارت أساسا للعمل اليومي فى البحوث النووية . والرياضة الحديثة .

وللنظرية النسبية مغزى اعمق وابعد بكثير من كونها قانوناً جديداً من قوانين الطبيعة ، فقد جاءت بتغيير تدريجى فى سلوكية الباحثين فى العلوم الطبيعية ، بأن جعلتهم فى غاية الوعى للنتائج العقلانية . وعلمتهم النظرية النسبية ضرورة بحث الموضوع من كل جانب . وقد وعوا ما يستخدمونه من الالفاظ ، وعرفوا الالفاظ الجوفاء الخالية من المعنى . واحسوا بالحاجة الى ازالة جميع آثار الجو الارسطوى من العلوم . وعلمتنا النسبية أهمية السؤال عن كيفية قياسالاشياء ، والعلاقة بين الكميات القابلة للقياس ، باستخدام المعاملات المرتبطة بها . فاذا كانت طريقة قياس كمية ما معلومة ، أو كانت طريقة حسابها معروفة ، فان هذا يكفى ، لأن الطبيعة شيء موضوعى يوجد فى الكون ، ولا يتوقف على البحاث . وكل ما قام به المشاهدون للطبيعة انهم افترضوا كميات طبيعية وادخلوها فى الفكر ليسهل وصف المشاهدات . وتحاول الكتب التخلص تدريجيا من التعاريف العلمية الجوفاء ، والكلمات المترابطة الخالية من المعنى ، وادت النظرية النسبية الى تعميق فهم دور النظرية فى العلوم الطبيعية . ويقول العلماء ان النظرية تفسر وتوضح طبيعة ظاهرةمعينة وتصورها وتكشف عملها . ولكننا اليوم نقول ان وظيفة النظرية التنبؤ بالظواهر . وقد أعطتنا النظرية النسبية انموذجا ميكانيكيا لتحتل المكان الذى تربعت

عليه نظرية « الأثير » وقد دفنته على الرغم من عظمته القديمة وقيمته التى مكنت علماء القرن الماضى من التنبؤ بكثير من الظواهر قبـل أن يستطيع الناس مشاهدتها . ومع ذلك ليست النظرية النسبية وحـدها التى أقامت صرح الفكر العلمى المعاصر ، فقد عاصرتها كشوف أخرى فى عـالم الذرة وقامت بأدوار كبيرة فى بناء العلم الحديث والتطور الحضـارى الذى نعيشه اليوم .

●●●

وأخيرا . . انا نعيش الآن عصر التكنولوجيا المتطورة وقد اخذ العلم والتكنولوجيا يسيران معا فى كل ميادين الانشطة الانسانية . ونشاهد الآن ظهور مخترعات كثيرة فى الحيـاة اليومية والاعمال الصـناعية تسـتخدم الالكترونيات وعلوم الفضـــاء . وقـد تطورت النظـريات الرياضـــية بعد ظهور نظريـة الكم والنظرية النسبية وكشف اشعة الليزر واستخدامها فى المواصلات اللاسلكيـة والحـاسبات اللازارية والتخليق الكيميـائى والتصـــوير وتحديـد المسافات وتوجيه سفن الفضاء . فظهرت علوم الليزر بعد العلوم النووية واستخدمت فى فحص نظريـة النسـبية وفى قياس حـركة الغازات ودراســات الجـو والسرعات . وتتقدم علوم الليـــزر الآن بخطى سريعة للتعـــرف علـى الحضارات فى الكواكب الاخرى ولتطوير سفن الفضاء . وربما لا يمر وقت طويل حتى يصبح فى الامكان السفر الى بعض الكواكب فى رحلات منظمة لقضاء عطلات سنوية .

وان غدا لناظره قريب .

★★★

المراجــــع

(١) فؤاد صروف : « أساطين العلم الحديث » المطبعةالعصرية . دار المقتطف . القاهرة ١٩٣٦ .

(٢) احمد زكى : « بواتق وانابيق » قصة الكيمياء« ترجمة عربية » للمؤلف برنارد جاف ، مكتبة النهضةالمصرية ــ القاهرة .

(٣) زكريا فهمى : « فن البحث العلمى » ترجمة عربيةللمؤلف و . ا ب بفردج ، الالف كتاب ، باشراف وزارة التعليم العالى . القاهرة سنة ١٩٦٣ .

(٤) اداباشيف : « الانسان يصلح كوكبه » دار التقدم، موسكو .

(٥) A. Kitaigorodsky ; I Am a Physicist MIR, Moscow, 1971.

(٦) Isaac Asimov ; The Intelligent Man's Guide to the Physical Sciences ; Pocket Books, Inc. New York, 1964.

(٧) Ritchie Calder ; Science in our Lives ; New American Library, 1962.

(٨) Jacob Bronowski, The Common Sense of Science ; Penguin Books. London, 1960.

(٩) A. P. Rossiter ; The Qrowth of Science ; Penguin Books, London.

(١٠) Elaine Knorre ; A Visit to Transurania, MIR Publishers, Moscow, 1974.



جوانب غير مطروقة في شعر شوقي

د . حلمي مرزوق

كثر الكاتبون فى شوقى حيا وميتا ، وكأنما العبقرية لاحساب لها فى موازينهم ، فتعاقبوا على الخفض به الى مراتب العامة فى التزلف وطلب الجاه .

ودأب العبقرية أن تزهد بأصحابها فيما يتماجد به آحاد الناس .

ولا نريد بذلك أن نعلو بالرجل على خصال البشر ، وانما نريد القول انها خصال متجاوزة — ولا بد — فى المواهب الشاخصة بأصحابها الى مراتب الخلود، وليس وراء الخلود صارف يصترف العظماء عن كثير من مواضعات العرف وقيم الحياة .

وشوقى من أولئك النفر الذين عاشوا للشعر ، لا يشغلهم عنه شاغل ولا يعدلون به مجدا ، ولا بجاهه جاها مهما كبر فى أعين الناس .

قلمى وان جهل الغبى مكانه
أبقى على التاريخ من ماضيك

والخطاب هنا لدار الخلافة العثمانية ، يكابرها بمجده الادبي، ويعلو بشعره فوق جميع ما أنفق السلاطين فى الفتح ، ويلمز أولئك النقاد وقد زين لهم الغباء هذا الطعن عليه بالتملق والكذب ، والعباقرة لا يكذبون الناس، لانهم أزهد الناس فيما عند الناس ، **يقول للسلطان عبد الحميد عام ١٩٠٥ :**

زهدت الذى فى راحتيك وشاقنى
جوائــز عنـد اللـه مبتغيــات

ومن كان مثلى (أحمد) الوقت لم تجز
عليــه ، ولو مــن مثلك الصدقــات

وهذا التشامخ أو التأبى نقرؤه فى المـدح الذى يؤاخذونه به ، ويحاسبونه عليه ، ولا اظن أحدا يطيب نفسا بمدح فيه هذا القول ، فما بالك بخصال العنجهية المأثورة فى الاتراك أو الخلفاء العثمانيين .

وقد نستطيع القول ان هوى الرجل أو عثمانيته ، لا يدخل فى المعايير الادبية التى عليها مدار المدح والذم ، وأنصار الفن للفن أول من ينكرون هذا الطعن برمته ، لانهم شاخصون أبدا الى طرائق التعبير ، ثم لا يعنيهم ما وراء ذلك الموضوع المستحب او التملق المذموم .

الا أننا نلتقى وهؤلاء النقاد على تشخيص هوى الرجل ولا بد ، وبيان مواقفه من الامة وقضاياها فى السياسة وشئون الاجتماع ، فكل ذلك ـ عندنا ـ من صميم الشاعر ، ومن عناصر الرجل التي تجتمـع عليها أطــراف شخصه المفترى عليه .

لقد شاعت دعاواهم فى تملق العثمانيين واستغرقته الاسماع حتى لا مكان فيها لخير يقال، والعثمانيون عندهم ـ بعد ـ شر أصاب التاريخ ، وسوء أزرى بالخلافة ، فاجتمعت على الرجل سوأتان : سواة التزلف ، وسوء المتزلف اليه ،وكـان شـوقى خسر الاولـى والآخرة ، فلا هو أمسك عـن المـدح فأرضى الناس ، ولا هو أنصفته السلاطين كما أنصف سيف الدولــة المتنبى فى أسماع النــاس والتاريخ .

وقد أكد ادعاء السوء على العثمانيين هذا الظلم المتصل فى حياة المسلمين ، وقد جاءهم **نابليون** ـ وأوروبا من ورائه ـ بحضارة تقوم منها الديموقراطية أو الحرية السياسية مقام الاساس من البناء .

وقد رد **رفاعه الطهطاوى** للناس هذه النظم الديموقراطية يومذاك الى امر واحد هو العدل والانصاف ، « فما يسمونه الحرية ـ كمـا يقول ـ هو عين ما يطلق عليه عندنا العدل والانصاف ، لأن معنى الحكم بالحرية هـو اقامة التساوى فى الاحكام والقوانين » . (1)

والناس يومـذاك أحاط بهـم الظلـم والاستبداد ، فكانوا آذانا مصغيـة للـذم ، ورقابا مشرئبة لكل انتقاد .

الا أن هذا الظلم او الاستبداد كـان مـن سيء العصر وعيبا من عيـوب عامـة الأمـة الاسلامية ، وليس من الانصاف أن نعلق أوزار العصر برمته فى أعناق الترك أو العثمانيين دون العرب والمسلمين ، مهما كان اليهم الأمر دون هؤلاء وأولئك ، فقبيح أن نشركهم الفعل ونفردهم بالعجب وكلنا فى الهم شرق » .

على أن شوقى لم يغفـل ـ قط ـ هـذا الظلم ولا أغضى عنه ، الا أن الفارق عنده هو الفارق بين حرب الظلم وحرب الخلافة برمتها، وهو الفارق بين الثورة بالتخلف ، والثورة بعامة الحضارة الاسلامية ونظمها فى الحياة .

والنقاد لا يذكرونه بهذا الوجه الثائر، ولكن يأخذونه ـ دائما ـ بالمدح الذى قال ، وشوقى فى مدحه وذمه كان يمدح بحق ويذم بحق ، ديدن الفضلاء وأصحاب المواهب والرسالات :

فامدح على الحق الرجال ولمهمو ..

---

(١) ـ تخليص الابريز لرفاعه الطهطاوى .

مقامك فوق ما زعموا ولكن
رأيت الحق فوقك والمقام

والناس منذ رفاعه على أن «الديموقراطية» انفى للظلم ، وعاصم من الطغيان ، فكانوا حربا على الاستبداد أو الديكتاتورية وحكم الفرد ، وكلهم شاخص باللوم والتثريب ، الى السلاطين العثمانيين والخديويين المصريين ، وكان شوقى على رأس القوم ، لا تعرض الفرصة الا حمل وصدق :

شر الحكومة أن تساس بواحد ... (٢)
قل للخلافة قول باك شمسها

بالامس لما آذنت بدلوك
يرميك بالامم الزمان وتارة
بالفرد واستبداده يرميك (٣)

ولا اظن هذا قول متزلف لسلطان أو مداهن لخديوى ، وشوقى ليس نكرة ــ بعد ــ فيمضى قوله غير محسوس به ، أو محسوب عليه ، والمتربصون بالرجل كثر ، فى عصر يأخذ بالظنة ، ولا يغفر التعريض ، ولا نريد أن نستطرد فنروى للناس القتل والمؤامرات تحاك على ذلك العهد فى تركيا ويصلاها الناقمون فى أطراف البلاد .

ولا يقال هذا تعريض الخائف ، يدس البيت فى تضاعيف الشعر ، فتخطئه العيون والاسماع ــ لا يقال ذلك ، لأن الرجل من مذهب الشعر العربي ، لا يفرغ القول فى باب بخصوصه على النمط المعهود اليوم ، فالذم ذم والمدح مدح والرثاء رثاء ، وانما هو المداولة بين الأغراض جميعا ، ثم لا تعدم فيها راى الشاعر ومواقفه من الحياة والأحياء .

ثم أن هذه الابيات من الابيات الاعيان ، على سنة قوله المأثور .

زمان الفرد يا فرعون ولى ...

وبيته القصيد أفعل فى نفوس الناس من القصائد الطوال ، لأنه أعلق بالأفئدة وأجرى على الألسنة ، فكانت العرب تكابر بالابيات الشوارد ، والامثال السوائر لهذه المآرب والخصال .

وتسقط (ادرنة) فى اليونان ، غلب عليها البلغار فى مطلع القرن (١٩١٢ م) ، فيجزع شوقى أشد الجزع ، لأنه راى فيها نكبة الاندلس ، وجرحا كجرحها :

جرحان تمضى الأمتان عليهما
هذا يسيل وذاك لا يلتام

فالاندلس أول الممالك الاسلامية يسقط عنها لواء الاسلام فى غرب أوروبا ، وادرنة آخر الممالك على عهد شوقى تسقط فى شرقها ، وليس وراء ذلك الم يؤلم وجدان المسلم ، ويصيب كبرياء التاريخ :

كانت من الغرب البقية فانقضت
فعلى بنى عثمان فيه سلام

لقد انقلب بها وبغيرها الهلال الاسلامى الذى احاط بأوروبا من طرفيها فى العصور الوسطى ، الى هلال أوروبى ــ فى العصر الحديث ــ يحيط بطرفى دار الخلافة وممالك المسلمين ، قول توينبى ، وهذا أشد ما احنق شوقى على الخلافة العثمانية :

والدهر لا يألو الممالك منذرا
فاذا غفلن فما عليه ملام

---

(٢) ــ ج ١ ص ١٦٩ من الشوقيات

(٣) ــ ج ١ ص ١٦٨ من الشوقيات

ثم لا يلبث أن يعنف بهم وبآرائهم وعامة سياستهم ،ويثور على اتكالهم وتخاذلهم ،وهو من وراء ذلك ساخط اشد السخط بما تلبسوا به من الغرور والاستنامة الى المجد القديم :

زعموك همـا للخلافـة ناصبـا
وهـل الممالـك راحـة ومنـام

لو آثروا الاصـلاح كنت لعرشهم
ركنا علـى هـام النجوم يقـام

صور العمى شتى ، واقبحهـا اذا
نظـرت بغير عيونهـن الهـام

فيم التخـاذل بينكـم ووراكم
أمم تضـاع حقوقها وتضـام

ودعـوا التفاخر بالتراث وان غـلا
فالمجد كسـب والزمـان عصام

ان الغـرور اذا تملـك أمـة
كالزهـر يخفى المـوت وهو زؤام

لا يعدلـن الملـك فى شـهواتكم
عـرض من الدنيـا بدا وحطـام

ومناصب فى غـير موضعهـا كمـا
حلـت محل القـدرة الاصنام

وليس وراء ذلك ذم او هجاء يقال .

يقول الدكتور هيكل : « وقد بلغ من حب شوقى للترك أن كان يعتبرهم مجموعة من الفضائل لا تشوبها نقيضة » .

ولا أظن هذه الابيات المقذعة تشايع الدكتور فيما ذهب اليه ، واغلب الظن انهـا تنقض دعواه التى فتح بها أبواب التنقص من الرجل، وسوغ بها تهمة التعصب الاعمى للترك فى نفوس عامة النقاد .

الحرية الليبرالية او الديموقراطية الغربية

وقد آمن النـاس يومـذاك ان الدسـتور والبرلمان عاصمان ـ ولا بد ـ من هذه المظالم والاستبداد ، فاغرقوا فى طلبهما لانهم آمنوا كما آمنـت الثـورة الفرنسـية أو أوروبـا البرجوازية بأن الاصلاح السياسى هو راس الاصلاح ، فهم شاخصون ـ ابدا ـ الى الحكم الدستورى أو البرلمانى ، فالدستور قيد على أهواء الحاكم وسلطان الفرد ، والبرلمان نمط من أنماط الشورى فى حضارة الاسـلام ، **وكان الكواكبى** فيما بين رفاعة وجيل شوقى مثلا للغلاة الثائرين على الدولة العثمانية ، يريد خلافة عربية على هذا النمط الجديد من الحكم يقول :

« ان سبب الفتور (فى الامة الاسلامية) هو تحول نوع السياسة الاسلامية حيث كانت **نيابية ديموقراطية** تماما فصارت بعدالراشدين بسببتمادى المحاربات الداخلية ـ **ملكية مقيدة** بقواعد الشرع الاساسية **ثم صـارت اشبه بالمطلقة** » .

والناس منذ رفاعة ماخوذون بالدسـتور الفرنسى وما شرعه من المساواة فى حقـوق السياسة واعباء الاقتصاد ، وقد ترجم رفاعة هذا الدستور ، واختص مواد هذين الامرين بالشرح والتعليق يقول :

« أما قولـه فى المادة الاولى : سـائر الفرنسيس مستوون قدام الشريعة ، معنـاه سائر من يوجد فى بلاد فرنسا من رفيع ووضيع لا يختلفون فى اجراء الاحكام ... حتـى ان الدعوى الشرعية تقام على الملك ، وينفذ عليه الحكم كغيره » .

وهذه المساواة بين الحاكـم والمحكـوم أو الشريف والوضيـع لـم تكـن معهودة علـى عهد رفاعة ولا على عهد شوقى ، وكلاهما يعلم كما نعلم أن المساواة قائمـة فى الحضـارة الاسلامية **واصل من اصول الاسلام** ، فكانت

اوروبا بذلك كالمنبهة للشرق وعامة المسلمين ، يقول رفاعة :

« فانظر الى هذه المادة الاولى فانها لهـــا تسلط عظيم على اقامة العدل واسعاف المظلوم، وارضاء خاطر الفقير بانه كالعظيم فى اجـراء الاحكام » (٤) .

ويعقب على ذلك بأن هذه القضية كـادت تكون من « **جوامع الكلم** » عند الفرنســـيين يريد أنها مبدأ متبع لا جدال فيه ولا خلاف عليه .

والمادة الثانية تنص على تقرير المساواة فى الاضطلاع بالضرائب أو الخزينة وبيت المال ، فيأخذ رفاعةَ العجبُ فيقول :

« ويمكن أن يقال ان (الفرد) ونحوها لو كانت مرتبة فى بلاد الاســلام كما هى فى تلك البــلاد لطابت النفس ... ومدة اقامتى فى باريس لم أســمع أحدا يشــكو من المكوس والفرد والجبايات أبدا » (٥) .

وداءُ الشرق ــ لا شك ــ كامن فى اصطناع هذا التمايز والمفاضلة بين آحاد الناس ، فآمن المصلحون أن الدستور هو الدواء ، لأنه « الحكم التي ترضى حكومته » او الحجة المكتوبة يلتقى فيها الحاكم والمحكوم على شرع سواء .

وتأتى المادة الخامسة عشرة بمبدأ الشورى ومجلس النواب أو « ديوان رسل العمالات » كما يترجمه رفاعة ، وهذا الديوان أو المجلس هــم وكلاء الرعية والمحامون عنها ، حتى لا يظلمها ملك أو سلطان ، يقول رفاعة :

« وحيثما كانت رسل العمالات قائمة مقام الرعية ، ومتكلمة بلسانها ــ كانت الرعية كأنها حاكمة نفسها » .

وذلك هو حكم الشعب نفسه بنفسه كما نقول اليوم ، لا مجال فيه لظالم أو مستبد ، لأن النــاس هــم الذين تداولوا بنوابهم أمور أنفســـهم ، وليس وراء ذلـك مانــع للظلم والاســتبداد ، وعلى كل حال **فالرعية مانعة للظلم عن نفسها بنفسها** » (٦) .

أمران ــ اذن ــ دأب النــاس عليهما منذ مطلع هذا العصر الحديث : الدستور والبرلمان، أو هما أمر يجمعهما مصطلح الحرية السياسية، وكلاهما فى قصاراه قيدٌ يمسك السلطة ان تجـور على النـــاس وأن تتحيف حقوقهـــم المشروعة ، أو ان شئت يمســـك الحاكم ان يؤذى النــاس فى أرزاقهم وعامــة حياتهم ، والطغيان داء العصر يومذاك ، ناط به المصلحون والثائرون كل صنوف التخلف ، وما أصاب المسلمين من التأخر والجمود .

وتلك كانت جدوى هذه النظم « الليبرالية » أو التحررية ، فالعدل والانصاف أقصى غاياتها فى أذهان الناس يومذاك ، على غير الشــائع المفهوم منها منذ ظهور النزعة « الرومانتيكية » فى مصر ، ذلك بأن الرمانتيكيين اخذوا من هذه النظم بالحرية الشخصية حرباً على مواضعات الناس فى المشاعر او الخيال والوجدان ، وآمن المثقفون بها حرباً على العرف والتصرف وقواعد السلوك ... اما السابقون فقد شغلتهم الحرية السياســية فغلبت على مــا عداها من النظم « الليبرالية » لملابسات الظلم وظروف الطغيان، فتنادوا بالدستور واشــتد الأتراك بقوادهم ليطلبوه بالسيف، فأمر به السلطان عبد الحميد،

---

(٤) ــ التخليص ص ١٤٨ .

(٥) ــ التخليص ص ١٤٩ .

(٦) المرجع السابق ص ١٥١ .

وكان قد امسكه بعد ان وعد به ، فكتب شوقي يقول :

بشرى البرية قاصيها ودانيها
حاط الخلافة بالدستور حاميها

أما ترى الملك فى عرس وفى فرح
بدولة الراى والشورى واهليها (٧)

ولا يقال شوقى تبع ، هلّل وكبرّ لدستور صدر فى تركيا ، لاننا نقول : هو اول داع فى هذه القصيدة لدستور لم يكن قد صدر فى مصر يومذاك :

يا شعب عثمان من ترك ومن عرب
حياك من يبعث الموتى ويحييها

ما بين آمالك اللائى ظفرت بها
وبين (مصر) معان انت تدريها (٨)

والآمال هنا هى الدستور .

على ان الأمر ليس امر سبق فى القول او تأخير به ، وانما المعول على منطق الرجل فى القضية ، وايمانه بالفكرة حلاً لازما لقضية الحرية السياسية ، فانتصر الرجل للدستور كما فهمه الناس يومذاك ، وانتصر له على مذهبه هو فى فقه الحضارة الغربية وحضارة الاسلام والمسلمين ، يقول :

وانما هى شورى الله جاء بها
كتابه الحق يعليها ويغليها (٩)

فقصارى الديموقراطية أو النظم البرلمانية عند شوقى انها نمط من انماط الشورى فى الحضارة الاسلامية ، نزل بها القرآن فكان الرسول والخلفاء يستشيرون ويشار عليهم ، ولم تعرف اية حضارة ما عرفه المسلمون من « أهل الحل والعقد » أو « أولى الأمر » أو « أهل الذكر » وما شابه ذلك من المصطلحات التى تدل على المشورة وطلب الرأى من عامة الناس لا خاصة القواد والأمراء :

بنيت على الشورى كصالح حكمهم
وعلى حياة الراى واستقلاله (١٠)

انى ارى الشورى التى اعتصموا بها
هى حبل ربك أو زمام نبيه (١١)

ولا يقال ما جدوى ذاك ، لانا نقول ذلك هو منهج الصراع الحضارى منذ رفاعة ، فالمسلمون لم يقبلوا ـ قط ـ من هذهالحضارة الغربية الا ما لم يخالف « الشريعة والسنة » على حد تعبير رفاعة ، ولا يختلف اثنان على جمود الفكر يومذاك ، فكان الكتاب والأدباء مطالبين باحياء الأصول الاسلامية واقتباس ما يتفق معها من حضارة الغرب ، وخرط القتاد دون تسويغ هذه وتلك فى نفوس العامة ، والناس فى عصر قريب العهد ـ يومذاك ـ بثورة الانكشارية على السلطان سليم لانهفرض الملابس الفرنجية فى الجيش ، فما بالك بما هو اعسر منالا فى امور النظم وشئون الحكم . لقد اضطلع شوقى بهذا العبء ، فكان يستعين على اهواء الحكام وجهل السلاطين باصول الاسلام ، ويستهويهم بالخلفاء الراشدين ،

---

(٧) ـ الشوقيات ج ١ ص ٢٨٦ .
(٨) ـ المرجع السابق ج ١ ص ٢٩٠ .
(٩) المرجع السابق ج ١ ص ٢٨٧ .
(١٠) المرجع السابق ص ١٦٨
(١١) المرجع السابق ص ٢٨٨

فيداول القول بينهم وبين هؤلاء ، ليستثير فيهم نخوة التشبه وحماسة الاقتداء :

فكأنك الفاروق فى كرسيه (١٢)

خلافة الله جر الذيل حاضرها (١٣)

جددت عهد الراشدين بسيرة (١٤)

والناس يزعمون — بعد — انه المادح المتزلف ، ويضربون عرض الحائط بما وراء المدح من هذه الأعماق .

لقد انفق شوقى من عبقريته ومن بالغ ذكائه فى قضية الدستور ما لم يستطعه شاعر او كاتب أو أديب ، وحسبك اختلاف الأجناس والأديان فى الدولة العثمانية حائلا يحول دون المساواة التى هى صلب الدساتير الليبرالية .

ولا أظن رجلا غير شوقى يستطيع أن ينفذ الى لب القضية —وتهمة الكفر مشرعة يومذاك— فيسوغها فى النفوس على هذا النحو الذى لا يقدر عليه الا العارفون بحقوق أهل الكتاب « لهم ما لنا وعليهم ما علينا » ، والا الواقفون على **اسرار البر او مبدأ الاحسان فى الاسلام** « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم » ، وعلى هذا الأساس يقول شوقى :

الدين لله من شاء الاله هدى
لكل نفس هوى فى الدين داعيها

ما كان مختلف الأديان داعية
الى اختلاف البرايا أو تعاديها

الكتب والرسل والأديان قاطبة
خزائن الحكمة الكبرى لواعيها

محبة الله أصل فى مراشدها
وخشية الله أس فى مبانيها

وكل خير يلقى فى أوامرها
وكل شر يوقى فى نواهيها

تسامح النفس معنى من مروءتها
بل المروءة فى أسمى معانيها

تخلق الصفح تسعد فى الحياة به
فالنفس يسعدها خلق ويشقيها

ثم يخص نفسه بالحديث ، والحديث هنا داخل فى صلب القضية ، لأن شوقى يطلعك على دخيلة نفسه ، أو يفكر لك بصوت مسموع كما يقولون ، يريد للناس جميعا أن يكونوا على حذوه ومثاله فى رياضة النفس على الاحسان :

الله يعلم ما نفسى بجاهلة
من أهل خلتها ممن يعاديها

لئن غدوت الى **الاحسان** اصرفها
فان ذلك اجرى من معاليها

والنفس ان كبرت رقت لحاسدها
واستغفرت كرماً منها لشانيها (١٥)

ومؤدى هذا القول أن الاسلام لا يضيق باختلاف الاديان « ولوشاء الله لجعل الناس أمة واحدة » ، ولئن اختلف المجتهدون فى أهل

(١٢) المرجع السابق ص ١٦٩
(١٣) المرجع السابق ص ١٧٠
(١٤) ص ١٦٩
(١٥) جـ ١ ص ٢٨٩/٢٩٠ من الشوقيات

الذمة ، فان التسامح او مبدأ الاحسان فيه ـ عند شوقي ـ سعة مشروعة لأخوة الوطن ان انعدمت أخوة الدين .

فانتصار شوقي ـ اذن ـ للدستور ليس انتصار تهليل وتكبير ، وانما هو انتصار العارف بمواضع الشبه ومظان الخلاف ، البصير بمواطن العظمة في الاسلام ، وهذا المدخل الى القضية من أبواب « الاحسان » لا اقول جديدا في أبواب الاجتهاد ، وانما هو احياء بصير للفكر الاسلامي وحضارة المسلمين سبق اليه رفاعة الطهطاوي فلم يقف بالاخوة الاسلامية موقف التناقض من الاخوة الوطنية، فكل ذلك يجمعه ويحض عليه قوله صلى الله عليه وسلم ، « وكونوا عباد الله اخوانا » يقول رفاعة : « ثم ان **اخوة العبودية** التي هي **التساوي في الانسانية** عامة في حقوق اهل المملكة بعضهم على بعض ، التي هي **حقوق العباد** » ، يريد بذلك أن العباد على اختلاف عقائدهم اخوان في العبودية ، والناس على اختلاف مذاهبهم اخوان في الانسانية ، فالعبودية والانسانية عنده سواء فالناس جميعا خلق الله ، يتساوون من حيث هم عباد الله وخلقه ، ولهم حقوق على بعضهم البعض من هذه الجهة ، وتلك هي **الحقوق الطبيعية** التي طالما أشار اليها رفاعة في تخليص الابريز والتي كانت تسميها الثورة الفرنسية على عهده باسم « **حقوق الانسان والمواطن** »

« وهناك **حقوق العبودية الخاصة** التي هي **الاخوة الاسلامية**، ـ كما يقول ـ وهي اكتساب ما يصير به المسلمون اخوانا على الاطلاق من اداء حقوق بعضهم على بعض ، كرد السلام وابتدائه ، وتعليم الاحكام الشرعية ونحو ذلك من شعب الايمان ، فهذه هي التي اشار اليها صلى الله عليه وسلم بقوله : المسلم اخو المسلم ، يعني أخوة دينية لأنهما يجمعهما دين واحد ، وهي اعظم من **الاخوة الحقيقية** ، وقد قال الله تعالى : « انما المؤمنون اخوة » ثم يقول رفاعة : « **ولا مانع ان يعمم في مكارم الاخلاق** » ، يريد أن تعم هذه الاخوة في أهل الوطن الواحد على اختلاف عقائدهم من باب حقوق الجار، واهل المحلة الواحدة كلهم جيران أو من باب مكارم الاخلاق كما سبق القول .

وهكذا تلتقي **مكارم الاخلاق** عند رفاعة مع **مبدأ الاحسان عند** شوقي وكلاهما أصل واحد في الاسلام ولا فرق ، ونقول هنا ما قلناه في كتابنا « جوانب من قضايا الامة العربية » :

« وحسب العقيدة الصالحة ان تنتصف لغيرها انتصاف الحق المشروع لا انتصاف التفضل والامتنان » .

وحسب الأديان الأخرى من الاسلام ان يجدوا نصابا يحتكمون اليه ، وحقا معلوما يتقاضونه مهما استبدت الأهواء ، واستحكم التعصب في نفوس المسلمين .

وحسب البشرية أن تقوم فيها أخوة في شئون المجتمع ومطالب الحياة ، عندما تمتنع أخوة الدين ، ووحدة المذاهب والمعتقدات .

مبدأ الشورى أو روح الديموقراطية

على أن شوقي لم ينخدع ـ قط ـ بالديموقراطية « الليبرالية » ، التي اغرق فيها الناس ما اغرقوا ، وتنادَوْا ما تنادَوْا بأشكالها الدستورية والبرلمانية، وهو شاخص ـ أبدا ـ الى جوهر الحرية أو روح الشورى ولبابها ، وها نحن أولاء نقرأ الكتاب ـ اليوم ـ من أم الدساتير والبرلمانات ، فيكشفون لنا عن مثالب الديموقراطية الغربية ، لانها اخلفت الظن في نفي التسلط وتقرير الحقوق ، وحسبنا في هذا الصدد هارولد لاسكي فيلسوف حزب العمال من زمن قريب . (١٦)

---

(١٦) Laski, Grammers of Politics

وها نحن أولاء نرى الدساتير تشرع ، والبرلمانات تقام ، والاستبداد آخذ ـ بعد ـ بتلابيب الناس ، يقوم فيها بالواحد فيعنو له النواب وتذل له الجماعة :

واذا سبا الفرد المسلط مجلسا
الفيت احرار الرجال عبيدا (١٧)

ويقوم فيها بالجماعة فتعنو لهم الامة وتستذل الشعوب :

وقام مقام الفرد فى كل امة
على الحكم جمٌ يستبدُ غفير (١٨)

ولا اظن وراء ذلك نفاذا الى مثالب هذه النظم ، أو ما يسميه علماء السياسة باسم « الدكتاتورية البرلمانية » .

على ان الاستبداد لا يذهب المستبد فيه ـ عند شوقى ـ بجميع اللوم والتثريب ، وانما السبيل على الذين يستذلون له ، وينزلون على ظلمه وطغيانه ، فالشعوب تخلق جلاديها كما يقال اليوم ، واهل الحل والعقد ـ عند شوقى ـ هم داء الامة بالتملق ، وهم سبة الحياة بالاستخذاء :

كم سبحوا لله فى الروا
ح ، والهوك لدى البكور

ورايتهم لك سجدا
كسجود موسى فى الحضور

خفضوا الرؤوس ووتروا
بالذل اقواس الظهور (١٩)

والذين تستهويهم الثورة وخصال العنف ، لا يعدمونها فى الرجل ، فشوقى لم يشتد ـ قط ـ شدته فى قضية الشورى أو الدستور ، فعنف **بالسلطان عبد الحميد** حين شاد الناس فى الدستور ، وحين حجبه عن الامة ليستبد بالامر ، فناصر **عليه انور باشا** وصحبه :

صبروا لدولتك السنين
وما صبرت سوى شهور

أوذيت من دستورهم
وحننت للحكم العسير

وغضبت كالمنصور أو
هارون فى خالى العصور

ضنوا ببضائع حقهم
وضننت بالدنيا الغرور

هلا احتفظت به احتفا
ظ ، مرحب فرح قرير

هو حلية الملك الرشيـ
ـد وعصمة الملك الغرير (٢٠)

وقوله « وخالى العصور » هنا من باب الذم والتحقير لا التماجد والافتخار ، **فراى شوقى فى هارون الرشيد رايه فى معاوية وعامة الخلفاء من بعده** ، صارت بهم الخلافة ملكا عضودا « على سنة الفرس والرومان ، فتزحزحوا بها عن سمت البيعة والانتخاب الى سنة التعيين والتوريث :

---

(١٧) جـ ١ ص ١١٢ من الديوان

(١٨) جـ ٣ ص ٨٢ من الديوا

(١٩ جـ١ ص ١٤٥ من الديوان وقوله فى الحضور اى فى حضرة الله تعالى فى الوادى المقدس طوى

(٢٠) جـ ١ ص ١٢٢/١٢٣ من الديوان

ان الذين توارثوك على الهـوى
بعد (ابـن هنـد) طالما ظلموك

لم يلبسـوا برد النبـي وانما
لبسوا طقوس الروم اذ لبسـوك

وقصارى القول أن شوقـى ثار ـ أشـد الثورة بالظلم والظالمين ، لا فـرق بين حاكـم أو محكوم ، وشوقى لا يخطىء مواضع الظلم ، يكون فى السلطان ، ويكون فى أولى الامر ، كما يكون فى الرعية وعامة الناس سواء بسواء . وهو فى جميع ذلك حرب عليه اينمـا كـان لا يحاشى أحدا من هؤلاء ولا هؤلاء .

والذين يسقطون شوقى من الثورة بالظلم انما يسقطونه مـن سياق العصر ، فالعـصر الحديث كله ثورة متصلة ، وصراع حضارى منذ عهد « نابليون » الى يوم النـاس هـذا ، والادب الحديث فى مصر وعامة العالم العربي يضطرب بهذه الثورة ولا يزال ، كما ذهب اليه هيكل (٢١) ، وشوقى بلا جدال « لسان مصر الناطق » كما شهد به **الرافعى** وكان الرافعى قبلا من حساده ومبغضيه (٢٢) .

والذين يريدون أن يسقطوا شوقى مـن سياق العصر الثائر يعجزون أن يبـرروا لنـا وللتاريخ الادبى خلود الرجـل فى المشاعـر والاذهان ، والحافظة أكبر ناقـد رغـم أنف الناقدين . اللهم ، الا اذا فهمنا الثورة ضربا من المناوأة ولا غير،وشق عصا الطاعة فحسب، على سنة المخربين أو المحترفين .

ونريد بهذا التفريق أن الثورة الفرنسـية فيض شعبى كاللوحـة الفنية أو القصيـدة الشعرية قامت على غير مثال سبق،فاستمدت روعتها من فيض الايمان بالمبادىء أو الصدق فى المشاعر والوجدان ، ولم تسمع قط بعمل مكرور خلا من الطعن بالتقليد والاتهام بالمحاكاة.

ويوم تكون الثورة حرفة تصبـح كالعمـل الادبى المقصود ، يعمل فيها الوعى والتدبـير فتلتوى بالناس الى قصد غير القصد وسبيل غير السبيل ، وثورة أتاتورك ماثلة يومذاك فى الاذهان ، جمعت الناس على الحرية وقصد الاصلاح ، وانتهت بهم الى « القومية » أو « الوطنية» مبدأ لم يخطر ـ قط ـ على أذهان المسلمين يومذاك ، لانه يقصر الولاء على القوم او الشعب ، فوقع فى المنجهية القبليـة أو « شعب الله المختار » ، لا يأبه الناس فيه « بالغير » الخارج على شاكلتهـم فى الجنس أو مفارقهم فى الاوطان ، ولا كذلك المسلمون ، لانهم نشأوا على ولاء أعم ، جاز بهم الاسلام حدود « الدم » و « الاقليم » عصب « الدولة الحديثة » الى هذا الولاء الجامع بين الامـم وأطراف الممالك :

نظمت صفوف المسلمين وخطوهم
فى كـل غـدوة جمعـة ورواح

جمعت على البر الحضور وطالما
جمعت عليه سرائر النـزاح (٢٣)

وقديما قال الشاعر :

أبـى الاسـلام لا أب لى سواه
اذا هتفـوا ببكـر أو تمـيم

وهذا الولاء الاسلامي الجامـع ، كابربـه « **أرنولد توينبي** » الولاء القومى ، الذى سارع اليه **كمال أتاتورك** ، فالقومية عنده مرض من

---

(٢١) ثورة الادب .

(٢٢) وحى القلم .

(٢٣) جـ ١ ص ١١٥ من الديوان .

أمراض الحضارة الأوروبية ، لانها من عوائق « الولاء الانسانى » الاعم ابتلى بها الشرق واخذها على غير هدى أو بصيرة ، (٢٤) ولقد صدر شوقى عن مثل هذا السخط بالكماليين فكتب يقول :

شربوا على سر العدو وغردوا

كالبوم فوق جدارك المدكوك(٢٤مكرر)

فاذا اضفت هذا الى قوله :

هتكوا بأيديهم ملاءة فخرهم . . .

ادركت كيف شربوا على سر العدو ، وانفذوا له ما أراد ، فقطعوا أوصال الخلافة أو الوحدة الجامعة للمسلمين بهذا الفكر القومى الطارىء على الفكر السياسى الاسلامى الموروث .

على أن الامر له وجهه الدستورى عند شوقى ، اذا جاوزنا العواطف او المبادىء الاسلامية ، فالكماليون طلاب الديموقراطية أو دعاة الراى والشورى ، كانوا أول من استبد بهذا الولاء الاسلامى الجامع ، ولو قد صح العزم واخلصوا للديموقراطية لاستشاروا الناس ونزلوا على رأيهم ، ولكنهم ألغوا الخلافة على غير هوى الناس ، أو رأى المسلمين ، فكانت اول مثلبة دكتاتورية تتراءى للناس فى تطبيق الديموقراطية الغربية فى دار الاسلام فكتب شوقى يقول :

الفرد بالشورى وباسم نديها

خلع الخليفه فى الظلام شريدا

خلعته دون المسلمين عصابة

لم يجعلوا للمسلمين وجودا (٢٥)

وخلاصة الامر ان شوقى شاخص الى الشورى الاسلامية أو روح الديموقراطية لا ينخدع عنها بالنظم واشكال الحكم ، فالاستبداد ــ عنده ــ يقوم والنظم الدستورية ــ بعد ــ قائمة ، والديموقراطية تقوم والفرد على راس الحكم ، فالعبرة ــ عند شوقى ــ بالانسان حاكما ومحكوما ، لان النظم لا تنهض بالامم وانما الامم هى التى تنهض بالنظم ، ونزوع شوقى الى الاخلاق ، اريد به الامة أو تهذيب آحاد الناس ، وذلك غاية الاديب ، أو تلك هى رسالته التي أراد أن يضطلع بها فى شعره كما قال فى مقدمته بحق ، لان الامة أو المجتمع ما هما الا اجتماع الآحاد بعضهم الى بعض على سنة الفكر الاجتماعى فى القرن التاسع‌عشر يومذاك ، وفى تهذيب الفرد تهذيب الجماعة حقيقة .

يقول رفاعة رافع الطهطاوى : اعلم أن (الفرنساوية) متفرقة الراى فرقتين وهما الملكية والحرية ، والمراد بالملكية اتباع الملك القائلون بأنه ينبغى تسليم الامر لولى الامر من غير أن يعارض فيه من طرف الرعية بشىء ، والاخرى‌تميل الى الحرية بمعنى أنهم يقولون : لا ينبغى النظر الا الى القوانين ، والملك انما هو منفذ للاحكام على طبق ما فى القوانين ، فكأنه عبارة عن‌آلة ، ولا شك‌أن الرأيين‌متباينان . . .

فالفرقة الاولى اعانة الملك ، والاخرى اضعافه واعانة الرعية ، ولاحاجة للملك أصلا . . . وهذا هو حكم الجمهورية » .

ومؤدى هذا القول ان النظم السياسية او نظم الحكم ثلاثة أنماط ، ملكية مطلقة ، وأخرى مقيدة أو دستورية قيدها الدستور ، والنظام الثالث‌هو النظام الجمهورى ،الامر فيه للمبايعة أو الانتخاب ، يقول رفاعة :

---

(٢٤) Toynbee; Civilization on Trial (٢٤ مكرر) ــ ج ١ ص ٢٠٠ من الديوان .

(٢٥) ج ١ ص من الشوقيات .

« وشريعة الاسلام التى عليها مدار الحكومة الاسلامية مشوبة بالانواع الثلاثة المذكورة لمن تأملها وعرف مصادرها ومواردها » (٢٦)

وشوقى من راى رفاعة لانه راى الاسلام غير منازع ولقد قامت الخلافة بواحد يجتهد مختارا على سنة النظم الجمهورية فى الاختيار برأيه ، وقامت بهيستشير ويشار عليه ،وقامت به معينا أو معهودا اليه ، وقامت به مبايعا والانتخاب .

وقد امتدح شوقى الخلفاء والحكام بجميع ذلك ، فالخليفة لا ينبغي إن يضار بالخلافة فيسقط عنه حق الاجتهاد ، لان الاجتهاد حق للناس خلفاء وغير خلفاء :

الـراى راى أمـير المؤمنـين اذا
حارت رجـال وضلت فى مراميهـا

وانما هـى شورى اللـه جاء بهـا
كتابه الحـق يعليها ويغليهـا (٢٧)

ولا يأخذ الناس الراى هنا مأخذ الدكتاتورية لان الاسلام لادكتاتورية فيهفالحاكم المسلممقيد بالاسلام ومحكوم به أبدا ، أو هكذا ينبغى له ، يقول رفاعة :

« والافرنج يعدون الحكومات الاسلامية من قبيل مطلقات التصرف ، والحال انها مقيدة أكثر من قوانينهم » . (٢٨)

والدستور فى قصاراه قيد يغل يد الحاكم ، أو عاصم من الاختلاف فى تأويل الحقوق ، يصطلح عليها المسلمون فيلتقى الحاكم واياهم على النزول عليها والاخذ بها .

ولقد آثر شوقى القيد الدستورى، فالخلفاء عنده رجلان ، رجل رشيد لا يضيق بالدستور ولا يضيق به الدستور ،وخليفة غر ،فالدستور عاصم له من الشطط والاستبداد :

هو حليـة الملك الرشيد ، وعصمـة الملك الفريـر .

على أن فريقا منالناس والكواكبىعلىرأسهم اشتطوا فى الامر فأبوا الفرد حاكما ولو عمر بن الخطاب ، (٢٩) ولا يعنى ذلك أن شوقى كان دونهم ثورة بالفرد :

ان الزمـــــان واهلـــــه
فرغوا من الفرد اللعين (٣٠)

الانصاف ــ اذن ــ أن ننسب الرجل الى أدب الخطاب لا الى التزلف ومداهنة السلاطين أو الحكام فى مصر والآستانة ، وهذاخلق يتخلق به صاحب الذكاء ، وشوقى كان فوار الذكاء كما يقول مطران (٣١) ، لان الذكاء يصل بصاحبه الى غاياته البعيدة دون أن يخرم حرفا واحدا من آداب المجاملة والحديث ، وبهذه الخلة كان يمدح ويتمدح :

شديـد صلـب فى الحـق حتـى
يقول الحق لينـا واتداعا (٣٢)

---

(٢٦) التخليص ص ٢٥٢ .

(٢٧) جـ ١ ص ٢٨٧ من الديوان .

(٢٨) أصول الفكر العربى الحديث عند الطهطاوى ص ٤٥نقلا عن الوقائع الرسمية ع ٦٢٣ .

(٢٩) أم القرى ص ١٤١ .

(٣٠) جـ ٢ ص ١٢١ من الشوقيات .

(٣١) الشوقيات المجهولة جـ ١ ص

(٣٢) جـ ٣ ص ٩٨ من الشوقيات .

فلسفته فى مدح العثمانيين

على أن العثمانيين كانوا بالقياس الى شوقى تاريخا وحضارة ، ولم يكونوا قط حاضرا يعلو على الاتهام أو النقد والتجريح .

أما العثمانيون آحادا وخلفاء ، فما منهم الا ونشأ على الآداب الاسلامية فى لغة القرآن فضلا عن لغته التركية ، والاغلب منهم كان يحفظ القرآن ويتخذ الاساتذة والمعلمين من الفقهاء وكبار العلماء ، وما اصطلاح « العثمانيين » الا شاهد على أنهم ارادوا نسبا تسقط فيه القومية التركية أو العنجهية الطورانية ، لتظل الخلافة خالصة للمسلمين .

واذا جاوزنا هذا الفضل الى فضل الفتح والجهاد ، فحسبهم فتح القسطنطينية عاصمة الرومان او الدولة البيزنطية ، وكانت خطرا اتصل حبله منذ أبى تمام والمتنبي والمعتصم وسيف الدولة ، وقد تأبت من قبل هذا وذاك على معاوية بن أبى سفيان .

وهذا الفتح فى موازين الحضارة أخطر منه فى تاريخ الحروب ، لان الحضارة الرومانية انتقلت برمتها الى روما ، ودخلت القسطنطينية برمتها فى الحضارة الاسلامية أو دار الاسلام ، وليس ذلك بيسير .

وجاء سليمان القانوني فامتدت بدار الاسلام الى أسوار فينا فى القرن السابع عشر ، ودخلت أوروبا الشرقية باغلب دولها فى حوزة دار الاسلام او خلافة المسلمين ثلاث قارات من العثما نيين ، وليس قليلا فى التاريخ أن تنتظم أوروبا الى غرب آسيا الى شمال أفريقيا ،حتى بلغت الامبراطورية العثمانية حدا لم تبلغة امبراطورية قبلها ، فكانت فخرا لا يسقط من حساب المادحين والقادحين على السواء ، يقول الشيخ محمد عبده : « اظلت ولاية الاسلام ما بين نقطة الغرب الاقصى الى . . . حدود الصين ، اقطار متصلة وديار متجاورة يسكنها المسلمون ، وكان لهم فيها السلطان الذى لا يغالب ، كان خليفتهم العباسي ينطق بالكلمة فيخضع لها (ملوك) الصين ، وترتعد فرائص أعظم ملوك أوروبا . »

ومن ملوكهم فى قرونهم الوسطى مثل محمد الغزنوى ، وملكشاه السلجوقى وصلاح الدين الايوبى ، وكان منهم فى المشرق مثل تيمور الكوركان ، وفى الغرب مثل السلطان محمد الفاتح والسلطان سليم والسلطان سليمان العثمانى .

أولئك رجال قضوا ولم يطو الزمان ذكرهم ، ولم يمح أثرهم (٣٣) .

ومن قبل أشاد رفاعة الطهطاوى بالسلطان سليمان الثانى واعتد عصره « أعظم الاعصار ، فقد بلغ بالدولة العثمانية « أوج الفخار » فافتتح الفتوحات العظيمة وأعلى كلمة الله » (٣٤) .

والعثمانيون ، فوق هذا وذاك ، لا يصدون سيدا عن السيادة ، ولا يحول اختلاف الجنس والوطن دون الصدارة وولاية الامور ، حكم الاسلام أو شريعته النازلون عليها فى التصرف والسلوك ، فيطلع علينا العصر الحديث وداود باشا على العراق ، وخير الدين واليا على تونس ، وعلى بك الكبير فى مصر ، وكل هؤلاء عبيد ملك اليمين ، وقد استجلب الاوروبيون اليهم العبيد فى أمريكا صنيع الاتراك المتهمين ، فلم نسمع عنهم الا الاضطهاد ، انزلوهم من المجتمع أحط المراتب ، وختموا على اتضاعهم بالعرف المصطنع ، وهم صناع التقدم ، وشركاء الاوروبيين فى أسباب الحضارة على نحو من أنحاء المشاركة يفرضه الانصاف .

---

(٣٣) ج ٢ ص ٢٧٧ من تاريخ الاستاذ الامام .

(٣٤) الاعمال الكاملة لرفاعة ج ١ ص ٤١٦ نشر وتحقيق محمد عمارة .

كان العثمانيون ــ اذن ــ بالقياس الى شوقي تاريخا وحضارة ، أو ان شئت كانوا مجدا اسلاميا ، وبطولة متصلة في تاريخ المسلمين :

قد ظنني اللاحي نطقت عن الهوى
وركبت متن الجهل اذ أطريك

لم ينقذ الاسلام أو يرفع له
رأسا سوى النفر الالى رفعوك (٣٥)

ومن هنا لم ينظر شوقي ــ قط ــ الى السلاطين العثمانيين الا وهو شاخص الى مآثر آبائهم الاولين منذ محمد الفاتح الى سليمان القانوني الى غيرهما من أبطال الفتوح والحضارة الاسلامية :

سما بك يا عبد الحميد أبوة
ثلاثون حضار الجلالة غيب (٣٦)

حنيفية أو قد عزها واعزها
ثلاثون ملكا فاتحون غزاة (٣٧)

يابن الخواقين الثلاثين الألى ... (٣٨)

عشرون خاقانا نموك وعشرة ... (٣٩)

هؤلاء الماضون ــ اذن ــ هم مفتاح المدح عند شوقي ، وهم مادته التي صدر عنها في التغني بالسلاطين ، فهم جيل من اجيال الحضارة الاسلامية، والحلقة الوثقى في تاريخ المسلمين :

المظهرين لنور بدر بعدما
خيف المحاق عليه والاظلام (٤٠)

يقول **الدكتور لويس عوض** : « فمنذ اللحظة الاولى (من دخول الفرنسيين) أحس الجبرتي انه ازاء حضارة جديدة أرقى من حضارة الترك والمماليك ، لا في مقوماتها المادية فحسب ، ولكن في كثير من قيمتها الاجتماعية ونظمها السياسية . (٤١)

ويخطىء الذين يزعمون هذا الزعم ، فالترك والمماليك ليسوا حضارة قائمة براسها ، لأن المماليك ظاهرة اسلامية ، أو نظام حربي أفضى اليه اجتهاد المجتهدين على عهد صلاح الدين ، والمجتهد المخطىء له أجر .

والمماليك فوق ذلك آحاد مختلفون فيما بينهم ، لا ينتهون الى وطن واحد أو قوم بخصوصه فينسبهم الناسبون الى حضارة تحمد أو تذم .

والاتراك هم الآخرون يفتقرون الى الف باء الكتابة ، فهم يكتبون بالحروف العربية ثم اللاتينية من بعد ، فكيف تستقيم لهم حضارة، فيقال حضارة الترك أو المماليك ؟

وهم أنفسهم قد نبذوا « طورانيتهم » وتسموا بالعثمانيين وهم الغالبون يومذاك على أمرهم في الاسلام ، شأنهم في ذلك شأن التتار، غلبوا على دار الاسلام وغلبهم الاسلام في ميدان الحضارة والعقيدة جميعا .

(٣٥) جـ ١ ص ٦٥ من الشوقيات .
(٣٦) جـ ١ ص ٤٢ من الشوقيات .
(٣٧) جـ ١ ص ٩٥ من الشوقيات .
(٣٨) جـ ١ ص ١٧٠ من الشوقيات .
(٣٩) جـ ١ ص ٢٢٨ من الشوقيات .
(٤٠) جـ ١ ص ١٦٥ من الشوقيات .
(٤١) تاريخ الفكر المصري جـ ٢ ص ٢٠ .

والرومان لا يختلفون موقفا عن التتار والاتراك، انتصروا على اليونان بالسيف ، وانتصر عليهم اليونان فى الحضارة وشئون الفكر ، والرومان احق أن تكون لهم حضارة برأسها من التتار والاتراك ، ولكنها دائما وابدا مرجوعة الى الحضارة اليونانية .

لم يكن شوقى - اذن - من راى استاذنا الدكتور لويس عوض ، ولا كان الجبرتى منه على التحقيق ، فالاسلام ولاء جامع يتجاوز بالمسلم ما عداه من ولاء الدم والاقليم ، فالحضارة الاسلامية علم على الميراث المشترك بين الأمم الاسلامية على اختلافها فى اللون والجنس واللغة والاقليم ، يقول الشيخ محمد عبده : « هذا ما ارشدنا اليه سير المسلمين من يوم نشأة دينهم الىالآن ، لا يعتدون برابطة الشعوب وعصبيات الاجناس ، وانما ينظرون الى جامعة الدين .

لهذا نرى العربى لا ينفر من سلطة التركى، والفارسى يقبل سيادة العربى ، والهندى يذعن لسيادة الأفغانى ، ولا اشمئزاز عند احد منهم ولا انقباض ، وان المسلم فى تبدل حكوماته، ولا يأنف ولا يستنكر ما يعرض عليه من اشكالها وانتقالها من قبيل الى قبيل ، ما دام صاحب الحكم حافظا لشأن الشريعة ذاهبا مذاهبها » (٤٢) .

والغرب فوق هذا وذلك الب على العثمانيين متربص بشعوب الخلافة الاسلامية وكلهم شاخص الى هذا « الرجلالمريض » يتحاجزون دونه ، أصدقاؤه والأعداء لا أبقاء عليه وانما اغتناما للظروف المواتية التي تكثر فيها الغنيمة ويقل فيها احتمال الحرب والخلاف ، فمثلهم والدولة العثمانية كمثل قول الشاعر :

يفرقهم بغض ويجمعهم حقد

وموقعة أبى قير البحرية شاهد على ذلك بما كتبه « نلسون » فى يومياته أو مذكراته (٤٣) بأسهم بينهم شديد ، وهم - بعد - جميع على الدولة العثمانية على سنة التحدى الحضارى فى عرف آرنولد توينبى ، ويرجع توينبى بوادر هذا التحدى الى ارتداد العثمانيين عن فيينا فى القرن السابع عشر ، وقد بلغ أقصاه حوالى مطلع هذا القرن العشرين ، وقد أدرك شوقى هذا القصد المبين من قبل أن يقول به توينبى فكتب قصيدة فى مسجد أيا صوفيا تفضح هذا العداء الكامن أو الحقد الذى لا هوادة فيه :

لن يترك الروم عباداتهم
أو ينزل الترك عن السؤدد

ويريد الشاعر بعباداتهم مواطن العبادة وأماكنها من باب حذف المضاف ، ويريد بهذه المواطن أو الأماكن عامة البلاد التى غلب عليها الترك ، ونزعوا عنها الحضارة الرومانية ليقيموا مكانها حضارة الاسلام والمسلمين :

فيا لثأر بيننا بعده
اقام لم يقرب ولم يبعد

باق كثأر القدس من قبله
لا تنتهى منه ولا يبتدى

فلا يفرنك سكون الملا
فالشر حول الصارم المغمد

لن يترك الروم عباداتهم
أو ينزل الترك عن السؤدد

---

(٤٢) تاريخ الاستاذ الامام جـ ٢ ص ٢٢٥/٢٢٦ .

(٤٣) The Life of Nelson.

هــذا لهم بيت على بيتهــم
ما اشبه المســجد بالمسجد

فان يعــادوا فى مفاتيحــه
فيا ليــوم للورى اســود

ولا اظن وراء ذلك تصويرا لأمر الشرق وقد احيط به ، وها نحن اولاء لا نزال يأخذنا الشر صريحا وغير صريح ، والقوم لا يجهزون على عدو ، وانما يتركوه بين بين ، والبين بين دائما فى حيص بيص ، فهو متوجس أبدا ، لا هــو المنتصر فيفرح بالنصر ولا البالغ الهزيمة فييأس من النصر ، واليأس احدى الراحتين .

فالشر حول الصارم المغمد
اقام لم يقرب ولم يبعد
لا تنتهى منه ولا يبتدى

والأمر مناط يومذاك بحاضر مضــعوف ، والأوروبيون ومن لف لفهم من العرب والمسلمين يحملون أوضار كل ذلك على الاسلام وخلافة المسلمين ، لا يعنيهم ما يعنينا من مجد الماضى وعظمة التاريخ ، فالتاريخ تاريخ ، له ما مضى وعليه ما انقضى كما قيل يومذاك ، وانما العبرة بالحاضر فهم يأخذون الاسلام والمسلمين بما يزخر به الواقــع من الظلم ومظاهــر التخلف والجمود .

فكان على شوقى ان يختط خطــة رفاعة وعبد الله باشا فكرى وعلى باشا مبارك والشيخ محمد عبده ، فيحارب فى جبهات ثلاث صنيع طه حسين والعقاد ، فيصد عنا الغزو الفكرى وينقض تهم الغرب ، ويحمل على الظلم الموروث ومظاهر التخلف والجمود ، وهو من وراء ذلك شاخص أبدا الى ماضى الحضارة الاســلامية يكابر بها ، ويستحيى فى الناس قيمها ، يحفزهم على الاستمساك بأصرتها ، والخلافة الاسلامية ــ بعد ــ حضارة متصلة فى تاريخ المسلمين :

حسب اتى طول الليالى دونه ....
نظمت صفوف المسلمين وخطوهم ....
جمعت على البر الحضور ....

لم يكن شوقى ــ يغافل ــ اذن ــ عن سوء العصر ولا عن تخلف المسلمين ، لكنه لم يكفر قط بحضارة الاسلام ولا بقدرة المسلمين علــى القوة والنهوض :

شعوبك فى شرق البلاد وغربها
كأصحاب كهف فى عميق سبات

بايمانهــــم نوران ذكـــر وســـنة
فما بالهم فى حالــك الظلمــات

وذلك ماضى مجدهم وفخارهم
فمــا ضرهــم لــو يعلمــون الآتــى

والفارق بين شــوقى وهؤلاء الناقمين كما اسلفنا هو الفارق بين الثورة بالظلم وعقابيل التخلف وبين الثــورة بعامة الخلافــة ونظم الاسلام والمســلمين ، أو هو الفارق بين ثورة الشفيق بأهله المؤمن بجدوى حضارته، فمدحه تحريض على الفضل وسخطه عتاب على المثالب والعيوب ، واصول الحضارة الاسلامية ــ آخر الأمر ــ هى محك الرضى ومعيــار الســخط والعتاب .

★★★

عالم القيم او المدنية الفاضلة عند شوقى :

هنــاك منهج فى البحث ذو شــقين ســلكه « كولنجوود » فى تعريف الفن وماهيته، الشق الأول منه : تخليص الفن من المدخول عليه ، ورده على قائليه ، وهذا ما كان منا فى أمر شوقى .

وهذا التعريف « بالسلب » كما يسمونه تكمن جدواه فى تقريب الأذهان من غاية الصواب ، لأنه يميط عن طريقها الأخطاء الشائعة ، أو أذى الخلط وآفة الادعاء .

واذا خلصت الأذهان من زائف القول ، وتهيأت للحق ، ونشطت لاستقبال الصواب ، جاءها الشق الثانى ، أو التعريف بالايجاب ، ليقيم على أطلال الخطأ صرح العالم الانسانى أو الرؤية الأخلاقية ، او الشخصية الادبية ، أو الأبعاد الحضارية لفكر الرجل ، وعامة مشاعره ووجدانه .

فشوقى لا تقف عبقريته عند دفع التهم ، وانما هو عالم من القيم او الحضارة مستتم الاطراف ، لن تجد فيه منفذا مشروعا لما ادعوه عليه من البهتان :

يقولون يرثى الراحلين فويحهم
أأملته عند الراحلين الجوازيا

أبوا حسداً أن اجعل الحي اسوة
لهم ، ومثالا قد يصادف حاذيا

فلما رثيت الميت اقضى حقوقه
وجدت حسوداً للرفات وشانيا

فالرجل فى مدحه ، وفى رثائه ، وفى عامة شعره شاخص أبدا الى القيم الانسانية العليا ، يشتقها من وقائع حياة العظماء وأحداث التاريخ ، يستوى فى ذلك الأحياء منهم والأموات، والمصريون وغير المصريين، والنصارى والمسلمون ، فيكتب عن موسى وعيسى ومحمد ، وعن بغداد وروما وباريس والآستانة وليبيا وبيروت ودمشق ، وعن صلاح الدين ونابليون، وعن حافظ والمنفلوطى وشكسبير وتولستوى وهوجو ، وعن مصطفى كامل وبطرس غالى ، وعمر المختار وأدهم باشا وسعد زغلول .

ذلك بانه آمن أن الناس هم الأحداث ، وهم صناع التاريخ ، ولم يفهم قط ان الأحداث والتاريخ هما الغالبان على امرهما فى التطور بالناس الى ما يريده أنصار الحتمية التاريخية على سنة هيبوليت تين او الماركسيين، فشوقى يؤمن مع « **كارلايل** » أن التاريخ عربة يجرها الجياد من الرجال كما يقولون ، ولم يخطر له — قط — أن التاريخ يمضى بالناس حيث يشاء على سنة هيجل فى السعى الى المطلق من الأفكار ، ولا على سنة الماركسيين فى الصراع الناشب — حتما — بين الطبقات .

وكل هؤلاء المذاهب التاريخية يسلب الانسان عظمته فى معترك الحياة ، ويسخر من جدواه فى سير الاحداث ، ولا يثبتون له بعض شأنه الا بالتمحل والتخريج فى « الجدلية » أو فلسفة الصراع عند الماركسيين .

وشوقى يربأ بالانسان أن يكون ريشة فى مهب التاريخ ، تمضى الأحداث الى غاياتها ، وهو بعد مسلوب الارادة لا قصد له يقصده ، ولا غاية يتغياها عن عزم وتدبير .

والناقمون على شوقى لا يصبرون على هذا المنهج فى جدوى الفضائل وآحاد الناس فى الاصلاح وسير التاريخ ، لأنهم غارقون فى المذاهب التاريخية ، وفلسفتها فى التعويل على الظروف والملابسات ، وجاءت المادية الجدلية ومذاهبها فى الحتمية أو الجبر التاريخى ، فوقفت للناس بالجهد البشرى أو الفضائل وخصال الأفراد عند حب الخير و « الطوباوية » التى تحمد أصحابها ، ثم لا طائل من ورائها فى اصلاح المجتمع وشئون الناس ، لأن المعول عندها فى النظم وفلسفة المجتمع ، لا فى الخلق وخصال الناس ، فالناس تفسد بفساد المجتمع وتصلح بصلاحه ، والصلاح مقصور على المجتمع اللاطبقى الذى يزعمون انهم بالغوه غدا أو بعد غد فتحسن الخصال ، وتفضل اخلاق الناس دون جهد يبذل ، أو تدبير مقصود .

اما المجتمع البرجوازى القائم فأصل الشر وجرثومة الفساد ، والخلاص منه او الثورة به خلاص من الشرور والآثام .

وهذا القول يُسقط عن آحاد الناس مؤونة الجهد فى تهذيب النفس ، والاضطلاع بعبء الفضل ومسئولية الخلق أو خصال الاستعلاء .

ولا كذلك شوقى :

والنفس من خيرها فى خير عافية ...

فانما الأمم الاخلاق ما بقيت ...

على الأخلاق خطوا الملك وابنوا ...

صلاح امرك للأخلاق مرجعه ...

وما السلاح لقوم كل عدتهم
حتى يكونوا من الأخلاق فى أهب

واذا ما أصاب بنيان قوم
وهى خلق فانه وهى أس

فالأخلاق عند شوقى عليها مدار التقدم فى حياة الافراد كما فى حياة الامم والجماعات ، فالأمم عنده قوامها الفرد وآحاد الناس ، تصلح بصلاحهم وتفسد بفسادهم ، وهو قول لا يسقط من الحقيقة ، وان سقط فى موازين الماركسية ، اللهم الا اذا قالوا بالجدل بين الفرد والجماعة ، وهو جدل ينظرون فيه آخر الأمر الى جهد الفرد فى الثورة أو دفع عجلة التاريخ الى المجتمع الفاضل الذى ينعدم فيه التمايز والطبقات .

والانسان ممها طال بهم الجدل ، وتملقوه بصفات البطولة هو ــ عندهم آخر الأمر ــ وسيلة لا غاية ، والأمر عند شوقى على الضد والخلاف ، لأن شوقى يكابر بالانسان وجدواه فى الفضل ، وجدوى الفضل والأخلاق فى الحضارة ومدارج الرقى .

وهذا هو مفتاح الرجل ، أو مفتاح فكره ووجدانه ، أو هذا هو مفتاح العالم الأدبى أو الصرح الحضارى ، أو ما شابه ذلك من المصطلحات التى تفضى الى « الرؤية » الأدبية بلغة العصر .

وقد أصاب الذين وصفوا شوقى بأنه شاعر الأخلاق ، الا أن هذا الاصطلاح لا يوفيه حقه بحال ، لأن الاخلاق اختلطت فى الأذهان بالاصطلاح المدرسى الذى يقف بها عند القواعد المقررة فى العرف أو ضوابط السلوك ، وما يريده بالأخلاق عند شوقى أمر وراء ذلك بكثير ، فالعباقرة لا ينشدون الكمال القائم فى أذهان الناس بضوابطه وحدوده ، وانما ينشدون « نوافل الكمال » حيث الفضل وخصال السمو والعظمة .

ولو اقتصر أمر شوقى على هذه الاخلاق التى يتوهمها الناس لما استحق هذا المجد والخلود ، لأن عبقريته لا تعدو ــ عندئذ ــ نظم ما ينبغى أن يكون ، على سنة أبى العتاهية او صالح بن عبد القدوس .

وفرق شاسع بين نظم الأخلاق ، وشعر الأخلاق ، فشعر الأخلاق شاخص ابدا الى ما وراء الكمال من عظمة النفس ، وسمو الشاعر والوجدان :

والنفس ان كبرت رقت لحاسدها
واستغفرت كرما منها لشانيها (٤٤)

فأرادوا لينظروا دمع فرعون وفرعون دمعه العنقاء (٤٥) .

متدرع صبر الكرام على الأذى
ان الكرام مشاغل السفهاء (٤٦)

وارانا التاريخ فرعون يمشى
ولم يحل دون شره كبرياء (٤٧)

انما يقدر الكرام كريم
.... (٤٨)

---

(٤٤) جـ ١ ص ٢٩٠ .
(٤٥) جـ ١ ص ٢٣ .
(٤٦) جـ ٣ ص ٦ .
(٤٧) جـ ١ ص ٢٠ .
(٤٨) جـ ١ ص ١٨٨ .

ويشــــك فيه فــلا يكلف نفســــه
غير الترفع والوقــار نضــــالا (٤٩)

اغضيــتُ ضـنا بعرضى أن المّ بـه
وقد يروق العمى للحر والصمَم (٥٠)

واذا ملكـت النفس قمـت ببرهـا
ولو أن ما ملكت يـداك الشـاء (٥١)

واذا بنيـت فخــير زوجٍ عشــرةً
واذا ابتنيــت فدونــك الآبــاء (٥٢)

قــوم وقــار الــدين فى اخلاقهــم

• • •

وقــد نســتطيع أن نجمع هذه العظمة او الخصال فى المصطلحات الاسلامية التى جرى بها التواتر أو جاء بها القرآن ، وفصلتها السنة فى كثـير من الحديث ، ولعـل « البـر » أو « الاحسان » احفلها بهذه المعانى ، أو تلـك الغايات ، « ان الله يامر بالعدل والاحسان » .

« نبى البر بينة طريقا »
« والبر عندك ذمة وفريضة »

وقد يزعم الزاعمون ـ وهم مخطئون ـ ان هذه المعاني مضت فى الادب العربى ، **والمتنبى** سبق اليها فى حكمه ومأثوراته ، واصح من هذا الزعم انهــا مضت فى الآداب الاسلاميــة ، او حضارة المسلمين ـ وشوقى بلا شك هو الجانب الانسانى من هذه الحضارة ، واعنى به جانب « الاحسان » أو ما قدمنا من مصطلح « نوافـل الكمال » ، فالسيئة جزاء السيئة كمال ولاشك ، وأما العضو ففوق الكمال أو هو كمال آخـر لايفى بمعناه الا مصطلح « الاحسان » .

« ان الاديب مسامح ومدارى »

خلقت كاننــى عيســى حــرام
علــى قلبى الضغينـة والشمــات

وهذا هو الفارق بـين المتنبـى وشوقى او الفارق بين الكمال ونوافل الكمال ، أو الفارق بـين واقــع التصرف واصطــراع النــاس فى السلوك ، وبين التامل وآداب السلوك أو النزعة الانسانية التى تتسم بها حكمة شوقى ، فالمتنبى فى أقرب أبياته من الكمال ونوافله لا يعدو ان يقــول :

تــرفــق ايهــا المولـــى عليهــم
فــان الرفــق بالجانــى عتـــاب

فلا يجعل الترفق بهم خالصا لوجه « البر والاحسان » « وانما يجعله عتابا أو عقابا ان شئت . »

جـ ـ الا أن فريقا من نقاد شوقى لا صبر لهم على اطلاق القول ، ويضيقون بالعموم الذى لا اختيار فيــه ولا مفاضلــة ، لان الاختيــار والمفاضلة يقتضيان التخصيص المنبىء عن الشاعر وخاصة مذهبه فى الامور ، وذلــك ادل علــى موقف الرجل ، وعلى شخصه أو عامة فكــرة ووجدانــه .

ونسوق الى هؤلاء موقف الرجل من موسى

كان شوقى كما يزعمون لانصرف عنه ، وهو غير مضطر اليه ، ولكنها عبقرية الرجل ونفاذه فى الصعب ، وشخصيته القادرة على المشكل من الامور :

ظــن فرعـــون ان موسى له واف
وعنــد الكــرام يرجى الجـــزاء

لم يكــن فى حســبانه يوم ربى
أن ســيأتى ضــد الجزاء الجـزاء

فقضى اللــه أن يعــق ولله تغى
لا لغـــــيره الأنبيــــــاء

ومؤدى هذا القول أن المبادىء العليا تعصف بالمبادىء الدنيا ، لانها أوفى وأصلح للبشرية على سنة « الانتخاب الطبيعى » ، أو البقاء للاصلح عند دارون وعامة التطوريين :

---

(٤٩) جـ ١ ص ٢١٣ .
(٥٠) جـ ١ ص ٢١٣ .
(٥١) جـ ١ ص ٣٦ .
(٥٢) جـ ٢ ص ٨٤ .

فما على المرء فى الاخلاق من حرج
اذا رعى صلة فى الله أو رحما

وليس وراء ذلك اصرار على ما قدمنا من نواقل الكمال أو معانى البر والاحسان ، ورحم الله **على بن ابى طالب** حين رق لاحد الخارجين عليه فى وقعة الجمل وقال : « قتله بره بوالديه »

ونستتم أطراف هذا العالم الادبى او هذه الرؤية الفنية لنمط آخر من انماط الكمال ونوافله او انماط الجمال الفنى فى معناه ومبناه جميعا :

وردنك كوثرا وسفرن حورا
وهل بالحور ان أسفرن بأس

فقل للجانحين الى حجاب
أتحجب عن صنيع الله نفس

اذا لم يستر الادب الغوانى
فلا يغنى الحرير ولا الدمقس

تأمل هل ترى الا جلالا
تحس النفس منه ما يحس

كأن الخود « مريم » فى سفور
ورائيها حوارى وقس

تهيبها الرجال فلا ضمير
يهم بها ولا عين تحس

وليس وراء ذلك قداسة او جلال يحملك على السمو والاحتشام ، ولا يعدله عندى الا قوله فى آثار الفراعنة ، وروعة أنس الوجود :

فاخفض الطرف واخلع النعل واخشع
لا تحاول من آية الدهر غضا

فانت هنا كما انت هناك فى حضرة **الجمال والجلال** ، هذا **عبقرية الفن والانسان** ، وذاك عبقرية **الطبيعة والحياة** .

هذا قل من كثر ، أو قليل من كثير نخلص منه الى أن الاخلاق عند شوقى هى **القيم الانسانية الكبرى** التي اريد بها **« الاحسان »** فى حضارة الاسلام والمسلمين ، **وهى امر وراء القواعد والقوانين ، او وراء الحدود والتشريع** كالتصوف سواء بسواء ، فانت تستوفى أمر العبادة بالصلاة المكتوبة ، ثم تأتى النوافل لا يزال العبد يتقرب بها الى الله حتى يصبح يده التى يبطش بها ، وعينه **التى يبصر بها** ، وتلك رتبة عالية فى عرف المتصوفة أو المتصوفين

وكلا الامرين داخل فى رتبة الفضائل أو نوافل الكمال ، لان الاحسان فى مضمار الخلق والسلوك كالتصوف فى العبادة ليس احدهما فرضا مفروضا على الناس ، فالفضائل فيها معنى الزيادة لغة واضطلاحا ، والزيادة لا يشق الشارع على الناس بالتكليف بها ، وانما تؤتى تطوعا واختيارا ، « فمن تطوع خيرا فهو خير له » .

فهى لا تستمد سندها من التشريع أو القانون ، وانما تستمده من رتبتها فى السمو ، لانها غاية فى ذاتها يسعى اليها أهلها ، ويستمسك بها الفضلاء من الناس ، وتلك هى مرتبة **الاخلاق بلا الزام** كما يقول « جويو » والتى آمنت بها الحضارة الاوربية ، وتبشر بها الشيوعية اذا بلغ الناس **المجتمع اللاطبقى فى تقديرهم** ، **فلا** حكومة أيان ذاك ولا سلطان ، وانما هى الفضائل التى يتكلفها الناس تكلفا فى **المجتمع البرجوازى** او الراسمالى تصبح خلقا متاحا لكل أحد .

ولا كذلك الحال عند شوقى ، فالحياة هى الحياة ، مضت عليها آلاف السنين ، وهى بحالها :

أناس كما تدرى ودنيا بحالها
وشعب رخي تارة وعسير

واحوال خلق غابر متجدد
تشابه فيه أول وأخير

الحال باقية كما صورتها
من عهد آدم مابها تغيير

وذلك بأن شوقى يؤمن بالدنيا دار ابتلاء واختيار ، وهو رأى الاسلام ، ولا معنى للابتلاء والاختبار اذا استقامت الحياة بالناس ، وجرت الطبائع فيها على سنن الفضائل ولا غير ، فتلك مرتبة « الجنان » الله ينزع الله منها سخائم النفوس فتنزع النفوس الى الكمال « ونزعنا ما فى صدورهم من غل اخوانا » .





ربة البيت

آن أوكلي * *

عرض وتحليل الدكتورة علية حسن حسين

يهتم هذا الكتاب بابراز الخصائص المميزة لدور «ربة البيت» فى المجتمع الصناعى الحديث .

ويدور المضمون الأساسي للكتاب حول نظرة المجتمع للمراة بوصفها ربة بيت لا بوصفها زوجة أو أما . ويهدف الكتاب الى بيان دور ربة البيت ، وتطور هذا المفهوم ، كما يلقى الضوء على السمات والملامح التى تميز ربة البيت .

وتهتم الكاتبة بتتبع دور المراة عبر الزمن معتمدة فى ذلك على تحليل نتائج البحوث التى اجرتها بنفسها لعدد من الحالات التى قامت بدراستها ، وكان الطابع الأنثوى غالبا على ذلك التحليل . وقد عارضت القيم التقليدية

(*) Ann Oakley, House wife, Allen Lane,London, 1974

(**) آن اوكلى ، باحثة فى كلية بدفورد بلندن ، ولدت فى لندن عام ١٩٤٤ وتلقت علومها فى كلية سومرفيل باكسفورد، وحصلت على درجة الدكتوراه من جامعة لندن عن موضوع « اتجاهات المراة نحو العمل المنزلى » ، وفى عام ١٩٧٢ اصدرت كتابا بعنوان : « الجنس والذكورة والانوثة، والمجتمع Sex, Gender and Society . وفى عام ١٩٧٤ أصدرت كتاب « ربة البيت » الذى تتناوله بالعرض والتحليل والنقد الدكتورة عليه حسين ، كما اصدرت آن أوكلى فى نفس العام كتاب « سوسيولوجيا العمل المنزلى » الذى تقدم له أيضا ، الدكتورة سامية حسن الساعاتى عرضا تحليليا وتقييما نقديا له . (التحرير)

التى تقصر العمل على الذكور دون الاناث ، والتى تؤكد ان دور المراة ينحصر داخل المنزل فقط .

واتجاه الكاتبة الى الاهتمام بهذا النمط من النساء يرجع الى قصور السوسيولوجيين فى الاهتمام به . ويتضمن الكتاب تسعة فصول تتناول الموضوعات التالية :

اولا : المقصود بربة البيت واهم ما يميزها :

ان ربة البيت هي المراة التى تعمل فى البيت ولا تتقاضى اجرا عما تقوم به من أعمال، واذا حاولنا تحديد المقصود بهذا المصطلح من الناحية اللغوية فانه يشير الى كلمتين : بيت ـ زوجة . وهذا يعنى أن الدور الذى تقوم به ربة البيت هو دور عائلى وانثوى معا ، كما يعتبر أيضا دورا خاصا داخل المنزل . وربة البيت هي المسئولة عن معظم الواجبات المنزلية ، كما تقوم أيضا بكافة الاعمال المنزلية سواء ساعدها أحد أو لم يساعدها .. وهي بهذا المعنى ليست خادمة ، وانما امراة تباشر شئون منزلها ، كما انها سيدة البيت وزوجة رب العائلة . وقد لا تكون ربة البيت متزوجة، فالزواج ليس شرطا لكي تصبح ربة بيت .

ولربة البيت سمات وملامح تميزها نخص منها ما شاع ويبرز فى المجتمع الصناعى الحديث . فربة البيت من المسميات التى يقصد بها المراة دون غيرها ، وتعنى هذه التسمية عدم استقلالها الاقتصادى ، ويعبر مضمونها عن الدور الاساسى الذى تضطلع به ويحدد مدلوله دائرة عملها ، ويبين منزلتها الاجتماعية كامراة غير عاملة . ومن الضرورى الا يفوتنا ، ونحن نتحدث عن ربة البيت ، أن نشير الى علاقة دورها بالناحية الاقتصادية. فهذا الدور وان لم يمثل نشاطا اقتصاديا منتجا بصورة مباشرة الا أنه يرتبط به ارتباطا وثيقا ، ويتمثل هذا الارتباط فى جوانب ثلاثة:

الاول : قيامها بخدمة أفراد الاسرة وتهيئة الظروف المناسبة لهم يمكنهم من القيام بأدوارهم الاقتصادية المنتجة وان لم تقم بدور مباشر فى عملية الانتاج .

الثانى : كما أن قيامها بدور المستهلك الرئيسى فى الاسرة يؤكد كذلك ارتباط هذا الدور بالحياة الاقتصادية . فعملية الشراء من السوق ، أحد أنشطتها الرئيسية ، تزيد من حجم المبيعات فتنشط عملية التسويق مما يؤدى الى دفع عجلة الانتاج باطراد .

الثالث : ان عمل المراة كربة بيت لايدخل ضمن مفهوم العمل الحديث، فهى تؤدى العمل المنزلى الخاص بالاسرة والمتعلق بتدبير الحياة العائلية الخاصة . وهذا العمل لا يعد من الاعمال أو الخدمات العامة التى يتحتم ان تتقاضى عليها أجرا معينا ، كما انها غير ملزمة بعدد من الساعات يحدد لها ، وليس هناك قانون يلزمها بهذا العمل ويفرضه عليها .

وعلى هذا يصبح عمل المراة كربة بيت خارجا عن مفهوم العمل الحديث الذى يؤدى نظير الكسب المادى أو الأجر المحدد .

ولكن هل يعنى ذلك أن عمل ربة البيت يتباعد بصورته هذه عن الحياة الاقتصادية وينفصم عنها انفصاما تاما ؟

ان طبيعة هذا العمل والصورة التى يتم عليها والحدود التى يدور فى اطارها ، وان لم تبرز ارتباطا ظاهرا ومباشرا بالحياة الاقتصادية ، الا انها لا تعنى الانفصام عنها . والنظرة الدقيقة المتفيرة لهذا الدور تؤكد مدى ارتباطه بالحياة الاقتصادية وتعي أهميته فى دفع حركة الانتاج دفعا مستمرا بتهيئة الظروف المستقرة للمنتجين من أعضاء الاسرة .

ثانيا : دور المراة فى مجتمع ما قبل الصناعة :

لقد اختلف دور ربة البيت فى المجتمع التقليدى عنه فى المجتمع الحديث ، ومنشأ هذا

الاختلاف انما يرجع الى الاهتمام بالصناعة ، واقتضى اتجاه المجتمع الحديث الى التصنيع الاهتمام بعمليات الانتاج على نطاق واسع غير محدود يتحقق فى مؤسسات صناعية كبرى .

وهذا يعنى ان العمليات الانتاجية لم تعد تتم داخل المنزل وفى اطار العائلة كما كان يحدث فى المجتمع التقليدى ، فالعائلة فى المجتمع التقليدى كانت تمثل وحدة الانتاج ، وكان العمل وبناء العائلة يمثلان جزأين من كل ثقافى متكامل ، فالعمل اذن لم يكن منفصلا عن حياة العائلة ، ولم يكن هناك تقسيم واضح للعمل بين الجنسين داخل محيط الاسرة ، ولكن الكل يعمل من أجل استمرارها ووجودها . ورغم ان مبدأ تقسيم العمل بين الجنسين ، تبعا لطبيعة كل جنس كان معروفا ، الا ان الادوار فى المجتمعات التقليدية كانت تحدد بالنظر الى المنزلة الاجتماعية لكل جنس من الجنسين . ولم يكن ذلك المبدأ المعروف يمارس حتى فى المجتمعات التي عرفته على أساس قاعدة ثابتة تحدد عملا للمراة وعملا آخر للرجل . فالبناء الاقتصادى والاجتماعى للمجتمعات التقليدية لم يكن يتيح وجود مثل هذا التمييز الدقيق فى تقسيم العمل .

وان ادراكنا لمفهوم الدور الذى كانت تنهض به ربة البيت فى المجتمعات التقليدية يوضح مدى التلاحم بين الحياة العائلية والحياة العملية الانتاجية ، ويؤكد انهما يمثلان معا كلا متكاملا .

وهذه صورة مخالفة للصورة السائدة فى المجتمع الصناعى الذى كان التمييز فيه بين الحياة العائلية والحياة العملية واضحا بينا .

فالتنمية الاقتصادية التي حدثت على مستوى العالم كان لها اثر واضح فى تمييز أدوار العائلة وتحديد العلاقة بين العائلة والنسق الاقتصادى مما أسفر عنه التميز الواضح بين الحياة العائلية والحياة العملية الانتاجية .

وبعد ذلك العرض الذى يكشف عن مدى الاختلاف بين مفهوم دور المراة فى المجتمع التقليدى والمجتمع الحديث نتحدث عن السمات التي يتميز بها دور ربة البيت فى المجتمع الغربي خاصة فى الفترة ما بين القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر .

أ ـ العمل : كان عمل المراة فى بريطانيا منحصرا فى الزراعة والنسيج حيث كانتا الحرفتين الاساسيتين لافراد ذلك المجتمع فى تلك الفترة .

وحين عملت المراة كمزارعة كانت تقوم بانتاج احتياجات المجتمع من الطعام ومنتجات الالبان ، وكانت تتقاضى اجرا يقل عن أجر الرجل ، رغم أن جهدها فى هذا المجال يفوق الجهد الذى يبذله الرجل . وهذا الدور يعتبر جزءا من دورها الذى كانت تنهض به داخل المنزل فى المجتمع البريطاني التقليدى . ولم يكن عملها بالنسيج يختلف عن عملها فى الزراعة حيث كان يتم ايضا فى اطار العائلة باعتبارها وحدة العمل المنتج .

والى جانب تلك الاعمال قامت المراة بالعمل فى التجارة ، وخاصة تجارة الصوف التى لم تكن تقل اهمية عن الاعمال السابقة ، فالمراة المتزوجة كانت تقوم بغزل ونسج الصوف والكتان لغرضين : الأول تغطية الاحتياجات المنزلية المطلوبة من هذه السلعة . اما الغرض الثانى فهو المساهمة فى زيادة دخل العائلة .

ولم تقتصر الاعمال التي قامت بها المراة على ذلك ولكنها تجاوزتها الى اعمال أخرى كصناعة الخبز والبيرة ، وفضلا عن مساعدة زوجها فى عمله وتحمل القيام بأعبائه بعد وفاته ، ومارست العمل ايضا فى مجالات اخرى مثل التجارة القطاعى ، وادارة المحلات التجارية ، وكان البعض منهن يعملن باعة متجولات للحصول على الدخل اللازم لحياتهن .

ب ــ كان النمط السائد هو العائلة الممتدة ، وكان الزواج يتم عن طريقها ولم يكن الزواج يعفى المراة من الاعباء الاقتصادية ، فهي لا تعتمد على الزوج اقتصاديا بل تعتمد على دخلها من العمل الذى تمارسه في الزراعة والنسيج والتجارة ، وكانت تتحمل كذلك مسئولية الانفاق على أطفالها ، ويساهم الزوج في ذلك ان كان دخله كافيا . فالمراة في هذه الفترة كانت تحرص على التوفيق بين استمرار الحياة العائلية ورعاية الاطفال ، اما فيما يتعلق بالشئون المنزلية فانها كانت مسئولية مشتركة بين الزوجين .

ومن هنا نلمس مدى الاختلاف بين دور ربة البيت في القرن السابع عشر ودورها في القرن العشرين .

ومما تجدر الاشارة اليه في هذا المجال انه رغم اعتراف القانون العام بخضوع المراة للرجل في المجتمع الانجليزى الا ان ذلك لم يؤثر على العلاقات الاجتماعية ، حيث كان النبلاء وحدهم الخاضعون لهذا القانون العام ، في حين كانت العادات والتقاليد تحكم العلاقات القائمة بين المزارعين والحرفيين ، مما يؤكد مساواة المراة بالرجل واستقلالها الاقتصادى عنه .

ج ــ المنزلة الاجتماعية للمراة في المجتمع الانجليزى التقليدى :

ان استقلال المراة الاقتصادى في المجتمع الانجليزى التقليدى خلال القرن السابع عشر قد اتخذ اشكالا مختلفة :

فالمراة التي تعمل بالتجارة وكانت تحصل على كافة الحقوق وتنهض بشتى المسئوليات التى كانت للرجل الذى يعمل في نفس الظروف، ولها أن تلجأ الى القانون في جميع الحالات للحصول على حقوقها، ولها أن تشارك مشاركة تامة في أعمال الزوج وشئونه .

وقد تبين أن هناك أسماء لنساء متزوجات مقيدات بسجلات التبادل التجارى ، وقامت الزوجة بادارة أعمال زوجها كوكيلة لأعماله ، فضلا عن الدفاع عن العائلة والمحافظة على الممتلكات في حالة غياب الزوج .

وكانت التقاليد النقابية في هذا المجتمع تبيح انتقال تجارة الزوج وامتيازاته الى الزوجة بعد وفاته .

وبعد أن ادركنا الدور الذى كانت تنهض به المراة في المجتمع البريطانى التقليدى يتأكد لنا أن المراة كانت تقوم بدور العامل المنتج داخل المنزل وخارجه ، ولم يكن هناك ثمة تمييز في قوانين العمل بين الجنسين ، ولم تمنع المراة من ممارسة أى عمل لكونها امراة . وليس من بين ذلك كله ما يشير الى التفرقة بين العمل المنزلى والعمل الانتاجى والنظر اليهما كمهنتين منفصلتين .

فهما يمثلان كلا متكاملا ، ويكمل كل منهما الآخر . وهذه صورة مخالفة لما حدث بعد التغيرات الاقتصادية التى نجمت عن الثورة الصناعية . فقد طرات تغيرات واسعة لمفهوم الدور الذى تنهض به المراة ولطبيعة عملها كمركز للحياة العائلية .

ثالثا ــ المراة والتصنيع :

ان دور ربة البيت في المجتمع الحديث يختلف عن الصورة التى كان عليها في المجتمع التقليدى، فاتجاه المجتمع الحديث الى التصنيع والاهتمام بالصناعة اقتضى تغييرا واضحا في مفهوم هذا الدور ، ولم يقتصر الامر على تطور مفهوم دور ربة البيت بل تعداه الى دور الرجل .

وهذا التحول أو التغير يتضح في انفصال العمل الانتاجى عن الحياة العائلية وقد أدى ذلك الى أن أصبح دور ربة البيت محصورا في النهوض بالاعمال المنزلية التى تفرضها

الحياة العائلية دون الانخراط فى الاعمال الانتاجية التى تتم خارج المنزل ، والتى تكون مقابل أجر نقدى ، فلم تعد المراة تشارك فى عمل انتاجى من أجل العمل ذاته او من اجل الاستهلاك .

اما بالنسبة لدور الرجل فالمجتمع الحديث أفسح له العديد من المجالات ، فاتسعت دائرة عمل الرجل ومجالاته وانشطته وعلاقاته فى حين ضاقت دائرة عمل المراة واتجهت نشاطاتها الى المنزل اكثر من اى مجال آخر .

وكان هذا التحول فى دور الرجل ملائما لذلك التطور الذى حدث فى المجتمع الحديث ، الذى كان اتجاهه الى التصنيع سببا فى انفصال العمل الانتاجى عن الحياة العائلية والانتقال بالعمل الانتاجى بعيدا عن المنزل الى مؤسسات صناعية كبرى يؤدى فيها العمل نظير اجر نقدى .

والمجتمع الصناعى الذى يهتم بالمشروعات الاقتصادية والمشروعات الصناعية الحديثة يتميز بوجود هيئات متخصصة تقوم بالانشطة الاقتصادية تختفى امامها العائلة كوحدة اقتصادية انتاجية .

واستبعاد العائلة عن النشاط الاقتصادى لم يستلزم تغييرا فى الانتاج فحسب ، بل انه استلزم أيضا تمييزا للأدوار داخل العائلة ، فربة البيت اصبحت غير عاملة وعليه فهى تعتمد اقتصاديا على الرجل الذى اختص بالعمل المنتج يتقاضى عنه أجرا نقديا ويتحمل العبء الاقتصادى للعائلة .

ويمكن تقسيم المراحل التى مر بها دور المراة منذ بداية مرحلة التصنيع الى ما يأتى :

المرحلة الاولى وهي ما بين عام ١٧٥٠ حتى عام ١٨٤١ .

والمرحلة الثانية وهي مابين عام ١٨٤١ حتى عام ١٩١٢ .

والمرحلة الثالثة تمثل الفترة مابين عام ١٩١٢ حتى عام ١٩٥٠ .

اما المرحلة الاولى : ١٧٥٠ – ١٨٤١

فهي تتميز بظهور المصنع وحلوله محل العائلة كمكان للانتاج ، وعلى الرغم من ذلك لم تتخل المراة عن ممارسة الاعمال الانتاجية التى كانت تنهض بها فى المجتمع التقليدى ، ولم يكن للصناعة أثر فى تغيير الاعمال الانتاجية التى كانت تقوم بها من قبل ، وانما ظهر أثرها واضحا فى زيادة الانتاج وما تبع ذلك من زيادة فى حجم العمل وعدد ساعاته . فقد زاد انتاج النسيج المنزلى بزيادة حجم العمل الانتاجى الذى تقوم به ربة البيت رغم ميكنة هذه الصناعة . ولم يكن ذلك فى انتاج النسيج فقط بل تعداه الى انتاج القطن .

وفى عام ١٧٨٠ التحق بمصانع انتاج القطن كثير من عمال اليومية والتحقت معهم المراة وصاحب ذلك انخفاض فى الأجور . ولا يعنى التحاق المراة للعمل بمصانع انتاج القطن الاستمرار فى مثل هذه الاعمال اذ اعتزلت الكثيرات من المتزوجات العمل فى المصنع فى أوائل القرن التاسع عشر .

فالزوجة الأم واجهتها مشكلة رعاية أطفالها أثناء انشغالها بالعمل فى المصنع ، مما أدى الى اعتزالها ، وكان ذلك سببا فى انخفاض نسبة النساء العاملات فى هذا القرن اى القرن التاسع عشر .

اما النساء المتزوجات وليس لديهن أطفال فقد استمر عملهن فى المصنع وكان ذلك مسايرة للاعتقاد السائد من أن المراة يجب ان تعمل وتعول نفسها ، فكان استمرارها محاولة منها للاعتماد على نفسها ، ولذا كان للعمل فى

المصنع دور فعال فى تحسين ظروف المرأة من الطبقة العاملة بوجه خاص .

ومن هنا ندرك ما كان للثورة الصناعية من أثر واضح على كل النساء العاملات ، وخاصة المتزوجات اللاتى ليس لديهن أولاد ، وما كان له من دور فى تحسين ظروف المراةمن الطبقة العاملة .

وقد اشارت احصاءات عام ١٨٤١ فى كل من انجلترا وويلز الى الاعمال الاساسية التى كانت تنهض بها المراة ، واوضحت مجالات نشاطاتها وهي تدور حول الخدمات المنزلية وصناعة القطن ، والزراعة وحياكة الملابس وكيها ، كما أنها مارست مهنة التدريس أيضا ، هذا الى جانب الاعمال الاخرى التى نهضت بها .

والخدمات المنزلية والزراعية والتدريس كلها أعمال تمثل الادوار التقليدية التى اختصت بها المراة فى المجتمع التقليدى .

أما العمل فى المصنع فقد كان مفضلا حيث يستغرق وقتا اقل ، والأجر المتقاضى عنه يماثل الاجر الذى يحصل عليه الرجل . ولذا كان هذا العمل من أكثر الاعمال التى اجتذبت النساء يليه الخدمات المنزلية ويأتى بعدهما العمل الزراعى .

أما بالنسبة لبعض الحرف والاعمال الاخرى التى كانت المراة تزاولها وحدها فقد انخفضت نسبة العاملات فيها ، هذا الى جانب ما احدثه انتقال العمل من المنزل الى المصنع من مشاركة المراة للرجل فى عمله .

كما أن النمو الاقتصادى السريع فى الثروة ادى الى الاقلال من فرص العمل أمام المراة فى مجالات الاعمال الحرة فيما عدا تجارة القطاعى .

ومن تلك التغيرات التى حدثت فى مجالات العمل التى طرقتها المراة العمل فى الجراحة وطب الاسنان والعيون وكان للتخصص والنمو العلمى أثره فى استمرار عمل المراة فى هذه المهن وكانت الداية أكثر الناس تأثرا بتلك التغيرات التى طرات على عمل المراة .

المرحلة الثانية : الفترة مابين ١٨٤١ ــ ١٩١٤

فى هذه الفترة برزت فى المجتمع الانجليزى حركات اصلاح شملت مختلف المجالات . وقد تضمنت هذه الحركة تشريعات تخص النساء العاملات وتخص الاطفال كذلك .

ففى عام ١٨٤٢ صدر أول تشريع يحدد الظروف التى تعمل فيها المراة ويحدد كذلك مجالات العمل التى تلتحق بها ، وينص على تحديد ساعات معينة للعمل .

ولم يقف الامر عند هذا الحد ، بل أن المراة قد حصلت على امتيازات اخرى بمقتضى التشريع الذى صدر عام ١٨٩١ حيث نص على منع تشغيل النساء اثناء فترة الحمل وقرر منحهن اجازة لمدة أربعة أسابيع قبل الوضع وأربعة أخرى بعد الوضع .

وفى عام ١٨٩٥ صدر تشريع يقضى بمنع تشغيل النساء والاطفال ساعات عمل اضافية.
ولهذه التشريعات أثر واضح فى تحديد

المفهوم الحديث لدور ربة البيت ، كما ظهر أثرها فى انخفاض نسبة النساء المتزوجات العاملات ، وساد الاعتقاد بأن مكان المراة البيت ، ودورها ينحصر فى التزامها بالعمل المنزلى فقط ، وخاصة بعد انتقال الرجل الى العمل فى المصنع وابتعاده عن المنزل ، الى جانب ما فرض من قيود على تشغيل النساء والاطفال.

ويضاف الى ذلك تلك المنافسة الشديدة التى واجهتها المراة العاملة فى الانتاج الصناعى من الرجال ، والتى دفعتها الى التقيد بالعمل المنزلى الذى تؤديه دون أجر يتقاضى عنه ،

خاصة وأن الرجل قد أصبح صاحب الدخل الاساسى فى العائلة او الأسرة .

وبزيادة عدد ربات البيوت ، ونتيجة لزيادة الدخل منذ عام ١٨٧٠ زاد الطلب على الخدم الى الحد الذى دعا الى ظهور مشكلة نقص الخدم فى عام ١٩٠٠ .

وظهور هذه المشكلة يدل على مدى احتياج ربات البيوت الى الخدم ، ويبرز ذلك التحول فى دور ربة البيت الذى أصبح دورا اشرافيا ، فربة البيت تقوم بدور المشرفة على العمل المنزلى وهو نفس دور ربةالبيت العاملة فى القرن العشرين ، فهى الى جانب كونها ربة بيت فهي أيضا عاملة منتجة .

وقبل نهاية القرن التاسع عشر تحولت المراة ربة البيت من مجال العمل فى الصناعة الى مجال الخدمات حيث التحقت بالعمل فى الصناعات الغذائية ومؤسسات غسل وكي الملابس ومختلف الأنشطة التى كانت تؤدى من قبل فى المنزل . كما ازداد النساء اللائىالتحقن بالاعمال الكتابية والصناعات الخفيفة . وقد احتلت ادارة شئون المنزل المرتبة الاولى بالنسبة للمراة المتزوجة، بينما احتلت الاعمال الأخرى المرتبة الثانية .

المرحلة الثالثة : وتمثل الفترة من ١٩١٤ ـ ١٩٥٠

تتميز هذه الفترة بنمو الاتجاه نحو ربط دور ربة البيت بدورها كعاملة منتجة خاصة بعد الحرب العالمية الأولى . فقد ارتفعتنسبة النساء العاملات وزاد الطلب على العمل ، والتحقت المراة بمجالات عملجديدة فىالادارات الحكومية ، كما التحق كثير من النساء بالعمل فى الهندسة الصناعيةوانتاج الاسلحةوالذخيرة وقيادة السيارات . ثم انخفضت النسبة مرة أخرى ولكن كانت العودة الى المنزل طوعية . ولم تختلف الصورة أثناء الحرب العالميةالثانية عما حدث بعد الحرب العالمية الأولى حيث زادت نسبة النساء العاملات فى الصناعة الى الضعف نتيجة لظروف الحرب .

وخلاصة القول ان التصنيع كان له دور فى حدوث بعض التغيرات التى يمكن اجمالها فيما يلى :

ـ ابتعاد الرجل عن الحياة الروتينية المنزلية بالانتقال للعمل فى المصنع وتركالعمل فى المنزل .

ـ تحمل الرجل لأعباء المعيشة واعتماد المراة عليه فى ذلك .

ـ انفصال العمل المنزلى ورعاية الاطفال عن الاعمال الاخرى .

ـ التصنيع ادى الى تقييد ربة البيت وربطها بالمنزل ، وهذا قيد نفسى اكثر منه فسيولوجى .

وكان يمكن لربة البيت ان تترك المنزل لتمارس عملا تتقاضى عنه اجرا نقديا ولكنها مع ذلك تظل مرتبطة بدورها كربة بيت حيث انه الدور الاساسى لكل النساء على الرغم من انه قد يعوقها عن توسيع دائرة نشاطها الخارجى .

رابعا ـ وضع المراة فى الوقت الحاضر :

ان التمييز بين المراة والرجل امر مألوف ويرجع هذا التمييز الى أساسين :

الاول : المراة تهتم بشئون المنزل ،وهذا الاهتمام يحدد وضعهاداخل الاسرةوخارجها.

الثانى : المراة بوصفها ربة بيت يؤكد وجود التناقض بين القيم الثقافية الموجهة لدورها فى المجتمع .

ولتوضيح الاساس الاول الذى يعتمد عليه فى التمييز بين المراة والرجل يمكن أن تتبع دور المراة كراعية للشئون المنزلية داخل الاسرة وخارجها فى الوقت الحاضر .

اولا : داخل الاسرة :

حين نتحدث عن دور المراة داخل الاسرة نعنى بذلك دورها فى المنزل او البيت ولا نعنى به مكان العمل .

فالمراة فى الاسرة هي التى تحمل الاطفال وترعاهم وتتولى تربيتهم ، وهي فى المنزل ربة البيت .

ووظيفة العائلة أو الاسرة ــ فى مختلف المجتمعات ــ توجيه السلوك الشخصى ، فالشخصية لا تولد ولكنها تتكون عن طريق التنشئة الاجتماعية ، والمراة هي التى تنهض بهذه العملية ، وعلى ذلك يقع عليها عبء تكوين الشخصية الانسانية .

وتكوين افراد المجتمع الذى تتولاه الاسرة يتم عن طريقين :

الاول : **تنشئة الاطفال اجتماعيا** ، والثانى : **صب الشخصيات الناضجة فى قوالب اجتماعية** . فهى تهيىء الافراد للقيام بادوار الزوجة ، الام ، ربة البيت ، الزوج ، الأب .

وتكوين افراد المجتمع لا يعد وظيفة جديدة للاسرة ولكنها اصبحت ذات اهمية كبيرة فى الاسرة الحديثة ، حيث ان الاسرة الحديثة قد فقدت الكثير من الوظائف التى كانت تقوم بها العائلة فى المجتمع التقليدى ، اى مجتمع ما قبل التصنيع .

ان محور بناء الاسرة الحديثة هو التمايز بين الجنسين ، فلم يعد دور المراة ودور الرجل فيها سواء أو شيئا واحدا ، فالمراة لها دورها الذى يختلف عن دور الرجل ، والزواج لا يحقق المساواة بينهما .

والتمايز بين دور الرجل بوصفه ذكرا ودور المراة بوصفها انثى فى الأسرة الحديثة ليس تمايزا بسيطا ، فالترتيب الذى تسير عليه الاسرة من ذكر اصطلاح الزوج سابقا على الزوجة يوضح بناء متدرجا ، ولا يختلف هذا الترتيب فيكون للانثى ان تسبق الذكر الا حين يذكر الوالدان ، فيقال الأم ثم الأب وذلك لأن المراة هي التى تقوم بتربية الاطفال ورعايتهم فى الاسرة .

وقد كان للتنمية الاجتماعية فى هذا القرن دور فى زيادة أهمية الجنسين فى الاسرة، واهتمام المراة بالشئون المنزلية فهو ما تختص هي به دون الرجل .

وقد أدى التصنيع الى ظهور الاسرة النووية، تلك التى تقوم بتوفير كافة الاحتياجات المعيشية وزيادة الدخل . والتحسن فى ظروف المعيشة وفى ظروف الاسرة كان له أثر فى زيادة الاعباء المنزلية وظهور متطلبات جديدة ، مما زاد من أهمية العمل المنزلى .

واذا كان العمل المنزلى قد تأثر بظروف التصنيع فقد تأثر أيضا دور المراة ونعنى الزوجة الأم .

وقد ركزت التنمية على امرين اساسيين تعتمد عليهما الزوجة الأم فى تربية الطفل ورعايته .

الامر الاول : ضرورة تزويد المراة بالمعلومات اللازمة عن تربية الطفل ورعايته ، فنجاح المراة فى دور الامومة يتوقف على ذلك.

والامر الثانى : وجود الأم بجانب الطفل، حيث أن الطفل فى حاجة الى استمرار وجود الأم بجانبه اكثر من حاجته الى الأب . فالأم

تهتم بتربية الاطفال ورعايتهم ، والأب يقــوم بتوفير وسائل المعيشة لهم .

ومن كل ما سبق نرى ان الأسرة كنظام اجتماعى يميز بين دور الجنسين ، والمراة فى الأسرة الحديثة التى تتالف من رجل وامراة تكون فى المحل الاول زوجة وأم لطفل تقــع عليهما كل الاعباء المنزلية ، مهما كانت الاعمال التى تقوم بها خارج المنزل مهندسة كانت أم طبيبة، فالمراة فى الأسرة خالقة المنزل ،وراعية ومركز حياة الأسرة كلها .

ثانيا : وبعــد أن أوضحنا دور المراة كراعية للشئون المنزلية داخل الاسرة فى الوقت الحاضر نعرض للحديث عن دورها كراعيــة للشئون المنزلية خارج الاسرة أيضا .

ويتضح هذا الدور فى أهمية الاسرة فى توفير الحياة الاجتماعية والعاطفية لاعضائها ليكونوا أفرادا منتجين فى المجتمع الحديث .

لقد كان لانتشار التعليم والعمل خارج المنزل دور فى وضوح التمييز بين الجنسين ، والمحك فى ذلك اهتمام المراة بالشئون المنزلية.

وهذا ما تؤكده الاحصاءات الخاصــة بالقوى العاملة من المســاواة بين الجنســين والتشابه بين الوظائف والاعمال التى يقوم بها الرجال والنســاء ، الا أن تلك المساواة وهمية ولا أساس لها فى الواقع الفعلى .

وقد ازدادت فى هذا القرن نسبة الاناث اللائى يعملن خارج المنــزل ويتضــح ذلك فى بريطانيا خلال الفترة ١٩٥٠ـ١٩٦٠ . ويرجع ذلك الى قدرة المراة المتزوجة على الجمع بين الحياة الأسرية والعمل ، والى أنها قادرة على أن تكون ربة بيت وعاملة ، وعلى العكس نجد ثباتا فى نسبة العاملات من الزوجات الأمهات .

وهذه الزيادة فى نسبة العاملات مــن الإناث لا تشير الى حدوث تغيرات فى التمييز التقليدى بين الرجل والمراة ، فهذا التمييز لا يزال قائما والمراة لا تزال ترتبط باعمــال معينة ، فهي تعمل فى مهنة التدريس وكذلك التمريض والسكرتارية والاعمــال الكتــابية والبيع فى المحلات والعمل فى المصنع ، هــذه كلها مجالات مارست المراة العمل فيهــا الى جانب نهوضها بالعمل المنزلى .

وفى انجلترا وويلز بلغت نسبة العاملات فى هذه المهن ٥٢ ٪ عام ١٩٧٠ ، وكذلك تركز عمل النساء فى هذه المهن فى كل من الولايات المتحدة والمانيا وايطاليا والنرويج والسويد .

ومع هذا الاقبال على المهن على انهــا اكثر ارتباطا بالرجل ، ومن التحق بهذه المهن من النساء قد تخصص فى نواح متعلقة بالمراة. فالمحامية تهتم بقضايا الزواج والطلاق ،وتهتم الطبيبة بأمراض النساء والولادة وطب الاطفال، ولم يكن للتعليم وزيادة التخصص تأثير قوى على اختيار المراة للمهن التى تعمل فيها .

وتوضح نتائج المسح القومى الذى اجرى فى بريطانيا أن نســبة ربات البيــوت اللائى لا يعملن خارج المنزل ١ ـ ٢ أما اللائى لهن أطفال ويعملن فتمثل ١ ـ ٣ ، وتشير تلك النتائج كذلك الى زيادة نسبة الأمهات اللائى يخرجن للعمل عندما يبلغ أطفالهن سن ٥ـ١٥ سنة وتقل النسبة كلما صغر سن الاطفــال عن ذلك .

ومن متابعتنا لدور المراة كراعية للشئون المنزلية داخل الأسرة وخارجهــا فى الوقت الحاضر نخلص الى أن التعارض بين وضع الرجل والمراة ليس ناتجا من الدور البيولوجى الذى تقوم به المراة فى الحمل والولادة وانمــا ينتج عن الدور الثقافى فى التربية .

فالأمومة مثلها مثــل رعاية الشــئون المنزلية من الادوار التى تختــص بهــا المراة وتتميز بها عن الرجل . وممــا يوضــح ذلك

النظر الى اهتمامات المراة وتركيزها على اختيار المهن التى تتعلق اساسا بالشئون المنزلية والتى تربطها بالدور الانثوى . وهذه الاهتمامات من جانب المراة يزيد الاختلافات بين الجنسين ، بل ويجعل من تلك الاهتمامات ملامح ثابتة نسبيا تختص بوضع المراة وربما تكون من عوائق تحقيق المساواة المهنية بين الجنسين .

وبعد أن انتهينا من الحديث عن الاساس الاول الذى يرجع اليه التمييز القائم بين الرجل والمراة فى المجتمع فى الوقت الحاضر ننتقل الى الحديث عن الاساس الثانى الذى يرجع اليه هذا التمييز وهو ما يتعلق بتناقض القيم الثقافية الموجهة لدور المرأة فى المجتمع. وهذا التناقض يبرز من خلال الادوار التى تقوم بها المراة داخل وخارج المنزل . فالمراة عضو من اعضاء المجتمع يختصها بأدوار تنهض بها . والمجتمع اذ يحدد لها الدور الانثوى التقليدى كربة بيت يحدد بذلك منزلتها الاجتماعية كزوجة وأم .

والمجتمع ، مع ذلك ، يدرك ان المراة كائن حي له قوى ذاتية لا يختلف فى ذلك عن غيره من الكائنات الانسانية ، فلا ثمة تمييز بينها وبين كل الكائنات الانسانية فى ذلك ، وهذا يحتم ان تتساوى مع غيرها فى الحقوق والواجبات .

ومن هنا يظهر التناقض فى تلك القيم الموجهة لدور المراة . فالمجتمع اذ يربطها بذلك الدور الانثوى يعود فيقر لها بالمساواة مع غيرها فى الحقوق والواجبات بوصفها كائنا حيا له قوى ذاتية .

ومن ذلك ان المراة تتساوى مع غيرها فى التعليم وفى القواعد القانونية الظاهرة ، وهي تحقق ذاتها على أساس مقدرتها ومواهبها هذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى نرى حياتها فى ارتباطها بزوجها وأطفالها وتحقق ذاتها بطريقة غير مباشرة تتمثل فى رعايتهم الرعاية التامة .

ومنذ ارتبط المفهوم التقليدى للانوثة بدور ربة البيت والزوجة والأم والمراة تواجه صراعا بين دورها فى المنزل ومسئوليتها فى رعاية شئون الأسرة ودورها فى المجتمع بوصفها كائنا حيا له قوى ذاتية تتيح له المساواة بغيرها دون تمييز .

ولذا فان الصراع الذى يواجه المراة الان انما هو صراع بين الادوار المتغيرة للجنسين . والدور القائم على أساس الجنس يكون قائما على أساس بيولوجى يحدد سمات معينة للشخصية ، واستجابات سلوكية تتلاءم والشخص ذاته .

فالناحية البيولوجية تفرض أن يكون اعضاء المجتمع ذكورا واناثا ، والمجتمع الصناعى الحديث قد أوجد فرصا للمساواة بين الذكر والأنثى ، ولكن فى نفس الوقت اختفى التمييز بين الذكور والاناث بوصفهم جميعا اعضاء فى المجتمع ، ومع ذلك يعود المجتمع ليحدد لكل منهما مجالات للعمل ويخص النساء برعاية الاطفال وتدبير شئون المنزل ، بل ورعاية الرجال ايضا .

فهذا الصراع الذى يواجه المراة حديثا يفرض عليها أن تختار بين سلوك الأنثى التقليدى وسلوك الذكر . فالرجل قد حصل على حقوق كثيرة كحق التعلم وحق التصويت، كما أن له الحق فى الحصول على وظائف معينة.

ولما كان المجتمع الذى اعترف للمراة بحق المساواة بالرجل هو نفس المجتمع الذى أعطى للرجل النصيب الاكبر من الحقوق فانه على الرغم من كل مانالته المراة من حقوق ، وخاصة حق التعلم ، فالحقيقة الهامة التي تتضح من ذلك هي أن المجتمع قد خص المراة بدور يعتبر اكثر الادوار أهمية ، الا وهو

الاهتمام بالاسرة ورعاية شئون المنزل ، وهذا يدل على أن التمييز بين الجنسين لا يزال قائما فى مختلف المجتمعات خاصة فى مجالى التعليم والعمل .

وتوضح نتائج احدى الدراسات التى أجريت فى احدى جامعات بريطانيا عن مجالات العمل والاسرة ، أن من الاسباب التى تجعل المرأة تحجم عن العمل فى مجالات عمل الذكور النظر الى هذه الاعمال على انها ليست اعمالا انثوية ، والمرأة تخاف ان توصف بأنها غير انثى اذا ما التحقت بهذه الاعمال .

وهذا نفسه ما حدث فى الولايات المتحدة حيث كان تعليل المرأة لانخفاض نسبة المشتغلات بالمهن الهندسية ، فالسبب الرئيسي هو خوف المرأة من أن توصف بأنها غير انثى. هذا بالاضافة الى أن الوالدين لا يشجعان بناتها على التدريب فى مثل هذه الاعمال .

وخلاصة القول ان التركيز على المساواة بين الجنسين ليس الا خداعا للنفس ، اذ انه من غير الممكن ان تتساوى المرأة بالرجل فى الحياة العامة أو خارج المنزل فى الوقت الذى لا تتساوى فيه بالرجل داخل الاسرة ، ورغم خروج المرأة للعمل والاشتغال ببعض المهن ، ورغم حصولها على حق التعليم العالى والتدريب فى مختلف المجالات ، وما أتيح لها الآن من فرص تؤهلها للدخول فى المجالات السياسية والمهنية الا أن هذا كله ليس الا مجرد خيال بالنسبة لغالبية النساء فى مجتمعنا .

خامسا ـ ربات البيوت ودورهن فى الوقت الحاضر :

لا شك أن كل فرد فى المجتمع يدرك من ربة البيت ، ويعرف ماهية هذا المدلول ، ولكننا نريد توضيح ماهية هذا المدلول فى المجتمع الحديث .

ان ربة البيت الحديثة تتمتع بشخصية متميزة ، وهذا التمييز انما يأتى من تعدد مجالات أنشطتها ، وكثرة الادوار التى تنهض بها .

فهي تقوم بدورها الانثوى كربة للبيت، وزوجة وأم ، وهي فى نفس الوقت تقوم بدورها كعاملة تمارس مهنة معينة فى اطار المجتمع الذى تعيش فيه ، ولذا كان لها كل خصائص الادوار الاخرى للعمل الا خاصية واحدة تتمثل فى عدم حصولها على اجر نقدى نظير ما تقوم به من أعمال منزلية .

وفى ضوء ذلك اختلفت الآراء فى تحديد وضع المرأة . يرى البعض أن الاهتمام بالشئون المنزلية ورعاية الاسرة ليس الا نوعا من العبودية والاستغلال للمرأة .

بينما يرى آخرون أن دور ربة البيت ليس الا اختيارا حرا لمهنة تعتبر مجالا للابداع الفردى والمهارة الخلاقة .

وهناك فريق آخر يرى أن ربة البيت انسانة مظلومة ، فى حين يرى غيرهم أن ربة البيت انسانة حرة لا تخضع لروتين العمل والقيود التى تفرضها نظم العمل الصناعى .

وهكذا ندرك ماكان من اختلاف فى الرأى حول وضع ربة البيت ومدى استجابتها للعمل المنزلى .

ويجدر فى هذا المجال أن نعرض لرأى ربة البيت ذاتها لنتعرف على نظرتها لذلك العمل ومدى تقويمها لوضعها وتصورها للمسئوليات التى تنهض بها ، وذلك من خلال الدراسة الميدانية التى تصل بنا الى الرأى الاصوب .

ومن واقع بعض المقابلات التى قامت بها المؤلفة ، ومن خلال الحالات التى درستها يتبين :

ان ربة البيت نفسها ترى ان أعظم شيء فى العمل المنزلى هو عدم خضوعه لقيودالعمل ومواعيده . فالعمل المنزلى يتيح لها حرية الحركة ، ولا يلزمها بالتقيد بمواعيد معينة .

كما تؤكد تلك الدراسة مدى ارتباط العمل المنزلى بالمراة دون الرجل ، وعدمرغبة المراة فى مشاركة الرجل لها فىالاعمالالمنزلية.

وهذا انما يعمق الاعتقاد السائد عن وجود اختلافات طبيعية بين الجنسين ، ويؤدى بدوره الى التاكيد على ان لكل من الجنسين دورا فى المجتمع يختلف عن دور الآخر ، فالذكر له دوره الذى يختلف عنه دور الانثى . هذا الى جانب العوامل البنائية الاجتماعية التى تشكل ضغطا كبيرا على المراة لتتدرج سيكولوجيا مع العمل المنزلى .

فالقيام بدور ربة البيت لا شك يتطلب نوعا من التدريب الذى يجب ان تهيأ له الانثى فى فترة مبكرة من حياتها وتلك التهيئة وهذا الاعداد يعتبر جزءا من تنشئتها الاجتماعية .

ومما يؤكد اهمية هذا التدريب ، بل واهمية ممارسته فى فترة مبكرة واعتباره جزءا من التنشئة الاجتماعية ما يلاحظ على ربات البيوت من قضاء وقت طويل فى العمل المنزلى لا يختلفن فى ذلك عن امهاتهن ، على الرغم من توفر الادوات التكنولوجية الحديثة التى تسهم فى انجاز العمل المنزلى بصورة اسرع ، والتى تسهم كذلك فى الاقلال من الجهد الذى يبذل فيه .

ولا شك ان طريقة اداء العمل المنزلى والمستوى الذى يتم انجازه عليه تختلف باختلاف من ينهض به ، ولكن اسلوب العمل ينتقل اساسا من الأم الى الابنة ، وهذا كله يتحدد من خلال التنشئة الاجتماعية لربة البيت .

وللعمل المنزلى اتجاهان مختلفان :

الاول : ان تأدية ربة البيت للعمل المنزلى يمثل جزءا من تصورها لذاتها .

الثانى : يفصل دور ربة البيت عن دور الأم ودور الزوجة .

والاتجاه الاول يمثل الاتجاه التقليدى الذى يسود بين ربات بيوت الطبقة العاملة ، ويرجع ذلك الى طول فترة التعلم وسن ترك المدرسة .

والعمل المنزلى يعتبر موضوعا شخصيا لغالبية النساء ، والرضا بقبوله أو عدم الرضا قد يكون بصورة غير مباشرة .

والمقابلات التى تمت لمجموعة من ربات البيوت . لموضوع البحث الذى قامت المؤلفة باجرائه تشير الى رضا غالبية ربات البيوت عن عملهن ، بل انها تشير الى اكثر من ذلك، فهن يعطين العمل المنزلى أولوية على الاعمال الأخرى التى يقمن بها .

وكان تركيز المؤلفة على حالات أربع ، درستها دراسة مركزة ، تناولت فيها :الحياة الزوجية، المسكن، الأثاث ، التعليم،المساواة، الزواج المبكر ، العمل بالاجر قبل وبعده والوظائف ذات المهارة المنخفضة . وتطرقت فيها الى اثر البيئة الاجتماعية فى تكوين الاتجاهات نحو العمل المنزلى ورعاية الطفل.

وقد اسفرت نتائج تلك الدراسة التاريخية عن أن العمل المنزلى يؤكد ذاتية ربة البيت ، كما اوضحت مدى الاهتمامالذى حظى به العمل المنزلى، فكثير من رباتالبيوت قد أقدمن على ترك الاعمال التى عملن بها قبل الزواج ، وخاصة بعد انجاب الاطفال ، كما اثبتت تلك الدراسة أن غالبية ربات البيوت يؤدين العمل المنزلى كما كانت تؤديه امهاتهن.

سادسا ــ مكانة المراة :

ان تحديد مكانة المراة ، وقصر دور ربة البيت عليها وتخصيص هذا الدور بها الى الحد الذى أصبح معه احدى الميزات التى تختص بها المراة دون الرجل ــ لم يكن النسق الصناعى وحده هو الذى ادى اليه ، بل ان هناك قوى أخرى قد تدخلت فى ذلك .

ومن هذه القوى مجموعة الاساطير التى تتحدث عن وضع المراة فى المجتمع ، والايديولوجية التى تتعلق بدور الجنسين وخاصة دور الأنثى ، وقصر اهتمامها على الشئون المنزلية .

وقد ظهرت اسطورتان تحددان مكانة المراة سنعرض للحديث عنهما لنتبين ما كان لهما من أثر فى تحديد تلك المكانة .

والاسطورة الاولى اذ تحدد مكانة المراة تعالج ذلك فى ضوء تقسيم العمل على أساس الجنس . اما الثانية فهي تحدد هذه المكانة على أساس الأمومة .

وتقوم الأسطورة الاولى اساسا على قصر دور المراة على الاهتمام بالشئون المنزلية والعائلية باعتبار انه الدور الطبيعى فى كل المجتمعات وعلى المراة أن توضح هذا الدور للمجتمع الذى تعيش فيه .

وفى ضوء تقسيم العمل حاول بعض العلماء مناقشة طبيعة دور المراة . ومنهم علماء الانثرولولجيا ، والسيكولوجى .

وعلوم الانثروبولجيا ، والأثيولوجيا ، والسيكولوجى تعتبر من المصادر العلمية التى قامت عليها اسطورة تقسيم العمل على أساس الجنس ، والتى تحدد مكانة المراة على هذا الاساس . ولما كان علم الأثيولوجيا يهتم بالدراسة البيولوجية للسلوك الاجتماعى (١) فقد حاول الأثيولوجيون من العلماء تفسير اسطورة تقسيم العمل على أساس الجنس .

فارتباط دور ربة البيت فى نظرهم بالمراة دون الرجل له جذور بيولوجية ، بل انهم يربطون كذلك تقسيم العمل فى المجتمعات الصناعية بين الذكر والأنثى بتقسيم العمل فى المجتمعات التقليدية فى الماضى والحاضر .

واذا كانت نظرة الاثيولوجى ترجع الى الطبيعة وتقوم على الافتراض فان نظرة الانثروبولوجى قد جاءت على عكس ذلك ، فهي تعتمد على معلومات معينة مستمدة من دراسات للمجتمعات التقليدية وكان (ميردوك) واحدا من الانثروبولوجيين الذين أقاموا الدليل على ذلك .

فالرجل يتمتع بقوة جسمية يتميز بها عن المراة ، وهذه القوة تمكنه من القيام بأكثر الأعمال مشقة ، فى حين تحتم الطبيعة الفسيولوجية للمراة قيامها بالأعمال التى تتطلب جهدا أقل كجمع الطعام واعداده ، وصناعة الملابس والنسيج .

وقد لوحظ ازدياد التخصص والتعاون بين الجنسين فى كل المجتمعات الانسانية على هذا الأساس البيولوجى .

واكتسب الرجل فى ضوء ذلك بعض المميزات ، فالمراة عليها أن تقوم برعايته ، فهي توفر له الطعام ، وتهيىء الظروف المنزلية المناسبة لراحته ، الى جانب ما تبذله من حب وحنان وعطف لتحقيق الرعاية العاطفية . ان الرجل لم يكتسب هذه الصفات فحسب ، انه اعتبرها حقا مكتسبا دائما ، وعلى المراة أن تنهض به وقد منح هذا الحق استنادا

---

(١) الاثيولوجيا : علم يدرس العلاقة بين الانسان والبيئة بمعنى آخر للعلاقة بين البيئة والشخصية . وهذا العلم يدرس الخصائص الثقافية التى تميز جماعة عن جماعة اخرى فكل مجتمع له شخصية اجتماعية مميزة .

الى الأساس الذى يرتكز عليه فى تقسيم العمل الا وهو الجنس .

والملاحظ أن الأثيولوجيا لم تختلف عن الانتروبولوجيا فى مناقشتها لموضوع دور ربة البيت ، وقصر هذا الدور على المرأة ، واختصاصها دون الرجل بالنهوض به ، بل ان كلاهما يعتبر ذلك نمطا سائدا فى البناء الاجتماعى لكل المجتمعات الانسانية .

وهذا الراى يواجه معارضة ، اذ ان تقسيم العمل لا يتم على أساس الجنس فقط ، وانما تمثل الاعتبارات الثقافية أساسا آخر فى هذا التقسيم ، فالدور الفسيولوجى الذى تنهض به المرأة ، والذى يتمثل فى الحمل والولادة والرضاعة وتربية الاطفال ، ليس وحده الذى يحدد التقسيم بين الجنسين فى المجتمع ، بل ان للقيم والمعتقدات السائدة عن الذكورة والأنوثة دورا آخر فى هذا التقسيم .

لقد ارتبط دور المرأة فى معظم الثقافات بل وفى كل انحاء العالم بالدور الانتاجى وخاصة فى فترة ما قبل التصنيع .

وارتباطها بهذا الدور الانتاجى كان يبعدها الى حد كبير عن العمل المنزلى ويستنفذ حيويتها ، ولكنه مع ذلك لم يتعارض مع دورها الذى تنهض به فى رعاية الاطفال .

وكان يساعدها على أداء هذا الدور والد زوجها او جماعة الأقارب ، كما ان اكبر الأطفال سنا يشارك فى المساعدة أيضا .

والمرأة لم يقتصر دورها على العمل الانتاجى وحده بل كان لها دور فى الحروب فقد شاركت فيها قديما وحديثا ، فهذه الملايين من النساء شاركت فى مختلف الاعمال فى الحرب العالمية الثانية ، ونهضت بالعمل فى الاعمال العسكرية بمختلف أنواعها ، وقامت بالمشاركة فى اعمال البناء والزراعة وان ذلك ليدل على أن المرأة نهضت بأعمال كثيرة خاصة بالذكور فى كثير من المجتمعات .

وكل ذلك انما يهدم اسطورة تقسيم العمل على أساس الجنس من أساسها ، حيث قامت المرأة فى مختلف المجتمعات بالاعمال التى تتطلب جهدا كبيرا .

ففى مجال الزراعة ، قامت المرأة البريطانية بالعمل الذى تطلب جهدا كبيرا فى هذا المجال . هذا فى القرن الماضى ، ولاتزال تمارس مثل هذه الاعمال فى انحاء العالم خاصة فى افريقيا ، فها هي تعمل بالزراعة بل وتعتبرها عملا نسائيا .

وتشير كثير من الدراسات الانثروبولوجية الى قيام المرأة بأعمال شاقة مثل أعمال البناء والتشييد والنقل ، كما تشير الى انها عملت فى بعض المجتمعات بالتجارة ، وتحملت فى سبيل ذلك الكثير من المشاق .

ومع اختلاف الثقافات فى نظرتها تجاه الاعمال التى يقوم بها كل من الجنسين فان هناك اتفاقا على أن رعاية الطفل تعتبر عملا طبيعيا بالنسبة لكل النساء وخاصة فى المجتمعات الصغيرة حيث تحمل المرأة الطفل اكثر الاوقات ، كما تقوم بأعمال اخرى تبذل فيها جهدا كبيرا .

ان اسطورة تقسيم العمل على أساس الجنس والتى تمثل الحقيقة الواقعة بالفعل ، قد سادت الثقافات الغربية الحديثة ، وقد ادت تلك الاسطورة الى التعميم بأن عمل كل من الرجل والمرأة يمثل نمطا واحدا فى كل الثقافات ، بل انها تؤكد كذلك ان هذا التعميم قائم على أساس بيولوجى ، مع وجود كثير من الأمثلة التى تكشف عن خطأ هذا التعميم .

كما أن القول بأن دور ربة البيت ليس قائما فى كل مجتمع ، وان وجوده يتوقف على نوع معين من المجتمعات قول غير صحيح ، حيث أن تعدد الثقافات لا يرجع الى القوى البيولوجية وحدها وانما يرجع الى قدرة الانسان على الخلق والابداع .

بقي أن نتحدث عن المصدر السيكولوجى الذى يعد أحد المصادر العلمية التى قامت عليها أسطورة تقسيم العمل على أساس الجنس . فالسيكولوجيون يؤكدون على الدور التقليدى للجنسين ويعتبرون ذلك أساسا لاستمرار النظام الاجتماعى وبقائه .

فالمصدر السيكولوجى اذن يعتمد على الاتجاه الوظيفى بتركيزه على أهمية الادوار التقليدية للجنسين .

فالمصدر السيكولوجى كالمصدر الانثربولوجى والاثيولوجي للاسطورة يؤكد الافتراض القائل بان وضع المراة فى المجتمع يتحدد بالضرورة بيولوجيا وعلى أساسه يتحدد مكان المراة فى بيولوجيا العائلة انطلاقا من ضرورة وجود من يقوم برعاية الاطفال فى الاسرة . والام هي التى تنهض بهذا الدور، ودورها هنا دور إجتماعى حيث انها تنهض بهذه الرعاية من الحمل والولادة ، وهي تهتم كذلك بشئون المنزل بل ورعاية الزوج نفسه فى الوقت الذى يكون فيه الرجل حرا منطلقا فى كثير من المجالات بينما تكون المراة مقيدة بالارتباط بالمنزل .

وذلك كله يتطلب تبريرا آخر غير التبرير البيولوجى ، والتحليل السيكولوجى لبناء العائلة يشير الى تأكيد القيم التقليدية لدور الجنسين ، ويفرق بين الدور المساعد أو المساند والدور التعبيرى ، ويعتبر دور المراة دورا تعبيريا ، وأساس ذلك الاعتبار ما تقوم به المراة تجاه العائلة من تقديم الحب والحنان والاستقرار لها ككل ، وما تقوم به من تدعيم للعلاقات بين افرادها . اما الدور المساند فان والد الزوج هو الذى يختص به.

ان السيكولوجى يؤكد أن دور الجنسين أساس لبقاء المجتمع فى صورته الحالية ، فدور المراة — كعاملة دون أجر ومربية وراعية للاطفال وقائمة على خدمة الرجل توفر له حاجاته الاسرية والعاطفية — استثمار اقتصادى .

ان استمرار النسق الاجتماعى فى الوجود، واستمرار العائلة كذلك أمر حتمى ، واستمرار هذا النسق يقتضى تقسيما للعمل يقوم على أساس الجنس كما يقتضى تمييزا للادوار فى العائلة ، وهذا يحتم أن تكون المراة ربة البيت، ولما كان دور ربة البيت دورا عائليا فان اسطورة تقسيم العمل على أساس الجنس تحمى النظام الاسرى وتؤكد شرعيته .

ومن ذلك نرى أن اسطورة تقسيم العمل على أساس الجنس هي أساس اسطورة العائلة لكل مصدر من المصادر العلمية السيكولوجى والانثروبولوجى ، والاثيولوجى .

هذا ما يتعلق بالاسطورة الاولى التى تحدد مكانة المراة على ضوء تقسيم العمل على أساس الجنس .

أما بالنسبة للاسطورة الثانية فانها تحدد تلك المكانة على أساس الامومة .

والامومة هي دور ثابت فى كل زمان ومكان ، لا يطرأ عليه تغيير أو تبديل فى حين يتغير دور ربة البيت ، بل ويتغير كذلك دور الزوجة .

وهذا الثبات الذى يتميز به دور الامومة تؤكده حاجات أساسية ثلاث :

الاولى : ان الاطفال دوما فى حاجة الى أمهاتهم .

الثانية : وان الامهات ايضا فى حاجة الى اطفالهن .

الثالثة : ان الامومة هي العمل الاكبر الذي تقوم عليه حياة المراة .

وهذه الحاجات الثلاث ، يكمل بعضها البعض ، وهي حقائق معروفة فى كل الثقافات وتحليل اسطورة الامومة يؤكد ذلك .

وهذه الحقائق تتضح فى عمليات التنشئة الاجتماعية حيث تركز التنشئة الاجتماعية

الاهتمام فى المرحلة الاولى على اعداد الانثى لدور الامومة كدور لكل الاناث . وان ابتعدت بعض النساء فى الوقت الحاضر عن هذا الدور نتيجة لما طرأ على المناشط الانثوية من تغيرات . فالمرأة تعهد الى غيرها مسئولية تربية الاطفال لكي تتفرغ للاعمال الاخرى ، ومع ذلك يصعب على المرأة ان تهتم بعدم حبها للاطفال أو بعدم رغبتها فى رعايتهم .

ان الكثير من نتائج بحوث علم النفس تؤكد حاجة الاطفال الى امهاتهم . ويمكن تقويم الامومة على أساس ما يمنح من العطف والحنان حيث يمكن للطفل ان يحصل عليهما ممن يقوم برعايته ، فالامر يتعدى ذلك بالنسبة لرابطة الامومة التى تمثل ارتباطا روحيا بين الطفل والأم . وهذا الارتباط الروحى بين الطفل والأم يؤكد أن اى رعاية يتلقاها الطفل من اى انسان آخر خلاف أمه لا تساوى مطلقا رعاية الأم . ولذا يتحتم على الأم أن تكون بجوار الطفل خاصة فى مرحلة الطفولة .

ولا تختلف الامهات العاملات عن غيرهن من النساء فى كل العصور والثقافات ، فهن يشاركن فى مناشط الحياة الاقتصادية الانتاجية فى المجتمع ، ويقمن فى نفس الوقت برعاية الاطفال ، وانما يكون الاختلاف فى نوعية الرعاية التى يحصل عليها الطفل ، واتجاهات الأم نحو العمل ، حيث ان تلك الاتجاهات هي التى تحدد نوع الرعاية التى يتلقاها الطفل وليس العمل ذاته هو الذى يحددها .

ولذا يكون الاعتقاد السائد بان عمل المرأة يتعارض مع وجود الاطفال اعتقادا لايزال غير صحيح . وما زال النقاش حول دور المرأة العاملة ومشاكلها قائما ، ولم ينته بعد ، وليس معنى ذلك انعدام المشاكل بالنسبة للأم غير العاملة ، فان لها مشاكلها التى تد تصرفها عن رعاية الاطفال ، واعباؤها المنزلية قد تحول بينها وبين امكانية توفير الاحتياجات المطلوبة لهم ، فخروج المرأة للعمل الذى يتحقق من ورائه الكسب المادى ليس وحده الذى يخلق المشاكل التى تعوق المرأة عن رعاية الاطفال وتوفير حاجاتهم . والحاجات العاطفية لايمكن لأحد غير الأم اشباعها سواء كانت تعمل خارج المنزل أم يقتصر ذلك على الاعمال المنزلية أو اى أعمال أخرى تشغل المرأة .

وحيث أن الأم ترتبط ارتباطا وثيقا بالطفل ، خاصة فى مرحلة الطفولة الاولى ، فعليها ان تصلح اخطاءها وتعدل سلوكها ليكون سلوكا مثاليا لما لذلك من تأثير فى حياة الطفل . فالاخطاء التى قد تقع فيها الأم تتغلغل فى حياة الطفل ، وعلى الرغم من ازدياد مشاكل الأمومة فى المجتمع الحديث الا انه يمكن التغلب عليها وحلها .

ومما سبق يتضح أن كلا الاسطورتين ، اسطورة تقسيم العمل على أساس الجنس واسطورة الأمومة ، يمثلان عاملا من العوامل الاساسية التى تؤكد ربط المرأة بالعمل المنزلى ، بل يشير مضمونها أيضا الى ظلم المرأة واضطهادها .

اوردت المؤلفة فى ختام كتابها فصلا يعرض لكيفية تحرر المرأة من الاعمال المنزلية التى تستغرق الكثير من وقتها ، والتى تكلفها جهدا كبيرا ، بل وتستنفد المزيد من طاقتها .

واساس اهتمام المؤلفة بهذا الأمر ماتراه من ان تحرر الأمة كلها رهن بتحرر المرأة ، وهي تعرض لذلك طرائق ثلاثا وضعها لينين ورآها سبيلا لتحرير المرأة من هذا العبء الذى يثقل كاهلها .

الطريقة الاولى : تتمثل فى الغاء دور ربة البيت .

الطريقة الثانية : تتمثل فى الغاء العائلة

اما الثالثة : فهي تتمثل فى الغاء تقسيم العمل على أساس الجنس .

وفيما يخص الطريقة الاولى التى تستشهد بها المؤلفة اعتبارها واحدة من

الطرائق المؤدية الى تحرير المراة ، والتى تتمثل فى الغاء دور ربة البيت ، فانها تعنى التركيز على نوع العمل الذى تقوم به المراة .

ان متطلبات هذه الوظيفة تفرض على كل النساء بلا استثناء ، وعليه فهي لا تتطلب استعدادا خاصا للنهوض بها .

كما ان هذا العمل لا تكتنفه حوافز أو دوافع تشعر المراة مع وجودها بالرغبة فى الابداع أو حتى محاولة التقدم فى هذا العمل، وهي كذلك لا تشعر بمتعة ما فى تاديته ، ولا يمكنها ان تحقق ذاتها من خلاله .

وقد تكون المسئولية الملقاة على عاتق ربة البيت حافزا من حوافز هذا العمل ،ولكن العزلة التى تفرض عليها للنهوض بهذه المسئولية تحول دون تحقيق الرضا لها او التقدير ممن حولها .

وعلى الرغم من بذل الكثير من المحاولات لتحسين العمل المنزلى وتعديل الظروف المحيطة به لتسهيل مهمة ربة البيت ولتمكينها من الممارسة الخلاقة المبدعة المحققة لذاتها الا ان ذلك كله لا يؤدى الى تحررها .

ان محاولة الغاء دور ربة البيت امر يحتاج الى مناقشة تنتهي برفضه او قبوله .

فهناك بعض الآراء التى تتفق على ان تهيئة الظروف المناسبة للنهوض بهذا العمل وتقدير أجر معين يمنح نظيره قد يؤدى الى اقبال المراة عليه ، بل قد يدفعها الى التقدم فيه . واصحاب هذه الآراء يرون ذلك اولى الخطوات لتحسين وضع المراة الاجتماعى .

وهناك آراء اخرى ترى ان الظروف كلها مهياة لاسعاد المراة فى حدود الامكان وتتصدى للآراء السابقة التى ترى تقرير أجر يمنح لربة البيت ، وانما تعارض تلك الآراء نظرا لانها سوف تضيف ظلما جديدا للمراة ، فالأجور حينئذ تكون بمثابة منحة وليست أجرا ، فالاجر يقدم فى هذه الحالة نظير قيام ربة البيت بتربية اطفالها ، وهذا لا يستقيم وما تقوم به الدولة من انواع الرعاية للطفولة والامومة ، وما يمنح من العلاوات الاجتماعية عند انجاب الاطفال . فهي وان قلت قيمتها النقدية تظل قيمتها الاجتماعية كبيرة وخاصة بالنسبة للأم .

ان سعادة المراة بالعمل المنزلى امر يحوطه الشك ، اذ أن التزامها بهذا العمل يفرض عليها ان تكون فى وضع التابع فى المجتمع ، والمجتمع كذلك ينكر اهمية العمل المنزلى لعمل منتج ، وكل ذلك يقف حائلا دون اى مطالب تهدف المراة من ورائها الى تحسين ظروف حياتها وتوفير أسباب الرضا لها .

وعلى الرغم من ذلك تشير كثير من نتائج البحوث الى ان المراة اكثر رضا من الرجل ، وهي كذلك اكثر قلقا ، وخاصة أولئك النساء اللاتى يعملن طول الوقت كربات بيوت .

ان أهمية العمل بالنسبة للرجل تفوق اهميته بالنسبة للمراة ، فالدور الأهم بالنسبة للمراة هو دور الزوجة والأم ، والاكثر من ذلك اهمية قبول المراة للوظائف التى تمثل قيمة بالنسبة للرجل .

وعلى ذلك فان المراة عليها أن ترفض الراى الذى يربطها بالعمل المنزلى وحده وهو الذى يرى ان المراة تعنى ربة البيت .

ولا شك ان الدعوة الى الغاء هذا الدور — دور ربة البيت — يتضمن الدعوة الى الغاء الاسرة ، فالاسرة رمز للعمل المنزلى ولاوجود لهذا العمل الا بوجودها .

اما فيما يختص بالطريقة التى تستشهد بها المؤلفة كسبيل لتحرير المراة فهي تتمثل فى الغاء العائلة أو الاسرة ، واساس ذلك أن الاعمال المنزلية تمثل نوعا من الاستعباد

للمرأة ، كما أن هذه الاعمال لا تعدو أن تكون مجالا تعليميا تجريديا لا تستفيد منه المرأة.

وتعتبر الاسرة رمزا للعمل المنزلى ، حيث ترتكز هذه الاعمال اساسا علىوجودها والنهوض بهذه الاعمال لا يخرج عن كونه عملية تعليمية الزامية بالنسبة للمرأة ، فالمرأة تغرس فى بناتها هذا الدور الثابت منذ الصغر ويتم ذلك من خلال توحد الام بابنتها على عكس علاقة الاب بالابن .

وهذه العلاقة تنشأ قبل ميلاد الطفل ، فالطفل جزء من أمه وتظل الانثى بعد الميلاد جزءا من الام .

وارتباط الطفل بالأم على هذا النحو يؤدى الى اكتسابه كل مايريد ان يتعلمه من الام ، والاسرة ممثلة فى ربة البيت تمثل موقفا تجريبيا يمكن للاطفال عن طريقه ممارسة الحب وتكرار السلوك الذى قد لا يكون منطقيا ، فالأم فى نظر الطفل هىالحاضر وهى المثل الاعلى للحب ، والهدية التىتقدمها الاسرة للمرأة تتمثل فى تهيئتها وتدريبها على النهوض بدور ربة البيت ، ولذا فان القول بالغاء دور ربة البيت يعنى بالضرورة الغاء الاسرة ، حيث أن ربة البيت هي الزوجة وهي الأم ، ومهما حدث من تغيرات فى العلاقة بين الرجل والمرأة على مر السنين فلن يغير ذلك من دور المرأة التقليدى الذى يتمثل فى القيام بالعمل المنزلى .

وقد اوضحت نتائج البحوث أنالزوجة العاملة تقصر فى دورها كربة بيت ، وان اى مكاسب تحصل عليها تكون على حساب هذا الدور .

وان ايديولوجية المجتمع هى التى تحدد دور الزوجين وبناء العائلة وهى غير قابلة للتعديل . وعلى ذلك يكون استبعاد الاسرة أو الغاؤها قولا لا فعلا ، وتصورا لا حقيقة .

والطريقة الثالثة التى تستشهد بها المؤلفة كسبيل لتحرير المرأة تتمثل فى الغاء تقسيم العمل على اساس الجنس . الحقيقة ان كثيرا من الثقافات يؤكد شيوع هذا الذى تدعو الحاجة الى الغائه .

وان الدعوة الى الغاء دور ربة البيت يؤدى ضمنا الى الغاء الاسرة ، ولكن ذلك ليس كافيا ، بل لا بد من التنبيه الى ضرورة الغاء التمييز بين الجنسين .

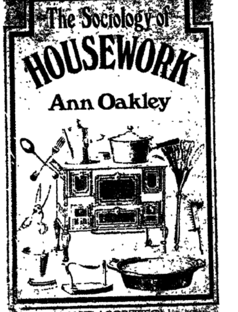
وهذه الطرائق الثلاث التى استشهدت بها باعتبارها السبيل لتحرير المرأة قد واجهت الكبير من المعارضة ، فالغاء دور ربة البيت والاسرة وتقسيم العمل على أساس الجنس كلها آراء لا يمكن ترجمتها الى واقع فعلى ، وتحقيقها رهن بتحديد وضع المرأة الاقتصادى والسياسى والقانونى فى المجتمع، هو أمر لم يتحقق بعد ، وتحقيقه يقتضى أن يغير الناس انفسهم أولا .

ولذا فالمرأة يمكنها أن تتحرر من العمل المنزلى عن طريق :

١ ـ رفض اى محاولة لربطها بالعمل المنزلى وتكرار تسميتها بربة البيت .

٢ ـ محاولة الحصول على كل ما تشاء من امتيازات لقيامها بتربية الاطفال . وعليها الا تعمد الى تعليم بناتها كيفية القيام بدور ربة البيت ، وتقلع عن غرس ذلك فىنفوسهن منذ الصغر ، وفى الوقت ذاته يجب أن ترتبط الابناء بالعمل المنزلى دون أن تخص الاناث بهذا العمل وتقصره عليهن .

٣ ـ محاولة التصرف فى العمل المنزلى وابتكار الاساليب التى تمكنها من انجاز هذا العمل فى اقصر وقت ممكن ، وعلى المرأة فوق ذلك ان تغير نفسها استعدادا لكسب معركة تحريرها .



سوسيولوجيا العمل المنـــزلي

ا . آن أوكلى *

عرض وتحليل الدكتورة سامية حسن الساعاتي

تأتى أهمية هذا الكتاب من انــه يفرض قراءته على كل مهتم بقضايا تحرير المراة ، فهو دراسةتتحدىالنظرة التقليديةالى العملالمنزلى التي تحاول دائما التقليل من شأنه ، كما أنها تتحدى اهمال السوسيولوجيين ، وبخاصــة المتخصصين فى علــم الاجتماع الأسرى وعلــم اجتماع العمل ، للعمل المنزلى ، كموضوععلمى جاد .

فقد دأب الباحثــون فى علــم الاجتماع الأسرى على دراسة المرأة اما من خلال دورها الاسرى كزوجةوام ، او من خلالدورها كعاملة خارج المنزل ، لكن دورها كعاملة داخل المنزل بدون أجر لم يحظ بدراسة جادة أو منظمة .

ويتناول هذا الكتاب قضية هامة وهي موقف علم الاجتماع التقليدى من المراة . كما يعرض بين دفتيه موضوعات جديرة بالاهتمام مثل : نظرة النسـاء للعمل المنزلى ، ونظرتهن لأنفسهن كربات بيوت ، ومشاعرهن المختلفةنحو العمل المنزلى ، واتجاهاتهن نحو الاعمالالمنزلية المختلفة من طهى وتنظيف .. الخ . ومدةالعمل المنزلىالذى تقوم بهالمراة محسوبا بالاسبوع . ومدى اهمية المعايير والروتين كطريقة للتأكد مــن أن العمل المنزلى يتم علــى وجه اكمــل ، وكأسلوب على مكافأة الذات .

وقد حاولت الباحثة فى هذا الكتابوضع تقييم يكشف عما اذا كانت النساء راضياتأو

* Ann Oakley, The Sociology of House Work, Martin Robertson, 1974

غير راضيات عن العمل المنزلي، ومدى الاختلاف في درجات الرضا بينهن . كما يتناول الكتاب أيضا الطبقة الاجتماعية ، وصلتها بالعمل المنزلي والرضا عنه، كما تناقش الباحثة تأثير التنشئة الاجتماعية على الحياة المنزلية للمراة ، وتحلل تقسيم العمل بين ربة البيت وزوجها في المنزل ، وتتفحص صعوبات الجمع بين العمل المنزلي ، وواجبات الأمومة .

وعماد هذا الكتاب دراسة قامت بها الباحثة في سنة ١٩٧١ على أربعين زوجة من ربات البيوت الانجليزيات الحضريات .

والباحثة توجه كتابها الى فئتين مختلفتين من القراء ، الأولى تتألف من المتخصصين في علم الاجتماع والثانية تتضمن هؤلاء الذين يهتمون بموقف ربة البيت اهتماما خاصا دون ان تكون لديهم معرفة بعلم الاجتماع ، لذلك فقد جاء الكتاب في جملته جليا واضحا .

وعلى الرغم من أن العينة التي يثني عليها هذا الكتاب، كانت عينة انجليزية ، فان وضع الزوجة ربة المنزل فيها ، ينطبق في أساسياته على الزوجات في مجتمعات صناعية معاصرة أخرى .

فصول الكتاب :

يحتوي هذا الكتاب على مقدمة وتسعة فصول وخاتمة . وتكرس الباحثة **الفصل الاول** وهو في رأينا أهم الفصول على الاطلاق ، من وجهة النظر السوسيولوجية ، لقضية هامة ، وهي قضية التحيز الذكري في علم الاجتماع . ولايتأتى تقييمنا لهذا الفصل على أنه أهم فصول الكتاب من أهمية موضوعه فقط ، بل لان هذا الموضوع هو الفكرة الاساسية التي تتكرر في كل فصول الكتاب ، بل وفي كتب المؤلفة الاخرى ولعل ذلك انعكاسا لاصداء موضوع التحيز ضد المرأة لا في علم الاجتماع بخاصة ، بل وفي العلوم الاجتماعية بعامة ذلك الموضوع الذي أصبح يشغل عديدا من الباحثين المتخصصين .

وفي هذا الفصل تعرض المؤلفة لوضع المرأة في المجتمع اليوم ، ذلك الوضع الذي تصفه بانه معوق ومنتقص من قدره . فعلى الرغم من كثرة التغيرات القانونية والتشريعية في صالحها ، ومن صغر حجم الاسرة ، ومن فرص التعليم والعمل التي زادت وتحسنت وانفتحت امام النساء ، خلال القرن الاخير ، الا انه ما زال هناك تفاوت ملحوظ بين الادوار الاجتماعية والاقتصادية للرجال والنساء ، وقد شكل انبعاث نظرية المساواة بين الجنسين سياسيا واقتصاديا واجتماعيا ،في شكل حركة تحرير المرأة ، هجوما عنيفا على هذه الفروق والتفاوتات .

ويبدو أن الموقف الذي نشهده الآن ليس نتاج الدعامات البيولوجية لادوار الجنسين وحدها ، ولا هو حصيلة التفاوت الذي تفرضه وتصر عليه نظم المجتمع ومؤسساته المختلفة فقط ، وانما يرجع التمييز والتفرقة بين الرجال والنساء الى الاتجاهات والمعتقدات الاجتماعية السائدة في المجتمع .

ان حقيقة وضع المراة كما ترى المؤلفة يكمن في أنه يتشكل يوميا من هذه الاتجاهات .. ان النساء يصبحن على الوجه الذي هن عليه ، تبعا للطريقة التي يتوقع منهن أن يكن عليها ، أو التي يفكر الناس فيهن على اساسها .

وتأسيسا على ما تقدم فاننا لا نجد أن التمييز والتفرقة ضد النساء موجودان في المجتمع الكبير فحسب ، بل ان هذا التمييز وتلك التفرقة ينسحبان أيضا على الميدان الاكاديمي ويتضح ذلك بجلاء في علم الاجتماع ، العلم الذي يدرس الواقع الاجتماعي ، وحيث نجد فيه تحيزا واضحا ضد المراة ، يعكس ، بل يطابق ذلك التمييز وتلك التفرقة الموجودين في المجتمع الكبير بحيث يمكن القول ان التحيز

ضد المراة فى علم الاجتماع انما يشكل الوجه الآخر للعملة للتمييز والتفرقة الموجهين ضدها فى المجتمع الكبير .

وتحاول المؤلفة فى هذا الفصل الهام ان تناقش موضوعين اساسيين ، وثيقى الصلة بالآخر : اولهما هو اهمال علم الاجتماع للعمل المنزلى كموضوع علمى جاد ، وثانيهما وهو الاكثر شمولا ويتركز فى التحيز ضد المراة فى علم الاجتماع ككل .

ان علم الاجتماع علم متحيز ضد المراة ، لانه علم موجه توجيها ذكريا (Male Oriented) وتعنى المؤلفة بذلك انه يمثل تركيزا على انشطة الذكور واهتماماتهم في مجتمع متمايز من حيث الذكورة والأنوثة . ان الوضع الاجتماعى للرجل اليوم متناقض الى حد كبير مع الوضع الاجتماعى للمراة ، من الناحيتين البنائية ، والايديولوجية على السواء . كما نجد أن النسق القيمى السائد فى المجتمعات الصناعية الحديثة يخلع على الادوار الذكرية اهمية وقدرا أعظم مما يفعله بالنسبة للادوار الانثوية ، وبالمثل نجد ان هذا التحيز وتلك التفرقة ينعكسان على علم الاجتماع ، الذى ينحو الى تبنى قيم المجتمع الاكبر . وعلى الرغم من ان الموضوعية التى تمثل مسلمة اساسية من مسلمات المنهج السوسيولوجى ، يمكن ان تقلل كثيرا من التحيزات الظاهرة فى مجال علم الاجتماع ، الا انه يبدو انها لم تؤثر تأثيرا عميقا فى هذا التحيز المتأصل ضد الاناث فى علم الاجتماع .

ان وضع المراة كموضوع فى علم الاجتماع يعطينا انطباعا محرفا عن الواقع الاجتماعى الحقيقى لوضعها في المجتمع ، ذلك لان علم الاجتماع لا يعطينا صورة صادقة لدور المراة واهميتها ، وحجم تجاربها ، وذلك بهدف ان تتفق صورتها مع الصورة المحددة لها سلفا فى علم الاجتماع ، والموجهة توجيها ذكريا فى المحل الاول .

ويعد التوجيه الذكرى من وجهة نظر المؤلفة اهم المشكلات المسئولة عن اختفاء المراة وقلة ظهورها على مسرح علم الاجتماع ، ذلك ان التركيز الذكرى المتجسد فى تحديد موضوعات علم الاجتماع انما يقلل من شأن المراة ويفرد لها منذ البداية مكانا جانبيا ، ويجعلها دائما موضوعا ثانويا ، ولذلك فان التصنيف الحالى لموضوعات علم الاجتماع لا يعنى الكثير من وجهة نظر النساء فى وضعهن الحالى .

فاذا ما تناولنا العمل المنزلى على سبيل المثال ، وهو عمل اساسى للمراة ، فسنجد ان اغفال هذا الموضوع من ميدانى علم الاجتماع الاسرى ، واجتماعيات العمل انما ينقل بوضوح انطباعا محرفا ومشوها عن موقف المراة الحقيقى . فليس هناك اهتمام بمدى اهمية العمل المنزلى للمراة ، لا من حيث مقدار الوقت الذى تنفقه فى الانشطة المنزلية والعناية بالمنزل من جهة ، ولا من حيث المعنى الذاتى للعمل المنزلى بالنسبة للمراة الذى يمكن ان يختلف باختلاف المواقع الاجتماعية ، والطبقية من جهة اخرى .

ويعد ذلك تناقضا بين وجود المراة فى علم الاجتماع ووجودها الاجتماعى الحقيقى ، كما يعد ايضا دليلا على فشل علم الاجتماع فى أخذ خبرات المراة وواقع حياتها فى الاعتبار . ويمكن ان يوحى ذلك باعادة تصنيف موضوعات علم الاجتماع وميادينه بحيث تمثل كلا المنظورين الذكرى والانثوى على السواء .

وتمضى المؤلفة الى الفصل الثانى من الكتاب لتحلل العمل المنزلى بوجه عام ، وتصف البحث الذى قامت به بوجه خاص . وترى انه على الرغم من ان هناك ميلا ، يتزايد فى السنين الحالية ، الى تقليل حدة الفروق النوعية بين الذكور والاناث فى عالم العمل والمهن والوظائف ، فسيظل هناك دائما دور وظيفى انثوى برمته وهو دور ربة البيت .

وعلى الرغم من انه ليس هناك قانون يمنع الرجال من القيام بهذه الوظيفة ، الا أن هناك ضغوطا اقتصادية واجتماعية وسيكلوجيةتقف عائقا امام الرجل ،وتمنعه من الدخول في رحاب هذه المهنة .

وتبدأ المؤلفة هذا الفصل بتعريف ربة البيت ، ويرتكز هذا التعريف على مفهوم المسئولية ، وعلى ذلك تكون ربة البيت هى الشخص المسئول وحده (دون الخادم المنزلى) عن معظم المهام المنزلية ، أو عن الاشراف على الخادم المنزلى الذى يقوم بهذه المهام . وقد تكون ربة البيت متزوجة كما قد لا تكون ، كما قد تكون عاملة خارج المنزل وقد لاتكون ، وقد أفصح ذلك المسح الذى قام به «هنت» (Hunt) عن ان تسعة اعشار النساء من غير العاملات خارج منازلهن كن ربات بيوت متزوجات . كما كانت سبعة أعشار العاملات خارج منازلهن من ربات البيوت . (١) وعلى هذا لايكون دور ربة البيت دورا انثويا فقط ، بل انه يعد الدور الوظيفى الرئيسى للمراة فى عصرنا الحالى ، لان مسئولية ادارة المنزل هى مسئولية مشتركة بين معظم النساء البالغات.

ذلك اذن هو التبرير الاساسى لدراسة العمل المنزلى ، فانه يمثل الخبرة اليومية المتكررة فى حياة معظم النساء اللائى يكون احصائيا قسما كبيرا بين السكان .

وتنتقل الباحثة بعد ذلك الى وصف دراستها ، التى تطلق عليها المسح الاستطلاعى الكشفى ، والسبب فى هذه التسمية يرجع كما تقول الباحثة الى ندرة البحوث والدراسات فى هذا الموضوع الذى صادف اهمالا بالغا فى علم الاجتماع .

وتبدأ بتعديد أهداف دراستها التى تجملها في ثلاثة أهداف رئيسية ، أولها يتضمن وصف موقف العمل المنزلى ، واتجاهات ربة البيت نحو ذلك العمل ، والثانى يتبلور فى فحص نماذج الرضا ، وعدم الرضا عن العمل المنزلى فى علاقته بعدد من المتغيرات التى تتضمن الطبقة الاجتماعية، والتربية والتعليم، وتقسيم العمل فى الزواج ، والاجهزة والمعدات الفنية ، ونماذج التفاعل الاجتماعى .. الخ . اما الهدف الثالث والاخير فينحصر فى اقتراح الفروض الممكنة والموجهة نحو تفسير الفروق

---

(١) تتفق هذه النتيجة مع نتائج توصلت اليها باحثات مصريات ، جاء فيها ما يلى :

« يتضح مما سبق بالنسبة لتقسيم العمل الخاص بشئون المنزل بين الزوجين فى الاسرة الحضرية ان الزوجة العاملة فى معظم الحالات تقوم بعمل كل شيء يتعلق ببيتها بعد عودتها من عملها ، وانه ليس صحيحا ما يذهب اليه البعض من ان الام المشتغلة لا تقوم باى عمل منزلى فى بيتها . وقد تبين من استعراضنا لما سبق من الاعمال المنزلية ، ومدى لمسنا لاضطلاع الزوجة بالمنصب الاكبر في الغالبية العظمى من تلك الاعمال جميعا ، وهذا على الرغم من وجود الخادمة في الكثير من الاحيان » .

انظر : سامية حسن الساعاتى ، الدور الوظيفى للزوجين في الاسرة المصرية ، دراسة ميدانية فى الريف والحضر ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية الاداب ، جامعة القاهرة ١٩٧٢ ، ص ٥٤١ .

« ويتفق هذا مع ما وجدته « فوزية دياب » عند تقصيها النشاط المنزلى لعينة تبلغ الواحد والسبعين من الامهات العاملات ومدى اسهامهن في اعمال البيت . اذ تبين لها ان اغلبية الامهات العاملات ونسبتهن ٦٤ر٨٪ من مجموعهن يقمن بكل الاعمال فى البيت بعد عودتهن من العمل ، وان اقلية من هؤلاء الامهات العاملات بنسبة ١٢ر٧ ٪ من المجموع يقمن بالاشراف فقط على شئون البيت ، بينما تقوم ٢٢ر٥ ٪ من المجموع بالاشراف والاشتراك فى بعض الاعمال » .

انظر : فوزية دياب ، دور الحضانة والمجتمع ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية الاداب جامعة عين شمس ، ١٩٧٠ .

بين ربات البيوت فيما يختص باتجاهاتهن نحو العمل المنزلى ، وموقف العمل المنزلى ذاته . .

وقد تكونت العينة من أربعين من ربات البيوت الانجليزيات والايرلنديات اللائي تتراوح سنهن ما بين العشرين والثلاثين ، اثناء اجراء الاستبار ، وكن جميعا من الامهات ولهن طفل واحد على الاقل عمره اقل من خمس سنوات ، وقد تم اختيارهن من واقع التقارير الطبية لاثنين من الاطباء العموميين . وقد تم استبار أفراد العينة فى أوائل سنة ١٩٧١ ، وكان عماد البحث استبارا مقيدا باستبيان ، وكانت تلك الاستبارات مسجلة على شرائط تظل مدة تصل الى حوالى الساعتين فى المتوسط . وعلى أساس من اجابات الاستبارات قننت الباحثة مقياسا لقياس الرضا عن العمل المنزلى بدرجاته المختلفة ، كما توصلت الى اختبار مظاهر أخرى داخل موقف العمل المنزلى ذاته ، وتشمل الرضا وعدم الرضا عن العمل المنزلى والعناية بالطفل ، والزواج ، والعمل الخارجى بأجر ، كما كان هناك تقييم لدرجة توحد المرأة مع دور ربة البيت ، وأهمية تحديد معايير للعمل المنزلى وروتينيته .

وترى الباحثة أن النتائج التي حصلت عليها من بحثها انما تنطبق على مجتمع العينة فقط ، لكنها تذهب ايضا الى أنه ليس هناك من سبب يدعونا الى القول بأن هذه العينة هي عينة غير ممثلة ، وبخاصة انه ليس هناك دليل على أن تلك التسجيلات لا تعكس الواقع .

وتمضى الباحثة فى وصف دراستها ، فتقول ان نصف عدد النساء البالغ مجموعهن أربعين كن من الطبقة العاملة ، اما نساء النصف الآخر فكن من الطبقة الوسطى .

- **اما الفصل الثالث** فيعطينا فكرة واضحة عن صور العمل المنزلى وتبدؤه المؤلفة بعرض فكرتين نمطيتين سائدتين عن العمل المنزلى فى التفكير الشعبى المعاصر : الفكرة الاولى تذهب الى ان ربة البيت عاملة مظلومة ، تستعبد فى عمل محقر ، كريه ، بغيض ، يتضمن بالضرورة انكارا كبيرا للذات . أما الفكرة الثانية فترى ان العمل المنزلى يعطى فرصة غير محدودة للقيام بمجهودات خلاقة مبدعة . ولا تنظر هذه الفكرة الى العمل المنزلي على أنه عمل بل على أنه صناعة منزلية يشكل فيها المنزل وزارة للمالية .

وقد ظهر من خلال فحص الاربعين استبارا ، أن هناك مفهوما واضحا للعمل المنزلى كعمل قد بدأ يبزغ . فالنساء فى عينة البحث يخبرن العمل المنزلى ، ويعرفنه على انه عمل مماثل لذلك الذى يتطلبه أى موقف عمل ، وقد ارتبطت ملاحظات هؤلاء النساء ارتباطا وثيقا بنتائج علم اجتماع العمل ، فقد كان لمظاهر العمل المنزلى التي اطلق عليها انها مشبعة أو غير مشبعة نظائر فى عالم المصنع ، والمكتب . ويتأكد هذا التطابق بوجود ميل لدى النساء لمقارنة انعكاساتهن نحو العمل المنزلى بخبرتهن فى العمل خارج منازلهن .

وقد كانت هناك اسئلة تكشف عن ايجابيات العمل المنزلى وحسناته كما يفصح عن سلبياته ، ومساوئه . وقد تبلورت ايجابيات العمل ، كما عبرت عنها الزوجات فى مظاهر كثيرة اهمها الاستقلال والذاتية ، ووجود الاطفال ، ، وتوفير ظروف العمل الحر ، وعدم الاضطرار للخروج من المنزل ، ووجود الزوج ، وتوفير الحياة العائلية ، وقد قصدت عينة الزوجات بالذاتية والاستقلال ، التحرر من الرقابة ، والقدرة على تحديد ايقاع العمل المنزلى وسرعته . وقد استخدمت حوالى نصف الزوجات المستبرات فى اجابتهن عن هذه الاسئلة عبارة « انك تكون رئيس نفسك » ليصفن شعورهن ازاء العمل المنزلى . وقد احتوت اجابات الكثير من هذه الاسئلة على

مقارنة عقدتها النساء بين العمل المنزلى والعمل الوظيفي خارج المنزل مثل :

« انك الى حد كبير تكونين سيدة نفسك. انك تستطيعين ان تحددى ما تريدين أن تفعلى وما لا تريدين ، انه شىء مختلف عن الوجود فى عمل وظيفي ، حيث يدق احدهم الجرس ، فتضطرين الى الصعود او الهبوط لتلبية طلبه ، أو حيث تجدين نفسك مضطرة لانجاز هذا العمل أو ذاك فى غضون نصف ساعة » .

وفى اجابة اخرى نجد تعبيرا آخر عن مظاهر الاستقلال والذاتية مثل :

« ان اعظم محاسن كونك ربة بيت ، هو انك لا تضطرين الى الاستيقاظ مبكرا ، والذهاب الى العمل » .

وفى الحقيقة ان الذاتية والاستقلال فيما يتعلق بربة البيت هي امر نظرى اكثر منه واقعى متحقق ، فكونها رئيسة نفسها يفرض عليها واجبا ، هو انها لا بد ان تنجز العمل المنزلى وتتأكد من ان كل شىء فى موضعه . ومسئولية العمل المنزلى هى مسئولية من جانب واحد فقط ، والفشل فى تحملها ، قد يكون له نتائج بعيدة المدى ، وبخاصة على الزوج والاولاد .

ان حقيقة كون الانسان رئيس نفسه يضيف الى الضغوط السيكلوجية لاداء العمل المنزلى اكثر من كونه يخفف منها . وتوضح احدى الزوجات ذلك بقولها :

« ان أسوأ شىء يتعلق بالعمل المنزلى هو انك تضطرين لادائه لمجرد انك فى المنزل . وعلى الرغم من أنى املك حرية الاختيار فى الا اقوم به ، فانى اشعر أنى لا استطيع ، لانه يجب أن اقوم به » .

وتصوره أخرى بقولها :

« ليس هناك احد يمسك لى سوطا اذا لم اقم بالعمل المنزلى ولكنى اعرف ، اننى اذا لم افعل ، فغدا سيكون على أن اقوم بضعف العمل ، ففى الحقيقة اننى اقوم بامساك السوط لنفسى » .

ان مسألة حرية العمل المنزلى يمكن اختزالهافى انهاحرية من ، وليستحرية لفعل . انها حرية ربة المنزل من الرقابة ، لكنها ليست حرية لها لتختار ما تفعله من انشطة .

وعندما سئلت الزوجات عن مساوىء العمل المنزلى تبلورت الاجابات بالترتيب فى العمل المنزلى نفسه ، والرتابة ، والتكرار والسأم ، والمسئولية المنزلية المستمرة والعزلة والوحدة ، وضرورة الانتهاء من العمل المنزلى والتقيد الشديد بالمنزل .

وعندما طلب من الزوجات ان يقارن عملهن المنزلى ، بعمل ازواجهن ، كانت معظم الاجابات تشير الى انهن يعتقدن انهن يعملن اكثر من ازواجهن ، بينما ذهبت نسبة قليلة منهن الى أن الزوج يعمل اكثر ، أو أن هذه المسألة تتحدد بنوع الشخصية من جهة ، ونوع العمل من جهة أخرى . وقد صورت احدى الزوجات ذلك بقولها :

« لا شك ان ربات البيوت يعملن اكثر . ان زوجى يعود دائما من عمله ، ليقول لى : لقد جلسنا اليوم وتحدثنا فى كيت وكيت . أو لقد كان يوما مسليا فقد ضحكنا ، وتسامرنا حول كذا من الموضوعات . اما انا فلا افعل ذلك ، انى لا أجلس لحظة » .

وكثيرا ما يوصف العمل المنــزلى بانــه « عمل لا ينتهى » ، ويذهب البعض الى انــه عمل اكثر ارهاقا من الناحية الجسمية ، من اى عمل آخر مأجور . وتذهب بعض السيدات الى القول بانه يأخذ جهدا عاطفيا اكثر من أى عمل آخر بالاضافة الى الجهد الفيزيقى . وتشير بعض السيدات الى طبيعة الاعمال المنزلية غير البناءة ، كما يلفتن الانظــار ، الــى الاحباط العاطفى الذى ينشأ عن كون احســاس ربــة البيت بأنها مشدودة الى طاحونة ، أو ساقية ، يتطلب منها ان تؤدى الفعل نفسه مرات ومرات .

والزوجات بوضعهن العمل المنزلى ضمن الاعمال اليدوية ، يجعلنه بذلك فى مرتبه عالية من مراتب الاعمال . وقد كان هذا الدفاع عن العمل المنزلى ضرورى من جانب الزوجات ، ازاء الاهمال السائد لهذا العمل ، وازاء النظر الى ربة البيت على أنها مدبرة منزل تعمــل بحريتها ، ووفق ما يحلو لها .

وعندما سئلت الزوجات عن مشاعرهن ازاء كتابتهن لوظيفتهن كربات بيــوت فى أيــة صحيفة أو أوراق رسمية . اجابت اكثر مــن نصف افراد العينة بأنهن يستشعرن حرجا ، ومشاعر بالاقلية نشأت من أن العمل المنزلى عمل اقل من غيره من الاعمال ، وهن يعبــرن عن ذلك بكتابتهن فى تلك الاوراق : « مجرد ربة بيت » . ان هذه الكلمة مجرد ربة بيت أو ربة بيت فقط تعنى الكثير ، انها تصور مدى شعور ربة البيت بتقليل المجتمع من شأن هذا العمل مقارنا بالاعمال الاخرى ، كما ان هذا يتضمن ايضا تقليلا من شأن ادوارها كزوجة وأم . وتصور احدى افراد عينة البحث هذه المشاعر اصدق تصوير حين تقول : « انى اكره كلمة ربة بيت ، وعندما يسألوننى من أنت ؟ وماذا تعملين ؟ واجيب بأنى أم ، ولى أولاد ، واننى زوجة ، فانهم يهزون رؤوسهــم باستخفاف قائلين : أوه ، مجرد ربة بيت اننى أتعجب . . . مجرد ربة بيت ! أشق مهنــة فى العالــم . . . ينظر اليها بهذه الطريقة ؟! » .

ويتبين مما سبق ان مســألة التصنيف المهنى او الوظيفى مرتبطة ارتباطا وثيقا بصورة الذات ، لانها تعكس كيفية رؤيــة الزوجــات لانفسهن كربات بيوت ، ولكــن مهمــا كــان مستوى توحد الزوجات الذاتي مع دور ربــة البيت ، فيكفى ان الفكرة السائدة عنه فى ثقافة المجتمع هو أنه عمل تافه وضيــع ، منخفض المكانة بالنسبة للاعمال الاخرى ، وهــذا مــا يخلع عليه اوصافا معينة مثل العمل الممل ، او العمل التافه ، ومــا يخلع علــى ربــة البيت اوصافا مثل المملة ، والغبية . . . الــخ مــن الاوصاف السلبية وتصور أحد الزوجات ذلك بقولها :

« انى اتحرج من كتابة ربة بيت على أية اوراق رسمية ، انى افضل أن أكتب سكرتيرة مثلا أو اية وظيفة أخرى ، فــان لها انعكاســا احسن ، ان معظم الزوجات ربات بيوت ، وهذا يبدو رتيبا مملا . انك لا تتوقــع حينئــذ الا التنظيف ، والاتربة ، والطبخ » .

تنتقل الباحثة بعد . ذلك الــى نقطــة اخرى جديرة بالاهتمام وهى مسألة الخلط بين الانشطة المختلفة التي يتضمنها العمل المنزلى ، ومدى الحاجة الى تحديدها ، وتصنيفها . ان العمل المنزلى فى رأيها هو مجموعة من الاعمال غير المتجانسة التى تتطلب مهارات متنوعة ، وانواعا مختلفة من النشاط ، فمسح الارضية يختلف عــن الذهــاب لشراء بعض اللحــوم

والفاكهة ، وطهي وجبة يختلف عن غسل الملابس ... الخ . واطلاقنا الاسم نفسه على كل هذه الاعمال امر يتضمن انكارنا لوجود اختلافات وفروق بينها . ففى الحقيقة توجد بين هذه الاعمال ، اعمال احب من الاخرى ، واعمال اقل رتابة وبعثا على الملل ، واخرى اكثر خلقا وايجابية ، وهكذا . وجدير بالذكر أن كل عمل من الاعمال التي تقوم بها ربة البيت كالطهى ، وغسل الملابس ، وكيها ، وتنظيف المنزل يمكن أن يشكل دورا مهنيا مأجورا .

ومن تحليل المؤلفة للاعمال المنزلية المختلفة وجدت أن اهمها هى : التنظيف والتسوق، والطهى ، وغسل الاطباق، وغسيل الملابس ، والكى . وقد كانت هناك أسئلة من احب هذه الاعمال الى قلب ربات البيوت وعن أبغضها اليهن ، كشفت الاجابات عن أن أبغض تلك الاعمال ، كان كى الملابس لانه عمل مجهد رتيب ، يتلوه العمل الخاص بغسيل الاطباق لما فيه من قذارة ، وتكرار . أما تنظيف المنزل فأتى ترتيبه الثالث من حيث كراهية ربات البيوت له ، ذلك لانه عمل متكرر لا ينتهى ، كما انه على العكس من عملية التسوق ، عمل يؤدى فى عزلة وصمت ، فعندما تعمل المكنسة الكهربائية فانها لا تستطيع تبادل الحديث مع الآخرين ، بعكس ما يحدث لعملية الطبخ والكى، فيمكن لربة البيت تأديتهما وهى تتحدث الى صديقة مثلا . وتأتى بعد ذلك فى الترتيب الاعمال الخاصة بغسل الملابس والتسوق ، والطهى . أما بالنسبة لغسيل الملابس فهو عمل اقل بغضا الى ربات البيوت من غسيل الاطباق، رغم أن كلا العملين يتطلب ازالة القاذورات من الاشياء .

ويعزى ذلك الى أن هناك ارتباطا شخصيا بالملابس . فالملابس التى تغسلها ربة البيت تنتمى الى زوجها أو أحد ابنائها ، او اليها ذاتها . يضاف الى ذلك أن وسائل الاعلام تركز على عملية الغسيل وتغلفها بهالة جميلة فى اعلاناتها التجارية عن المنظفات المختلفة موحية الى ربة المنزل بأن نقاء غسيلها وبياض لونه هو أحد واجباتها الاساسية .

وجدير بالذكر أن استخدام الآلة بالنسبة لعمليتى غسيل الاطباق وغسيل الملابس ، يقلب اتجاه ربة البيت اليهما من كره الى تقبل ، وقد لوحظ ذلك بالنسبة الى الكثير من أفراد العينة (٢) .

أما التسوق، كدور من ادوار ربة البيت، فأمره مختلف ، ذلك انه دور اكثر اجتماعية ، فهو يتطلب غيابا عن مقر عملها وهو المنزل ، لذلك فقد ذكرت معظم الاجابات أن التسوق من الاعمال المحببة لانه يتضمن خروجا من المنزل ، ومقابلة للناس ونوعا من التغيير من جو المنزل . وقد ذكرت بعض السيدات انهن لا يحتجن للخروج من المنزل يوميا للتسوق ، لكنهن يفعلن ذلك لمجرد الخروج من المنزل ، او لاعطاء صغيرهن فرصة لنزهة قصيرة . ورغم هذه المزايا المرتبطة بالدور الاستهلاكى لربة

---

(٢) تتفق هذه النتيجة مع نتائج بحث مصري ، تقول فيه صاحبته :

« ان الزوجات انفسهن اصبحن يتضايقن من اداء الاعمال الخاصة بالغسيل ، وغسيل الصحون بالطرق التقليدية لانها تتضمن قدرا كبيرا من (المرمطة) . ولكنهن يقبلن عليها كلما اصبحت آلية . »

انظر : سامية حسن الساعاتي ، المصدر السابق ، ص ٥٤٣ .

البيت فان هناك سلبيات لهذا الدور تتبلور فى المصاعب الفيزيقية . فاصطحاب أطفال اثناء عملية التسوق ترهق ربة البيت جسمانيا وعقليا ، فان الجمع بين عملية التسوق وبين رعاية طفل او اكثر اثناءها يجعل اهتمام ربة البيت موزعا ، ويقلل من كفاءتها كمشترية كما أن الانتظار الطويل فى بعض المجمعات الاستهلاكية ، او المحلات أمر يبعث على الملل . ويلاحظ أن هناك فرقا بين نوعين من التسوق : تسوق بشكل جزئي ، ويحدث يوميا تقريبا لشراء متفرقات بكميات قليلة ، وتسوق آخر كلى يأخذ شكل التخزين ويحدث مرة اسبوعيا أو كل اسبوعين . وهذا النوع الاخير من التسوق هو الاكثر كراهية من جانب ربات البيوت لانه يتطلب جهدا مضاعفا فى شرائه وتوصيله الى المنزل ، ولا شك أن وجود سيارة ، وهو أمر لا يتوفر للكثيرات ، يسهم فى التقليل من حدة كراهية هذا العمل .

اما العمل السادس من الاعمال المنزلية الرئيسية فهو الطهى ، والذى اعتبرته جميع ربات البيوت اللائي تضمنتهن العينة اكثر الانشطة المنزلية قربا الى قلوبهن لانه يمثل فى رأيهن فنا خلاقا،واستعراضا للقدرة والمهارة. ولا شك ان نظرة ربات البيوت للطهى على أنه عمل فنى خلاق ، يمثل انعكاسا للفكرة الثقافية السائدة عنه ، والتي تؤكدها وسائل الاعلام والاعلانات ، والمجلات النسائية ، ودور النشر التى تخصص كتبا بأكملها لهذا الفن. والملاحظ ان معظم التوجيهات الثقافية فى هذا المجال والتى تتناول الطهى بوصفه فنا ، واستعراض عضلات ، لا ترشد ربة البيت الى كيفية صنع اكثر الوجبات غنى بالمواد الغذائية المفيدة فى أقصر وقت ممكن ، قدر ما تعلمها كيف تزين الاكلات المختلفة وتجعلها شهية . وهذه محاولة لنقل الطهى من كونه عملا الى كونه تسلية وقضاء وقت،وتعكس تلك المحاولة مثلا واضحا على الانكار الاجتماعى لاعتبار العمل المنزلي عملا بالمعنى الصحيح . ولكن ايجابيات العمل المنزلى الخاص بالطهى تفسده سلبيات منها ان الازواج يطلبون الطعام فى اوقات محددة ، وأن وقت طهى الطعام قد يتداخل مع الوقت المحدد لغسل الملابس أو تغيير الاسرة ، أو اطعام الوليد او الصغير . ومن السلبيات الاساسية لعملية الطهى تلك المهمة الثقيلة التي لا تنتهى ابدا وهى التفكير الدائم فى السؤال الخالد : ماذا نأكل اليوم ؟ .

ويمكن ن نلخص فى آخر هذا الفصل الايجابيات المتصلة بالاعمال المنزلية بعامة مرتبة حسب اهميتها فى نظر الزوجات، وهى : التمكن من محادثة الآخرين اثناء العمل ، واعتدال المزاج اثناء اداء العمل المنزلى ووجود وقت كاف لادائه ، وان تكون هناك خلفية جيدة للعمل وذلك بتوفر الادوات الحديثة ، ووجود مقدار كاف من المال للمتطلبات المنزلية المختلفة وتوفر التقدير اللازم للعمل . اما السلبيات المتصلة بالعمل المنزلى ، فتمركزت حول الملل والرتابة والتكرار،وعدم توفر الادوات المناسبة لاداء الاعمال المنزلية ، وانحراف المزاج اثناء العمل ، واعتراض الاطفال طريق ربة البيت اثناء ادائها لعملها ، وعدم وجود الوقت الكافى لاداء العمل ، والعزلة الاجتماعية ، والاضطرار الدائم الى التفكير فى العمل المنزلى وترتيباته .

مما سبق يتضح لنا اذن صدق ما ذهبت اليه المؤلفة من أن رباتالبيوتينظرن الى العمل المنزلى على انه عمل يماثل غيره من انواع الاعمال الاخرى . ومن تحليل ملاحظاتهن عن أحب مظاهر العمل المنزلى ، وعن أبغضها بالنسبة اليهن تبين أن التحرر من الرقابة كان

على رأس الصفات الايجابية ، اما العمل المنزلى ذاته فكان فى مقدمة السلبيات التى ذكرناها . وقد عرافن العمل المنزلى بانه عمل « حقيقى وشاق » ، وهى صفات اكدنها ليجابهن بها تلك الافكار النمطية الخاطئة السائدة فى ثقافتهن ، والتى تخلع على العمل المنزلى مكانة وقيمة منخفضة . كما تبين من البحث ايضا انه بينما تتناول تلك الافكار النمطية الخاطئة الشائعة فى الثقافة ، العمل المنزلى كنشاط منفرد ، فان ربات البيوت ينظرن اليه على انه عمل رئيسى يتضمن اعمالا وانشطة فرعية منفصلة. وظهر من البحث ان مشاعر الرضا او عدم الرضا عن مختلف الاعمال المنزلية تتأثر كثيرا بالظروف التى تتم فيها هذه الاعمال والتي تتعلق بمدى توفر الاجهزة والادوات الميسرة والمخففة .

وفى نهاية هذا الفصل يمكن القول بأن الصورة التى رسمتها المؤلفة للعمل المنزلى ولربات البيوت من خلاله ، من واقع النتائج التى أسفر عنها بحثها ، تتعارض مع الصورة السائدة عنه وعنهن فى الثقافة ، والتى تذهب الى أن ربات البيوت يشكلن طبقة مرفهة ، وانهن لا يعملن شيئا طوال اليوم .

اما الفصل الرابع ، فيتناول موضوعا هاما هو العلاقة بين الطبقة الاجتماعية والاعمال المنزلية ومدى الرضا أو عدم الرضا عنها . ومفهوم الرضا عن العمل المنزلى فى هذا الفصل مشتق من مفهوم الرضا عن العمل المستخدم فى علم الاجتماع الصناعى ، وعلم اجتماع العمل فهو يمثل تقييما شاملا لدرجة الايجابية أو السلبية التى تتناول بها ربات البيوت عملهن . وقد حددت الباحثة مفهوم الطبقة الاجتماعية على أساس مهنة الزوج ، وهو مقياس تقليدى ، وقد بررت الباحثة اختيار ذلك المحك التقليدى بانه اكثر ملائمة فى المقارنة بين بحثها وبين بحوث أخرى تناولت الموضوع نفسه ، واتخذت ذلك المحك التقليدى أساسا للدراسة .

ومن النتائج الجديرة بالاهتمام في هذا الفصل انه ليست هناك فروق طبقية فى النوع وانما فى الدرجة فقط بين الطبقة العاملة والطبقة الوسطى من ربات البيوت ، اللائى كان لهن عمل خارجى قبل الزواج، فى تفضيل العمل الوظيفى على العمل المنزلى على أساس أن العمل المنزلى يفتقد المكافأة الاقتصادية ، ويتميز بالانعزال ونقص الاعتراف الاجتماعى بالمسئوليات الملقاة على عاتق ربة البيت .

ومن اهم النتائج التى توصلت اليها الباحثة ، هو أنه ليست هناك فروق فى الطبقة الاجتماعية بين الراضيات وغير الراضيات عن العمل المنزلى ، فقد كان الاتجاه السائد بين الغالبية العظمى من المستبرات فى عينة البحث هو عدم الرضا عن العمل المنزلى سواء بين ربات البيوت من الطبقة العاملة أو من الطبقة الوسطى . اما من حيث اتجاه أفراد العينة نحو دور ربة البيت فقد كانت هناك بعض الفروق الطبقية ، وحيث كان اتجاه ربات البيوت من الطبقة العاملة بعامة أكثر ايجابية من مثيله بين ربات البيوت من الطبقة الوسطى. ومن هذا يتبدى أن ربات البيوت من الطبقة الوسطى اكثر ميلا لادراك المكانة المنخفضة لدور ربة البيت من مثيلاتهن من الطبقة العاملة. ولذلك فان الشكوى من تلك العبارة الشائعة: « مجرد ربة بيت » ، هي أكثر ترددا بينهن منها بين نظيراتهن من الطبقة العاملة .

وقد يبدو فى النتائج السابقة شيئا من التناقض ، ولكن هذا التناقض يزول اذا ما ادركنا أن المؤلفة تفرق بين المشاعر نحو

العمل المنزلى ، وبين الاتجاه نحو دور ربة البيت . فربما أحست المراة بايجابية وتقبل لدور ربة البيت ، ولكنها فى الوقت نفسه تكره العمل المنزلى ، كما أن عكس ذلك النموذج يمكن تواجده أيضا ، فالمشاعر تجاه العمل المنزلى يتدخل فيها التعود على أداء هذه الاعمال والخبرة بها ، اما اتجاهها نحو دور ربة البيت ، فمسألة يتدخل فيها مفهومها عن ذاتها ومعايير الثقافة الفرعية التى تعيش فيها والخاصة بمظاهر سلوك الدور الانثوى ، وحيث تختلف اتجاهات المراة نحو دور ربة البيت فى الطبقة العاملة عنها فى الطبقة المتوسطة، بينما لا توجد اختلافات بينهما فيما يتعلق بنشاط العمل المنزلى .

وفى الفصل الخامس تناقش المؤلفة ظروف العمل المنزلى ، وتتناول فيه الفترات التى يستغرقها هذا العمل ، والخلفية التكنولوجية التى يتم فيها . وقد تبين منه أن متوسط عدد ساعات العمل المنزلى لربات البيوت فى هذا البحث كان سبعا وسبعين ساعة اسبوعيا، وهو عدد يماثل تقريبا ضعف عدد ساعات العمل الاسبوعية للعامل الصناعى والذى يقدر بأربعين ساعة فى المتوسط . كما تبين منه أن استخدام الاجهزة والادوات المناسبة فى العمل قد يقلل من الشعور بعدم الرضا عن العمل المنزلى لكنه لايحوله من عمل بغيض الى عمل سار محبوب . كما ظهر أن بعض الصلات الاجتماعية لربة البيت قد تقلل أيضا من ذلك الشعور بعدم الرضا .

وفى الفصل السادس تلقى المؤلفة الضوء على المعايير المتعلقة بالعمل المنزلى والتى على اساسها تتبع ربة البيت اسلوبا معينا او روتينا معينا فى ادائه . وقد كانت هناك اختلافات عديدة بين ربات البيوت فى عينة البحث بهذا الصدد ، وحيث كانت بعضهن تضع لنفسها معايير صارمة فى أداء العمل المنزلى ، حتى انه يمكن تصنيفها باثولوجيا ضمن الحوازيات، بينما لا تتبع اخريات أسلوبا أو نظاما معينا فى ادائه . ولتحديد تلك المعايير وذلك الروتين وظائف هامة ، **اولها** انها وسيلة لتوحيد أعمال غير متجانسة تكون العمل المنزلى فى بناء وظيفى متماسك ، **وثانيها** انها دليل على أن العمل المنزلى عمل له معاييره وروتينه مثل أى عمل آخر ، وهذا فى ذاته دفاع ضد من يقول ان المراة فى المنزل لا تفعل شىء ، **وثالثها** أن فى تحديد تلك المعايير وذلك الروتين توسيع لمجال العمل المنزلى ، وبخاصة أمام ربة البيت المتفرعة التى لا تعمل خارج منزلها، **وآخرها** ان ربة البيت بذلك التحديد انما تضع ميكانيزما تستطيع أن تكافىء نفسها عن طريقه فى انجاز العمل المنزلى . وتأخذ المكافأة السيكلوجية التى تحصل عليها ربة البيت من تمسكها بمعايير أداء العمل المنزلى ، وروتينه المعين ، شكلا موضوعيا على الرغم من أنها موضوعة سلفا بواسطة ربة البيت كعاملة . وتلعب وسائل الاعلام أيضا دورا فى تحديد معايير العمل المنزلى ، كما تسهم فى ذلك الى حد كبير، التنشئة الاجتماعية المنزلية السابقة لربة البيت واعدادها للعمل المنزلى .

وتخصص المؤلفة الفصل السابع للعلاقة بين التنشئة الاجتماعية لربة البيت وبين صورتها عن ذاتها. وفيه تبين ان العمل المنزلى، مثله فى ذلك مثل اى عمل ، لابد أن تسبقه فترة تدريب مهنى أو تلمذة وظيفية . ولكن الاعداد الأنثوى للدور المنزلى ، يختلف عن الأعمال الاخرى فى أنه لا يتخذ شكلا رسميا ، ولذلك لا ينظر اليه على أنه تلمذة وظيفية .

والسبب الرئيسى فى ذلك هو أن اعداد المراة لتكون ربة بيت يختلط مع تنشئتها لدورها الأنثوى بالمعنى الواسع . وتفصح نتائج البحث عن أن جميع أفراد العينة قد قررن انهن على وعي بوجود صلة وثيقة بين طرقهن فى اداء العمل المنزلى وبين الطرائق التى كانت امهاتهن يستخدمنها لأداء العمل نفسه . وفى هذا تقول احدى أفراد العينة :

« ان لي نفس المعايير التى كانت تتبعها امى فيما يتعلق بأعمال المنزل . فقد كانت تفعل كل ما ينبغى عمله ، ولم يكن هناك من يستطيع أن يتجول بعينيه فى المنزل ليقول أن هذا العمل أو ذاك ينقصه شيء .. اننى دائما أحاول أن اتمثل بها . . »

ومن النتائج الهامة فى هذا الصدد ، أن هناك فروقا طبقية بين ربات البيوت فيما يتعلق بصورة الذات ، فقد كان هناك ميل لدى اللائى ينتمين منهن الى الطبقة الوسطى الى ذكر احد دورى الزوجة ، والأم أو كليهما، دون الاشارة الى دور ربة البيت فى تصورهن لذاتهن . كما وجد ميل لديهن أيضا الى رؤية انفسهن من خلال ادوار أخرى غير منزلية ، كالأدوار الدينية أو السياسية ... الخ . اما ربات البيوت من الطبقة العاملة فقد كن يملن الى اختصار دورى الزوجة والأم تحت كلمة « ربة بيت » ، وذلك فى وصفهن لذواتهن . وفيما يلي اجابة احدى ربات البيوت من الطبقة الوسطى على اختبار العشرجمل ، الذى يكشف عن تصور الذات ..

« اننى متقلبة ـ اننى أعمل بجد ـ اننى اتكلم كثيرا ـ اننى سعيدة معظم الوقت ـ اننى امرأة راضية ـ اننى احتاج وجود الآخرين طوال الوقت ـ اننى أعشق الخروج ـ اننى مسيطرة ـ اننى حالمة ـ اننى قلقة . »

وبهدف وضوح المقارنة فاننا نسوق اجابة اخرى للاختبار ذاته ، لربة بيت من الطبقة العاملة تكشف عن تصورها لذاتها :

« اننى ربة بيت جيدة ـ اننى أجيد معاملة ابنائى ـ اننى أجيد العمل المنزلى ـ اننى أجيد معاملة زوجى ـ اننى أجيد الغسيل ـ اننى أشعر بالسأم أحيانا ـ اننى اشعر بالغضب أحيانا ـ اننى شديدة السعادة بعملى ـ اننى سعيدة بأولادى ـ نادرا ما اكون تعيسة . »

وتتضح من المقارنة السابقة نتيجة هامة أخرى ، تضاف الى النتائج سالفة الذكر وتؤيدها ، وهي أن صورة المراة من الطبقة العاملة عن نفسها يتضح فيها بشدة توحدها بدور ربة البيت ، واقبالها على العمل المنزلى، بينما تظهر قدرة المرأة من الطبقة الوسطى على رؤية نفسها ووصفها لها من منظور الشخصية وسماتها .

وفى الفصل الثامن تبحث المؤلفة موضوع **الزواج** ، وتقسيم العمل بين الزوجين من وجهة نظر بعض المتخصصين فى علم الاجتماع الأسرى ، كما تتعرض المؤلفة فى هذا الفصل الى وصف تقسيم العمل المنزلى بين الزوجين وتحليله كما تبحث معتقدات ربات البيوت من أفراد العينة حول الأدوار الذكرية والأنثوية .

وقد أجريت الاستبارات مع الزوجات فقط ، ولم تشمل الازواج ، وقد طلب منهن تقييم مدى اشتراك أزواجهن معهن فى العمل

المنزلى وفى رعاية الابناء على السواء بثلاثة محكات تتراوح بين عال، ومتوسط ،ومنخفض، وقد أفصحت اجابات الاستبارات عن ثلاث نتائج هامة :

١ ــ ان قلة من الأزواج فقط هم الذين يساعدون زوجاتهم بقدر مرتفع . فقد كان ١٥ ٪ من الأزواج فقط هم الذين حصلوا على تقدير عال فى المشاركة فى العمل المنزلى بينما حصل ٢٥ ٪ منهم على التقدير ذاته فى المشاركة فى رعاية الاطفال .

٢ ــ اختلفت نماذج مشاركة الازواج لزوجاتهم باختلاف الطبقة الاجتماعية فقد كان اشتراك الأزواج من الطبقة المتوسطة فى العينة ، اكثر انخفاضا من اشتراك الازواج من الطبقة الدنيا ، وذلك فيما يتعلق بالعمل المنزلى ورعاية الاطفال .

٣ ــ كان هناك ميل اكثر من قبل الازواج للمشاركة فى رعاية الاطفال منه فى العمل المنزلى .

ومن بين من حصلوا على تقدير عال فى المشاركة فى كل من العمل المنزلى ، ورعاية الاطفال ننتقى هذه الصورة لزوج يعمل فى تجارة المعلبات ، وكانت زوجته تعمل على الآلة الكاتبة قبل أن ترزق بطفلها :

« اننى اساعده فى عمله ، فاطبع له أوراقه ، وأضيف بعض فقرات اذا لزم الامر . كما انه يساعدنى فى عملى ايضا . انه طاه ممتاز ، وهو لا يمانع فى ان يأتى فى نهاية اليوم ليطهى وجبة . وفى الاسبوع الماضى مثلا قام بطهى ثلاث وجبات . واذا حدث ان كنت اقوم بتنظيف حجرة بالمكنسة الكهربائية واقبل هو فى هذه اللحظة فانه يقوم بتنظيف الحجرة الاخرى ، كما انه ينظف النوافذ بانتظام ، ويقوم بتجفيف الاطباق ، وهو يعيننى على الانتهاء من عمل المنزل لانه يحب أن نجلس معا سويا بعد الظهر ، وهو يكوى ملابسه أيضا . وعندما نكون فى المنزل معا فانه يشاركنى فى رعاية الطفل ، فهو يحممه فى المساء ويغير له لفائفه ، وفي يوم العطلة يصحو له مبكرا فى الصباح كي يعطينى الفرصة لانام بضعة ساعات . »

وهذه صورة أخرى لزوج حصل على تقدير منخفض فى المشاركة فى كل من العمل المنزلى ، ورعاية الاطفال ، تقول زوجته :

« انه لايساعدنى أبدا فى الاعمال المنزلية ، ولا فى شراء لوازم المنزل ، ولا فى الطهي ، انه يقول دائما : اننى اعمل طوال اليوم ، وعندما أعود الى المنزل اكون مرهقا تماما . وهو لا يشترك فى رعاية ابنائه ابدا . انه يحب الاطفال ، ولكنه لا يرعاهم . فقد كان على ان اؤدى واجب العزاء منذ يومين ، ولكنه لم يدعنى أذهب لانه قال لى : انا غير مستعد لأن ارعى الاطفال الى حين عودتك . لذلك فانه اذا كان على أن اذهب لأى مكان لقضاء احد شئونى فلابد أن تكون « مارى » اكبر بناتى بالمنزل . اننى اقصد انه يرفض مجرد الجلوس مع ابنائه لحين عودتى ، لا لانه يكره الاطفال ، بل لانه ببساطة قد ورث هذا الاتجاه عن والده ودائما ما يردد كلمته المأثورة : اننى لا يمكن ان اقبل أن تدلنى امرأة على ما ينبغى فعله . »

أما من حيث تحليل معتقدات ربات البيوت التى تدور حول الادوار الذكرية والادوار الأنثوية فقد ثبت من البحث أن معظمهن يذهبن الى أن مكان الرجل ليس فى

البيت ، حتى وان كن يحبذن مشاركة الرجل لهن فى الاعمال المنزلية مشاركة أكثر . وبالمثل فان من كانت تريد منهن ان تسهم بقدر أقل فى العمل المنزلى فانهـا كانت تجـابه بتلك الضغوط الاجتماعية الناشئة عن المعيار القائل بأن المرأة تنتمى الى مملكة العمل المنزلى ورعاية الاطفال .

كما اسفرت نتائج البحث ايضا انه خلال دورة الزواج تكون هنـاك فتـرات تتسـم بالمشاركة اكثر من غـيرها . فحـين تخرج الزوجات الى العمل تزداد درجـة مشاركة الأزواج لهن فى الاعمال المنزلية ، وفى رعـاية الابناء . وهذه النتيجة تتسق مع ما ذهبت اليه بحوث اخرى كبحث «هوفمان» Hoffman الشهير عن النساء العاملات وتأثير عملهن على الاسرة ، ولكن ذلك لا يعني ان آراء الزوجين متحررة أو منادية بالمساواة ذلك لانه عنـدما تكف الزوجة عن العمل خارج المنزل فان رغبة الزوج فى مساعدتها تقل ، ويعكس تقسـيم العمل بينهما عندئذ نموذجا تقليديا واضحا. ويدل ذلك على أن معتقدات الزوجين الاصيلة عن الادوار الذكرية والأنثوية لم تتغير .

وتعالج الكاتبة فى الفصل التاسع والاخير تربية الاطفال كوظيفة مرتبطة كل الارتبـاط بالعمل المنزلى . فمعظم ربات البيوت مـن الامهات ، وكل الامهات ربات بيوت . وقـد ظهر من خلال هذا الفصل والفصول السابقة، ان الاطفال يؤثرون فى مدى الاستمتاع بالعمل المنزلى، لانهم يجعلون ساعات العمل الاسبوعية اطول ، كما انهم كثيرا ما يظهرون كعـوامل محبطة لربة البيت كعاملة منزلية . فدائمـا ما يقطعون عليها عملها ، ودائما ما تجد نفسها وسط اعمالها المنزلية الكثيرة ، مطالبة برعاية ابنائها فى الوقت نفسه . ويزيد رضاء ربة البيت عن عملها المنزلى كلما ساعدها زوجها فى أن يحمل عنها بعض العبء فى تربية الاطفال لانه عندما يحدث ذلك فان الضغوط الناشئة عن اداء دور ربة البيت ودور مربية الاطفال تخف حدتها .

وتلقى الكاتبة الضوء على دورى الزوجة كربة بيت ومربية اطفال معا ، وعلى المشكلات الناجمة عن الجمع بين هذين الدورين . وهي ترى أن هناك تناقضا واضحا بينهما ،ولاينجم هذا التناقض فقط عن أن الاطفال مخلوقات فوضوية ، تفسد نظام البيت المنظم ، ولا عن حاجتهم لان تطعمهم الأم ، أو تلعب معهـم ، اثناء اعدادها الطعام أو تنظيفها للحجرات ، بل ان هناك تناقضا أساسيا يكمن فى طبيعة هذين الدورين ذاتهما . فتربية الاطفال عمل منتج ومثمر Productive ، بينمالاينطبق ذلك على العمل المنزلي . فالعمل المنزلي عمل له اهداف وقتية ومتكررة ، فالمنزل ينـظف اليوم ، وتعاد نظافته فى الغد ، وهكذا لمـدة سنوات قد تربو على الثلاثين أو الاربعـين . اما الامومة فان لها هدفا وحيدا بعيد المدى ، فالأم تربى الابناء حتى يعتمدوا على انفسهم ويستغنوا عنها بالتدريج ، ولذلك فقد كان احد المحكات الاساسية فى اختيار العينة ان يكون لدى كل امراة طفل على الأقل فى سـن ما قبل المدرسة .

وتنظر الكثير من الزوجات الى دورهن كربات بيوت ، ومربيات اطفـال على أنهمـا وجهان لعملة واحدة ، وغالبا ما يعتبرن تربية الطفل ، وتنظيف ملابسه ، وترتيبها ، جزءا من العمل المنزلى ، كما أن المعايير التى يضعنها لانفسهن والمتعلقة بالعمـل المنـزلى ، غالبا ما تنسحب على تربيتهن لأطفالهن ، واهمهـا

معايير النظافة والترتيب . وتعد هذه المماثلة بين الدورين ، مجرد انعكاس لمعايير المجتمع ، والاتجاهات الاجتماعية السائدة فى النظر الى المرأة ، والتى تذهب الى أن دور ربة البيت يشمل ادوار المرأة ، والزوجة ، والأم ونادرا ما تفرق بين هذه الادوار، أو تذكرها منفصلة.

وتنتهى الباحثة فى هذا الفصل الى نتائج هامة استقتها من بيانات بحثها ، وهي أن الأم المعاصرة تؤدى دورها فى سياق اجتماعى لايبعث على الرضا . ومنشأ عدم الرضا هو العزلة الاجتماعية ، والمسئولية المستمرة ، كما وجدت ان الأم كعاملة منزلية تواجه صراعا بين المطالب المختلفة للعمل المنزلى بحيث يعد الطفل احيانا وسط خضم هذه المطالب عائقا فى سبيل الرضا عن العمل المنزلى ، اما بالنسبة للطفل فيعد الجمع بين مطالبه ومطالب العمل المنزلي شيئا محبطا له وللأم . وعلى الرغم من أن الرجل يحاول احيانا أن يعالج تلك المشكلة بالتدخل فى رعاية الاطفال ، فان تدخله يكون غالبا محدودا بأنشطة معينة مفضلة لديه كاصطحاب الاطفال للنزهة او وضعهم فى الفراش ، لكنه يحجم عن الاشتراك فى أنشطة اخرى لها مظاهر أكثر روتينية ، واقل متعة فى تربية الاطفال ورعايتهم . وهذا التوسع فى دور الأب يعطى الأم الفرصة لاداء بعض الاعمال المنزلية ، وترتيبا على ذلك فانه يعطيها مزيدا من الاحساس بالرضا عن العمل المنزلى .

وفى الخاتمة تركز المؤلفة على تلخيص أهم نتائج بحثها . وتكرس الجزء الاخير منها لمناقشة مسألة مركز ربة البيت فى المجتمع بعامة . وتطرح عدة اسئلة أهمها : ما هو مدى وعى ربات البيوت ــ او مدى الوعى الذى ينبغى أن يكن عليه ــ بموقفهن كنساء ، وهل ينظرن الى أنفسهن كجماعة مضطهدة ؟ وهل تلاقى حركة تحرير المرأة صدى بينهن ؟ والى أى مدى نجحت حركة التحرير هذه فى توصيل ايديولوجيتها وافكارها اليهن ؟ وما هي أنسب الوسائل ، وانجع الطرق لتحرير ربة البيت؟.

وتجيب الباحثة عن هذه الاسئلة اجابة مركزة فتقول : ان انتماء معظم النساء للادوار التقليدية لربة البيت والزوجة والأم ، لايمكن أن يعالج فقط بالنظر لمواقعهن من بناء اجتماعى واقتصادى معين ، بل يجب أن تمتد لتشمل فهما شاملا للكيفية التى تستطيع بها النساء أن يتوحدن مع قهرهن . بمعنى آخر ان الأبنية والنظم التى تضطهد المرأة ، لا يمكن أن تتغير ما لم يوجد وعي مسبق لدى المرأة لأهمية هذا التغيير ، وهذا هو دور حركة تحرير المرأة .

● ● ●

ثانيا ــ تقييم ونقد :

نجحت المؤلفة فى ايضاح نظرتها الجديدة الى العمل المنزلى ، وفى تحليلها له كعمل يماثل غيره من الاعمال ، كما انها اظهرت زيف تللك الاسطورة السائدة فى الثقافة الانجليزية ، وفى ثقافات اخرى كثيرة ، والخاصة بسلبية العمل المنزلى ، وسهولته ، وطبيعيته بالنسبة للمرأة والتى تتضح من اسئلة توجه الى النساء فى عالمنا المعاصر مثل : هل ستعملين ؟ أم ستبقين فى المنزل ؟ وكأن البقاء فى المنزل لا يتضمن عملا . (٣)

---

(٣) هناك عبارات تشير الى ذلك فى الثقافات المختلفة ، ففي الثقافة الاوروبية تجيب المرأة اذا سئلت عن هويتها (مجرد ربة بيت Just a House wife) وفى الثقافة المصرية تجيب (مجرد ست بيت) وتشير عبارات مصرية مثل (فلانة مش بتشتغل ، دى قاعدة فى البيت .. الخ) الى ان البقاء فى المنزل يتضمن الجلوس وعدم القيام بعمل وعبارة « فلانة بتشتغل وجوزها قعدها فى البيت » تشير ايضا الى ان البقاء في البيت راحة ، بعكس العمل الذي لا يكون الا خارجه .

وكان تعمق المؤلفة في تحليل صور ربات البيوت عن انفسهن ، وعن اتجاهاتهن نحو العمل المنزلى وما يتضمنه من اعمال فرعية مختلفة ، ومدى شعورهن بالرضا أو عدم الرضا عن عملهن ، ونفاذها الى طبيعة العمل المنزلى نفسه ، بما يستفرقه من وقت وما يتفرع اليه من أعمال ، والكشف عن المعايير التى تحكم انجازها ، كل ذلك كان عملا جديرا بالاعجاب ، كما وفقت الكاتبة فى عرض افكارها فجاءت فصول الكتاب منطقية مرتبطة ، يسلم كل فصل منها الى مابعده فى سلاسة ووضوح .

لكننى بالتعمق فى دراسة محتويات هذا الكتاب لا اجد مبرراً لهذا العنوان البارز الذى اتخذه وهو (سوسيولوجيا العمل المنزلى) فقد كان الكتاب فيما عدا الفصل الاول منه ، واجزاء يسيرة من الفصل الثالث والسابع والثامن ، سيكولوجي النزعة قلبا وقالبا . فهو يلقى الضوء كله على مسألة الرضا أو عدم الرضا عن العمل المنزلى ، ويحلل دور العاملة المنزلية من وجهة نظر سيكلوجية بحتة وذلك بالكشف عن صورة الذات ، واحيانا يغرق فى تحليلها بمنظور علم النفس التحليلى فيأتى ذكر (فرويد) فى عدة صفحات من الكتاب . اما تحديد الباحثة للطبقة على أساس تقليدى وهو مهنة الزوج ، فلم يكن منطقيا مع اتجاهها التجديدى ، كما انه لم يكن واضح الدلالات فى ثنايا الكتاب . ولا يشفع لها فى ذلك ما بررت به موقفها ، من أن ذلك التحديد كان اكثر ملاءمة فى المقارنة بين نتائج بحثها ونتائج بحوث أخرى تناولت الموضوع نفسه .

والخلاصة اننى أرى ان استبدال عنوان هذا الكتاب بـ (**سيكلوجية العمل المنزلى**) كان يصبح اكثر ايحاءا ودلالة على ما احتواه بين دفتيه من حقائق ومعلومات (٤) .

ان كتابا عن سوسيولوجيا العمل المنزلى ، لابد أن يتضمن موضوعات سوسيولوجية متخصصة من بينها : تصنيف الخلفيات الاقتصادية والاجتماعية التى يجرى فى اطارها العمل المنزلى فى ثقافات مختلفة ، والمقارنة بوجه خاص بين الدول المتقدمة تكنولوجيا ، وبين الدول النامية والمتخلفة ، من حيث طبيعة العمل المنزلى فى كل منها . وتحليل دور ربة البيت وما يتضمنه من قوة تتمثل فى تأثيرها فى نماذج شخصيات اطفالها وسلوكهم فهي المنشئة الاساسية لهم ، بل ان مركزها المحورى فى الاسرة يمكن ان يؤثر فى صحة افرادها ومرضهم على السواء . كما لابد أن يحتوى مثل هذا الكتاب على دراسة التفاعل الاجتماعى لربة البيت ، وتحليل عملها المنزلى كعمل يجعلها تتفاعل مع زوجها وأبنائها وجيرانها وأقاربها ، وصديقاتها ، ومعارفها ، والبائعين سواء من يذهبون اليها فى المنزل ، أو من تذهب هي اليهم ، وتفاعلها مع الدولة والاسعار عن طريق وضعها لميزانية الاسرة ، وتحديدها لمواصفات السلع المتوقفة على مدى اقبالها أو احجامها عن شراء سلع معينة . وكذلك فى اتخاذ القرارات اليومية المتعلقة بنماذج الاستهلاك والموضات ، والشئون العامة ، وأهمية النظر الى مطالبها التكنولوجية وكل ذلك يدخل فى اطار علم الاجتماع الاسرى وعلم الاجتماع الاقتصادى .

كما أن كتابا عن سوسيولوجيا العمل المنزلى لابد أن يشمل توضيحا للصلة بين

---

(٤) ربما كان السبب فى تلك النزعة السيكلوجية التي لونت الكتاب هو ان المؤلفة قد اخذت افكار هذا الكتاب وموضوعاته عن رسالتها للدكتوراه التي قدمتها سنة ١٩٧٤ ، وكانت بعنوان « الاتجاهات نحو العمل ، واتجاهات الرضا لدى ربات البيوت » وهو عنوان ينبىء عن منظور سيكلوجي .

Ann Oakley. "Work Attitudes and Work Satisfaction of Housewives", unpublished PH.D thesis. University of London, 1974.

العمل المنــزلى ، وبين اختيــار الشريكة فى الزواج ، فكم من رجل فضل الزواج بامرأة معينة لأسباب من بينها انها تجيد الطهي ، أو انها قدمت اليه أكلة مفضلة بطريقةمشوقة، أو لأنها ممتازة فى العمل المنزلى أو « شــغل البيت » كما تشيع الاشــارة اليه فى لغتنــا الدارجة (٥) وكم من رجل اعرض عن الزواج بامرأة جاهرته بأنها لا تحب العمل المنزلــي ولا تجيده . كما أن مفهوم العمل المنــزلى نفسه لابد وأن يدرس فى أطره الاقتصادية المختلفة ، فهو فى المجتمع الزراعى الريفىغيره فى المجتمع الصناعى الحضرى ، غيره فىمجتمع الرعى (٦) وهكذا .

---

(٥) انظر فى ذلك نتائج البحث الذي قامت به باحثةمصرية عن الاختيار للزواج والتغير الاجتماعي ، وقارنت فيه بين جيلين : جيل الشباب من ريف وحضر ، وجيل آبائهم« اما المهارة فى اداء اعمال المنزل (الشطارة فى شغل البيت) فقد انى ترتيبها الثالث بين مجموع الصفات المفضلة عنداختيار الزوجة ، وذلك عند كل من الآباء الحضريين والريفيين على السواء ، بل لقد كان هناك اجماع منهم على هــذا الترتيب بلغ حد التطابق .

وقد كانت المهارة في اعمال المنزل ، امرا هاما وجوهريافى اختيار زوجة المستقبل فى المجموعات الثلاث المكونة لعينة الابناء ، وهي المجموعة الحضرية ، والمجموعة الريفو ـ حضرية،ومجموعة القرناء الريفيين .

كما ان احدا من افراد عينة الابناء ، لم يقرر ابدا فىاجابته بانه لا يرغب فى توافر هذه الصفة فى زوجــــة المستقبل » .

انظر : سامية حسن الساعاتي ، الاختيــار للــزواج والتغير الاجتماعي، دار النجاح بيروت ، ١٩٧٣ ، ص ٣٠٢ .

(٦) انظر في ذلك نتائج البحث السابق نفسه وفيــهتقول الباحثة :

« رأينا ان اغلبية افراد عينة الابناء في مجموعاتها الثلاثيرغبون بلا استثناء فى ان تكون زوجة المستقبل ربــة بيت ماهرة ، لكن مفهوم ربة البيت الماهرة هذا مفهوم نسبي ، لذلك راينا ان نتعرف على اهم مقاصده الشائعة فى عرف كل مجموعة من المجموعات الثلاث . وكانت اهم الاجابات الشائعةما يلي :

(١) تهتم بشئون المنزل .

(٢) تجيد الطبخ .

(٣) مدبرة .

(٤) توازن بين عملها ومسئولياتها المنزلية .

(٥) توائم بين واجبها كزوجة وام .

(٦) تجيد العجن والخبز والحلب ، وتربية الطيور .

وكان السبب الثاني اكثر تواترا فى اجابات مجموعــةالقرناء الريفيين ، اما السبب الرابع فكان اكثر شيوعا في اجابات الطلبة الحضريين ، تليهم فئة الطلبــة الريفي ـحضريين ، ولعل ذلك يتفق مع تحبيذ هاتين المجموعتين القاهر لاشتغال المراة خارج المنزل واعتبار ذلك قضية مسلم بها .

اما السبب السادس والاخير فاقتصر على فئة القرناءالريفيين ولعلنــا نلاحظ ان مفهــوم المهارة لديهم واسع ، ويتطلب دراية بامور كثيرة ومتشابكة . ولا غرابة فى ذلك فالمهارة (او شطارة البنت) كما يقول الريفيون ، من أولى الصفات التي ترفع قيمة الخطيبة وتتحدث عنها النساء فىالقرية اذ يقلن « ان بنت فلان ، نار وشرار » ، وقلبها حامي « اى انها سريعة في العمل » .

انظر : سامية حسن الساعاتي ، المصــدر نفســه ،ص ٣٣ .

وانظر ايضا للباحثة نفسها تفصيلا للاعمال المنزلية فىالثقافة الريفية فى والثافة الحضرية فى :

سامية حسن الساعاتي ، الدور الوظيفي للزوجين فىالاسرة المصرية ، المصدر السابق ، الفصل الثالث عشر .

وقد اهتمت المؤلفة كثيرا بالجزاء الذاتى السيكولوجى الذى تحصل عليه ربة البيت من خلال قيامها بعملها وتمسكها بالمعايير التى حددتها ، والروتين الذى وضعته لنفسها . ولكنها نسيت أو تناست ابعادا اجتماعية غاية فى الاهمية، وتشمل الجزاءات الاجتماعية التى تحصل عليه من خلال تعليقات زوجها ، وابنائها ، وجيرانها ، او صديقاتها ، او من مقارنة عملها بالاعمال المنزلية التى تصورها وتبرزها وسائل الاعلام المختلفة من اذاعة وصحافة وتليفزيون وسينما . ان ربة البيت حين تعمل فانها لا تعمل فى فراغ وانما تعمل وهي تضع فى ذهنها توقعات الآخرين منها ، وتتدخل علاقاتها مع هؤلاء الآخرين ابتداء من زوجها واولادها وانتهاء بمعارفها ، فى مدى اقبالها على العمل المنزلى وتقبلها له ، أو اعراضها ونفورها منه . فالزوجة المحبة لزوجها ، والتى تتميز علاقاتها معه بالتفاهم والود ، تفكر فى زوجها اثناء عملها المنزلى ، وتضع نصب عينيها أن تدخل السرور على قلبه حين يعود وان تنجز عملها على وجه يرضاه وترتضيه هي لاسعاده ، كما أن ثناءه عليها ، ومكافأته لعملها بالتقدير يجعلها اكثر رضا واقبالا على عملها المنزلى ، ويصدق ذلك أيضا على أبنائها وأصدقائها وجيرانها . اما من لا تتمتع بعلاقات جيدة مع زوجها ، أو لا تتمتع بتقدير زوجها أو ابنائها لعملها فسوف لا تستشعر بدوافع الابداع فى عملها ولا الرضا عنه ، وينطبق القول ذاته بنسب مختلفة على ردود فعل أصدقائها واقاربها .

وفى النهاية كان لابد وان يتضمن كتاب عن سوسيولوجيا العمل المنزلى تحليلا وافيا لديناميات العمل المنزلى ، ودراسة لمدى مشاركة آخرين غير الزوج والأبناء لربة البيت فى العمل المنزلى وانماط تلك المشاركة ، فهناك المشاركة المتبادلة ، وهي التى تحدث بين ربة البيت وجيرانها أو صديقاتها ، كأن يتبادلن المشاركة فى اعمال منزلية معينة كطهي أكلات معروفة وشائعة فى أوقات معينة كالاعياد مثلا ، أو كاعداد الخبز بطريقة معينة (٧) .

وهناك مشاركة طويلة المدى يقوم بها خدم دائمون ، أو مشاركة موقوتة يقوم بها خدم لساعات معينة من اليوم ، كما أن هؤلاء الخدم الذين يقومون بدور مساعد فى العمل المنزلى قد يمتد دورهم أحيانا ليشمل رعاية الاطفال أيضا ، أو اداء العمل المنزلى برمته وفى ذلك انعكاسات بعيدة المدى على العلاقات والتفاعلات الاجتماعية لربة البيت فى اسرتها وفى عملها الخارجى ان كانت تعمل .

* * *

(٧) يشيع فى القرية المصرية ، ان تتبادل ربات البيوت الريفيات ، المساعدة فى الاعمال المنزلية لاعداد الخبز بطرق معينة تستلزم عمليات شتى من طحن وعجن وخبز ، وان يتبادلن المساعدة فى الاعمال المنزلية فى الاعياد والمواسم وبخاصة فى العيد الصغير اثناء قيامهن بعمل الكعك ويأخذ ذلك شكل تجمعات متفاعلة تتشابك فيها العلاقات الاجتماعية بينهن بشكل واضح .

من الكتب الجديدة

كتب وصلت الى ادارة المجلة ،وسوف نعرض لها بالتحليل في الاعداد القادمة

— Aykroyd, W. R., The Conquest of Famine, Chatto & Windus, London 1974.

— Johnson, Harry G., Technology and Economic Interdependence, Macmillan, London, 1975.

— Lawrence, Daniel, Black Migrants : White Natives, A Study of Race Relations in Nottingham, Cambridge University Press, 1974.

— Macguire, William, The Freud/Jung Letters, Routledge & Kegan Paul, 1974.

— Mcintosh, Mary, The Organisation of Crime, Macmillan, 1975.



العدد التالى من المجلة

العدد الرابع ـ المجلد الثامن

يناير فبراير مارس ١٩٧٨

قسم خاص عن :

آفاق المعرفة

بالاضافة الى الابواب الثابتة

الخليج العربي	٥	ريالات	سوريا	٣	ليرات
السعودية	٥	ريالات	القاهرة	٢٥٠	مليمًا
البحرين	٤٠٠	فلس	السودان	٢٥٠	مليمًا
اليمن الجنوبية	٤٠٠	فلس	ليبيا	٣٥	قرشًا
اليمن الشمالية	٤,٥	ريال	مسقط	٤٠٠	بايسة
العراق	٣٠٠	فلس	الجزائر	٥	دنانير
لبنان	٢,٥	ليرة	تونس	٥٠٠	مليم
الأردن	٢٥٠	فلسًا	المغرب	٥	دراهم

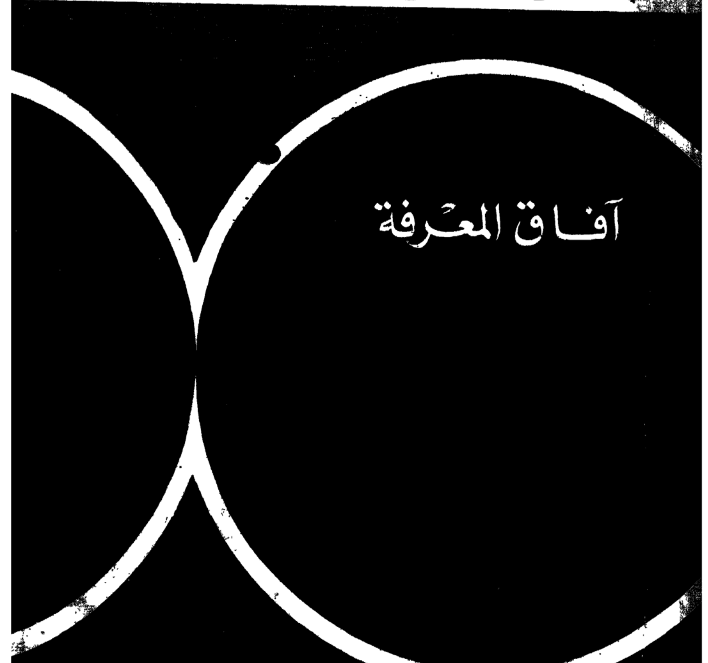
الاشتراكات :

للاشتراك في المجلة يكتب إلى : الشركة العربية للتوزيع - ص.ب ٤٢٢٨ - بيروت

مطبعة حكومة الكويت

عالم الفكر

المجلد الثامن - العدد الرابع - يناير - فبراير - مارس ١٩٧٨



آفاق المعرفة

٨٢٧



رئيس التحرير: أحمد مشارى العدوانى
مستشار التحرير: دكتور أحمد أبو زيد

مجلة دورية تصدر كل ثلاثة أشهر عن وزارة الاعلام فى الكويت * يناير – فبراير – مارس ١٩٧٨
المراسلات باسم: الوكيل المساعد للشئون الفنية – وزارة الاعلام – الكويت: ص.ب ١٩٣

المحتويات

آفاق المعرفة

★★★

عرض الكتب

الدراسات التي تنشرها المجلة تعبر عن آراء اصحابها وحدهم

آفاق المعرفة



لعل اهم ميزة ينفرد بها الانسان ويتميز بها على سائر الكائنات هى بحثه الدائب عن معنى الاشياء ، وقدرته الفائقة على اثارة التساؤلات ومحاولة الوصول الى اجابة شافية لهذه التساؤلات ويبدو ان هذه الخاصية كانت صفة ملازمة للجنس البشرى منذ تاريخه المبكر ، كما انها هي الخاصية التي تلازم الانسان الفرد منذ طفولته المبكرة حين يبدأ الطفل يوجه انتباهه الى ما يدور حوله من احداث كما لو كان يريد أن يكشف سرها ويصل بالتالي الى فهم غموض الحياة ، وتظل هذه الخاصية ملازمة له طيلة حياته مثلما لازمت الجنس البشرى كله خلال تاريخه الطويل .. وعلى الرغم من أن كل الانواع الحيوانية المعروفة لنا والتي يصل عددها الى حوالي مليون نوع تمتلك امخاخا من نوع او آخر ، فان الجنس البشرى كله ـ وبخاصة الانسان المعروف باسم الانسان العاقل HOMO SAPIENS كان هو النوع الوحيد الذى افلح (مخه) فى ان ينتجما نسميه الآن بالحضارة، بكل مظاهرها ومقوماتها وعناصرها ومكوناتها المادية وغير المادية كما أن المخ ـ بقدر ما نعرف

ــ هو الوحيد الذى يدرك طبيعة تكوينه ونوع العمليات التي يقوم بها ، كما يدرك انه قادر على التفكير المنطقى ومدى هذه القدرة التي لا تكاد تحدها حدود ، بل تكاد نقول ان المخ هو الوحيد الذى يدرك انه موجود وان عليه ان يكشف أسرار الكون بكل ما يحدث فيه من ظواهر طبيعية وحياتية ، كما أن عليه ان يكشف أسرار الانسان وما يعتمل فى داخله من عمليات عقلية وعاطفية ، وما يصدر عنه من ظواهر اجتماعية وثقافية ، ويحاول ان يجد لها تفسيرا وتعديلا مقبولين ، وان يربط بقدر الامكان ليس فقط بين الظواهر التى تنتمى الى طبيعة واحدة ، بل وايضا بين الظواهر التي تبدو متباينة اشد التباين، بحيث تنتظم في آخر الامر فى نسق واحد مفهوم رغم ما بينها من تفاوت واختلاف وتنوع.

والواقع ان خاصية البحث عن الحقيقة واثارة التساؤلات ومحاولة الاجابة عنها تشير الى عدد من الامور التى تستحق الانتباه فيما يتعلق بموقف الانسان من البحث عن الحقيقة. واول هذه الامور هو ان مجالات المعرفة واسعة الى ابعد حدود الاتساع ومتنوعة الى ابعد حدود التنوع ، وان امكانيات البحث فيها لا تكاد تتوقف عند حد خاصة وان التوصل الى الاجابة عن أى تساؤل من التساؤلات من التى يثيرها العقل الانسانى تفتح في الوقت ذاته مجالات وآفاقا جديدة للبحث ولمزيد من التساؤلات .

والظاهر أن الانسان مدفوع الى ارتياد هذه المجالات الجديدة برغبته فى اشباع فضوله الطبيعي للتعرف على اسرار هذا الكون ثم استخدام تلك المعارف المتنوعة فى السيطرة على تلك الظواهر والتحكم فيها واستغلالها لصالحه الخاص . الا أن هذه الجهود المتكررة المتجددة للبحث عن الحقيقة والمعرفة هى دليل فى الوقت ذاته على عجز الانسان عن الالمام بكل هذه المعارف وقصوره عن الاحاطة بها احاطة كاملة ، وان كان العقل الانسانى لا يتوقف عن ملاحقة هذه المجالات المتشعبة المتشابكة وارتيادها واحدا بعد الآخر . وهذا فى الواقع هو المبدأ الاصلي الكامن وراء حركة الفكر وسير الحضارة الانسانية ، كما أنه العامل الاساسي الفعال الذى يدفع الى التقدم فى كافة المجالات .

فالبحث عن الحقيقة اذن وطلب المعرفة أمر شاق وصعب ويحتاج الى بذل الكثير من الجهود والوقت . وطريق المعرفة طويل تكتنفه الصعوبات ، وان كان بعض هذه الصعوبات هى من خلق الانسان نفسه ترجع الى موقف الانسان من المعرفة ومن الحقيقة . بمعنى ان الانسان وبخاصة في الوقت الحاضر ، هو الذى كثيرا ما يفرض على نفسه القيود والحدود التى تمنعه من الانطلاق فى شتى المجالات وبالتالي الى الانحصار داخل قوقعة من صنعه يحدد هو نفسه اتساعها ومجال التحرك فيها ، وذلك باسم التخصص الذى يعتبر بغير شك احدى السمات الرئيسية للعصر الحديث . فالذى لا شك فيه هو ان التخصص يؤدى الى نوع من العزلة رغم ما قد يبدو في ذلك القول من تناقض . وهذا ينطبق على سائر المجالات ، سواء في ذلك المجالات العلمية او المهنية وكما يقول JOSEPH ROYCE فى كتابه القصير الممتع THE ENCAPSULATED MAN ان التخصص هو الذى يجعل عشرين (اخصائيا) مثلا يشتركون معا فى صنع حذاء واحد بدلا من ان يقوم صانع واحد ماهر بصنع الحذاء كله، كما كان يحدث فى الماضى ، كما ان التخصص هو الذى يؤدى الى تقسيم المعرفة وتجزئتها بحيث نجد مثلا أن هناك الآن فى صناعة البترول ٣٧٥ عملا مختلفا ، وفى صناعة النسيج ١٨٥ عملا متخصصا . ويصل هذا الى حد تتعدد

معه الخطوات والمراحل التى يجب ان تمر بهاالسلعة الواحدة مثلا قبل ان يتم صنعها . وكل خطوة من هذه الخطوات تقـوم علـىمعرفة متخصصة ودقيقـة أو على الاصـح **معرفة « ضيقة » يتوفـر عليها اخصائيـون**ينقطعـون لها فلا يكادون يخرجون عنها ، وبالتالى لا يكادون يعرفون كيف يمارسـونأى جزء من العمل غير ذلك الجزء الذىتؤهلهم له معرفتهم ، وبذلك لا يمارسون غـيره ،**بحيث نجد مثلا ان صنع سلعة بسيطة مثل** الدبوس يقسم الآن الى ثماني عشرة خطـوةمتمايزة يتوفر على كل خطوة فيها متخصص بحيث اصبحت كل خطوة مجهولة تماما مـن**العمال الآخرين الـذين يشتغلـون فى نفس** الصـناعة ولكنهم يؤدون أدوارا مختلفـة .وقد يصل الامر ان بعض هذه المهن لا يكاد يعرف معناها أو أهميتها الا الذينيمارسونهابالفعل . بل ان العامل الذى يقوم بأداء عمل جزئى معين كثيرا ما يجهل أهمية ذلك العملومكانه فى نسق الانتاج كله ، وبذلك أصـبح **(انعـــدام) معنـى العمــلَ الصناعــى**الذى يشترك العامل فى انجازه نتيجة للمبالغة في التخصص مناهم مميزاتنظام تقسيم العملفي المجتمع الصناعى الحديث .

وهذا نفسه يصدق على المعرفة فى أوسـعمعانيها ، اذ يؤدى التخصص فى آخر الامـر الى الانغلاق داخل (كبســولة) أو قوقعـةمن صنع الانسان نفسه بحيث لا يكاد يـرى الا جانبا ضئيلا جدا من المعرفة الواسـعة**الرحبةالمتشعبة العميقة، وان ينظر الىالاشياء من تلك الزاوية الضيقة المتخصصة مما يؤدى**به فى النهاية الى العجز عن الاحاطة الشاملة باى من المشكلات التي تعرض له ، أو أن يعالجأى موقف معالجة عامة شاملة ، وان كـان هذا لا يمنعه فى الاغلب من أن يصدر أحكاماعامة ــ غالبا ما تكون خاطئة ــ وتلك المعلومات الجزئية البسيطة التي اتيح له ان يلم بها .

ولقد ارتبط التخصص ارتباطا قويا منـذالبداية بالثورة الصناعية فى أواخر القـرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، وهونفس الوقت الذى تفاضلت فيه العلوم بشكل قوى واضح لم يسبقله مثيل .وبدأت المعرفةتتفرع الى أقسامها الثلاثة الكبرى : العـلوم الطبيعية والعلوم البيولوجية والعلوم الانسانيةوالاجتماعية ، بل بدأ كل مجموعة منها تدخلها كثير مـن التفـرعات والتخصـصات بحيثانسلخت علوم برمتها من كل علم مـن العلوم السابقة ، وبدأ كل علم فرعي يتفرع بـدورهتفريعات عديدة بحيث اصبح من العسـير الاحاطة بكل هذه التفريعاتمما اقتضى ضرورة التخصص . وهذا وحده كفيل بأن يعطينا نكرة عن حجم المشكلة التى تواجه المثقففي العصر الحديث ، ونعني بها العجز عـن الاحاطة بكثير من مجالات المعرفـة وضرورة**الاكتفاء بالتالي بأحد تلك الفروع الجزئيـة** من مجالات العلم .

ولقد شـغل كثـير من العلمـاء انفسـهم**بمشكلة العلاقة بين مختلف العلوم وتصنيفها** وتسلسلها وترتيبها وتطورها . ولعل اشهـرهذه المحاولات هي تلك التى قام بها أوجيست كونت لتصنيف العلـوم فى كتابـه الشـهير« **دروس فى الفلسفة الوصفية** Cours de Philosphic Positive الـذى رتبفيه العلوم المختلفة في سلسلة واحدة تبـدا بالرياضيات فالفلك فالفيزياء فالكيمياء ثـمالبيولوجيا واخيرا علم الاجتماع الذى كـان يسميه في أول الامر « الفيزياء الاجتماعية »لكي يدلل على طبيعة المنهج العلمى الـذى **يصبغ او يجب ان يصبغ ذلك العلم . وكـان**اوجيســت كونت فى ذلـك يـذهب الى أن الرياضـيات كـانت أسـبق العلوم جميعا ــلبساطتها ــ فى الوصول الى المرحلة الوصفية،

بينما كان علم الاجتماع هو آخر العلوم وصولاالى تلك المرحلة نظرا لتعقده وظهوره متأخرا ، بل انه لا يزال في الواقع يحاول اللحاق تلك المرحلة . واوجيست كونت في ذلك انما يعكس الوضع العام الغريب الذى ساد تطور المعرفةالانسانية . فلقد اهتم الانسان أول ما أهتم بالظواهر والحقائق الخارجية وقطع فى دراستها شوطا بعيدا بحيث بلغت هذه المعارف الخارجية عنه درجة عالية من التقدم والعمق قبل ان يوجه اهتمامه الى الظواهر والحقائق الداخلية ومنها البيولوجية ثم السيكولوجية (مع العلم بان كونت لم يغير علم النفس ضمن العلوم) واخيرا الاجتماعية . وقد مرت هـذه العلوم وبالتالى ــ المعرفة الانسانية ككل ــ بمراحـل ثلاثة ضمنها كونت قانونه الشهير باسم قانون الحالات الثلاث ــ والذى يقوم فى أسـاسـه على الاعتقاد بأن العقل البشرى مر بثلاث حالات من حيث النظر الى الاشياء وتفسيرها. ففي المرحلة الاولى كان العقل يفسر الظواهر عن طريق ردها لكائنات وقوى يمكن مقارنتها بالانسان نفسه ، وفى المرحـلة الثانية التـي يسميها بالمرحلة الميتافيزيقيـة يفسر العقـل الظواهر عن طريق الرجـوع لبعض القـوى المجردة ، كالطبيعة ، واخيرا تأتـي المرحـلة الوضعية التى يقنع فيها الانسان بملاحظـة الظواهر واقامة علاقات وروابط منتظمة بينها، سواء في اى فترة محددة بالذات أو خـلال الزمـن ، ويسـقط من اعتباره البحث عـن المبادىء النهائية التي تكمن وراء الاشـياء والوقائع والحقائق ويكتفى باقامة القـوانين التي تحكمها . ومع ان العلوم المختلفة تمـر بالضرورة أثنـاء تطورها خلال هـذه المراحل الثلاث فان ذلك لا يعنى انها تنتقل معا ككل من مرحلة لاخرى وفي نفس الوقت . وموقع أى علم من العلوم الى السلسلة التصنيفية التى أشرنا اليها يحدد لنا وضع ذلك العلم مـن الوصول الى المرحلة الوضعية ، أى ان هـذا الترتيب هو فى الحقيقة ترتيب لبلوغها الحالة الوضعية ، وبذلك تكون الرياضيات أسـبق العلوم جميعا فى تطبيقها للمنهج الوضعي ، كما ان العلوم جميعا سبقت علم الاجتماع فى تحقيق هذا المنهج كما ذكرنا .

واذا استثنينا علم الاجتماع الذى يعتبـره كونت علما طبيعيا كالفيزياء والكمياء فان كونت لم يشر فى تصنيفه من قريب أو بعيد الى أى علم من علوم الدراسات الانسانية ربما لانهـا لا تخضع للمناهج الوضعية ، مع ان الدراسات الانسانية تؤلف جـزءا رئيسيا من المعـرفة الانسانية . والتعارض بين العلم والانسانيات تعارض هام جذب اليه اهتمام الكثيرين من المفكرين الذين حاولوا التدليل على تهـافت الفكرة الشائعة من عـدم تداخلهما واستحالة التقريب بينهما . ولعل أشهر ـ ان لم تكن أفضل هذه المحاولات هي محاضرة C.P. Snow عن « الثقافتين » .

والمعروف أن الصراع بين العلم والانسانيات يرجع الى ما قبل عصر النهضة فى أوروبا ، وهو صراع افلح في أن يجرف رجال الكنيسة الكاثوليكية الذين اضطهدوا العلماء ورجـال الفكر العلمي ، ووصل هذا الاضطهاد الى حد اعدام عدد منهم . الا أن هذه الفترة لم تلبث ان انتهت فى القرن السابع عشر والثامن عشر (عصر العقل The Age of Reason حين أمكـن التقريب بين (الثقافتين) ، أو على الاقـل الملاءمة بينهما بحيث وجدت بعض العنـاصر العلمية سبيلها الى الادب ، وامكن بـذلك التعبير عنها تعبيرا أدبيا رائعا ، وذلك قبـل أن يبـدأ عصر الثورة الصناعية الـذى أدى الى التباعد من جديد بين الاثنين ، وهو تباعد اتخذ فى أحيان كثيرة صورة الصراع .

ولقد انتبه « سنو » الى هـذا الوضـع المأساوي الناجم عن ذلك التباعد بين العلم والانسانيات ، خاصة وانه هو نفسه جمع في تكوينه الفكري بين الناحيتين باعتباره متخصصا في الفيزياء من ناحية ، واحد كبار كتاب القصة في بريطانيا من الناحية الاخرى . وتعرض « سنو » في محاضرته التي اشرنا اليها الى تلك الهوة العميقة التى تفصل بين العلماء ، وبخاصة علماء الفيزياء وبين من يسمون انفسهم (أهل الفكر) ، وبخاصة الادباء الذين يعتبرون العلماء فئة ممجوجة من البشر ، يركبهم الغرور على الرغم من فراغ عقلياتهم وضيق أفق وسطحية تفكيرهم وان كانوا لا يتورعون في الوقت ذاته من اتهام (أهل الفكر) بقصر النظر وافتقارهم الى العقلية التحليلية العميقة . والادهى من ذلك ـ في نظر سنو ـ ان التخصصين في فروع العلم المختلفة لا يكادون يتابعون منجزات زملائهم في الفروع الاخرى ، او يفهمون ما يقومون به من بحوث ، فعلماء البيولوجيا مثلا كثيرا ما لا يعرفون سوى القليل عن الفيزياء المعاصرة رغم اتفاق العلماء جميعا الى حد كبير في الاتجاهات والمستويات والانماط السلوكية والفروض والاساليب الفنية للبحث ، اي رغم اشتراكهم جميعا في (ثقافة) واحدة . ومن الطريف ان « سنو » يذكر انه أثناء الحرب العالمية الثانية كان عليه ان يختبر حوالي ثلاثين أو اربعين الفا من العلماء والمهندسين والفنيين ، وانه رغم اعجابه بحصيلتهم العلمية في فروع تخصصهم فقد هاله جهلهم بالثقافة الادبية ، وان كان يعترف في الوقت ذاته بأن عددا كبيرا من خيرة العلماء على دراية واسعة بالادب وبالمشكلات التي يعرض لها الادباء والمتخصصون في الدراسات الانسانية بوجه عام .

وهذه ذاتها ناحية أشار اليها رجل من اكبر مؤرخي الفن في بريطانيا في الوقت الحاضر وهو الاستاذ جومبريتش E.H. Gombrich اذ يقول في مقال طريف في مجلة Daedalus (ربيع عام ١٩٧٣) انه عاصر الوقت الذي كان فيه جيل الاطباء والمحامين والموظفين العموميين ورجال المال يقرأون الكلاسيكيات على أنها أمر مسلم به في تربيتهم واعدادهم . ولكن يبدو ان ذلك العصر قد ذهب وانقضى ولم يعد العلماء يهتمون كثيرا بهذه الامور ، لان تخصصاتهم أدت بهم الى الانغلاق والانعزال .. ومن الطريف ان جومبريتش يرى ان الدعوة الى ضرورة اطلاع العلماء على ذلك التراث الثقافي الواسع المتنوع يحمل ثناياه التنبؤية الى ان المجتمع لم يعد يقدس تراثه وقيمه القديمة ، وانه طالما كان المجتمع واثقا ومتأكدا من القيم السائدة في حضارته فان الاحساس بضرورة الاتصال بتلك الرموز والاثار التي تنتمي الى الماضي يكون احساسا قويا ولا يحتاج للمناقشة أو الجدل ، بل يتقبلها الناس كأمر مسلم به وتصبح جزءا من تربيتهم وتنشئتهم الاجتماعية والعلمية ، وهو ما لا يحدث الان في كثير من الاحوال .

ولكن الطريف حقا في هـذا الصـدد ان جومبريتش يرى أن كلمة « المعرفة » بكل ما تحتويه من اتساع وتنوع تصدق على الانسانيات والعلوم الاجتماعية اكثر مما تصدق على العلوم الطبيعية المختلفة ، كما ان التخصص في فرع من فروع الانسانيات كثيرا ما يحتاج الى معرفة واسعة ببقية الفروع ، واطلاع واسع على منجزاتها . فلو أخذنا تاريخ الفن مثلا فسوف نجد ان كثيرا من الصور والرسوم التي رسمها كبار الاساتذة الفنانين من امثال ميكلا نجلو أو تيسيان لن يمكن فهمها فهما عميقا الا اذا كنا على معرفة وثيقة بالاساطير اليونانية القديمة ، لانها تسجيل لمثل هذه الاساطير ، اذ على الاقل تظهر فيها بعض شخصيات آلهة اليونان على شكل مسوخ يصعب فهمها وتفسيرها الا في ضوء تلك الأساطير كما هو الحال مثلا في صورة

بتسيان عن « يوروبا فوق ظهر الثــور » .والامر يحتاج على اية حال الى دراسة تاريخ الرسم دراسة متعمقة لكي نفهم هذه الصوربقدر ما يتطلب معرفة الرموز التــي كانــت تسود حضارة من الحضارات .

الا ان المسألة مع ذلك ليست مجرد دعوةالى فرض الانسانيات على العلماء او القيام بأية محاولة لادخالها الى عقولهم عنوة بقصــد« تمدينهم » ورفع مستواهم الفكرى والثقافى ــ حسب تعبير الاستاذ ايزيا برلين Isaiah Berlin فالعلماء قوم اذكياء كما يقول « سنو » ، ولهم ثقافتهم الرائعة الصعبة حتىوان كانت هذه الثقافة تخلو من معظم الفنون باستثناء الموسيقى ، حتى وان لم تكن القراءةفي الانسانيات تستهويهم او تــروق لهــم . ويلاحظ برلــين ان هــذا نفسه يصدق علىالكثيرين جدا من الادباء والمتخصصين فى فروع الانسانيات بل والعلوم الاجتماعية ممن يأخذونعلى العلماء الطبيعيين جهلهم وضيق افقهم مع انهم هم انفسم لا يكادون يعرفون شيئا عــنبعض النظريات الهامة السائدة فى العلــوم الطبيعية ، او حتى بعض المبادىء والقوانــينالاساسيــة مثل القانــون الثانــي للديناميكا الحرارية ، وهو فى راي سنو احد البديهاتفى العلم التي يمكن مقارنتها بقراءة اعمــال شيكسبير عند الادباء بل ان « سنو » يذهبفى تدليلاته الساخرة على جهل الادباء بالعلم الى حد ان يقول انه لوسأل هؤلاء الادباء سؤالابسيطا جدا مثل:ما الكتلة ؟ او ما هو التسارع؟ وهو سؤال يعادل في العلم السؤال : هل تعرفالقراءة ؟ فسوف تكون النتيجة مفجعة .

والواقع ان مشكلة الحواجز التي تفصــلبين التخصصات العلمية الدقيقة والتي تفرق بين خاصة المثقفين شغلت بال عدد كبير منالتربويين الذين يرون انه اذا لم يكن باستطاعة التعليم ان يزيل الحواجز القائمة بالفعل فانهيجب الا يعمل على زيادة سمكها وارتفاعها او تشجيع الانقسامات عن طريق توجيه العقولوالمخيلات فى قنوات ضيقة تزداد ضيقا طيلة الوقت بدعوى التخصص الدقيق ، بــل انالعكس يجب ان يكون هو الحال . بمعنى ان وظيفة التعليم فى العصر الحاضر يجب ان تكونهي معاونة المتخصصين على الانفتاح على العلوم الاخرى وفهم مناهجها واساليبهــا والتعرفعلى منجزاتها دون ان يتعارض ذلــك مــع التخصص الذى هو بلا جــدال سمة العصر .وبقول آخر ، فان ما يهــدف اليــه هــؤلاء التربويون هومساعدة الانسان رغم تخصصه ــعلى البحث عن الآفاق الارحب للمعرفة ، وان الاستزادة من المعارف المختلفة كفيلة فى حــدذاتها بتحقيق مزيد منانسانية الانسانوتوكيد لذاته .

والملاحظ ان كثيرا من الجامعات فى الخارج قد انتبهت لهذه المشكلة . وكانت الوسيلــة الطبيعية للتوفيق بــين التخصص الدقيــقوالانفتاح على آفاق المعرفة هي محاولة الربط بين اكثر من مجال للتخصص فيمرحلة الدراسةالجامعية ، كالجمع بين السياسة والاقتصاد والفلسفة ، أو بين التاريخ والادب ، أو حتىبين الفلسفة والفيزياء ، ولكن لا تزال هنــاك مجالات اخرى كثيرة يمكن التقريب بينها حتىيتم تحرير العقل البشري مــن القيــود التي يفرضها عليها التخصص الضيق الدقيق .

ولكن هل يعني هذا مجرد الاكتفاء بتشجيعاصحاب التخصصات الضيقة على الخروج من قيود تخصصاتهم والاطلاع على نتائج العــلومالاخرى والاحاطة بهاأهل هو يعني مثلا الاكتفاء

بتشجيع الفيزيائيين على قراءة التاريخ أوالفلسفة أو الكلاسيكيات ، وتشجيع الادباء والمؤرخين على التعرف على دقائق البيولوجياالجزئية او طبيعة الجوامد او نظرية الاعداد ؟ مثل هذا الاتجاه لن يؤدي في الاغلب الى ايةنتيجة قاطعة ، على الاقل لان ضيق الوقت أمام اصحاب التخصصات الدقيقة سوف يمنعهم من متابعة كل تطورات العلوم الاخرى ، فضلا عما سوف يبعثه ذلك في نفوسهم من السأم والملل . **ان ما يمكن عمله هو شيء مختلف** تماما عن ذلك ، وهو ان نساعد العلماء اوالرياضيين مثلا على ان يفهموا الطريقة التي يصل بها المؤرخون او نقاد الادب الى احكامهم ،وما تتضمنه هذه الطريقة من استبصار وتخيل، ونوع المنطق الذي يعتمدون عليه في تبرير تلك الاحكام حتى وان كان هذا المنطق يختلف تماما عن منطق العلماء والرياضيين . ويقول آخرون ان لب المشكلة يكمن في فهم العمليات الذهنية التي يعتمد عليها أصحاب التخصصات المختلفة وليس مجرد اقامة جسور سريعة بين الثقافات . ولن يتأتى ذلك الا عن طريق التربية الطويلة التي تبدأ منذ الطفولة وتستمر طيلة الحياة لتدريب الناس على رؤية العلاقات بين مختلف فروع المعرفة .

فكأن المسألة تتعلق في المحل الاول بالتنشئة الاجتماعية . والعقل البشري يمتاز على العموم بقدرته الفائقة على الاستيعاب والتكيف وفهم العلاقات . وسواء كان الهدف من التعليم هو مساعدة النشء على النجاح في حياتهم العملية ، او تزويدهم بقدر كبير من المعلومات المتنوعة السهلة العلمية الدقيقة ، أو مساعدتهم على الارتقاء بانفسهم الى مرتبة عالية من السمو النفسي والعقلي او تربية العقل او الخلق والشخصية فالمهم هو ألا يكون الهدف من التعليم هو مجرد « حشو الدماغ » بمعلومات لا طائل تحتها ولا معنى لها ، بحيث لا تلبث ان تنسى ويزول اثرها تماما . ولن يتاح للمرء ذلك الا اذا توفر له منذ الصبا قدر معين من الافكار الرئيسية التي تساعده على فهم العمليات الذهنية المختلفة ، مع العمل على تنمية ملكة البحث والارتياد عنده بحيث يتخذ موقفا معينا من العالم الذي يحيط به ويعيش **فيه ، مما يدفعه دائما الى استطلاع آفاق** جديدة من المعرفة ، وسوف يساعده هذا كله على التخلص من اية محاولة قد يراد بها وضع تفكيره داخل اطار محدود ضيق متزمت من الافكار والمعلومات . ولن يتسنى ذلك الا اذا تغير اسلوب التعليم بحيث يصبح وسيلة لاكتساب المهارات الذهنية بدلا من اكتساب المعلومات واختزانها ، وبحيث يصبح الرجل المتعلم هو — كما يقول بيترسون A.D.C.PETERSON الشخص الذي يفهم كيف يستجيب المؤرخ — مثلا — للماضي وليس هو الشخص الذي يكون على معرفة وثيقة بحقائق التاريخ واحداثه ووقائعه . اى ان المهم في العملية التعليمية هو التركيز على تنمية القدرات ومساعدة الفرد على التفكير العقلاني مع تنمية احساسه العميق الحقيقي بالجمال والاخلاق في الوقت نفسه ، وذلك عن طريق تنويع خبراته العقلية والانفعالية على السواء .

وسوف يؤدي ذلك به في النهاية الى ان يشارك في التراث العقلي والعلمي والانساني بحيث يحس بأنه عضو في مجتمع معين ، بل وايضا في المجتمع الانساني الكبير .

والدراسات التي يضمها هذا العدد تعالجموضوعات متفرقة قد يبدو لاول وهلة انــه لا يربطها رابط ، ولكنها تعطي فى الحقيقة فكرةعن المجالات الواسعة التي يمكن للعقل البشري ان يرتادها فى بحثه عن المعرفة ، والتي يحاولبعض العلماء المغرمين بالتصنيف ردها الىاربعة مجالات رئيسية هي المجال التحليلي (كما هوالشأن فى الرياضيات) والامبيريقي (كما هو الحال فى العلوم الطبعيــة والاجتماعيــة) ثمالمجالين الاخلاقي والجمالي . ولسنا نزعم ان هذه الدراسات تغطي هــذه المجالات الاربعــةكلها ، ولكننا نرجو ان يجد فيها القارىءعرضا لبعض المشكلات الهامة التــي تثير فى الوقتالحالي كثيرا من المناقشات العلمية الهادفة ، مثلما نجدفيها شيئا من المتعةالذهنية الراقية. والدراسات كلها على اية حال قام بكتابتها علماء متخصصون تخصصا دقيقا في فروع معينة منالمعرفة ولكنهم يقدمونها معا كمنوذج لما يمكن للمتخصصين ان يقدموه للمثقف الذي يحاولان يكتشف اكبر مساحة ممكنة مــن آفــاق المعرفة ولكنهم يقدمونها معا كنموذج لما يمكنبين تلك المجالات الاربعة الرئيسية ما امكنــه ذلك .

* * *

خصائص الفن المصري القديم

عبدالحميد زايد

الفن المصرى القديم فن متماسك ، ثابت الدعائم ، نابع من التقاليد القائمة عند الشعب المصرى ، وهو يعكس فى موضوعه اقوى الحضارات التى قامت فى العصور البعيدة فى القدم . ونستطيع ان نقرر باطمئنان ان جميع المظاهر الثقافية التى ظهرت فى العالم القديم ، غالبا ما تمثل اشكالا خاصة من طراز الفن المصرى القديم ، وانها انفصلت عنه بعد فترة من الزمن .

ان جفاف مناخ مصر ، وسماءها الصافية اغلب ايام السنة ، والتى تتمتع بزرقة ناصعة، وشمسها المشرقة دائما ، وما ينتج عن ذلك من ضوء طبيعى صاف ينير لنا ابعد الاشياء .

كل هذه الظواهر ، ساعدت المصرى على ان يحقق غريزة المحافظة على الاشياء ، والتمسك بالتقاليد . كما ان انتظام فيضان النيل ، اذ يفيض في مواعيد ثابتة تقريبا ، ويغيض في مواعيد ايضا شبه ثابتة ، دعم ثبات الفن المصرى فترة من الزمن طويلة .

اثرت هذه الطبيعة الهادئة فى نفسية الفنان المصرى القديم، فراح يبحث فيما وراء الطبيعة، وما بعد الموت ، وخرج لنا بمفاهيم روحانية ودينية ، كان لها بالغ الاثر في بناء اطارات الفن عبر التاريخ القديم . ولم تسمح هذه المفاهيم للفنان ان يتخطاها او يخرج عليها الا في اضيق الحدود . وحدث توافق بين رجال الدين

والفن . وآمن الشعب بعقيدة الحياة الآخرة ، والتزم الفنان بمبادىء الدين .

ومع ان الفن المصرى نابع من وحى الدين ، الا انه كان يخضع للنظام الملكي ، كما يخضع ايضا للمبادىء التى يرسمها رجال الدين . وتمتع الملوك بالسيادة الشاملة داخل المعابد . ولم يقم نزاع بين فرعون ورجال الدين الا فى فترة العمارنة . وظل الفن المصرى عظيما ، طالما كان الفراعنة اقوياء . وتدهور الفن حينما اهتز عرش الفراعنة فى العصرين المتوسط الاول والثانى ، وفى فترات اخرى .

ادعى بعض المفكرين ان الوحدة التى تميز بها الفن المصرى دفعته الى رتابة مملة ،ووصفه البعض بأنه فن جامد . ولكن الحقيقة كما سنرى بعد قليل ، ان الفنان المصرى يتحرك وينشط ، وتتنوع أساليبه، ويخرج لنا تماثيل لها أوضاع متباينة .

وحينما اراد الفنان المصرى أن يصور آلهته وفراعنته ، جعل لها قامة أعلى من غيرها من الناس ، وهو يريد من ذلك ابراز مظاهر القوة. كذلك الحال ، حينما اراد أن يقيم لفراعنته،أو آلهته منازل للعبادة ، جعلها ضخمة ، تبعث الشعور بعظمة أصحابها ، مراعيا فى ذلك القواعد الهندسية الدقيقة . بينما نجد الاغارقة من ورائهم ، جعلوا كل شيء مقتربا من المقاييس البشرية . على أن المصريين اجتهدوا فى الايحاء بالمطلق اللامحدود ، والذى لا يمكن قياسه،والذى يشعر الانسان بالعظمة. والواقع ان الفن المعمارى المصرى ، وما يكمله من فنون اخرى ، كفن نحت التماثيل ، والنقش ، والتصوير ، كلها تتوافق مع منظر الطبيعة المصرية التى تمثل اللامحدود .

ان ارادة الفنان المصرى نحو ابراز العظمة ، لايمكن ان ينتج عنها شعور بالرتابة ، وذلك لتنوع وسائل تنفيذها ، طبقا للموقع . وعلى سبيل المثال، **معبد الدير البحرى** الذى اقامته **الملكة حتشبسوت** فى البر الغربي للنيل تجاه مدينة الاقصر ، تميز عن بقية منازل العبادة المصرية الأخرى بشرفاته البديعة ، وهو يعد قطعة فنية رائعة ، وكان للموقع أثره فى ابرازه على تلك الهيئة . وان ابهاء الكرنك بمدينة الاقصر أيضا بأعمدتها الضخمة الاوزيرية والنخيلية واللوتية والبردية ، تفوق مايتصوره العقل البشرى . وفى أبو سمبل ، تبدو تماثيل فرعون مصر رمسيس الثانى المنحوتة في الصخر (المعبد كله منحوت فى الصخر) ، وكأنها تتطلع الى الأفق المترامى . هل يستطيع بعد ذلك أن يتحدث احد عن رتابة مملة فى العمارة المصرية خصوصا اذا بدأ من المجموعة المعمارية الضخمة التى اقامها الملك زوسر فى صقارة من ملوك الاسرة الثالثة الى المعبد الذى بناه الامبراطور تراجان فى نهاية التاريخ المصرى القديم فى جزيرة فيله بأسوان . وعلى الرغم من القواعد التقليدية التي كانت تحكم تصميم وزخرفة العمارة المصرية منذ بداية التاريخ ، فى الطوب النيء مما اصطلح على تسميته فى العمارة المصرية بالدخلات والخرجات ، ثم آثار معبد (أبو الهول) بالجيزة ، والتى تتميز حوائطها ودعاماتها بخلوها من النقوش . ثم الاهرامات ، والتي تمثل خطوطها المستقيمة اروع ما وصل اليه فن الهندسة والعمارة . ثم مقابر كبار رجال الدولة ، التى غطيت بنقوش بارزة ملونة . ومعابد الشمس في الأسرة الخامسة . ومعبد منتوحتب الثاني المؤسس الحقيقى للدولة الوسطى فى الدير البحري . ومعابد كبار حكام الاقاليم مثل معبد واح كا ، ومعبد الملك سنوسرة الاول فى الكرنك ، واطلال معبد الاله آتون فى تل العمارنة . ومنازل الولادة فى نهاية العهد المتأخر . لقد تنوعت المناظر فى داخل كل معبد من هذه المعابد «واختلفت موضوعاتها فىأجزاء المعبد الواحد، منها مايخص الشعب ، ومنها مايخص الكهنة .

كانت توجد قواعد مقدسة التزم الفنان بمراعاتها ، فعليه أن يصور آلهته وملوكه فى أوضاع مهيبة ، في صور مخلوقات أسمى من

البشر ، تجلس على عروشها ، والرعية أمامها تقـدم لها آيات الاخلاص . وتظهر الوجـوه هادئة ، هذا الهدوء الذى يضفى عليها المزيد من النبل . من أجل ذلك ، ظهر فى فن نحت التماثيل الرسمية ، قانون اصطلح على تسميته بقانون (خط الجبهة Frontalité) ، وهو يرمى الى جعل جسم الانسان مقسما الى جزئين متســـاويين متماثلين وذلك بافتراض وجود خط محورى وهمى مبتدىء من منتصف الجبهة وممتد الى مابين الساقين. هذا القانون لم يكن ليترك للفنان الحرية فى استخدام اكثر من خمسة أو ستة أوضاع فى فن نحت تماثيل الآلهة والملوك وكبار رجال الدولة . وربما ان هـذه القواعد كان لهـا اثرهـا على وجـوه التماثيل فجعلت فيها رتابة فى المظهر ، خصوصا ونحن نراها اليوم فى دور التحف الحديثة . على أن هـذه الرتابة الظاهرية التى ينسبها البعض الى التماثيل المصرية ، لم يكن لها وجود فى عين صانعها الأول. وان الاسلوب التقليدى، فى أوضاع التماثيل يختفى سريعا اذا ما نظرنا في تعبيرات وجوه أصحابها .

اننا مدينون على الارجح لأحد فناني الجنوب بصنع تمثال للملك سنوسرة الثالث لم يبق منه الا الرأس ، تم العثور عليه فى المدامود بالقرب من الاقصر (شكل ١) . ونلاحظ على وجـه التمثال ذلك التعبير الحزين ، البادى الألم ، الشيء الذى سوف تلاحظه فى جميع رسوم هذا الملك ، وعلى الأخص فى أحد تماثيله التى وجدت فى الدير البحرى ، وقد صور مكتمل الرجولة (شكل ٢) . وفى وضع آخر وقـد تقدم به العمر ، وهو موجود بمتحف اللوفر جزء من رأس تمثال للملك سنوسرة الثالث من حجر الكوارتزيت محفوظ بمتحف المتروبوليتان بنيويورك بالولايات المتحدة الأمريكية ، ويبلغ ارتفاعه ١٦٫٥ سنتيمترا . ونلاحظ تجعيدين خفيفين على جانبى الأنف . وغطيت العينان بحاجبين نصف تغطية كأن صاحبها ينظر الى أسفل ، والأنف مهشم ، أما الفم فرقيق .

وتدل ملامح الوجه على ان صاحبها كان يتحلى بشخصية قوية (شكل ٣) . هذا العدد الوافر من التماثيل التى تصور ملكا واحدا فى كل مراحل حياته شيء عجيب فيه تجديد ، اذ لم يجرؤ احد فى عصر الدولة القديمة أن يصور ملكا فى مرحلة من العمر خلاف المرحلة التي يتمتع فيها بكامل قواه، لأنه يعتبر فى أثناء حياته الها لاتحل به الشيخوخة . واعتبارا من هـذا العهـد ، تغـيرت المفاهيم المتصلـة بالعالـم الأخروى . واصبح عامة الشعب يستطيعون من هذا الحين ارتياد المجالات الأوزيرية ، هذا فضلا عن أن فرعون فقد امتيازه ، وغدا أشبه مايكون بآدمى فان ، ومـن ثم نقص احترام الشعب له ، ولم يعد تصويره فى شيخوخته ، وقد خذلته قوته ، جريمة من جرائم انتهاك الحرمات المقدسة . ويبدو من جهة أخرى ان ثمة فكرة انبعثت تسمح بان يصور الميت فى جميع الهيئات والأوضاع، وفى كل سنى حياته، وذلك حتى تصبح الحياة فى العالم الأخروى اكمل واكثر تنوعا ، وحتى يستطيع المتوفى ان يختار الحقبة مـن حياته التـى يرغب فى ان يحياها ثانية بعد مماته .

ولدينا على الاخص تمثالان للملك امنمحات الثالث ، يبرزان لنا بصورة جذابة السمات المختلفة لمدرسـتين . ويعرض علينا التمثال الاول الذى وجد في هواره بالفيوم صورة ملك شاب ، جسمه مثال للاسلوب الاكاديمى، ولكن رأسه النبيلة الوديعة الرصينة لها سمة مـن الجمـال الهادىء تفـوق فى قيمتها تماثيـل سنوسرة الأول التى عثر عليهـا فى اللشـت والمحفوظة بمتحف القاهرة ، وتنتسب هـى الأخرى الى مدرسة الشمال . استطاع الفنان ان يظهـر امنمحات الثالث فى هـذا التمثال وسـيما فى مقتبل العمر ، مقبلا على الحياة اقبالا فيه لون من الوان السعادة وله آمال عريضة ، وفى نظراته البعيدة مايدل على تفكير عميق نحو مســـتقبل باهر مملوء بالخير والرفاهيـة . أما التمثال الثانـي لامنمحات الثالث ، كشـف عنه فى الكرنك ، فانا نجده

على عكس التمثال الأول قويا وخشنا . فبروز الفك الاسفل ، والفم الملتوى الحزين ، يعيدان ذكرى الواقعية الطيبية ، وقد بولغ فيها الى حد القسوة العنيفة. حقا ان سن الملك المتقدم، من العوامل التي أسهمت في ابراز هذا المظهر، بيد ان كل مافي تقاطيع الوجه يشير الى الخصائص الرئيسية للمدرسة الجنوبية . وانا لنلتقى من جديد فى رأس لتمثال عثر عليها فى الفيوم تمثل هذا الملك نفسه بمزيج موفق للغاية من سمات المدرستين . وان ذلك النبل الرفيع الذى يتجلى على الوجه ، والجمال الصارم الذى يميز جانب الرأس ، ويكاد يكون كلاسيا، وذلك التعبير الذى يفصح عن العزة الملكية الهادئة والهيمنة فى وقت واحد ، والتشكيل النهائي للتمثال حيث تتداخل المقاطع فى توافق وتناسق ، كل ذلك يجعل من تلك الراس عملا رائعا ليس هناك من سبيل الى انكاره . فاذا ما انتقلنا الى راس لامنمحات الثالث ايضا صنعت فى الايام الاخيرة من عهده ومحفوظة بلندن فى مجموعة خاصة (شكل ٤ ، ٥) نجد فى ملامح وجهه جميعها ، بما فى ذلك العينين والذقن نظرة رجل امتلأت عيناه بأسرار كثيرة، وسعد بما قدم من خير لذلك الشعب ، ثم هو بعد صارم حازم .

اما عن تلك الراس التي يحتفظ بها متحف برلين من حجر الثعبان، فتمثل امنمحات الثالث مثقلا باعباء الحكم وتنفيذ مشروعاته الضخمة، وفى جفون عينية ثقل واضح لرجل اتعبه السهر . كما نرى فى تقاسيم وجه تمثال له على هيئة جسم أسد ووجه انسان محفوظ بمتحف القاهرة تعبيرات تدل على الاجهاد . اما رأس تمثاله المصنوع من حجر الاوبسديان والموجود بمجموعة ماك جريجور وما فيها من تجاعيد غائرة تحت عينيه ، وفمه الجامد الصارم ، يدل على شيخوخة غمرتها كثرة المسئوليات . واخيرا، يضع النحات المصرى بين ايدينا خاتمة المطاف فى حياة امنمحات الثالث فى تلك الراس التى بقيت من تمثال له عثر عليه فى العرابة المدفونة ، يمثله فى آخر مرحلة من مراحل حياته . اذ وضح في الراس ان الرجل بلغ من العمر ارذله ، فقد استطاع الفنان الذى صنعه ان يصوره وعنده احساس بقرب أجله ، فظهر امنمحات الثالث ، وفى وجهه حزن عميق .

وبعد ، لقد استطاع فنانو عمد امنمحات الثالث ان يقدموا لنا قطعا فنية رائعة ، صادقة التعبير لاعسر فيها ولا جمود ، ارتسمت فى محياها ابتسامة لطيفة، وهو فى شرخ الشباب، بينما ظهر فى تماثيل الحلقة الاخيرة من حياته ، حزن واضح ، وتعب ظاهر ، تعبر عنهما عيناه الثقيلتان .

اما التمثال الخشبى **للملك حور** (شكل ٦) والمحفوظ بمتحف القاهرة والذى عثر عليه فى دهشور ، فهو انموذج مدهش فيما يتألق به من شباب انيق ورشيق لذلك الجمال الساحر الذى عرفت مدرسة الشمال كيف تحافظ عليه ، ويعد نصرا للاسلوب الاكاديمي الممتاز . ويعتر هذا التمثال من الامثلة النادرة التى عرفت الى يومنا هذا (ان لم نقل انه الوحيد)، والتى تصور رأس ملك فوق جسد عار ، فيما عدا تمثال للملك بيبي الثاني وهو طفل . على ان تمثال الملك حور يصوره مكتمل الرجولة .

•••

كان على النحات المصرى ان يخرج تمثالا ، تعطى صورة وجهه شبها تاما لصاحبها ، لان المصريين القدماء يعتقدون فى ان (كا = روح) الميت تتردد على القبر . وحتى تتعرف الروح على صاحبها ، لابد ان صورة الوجه فى التمثال تتشابه مع الاصل . فاذا ما فنى الجسم حل التمثال محل الجسد . من أجل ذلك، اتصف فن نحت التمثال المصرى القديم بالواقعية . الا ان هذه الواقعية تطورت في الدولة القديمة ، فقد تميزت مدرسة منف بالرصانة والنبل، وجعلت منها نمطا يكاد يكون مجردا مثل تمثال الكاتب الجالس القرفصاء بمتحف اللوفر (شكل ٧) وتمثال كاتب آخر جالس محفوظ بمتحف

القاهرة (شكل ٨) ، وتمثال الملك خفرع المشهور والمصنوع من حجر الديوريت ، والمحفوظ بمتحف القاهرة ، ويعد هذا التمثال الاخير من اجمل ما اخرجه فنانو الدولة القديمة من حيث جمال الصناعة واتقانها ومعرفتهم التامة بعضلات الجسم . واستطاع الفنان ان يحمى رقبة التمثال من الكسر (لان الرقبة تعد اضعف جزء فى التمثال) ، فنحت فى كتلة الديوريت من الخلف صقرا باسطا جناحيه ، وهو فوق حمايته لرقبة التمثال ، يرمز الى اله الدولة الرسمى ، الاله حورس . تمكن الفنان من اخفاء هذا الطائر خلف الرقبة بحيث لا يستطيع الناظر الى التمثال من الامام أن يراه . (انظر شكل ٩ يمثل صورا جانبية للنصف العلوى لتمثال خفرع) . وتمثالا رع حتب وزوجه نفرة (شكل ١٠ ، ١١) يعبر وجهاهما عن السمو والرقة ، وفى عينيهما حياة وسحر وعذوبة .

اما تماثيل الدولة الوسطى ، كما سبق ان اوضحنا ذلك منذ قليل ، فقد ظهر على وجوه اصحابها من الملوك مسحة من حزن والم ، وانعكس ذلك على وجوه الناس فى ذلك الزمان . وفى الدولة الحديثة ، امتزجت الواقعية بمثالية رقيقة ، تتضمن نبلا وفتنة انيقة . بينما تميز فن العمارنة بالسمو فى الواقعية ، حتى اصبح تصويرا كاريكاتوريا (شكل ١٢) . على حين ان العصر الصاوى ، وهو الحلقة الاخيرة فى الفن الفرعونى الاصيل ، حينما كان يقوم الفنان بنحت رأس التمثال يحاول جادا ان يخضع سمات اصحابها لكثير من القواعد التى نلاحظها فى رؤوس كبار رجالات ذلك العصر ، وعلى الاخص الندوب فى الوجوه (شكل ١٣) يمثل رأسا لرجل عادى محفوظ بمتحف اللوفر ، اغلب الظن انه من العهد الصاوى .

واذا ما انتقلنا الى تماثيل الافراد ، نلاحظ ان الفنان تحرر فى اخراجها ، خصوصا التماثيل الخشبية الصغيرة ، وتماثيل نماذج القبور ، مثل تمثال (حاملة القرابين) الملون والمحفوظ بمتحف القاهرة (شكل ١٤) .

●●●

اما فى النقوش ، فقد ظهرت البيئة المصرية بموضوعاتها النباتية والحيوانية وظهر الناس داخل الدور وخارجها ، فى اوضاع متباينة ، تتناسب مع طبقتهم ورتبهم وحروفهم ، وتعددت الموضوعات ، واتسمت بالمرونة . وتمثل هذه النقوش ، اجمالا ، جميع مشاهد الحياة المعتادة للمصرى ، وعلى وجه الخصوص ، الحركات التى يؤديها من يخدمونه ، حين يقومون بتوفير مؤونته واشباع مطالبه فى الحياة الآخرة . ومن ثم نرى المصرى فى تلك المشاهد وهو يصيد فرس النهر او طيور الماء (شكل ١٥) او غيرها التى يسقطها بعصا الرماية (البومارنج) ، او هو يراقب خدمة المنهمكين فى صيد الاسماك او الحيوانات البرية بالشباك . ونراه بالمثل وهو يباشر تربية الحيوانات ، وزراعة الحقول ، وجنى الكروم ، وصناعة النبيذ ، ويشرف على اعمال الحصاد ، او تشوين الغلال . ولم تغفل النقوش تصوير الحرف المختلفة التى يمارسها خدمه : كصناعة الخبز ، والجزارة ، واشغال الصياغة ، والنجارة ، وصناعة الاحذية . ونرى فى نقوش اخرى رجاله يبنون السفن ، ويصنعون السلال الخفيفة من نبات البردى ، او بحارته يبرزون فوق مراكبهم التى فرغوا من صنعها . واخيرا نرى عزف الموسيقى ، والرقص ، والحفلات ، والرياضة البدنية ، والالعاب .

واستطاع الفنان ان يجمع الموضوعات بعضها لبعض ويمزجها او يفصلها ، ويستحدث منها الكثير من الموضوعات غير المتوقعة الطريفة او الفكاهية ، واحيانا الهزلية . ومن الغريب ، ان هذه التفاصيل ، سوف تصبح عناصر تقليدية يسير على نهجها الفنانون . واستطاع

التصوير ، مثلما استطاع النقش ، ألتحرر من القواعد المعقدة لفن الرسم ، فمثلث الاجسام من الجانب دائما ، والأكتاف من الامام دائما ، والجذوع من ثلاثة الارباع دائما (شكل ١٦) واستطاع الفنان ان يقدم لنا صنوف الحيوانات من قطعان الماشية تتقدم في سيرها بهدوء ، او تتدافع فى عجلة ، وقد ظهرت تموجات فى جلودها . كذلك ، ظهرت الطيور بأوضاع مختلفة فى مستنقعات البردى ، وهى تطير مرفرفة بأجنحتها . كما لم ينس الفنان تصوير الحيوانات البرية من نمور وثيران وحشية وقطط ، وهى تسير سيرا هادئا ، او وهى تتأهب للوثوب على فريستها . كما صور جموع البط ، وهى تسير فى هدوء . كل ذلك ، يبدو وكأنه شيء حى واقعى .

ومع ذلك ، فاننا اذا درسنا تلك المشاهد ، وحللناها تحليلا عميقا ، ظهر لنا بجلاء ان قتل فرس النهر ، وهو عمل كان الى عهد قريب من خصائص الملك الرسمية ، ليس الا قتل روح الشر التى قد تؤذى المتوفى . والامر كذلك فى مشاهد قبور طيور المستنقعات التى ترمز الى الشياطين . ويتيح صيد الماء اصطياد سمك البلطى التى تسكنها روح الميت بعد بعثها . ونستطيع بالمثل ان نفسر بعض المشاهد الزراعية : كجنى الكتان ، بل ومكافأة العمال ، الامر الذى يدل على ان اجود قماش كتانى هو الذى سوف تحفظ فيه المومياء ابد الدهر . وكذا بذر الحبوب ، والحصاد ، وصناعة الخبز . كل هذا يتيح توسعا زخرفيا فى تصوير القرابين ، الشيء الجوهرى لتامين استمرار الحياة بالنسبة للميت بعد وفاته . وجدير بالذكر ، اننا لا نرى في نقوش المقابر من الدولة القديمة مناظر دينية اصيلة ، وانما نجد بالاحرى مناظر تتصل بالطقوس الجنائزية ، كادخال تمثال الميت فى المقبرة ، ومنظر حاملات القرابين التى ترمز الى ضيعات المتوفى واملاكه وحاصلاته الزراعية ، واخيرا رحلات الحج الغامضة فى المراكب الى المدن المقدسة .

وأستطاع الفنان أن ينحت من الحجارة والخشب والمعدن تماثيل للاشخاص والحيوانات والطيور والزواحف . وقد نبهتنا مجموعة التماثيل النحاسية للملك بيبى الأول وولده (انظر شكل ١٧ يمثل غالبا ابن بيبى الاول من النحاس) التى كشف عنها فى هيراكونبوليس الى التقدم فى صناعة التماثيل المعدنية ، كذلك تماثيل العجول المنحوتة من الحجر الجيرى التى كشف عنها فى معبد جد كارع ازيزى بصقارة ، والاجزاء البازلتية لتمثال الكبش وعليها اسم خوفو والمحفوظة بمتحف برلين ، وابو الهول الصغير وقد لون بلون اصفر ، والذى عثر عليه فى معبد جدف ـ ع بناحية ابو رواش . وتمثال بيبى الثانى (شكل ١٨) المصنوع من المرمر ، يمثل الملك وهو طفل ، وقد جرد من جميع ملابسه . كل ذلك يدل على وجود مجال واسع لمختلف اشكال التماثيل ، وكذلك استخدام مختلف المواد اكثر مما نتصوره . ورأس الصقر الذهبى الذى كشف عنه فى هيراكونبوليس يذكرنا بالتماثيل المصنوعة من المعادن النفيسة التى كانت توضع بدون شك فى مقاصير دور العبادة ، مثل تمثال (حى) ابن الالهة حاتحور ، والذى يخبرنا بسرد بالرمو ان نفرايركارع أمر بعمله من اجل مقصورة خاصة بالملك سنفرو .

وحينما اراد الفنان ان يجعل الفن فى خدمة الحياة اليومية ، اثبت مهارة كبرى . ففى الدولة الحديثة ، ولما اتسعت رقعة الارض المصرية ، فكر الناس فى التمتع بثمرات الجهاد الطويل . ومن تلك المتع ، أوعية الزينة ، فاخذ الفنان يتجه اتجاها جديدا يلائم العصر ، فمثل بعضا من الاسرى الآسيويين والجنوبيين ، كذلك الجوارى ، يحملون أوعية الزينة والتجميل (اشكال من ١٩ الى ٢٢) كما مثلت بعض الاوعية على شكل حيوانات (شكل ٢٣) و (شكل ٢٤) يمثل جارية تمشى على استحياء ، بين زهر البردى ، وهى تحمل قيثارة ، وعلى رأسها زهرات من لوتس يخرج منها تجويف مغرفة الزينة ، والتحفة كلها

مصنوعة من الخشب . كما اتخذ الفنــان ، فى هذا الميدان اياد لمقارف الزينة على هيئــة فتيات سابحات تجردن من الثياب الا من بعض الاقمطة حول الخصر وزين الجيد ببعض الزينة . و (شكل ٢٥) يمثل احدى السابحات المعروضة بمتحف القاهرة ، وهى من خشب . وتمثــل جارية ، طرحت على بطنها ، ومدت ذراعيها لتضع فوقهما تجــويف مغرفــة مساحيق التجميل على هيئة بطة تفتح فمها .(١)

●●●

استهدف الفنان المصرى من وراء فنه النفع وليس الجمال . واشاد الفنانون بجودة المواد التى كانوا يستخدمونها فى العمارة او النحت . ولم نجد فيها ذكرا لجمال القوام فى التماثيل . كما انهم استهدفوا من وراء ذلك تخليد العمارة او التماثيل ، او النقوش ، او الصور . من اجل ذلك ، اختاروا لها اجود مواد البناء . حتى فى الاشكال المعمارية ، اختاروا الاشكال التى تتميز بقاعدة اكثــر ثباتــا كالاهرامات والمصاطب والمعابد المستطيلة الشكل ، والجدران المائلة التى كانت لها قاعدة اوسع من الطبقات التى تعلوها (انظر كسوة هرم دهشور المنكسر للملك سنفرو) .

لم يستهدف الفنان الجمال فى نحت التمثال ، لان القاعدة فى نحت التمثال ، هو ان يكون شبيها بصاحبه حتى تتمكن (الكا) من التعرف عليه . وحتى يبقى التمثال اكبر مدة ممكنة ، ولا يتعرض للتلف ، فضلوا اختيار الحجارة على الخشب فى كثير من الاحيان .

واخيرا ، نلاحظ ان الفن المصرى سبق الفن الاغريقى والغربى فى معرفة اهمية اتباع قواعد التشريح فى جسم الانسان ، وكذلــك اهتمامه بنقل الطبيعة . كذلك ، تميز الفن المصرى ، كما تميزت الفنون الآسيوية السابقة عن الفن الاغريقى بانطوائه على رموز تمثــل وحدة الوجود ، فنجده يمزج شكل الانسان بشكل الطائر او الحيوان فى هيئات بشعة مثل جلجامش فى الفن العراقى ، وحورس احيانا فى الفن المصرى القديم يمثل برأس صــقر وجسم انسان . او الالهة سنحمة ، التى مثلت احيانا براس لبؤة وجسم انسان . وهو فى هذه الناحية ، يريد ان يبرز مفاهيم كهنوتية كان مضطرا لابرازها مخالفا فى ذلك الواقعية .

الفنان المصرى القديم :

سمى المثال منذ الدولة الوسطى (المحيى) (٢) ، وهذا يدل على المكانة التى كان يتمتع بهــا الفنان . ومجد المصريون الشخصيات الفنية ، فقد سجل اسم ايمحتب وزير الملك زوسر على قاعدة تمثال للملك زوسر محفوظ بمتحــف القاهــرة . كما أله المصريون ايمحتب لمهارته فى العمارة ، فقد أشرف على بناء الهرم المدرج وما حوله من ابنية . وكان ايمحتب طبيبا ممتازا وفيلسوفا واديبا . كذلــك ، ألــه أمنحتب بن حابو كبير مهندسى الملك امنحتب الثالث . وتمتع بعض الفنانين بثراء كبير ، فهذا مثال ومصور كبير ، قاما(٣) بتنفيذ قبر أمير من الامراء على نفقتيهما . وفنان آخر(٤) من الدولة الحديثة يتباهى بأملاكه . كما شجع الملوك الفنانين . وقام الملك اخناتون على تعليم الفنان (بك) ، لان الملك كان نفسه فنانا .

---

(١) انظر « التجميل عند قدماء المصريين » عبد الحميد زايد . مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، المجلد الثانى عشر ١٩٦٤ – ١٩٦٥ . من ص ٢٩ – ٣١ .

(٢) H. Schaefer, Von Aegyptischer Kunst. 3 Auffage. Lerpzig 1930.S. 20

(٣) W. S. Smith , A History of Egyptian and Painting in the Old Kingdom London 1946, P. 352.

(٤) K. Sethe, Unkunden der 18 Dynastie IV, 130 ff.

كان الفنانون من طبقات الشعب الممتازة ، فبعضهم من إسرة حاكم مدينة الكاب ، ومنهم من حمل لقب الامارة . ومن الاسر ، من كان يتوارث القاب الفنان الاصلى للاسرة . ومن الفنانين ، النحات ، والمصور ، والرسام ، والمهندس . وكذلك اختلفت درجاتهم ، فمنهم من كان يحمل (رئيس النحاتين) . كل ذلك، لان المصريين كانوا يقدسون الفن ويقدرون الفنانين . ولا ادل على ذلك ، من ان الملك تحتمس الثالث قام بنفسه برسم اشكال بعض الاوانى وسلمها الى رئيس صناعةالاوانى ليعمل على نمطها اوانيا اخرى .

بقيت نقطة هامة ، وهى ان اغلب الاعمال الفنية بمصر القديمة لم تمهر بأيدى اصحابها مثلما فعل الأغارقة او الرومان ، او ما يفعله فنانو أوروبا وغيرها من اقطار العالم الحديث حاليا . فهل يا ترى كان الفن جماعيا ؟ ، أو انهم كانوا يعتقدون ان مجرد ذكر اسم الفنان فى المقبرة التى قام بتنفيد اعمالها ، ربما يعطيه هذا الحق فى الانتفاع بالقرابين التى تقدم للميت نفسه لاعتقادهم ان الصورة تولد الحقيقة ؟ كما ان من أسباب بقاء الفنانالمصرى مجهول الاسم ، هو ان المصريين كانوا يعتبرون ان الفنان عامل بسيط ، مثله مثل غيره من العمال . ولم يخلد اسماء الفنانين مثلما ذكرت اسماء الملوك وكبار رجال الدولة . وليس سوى القليل ، مثل (حوى) المصور و (تحتمس) و (يويوتى Jououti) فى عصر العمارنة .

ربما أن مجهول الاسم هذا كان يشعر بضعفه ، أو ان هذا يدل على نكران الذات . وحتى يصبح حكمنا على هذا الموضوع واقعيا، لابد ان نقوم بدراسة كل عمل على حدة ، والظروف التى صاحبت العمل . فهذا(ايريتسن Iritisen) من الاسرة الحادية عشرة يحدثنا عن مقدرتهفىتمثيل الانسانفىعدة اوضاع.(٥) وعلى اية حال، اننى اعتقد أن السبب الرئيسى فى عدم ذكر اسم الفنان ، هو ان العمل الفنى فى مصر كان عملا جماعيا .

تلقى الفنان المصرى تعليمه فى المدارس والمصانع التى تلحق بدور العبادة،والتى كانت تحتفظ بنماذج تتمثل فيها اسماء الملوكوالآلهة والبلاد (كل ذلك على لوحين من الخشب منذ الدولة القديمة) ، عثر عليهما ريزنر Reisner فى الجيزة ، وصور مختلفة من طيور الماء مثل البط والاوز . وهذه كانت تمثل الحلقات الأولى فى علم الرسم والتصوير . وأحيانا نجد الدروس مصممة بأيدى المدرسين بالمداد الاحمر . وبعض هذه الرسوم تقليد لاعمال فنية قديمة . واتضح من هذه الرسوم ، قيام الرسامين الكبار بتدريب الطلبة على كتابة العلامات الهيروغليفية ، والقيام بأعمال أخرى كنحت بعض عناصر معمارية . ومن هؤلاء ، من كان له خبرة فى الصياغة ونحت العاج والآبنوس .

واتضح أن الفنان كان يستعين بخطوط ونقط أو مربعات لتحديد نسب الاشكال ، وهذا يدل على دقة الفنان فى اخراجه الموضوعات التى تطلب منه . على أن الفنان ، كا نيتحرر احيانا من هذه النقط أو الخطوط معتمدا فى ذلك على مواهبه وتقديراته الفنية .

واستخدم الفنان ادوات فى غاية البساطة مع صلابة الاحجار التى كانت تصنع منها التماثيلمثلالديوريت والجرانيتوالكوارتزيت فلم يستخدم الحديد او الصلب أو الصلب **او حتى النحاس خصوصا فى اوائل الدولة القديمة . وكانت ادواته عبارة عن مدق** من الحجر ، المصنع . واستخدم أحيانا المنشار

---

(٥) Marcelle Baud, Le Mitier d'Iritisen. Chronique d'Egypte, 1938 P. 21 ff

النحاسي أو البرونزى أو الحديدى فى العصور المتأخرة ، مع استخدام مساحيق من رمـــل وخلافه يستعين بهاعلى كشط الاجزاء الزائدة . كما استخدم المثقاب الانبوبي من النحاس . أما عملية الصقل ، فتتم بواسطة مصاقل من حجر أشد صلابة من الحجر المصـــنع (ســوف نتعرض لكيفية تنفيذ العملية بعد قليل) . أما التماثيل المصنوعة من حجارة رخوة ، فقــد استخدم منحتا من نحاس ومدق خشبى ، واستخدم المقشر فى صناعة التماثيل الخشبية .

وفى التصوير ، استخدم الرسام والمصــور اقلاما من الاسل . أما الفراجين ، فكانت تصنع من الياف الحشائش ، أو من جريد النخيل بعد ان تدق أطرافه . واستخدم الخيوط بعد غمسها فى اللون الاحمر ، وذلك ليخط بهـــا المربعات لتحديد الصور .

واتخذ الالوان من المعادن والصخور بعد أن يقوم بتحويلها الى مساحيق ، ويخلطها بنوع من الصمغ أو زلال البيض .

●●●

المراحل التى اتبعها الفنان فى صناعة التمثال

سوف احاول فى هذه النظرة السريعة أن اعرض صورا من النحت المصرى القديم لا عسر فيه ولا جمود . ولن استطيع فى ذلك العرض الخاطف أن استوعب جميع التماثيل التــى تذخر بها دور التحف العالمية ، وانما ساكتفى بنماذج من ذلك النحت الراقى فى مصر الفرعونية .

وقبل أن أعرض للجوهر فى هذا الموضوع ، ارى من الخير الاشارة الى الطريقة التى كان يتبعها الفنان المصرى فى اخراجه التماثيل من مختلف المواد بالاوضاع المتباينة .

يختلف فن النحت أولا من حيث المــادة ، وثانيا من حيث الموضوع . أما من حيث المادة التى كان يصنع منها التمثال ، فغالبا ما تكون من مختلف أنواع الحجارة أو الخشـــب أو المعدن . وقد جاء على كثير من صفحات القبور المصرية الخطوات التى اتبعها الفنان المصرى فى صناعة التماثيل . كما كشف فى كل من جبانة منف بمنطقة الجيزة الاثرية ، وفى تل العمارنــة بمحافظة المنيا عن تماثيل ، استطعنا أن نعرف منها القواعد التى كان يتبعها الفنان فى صناعة التماثيل الحجرية ، اذ عثر على تماثيل بداها الفنان ثم تركها لسبب غير معروف (انظر شكل ٢٦) وهو عبارة عن رأس ارتفاعها ٣٣ سنتيمترا . ويمكننا ملاحظة الخطوط باللون الاسود التى وصفها الفنان ليهتــدى بها فى نحت تفاصيل الراس . وواضح أن التاج كان يشكل جزءا منفصلا عن الراس . وفصلت العينان عن الحاجبين ، واخذتا شكل لوزتين . وشحمات الأنف واضحة ، واستطاع الفنان أن يظهر فتحة الفم بصفاء ونحت الذقن بدقة . والرقبة رقيقة وطويلة ومائلة الى الامام قليلا ، وهذه هى من سمات فن العمارنة » والراس حاليا معروض بمتحف القاهرة وواضــح أن الفنان تركها دون أن يتمها ويضـــع عليها اللمسات الأخيرة) .

اذا ما اراد الفنان نحت تمثال ، كان يعمل واقفا أو جالسا على مقعد ، أو جاثيا علــى ركبتيه ، واختلفت جلسته باختلاف التمثال الذى يقوم بعمله . فعلى جدران احد حوائط قبر الشريف(ابى) من الدولة القديمة والموجود حاليا بناحية دير الجبراوى مركز أنبوب محافظة اسيوط . يرى المثالون في أوضاع مختلفـــة (شكل ٢٧) ، فقد وضع أحدهم قدمه على المقعد ، بينما يشاهد الآخر وهو يعمل واقفا ، وثالث يجلس على الارض . اما عن المادة التى كانت تصنع منها هذه التماثيل الموضحة فى هذا الشكل ، فغالبا ما تكون من الخشـــب ، لأن الادوات التى استخدمها الفنانون ، أدوات خاصة بعمليات التنجير من قواديم أو مقاشر أو مدقات أو مطارق . وجاء فى بعض النصوص التى صاحبت أعمال هؤلاء الفنانين غالبا ذكر للاجور التى كان يتقاضاها الجالس بجـوار احد مثالى قبر الشريف (أبى) . الســـابق

الاشارة اليه ، ويشاهد هذا الصبى ماسكا بأوزة ، وكتب فوقها بالهيروغيليفية ما معناه (هذه الأوزة سمينة جدا) . فمن الجائز ، انها كانت ضمن أجر احد المثالين،اذ ان الاجور فى هذه العصور كانت بالتبادل . او ربما كانت طعاما يهيأ للمثالين .

اما عن مناظر صناعة التمثال فى الدولة الوسطى ، فلم نعثر حتى اليوم على مناظر تبين كيفية صناعة التماثيل فى هذه الفترة ، فيما عدا بعض المناظر الموجودة على جدران مقابر بنى حسن من هذا العهد ، والتى تبين فقط الفنانين وهم يقومون فقط بتلوين التماثيل .

وحينما انقشعت الغمامة التى مرت على مصر من جراء استعمار الهكسوس انتعشت الفنون مرة اخرى أيام الدولة الحديثة . وأهم تلك المناظر ما وجد مصورا على قبر وزير تحتمس (رخمى رع) ، وفيها نرى مصنعا كاملا خاصا بتماثيل الملك نفسه (شكل ٢٨) . فمثل على أحد حوائط القبر تمثالان كبيران من الجرانيت ، يمثلان الملك تحتمس الثالث ، ويظهر الملك فى أحد التمثالين جالسا ، بينما فى الآخر واقفا . والتمثالان من الحجم الكبير ، بدليل أن المثالين كانوا يعملون على ما يسمى فى لهجة المعماريين (سقالات) ، فقام المشرفون على العمل بتنصيب كتل خشبية ليعمل فوقها المثالون . ولوحظ ان احد المثالين يقوم بتركيب الصل على جبهة التمثال الجالس ، بينما أخذ زميله فى صقل لباس الراس المسمى (نمس) ، ووقف الثالث ، من أسفل يهيىء القاعدة . ويلغ المثالون الذين يقومون بصناعة التمثال خمسة اشخاص ، جلس احدهم على (سقالة) يصقل التاج الابيض ، بينما يقوم آخر بتلوين النقوش الهيروغليفية الموجودة على ظهر التمثال ، ووقفت الثالث على (السقالة) السفلى يهيىء صدر التمثال ، بينما أخذ أحد العاملين اللذين وقفا على الارض فى صقل التمثال ، والثانى يقوم بحفر النقوش . ويتوسط المنظر تمثال كبير لأبى الهول ، ومائدة قربان كبيرة . وهنا نرى أحد الرجال وقد جثا بركبته اليسرى على قدمى ابى الهول، يثبت الصل على جبهته، بينما وقف آخر منحنيا يصقل لباس الراس (نمس) ، ووقف الثالث منحنيا متكئا بركبته اليسرى وممسكا بفرجون فى يده اليمنى وباليسرى اناء ، وغالبا ما كان يقوم بتلوين التمثال او ترميم جزء ضعيف فى الحجر بجص مجهز وضع فى الاناء . واذا صح ذلك ، فلم يكن ذلك الذى بيده فرجون وانما اداة اخرى . اما الصناع الذين يقومون بعمل مائدة القربان ، فثلاثة بأيديهم أدوات من الحجر كبيرة لصقل المائدة تحت اشراف مشرف ، وظهر الصاقل الايسر بهيئة نادرة وطريفة ، منحنيا الى اسفل .

واما عن مخلفات المصريين القدماء من نحت يبين الخطوات التى كانت تتخذ فى صناعة التماثيل ، فقد عثر فى الحفائر التى أجرتها البعثة الامريكية تحت اشراف ريزنر Reisner بالمعبد الجنازى الملحق بهرم الملك منكاورع بالجيزة على مصنع للنحت مملوء بتماثيل لم يتم صنع بعضها . اذ وجد ان بينها ما كان في الحلقة الاولى ، وبعضها تقدمت صناعته ، والبعض قرب من الانتهاء . واستطاع ريزنر أن يعرف الخطوات التى كانت تتبع فى صناعة التمثال ، ووجد لها نماذج حية ، فنظمها تنظيما فنيا حتى وصل بها الى الحلقة الاخيرة ، ووافق على رايه جمهرة من العلماء والفنانين . وانتظمت دراسته فى ثماني خطوات (شكل ٢٩) .

١ ــ يقوم المثال بنحت قطعة من الحجر ، يجدد فيها الهيئة التى يرغبها للتمثال ، ويخط بقلمه على الكتلة الحجرية بالمداد الخطوط الرئيسية للتمثال . وجدير بالذكر ، انه عثر على تمثال لمنكاورع وعليه بقايا خطوط حمراء .

٢ ــ قام المثال بنحت الخطوط الرئيسية لرأس التمثال وما حول الذراع الايمن والمقعد ،

٣ ـ يظهر تقدم ملحوظ فى الاعضاء السابق البدء فى عملها فى الخطوة السابقة .

٤ ـ تقدم فى هذه الخطوة ، اذ لوحظ نحت الساقين .

٥ ـ يظهر فى هذه المرحلة تقدم في نحت بعض التفاصيل .

٦ ـ تتم هذه التفاصيل فى تلك الخطوة .

٧ ـ لم يبق هنا غير صقل التمثال وحفر النصوص .

٨ ـ تحفر النقوش على التمثال (٦) .

وبذلك يستطيع عشاق الفنون القيام بدراسة خطوات الفنان المصرى القديم فى تماثيل الملك منكاورع ، والاسلوب العلمى الذى كان يتبعه فى نحت التماثيل . وفى يقينى ، ان هذه التماثيل التي وجدت لمنكاورع ولم يتم صنعها كانت بمثابة نماذج يهتدى بها المبتدئون من المثالين . وهذا يؤيد ماذهبنا اليه ، من انه كانت توجد مدارس ملحقة بالمعابد يشرف عليها كبار الفنانين ، وزودت تلك المدارس بنماذج حية من الاعمال الفنية لتكون تحت بصر طلاب الفن .

وبمتحف برلين تمثال للملك اخناتون جاثيا يقدم قربانا ، وعلى صفحة الحجر الخطوط التي تحدد اعضاء جسمه . وعثر ايضا على رؤوس واجزاء من تماثيل بمنطقة تل العمارنة من عهد اخناتون ايضا تبين الخطوط التى كان يحددها الفنان ، وكذلك عثر على بعض تماثيل لاخناتون لم يتم صنعها بعد .

وبعد أن ينتهى الفنان من نحت التمثال ، يقوم بصقله صقلا جيدا . ومن الجائز أن المشرف العام كان يلقى نظرة على هذه العملية لأنها هى التى سيتم بها عرض التمثال .

وبقبر الفنان (حوى) بتل العمارنة منظر (شكل ٣٠) ظهر الفنانون جالسين على مقاعد بسيطة داخل مصنع أو ماتسميه الآن (استديو) . ومن الصورة ، يتضح ان السقف رفع على عمودين لهما هيئة سيقان البردى . وظهر رئيس المصنع فى صورة اكبر من بقية العمال الآخرين . كما يظهر رئيس المصنع وهو يعمل فى تلوين تمثال صغير للاميرة (باكةآتون) ابنة اخناتون . والى اليسار ، احد العمال ، يقوم بوضع اللمسات الاخيرة لرأس ممسكا اياها من الرقبة ، بينما يقوم عامل آخر بتهذيب احد اجزاء مقعد ، لعلها رجل المقعد ، وذلك بواسطة مايسمى بلغة النجارين(قادوم) .

اما عن التماثيل الحجرية التي كانت تصنع من اكثر من قطعة ، فلدينا بمتحف القاهرة تمثال كامل صنع من المرمر (شكل ٣١) للملك سيتى الاول بالحجم الطبيعى تقريبا ، عثر عليه بمعبد الكرنك ، وجدير بالذكر ، ان المثال لم يكن قد انتهى بعد من نحت هذا التمثال . وهو يتكون من ست قطع (الساقان ـ الذراعان ـ الجذع ـ الرأس) . وقد عرف عهد اخناتون، واتبع فى تنفيذه الاساليب التي كانت تتخذ في صناعة التماثيل الخشبية منذ عهد الدولة القديمة (مثل تمثال شيخ البلد بمتحف القاهرة) . ولم تعرف هذه الطريقة على نطاق واسع فى صناعة التماثيل الحجرية ، الا فى عهد الملك اختاتون . ومن الراجح ، انها عرفت ايضا فى عهد تحتمس الثالث أو الرابع ، اذ عثر على قناع يمثل ملكا . وفى الواقع ، ان نحت هذا القناع ، وتفاصيل ملامح الوجه ، شبيه بوجه تمثال سيتى الاول الذى عثر عليه فى الكرنك سابق الذكر . ولولا فقدان تطعيم العينين والحاجبين من تمثال سيتى الاول لظهر ملامح التمثال اكثر وضوحا . اما عن

---

(٦) الصورة رقم ٩ باللغة الاجنبية فى هذه اللوحة تبين نفس التمثال من الجانب .

القطع الفنية التى عثر عليها من عهد اخناتون ، فاهمها تلك الرؤوس الحجرية لبعض التماثيل من عهده لها رقبة كانت دون شك تركب فى التمثال، وكذلك لها تاج، يوضع فوق الرأس، مثل راس الملكة نفرتيتى المحفوظ بمتحف القاهرة (شكل ٢٦) . ويمكننا ملاحظة الخطوط التي وضعها الفنان ليهتدى بها فى نحت الرأس ، وواضح ان التاج كان يشكل جزءا منفصلا عن الرأس ، وأما عن تفاصيل الوجه فواضحة تماما ، فقد اخرج الفنان العينين على هيئة لوزتين . والانف رقيق ، وفتحة الفم صافية ، والذقن نحت بدقة واعية ، والرقبة رقيقة وطويلة ومائلة الى الامام قليلا ، وهذه من سمات فن العمارنة .

اما عن استخدام المعادن في صناعة التماثيل فقد عرف المصريون صناعة التماثيل من هذا النوع منذ الدولة القديمة، واهم مثل على ذلك تمثالا بيبى الأول وولده بمتحف القاهرة ، وتمت صناعتهما بطريق الطرق على المعدن . و (شكل ١٧) يمثل التمثال النحاسى الصغير الموجود بجوار التمثال الكبير لبيبى بمتحف القاهرة ، والذى يرجح العلماء انه لولده .

• • •

عرض سريع عن نماذج من نحت التماثيل عبر التاريخ

لم تستطع النهضة الكبرى التى شملت الفنون أيام بناة الأهرام ان تمثل الناس فى غير التمثيل الدينى المألوف سواء الجالس منهم او الواقف ، ما كان منها خاصا بالملوك او كبار رجال الدولة . ومثل الكاتب بهيئته المعروفة عند المصريين ، جالسا القرفصاء ، باسطا قرطاسا من البردى على فخذيه منتظرا ما يمليه عليه سيده . واستطاع الفنان ان يلقى على هذه التماثيل الأبهة والجمال ، فظهر فيها حدة التقاطيع ، ويقظة الملامح ، ورقة الافواه ، اذ تعلوها ابتسامة لطيفة تنم عن عمق فى التفكير

(شكل ٨) يمثل احد الكتبة بمتحف القاهرة ويمكننا أن نضيف الى هذه المجموعة راسا ضخما للملك اوسركاف مؤسس الأسرة الخامسة، ارتفاعه ٧٥ سنتيمترا من الجرانيت الوردى ، محفوظا حاليا بمتحف القاهرة ، ويظهر وجنة صاحب التمثال مملوءة ، والانف كبيرا ، والفم واسعا ، ونحت المثال الذقن بدقة واعية . وان غياب اللحية المستعارة فى التمثال جعلت الوجه معبرا تعبيرا صادقا . ويعد هذا الراس فى مجموعة عمل فنى ممتاز فى حجر شديد الصلابة مثل الجرانيت .

كان فرعون مصر فى الأيام الأولى من الدولة القديمة مؤلها . وحينما انطلقت الحريات فى اعقاب الاسرة الخامسة ، لم يحاول الفنان مرة واحدة التخلص من تقاليد الماضي ، وانما اخذ يرجع اليها ويقتبس منها ، ويحاول ان يتجه بفنه اتجاها لا أقول جديدا في موضوعه وانما فى اسلوبه .

وحينما رفع النقاب عما استتر فى حياه الناس ، تأكدوا ان فرعون ماهو الا بشر كسائر خلق الله ، يمرض ويحيا ويموت ، وانه نزل من السماء الى الارض ليشارك الناس نعيم الدنيا ، ويعمل كما يعملون . كذلك ، تأكدوا ان فى الناس قوة لا يستهان بها ، وان سلطان الملوك يقوض أمام قوة الشعب . وملأ هذا الشعور نفوس الناس ، وامتد الى جميع أنحاء البلاد ، فاندك صرح الملكية ، ووقعت البلاد فى فوضى . ويأفل نجم الفنون فى اعقاب الدولة القديمة فترة من الزمن . ومع ذلك كله، ومهما عصفت بالبلاد المحن والشدائد ، فقد اتصف شعب مصر بالصبر والثبات والكفاح ، من أجل ذلك ، خرج من المحنة بعافية . ولم يتخلف عن ركب الحضارة ، واستمر الناس فى تمثيل ملوكهم على الصورة القديمة أيام الدولة الوسطى ، فهذه الابتسامة الطيبة على وجوه تماثيل سنوسرة الاول ، ومن قبل ، صورت الآلام الحادة، والهموم التى ملأتنعصر المناتحة

(عائلة منتوحتب) على وجوه تماثيلهم ، وفى قسمات وجوههم ، وظهرت عليها ارادتهم القوية البناءة . وصورت اغلب تماثيل الملوك من فراعنة الدولة الوسطى عليها تلك القوة البشرية الجبارة المهيبة ، والخشونة الصارمة (شكل ٣٣ يمثل جزءا من وجوه سنوسرة الثالث محفوظ بمتحف اللوفر) وهذا التمثيل لم يكن مألوفا في الدولة القديمة. اما فى تماثيل الافراد ، فقد ظهر لون جديد لم يكن معروفا ايام الدولة القديمة ، وهى التماثيل الجالسة المؤتزرة واستمر استخدامها حتى الدولة الحديثة وما بعدها ، وهو منظر مألوف عند المصريين ، بل عند أهل الشرق الادنى جميعا ، وليس مألوفا عند الأوروبيين (شكل ٣٤ يمثل احد هذه التماثيل من الدولة الحديثةالمحفوظة بمتحف فلادلفيا بامريكا) .

ثم تصاب البلاد بنكسة مرة أخرى ، فيضع الهكسوس أيديهم على كل شيء ، ويستعمرون البلاد ، ويعيش الناس فى مصر قرنا ونصف القرن تقريبا تحت كابوس الاستعمار،وتتخلف دنيا المصريين القدماء فترة من الزمن . ثم تأتى الثورة الحمراء ، وينتصر الشعب المصرى على الهكسوس . وتنهض البلاد نهضة لم نر مثيلا لها فى الشرق كله ، نهضة سياسية وحربية واجتماعية وفنية . وكان لتلك النهضة اثرها فى تغيير مجرى حياة الناس ، ويتطور التفكير السياسي والاقتصادي والحربي والفنى ، خصوصا بعدما خرجوا الى الشرق ، والى جزر البحر المتوسط ، وحاكوا بعض ما رأوا من فنون هذه الأمم ، فاقتبسوا مافيها من زخرف يتناسب مع الموضوعات المصرية القديمة . واستطاع الفنان ان يسجل مظاهر الترف واليسار ، كما تفنن فى تمثيل تصفيف الشعر وعقصه . واقترب النحت فى هذه الفترة من غايات الجمال والاتقان . وكان وجه التمثال معبرا بصدق عن طباع صاحبه ومزاجه، اذ نلاحظ فى تماثيل الدولة الحديثة ملامح التأمل العميق، وفى بعضها جمال الشيخوخة، ووقار السن المتقدمة ، كما تبين في عيونها الهدوء الواضح . وفى الواقع ، يعد النحت فى هذه الفترة مرآة صافية نستطيع ان نرى فيها حياة الناس ومايدور فيها .

والى القارى طرفا مما راجعته فى كتاب مدام ديروسن نوبكلور(Desroches Noblecourt(٧ يجمع فن نحت التماثيل فى عصر الدولة الحديثة بين الاتجاهين اللذين سيطرا على هذا الفن بالتوالى فى العصور السابقة : واقعية مدرسة منف ، ومثالية عصر الامبراطورية الطيبية الأولى . وقد زاد على هذين المذهبين الأساسيين ، عناصر اخرى نبعت من واقع حدثين هامين : اولهما الفتوح فى آسيا ، ومن شأنها ان تخلق فى مصر ترفا لم يكن لها عهد به، من ذلك زخارف جديدة والوان اشد نضرة وزهوا ، ومفاهيم فنية حديثة يانعة . اما الحدث الثانى ، فيتمثل في ثورة اخناتون التى فرضها هو نفسه ، والتى لم تلبث ان تسببت فى قيام ثورة فكرية من شأنها ان تنمى فى العقلية المصرية مشاعر اكثر عمقا وذاتية من ذى قبل، تنزع الى الظهور .

ومن ثم يكتسب فن نحت التماثيل ، فوق ما كان يتصف به قبلا من قوة وصلابة اناقة وجاذبية ، ومرونة فى الخطوط ، واحساسا بجمال القوالب التشكيلية لم يخبره احد من قبل . واخيرا الاهتمام بتصوير الحقيقة ، ومن ثم يغدو فن نحت التماثيل فى عصر الدولة الحديثة اشد تعبيرا منه فى أى عصر مضى ، بل وازخر بالحياة ، واكثر تحررا ، بقدر ما

---

(٧) Christiane Desroches Hoblecourt, L'Art Egyptian, Paris 1962
وترجمه الى العربية : احمد رضا ومحمود النحاس ،وراجعه عبد الحميد زايد تحت عنوان (الفن المصرى القديم) القاهرة ١٩٦٦ ، من ص ١٦١ – ١٧١ .

تسمح به صفته الرسمية وسلطة الكهانة والتقاليد التي تفرضها مقتضيات الطقوس الدينية . ولا يلبث ان يصيبه في الواقع ما اصاب فن الافراد من تعديلات . وكان لا بد لفن نحت التماثيل من أن يهتم بكل تلك الثياب الجديدة التي حلت محل القديمة ، والاردية ذات الثنيات الطويلة البديعة ، والعقود العريضة والجواهر ، واغطية الرأس الكبيرة. وفي الوقت الذي تستخدم فيه العمارة كتلا اشد واقوى ، نرى في مقابل ذلك الاجسام وهي تستطيل ، والاوضاع والاشارات تزداد ليونة ومرونة ، والايدي والاقدام وهي تنال قدراً من العناية اوفر من ذي قبل . حقا ان الانسان لن يلمس في هذا العصر تلك القوة او الشدة اللتين انطبعت بهما صور الملوك في عصر الدولة الوسطى . بيد ان فن نحت التماثيل سوف يكتسب من الحلاوة والسحر ما قد يفقده من القوة ، حتى تؤدي المبالغة في هذه الصفات في غضون الاسرة التاسعة عشرة الى التكلف ، في حين تعود العمارة فتصبح قوية لدرجة الثقل .

وتدل اولى الاعمال الممتازة في اواخر الاسرة السابعة عشرة على ان تقاليد عصر الدولة الوسطى ، والاتقان الفني الذي بلغ حد الكمال في المصانع الطيبية القديمة كل ذلك لم تختف معالمه في العاصفة الهوجاء . فالتمثال الصغير للملكة احمس نفرتاري زوجة محرر البلاد الثالث احمس الاول ، يعرض بسمات من الهدوء والجلال البسيط ، وتعبيراً تشريحيا قويا يبشر كثيرا بتقدم لم يلبث ان تحقق في وقت قصير . وسرعان ما ظهرت الروائع الفنية . يشهد بذلك عمل رائع لا يبارى ، ذلك هو التمثال البديع للملكة حتشبسوت ، الذي يوجد في معبدها الجنازي في الدير البحري ، ويمثلها مشتملة بزي فرعون وغطاء راسه (والتمثال حاليا محفوظ بمتحف متروبوليتان بنيويورك) ويبدو الجسم في مظهر رجولة ، وعلى شيء من الصلابة ، ولكنه مع ذلك مفعم بالجمال والاناقة . اما الرأس فانها تمثل نصرا للحقيقة السيكولوجية التي روعيت الى اقصى حد مستطاع . وتدل قسمات الوجه الذي يشبه قليلا وجه القطة بنظراتها المستقيمة الحادة ، على كل الدقة والدهاء الخليقتين بالانثى ، وقد اقترنا بارادة لا تقهر. (انظر شكل ٣٥ يمثل راسا للملكة وقد وضعت لحية مستعارة للتشبه بالرجال ومحفوظ بمتحف المتروبوليتان ولها نفس الملامح الموجودة في التمثال المحفوظ بنفس المتحف) وانا لنجد نفس الصفات التعبيرية في تمثال تحتمس الثالث (شكل ٣٦) المحفوظ بمتحف القاهرة.

ولم نزل ، مع مجموعة التماثيل الضخمة التي تصور امنوفيس الثالث وزوجه تي في نطاق مجموعة التماثيل التقليدية التي سوف ينالها ، اعتبارا من هذا العصر ، تغيير هام عميق (هذه المجموعة محفوظة بمتحف القاهرة) . وعلى اية حال ، يبدأ في عهد امنوفيس الثالث على الاخص ، الازدهار الفني العظيم لعصر الدولة الحديثة . وفي المتحف البريطاني تمثال بديع لوجه هذا الملك ، قوي التشكيل ، ومنحوت كله في قطاعات متداخلة بمهارة فائقة . وانا لنلمس في هذا التمثال امنوفيس الثالث : من ذلك العيون المشقوقة الصفات المميزة لتماثيل العظماء في عهد على هيئة اللوز ، والتي تميل زاويتها الداخلية وترتفع من ناحية الصدغين ، والفم الذي ترتسم عليه بسمة غامضة شاردة . ونجد نفس الصفات التعبيرية في راس للملك نفسه محفوظ بمتحف اللوفر (شكل ٣٧) .

وقامت حركة اخناتون والنزعات الفنية الحديثة التي اراد امنوفيس الرابع اخناتون ان يفرضها ، فتركت آثارها على الاخص في فن نحت التماثيل الرسمية والدينية . ولم تكن محاولة التخلص من القواعد الفنية الطيبية القديمة لتجري دون ان تقابلها بعض الصعوبات بسبب قلة الفنانين القادرين على خلق قواعد

جديدة . ولجأ اخناتون الى الفنانين الاهليين المتخصصين حتى ذلك العهد في الفنون الصغرى، والذين كانوا يتمتعون بقدر من حرية العمل والمرونة اوفر من ذى قبل . ولقد اتبـــع هؤلاء الفنانون اسلوبا واقعيا جديدا ، تتمثل اوضح انماطه فى تماثيل امنوفيس الرابـع الضخمة التى وجدت فى الكرنك (شكل ١٢). فاستهدفوا المبالغة فى ابراز الصفات التشريحية المميزة للملك ، حتى لقد صوروا بروز فكيه ، وجمجمته المصابة باستسقاء دماغى ، وبطنه المنتفخة ، واطرافه الهزيلة ، وانما فى اسلوب نبيل المظهر الى حد ما . وتبدو قسمات الوجه خاصـة جلية معبرة . فالفم الملتوى والعينان اللوزيتان المرقتان بنظرة داخلية ، نظـرة الرجل الملهم الحالم ، المتأهب لعمل كل شىء فى سبيل نجاح مثله الاعلى ، وعظام الوجه التى تعكس العذاب والالم . وكان كل ما يبدو فى قسمات وجه الملك يمثل ايمانا يحطم كل ارادة معادية ، ان لم يكن هذا الايمان متسما بموت عاجل (شكل ٣٨) . (تفاصيل من شكل ١٢).

وفى الواقع ، منيت هذه المحاولة التـى استهدفت اقــرار مذهب جديـد بالفشل ، وبالتالى لم يقدر لفن العمارنة الدوام الا لما كان يتسم به مـن الجمال والحياة العذبـة والالفة . وتجلت هـــذه الصفات حتى في التماثيل الملكية ، الشىء الذى لم يكن متوقعا. ونشاهد الملك لاول مرة ، ولاسباب عقيدية فى الظاهر ، وهو ممسك بالملكة فوق ركبتيه ، يضمها فى رفق او يمسك بيدها ، كما يبدو فى المجموعة الصغيرة من الحجر الجيرى المحفوظة بمتحف اللوفر . (شكل ٣٩) هذه المجموعة الساحرة التى يتجلى فيها الترف والاناقة ، الامران اللذان يميزان الازياء الجديدة ، تثبت لنا كيف ان مذهب العمارنة الاول قد خفت وطأته ورقت شدته ، وتتضح العودة الى الاسلوب الواقعى العذب الذى احس الفنانون الاهليون فى طيبة بنزعة طبيعية نحوه ، مـن واقع عملين مدهشين : الاول منهما تمثـال نصفى للملك محفوظ فى اللوفر ، وعلى الرغم من التشابه الذى لا سبيل الى انكاره ، فـإن آثار الانحلال البدنى الذى اصاب الملك تبدو مخففة لدرجة عجيبة ، ويبدو الوجه مطبوعا بلمحة من الحزن والرقة المتألمة . اما الثانى ، فهو احد التماثيل النصفية للملكة ، وقد وجد فى مصنع النحات تحتمس ، ويصـور على ما يبدو الملكة نفرتيتى زوج امنوفيس الرابع. وان ما يتجلى فى التمثال من رقة الوجه ، وبساطة وسلامة التشكيل ، وذلك التعبير الذكى ، وتلك النظرة اللطيفة ، والانف الرقيق الدقيق ، كل ذلك يتعاون في جعل التمثال عملا فنيا وربما يبدو احدث عهدا من التمثال النصفى المشهور لنفرتيتى المنحوت من الحجر الجيرى الملون ، والمحفوظ كذلك فى متحف برلين . ولا ريب ان التى نراها فى متحف برلين هى الملكة الوالدة (تى) الاكبر سنا ، وقد شاخت قسمات وجهها ، وزادت جمودا، من اثر المحن التى قاستها ، وربما ايضا بسبب الحسرة التى استشعرتها نتيجة لفشل الثورة الدينية . اما تمثال الاميرة الصغيرة المحفوظ فى متحف اللوفر ، فانه على العكس من ذلـك انموذج حلو للجمال المتمرد ، الوحشى بعض الشىء ، وللفتنة الحزينة ، هذا التمثال يصور ولا ريب آخر بنات (تى) المولودة فى العمارنة. وقد اختفت المبالغات فى رسم اعضاء الجسم اختفاء يكاد يكون تاما فى تمثال الملك سمنخ كارع الموجود بمتحف اللوفر . واذا كانت هذه المبالغات ظهرت ثانية بشكل اوضح فى تمثال الـراس الخشبى البـديع المحفوظ بمتحف اللوتر ، فلم يعد لها ذلك المظهر الكاريكاتورى . كل هذه التماثيل انما تمثل الفن العمارنى ابرز تمثيل ، ذلك الفن الدينى الذى بنى قبل كل شىء على مبدأ التأمل الباطنى المعبر ،الذى يميل مع ذلك نحو الجانب العاطفى والمعنوى من الاشياء اكثر مما يميل نحو الحقيقة المادية الخالصة . والواقع ان الفنانين الاهليين الذين التجأ اليهم الملك درسوا بدقة الطبيعة ، الشىء الذى تؤكده سلسلة الاعمال الدراسية، والاقنعة

المصنوعة من الجص ، والقوالب التى وجدت في العمارنة ، وعلى الاخص فى مصنع تحتمس. وربما كان من ابدع هذه الاعمال القناع الجنازى (؟) ذو التعبير المفجع الخاص بأمنوفيس الثالث. وانتهت التجربة العمارنية، ولكن التأثير الذى طبعه الفن الجديد فى ذلك العصر لم يكن شأنه ان يزول تماما ، فقد بقى منه تلك النزعة الفضولية الباطنية ، والميل الى انتاج الاعمال التى تتسم بالاناقة والرشاقة. وقد استمرت تلك الصفات حية حتى فى الفن الملكى ، الذى يبدو أنه قد تبنى بصفة نهائية الاتجاهات الحميدة التى اختص بها الفن الاهلى . ومما يبرهن على ذلك مجموعة التماثيل التى تصور آمون وهو يحيط توت عنخ آمون بحمايته ، وهو موجود بمتحف اللوفر ، وكذا الثالوث المشوه الموجود بمتحف القاهرة الذى يمثل توت عنخ آمون بين آمون ومـوة . وبالمثل تمثال حورمحب البديع القسمات ، الواضح فيه التأمل الروحانى ، المحفوظ بنيويورك .

اننا نفخر كثيرا برأس تمثال نفرتيتى الذى يحتفظ به متحف برلين ، والذى يعد من القطع الفنية الرائعة اخرجها فنانو تل العمارنة بخطوطه التى تتميز بالرشاقة والميل الى تمثيل الملكة تمثيلا طبيعيا مع المبالغة فى انحدار الخطوط واطالة الرقبة . فهل هذا الاتجاه كان اتجاها مصريا ، فى خطوطه المبالغ فى انحدارها، وفى السطح المائل ؟ وهل معنى ذلك ان هذه التماثيل أو هذه الرسوم (التى وجدت على جدران صفحات بعض مقابر تل العمارنة او عثر عليها فى بعض الحفائر التى اجريت بالمنطقة) كانت تشبه التصوير الفوتوغرافى الذى يستخدم فى عصرنا الحديث ؟ الواقع ان فن العمارنة فن يميل الى الاسلوب الطبيعى مع اتجاه الى المبالغة والتشويه ، وهو يختلف عن الاسلوب الواقعى الذى شوهد عند ملوك الاسرة الثانية عشرة، كما انه يختلف ايضا عن التماثيل الجادة للدولة القديمة التى يتمثل فيها المثل العليا . فلم تتشبه كل اميرات ذلك العهد بالملك في شذوذه الجسمى . ويحتفظ متحف جامعة لندن بجذع تمثال لاميرة من هذا العهد صنع من الحجر الجيرى وليس به اى شذوذ جسمى . اما عن اصل هذا الفن فهو مصرى صميم ، اذ لا نجد فيه أى تأثير اجنبى ، لان مذهب اخناتون الدينى مذهب مصرى اصيل.

واذا ما انتقل فنانو العمارنة الى تصوير الحياة اليومية ، فبدلا من تصوير مظاهر العظمة والابهة التى كانت تحيط كبار الموظفين، فبعد ان كان يرسم الوزير محاطا بالجلال والعظمة ، نجد صوره وهو يجرى بجوار عربة الملك . ثم نجد الفنان يصور الملك وبناته كلا على عربته ، تجرى بسرعة كبيرة ، وبحماس عجيب ، كأنهم في حلبة سباق .

كذلك ، فى لعب اطفال تل العمارنة ، فقد اخذت فكرتها من العربات التى كان يركبها الملك . ويحتفظ متحف القاهرة بلعبة طريفة (I.E. 5302) تمثل عربة يجرها قردان ، وقردا ثالث يستحث القردين اللذين يجران العربة . ووقف الى جانب هذا القرد الاخير ، انثى القرد تحاول مداعبة القردين اللذين يجران العربة . وقد جمع القردان كما تجمع الخيول ورفضا التزحزح من مكانهما . وفى يقينى ، ان الفنان كان يهدف تقليد عربات الملك والملكة واطفالهما . ولعب الاطفال في كل زمان تعبر عن الاساليب التى تدور فى حياة الناس . واطفالنا في العهد الذى نعيش فيه الآن يميلون الى اللعب التى تمثل الحرب والمعارك الحربية والاحداث العالمية كالصعود الى القمر ، فنجد فيها الصاروخ والدبابة والطائرة ومركبة الفضاء. لقد استطاع فنانو العمارنة ان يتجراوا (ان صح ذلك) على ما كان يحيط الملك من هيبة فمثلوه في لعبه على هذه الصورة هو وافراد اسرته .

وتحتفظ الاسرة الثامنة عشرة بالتقاليد الخاصة بالرقة والجمال الساحر ، التى كانت

متبعة في نهاية الاسرة الثامنة عشرة . وان اجمل الامثلة لفن نحت التماثيل ليتجلى فيها ايضاالدقة المتناهية،مثال ذلك التمثال المشهور المحفوظ بمتحف تورين في ايطاليا (شكل ٤٠)، الذى يصور الملك رمسيس الثاني ، ولكنه ينسب احيانا الى الملك سيتى الاول ، وفيه يميل الجذع العلوى ميلا قليلا الى الامام ، ويتجلى فيه تعبير نبيل وهادىء الى حد كبير .

برهن النحاتون المصريون ، في تمثيلهم للوحوش او الحيوانات الاليفة ، على تمتعهم بنفس الصفات الممتازة . فالآساد الرهيبة العضلات، والسنانير ذات المشية الرقيقة المرنة المكتومة الصوت التى تهدد الفريسة،ثم الكلاب الذئبية (Chien Loup) ذات الحركة المترصدة الجديرة بالحرس الامناء الاكفاء . والقردة الكبيرة بمظهرها الوقور ، الذى يدعو احيانا الى السحرية ، كل هؤلاء يظهرون وحركتهم الخاصة بهم في واقعية صادقة ، تقل غلوا عن واقعية تمثيل الحيوانات المتوحشة الاشورية . واظهر امثلة على ذلك : تمثال البقرة حاتحور وهى ترضع الطفل امنوفيس الثانى والمحفوظ بمتحف القاهرة . وتمثالا القرد المعروضان حاليا في قرية الاشمونين بمحافظة المنيا حيث كشفا في هذا المكان .

ذلك عرض خاطف لتطور فن النحت في مصر الفرعونية ، نحا فيه المصريون اسلوبا له اصالته القديمة ، كما تميز عن غيره من النحت السومرى او الاشورى او البابلى او الحثي او الفينيقى او غير ذلك من الفنون المعاصرة . كما اتخذ لنفسه طابعا قويا في تعبيره الصادق الدقيق . وابرز مظاهر العواطف التى كانت تضطرب في النفس برسمها على معالم الوجوه. وكثيرا ما انطلق الفنان حرا ولم يتقيد بقاعدة من القواعد . ولو ان اكثر التمثيل شيوعا ، كان الواقف او الجالس ، او الكاتب صاحب الجلسة المصرية الاصيلة . الا انه تحرر من تلك الاوضاع منذ الفترة الاخيرة من الدولة القديمة ، حيث بدا يشعر الناس من حول فرعون بقوتهم ، فلا يجد الفنانون في انفسهم حرجا من تمثيل الناس جميعا بعين حرة طليقة .

●●●

نماذج من تماثيل مصرية غير مالوفة

بمتحف بروكلين بالولايات المتحدة الامريكية تمثال صغير من المرمر للملك بيبى الاول (شكل ٤١) مثل الملك جالسا على عرشه ، وظهر على ملامحه شيء من الرخاوة والطراوة ، كما ان فيه مظهر الملك الهادىء اللطيف ،وهذه ترجمة صادقة للعصر الذى كان يعيش فيه ملوك الاسرة السادسة (الفترة الاولى منها) ،حيث هدات حياة الناس . من اجل ذلك ، ترك الفنان على وجهه تلك الابتسامة الهادئة الرضية. مثل الملك في هيئة جنائزية ، اذ كان يستخدم التمثال في حفل يطلق عليه عيد (سد) ، وتدثر الملك برداء خاص بهذا الاحتفال يشبه العباءة .ثم بدا الفنان في تغيير الأسلوب الفني دون ان يمس الروح الجنائزية التى كان يهدف اليها في اخراج هذا التمثال ، فنحت خلفه الطائر المقدس (حورس) على هيئة صقر ، لكنه بصورة اختلفت عن سابقتها ولا حقتها . فمن قبل ، مثل الملك خفرع جالسا ومن خلفه الطائر الصقر ايضا (حورس) باسطا جناحيه ليحمى الملك حماية جنائزية وفنية (شكل ٩). كما نجده بعد ذلك في تمثال للملك محفوظ بمتحف القاهرة (شكل ٤٢) . اما في تمثال بيبى الاول هذا ، فقد مثل الطائر حورس واقفا على ما نسميه واجهة القصر (سرخ) ، والتى كان يكتب فيها اسم الملك .

وبمتحف القاهرة تمثال صغير للملك بيبى الثاني ، ظهر فيه الملك في جلسة غير مألوفة على عيون الغرب ، ولكنها مالوفة لدينا نحن الشرقيين ، ولا ادرى لذلك من سبب الا ان تكون حرارة الجو هى الدافع لذلك اذ كثيرا ما نجدها عند بعض الاطفال (وجدير بالذكر

ان هذا الملك تولى العرش منذ نعومة اظفاره إي في سن السادسة) . ظهر بيبي الثاني مجردا من ثيابه تماما ، جالسا القرفصاء . وعلى جبهته الصل . (شكل ١٨)

بمتحف القاهرة تمثال يجلس صاحبه جلسة غير مألوفة في ذلك العهد (الدولة القديمة) (شكل ٤٣) . اذ مثل الرجل جاثيا على ركبتيه ، قابضا على كفيه ، ونظرات عيونه تدل على الانتباه والذكاء ، وعلى فمه ابتسامة لطيفة ، وعلى وجهه مسحة من رقة .

تمثال الملك حور من الخشب (شكل ٦) عثر عليه في دهشور ، بمحافظة الجيزة ، وحاليا محفوظ بمتحف القاهرة ، وغالبا ما يؤرخ من الاسرة الثالثة عشرة . مثل الملك واقفا ، وفوق راسه رمز الروح ، والذى ينطق بالهيروغليفية (كا) ، على هيئة ذراعين مرفوعين على راس التمثال . ووجه التمثال يعد مثاليا في نحته ، وقد طعمت العينان (شكل ٤٤) . كما اتقن الفنان نحت الساقين . وكان في السابق يغطى بعض اعضاء جسمه بصفائح رقيقة من الذهب . والتمثال ، نموذج بديع للملك يتالق شبابه ، انيق ورشيق ، وهو يمثل الجمال الساحر الذى عرفت به مدرسة الشمال ، وهو نصر للاسلوب الاكاديمي الممتاز . والشيء الذى يميز هذا التمثال عن غيره من تماثيل ملوك مصر هو ان يظهر الملك مجردا من ثيابه تماما ، وهو امر غير مألوف عند فراعنة مصر . وفي يقيني ، ان التجرد من الملابس تماما كما هو واضح في هذا التمثال ، لابد ان له دلاله دينية جنائزية . وان التمثال لم يكن ليعرض على عيون الناس كما هو حاليا ، وان مكانه الاصلي هو قبر من القبور . انما لماذا جرده الفنان من ثيابه تماما ، بينما نجد جميع التماثيل الجنائزية للمصريين التي وضعت في دور العبادة او المقابر كانت مغطاة ؟ لاندرى . لذلك من سبب الا ان يكون الفنان ذلك العصر اراد ان يسهل على الروح امر التعرف على صاحبها ، فصور الملك مجردا من تعرض اجساد الملوك على هذه الهيئة . (وجدير بالذكر انه توجد تماثيل صغيرة لعمال يؤدون بعض الاعمال جزدوا من ثيابهم ، وهذا يختلف عن تمثال الملك حور ، لان طبيعة بعض الاعمال تستوجب خلع جزء كبير من الملابس ، او الملابس كلها . كذلك وجدنا ايضا بعض الجاريات وهن يرقصن في بعض الحفلات وقد جردن من ثيابهن تماما) .

بمتحف اللوفر تمثال لاحدى الاميرات (غالبا من عهد اخناتون) (شكل ٤٥) تضع على راسها شعرا مستعارا ، والقت بخصلة جانبية ، وهى آخر المبتكرات الحديثة في فن التجميل وتصفيف الشعر الحديث في عهدنا الحالي . والى جانب تمثال المرأة ، تمثال لرجال شد قميصه بحمالة واحدة .

وتزخر دور التحف العالمية بالعديد من التماثيل التى لها اوضاع غير مألوفة . وقد قام الاستاذ فانديه G. Vandier بدراسة وافية للنحت الفرعوني في موسوعته عن الآثار المصرية ، في الامكان الرجوع اليها واستخلاص الكثير من هذه الاوضاع .

• • •

تلك امثلة من بدائع النحت المصرى القديم ، أستطاع فيها الفنان ان يعبر عن شخصيات اصحابها اصدق تعبير . والمثال الماهر هو الذى يستطيع ان يضفى على عمله الفني ، وملامح وجوه تماثيله الكثير مما يجول في خواطر اصحابها واخلاقهم وميولهم ، ويبتكر ويجدد في اسلوبه دون ان يمس الجوهر او الفكرة العامة او يخرج عليها . ولقد بقيت هذه الروائع وخلدت رغم ما مر بها من محن . وقد بلغت القمة ما كان ينتظر لهـا من كمال رغم قلة ما اتيح للمثال المصرى من وسائل القطع والنحت والصقل .

المراجع

لم استطع أن اقدم للقارىء الكريم سوى بعض المراجع العامة وذلك بسبب كثرة المصنفات التى كتبت عن الفن المصرى القديم . منها ما كتب عن الفن بصفة عامة أو منها ماتخصص فى بعض فروعه ، ومنها ما نشر بين المكتشفات الاثرية. واضع تحت بصر القارىء الكريم مصنفات عامة ، وبعض المؤلفات التى ابرزت ناحية من نواحى الفن ، او فترة معينة ، او مركز حضارى معين ؟

1. Aldred (C), Old Kingdom Art in Ancient Egypt (LONDON 1949)

2. , Middle Kingdom Art in Ancient Egypt („ 1950)

3. , New Kingdom Art in Ancient Egypt (LONDON 1951)

4. Bénédite (G), L'Art Egyptien dans ses lignes générales (Paris, 1923)

5. Boreux (Ch.) , L'Art egyptien, (Paris 1926)

6. , La sculpture égyptienne au Musée du Louvre (pd.) Galavao, Paris 1938)

7. Bothmer (B. V.) , Egyptian sculpture of the late period (Brooklyn, 1960)

8. Capart (I) , Lecons sur I'art égyptien (Liege, 1920)

9. Daumas (F.) , La civilisation de I'Egypte Pharaonique (Arthaud, Paris, 1965)

10. Daires, Frakfort, Glanirille and Wittemore, The Nural Paintings of el Amarneh (London, 1929).

11. Daires (N. W.) , Ancient Egyptian paintings (2 Vol., Chicago, 1938)

12. Desoches Noblecourt (Ch.), L, (Art égyptien an Musée du Louvre (Paris, 1941)

13. Le Style égyptien (Paris, 1946).

14. L'Extraordinaire aventure amarnience (Paris 1960).

15. L'art égyptien (Paris, 1961).

16. Des trésors menacés (Paris, 1961).

17. Toutankhamon (Paris, 1963).

18. Denadoni (S.) Arte egizia (Torino 1935).

19. Drioton (Et.) La statuaire égyptience, dans I'art vivant (Paris, année, 1930, pp.557 a 560).

20. L'art égyptien dans Histoire unwerwelle de I'art sous la direction do M. Aubert (Paris, 1931).

21. Edwards (I.E.S), Introduction guide to the collections in the British Museum, (London 1969).

22. Engelbach (R.) Introduction to Egyptian Archaeology, with special reference to the Egyptian Museum (Cario, 1946).

23. Glanville (S.R.K.), The Legacy of Egypt (Oxford, 1953).

24. Hayea (W.C.), The Scepter of Egypt, I (Now York, 1953), II (Cambridge, Massachusetts, 1959).

25. Iversen (E.) Canon and Proportions in Egyptian art (London, 1955).

26. Kees (H.) Aegyptische Kunset (Breslzu, 1926).

27. Mekhitarian (A.), La peointure égyptienne (Geneve, 1954).

28. Montet (P.), L'Egypte Eternelle (Fayard, Paris 1970).

29. Murray (M.A.), Egyptian Sculpture (London, 1930).

30. Petrie Flinders, The Art and Crafts of Ancient Egypt (London, 1923).

31. Posener (G.), Dictionnaire de la civilization égyptienne (Fernand Hazan, Paris VI, 1959).

32. Schaefer (H.), Von Aegyptischer Kunst (Leipzig, 1930).

33. Smith W. S.) The Art and Architecture of Ancient Egypt (Harmondsworth, 1958).

34. , Ancient Egypt as represented in the Mesuem of Fine Arts, Boston' (Boston, 1960).

35. Vandier.(I.), Manuel d (Archeologis Egyptenne, quatre volumes (Paris 1952-1964).

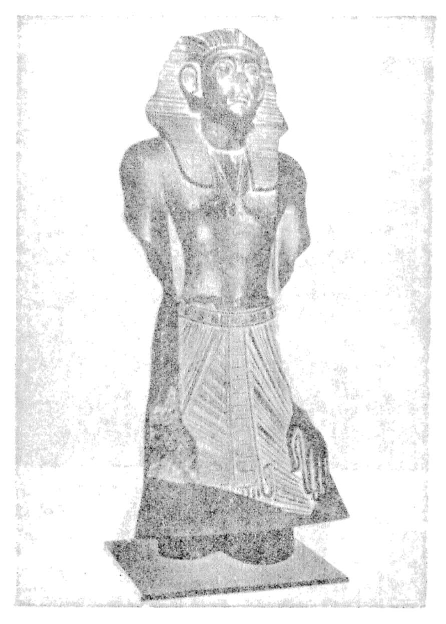
36. Winlock (H.E.), Egyptian statues and statuettes (Metropolitan Museum of Art, New York, 1937).

37. Wolf (W.), Die Kunst Aegyptens (Stuttgart, 1957).

* * *



شكل (١)



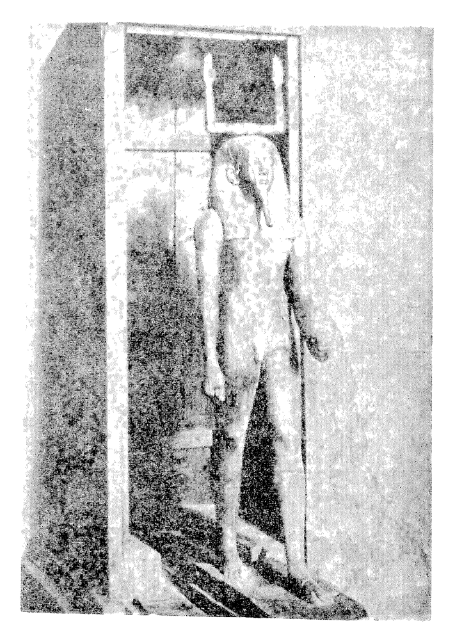
شكل (٢)


شكل (٣)


شكل (٤)



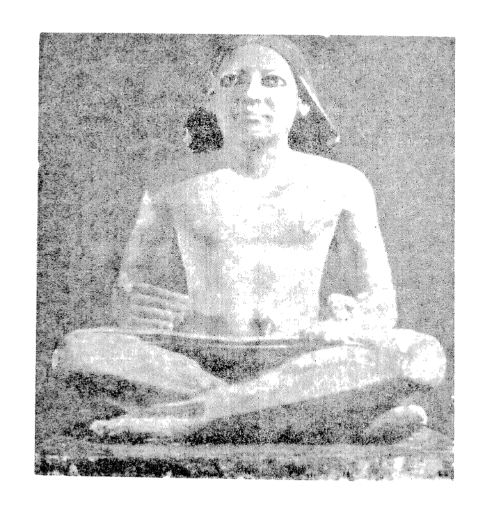
شكل (٥)



شكل (٦)



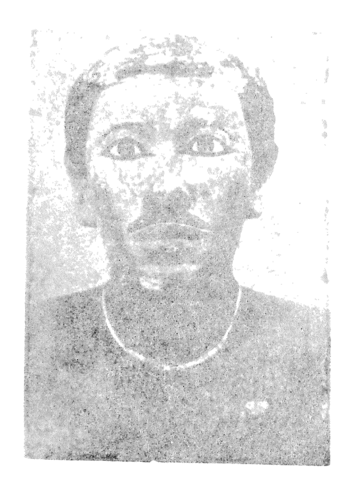
شكل (٧)



شكل (٨)



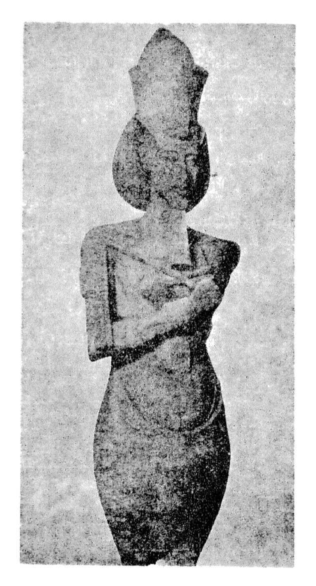
شكل (٩)



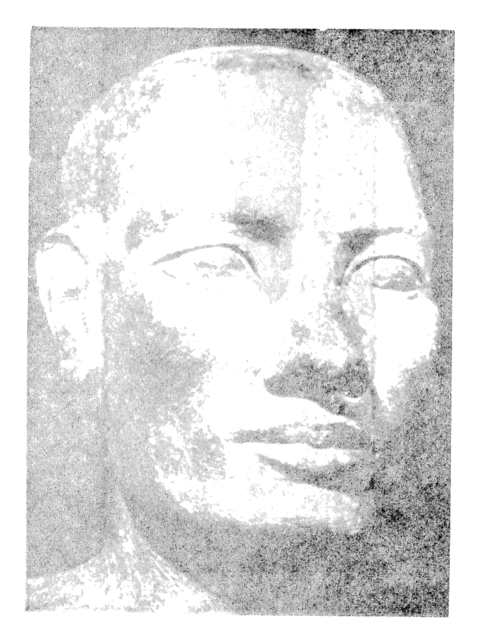
شكل (١٠)



شكل (١١)



شكل (١٢)



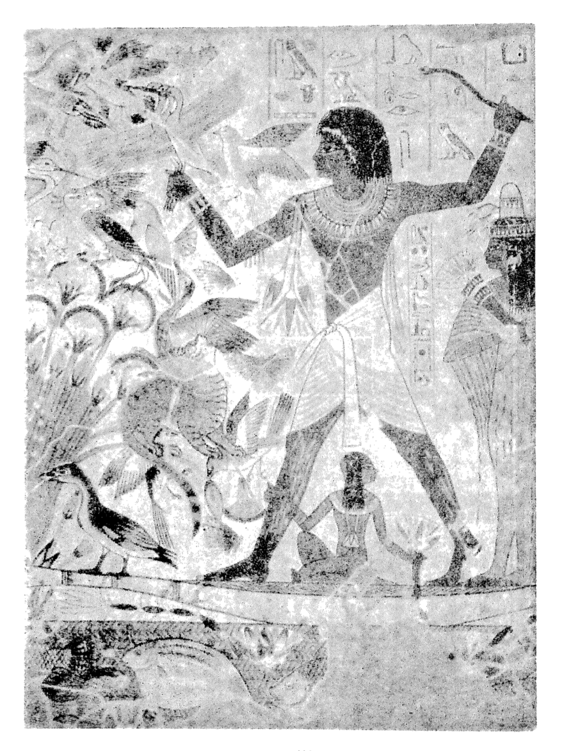
شكل (١٢)



شكل (١٤)



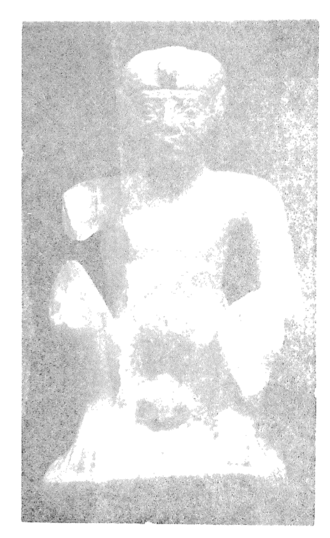
شكل (١٥)



شكل (١٦)



شكل (١٧)



شكل (١٨)



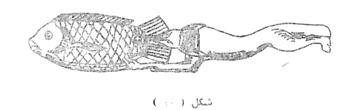
شكل (١٩)



شكل (٢٠)



شكل (٢١)



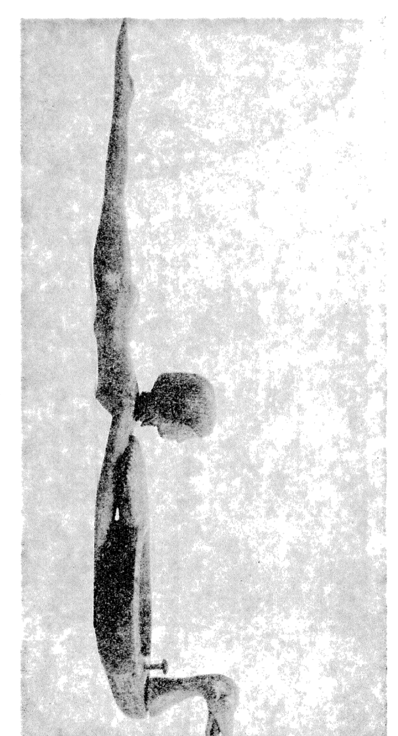
شكل ([illegible])



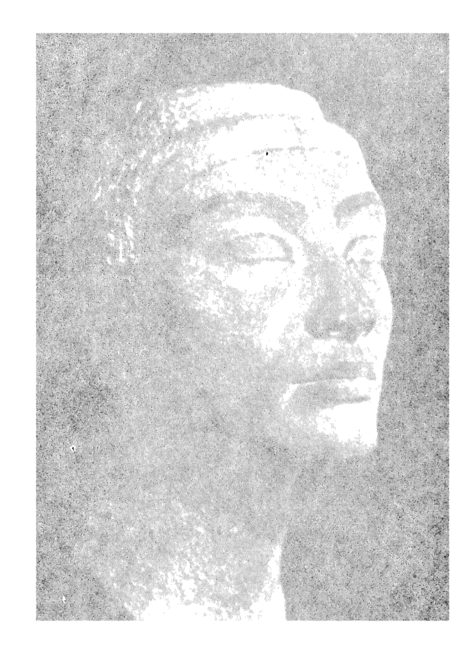
شكل (٢٢)



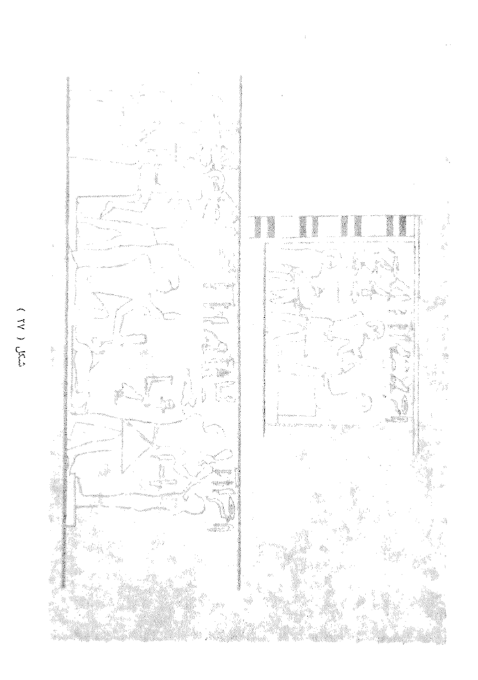
شكل (٢٤)



شكل (٢٥)



شكل (٢٦)



شكل (٢٧)

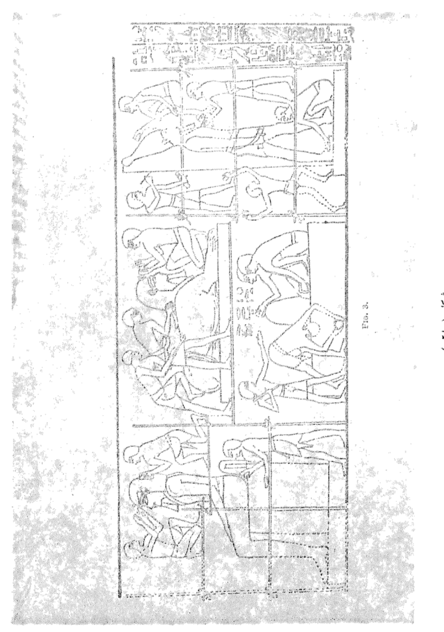
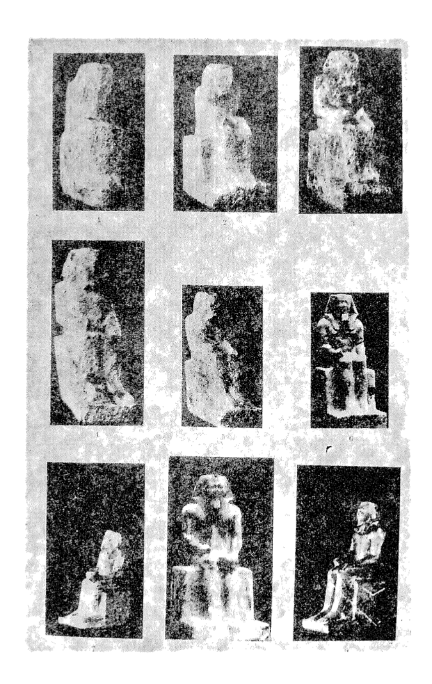
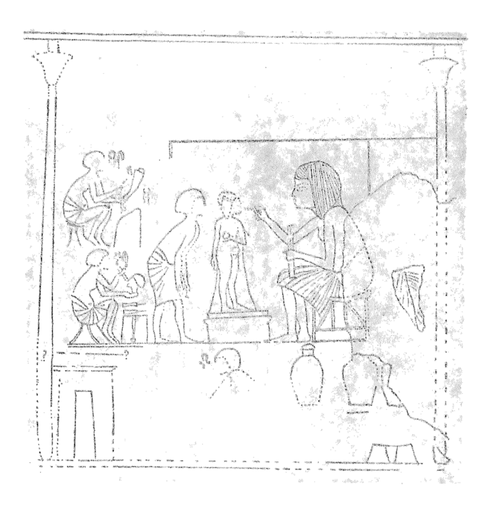


Fig. 3.

شكل (٢٨)



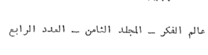
شكل (٢٩)

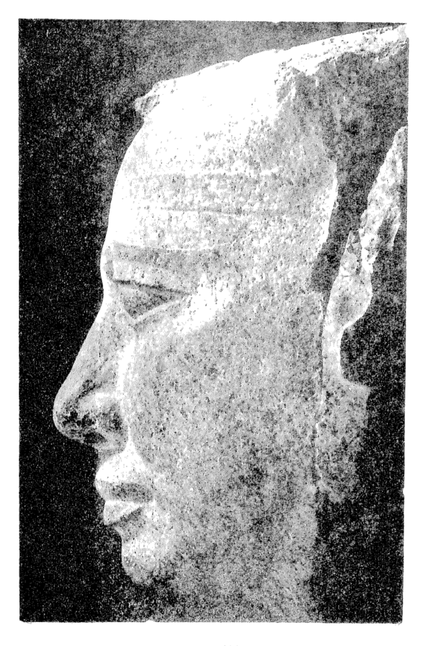


شكل (٣٠)



شكل (٢١)

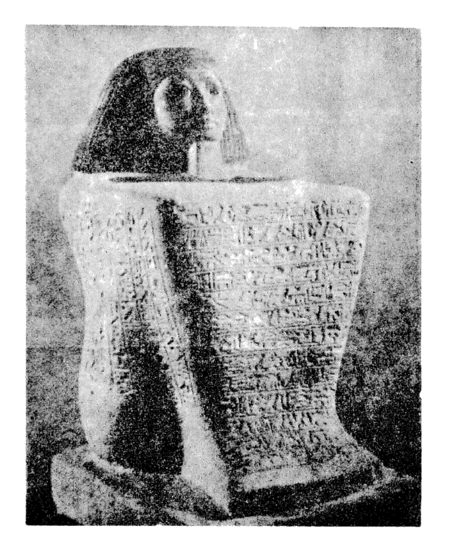




شكل (٣٢)



شكل (٣٣)



شكل (٣٤)





شكل (٢٥)



شكل (٣٦)



شكل (٣٧)



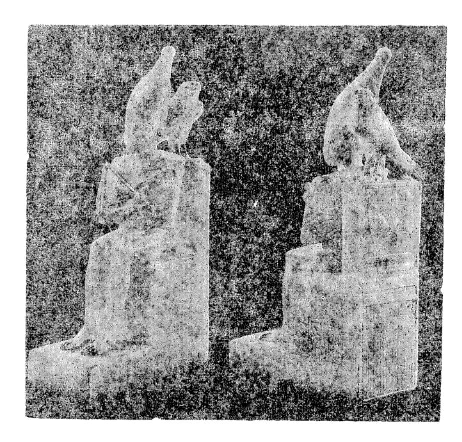
شكل (٢٨)



شكل (٣٩)



شكل (٤٠)



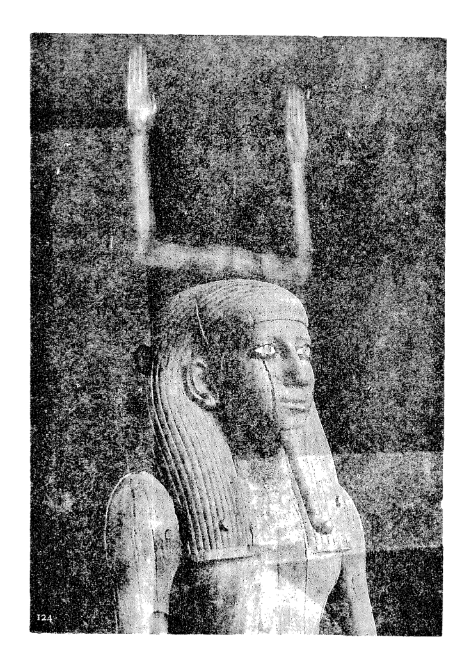
شكل (٤١)



شكل (٤٢)



شكل (٤٣)



شكل (٤٤)



شكل (٤٥)

اتجاهات جديدة في الفكر التنظيمي

علي السلمي *

شهد الفكر التنظيمى فى السنوات القليلة الماضيـة تطـورات كبيرة فى مجـالات بحثـه والأساليب المستخدمة للوصـول الى حقائـق علمية واضحة تفسر مايجرى داخل التنظيمات المختلفة مـن افعـال ، وتسهم فى توضيـح محددات الفعالية التنظيمية .

ولقد كانت مشكلة سلوك أعضاء التنظيمات من أكثر الموضوعات التى اجتذبت اهتمـام المفكرين والدارسين فى هذا الميدان ، وتبع على مدى سنوات طويلة العديد من النظريات التى تقاربت فى بعض الأحيان ، وتباعدت أو تناقضت فى أحيان أخرى .

وفى خضم النظريات المتصارعة حول تفسير الظواهر السلوكية فى المنظمات ، **ظهر اتجـاه** جديد يستخـدم مفهوما مستحـدثا بالنسبة للعلوم الاجتماعية وان لم يكن كذلك بالنسبة للعلـوم الطبيعية ، ذلـك هـو **مفهوم النظم** Systems Concept . وقـد ترتب علـى استخدام هـذا المفهوم ، كأسـاس لتحليل الظاهرة السلوكية فى المنظمات ، أن وضحت صورة مغايرة تماما لما كـان المفكرون الأوائل يُروِّجونه حول محددات السلوك التنظيمى .

وهدفنا فى هذا البحث التعريف بمفهـوم النظم ، ثم عرض الاطـار العام لفكرة النظم

* استاذ مساعد ادارة الاعمال بكلية التجارة جامعة القاهرة ، ومعار للتدريس بكلية التجارة والاقتصاد والعلوم السياسية جامعة الكويت .

السلوكية باعتبارها من أحدث التطورات العلمية فى الفكر التنظيمى الحديث .

مدخل الى مفهوم النظم :

يتجه الفكر الانسانى عادة الى التفكير فى الظواهر المختلفة التى يشاهدها ويعايشها على أنها نتيجة لسبب واحد . فاذا واجه الانسان موقفا يعانى منه اقتصاديا مثلا فانه يميل الى اعتبار شخص معين وكانه المسئول عن هذا الموقف. أو اذا واجه الانسان مشكلة اجتماعية فانها تنشأ فى ذهنه بفعل عامل معين . ومثل هذا التفكير يجافى الى حد بعيد طبيعة الأمور التى يتضح منها تعدد الأسباب المؤدية الى ظاهرة معينة . فاذا نظرنا على سبيل المثال الى موقف طالب فصل من الجامعة بسبب فشله فى تحقيق معدل الدرجات المطلوب للاستمرار فى الدراسة ، فانه يلقى اللوم عادة على شيء معين كالأستاذ القائم بالتدريس ، او المرشد المسئول عن التوجيه حين اختيار المقررات أو ماشابه ذلك من اسباب . ولكن حقيقة الامر أن هذا الموقف ينشأ عادة نتيجة لعدد من التغيرات والأسباب التى تتفاعل جميعا لانتاج الظاهرة المشاهدة وهى فشل الطالب فى تحقيق معدل معين للدرجات ، ومن ثم فصله من الجامعة . من ناحية اخرى ، فان مجموعة الاسباب أو العوامل تلك تقوم بينها علاقات ذات طبيعة خاصة فى كل حالة ، بحيث تدعم بعض العوامل من تأثير عوامل اخرى ، بينما تخفف عوامل ثانية من تأثير بعضها البعض . وهكذا نكتشف ان هناك ثمة حركة تفاعلية بين مجموعة من العوامل يتحدد على أساسها نوع ومدى النتيجة النهائية وهى الظاهرة المشاهدة .

بالاضافة الى تعدد الأسباب وتفاعلها ، فان التحليل المنطقى البسيط يقودنا الى اكتشاف حقيقة ثالثة ، وهى أنه فى أى موقف تتفاعل فيه مثل تلك العوامل.. فان بعضا منها ينبع من صفات وخصائص الانسان الذى يعانى من الموقف ويعيش أحداثه ، بينما تصدر بعض العوامل الأخرى عن طبيعة وخصائص الموقف او البيئة المحيطة بالانسان والظروف السائدة فى تلك البيئة . بمعنى آخر ، ان بعض العوامل المسببة للظواهر التى يعيشها الانسان هى عوامل ذاتية يستطيع هو أن يتحكم فيها ويسيطر على اتجاهاتها . بينما البعض الآخر مفروض عليه من خارج ذاته ولا يستطيع بالتالى أن يسيطر عليه سيطرة كاملة .

تلك الحقائق الثلاث تجعلنا نقترب الى حد بعيد من التعرف على مفهوم أساسى له شأن كبير فى توجيه الفكر الانسانى ناحية التحليل السليم للظواهر المشاهدة ، ذلك هو مفهوم النظم Systems . وعلى ذلك نستطيع تركيز الأسس التى يقوم عليها مفهوم النظم فى تلك الحقائق السابقة وهى :

١ ـ تعدد الاسباب والعوامل المنشئة للظواهر المختلفة .

٢ ـ تداخل تلك الاسباب والعوامل وتفاعلها معا بدرجات متباينة لانتاج الظاهرة المشاهدة.

٣ ـ انقسام مصادر تلك الاسباب الى ذاتية تتعلق بالشخص (أو الاشخاص) المتصل بالظاهرة ، وخارجية تنبع من طبيعة المناخ او البيئة التى تحدث فيها الظاهرة .

وحين نحاول تفهم السلوك الانسانى فاننا نجد أن المنطق الذى يستند الى وحدانية الأسباب المنشئة للسلوك لايصلح لتفسير المظاهر والانماط السلوكية المشاهدة ، بل ان الواقع يفرض علينا الاتجاه نحو مفهوم النظم لنتخذه اطاراً ندرس من خلاله السلوك الانسانى ، ونصل بذلك الى استنتاجات واقعية سليمة . ولذلك فاننا نخصص هذا الجزء من البحث لدراسة مفهوم النظم وخصائصها ثم نعمد الى تطبيقه بالنسبة للسلوك الانسانى .

تعريف النظام :

النظام System هو الكيان المتكامل الذى يتكون من اجزاء وعناصر متداخلة تقوم بينها علاقات تبادلية من اجل أداء وظائف وانشطة تكون محصلتها النهائية بمثابة الناتج الذى يحققه النظام كله .

اى أن النظام هو « الكيان الكلى المنظم او المعقد ، الذى يضم تجمعا لاشياء او أجزاء تتكون منها وحدة متكاملة » . (١) ويشير مفهوم النظام الى عديد من الظواهر المشاهدة منها على سبيل المثال النظام الشمسى ، ونظام الأنهار وغيرها من مظاهر الطبيعة . كذلك فالجسم الانسانى هو بذاته مثال جيد لفكرة النظام حيث يحتوى على مجموعة من النظم منها النظام العصبى ، النظام التنفسى ، والنظام الهضمى ، واخيرا فان حياتنا اليومية تحفل بمشاهد من النظم مثل نظام المواصلات ، والنظام النقدى ، والنظم السياسية والاجتماعية .

وحين نتأمل العالم من حولنا نجد انه مكون من سلسلة من النظم العليا super systems تحتوي داخلها عددا من النظم الفرعية sub-systems التى تضم كل منها اجزاء ومكونات تفصيلية parts .

ومن اهم انواع النظم ما يسمى بالنظام المفتوح open system الذى يتصف بوجود علاقة اساسية بينه وبين البيئة المحيطة به . وتركز هذه الصفة على أهمية التفاعل المستمر بين النظام المفتوح وبين الظروف والاوضاع البيئية المحيطة به ، ومن ثم فهو يتأثر بها ويؤثر فيها فى الوقت ذاته .

خصائص النظام المفتوح :

تتميز كل النظم المفتوحة بمجموعة من الخصائص التى تعكس طبيعة وجودها وشروط استمرارها وحيويتها . ولاهمية هذه الخصائص لدراستنا عن السلوك الانسانى نعرضها فيما يلى بدرجة من الايضاح : (٢)

١ - استيراد الطاقة او الموارد الاساسية :

تعتمد كل النظم المفتوحة على اختلاف انواعها على استيراد نوع من انواع الطاقة من المجتمع او البيئة المحيطة . فالخلية البسيطة في جسم الانسان تحصل على الاوكسجين من الدم المحيط بها ، والجسم الانسانى ذاته يحصل على الهواء والغذاء من العالم الخارجى ، وتحصل المنظمات المختلفة على احتياجاتها من العمال والمواد ومصادر الطاقة الاخرى من المجتمع المحيط . واذا نظرنا الى السلوك الانسانى باعتباره نظاما مفتوحا هو الآخر ، فان المؤثرات الاساسية المحركة والدافعة فى هذا النظام السلوكى تستمد أيضا وبدرجة كبيرة من البيئة الخارجية .

وبصفة عامة فان خاصية أساسية من خصائص النظم المفتوحة هو اعتمادها على المجتمع وعلاقاتها التبادلية الوثيقة معه ، اى انفعالها وتأثرها بالاوضاع والظروف السائدة فيه وذلك من خلال انعكاس تلك الاوضاع والظروف على نوعية الموارد (أو المؤثرات) التى يتمكن النظام من الحصول عليها .

---

(١) Johnson, R., Kast, F., and Rosenzweig, J., The Theory and Management of Systems, N. Y. McGraw-Hill Book, Co., 1967, P. 4.

(٢) Katz, D. and Kahn, R. The Social Psychology of Organizations, N. Y. Wiley & Sons, 1966, pp 8-13,

٢ ـ الانشطة الداخلية

تجرى بالنظام المفتوح انواع مختلفة من النشاط تستهدف تحويل الطاقات والموارد (أو المؤثرات) الى اشكال وقيم ومنتجات تمثل الناتج الذى يصدر عن النظام ويتوجه الى المجتمع مرة اخرى . فالمنظمات الانتاجية مثلا تعمل على تحويل ما حصلت عليه من موارد الى سلع وخدمات تتوجه بها الى المجتمع فى سعيها لتأكيد ضرورة وجودها واستمرار هذا الوجود. وقد تتباين الانشطة الجارية فى النظم المختلفة حتى وان اتحدت فى الغاية أو الهدف ، ولكن المهم هو حدوث حركة يشير تدفقها الى حيوية النظام . وفى النظام السلوكى تجرى أنشطة وعمليات مختلفة تعمل على استقبال المؤثرات الخارجية والداتية واستيعاب معانيها ثم تحويلها الى اشارات واختيارات تنتهى الى اداء وسلوك يشبع للانسان رغبة ، ويحقق له هدفا .

وتخضع الحركة فى النظم المفتوحة لقواعد وضوابط تحددها طبيعة النظام وتكوينه الداخلى من ناحية ، ونوعية الموارد (المؤثرات) وخصائصها فى التفاعل .

٣ ـ ترابط الاجزاء وتكاملها

ينقسم النظام المفتوح الى اجزاء وعناصر داخلية تختلف فى عددها ومدى تطورها بحسب درجة تقدم النظام وتطوره . وتختص تلك الاجزاء باداء الوظائف والانشطة الاساسية فى النظام وهى :

أ ـ استقبال الموارد (المؤثرات) او السعى اليها .

ب ـ اعداد الموارد (المؤثرات) للاستخدام فيما يتجه النظام الى انتاجه .

جـ ـ تحويل الموارد (المؤثرات) الى صور نهائية معدلة تتناسب وطبيعة اهداف النظام .

د ـ الحفاظ على النظام وصيانة وجوده وتأمينه فى مواجهة التطورات والتفاعلات مع البيئة وعناصرها .

هـ ـ استثمار ناتج النشاط فى اعادة الحصول على موارد جديدة (أو تيسير استقبال مؤثرات جديدة) .

وتتوزع تلك الانشطة بين اجزاء النظام المفتوح فى تناسق بحيث يختص كل جزء ببعض الانشطة يؤديها متفاعلا مع الاجزاء الاخرى ومتكاملا معها ، بحيث ان الناتج النهائي لحركة النظام كله تمثل حصيلة نشاط كل الاجزاء . والصفة الاساسية التى تميز اجزاء النظام المفتوح هى صفة الاعتماد المتبادل Interdependence . ان القلب مثلا يمارس وظيفة اساسية فى الجسم الانسانى تتعلق بتوزيع الدم والسيطرة على الدورة الدموية ، ولكنه لا يقوم بهذا العمل منفردا أو منعزلا عن الرئتين او المخ مثلا ، بل هناك اتصال مستمر وتكامل بين وظائف تلك الاعضاء بحيث ان أى قصور أو تخلف فى مستوى الاداء فى أى منها يترتب عليه تأثير واضح فى أداء الاعضاء الاخرى .

٤ ـ استمرار النشاط ودوريته :

ويتميز النظام المفتوح باستمرار النشاط واتصاله بصفة دورية . ويأخذ النشاط شكل دورة cycle كاملة تغذى نفسها أو تتكامل فيها البدايات والنهايات . فالموارد او المؤثرات التى تثير حركة النظام تتحول الى نتائج output يكون لها تأثيرها مرة اخرى فى نوعية وكمية الموارد الجديدة الذى يستطيع النظام الحصول عليها وهكذا تستمر دورة النشاط .

وما يهمنا من هذه الصفة ، انه بالنسبة للنظم الانسانية والسلوكية فانها تشير الى تراكم آثار الاحداث والمؤثرات حيث ان حدوث حادثة معينة يكون لها دور فى اثارة حادثة تالية تنشأ

بسببها وتتأثر بها ، وهكذا تتراكم الآثار وتدور الدائرة دورتها .

٥ ـ البقاء والاستمرار للنظام

يستطيع النظام المفتوح ان يصمد لعوامل التغيير واحتمالات الفناء وذلك بسبب قدرته على استيراد الطاقة او تعرض نفسه للمؤثرات الخارجية . ولذلك فان هذه الصفة تدلنا على أن فناء بعض النظم المفتوحة (مثل النظم السلوكية) يمكن تصور حدوثه فى معنى غير مادى وذلك حين ينعزل النظام عن البيئة المحيطة ويتوقف عن التفاعل معها .

٦ ـ التوازن الحركى (الديناميكى) :

يهدف النظام المفتوح الى أن يكون دائما فى حالة توازن . ونقصد بحالةالتوازن هذه أمرين: الاول تناسب وتجانس التركيب الداخلى للنظام وتوافق اجزائه وعناصره واقبالها على التعاون والتفاعل معا بلا تناقضات أساسية . والامر الثانى هو تكيف النظام مع البيئة او المناخ وتعايشه مع الاوضاع والظروف السائدة . ويتميز النظام المفتوح بوجود بعض الاجزاء الداخلية بهتختص باستشعار الاختلال فى التوازن وتحذير النظام كله لكى يتخذ من الاجراءات ما يكفل تجنب هذا الاختلال قبل حدوثه ، او استعادة التوازن مرة أخرى اذا وقع الاختلال فعلا .

وتشير حالة التوازن الحركى الى استمرار حركة النظام وتطوره ، فالنظام لا يتجمد او يتوقف عن الحركة ، بل هو يتفاعل دائما مع المناخ ويمارس نشاطاته الذاتية ، ولكن كل ذلك يتم فى توافق بحيث تستمر العلاقات بينه وبين عناصر المناخ . كما تستمر صفة التجانس بين اجزائه عند المستويات التى تحقق له الازدهار والبقاء .

٧ ـ الاتجاه الى التميز والاختلاف :

تميل النظم المفتوحة الى التميز والاختلاف بعضها عن البعض . فكل نظام يبدأ عادة عند مستوى بسيط من التركيب والتعقيد بحيث تتشابه النظم جميعا تقريبا . ولكن مع تطور حركة النظام وتفاعله مع المناخ تتاح له الفرص للحصول على مزايانسبية تفوق ما يحصل عليه غيره من النظم . ويكون لهذه المزايا آثارها فى اذكاء روح التنافس والصراع بين النظم حتى تتمكن تلك الفقيرة اليها من تحقيق مستوى من التميز يعادل ما تتمتع به النظم المتفوقة وتصل بذلك كل النظم او اغلبها الى درجة متقاربة مما يدفع بالنظم الاولى الى البحث عن مصادر واشكال جديدة للتفوق تسمح لها باستمرار تميزها ، وهكذا تستمر دورة السباق بين النظم .

●●●

اجزاء النظام

يتكون النظام المفتوح من أجزاء رئيسية ثلاثة ترتبط معا فى تكامل وثيق . ولكل من هذه الاجزاء اهمية خاصة فى حركة النظام الكلى وسلوكه . والجزء الاول فى النظام هو المدخلات Inputs اى عوامل التأثير التى تستثير حركة النظام وتدفعه الى السلوك . وهذه المدخلات هى بمثابة الاسباب التى تحرك النظام وتنتقل به من مستوى معين للسلوك الى مستوى آخر . وقد تكون المدخلات مستمرة كما فى حالة نظام الانتاج فى مصنع حيث يتوالى ادخال المواد الخام لتحويلها الى منتجات . ففى هذه الحالة تتدفق المواد الداخلة الى نظام الانتاج بشكل مستمر . وفى حالات أخرى تكون المدخلات متقطعة التوافد على النظام كما هو الحال فى الموقف الذى يتقاطر فيه ورود الرسائل المشحونة من الخارج الى شركة للاستيراد . اذ لاتتخذ الرسائل الواردة شكل تدفق مستمر ، بل تكون فى صورة شحنات متقطعة.

وفى أغلب الاحيان تأتى المدخلات من خارج النظام (٣) ، فمصدرها الاساسى هو المناخ المحيط وما يضمه من نظم اخرى . فكل نظام مفتوح يحصل على الموارد الاساسية لحركته ويستقبل المؤثرات المحركة لنشاطاته من المناخ الذى يوجد به .

وتختلف انواع المدخلات اختلافا كبيرا بحسب طبيعة النظام والاهداف التى يسعى اليها والانشطة التى يختص بالقيام بها . ولكن يمكن تقسيم المدخلات الى قسمين رئيسيين ، الاول هى المدخلات التى يسعى النظام الى الحصول عليها بسبب حاجته اليها ، ومن هنا يخصص بعض اعضائه للبحث عنها وتدبير توافرها بانتظام واستمرار .

والقسم الثانى هو المدخلات التى تفرض على النظام من واقع المناخ المحيط وظروفه ولا يكون أمامه سوى استقبالها واستيعابها ومحاولة الافادة منها . ومثالنا على القسم الاول من المدخلات المواد الخام والامكانيات البشرية والمادية والمعلومات وانوع الخبرة والمعرفة التى يسعى النظام الى امتلاكها وتأمين توافرها نظرا لضرورتها واهميتها لحركة النظام واستمرار وجوده . اما النوع الثانى من المدخلات فيتمثل فى انواع التغييرات فى الظروف والاوضاع المحيطة بالنظام والتى يواجه ضرورة التكيف معها وادماجها ضمن عملياته . ومنها أيضا اشكال الموارد التى قد لايحتاجها النظام ولكنها تفرض عليه فى مقابل حصوله على مايحتاج من موارد أخرى محدودة العرض .

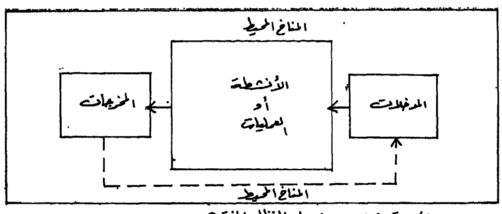
وتؤدى المدخلات على اختلاف انواعها وظيفة أساسية فى النظام المفتوح وهى اثارة الحركة وتوفير الظروف الملائمة لكى ينطلق النظام فى سلوك معين . ومن هذا تتضح لنا الاهمية الخاصة التى تتمتع بها المدخلات فى أى نظام اذ يعتمد النشاط فيه على نوعية تلك المدخلات ومعدلات تدفقها .

اما الجزء الثانى فى النظام المفتوح فهو ذلك المختص باداء العمليات والانشطة الهادفة الى تحويل المدخلات وتغييرها من طبيعتها الأولى الى شكل آخر يتناسب ورغبات النظام وأهدافه . ويماثل هذا الجزء فى الانسان مثلا الاجهزة المختصة بالتفكير والتأمل والاختيار والمقارنة (أى المخ ومايجرى فيه من عمليات ذهنية) . وقيمة هذا الجزء من النظام أنه الذى يتولى ممارسة الواجبات والانشطة التى ينتقل بها النظام خطوة نحو تحقيق أهدافه . وهو الجزء الذى يتمكن النظام بفضله من استثمار المدخلات والافادة منها (أو التخلص من المدخلات غير المتوافقة مع النظام) . وفى هذا الجزء يستهلك النظام الطاقات المتاحة له ويستنفد الموارد التى تمكن من تدبيرها .

ويتمثل الجزء الثالث من النظام المفتوح فى سلسلة الانجازات او النتائج المتحققة عن العمليات والانشطة التى قام بها النظام ، بمعنى ان هذا الجزء الاخير يضم نتاج عمل النظام الذى يتبلور فى اشكال وانماط مختلفة تمثل مايقدمه النظام للمناخ فى صورة مخرجات Output . وتلك المخرجات هى وسيلة النظام للحصول مرة أخرى على الموارد او المدخلات اللازمة لاستمراره فى النشاط . والشكل التالى يصور النمط العام للنظام المفتوح باجزائه الثلاثة :

---

(٣) فى بعض الاحيان ينبع الاحساس بالمؤثرات التى تمارس دور المدخلات من داخل النظام ذاته . ومثال ذلك الاحساس بالجوع عند الانسان ، فان هذا التأثير ينبع من أوضاع طبيعية داخل الانسان ولكنها تؤدى وظيفة اثارة السلوك شأنها شأن المثيرات الخارجية .



شكل رقم (١) ـ اجزاء النظام المفتوح

من الشكل السابق تتضح لنا اجزاء النظام المفتوح ، كما نستدل على طبيعة العلاقة المتداخلة بين المخرجات والمدخلات او مايطلق عليه « ارجاع الاثر » Feed Back ويقصد بها احساس النظام بقيمة المخرجات ومدى تقبل المناخ لها ، ومن ثم تاثير ذلك على مايمكن ان يحصل عليه النظام مرة اخرى فى شكل مدخلات .

وفى ضوء هذا التصور للنظام المفتوح ، نستطيع ادراك وجود مجموعة من النظم الفرعية subsystems يشملها النظام الاكبر ويختص كل منها بجانب من العمليات التى تتم فى الجزء الثانى من النظام . واهم هذه النظم الفرعية مايلى :

١ ـ نظام فرعى يختص بالاحساس بالتغييرات التى تطرأ على النظام وقياس مداها وتوفير حلقة للاتصال بين النظام والمناخ .

٢ ـ نظام فرعى لتحليل المعلومات وتداولها بحيث تتجه الى اجزاء النظام التى تحتاجها فى عملياتها .

٣ ـ نظام فرعى لاتخاذ القرارات والتوصل الى اختيارات بشأن بدائل السلوك المطروحة امام النظام .

٤ ـ نظام فرعى للرقابة والتأكد من سلامة العمليات التى تقوم بها اجزاء النظام وتناسقها .

٥ ـ نظام فرعى لاختزان المعلومات والخبرات (ذاكرة) وتصنيفها بحيث يمكن للنظام او اجزائه استرجاعها والافادة منها فى المواقف التى يتطلب الامر فيها الرجوع الى الخبرة الماضية . (٤)

• • •

(٤) Kast, F. & Rosenzweig, J., „Systems Concepts ; Pervasiveness and Potential" in French W. & Hellriegel, (Eds.) Personnel Management and Organization Development : Fields in Transition. Boston. Houghton Mifflin Co. 1971, pp 3-15.

الفائدة التحليلية لمفهوم النظم :

يوفر مفهوم النظم مدخلا علميا سليما يساعد الباحث على تحقيق اهدافه فى تفسير الظواهر والتنبؤ بها ، كما يسهم فى تمكينه من السيطرة على مسارات تلك الظواهر وانماط سلوكها . وتنبع القيمة العلمية لهذا المفهوم من الامكانيات التحليلية الهائلة التى يستطيع الباحث الاستفادة منها فى دراساته . ومن دراستنا لمفهوم النظم نستطيع استنتاج عديد من الحقائق التى تصف الظواهر الطبيعية والانسانية المختلفة والتى تتخذ شكل النظام. ومن أهم هذه الحقائق مايلى :

١ ــ ان الظاهرة التى تتخذ شكل النظام ترتبط ارتباطا وثيقا بالمناخ الذى توجد فيه . ومثل هذا الارتباط يفسر لنا كثيرا من سلوك تلك الظاهرة . واذا اتخذنا المنظمة مادة لدراستنا الآن ، يمكن ان نفهم الكثير عن انماط ومظاهر السلوك التنظيمى من خلال تأمل العلاقة بينها وبين المناخ . وبشكل عام فالمنظمة (أو النظام عموما) ترتبط بعلاقة اعتماد متبادل بالمناخ حيث تتأثر بالظروف والاوضاع السائدة فيه وتلتزم بكثير مما يفرضه من قيود ومتطلبات ، كما تحاول التأثير فى تلك الظروف والأوضاع وتغييرها أو اخضاعها لنظم العمل بها ومتطلبات حركتها ونموها . وتتحدد أبعاد العلاقة بين الظاهرة والمناخ فى الآتى :

أ ــ تستمد النظم وجودها كله ومبرر استمرارها ونموها من حاجة المناخ اليها والى ما يمكن ان تقوم على انتاجه .

ب ــ تستمد النظم الموارد والامكانيات اللازمة لها كى تمارس نشاطاتها وتحقق اهدافها من المناخ المحيط بها ، وتتوقف كفاءتها الى حد بعيد على مدى مايسمح لها به المناخ من تلك الموارد والامكانيات .

ج ــ يستوعب المناخ ماتفرزه النظم من منتجات مادية او معنوية (أو بشرية) . وبذلك فهو المصب الرئيسى الذى تتجه اليه مخرجات النظم ومن هنا يستطيع ممارسة اشكال من الضغط عليها من خلال قبوله أو رفضه لتلك المخرجات .

وبصفة عامة فان المناخ هو الذى يهيىء للنظام فرص الوجود والنشاط والاستمرار ، كما يستطيع أن يحجب عنه الامكانيات والموارد الضرورية لبقائه وفعاليته. ومن ناحية اخرى، فان النظم ومايجرى بها من حركة وما يتراكم لديها من خبرات وقدرات تعمل من جانبها على تغيير المناخ وتطوير اوضاعه بما يهىء لها فرصا أفضل للعمل والبقاء .

٢ ــ فى ضوء دراستنا لمفهوم النظم نصل الى حقيقة هامة هى ان مايتحقق عنه من منجزات ونتائج (مخرجات) ان هى الا نتيجة حتمية لنوعية وكفاءة المدخلات والانشطة بالنظام . ومعنى هذا أن النظام لايستطيع انجاز وتحقيق نتائج تفضل نوعية مايحصل عليه من موارد وامكانيات ، او تتفوق على جودة مايتم به من انشطة . ان المخرجات هى حصيلة التفاعل بين المدخلات والانشطة ، ومن ثم فان اى تخلف أو تدهور فى أيهما يسبب تخلفا وتدهورا فيما يمكن أن يصل اليه النظام من مخرجات . وعلى سبيل المثال اذا اعتبرنا الخريجين هم مخرجات الجامعة باعتبارها نظاما متفاعلا مع البيئة ، فان نوعية هؤلاء الخريجين ومستواهم العلمى تتوقف تماما على نوعية الطلاب الذين يلتحقون بالجامعة وكفاءة أعضاء هيئة التدريس ومستوى الامكانيات المادية والعلمية المتاحة للجامعة ، بالاضافة الى دقة وكفاءة العمليات التعليمية والادارية والعلمية بها . والاستنتاج الهام الذى يعنينا هنا هو أن الرغبة فى تحسين وتطوير الناتج تعتمد بالدرجة الاولى على تحسين الموارد وترشيد الانشطة وتطويرها .

٣ ـ وثمة حقيقة ثالثة ندركها من تأمل فكرة النظام ، هى أن كفاءة الانشطة ومستوى العمليات التى يمارسها النظام تتأثر الى حد بعيد بجودة المدخلات ووفرتها . أى أن الاعمال التى يقوم بها اجزاء النظام تتحدد فعاليتها نسبيا بحسب نوعية الموارد والامكانيات المتاحة فترتفع الفعالية اذا كانت الموارد جيدة ، وتنخفض بانخفاض الجودة . ولعل مثالنا السابق عن الجامعة خير دليل على هذه الحقيقة . ان كفاءة الانشطة التعليمية ترتفع اذا كان الطلاب بالجامعة قد حققوا مستوى علميا وثقافيا طيبا بالمرحلة الثانوية يمكنهم مثلا من الدراسة باللغات الاجنبية والاطلاع على المراجع بتلك اللغات ، بينما تتدنى العملية التعليمية اذا اقتصر هؤلاء الطلاب الى معرفة اللغات الاجنبية .

٤ ـ كذلك يتضح لنا أن المدخلات يمكن أن يتحقق عنها مخرجات متباينة فى المستوى والجودة وذلك تبعا لتباين كفاءة وفعالية الانشطة . بمعنى أن المدخلات ذاتها يمكن ان ينتج عنها مخرجات تختلف فى جودتها من نظام لآخر ، وذلك طبقا لدرجة كفاءة الانشطة فى تلك النظم . فعلى سبيل المثال اذا كانت أنشطة البحث والتحليل العلمى على درجة عالية من الكفاءة فى أحد النظم السياسية فانه يستطيع استنتاج مؤشرات وحقائق غاية فى الدقة والاهمية من تحليل مجموعة معينة من البيانات أو الاحصاءات ، بينما لا يصل نظام آخر الى نفس النتائج رغم حصوله على البيانات ذاتها وذلك بسبب تخلف الانشطة المختصة فيه . ولعل القيمة الرئيسية لهذه الحقيقة تكمن فى كونها تشير بدقة الى خطأ الاعتقاد السائد بضرورة اتفاق المخرجات وتشابهها اذا اتفقت المدخلات . ولهذه الحقيقة اهميتها فى الدراسات السلوكية حيث تنبه الى خطأ توقع تشابه السلوك بين الافراد المختلفين الذين يخضعون لنفس الظروف أو يواجهون معلومات وحقائق واحدة .

٥ ـ ومن الحقائق الهامة التى يكشف عنها تحليل فكرة النظم ، ان ما يتحقق عن النظام من مخرجات يعود ليؤثر فى قدرته على استقطاب موارد الانشطة . ولكى تتضح لنا هذه الحقيقة لنتصور معا شركة صناعية تقوم بانتاج سلعة ما ، ولتكن سيارة . لا شك اننا نستطيع ادراك أن جودة السيارات المنتجة وسعرها ومواصفاتها الاخرى تحدد قبول المستهلكين لها (الى جانب عوامل أخرى) ، وان حجم المبيعات من هذه السيارات يحكم الى مدى بعيد قدرة الشركة على ايجاد مصادر الغيار وأداء كافة النفقات الانتاجية والادارية اللازمة لكى تستمر فى النشاط ومواصلة التمويل اللازمة لاعادة شراء المواد الخام وقطع الغيار وأداء كافة النفقات الانتاجية والادارية اللازمة لكى تستمر فى النشاط ومواصلة الانتاج والنظم كلها تتصف بهذه السمة الهامة ، وهى اعتماد النظم فى مواصلة نشاطه على قبول المناخ لمخرجاته حتى يتمكن من الاستمرار فى جلب المدخلات اللازمة . وبشكل عام فان هذه الحقيقة تشير الى تأثير المخرجات وكذا الانشطة المستقبلة للنظام . (٥)

٦ ـ وتلعب الاجزاء المختصة باستقبال المدخلات دورا هاما وحيويا فى كفاءة النظام كله . اذ تستطيع تلك الاجزاء اذا أحسنت الاداء أن توفر للنظام المدخلات السليمة فى التوقيت المناسب ، كما تستطيع افساد هذه المدخلات وتشويه خصائصها ، الامر الذى ينعكس على كفاءة الانشطة والمخرجات كما أوضحنا من قبل . وعلى سبيل المثال فان ادارة المشتريات وادارة الاستلام فى أحد

---

(٥) سوف نستفيد بهذه الحقيقة الى حد بعيد عنددراسة النظم السلوكية حيث أنهـا تشير الى أن السلوك النهائى للفرد (مخرجات النظام السلوكى) يؤثر فى اختيارهلانواع المدخلات الجديدة (معلومات أو قيم) كما يؤثر فى طريقة تفكيره وادراكه للامور وغير ذلكمن العمليات السلوكية.

المصانع هى أهم اجزاء النظام حيث تعنى بتوفير المواد (المدخلات) واستقبالها واعدادها للاستخدام . فاذا انخفضت كفاءة تلك الادارات فان كفاءة المصنع كلها تكون عرضة للانهيار . وبنفس المنطق فان ادارة الافراد التى تقوم على اختيار العاملين (أحد عناصر المدخلات) واستقبالهم وتدريبهم يمكن أن تسهم بدرجة عالية فى نجاح النظام اذا ارتفعت كفاءتها ، كما تستطيع احداث أضرار بالغة به اذا لم ترتفع الى المستوى المناسب من الكفاءة والفعالية .

والانسان يعانى من نفس الحقيقة ، اذ يعتمد السلوك الانساني بدرجة كبيرة على دقة وحسن مراكز الحس والشعور عند الانسان وهى أدوات الادراك واستقبال المؤثرات (المدخلات) . فاذا افتقر الانسان الى حاسة الابصار مثلا فان قدرته على الادراك تنخفض ومن ثم تتأثر العمليات السلوكية لديه وتنحصر انماط السلوك الممكنة عنده فى نطاق ما يمكنه ادراكه .

كذلك فان اجزاء النظام المعنية باظهار المخرجات والتعبير عنها وتقديمها للمناخ تلعب هى الاخرى دورا هاما فى انهاء العمليات وتكليلها بالنجاح . واذا عدنا الى الانسان فلا شك ان طريقته فى التعبير عن أفكاره وأسلوبه فى الكلام مثلا لهما أشد الاثر فى قبول او رفض مايقول . وقد يتخذ الناس موقفا معاديا ليس لأن الانسان اخطأ فى التعبير عنها .

ان ماذكرناه عن الفوائد التحليلية لمفهوم النظم يتبلور فى نتيجة رئيسية ، هى أننا نستطيع تحقيق الاهداف التى يسعى اليها العلم اذا استخدمنا هذا المفهوم كاطار للبحث والتحليل . ان العلم يسعى الى تفسير الظواهر والتنبؤ بسلوكها المحتمل من اجل تحقيق السيطرة عليها واخضاعها لانماط سلوك محددة . وتتحقق هذه الاهداف من خلال تحليل النظم اذ أن تحليل العلاقة بين المدخلات والمخرجات يسهم في تفسير الظاهرة. كما ان دراسة علاقة الانشطة بكل من المدخلات والمخرجات يوفر الاساس للتنبؤ بسلوك الظاهرة وبالتالى السيطرة عليها .

●●●

ماهية السلوك الانسانى :

نحن نستخدم كلمة السلوك للدلالة على كل أشكال الحركة الانسانية ، فالافعال والتعبيرات ومحاولات التأثير وغيرها من الانشطة التى يمارسها الانسان خلال حياته كلها تدخل جميعا فى نطاق مانشير اليه بكلمة السلوك .

والسلوك الانسانى فى تصورنا يتمثل فى سلسلة متعاقبة من الافعال actions وردود الافعال reactions التى تصدر عن الانسان فى محاولاته المستمرة لتحقيق اهدافه واشباع رغباته المتطورة والمتغيرة . كذلك هى الافعال أو الاستجابات التى يعبر بها الانسان عن قبوله أو رفضه لمحاولات التأثير الموجهة اليه من عناصر المناخ المحيط به سواء كانت عناصر بشرية أم مادية .

ان السلوك الانسانى هو مصدر كل القيم فى حياتنا البشرية ، وهو مصدر كل النشاط المنتج المحقق للغايات والأهداف الانسانية . وتعم آثار السلوك الانساني مختلف مجالات الحياة . فنحن نلمس ونشعر بتلك الآثار من حولنا فى صور شتى . فالعلوم والفنون والآداب والثقافات جميعا هى حصيلة العمل الانسانى . ومظاهر الحضارة المادية التى نستخدمها فى اشباع حاجاتنا هى الأخرى نتاج الجهد الانسانى .

وللسلوك الانسانى الى جانب آثاره الايجابية البناءة . آثار اخرى مدمرة للقيم الانسانية ومعوقة لمسيرة الانسان على طريق التقدم

والرخاء . فالحروب والغزوات العدوانية ، وتسخير طاقات العقل البشرى لنشر الموت والدمار ، واشكال الاستغلال التى يمارسها بعض البشر بالنسبة لغيرهم ان هى جميعا الاصور للآثار السالبة للعمل الانسانى .

واذا كان العلم قد اتجه الى محاولة فهم ظواهر الطبيعة من اجل تحقيق ارادة الله سبحانه وتعالى فى تسخيرها لخير البشرية ، فان جانبا رئيسيا من اهتمام العلم يجب ان يتجه فى الاساس الى تحليل السلوك البشرى والقاء الضوء على متاهات النفس البشرية .

مجالات الدراسة العلمية للسلوك

تتجه الدراسة العلمية للسلوك الانسانى الى مجالات ثلاثة هى :

١ ــ البحث فى محددات السلوك وعوامل نشأته والأسباب التى تجعل الافعال وردود الافعال الانسانية أمورا ملحوظة ومشاهدة . والتساؤل الاساسى هنا يدور حول عملية اثارة السلوك arousal . فالعلم يريد استكشاف المثيرات stimuli التى تحرك الانسان لكى يتصرف أو يفعل أو يستجيب respond .

وتتركز اهمية الدراسة فى هذا المجال فى انها تسمح للباحث بالفهم الموضوعى والتفسير السليم لمظاهر السلوك التى قد لا يستطيع المشاهد (وفى بعض الاحيان الانسان الذى صدر عنه السلوك ذاته) ان يجد لها تفسيرا منطقيا مقنعا .

٢ ــ اما المجال الثانى للبحث السلوكى فيتجه فيه الباحث للتعرف على كيفية تكون السلوك وتبلورة قبل ان يتبدى فى الصورة الظاهرة . وعملية التكون هذه formation تمثل الجانب الاصعب فى الدراسة السلوكية حيث تتم عادة فى الذهن الانسانى وتتمثل فى عدد من العمليات الذهنية المستترة التى يستحيل مشاهدتها او ملاحظتها ، ومن ثم لابد للباحث من الاعتماد على بعض الاساليب المتطورة التي تسمح له بدراستها وقياسها .

وتكمن خطورة هذه المرحلة من الدراسات السلوكية فى أنها توفر الاساس الموضوعى للتنبؤ بالسلوك المحتمل دون انتظار لتحققه فعلا . ويسمح التنبؤ بالسلوك بان يتخذ من الاجراءات والاساليب ما يوفر القدرة على السيطرة عليه والتحكم فى مساره اعتمادا على الفهم المسبق لأسبابه ودوافعه الذى تحقق من دراسة عوامل اثارته فى المرحلة السابقة .

٣ ــ ويختص المجال الثالث للدراسة السلوكية بالبحث فى اشكال وانماط ووسائل التعبير عن السلوك ، اى عملية تحليل الانماط السلوكية المشاهدة وتصنيف السلوك واستنتاج العلاقات المنطقية بين الانماط المختلفة من ناحية ، والعلاقات بين تلك الانماط ومسبباتها وبالظروف المحيطة بها من ناحية أخرى .

وتفيد هذه الدراسات فى متابعة آثار محاولات السيطرة على السلوك وتبين مدى فعالية الاجراءات والاساليب المتبعة فى احداث التغييرات المستهدفة فى سلوك الافراد او الجماعات المعنية .

ويلاحظ اننا اعتمدنا فى تحديد مجالات الدراسة السلوكية على منطق النظم فالمجال الاول وهو دراسة المثيرات او المحددات السلوكية يختص بالمدخلات فى النظام السلوكى behavioral inputs ، اما المجال الثانى الذى يدرس عملية تكوين السلوك فانه يتعادل مع فكرة الانشطة activities فى مفهوم النظام . ويختص المجال الثالث بدراسة انماط السلوك المشاهدة وهى عبارة عن مخرجات النظام السلوكى behavioral outputs .

●●●

السلوك الانسانى باعتباره نظاما مفتوحا

يمكن تصور السلوك فى هيئة نظام مفتوح تنطبق عليه كل خصائص وصفات تلك النظم. وفى ضوء هذا التصور ينقسم النظام السلوكى الى اجزاء رئيسية ثلاثة هى :

١ ــ المدخلات السلوكية ــ وهى المثيرات الأولية stimuli .

٢ ــ العمليات السلوكية ــ وهى الانشطة الذهنية التى تتعامل مع المثيرات وتهيء النظام لاتخاذ قراراته السلوكية .

٣ ــ المخرجات السلوكية ــ وهى الاستجابات responses التى تصدر عن النظام السلوكى فى مواجهة المثيرات .

كذلك يتضمن النظام السلوكي فكرة « ارجاع الاثر » feed back وهى عودة المعلومات مرة أخرى عن رد فعل المناخ بالنسبة للمخرجات السلوكية وتأثير تلك المعلومات فى اعادة تشكيل المدخلات والعمليات السلوكية .

ونستطيع تمثل النظام السلوكى بصورة أوضح اذا تأملنا معا الشكل رقم (٢) الذى يعرض نموذجا للنظام السلوكى باجزائه المختلفة :

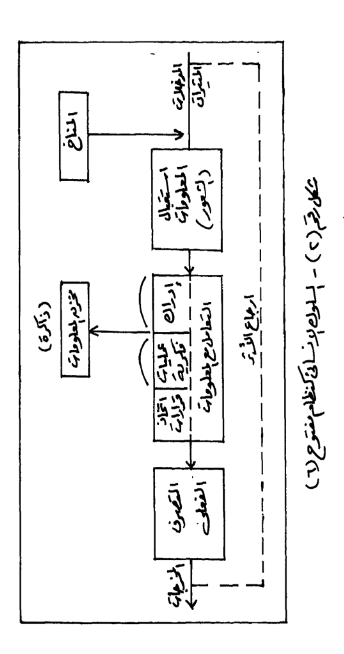
المدخلات واستقبال المعلومات :

ان الشكل السابق يدلنا على خاصية هامة للنظام السلوكى وهى أن حركة النظام كلها تتوقف على ورود المدخلات واستقبال المعلومات . والنظام السلوكى يماثل فى ذلك كل النظم الاخرى . وحين نتأمل النظام السلوكى نجد أن الحركة السلوكية المتمثلة فى عمليات مختلفة والمتبلورة فى النهاية على شكل استجابات محددة ، تبدأ عند استشارتها بتأثير مثيرات تصل الى النظام فى شكل معلومات تتخذ رموزا وانماطا متعددة . وحين تصل المعلومات تستقبلها أجهزة الاحساس بالنظام السلوكى وهو ما يعبر عنه بعملية الشعور sensation وهى تتولى ارسالها فى صور جديدة الى منطقة التعامل معها ضمن مجموعة العمليات الذهنية المختلفة .

وفى ضوء النموذج فى الشكل رقم (٢) فان حركة النظام السلوكى تنشأ وتتطور بتأثير المدخلات او المثيرات ، وهى عبارة عن اشكال من المعلومات تتدفق على النظام السلوكى من المناخ المحيط به ، كما يحسها من تكوينه الداخلى ذاته . ونقصد بتعبير المعلومات information كل المؤشرات والرموز والدلالات والايحاءات التى تعكس للنظام السلوكى الاوضاع والظروف والأجواء المحيطة به ، وما يعتريها من تغيير وتطور . أن النظام السلوكى اذ يوجد فى مناخ يضم نظما سلوكية او مادية اخرى ، فانه يتفاعل مع تلك النظم ، ويتم التفاعل جزئيا من خلال استقبال النظام السلوكى للمعلومات عن تلك النظم الاخرى من ناحية ، كما يتحقق عن طريق ارسال النظام السلوكى لاشارات منه تمثل معلومات تستقبلها النظم الأخرى بدورها .

ويستقبل النظام السلوكى اذن انماطا مختلفة من المعلومات يمكن تصنيف مصادرها فى الآتى :

١ ــ معلومات صادرة عن نظم سلوكية اخرى ، وهى تمثل افعال وتصرفات وانماط سلوك البشر الآخرين الذين يتعامل معهم الانسان سواء بشكل مباشر أو غير مباشر .



---

(٦) اعتمدنا فى هذا الشكل على :

Kolasa, B., Introduction to Behavioral Science for Business
N. Y. Willey & Sons, 1969, p. 153

٢ – معلومات صادرة عن نظم مادية تعيش فى المناخ ، ومنها أصوات السيارات ودقات الساعة ، وسرعة القطارات ، وأحجام المبانى وارتفاعاتها ، وحركة الآلات ووقعها ، الى غير ذلك من الاشارات والرموز الصادرة عن آلات النوعيات من النظم المادية التى يعايشها الانسان فى كل لحظة من حياته ويستخدمها او يستفيد منها بدرجة أو أخرى

٣ – معلومات صادرة عن نظم معنوية تحتوى بداخلها مجموعات متباينة من النظم السلوكية والمادية . ومثالنا على تلك النظم المعنوية المنظمات والمؤسسات المختلفة فى المجتمع وما يصدر عنها من تصرفات وبيانات واجراءات ومحاولات تأثير مختلفة تستهدف الانسان بشكل أو آخر .

٤ – معلومات صادرة عن نظم طبيعية natural كالشمس والقمر والرياح والبحار والانهار والمحيطات وغيرها من عناصر الطبيعة وما يصدر عنهامن أصوات وحركات ومؤشرات مختلفة .

٥ – والمصدر الاخير للمعلومات التى يستقبلها النظام السلوكى هو النظام ذاته واجزاؤه المختلفة . ان حركة أجزاء النظام وتفاعلاتها معاتستهلك الموارد والطاقات المتاحة للنظام ، ومن ثم تصدر عن تلك الحركة مؤشرات (معلومات) توجه النظام لضرورة تدبير طاقات جديدة . كذلك فان الحركة بين اجزاء النظام اذ تنتهى الى ناتج معين فانه يصاحب ذلك الناتج مؤشرات تنبه النظام الى ضرورة العمل من أجل التعبير عنه أو التصرف فيه .

وسائل استقبال المعلومات

ان المعلومات أو المثيرات لا قيمة لها اذا لم يستقبلها النظام السلوكى . ومن ثم فان ادوات استقبال تلك المعلومات تمثل ركنا أساسيا من النظام كما أسلفنا . وفى النظام السلوكى تتركز عملية استقبال المعلومات فى عدد من الاعضاء أو الاجهزة هى اعضاء الاستقبال الحسى sense receptors وتختص هذه الاعضاء باستقبال المعلومات عن الغيرات فى المناخ المحيط بالانسان واعادة ارسالها فى صور متطورة الى أجهزة التحليل والتعامل مع تلك المعلومات . وهذه الاعضاء هى :

البصر vision

ان جانبا كبيرا من المعلومات التى يستقبلها النظام السلوكى يتم من خلال حاسة الابصار. فالعين عبارة عن جهاز غاية فى الدقة والتعقيد. « ان الابصار عملية تأخذ اشكالا متعددة غير الشكل التقليدى الذى نعتقد به » (٧) . وفى الظروف العادية تستطيع عين الانسان رؤية شعلة عود ثقاب على بعد ٥٠ ميلا ، كما يمكنها رؤية سلك قطره $\frac{١}{١٦}$ من البوصة على بعد نصف ميل (٨) . والمثير الذى تتم رؤيته فى النهاية فى صورة ضوء هو فى الحقيقة انعكاس لطاقة كهرومغناطيسية . ولا تستطيع عين الانسان استقبال كل تلك الانعكاسات الصادرة اليها ، بل هى تستقبل فقط جزءا من تلك الطاقة التى تنتقل فى شكل موجات متباينة الأطوال . « ويمر الضوء العابر الى العين باكثر من وسط قبل ان يصل الى خلايا الابصار فى الجزء الخلفى للشبكية . فالضوء

---

(٧) عمر محمد جبرين ، الابصار – بعض آلياته العضوية والنفسية – مجلة عالم الفكر المجلد الخامس – العدد الثالث – اكتوبر ، نوفمبر ، ديسمبر ، ١٩٧٤ ص ٢٠٦

(٨) Kolasa, op.cit, p.155

يعبر القرنية فالتجويف الامامى للعين فالعدسة ثم يصـل الى التجويف الخلفى (الكبير) فى العين (٩) وعند وصول الضـوء الى خـلايا الابصار تقـوم في هذه الخلايا الضوئية عمليات كيماوية تنتهى بارسال نتائجها بشكل اشارات كهربائية فى اتجاه معاكس لاتجاه الضوء . (١٠) وتترجم عملية الابصار فى النهاية داخل الجهاز الحسى الى شحنـات كهربائية رمزية يفهمها الدماغ الذى لايفهم سوى لغة الكهرباء .

ومن العوامل الهامة التى تجدر دراستهـا عند تأمل موضوع الابصار مايلى : قدرة عدسة العين على تغيير شكلها لتتناسب مع نوع المثير الضوئى . وينتج عن هذه القدرة دقة استقبال العين للمرئيات ، كما نتوقع ان يؤدى عـدم انضباط عدسة العين الى تشـويه الصورة المرئيـة . مـن ناحية أخـرى تعتبر درجة حساسية العين على مستوى بالغ من الأهمية اذ تحدد الحد الادنى من الضوء الذى يمكـن رؤيته ، والقدرة على تمييز الفروق الدقيقة بين ضوئين ، وكذلك تحدد قدرة العين على التكيف مع حالات نقص الضـوء (الاظلام) . كذلك فان حساسية العـين بالنسبة للألوان تلعب دورا هاما فى عملية الابصار . ان الالوان جميعا تبدو رمادية فى حالات الضوء شديـد الانخفاض ، كذلك فان الألوان تزداد وضوحا او عتامة بحسب درجة الضوء . ونظرا لاهمية الالـوان فقد استقر العرف على استخـدام بعضها لنقل معان معينة الى النظام السلوكى. فاللون الاحمر مثلا ينقل رمز الايحاء بالخطر ، بينما يعنى اللون الاخضر الأمان .

وتتلخص قدرة الابصار بشكل عـام عند الانسان (وهى محصلة لتركيب العين وكفاءة الاجهزة المختلفـة بها) فيما يسمى القـدرة الابصارية acuity وهى قدرة الانسان على تمييز الفروق الدقيقـة بين المثيرات وتقاس بمقياس عبارة عن خريطة تحتوى حروفا مـن احجام مختلفة تمثل بعضها مايستطيع الانسان العادى رؤيته على بعد معين ، وتنسب القدرة الابصارية للاشخاص المختلفين الى هذه القدرة المتوسطة . (مثلا المقياس ٢٠/٢٠ يعنى ان الشخص موضـع الاختبـار يستطيع رؤية مايراه الانسان العادى على مسـافة ٢٠ قدما من نفس البعد ، اما المقياس ٢٠/٢٠٠ فيعنى ان هذا الشخص يرى من بعد ٢٠ قدما مايراه الانسـان العادى على بعد ٢٠٠ قدم) .

السمع Audition

يمثل السمع وسيلة ثانية يستقبل بهـا النظام السلوكى المثيرات الخارجية . ولا تقل اهمية السمع عن عملية الابصار ، بل انه يزيد فى الاهمية فى كثير من المواقف التى لاتتوفر فيها الظروف المناسبة للابصـار السليم . وتتم عملية السمع بسبب التغييرات المادية فى ضغط الهواء الناتجة عـن اهتزاز الاجسـام فينتقل الصوت فى شكل موجات تستثير الاذن وتجعل النظام السلوكى قابلا لاستقباله .

وتتميز المثيرات الصوتية بثلاثة خصائص هـى التذبـذب frequency ، والشـدة intensity ، والتعقيـد complexity . وتشير خاصية التذبذب للتباين فى الموجـات الصـوتية وتقـاس بمقيـاس سيكل/ثانيـة cycle/second ، اما الشدة او القـوة فهى درجة ضغط الصوت . وكذلك تتصف الاصوات المسموعة بدرجات من التعقد ، اذ انه يندر فى الحياة الحقيقية ان نسمع صوتا مـن

(٩ ، ١٠) عمر محمد جبرين ، المرجع سابق ، ص ٢١٦

(١١) Davis, H. Excitation of auditory receptors,. In field et al. (eds.) Handbook for physiology. (vol. I. Washington, D. C. American physiological society, 1959, pp. 565-584.

نغمة واحدة فهـذا لايحـدث الا فى معمـل التجارب ، بل عادة نحن نسمع أصواتا معقدة مركبة من نغمات مختلفة .

ويجب أن نلاحظ أن الصـفات السـابقة للاصـوات هى الخصـائص المادية للمثـير الصوتى، ولكن مايسمعه الانسان او مايستقبله النظام السلوكى فعلا هو أمـر مختلف . ان النظام السلوكى يستقبل الانعكاسات النفسية لتلك الخصائص المادية . فالذبذبة مثلا يقابلها مـن الناحية النفسـية مايسمى pitch او الارتفاع ، كما يعادل القوة أو الشدة خاصية نفسية هى الضخامة loudness .

وتقوم الاذن بوظيفة تحويل الضغط المادى للموجات الصوتية الى تجربة نفسية يستقبلها النظام السلوكى ويتعامل معها . وتتم هـذه العملية من خلال عبور الموجات الصوتية قناة الاذن لكى ترتطم بطبلة الاذن Eardrum وبالتالى تسبب اهتزازها . وتنتقل تلك الاهتزازات الى عظام الاذن الوسطى وتمر بواسطتها الـى الاذن الداخلية ومن ثم تنتقل فى صورة نبضات عصبية الى الدماغ .

ومن الواضح أن للسـمع وظائف حسـية واخرى نفسية . ان الانسان يجب أن يسمع مايدور حوله ، كما يجب أن يسمع نفسه . لذلك فان حالات ضعف السمع التى قد تصل الى الصمم تسبب ازعاجا نفسيا بالاضافة الى التشويه المادى لقدرة النظام السلوكى على استقبال المثيرات وبالتالى تخفيض قدرته على الاستجابة لها .

الشم والتذوق

وهاتان الوسيلتان فى استقبـال المثـيرات تنتميان الـى مجموعـة الحس الكيماوى . وتعتبر عملية الشم من أكثر عمليات الاحساس دقة وتعقدا . وتتم عملية الشم حينما تثير التكوينات الكيماوية فى الهواء أعضاء الحس الشمى فى الأنف لدى الانسان . ويلاحظ ان الانسان حين يحتاج الى التدقيق فى الشم فانه يعمد الى استنشاق كمية أكبر من الهواء . وتتفاوت حاسة الشم لدى النظم السلوكيـة المختلفة ومن ثم تختلف قدرتها على استقبال مثيرات شمية معينـة مما يؤثر فى درجـة استجابتها لتلك المثيرات .

اما عملية التذوق فهى تتعلق باستقبـال المعلومات عن جانب من خصائص المنـاخ او عناصره . ويمكن تقسيم عملية التذوق الـى اربعـة اجـزاء هى تذوق العناصر الحلـوة (السكرية) والعناصر المالحة ، والعناصر المرة واخيرا العناصر عديمة الطعم . فلكل من تلك العناصر اعضاء استقبال حسى خاصة بها فى مناطق معينة فى اللسان والحلق .

وبرغم اهمية الشم والتذوق الا انه من غير المعروف على سبيل التأكد كيف تتم هاتان العمليتان . وكل ماهو معروف هو ان المثيرات تتحول بعملية ما الـى رموز بواسطة أعضـاء الحس الشمى والذوقى لكى ترسل الى مناطق تحليل المعلومات والتعامل معها ضمن العمليات الذهنية المختلفة ومنها تخرج فى صورة نبضات للدمـاغ يتم فى ضـوئها التـصرف او الاستجابة . (١٢)

اللمس

تحتوى طبقة الجلـد التى تغطى الجسم الانسانى على أدوات لاستقبال معلومات عـن نوع آخر من المثيرات . تلك هى الحرارة ، والبرودة ، والضغط والألم . ويختص بعض أدوات الاستقبال الحسي فى الجلد بكل نوع من تلك المثيرات .

(١٢) Zotterman, Y. (ed.) Olfaction and Taste. GOxford. Pergamon Press, 1963, pp. 205-213.

وتقل المعلومات المتعلقة بتلك المثيرات فى اهميتها كمدخلات فى نظم السلوك الانسانى ، الا انها لاتزال تمثل أحد المصادر التى يتشكل السلوك جزئيا تبعا لها .

الاحساس بمركز الانسان وتوازنه :

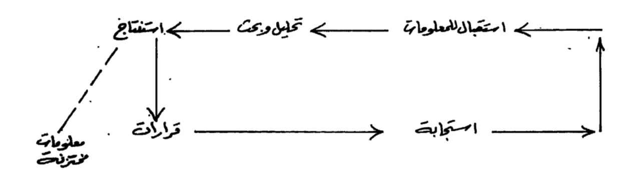
وثمة نوع أخير من المعلومات يلعب دورا هاما فى النظم السلوكية ، وهو معلومات الانسان عن مركزه بالنسبة للاشياء الاخرى فى المناخ المحيط . وهذه المعلومات هى التى توفر للانسان الاحساس بالتوازن او بانعدام التوازن . وتتمركز أجهزة استقبال هذه المعلومات فى الاذن الداخلية وهى لاتتصل بعملية السمع ، ولكنها تختص بالاحساس بالتوازن Balance . ومن المعروف أن اختلال هذه الادوات يؤدى الى فقدان الشخص لتوازنه وهى حالة مرضية شائعة ، كما ان استثارة تلك الادوات بشكل زائد يؤدى الى الاحساس بالدوار كما فى حالة دوار البحر .

كذلك يستقبل النظام السلوكى معلومات عن مدى تناسق حركات وأبعاد أعضاء الجسم الانسانى المختلفة .

نخلص مما سبق الى اهمية وخطورة عمليات استقبال المثيرات الخارجية بواسطة أعضاء الاستقبال الحسى فى النظام السلوكى . وتتضح لنا حقيقة هامة هى ان الاستجابات التى تصدر عن هذا النظام (المخرجات) تكون عادة نتيجة لتكامل عدد كبير من تلك المعلومات عن المثيرات . وكلما كانت تلك المعلومات متناسقة ومتجانسة كانت الاستجابة أوضح وفى الاتجاه السليم . أما اذا تناقضت المعلومات المستقبلة بواسطة أعضاء استقبال مختلفة ، ففى تلك الحالة يعانى النظام السلوكى من اشكال الوهم المختلفة Illusion كما هو الحال حين ترى العين عصا مستقيمة فى الاصل على أنها مقوسة نتيجة غمر جزء منها فى الماء .

التعامل مع المعلومات

حين يستقبل النظام السلوكى المعلومات عن المثيرات المختلفة ، يتم نقلها الى منطقة متخصصة لمعالجتها بالتحليل والبحث حتى يستخرج النظام منها الدلالات والمعانى التى يعتمد عليها فى اختيار أنواع الاستجابات التي تصدر عنه . وبالتالى فان تدفق المعلومات داخل النظام السلوكى يتم وفقا للتتابع الآتى :



وعلى ذلك فان مجرد استقبال النظام للمعلومات لا يكفي لانتاج استجابات معينة ، بل لا بد وأن تخضع تلك المعلومات للتحليل من جانب اجزاء متخصصة تستطيع التوصل الى المعانى الحقيقية التى تعكسها هذه المعلومات .

ويختص الجزء الاوسط من النظام السلوكى (الدماغ الانسانى) بتلك العمليات الذهنية المختلفة . ونظرا لاهمية هذا الموضوع فسوف نعرض تصورا سريعا لتلك العمليات الآن ، على أن نعود اليها بتفصيل أكثر فى الجزء الثالث من الكتاب حين نتعرض بالتحليل للانشطة او العمليات السلوكية .

وتتركز العمليات السلوكية المختصة بمعالجة المعلومات وتحليلها فى الآتى :

١ ــ عملية الادراك Perception

٢ ــ عملية التفكير Thinking

٣ ــ عملية التعلم Learning

٤ ــ عملية تكوين الاتجاهات Attitude formation

٥ ــ عملية الدافعية Motivation

٦ ــ عملية اتخاذ القرارات Decision making

الادراك

هو عملية تفسير المعلومات الواردة للنظام السلوكى وتكوين المفاهيم والتصورات عن العالم المحيط . وتنطوى عملية الادراك على عمليات فرعية يمتد بعضها ليشمل عملية استقبال المثيرات التى تحدثنا عنها ، ثم تختص عمليات فرعية أخرى بتنظيم تلك المثيرات وتفسيرها أى اعطاءها معان ومدلولات خاصة، ثم تصل عملية الادراك الى ذروتها بتكوين مفاهيم شاملة وعامة عن البيئة المحيطة بالنظام السلوكى والتغييرات التى تطرأ عليها ، وهذا ما نطلق عليه « المدركات » .

والادراك عملية شخصية يصعب اخضاعها للمقاييس الموضوعية حيث تتداخل فى التأثير عليها عمليات نفسية أخرى كالدافعية والتعلم، كما تتأثر بالظروف الموضوعية التى تحيط بالنظام السلوكي وبما تراكم فيه من معلومات وخبرات سابقة .

كذلك فالادراك عملية مستمرة ومتراكمة تخفى وراءها تاريخ النظام السلوكى كله الذى يتبلور فى صورة « تنظيم فكرى » يسهم فى تحديد المعانى التى يستخرجها النظام من المعلومات الواردة اليه .

ومما يزيد فى أهمية الادراك ارتباطه بكل مظاهر النشاط الذهنى للانسان ومن ثم تأثيره المباشر وغير المباشر على استجابات الانسان وانماط سلوكه فى المواقف المختلفة .

التفكير

ان عملية التفكير أو التعقل والتدبر هى التى تتناول المدركات بالتأمل والتعمق فى ضوء الخبرات والتجارب السابقة وفى اطار التوقعات expectations والاهداف goals . والرغبات needs التى يسعى اليها النظام السلوكى . وتختص عملية التفكير بالدرجة الاولى بمحاولة الكشف عن العلاقات بين المدركات وتبين الاحتمالات والنتائج المتوقعة بالنسبة لبدائل السلوك المختلفة المتاحة للنظام السلوكى استجابة للمثيرات التى تم ادراكها .

وتختلف أسس التفكير وان كان التقسيم المنطقى لها يراها تتخذ احد نمطين ، اما أسس رشيدة ومنطقية rational أو أسس خيالية.

التعلم

يستقبل النظام السلوكى عديد من المعلومات التى تعكس الخبرات والتجارب التى يمر بها او تلك التى مرت بنظم سلوكية أخرى . وتتم عملية ادراك تلك المعلومات وينتهى النظام

السلوكى الى تفهم معين لها ، ومن ثم قد يقرر احداث تغيير فى أنماط استجاباته نتيجة للمفاهيم التى استوعبها من تلك التجارب ، وبذلك يحدث التعلم . فالتعلم اذن هو العملية الذهنية المستمرة التى يستوعب بها النظام السلوكى تجاربه وتجارب الآخرين ويترجمها فى شكل انماط سلوكية جديدة .

وتترابط عملية التعلم مع عملية الادراك وعملية التفكير . اذ ان قرار تغيير السلوك لابد وان يعتمد على تفهم سليم للتجربة او الخبرة ، كذلك لابد وان يسبقه تدبر فى الآثار الناشئة عن استمرار النظام السلوكى على نفس أنماط سلوكه أو الفوائد التى يحتمل تحققها حال تغييره لتلك الانماط السلوكية .

تكوين الاتجاهات

حين تتجمع لدى النظام السلوكى معلومات عن مثيرات خارجية ، وحين تتكامل وتتضح معانى تلك المعلومات وتتخذ شكل مدركات محددة ، وحيث يستهدف النظام تحقيق اهداف ورغبات معينة ، فانه يميل الى اتخاذ مواقف تجاه تلك المدركات . فالمدركات التى يرى النظام السلوكى انها معاونة له فى تحقيق اهدافه او تلك التى تتقبل انماط استجاباته يتخذ حيالها موقفا ايجابيا يتسم بالتأييد والقبول . اما تلك المدركات التى لاتسهم فى تحقيق النظام السلوكى لاهدافه فيتم اتخاذ مواقف معادية أو معارضة لها . وبصفة عامة تمثل عملية تكوين الاتجاهات احدى العمليات الذهنية الوسيطة (شأنها شأن التعلم) التى تتوسط المرحلة بين ادراك المعلومات من ناحية واتخاذ قرار بشأنها من ناحية أخرى .

وتتفاوت عملية تكوين الاتجاهات فى النظم السلوكية من مجرد اتخاذ مواقف منفردة حيال موضوعات بذاتها الى تكوين معتقدات وعقائد متكاملة ومترابطة بشأن قضايا وأمور متصلة ومتداخلة .

الدافعية

لابد لكى تؤدى المثيرات الخارجية الى احداث حركة فى النظام السلوكى من ان تتوفر لهذا النظام الرغبة فى الاستجابة ، بمعنى ان السلوك يتجه دائما الى تحقيق رغبات واهداف النظام السلوكى . ونستطيع تفهم عملية الدافعية اذا اعتبرنا ان الهدف الدائم والمستمر للنظام هو المحافظة على حالة من التوازن النسبى فى علاقته بالمناخ من ناحية وفى تركيبه الداخلى من ناحية اخرى . وحيث يتعرض النظام لمثيرات خارجية (بالاضافة الى مصادر ذاتية للاثارة) فانه يعانى من حالات متباينة من اختلال التوازن . ويدرك النظام فى حالات الاختلال هذه فرصا لتحقيق التوازن مرة أخرى عند مستويات أعلى من الاشباع ودرجات اكبر من انجاز اهدافه . كما تدرك فى حالات أخرى مخاطر تحتم ضرورة التنازل عن قدر من الاشباع الحالى والتضحية بقدر من الانجازات التى سبق تحقيقها وذلك لاستعادة النظام السلوكى لتوازنه المفقود .

وبذلك فان الدافعية هى العملية الذهنية المستمرة التى يحدد بها النظام السلوكى رغباته وحاجاته ويستخدمها فى توجيه باقى العمليات الذهنية وصولا الى اختيارات مناسبة لانماط السلوك الممكنة .

والدافعية بذلك عملية مساعدة فى توجيه السلوك وتحديد درجة قوته واستمراره . وهى عملية متجددة اذ ان حالات اختلال التوازن متكررة ومتجددة ، ومن ثم تنشأ دائما فرص للنظام لاكتساب رغبات ومستويات اشباع اعلى ، كما تهدده باستمرار فرص اخرى للحرمان من بعض الاشباع الذى تحقق فعلا .

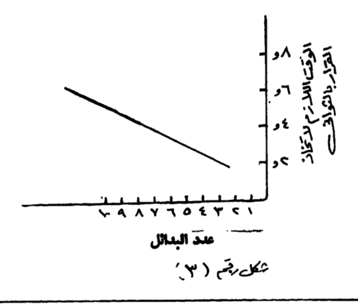
وتعتمد عملية الدافعية على مصدرين رئيسيين للمعلومات ، المصدر الاول هو المثيرات الخارجية التى تمكن النظام السلوكى الفرص المتاحة فى المناخ لاشباع اعلى او تهديد

وبالتالى تتكون دوافع ايجابية توجه السلوك ناحية الحصول على تلك الفرص ، او تعكس احتمالات الحرمان والمخاطر ، ومن ثم تتكون دوافع سالبة تستهدف تجنب تلك المخاطر . اما المصدر الثانى للمعلومات فهو المؤشرات والايحاءات الصادرة عن النظام ذاته والتى تعكس حالات نقص الاشباع (أو زيادته) وبالتالى تسهم فى عملية تكوين الدوافع .

اتخاذ القرارات

تتبلور المعلومات الواردة للنظام السلوكى عن المثيرات الخارجية بعد تحليلها ودراستها فى شكل مجموعة من البدائل او الاختيارات . وهنا تبدأ العملية الذهنية الاخيرة والهامة وهى أن يختار النظام احد تلك البدائل لكى يترجم فى شكل سلوك أو استجابة . وتمر عملية اتخاذ القرارات عادة بعدة مراحل فى ذاتها ويستخدم النظام السلوكى عدداً من القواعد والمعايير التى يستند اليها فى اتخاذ قراره .

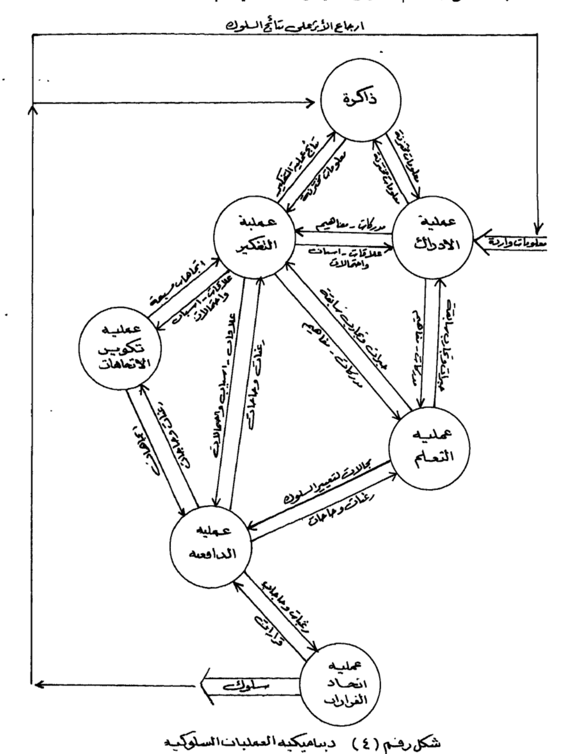
وتتفاوت عملية اتخاذ القرارات فى صعوبتها تبعا لتعدد البدائل المطروحة للاختيار وبحسب تداخل العوامل والمتغيرات المتفاعلة فى الموقف. وبناء على ذلك سنجد حالات كثيرة يصل فيها النظام السلوكى الى قرار ، ومن ثم تبدو الاستجابة فى وقت قصير نسبيا قد يبدو احيانا وكأنه رد فعل تلقائى أو آلى للمثير الخارجى . تلك هى القرارات الروتينية التى اعتمدها النظام السلوكى واختبر نتائجها ووجدها فى صالحه ومن ثم يميل الى تكرارها كلما تهيئات الظروف (نلاحظ هنا أثر عملية التعلم) . وهناك حالات أخرى يطول فيها الوقت الذى يستغرقه النظام السلوكى فى الوصول الى قرار حيث تكون المشكلة موضع البحث جديدة فى نوعها لم يألفها النظام بعد ، أو حيث ترتفع درجة تعقيدها . والشكل التالى يصور العلاقة بين درجة تعقد المشكلة المتمثلة فى عدد البدائل المطروحة للاختيار من ناحية وبين الوقت اللازم للنظام السلوكى كى يصل الى قرار . (١٣)



شكل رقم (٣)

(١٣) Fitts, p., The Influence of response coding on performance in motor tasks. In current trends in information theory pittaburg : University of Pittaburg Press, 1963.

تلك هى العمليات الذهنية الأساسية التى تتعامل مع المعلومات التى استقبلتها أدوات الاستقبال الحسى فى النظام السلوكى . ويمكن تصوير تتابع تلك العمليات وعلاقاتها المتداخلة حتى تنتهى الى سلوك مشاهد كما فى الشكل التالي رقم (٤) .



شكل رقم (٤) ديناميكية العمليات السلوكية

المخرجات

ان المحصلة النهائية لسلسلة العمليات السلوكية هى انماط السلوك المشاهدة او الباطنة . ونقصد بأنماط السلوك هذه أيا من الأمور الآتية :

١ ـ الافعال Actions

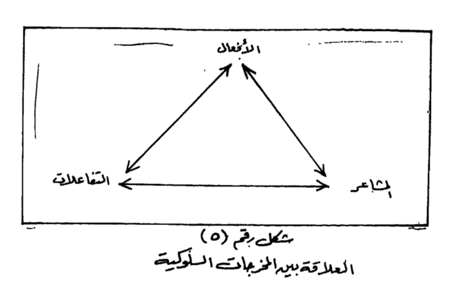
وهي كل مايصدر عن النظام السلوكى من تصرفات كالعمل ، والكلام ، والكتابة ، والقراءة ، واللعب ، والبيع ، والشراء الى آخر ما يمكن تصوره من انشطة . وتتطلب الافعال عادة أن يبذل النظام السلوكى قدرا من الجهد أو الطاقة وتتبدى فى شكل حركات متباينة يستغرق اداؤها وقتاً يختلف بحسب اتجاهات تلك الحركات ومدى بساطتها او تعقدها .

٢ ـ التفاعل Interaction

ويرمز التفاعل الى الاتصالات التى تتم بين الانسان وغيره من الافراد . وقد نعبر عن التفاعل بأنه نوع من الفعل action اذا كان النظام السلوكى موضع الدراسة هو البادىء بالاتصال كما هو الحال حين يوجه الاستاذ المحاضر سؤالا الى احد طلبته . وقد يكون التفاعل هو نوع من رد الفعل reaction وذلك حين يجيب الطالب عن سؤال أستاذه . ومن ثم فاننا نستطيع أن نصف عمليات التفاعل بأنها سلسلة متتابعة من الافعال وردود الافعال بين النظم السلوكية المختلفة .

٣ ـ المشاعر sentiments

والمشاعر هى انماط العاطفة التى تنمو فى النظام السلوكى اثناء ممارسته للافعال واشتراكه فى التفاعلات مع الآخرين . ومثل هذه المشاعر امور الحب والكراهية والثقة والايمان وغيرها . وتسهم المشاعر فى تأكيد أو اضعاف آثار الافعال والتفاعلات التى تصدر عن النظام السلوكى . كذلك فان للافعال والتفاعلات تأثيرها هى الأخرى على المشاعر . وبذلك فتلك الأشكال الثلاثة للمخرجات السلوكية تتشابك عادة وتتداخل كما يتضح من الشكل التالى رقم (٥)



شكل رقم (٥)
العلاقة بين المخرجات السلوكية

والآن وبعدمناقشتنا لاجزاءالنظام السلوكي الثلاثة باختصارلابد من استكمال تحليل الدورة السلوكيةبأن نأخذفى الاعتبار ان النظامالسلوكى يعمل على تحسب نتائج السلوك وردودافعالها لدى النظم السلوكية الاخرى فى المناخ المحيط وذلك عن طريق ما يسمى بعملية « ارجاعالاثر» feed back . وتتم هذه العمليــة فى صــورة معلومات جديدة تصل الى النظام السلوكـى بالطرق السابق شرحها . وتسهم هذهالمعلومات فى اثارة عمليات سلوكية جديدة قد تسفر عن تأكيد المخرجات او تغييرها .

وخلاصة ما توصلنا اليه من تحليلنا للسلوك الانسانى انه يتخذ نموذج النظام المفتوحالمتعامل مع المناخ والمتفاعل معه ، وانه يتصف بكـل الخصائص التى تميز النظم المفتوحة ، كمـا تنطبق عليه جميع الاستنتاجات المستمدة من فكرة النظام .

* * *

مراجع البحث

1. Johnson. R., Kast, F. and Rosenzweig, J.,
The Theory and Management of Systems
N. Y. McGraw-Hill, 1967.

2. Kolasa, B., Introduction to Behavioral Science for Business N. Y., Wiley and sons 1969

3. March, J. & Simon, GH., Organizations N. Y. Wiley & Sons, 1958.

4. Seiler, J. Systems Analysis in Organzational Behavior Romewood, III. Iwin and the Dersey Press, 1967.

٥ ــ د.علي السلمى ، الادارة العلمية ، دار المعارف بمصر ، ١٩٧٠ .

٦ ــ د.علي السلمى ، السلوك الانسانى فى الادارة ، دار المعارف بمصر ، ١٩٧٣ .

* * *

منــع الحمــــل

سـامي علوان

تعريف منع الحمل (Contraception) ــ هو ان يمنع الحمل بوسائل اخرى غير الامتناع عن الجماع ويتبعه تحديد النسل (Birth Control) او التخطيط الاسرى (Family Planning) .
ويمارس منع الحمل فى الوقت الحالي حوالي ٨٠٪ من الازواج فى بريطانيا واوروبا الغربية والولايات المتحدة وهي نسبة فى ازدياد . وقد اكتسب منع الحمل بالنسبة للزيادة المضطردة فى عدد سكان العالم أهمية اجتماعية عظمى فى الوقت الحالي وضرورة صحية ملحة .

والفريزة الجنسية هى الوسيلة المؤكدة لاستمرار الجنس البشرى وبقائه . ويهدف منع الحمل الى فصل النتائج عن المقدمات ، اى الى اشباع الغرائز الطبيعية بدون الخوف من انجاب اطفال غير المرغوب فيهم . (أى لا يتعارض مع استمرار الجنس البشرى وبقائه) .

ومع ذلك فان منع الحمل ينتقد احيانا للاسباب الآتية : ــ

١ ــ **يشجع على البغاء** ــ ومنع الحمل بالتاكيد يحمل هذه المخاطرة ، ولكن اذا كان الهدف الوحيد منه هو التشجيع على الانحراف وتسهيل الفجور ففي هذه الحالة يجب على المجتمع ادانته فورا والعدول عنه .

ومع ذلك فان البعض قد يعتبره أهون الضررين فى مجتمع متسيب يبيح اختلاط الجنس قبل الزواج بدلا من أطفال السفاح .

٢ ـ وسيلة غير طبيعية ـ وهذا عيب يمكن ان ينسب لأى وسيلة حضارية اخرى مثل ارتداء الملابس والنظافة والصحة والدواء .

فى الظروف الطبيعية تتوازن نسبة الحمل العالية بنسبة عالية مماثلة فى معدل وفيات الاطفال والأمهات مع عوامل مساعدة من قصر معدل الأعمار الناتج عن المرض والعنف .

ولكن عندما تؤثر عوامل اخرى على هذه الظروف الطبيعيةبازالة أسباب المرض والوفاة بممارسة الطب والعلاج ، فان نسبة المواليد ـ التي لا تحدها عوامل ولا مؤثرات ـ سوف تحطم هذا التوازن وتهدد هذا المجتمع بالازدحام والاكتظاظ السكاني الزائد عن الحد المعقول الذى يسبب هبوطا فى المستوى المعيشي للافراد والمجاعة فى بعض الاحيان . والبديل الوحيد لمنع الحمل والتحكم فيه هو تحريم الجماع بين الأزواج ، وهذه ضد الطبيعة وأكثر صعوبة من الأولى وتسبب ضغوطا تهدد الزواج نفسه بالانهيار او سلامة الصحة العقلية للزوجين .

وقد مورس منع الحمل بوسيلة او اخرى خلال عصور التاريخ ولكن كان يُعارض ويُمنع بالقانون أو العادات المتبعة الموروثة ، ودائما كان ذلك لأسباب إقتصادية او سياسية كالرغبة فى احكام سيطرة الجماعة او الامة على غيرها من الجماعات او الأمم مغلفة بغلاف من الأخلاقيات لإخفاء الغرض الحقيقي منه وما زال حتى يومنا هذا ـ بالرغم من اباحة منع الحمل قانونيا وعرفا ـ يحجم العديد من الافراد والجماعات الذين تأبى ضمائرهم اباحة منع الحمل وتحديد النسل .

الاسباب الداعية لمنع الحمل

(ا) ـ اسباب تتعلق بالمجتمع ـ

١ ـ الحد من النمو السكاني ـ ليلائم المستوى الاقتصادى لمجتمع معين ، وتحديد عدد السكان يعتبر الآن عاملا ضاغطا فى جميع انحاء العالمفى الأمريكيتين كما فى اوروبا وآسيا وفى الدول المتقدمة والنامية على حد سواء ، ذلك لأن التقدم فى الطب والعلاج قد سيطر على المرض وما يسببه من وفيات . وفى الماضي عندما كانت نسبة الوفيات تبلغ ٤٠ / الألف فى السنة كانت نسبة المواليد البالغة ٤٠ / الف فى السنة تعتبر معقولة ، ولكن الآن وقد هبط معدل الوفيات السنوى الى ٢٠ / الألف وأقل فان نسبةالتوالد اذا لم تحد فانها سوف تؤثر تأثيرا سيئا على مستوى المعيشة ، وقد تضاعف عدد سكان العالم فى الخمسين سنة الاخيرة حيث كان تعداده ٢٥٠٠ مليون عام ١٩٥٠ زاد الى ٣٥٠٠ مليون عام ١٩٦٥ وينتظر ان يصل الى ٦٠٠٠ مليون عام ٢٠٠٠ م .

والعوامل التي تؤثر على معدل التوالد وحجم العائلات والزيادة السكانية تشمل المناخ ، الغذاء ، الخصوبة ، سن الزواج ، العادات والرغبة فى انجاب الأطفال ، قوانين الوراثة ، العقيدة الدينية ، السياسة ، التعليم ومعدل وفيات المواليد ، كل هذه العوامل لها تأثيرها الكبير فى النمو السكاني لمجتمع ما ، وتختلف من مجتمع لآخر ، وهذا يؤكد الحاجة الملحة الآن للتشجيع على انتشار وسائل منع الحمل مع التوضيح الكافي لممارستها واستعمالها بانتظام .

٢ ـ تحسين النسل ـ وهذا غرض سابق لأوانه ـ ولكن لوحظ ان الذين يمارسون منع الحمل هم الفئات العليا فى المجتمع والأكثر ذكاء وتحضرا ، فى حين ان الطبقات الدنيا من المجتمع تتوالد وتتكاثر دون حساب ، وهذه قسمة خطرة على التوازن فى المجتمع والتى

سوف تؤدى الى هبوط فى المستوى العام للمجتمع من الناحية الفكرية والحضارية .

ولتحسين المستوى العام فى المجتمع للحصول على الانسان الأرقى والأكثر تفوقا يجب ان يمارس المتخلفون عقليا والكسالى والعالة وحثالات المجتمع منع الحمل للحد من ذريتهم التي سوف ترث صفاتهم .

(ب) ــ اسباب فردية ــ

١ ــ سوء صحة الزوج او الزوجة ــ لحماية النسل من حمل جنين ضعيف أو به عيوب خلقية بسبب مرض أحد الزوجين ، هذا بالاضافة الى الاعباء المادية والنفسية التي سوف توضع على كاهل الاسرة بسبب الحمل فى هذه الظروف غير المناسبة وهذا السبب ايضا ينسحب على الفترة التي تعقب العمليات الجراحية او المرض .

٢ ــ مرض الزوجة المزمن ــ

● **مرض مزمن عام ــ** كالسل والالتهاب الكلوى وارتفاع الضغط وأمراض القلب وقصور الرئتين والاختلال العقلي، واضطرابات الدم ــ وأى مرض يجعل المراة غير قادرة على تحمل اعباء الحمل والولادة او تربية طفل آخر ، وتأجيل الحمل فى هذه الظروف يهيىء الظروف المناسبة للشفاء اذا كان ذلك ممكنا .

● **بعض مضاعفات الولادة ــ** تكرر الحمل التسممي ــ تكرر العملية القيصرية ــ عقب العمليات الخاصة بالناصور المثاني المهبلي أو حالات السقوط النسوية (Prolapse) .

● **امراض يمكن ان تنتقل للجنين ــ** ومن احسن الأمثلة على ذلك مرض الزهرى (Syphilis) وبعض امراض تكسر الكرات الدموية الحمراء ، كذلك بعض الامراض الوراثية كالصرع ، والبكم المصحوب بالصمم ومرض هيموفيليا . كما ان منع الحمل يوصى بممارسته عندما يُخشى ان يكون الجنين متخلف عقليا او جسديا فى حالة وجود طفل او طفلين لنفس العائلة مصابين بهذه الأمراض .

٣ ــ توقيت الحمل (Birth Spacing) على فترات متباعدة

يسبب الحمل السريع المتتابع اصابة المراة بضعف الدم Anaemia ، اجهاد العضلات والاوتار العضلية ــ الاجهاد العصبي والعيوب الجسدية المختلفة كما لا يعطيها الفرصة الكافية للاشراف على المنزل أو العناية بأطفالها .

٤ ــ تحديد عدد افراد العائلة
(Family Limitation)

تزداد الاخطار بالنسبة للأم أو الطفل بعد الحمل الرابع أو الخامس ، ومعظم الزوجات من جميع الاجناس يكتفين فى الوقت الحاضر بطفل او طفلين طالما كن على ثقة من سلامة تنشئتهن حتى سن النضج .

٥ ــ الزواج المبكر ــ

ان الزواج فى الوقت الحالي يمثل سلسلة من الاعباء والمسئوليات والمشاكل التي تجابه الزوجين الحديثين وخاصة اذا كانا صغيرين فى السن ، والحمل والولادة يمثلان عبئا اضافيا جديدا يضاف الى الاعباء السابقة من تجهيز المنزل وادارته والتكيف فى الحياة الجديدة بالنسبة لزوجة غريرة حديثة السن .

٦ ــ السنوات المتاخرة للزواج ــ

يُمنع الحمل بعد سنوات طويلة من الزواج عندما يتكامل عدد العائلة ويستقر الابوان فى حياتهما ، ويجب الاستمرار فى منع الحمل بالنسبة للزوجة فى سن اليأس حتى ينقطع الحيض تماما لمدة سنتين .

خطورته وعيوبه

١ ـ بعض وسائل منع الحمل قد تؤثر على عملية الجماع نفسها ، وفى بعض حالات الزواج الذى لم يكن الاختيار فيه موفقا قد يؤدى الى البرودة الجنسية للزوجة أو يصبح الزوج عِنّينا .

٢ ـ قد تذهب الفكرة بعقم الاتصال الجنسي ببهجته واثارته فى بعض الاحيان (ولو ان العكس صحيح فى حالة وجود عدد كبير من الاطفال فى الأسرة حيث يوفر الشعور بالأمان لكلا الزوجين) .

٣ ـ وعموما ليس لمنع الحمل اى ضرر بالنسبة لزوجين متفاهمين على ممارسته ويستعملان الوسيلة المناسبة ـ أما الادعاء بأن منع الحمل بواسطة المواد الكيماوية الموضعية قد تسبب التهابات وقرحة فى عنق الرحم وصغر حجم الرحم فهذه كلها ادعاءات على غير أساس علمي .

٤ ـ تأجيل الحمل لمدة طويلة قد يسبب بعض الامراض النسائية كالأورام الليفية والأورام الطمثية (Endomitriosis) بالاضافة الى اضعاف الخصوبة نوعا ما ، ولكن هذه هي ضريبة التقدم فى العمر وليس منع الحمل .

● ● ●

فسيولوجية الحمل

لكي يتم الحمل الناجح لا بد من وجود حيوان منوى سليم وبويضة صحيحة ومسالك تناسلية انثوية سالكة وطبيعية لكي يستطيع الحيوان المنوى أن يصل الى مكان البويضة فى الثلث الخارجي من قناة فالوب ـ كذلك لا بد من أن تكون الظروف مهيأة ومواتية لكى تتمكن البويضة الملحقة من ان تنغرز فى جدار الرحم وتستمر فى البقاء والنمو .

هذه العملية المعقدة القديمة قدم الحياة على هذه الارض تتحكم فيها وتسيطر عليها وتوجهها افرازات الغدد الصماء أو الهرمونات سواء أكان ذلك فى الذكر أم الانثى .

وهذا الطريق الطويل الذى يقطعه الحيوان المنوى من لحظة تكوينه فى خصية الرجل الى تلقيحه البويضة فى قناة فالوب فى اعماق حوض المرأة ليس بالسهل ولا بالهين ولا يكاد ينجح فى ذلك الا حيوان منوى واحد من مائة مليون فى المرة الواحدة لو تصادف وكانت هناك بويضة صالحة وجاهزة للتلقيح خلال ساعات من الجماع الناجح (وتوضح الرسوم المقابلة فسيولوجية الحمل) .

ووسائل منع الحمل ما هي الا عقبات توضع فى هذا الطريق الطويل فى اى مكان فيه لقطع الطريق على الحيوان المنوى لكي لا يصل الى البويضة بطريقة أو بأخرى فهي اما وسائل تتعلق بالرجل أو وسائل تتعلق بالمرأة أو وسائل تتعلق بعملية الجماع ذاتها .

وسائل منع الحمل قبل عام ١٩٦٥

تنوعت وسائل منع الحمل واتسعت مجالاتها لتشمل طرقا لم تكن متبعة فى العالم قبل عام ١٩٦٠ ولم تكن تندرج تحت هذا الباب ، ويوضح الجدول المبين ادناه أهم الطرق التي كانت متبعة فى انجلترا وامريكا من الثلاثينيات الى أوائل الستينات من هذا القرن ونسبتها فى عدد محدد من الافراد .

عدد الحالات

الطريقة	انجلترا ١٩٣٠ – ١٩٦٠	امريكا ١٩٣٥ – ١٩٥٥
الغلاف الذكرى	٤٩	٤٣
العزل	٤٤	١٥
فترة الامان	١٦	٣٤
الكيميائيات	١٦	١٠
الحاجز المهبلي	١١	٣٦
الدوش المهبلي	٣	٢٨
طرق أخرى	٦	٤
	١٤٥ حالة	١٧٠ حالة

ومن هذا الجدول نجد أنه قبل عام ١٩٦٠ كان الغلاف الذكرى أو الكوندوم يأتي فى المرتبة الأولى ويليه مباشرة طريقة العزل (القذف خارج المهبل) أى أن منع الحمل كان يقع على كاهل الرجل فى النصف الاول من هذا القرن بعكس النصف الثاني منه حيث دخلت أقراص منع الحمل واللولب الرحمي الى الحلبة ، لتحمل المراة بدورها هذا العبء عن الرجل وتتحمل وحدها مسئولية منع الحمل فى معظم الاحوال ولو أن هذا فى الحقيقة لا يمنع من أن الغلافالذكرى ما زال الوسيلة الفعالة والمتبعة فى كثير من مناطق العالم وتحت العديد من الظروف التي لا تتوافر فيها العناية الطبية اللازمة للاشراف على أقراص منع الحمل أو تركيب اللولب .

وسائل منع الحمل بعد عام ١٩٦٥ .

وسائل مستديمة	وسائل مؤقتة	الاجهاض
فى الذكر التعقيم ربط أو قطع الحبل المنوى **فى الانثى** ١) ربط أو قطع قناتي فالوب ٢) استئصال الرحم ٣) الاشعاع	١) أقراص منع الحمل ٢) اللولب الرحمي ٣) الغلاف الذكرى ٤) الحاجز المهبلي ٥) الكيميائيات القاتلة للحيوانات المنوية **وسائل اقل اهمية** ٦) الغسول المهبلي ٧) العزل والتحكم فى القذف ٨) الاسفنج المبلل ٩) رفع حرارة كيس الصفن ١٠) مضادات الحيوانات المنوية	١) الاجهاض الذاتي ٢) **الاجهاض المتعمد** أ ـ الطبي ب ـ غير الشرعي

منذ اوائل الستينات استطاعت ابحاث منع الحمل وتكنولوجيا البحث العلمي ان تزود العالم بهرمونات منع الحمل واللوالب الرحمية وهما ذات فاعليةعالية جدا وبذلك قل استعمال الوسائل التقليدية القديمة ، وثبت من الاحصائيات التي اجريت عام ١٩٧٢ فى مراكز الحمل المختلفة فى لوس انجلوس بالولايات المتحدة ان حوالي ٨٧٪ من المترددات على هذه المراكز اخترن ممارسة احدى هاتين الوسيلتين ، فى حين ان ١١٪ فقط اخترن بين الغلاف الذكرى والحاجز المهبلي او الكيميائيات القاتلة للحيوانات المنوية .

وفى احصائية اخرى اعم واشمل تبين كل السيدات اللائى يمارسن وسائل منع الحمل المختلفة حول عام ١٩٧٠ وجد ان ٣٤٪ يستعملن اقراص منع الحمل ، ١٦ ٪ سواء من الذكور او الاناث اجري لهم عمليات تعقيم ، الغلاف الذكرى ١٤٪ ، اللولب الرحمي ٧ ١/٢ ٪ ــ الكيميائيات ٦٪ ، الحاجز المهبلي ٥ ١/٢ ٪ وسائل اخرى ١٦٪ .

وفى عام ١٩٧٠ قدر عدد الاشخاص الذين يستعملون وسائل منع الحمل المختلفة فى الولايات المتحدة الأمريكية كالآتي : ــ

اقراص منع الحمل	٧ ــ ٨ مليون
الغلاف الذكرى	٤ ــ ٥ مليون
الحاجز المهبلي	٢ ــ ٣ مليون
الكيميائيات (الايروسول)	١ ــ ٢ مليون
اللولب الرحمي	١ ــ ٢ مليون

ويلاحظ فى هذه الاحصائية ان اقراص منع الحمل تاتي فى المرتبة الاولى فى الاستعمال فى الولايات المتحدة ، ويأتي اللولب الرحمي فى المركز الاخير فى الترتيب وذلك فى عام ١٩٧٠ ، اما الاعوام التي تلته فقد شهدت انتشار استعمال اللولب الرحمي حتى يأتي ترتيبه الثاني مباشرة بعد اقراص منع الحمل بعد عام ١٩٧٢ .

وفى هذه الاعوام ١٩٧٥ ــ ١٩٧٦ يكاد يساوى الاقراص فى سعة الانتشار بين النساء . كما ان هذه الاحصائية تدل على أن هناك بعض الاشخاص ما زالوا يستعملون الوسائل التقليدية القديمة لبعض الوقت على الأقل .

ما هي الشروط الواجب توافرها فى اى وسيلة من وسائل منع الحمل ؟

١ ــ ان تكون سليمة العواقب مأمونة الاستعمال .

٢ ــ ان تكون فعالة .

٣ ــ ان يتقبلها الناس ويستعملونها بطريقة صحيحة .

هذه الاهداف الثلاثة هي التي يهتم بها الطب عندما يتعامل مع وسيلة من وسائل منع الحمل .

١ ــ فالغلاف الذكرى والحاجز المهبلي والرغاوى الكيميائية ((Foam) كلها يتوافر فيها الشرط الأول ، فهي مأمونة وسليمة تماما ولا تسبب اية اعراض عامة ولا يحرم استعمالها فى اى حالة طبية معينة .

٢ ــ اما فعالية وسائل منع الحمل فهي تعتمد على عاملين هامين هما : ــ

ــ الفعالية النظرية وهى درجة النجاح النظرية للوسيلة .

ــ الفعالية العملية ــ (او الاستعمالية) وهي درجة النجاح الفعلية عند الاستعمال حيث يوضع الخطأ البشرى فى الاعتبار .

ففي حالة ربط بوقا فالوب تتساوى الفالية النظرية مع الفعالية العملية . وكذلك بالنسبة للولب الرحمي فهما متقاربتان . وتتسع الهوة بين الفعاليتين عندما تكون الطريقة المستعملة معقدة او غير مريحة فى الاستعمال أو تحد من حركة مستعملها أو غير مقبولة من الناحية الخلقية او التهذيبية عند بعض الهيئات أو الجماعات .

٣ ــ تقبل الناس لطريقة معينة من طرق منع الحمل تختلف باختلاف الاشخاص ففالبية الازواج تفضل اتباع طرق لا تتصل او تتداخل فى عملية الجماع بطريقة مباشرة ، وقد يجد البعض ان الوسائل المهبلية غير مريحة وتحد من بهجة ومتعة الجماع فيلجأ الى اقراص منع الحمل واللوالب الرحمية .

● ● ●

طرق ووسائل منع الحمل

اولا : I هرمونات منع الحمل Hormenal Contraceptives

اثبت علم وظائف الاعضاء أن الدورة الحيضية فى الانثى وكذلك الحمل بأطواره المختلفة تقع تحت السيطرة الكاملة للهرمونات التى تفرزها الغدد الصماء فى الجسم ولكى نلم بتأثير هذه الهرمونات علينا أن نقوم بدراستها على أربعة محاور على الاقل والتى يجب ان تعمل جميعها فى وقت واحد وبتوافق وبدقة تامتين حتى تنتظم الدورة الشهرية وبذلك تنتج حملا طبيعيا فى حالة تلقيح البويضة .

١ ــ الاعضاء الهدفية الخارجية

(Peripheral Target organs)

الرحم وعنق الرحم والمهبل تخضع لبعض التغيير بطريقة دورية أثناء الدورة الشهرية للحيض وكذلك أثناء الحمل ، وهذه التغيرات تقع تحت سيطرة هرمونات المبيض وهرمونات المشيمة أثناء الحمل .

٢ ــ المبايض (Ovaries)

تفرز هرمونى الايستراديول والبروجستيرون التى تنظم تغيرات الاعضاء الخارجية كما تفرزهما ايضا المشيمة البشرية بالاضافة الى هرمون الجونادوتروفين (Gonadotrophin) الذي يفرز فى البول ويكون اساسا لاختبارات الحمل .

٣ ــ الغدة النخامية الامامية

(Anterior pituitary)

تفرز هرمونات تنظم وتسيطر على المبايض وبالتالى الاعضاء الخارجية بطريق غير مباشر وهذه الهرمونات هى (أ) المنبه البويضى (F.S.H.) وهو ينبه افراز البويضة من المبيض .

(ب) المنضج البويضى (L. H.) وهو بالطبع بالتعاون مع الاول ينضج البويضة ويؤهلها للخروج من المبيض بواسطة عملية التبويض (Ovulation)

٤ ــ افرازات الغدة النخامية يسيطر عليها وينظمها هرمونات تفرز من جسم آخر فى المخ اسمه الهيبوثالاموس (Hypothalamus) وهى تنبه الغدة النخامية لافراز هرمون (F.S.H) وهرمون (L.H.) أما الهرمون الثالث ويدعى برولاكتين ((Prolactin)) فهو يؤدى الى هبوط افراز هرمون الـ (L.T.H.) السابق ذكره .

وهذا العرض المبسط للهرمونات المختلفة التى تؤثر على النشاط الجنسى الطبيعى للمرأة يوضح امكانية تأثرها بالعقاقير المختلفة بل والسيطرة على هذا النشاط وتوجيهه الوجهة المطلوبة .

اما عمل هذه الهرمونات واثرها على الاعضاء الهدفية الخارجية فهو باختصار كالاتى :

عقب الحيض مباشرة يبدأ الغشاء المبطن لجدار الرحم الداخلي فى التكون من جديد (بسبب قذف الغشاء القديم مع دم الحيض) وهذه العملية تقع تحت سيطرة هرمون الايستروجين (الذى يفرزه المبيض) والذى ينظمه هرمون (F.S.H.) الذى تفرزه الغدة النخامية والذى ينبه البويضة للنضج وازدياد الحجم وافراز هرمون الايستروجين وبعد ذلك تبدأ الغدة النخامية فى افراز هرمونها الثانى (L.H.) التى تسبب عملية التبويض بالاشتراك مع الاول وتكون الجسم الاصفر (Corpus Luteum) الذى يبدأ بدوره فى افراز هرمون البروجستيرون (Progesterone) بالاضافة الى الايستراديول (Oestradiole) وهذان الهرمونان يؤثران على الغشاء المخاطى الرحمى (Endomitrium) الذى يبدأ الطور الافرازى (Secretary Phase) فى النصف الثانى من الدورة الشهرية ، وفى حالة عدم تلقيح البويضة يبدأ الغشاء المخاطى الرحمى فى التحلل والفساد لينتهى بالحيض . أما اذا حدث حمل فلا يحدث تحلل لهذا الغشاء بل تزداد سماكته وحيويته لكى يستقبل البويضة عندما تنغرز فيه .

كذلك فان الافراز المخاطي لعنق الرحم (Cervical Mucus) يتغير أثناء الدورة الحيضية فيصبح أقل لزوجة وأكثر سيولة فى وقت التبويض أما بعد ذلك فهو لزج وسميك ويمنع دخول الحيوانات المنوية الى داخل الرحم . ويمكن التحكم فى درجة اللزوجة هذه بواسطة بعض العقاقير لتظل تمنع الحيوانات المنوية من النفاذ الى داخل الرحم .

كيفية عمل ومكان تاثير هرمونات منع الحمل .

هذه الهرمونات هي الوحيدة بين العقاقير الطبية التى تمنع الحمل بطريقة وقائية وليس لهاأى تاثير على الحمل عند حدوثه ولا شك ان تاثيرها يمتد الى اكثر من موضع فى الجسم .

١ ــ منع التبويض

منذ عام١٩٣٧ والابحاث قد توصلت الى الحقيقة العلمية الى انه اثناء الحمل لا يحدث تبويض جديد من المبيض وذلك بأفراز هرمونات بكميات كبيرة اثناء الحمل وقد اثبتت التجارب التي اجريت ان هرمون البروجستيرون يتمتع بهذه الخاصية سواء فى حيوانات التجارب او فى النساء . كما تطورت الابحاث باضافة هرمون الايستروجين لتقوية الاثر المطلوب كما استنبطت مركبات فعالة بواسطة الفم بدلا من الحقن ، أما موضع عمل هذه الهرمونات فى الجسم فقد يكون على الهيبوثالاماس الذى يتحكم فى افراز الغدة النخامية بمنعها من افراز هرمونى (F.S.H.) ، (L.H.) اللازمين لعملية التبويض . (غير معروف بالضبط) .

٢ ــ تغير فى الغشاء المخاطي الرحمي

يحدث تغيير فى هذا الغشاء يجعله يمنع تعشش البويضه فيه (Implantation) وهذا التغيير اثبته الفحص الميكروسكوبى الذى اظهر ضموره وفقدانه لخصائصه . وهذا الاثر يكون بمثابة خط الدفاع الثاني ضد الحمل لو فرض وحدث التبويض .

٣ ــ تغيير فى الافراز المخاطي لعنق الرحم (Cervical) Mucus)

يصبح اكثر لزوجا واقل قابلية للاختراق بواسطة الحيوانات المنوية وهذا التاثير يحدث أساسا بواسطة هرمون البروجستيرون .

وهذا هو خط الدفاع الثالث ضد الحمل ومن المحتمل جدا ان يكون هذا الاثر هو الطريقة الوحيدة لمنع الحمل فى بعض انواع الاقراص المستعمله والتى لا تمنـع عمليـة التبويض ولا تغير فى الغشاء المخاطي الرحمي .

طرق استعمال هرمونات منع الحمل

هناك طريقتان او نوعان ــ أ ــ النوع المتحـد أو المزدوج . (Combined)

ب ــ النوع المتتابع (Sequential)

أ ــ النوع الاول ــ مزيـج مـن هرمونـي الايسـتروجين (Oestrogen) وهرمـون البروجستوجين (Progestogen) ويعطى بانتظام وباستمرار لمدة ثلاثة أسابيع .

ب ــ النوع الثاني ــ وفيه يعطى هرمـون الايستروجين منفردا لمدة اسبوعين ويتبعـه مزيج الهرمونين لمدة أسبوع آخر .

وفى كـلا النوعين لا يعطى اى دواء خـلال الاسبوع الرابع ويتبع هذا الاسبوع نزول الدم الذى يشبه دم الحيض(Withdrawal Bleeding)

جـ ــ هناك نوع ثالث ــ (قليل الاستعمال نسبيا) وفيه تعطي جرعات صغيرة يومية من هرمـون البروجسترجـين منفـردا بـدون الايستروجين ، ونسبة الحمل من هذا النوع مرتفعة وتصل من ٢ ــ ٨٪ فى السنة ويصاحبه نوبات مـن النزيف المهبلي غـير منتظـم . (Breakthrough bleeding) وما زالت الابحاث جارية حتى يومنا هذا لاستنباط انواع اخرى من عقار منع الحمل الهرمونية وغير الهرمونية مثال ذلك زرع امبولات تحتوى على مـادة السيلاستيك (Cilastic implant) تحت الجلد والخواتم المهبلية (Intravaginal Rings)

هرمونات منع الحمل :

١ ــ هرمون البروجستوجين Progestogen **وانواعه المختلفة**

وهو يستعمل فى اقراص منع الحمل بدلا عن هرمون البروجسترون (Progesterone) حيث لا يعطى الأخير الا عن طريق الحقن وتقل فعاليته بطريق الفم .

ومن انواعه نوع يحتـوى على مادة (١٩ نورتستسترون (19 Nortostosterone) ومن هذا الصنف طورت اصـناف مختلفـة تستعمل فى اقراص منع الحمل فقط (وليس فى حقن منع الحمل) وهذه الاصناف تختلف فى فعاليتها باختلاف تركيبها الكيميائي وتقاس فعالية المستحضر بتعيين اقل جرعة منه التي اذا اضيفت الى (٠ر١) ملجم مـن هرمون ايثينل اوسترادیول (Oethenyl Oestradiel) تسبب تأخير العادة الشهرية لمدة اسبوعين .

وزن هذه الجرعة يستعمل كأساس لقياس ومقارنة فعالية مختلفأنواع البروجستوجين. ومنهذه المركباتنجد أن مركبي نورايثيندرون و نورايثيندريل Norethindrone & Norethyaedrel متساويان فى الفعالية فى حين أن مركب خلات نورايثيندرون Norethindrone Acetate تبلغ فعاليته ضعف المركبين السابقين،ومركب خلات ايثينوديول Ethynodiol Diacetate فتبلغ فعاليته ١٥ ضعفا ، وهذه الفعاليـة المرتفعة تعتمد على مقاومة المركب لعمليـة الهضـم عنـدما تؤخـذ بالفـم . (ومركب نورجستريـل (Norgestril) فتبلـغ فعاليته ثلاثين ضعفا) .

٢ ـ هرمون الايستروجين ومركباته ومشتقاته المختلفة :

وهو الهرمون الثانى المكون لاقراص منع الحمل وهو محضر كيميائيا من مواد تشبه الايستروجين فى الفعالية والتى تحتفظ بهـا حين تؤخذ عن طريق الفم .

والنوعان الموجودان فى اقراص منع الحمل هما :ـ

أ ـ ايثينيل ايستراديول
(Ethenyl Oestradiol)

ب ـ ١٧ ايثينيل ايستراديول
(17 Ethenyl Oestradiol l) وهو الميسترانول
(Mestrano)

وتبلغ فعالية المركب الاول ضعف فعاليـة المركب الثانى وهي ايضا لا تعتمد على وزن الهرمون الموجود فى الاقراص ولكن على فعاليته الحيوية فى الجسم اذا اخذ بالفم وربما كـان المركب ذو الوزن الاقل اكبر فاعلية من ذى الوزن الكبير .

وعند وصف اقراص منع الحمل لسـيدة ما يجب انيوضع فى الاعتبار هذان العاملان اي وزن الهرمون الفعال ونشـاطه الحيـوى فى الجسم لكي نختار النوع المناسب لها وخاصة اذا كانت السيدة تشكو من النزيف المهبلي اثناء تعاطي الاقراص او توقف نزول الـدم كليـة (Break through bleeding & Amenorrhoea) وتعالج هذه الحالات بزيادة هرمون الايستروجين فى الاقراص لعلاج النزيف المهبلي وتخفيض كمية او نوع هرمون بروجستوجين لعلاج انقطاع الحيض .

ويستحسن عند وصـف نوع معين مـن اقراص منع الحمل ان نصف انواعا تحتوى على اقل نسبة ممكنة من الهرمونات(حيث انها كلها فعالة تماما فى منع الحمل) تكون بمثابة تمهيد للاستمرار فى تعاطي الاقراص ، وفى حالة حدوث اعراض جانبية كالنزف المهبلي تزاد جرعة الهرمون او يستعمل مركبهرموني اقوى فاعلية .

كما وجد ان الاقراص التى تحتوى على ٥٠ ميكروجرام ايستروجين يصاحبها هبـوط فى معدل الاصابة بانسداد الاوعية الدموية .

وقد استعملت اقراص تخفض فيها نسبة الهرمونات الـى درجة ٢٠ ميكروجرام مـن هرمون الايستروجين مع ١ مجم فقط مـن هرمون البروجستوجين وهى فعالة فى منع الحمل كغيرها من المستحضرات التى تحتوى نسبة اعلى من هذين الهرمونين الا انها تمتاز عنهما بضعف الاعراض الجانبية التي يسببها .

أ ـ النوع المتحد من اقراص منع الحمل
(Combined)

وهو اكثر الوسائل المتاحة لنا حاليا فعالية فى منع الحمل بشرط ان يكون تعاطيه منتظما كل ليلة ولا تنقطع السيدة يوما واحدا عـن تعاطيه ، فى هذه الحالة تكون نسبة الحمل اقل من ٢و٠ من كل مائة سيدة لمدة عام كامل . (٢و٠٪ سيدة/عام) .

وكما اسلفنا فهذه المركبات تستمد فعاليتها من تنوع تأثيرها على الاعضاء المختلفة للجهاز التناسلي للمراة . فهي تمنع عملية التبويض وتغير فى طبيعة الافراز المخاطى لعنق الرحـم فيصبح اكثر مقاومة للحيوانات المنوية ويمنع

دخولها لتجويف الرحم ، كذلك يغير من طبيعة الغشاء الرحمي الداخلي فلا تفرز عدده الكمية الكافية من سكر النشاء (Glycogen) اللازم لدعم واضطراد نمو البويضة الملقحة وهي ما زالت فى مراحلها الاولى قبل ان تعشش فى الجدار الرحمى . كذلك يصبح المبيض اقل استجابة وتأثرا بهرمونات الغدة النخامية . بالاضافة الى التأثير على بوقا فالوب والنسيج العضلى للرحم مما قد يؤثر على عملية نقل الحيوان المنوى والبويضية .

ب ـ النوع المتتابع (Sequential)

وهو اقل فعالية من النوع الاول ، ويقصر استعماله على بعض حالات فردية نادرة ، فنسبة الحمل معه قد تبلغ ضعف النوع الاول حيث لا يمنع التبويض ولا يمنع افراز هرمونات الغدة النخامية وتأثيره على الغشاء الرحمي الداخلي والافراز المخاطى لعنق لرحم لا يبلغ درجة تأثير النوع الاول . ولكونه يحتوى على نسبة اكبر من هرمون الايستروجين ، فأعراضه الجانبية اشد من النوع الاول ، وبذلك فان استمرار السيدات ومواظبتهن على تعاطية اقل من النوع الاول .

الآثار والاعراض الجانبية لاقراص منع الحمل (Systemic Effect)

هرمونات منع الحمل لها تأثير على كل اجهزة الجسم تقريبا بالاضافة الى تأثيرها على الجهاز التناسلي . وتبدو هذه التأثيرات على شكل اعراض جانبية غير مستحبة مثل الرغبة فى القيء ، النزيف الهبلي ، الانتقاخ ، ازدياد الوزن ، الورم ، واعراض خاصة بالجهاز العصبي المركزى مثل الصداع ، العصبية الزائدة ، التعب ، الدوخان ، هبوط الرغبة الجنسية والتغيرات النفسية . وهناك اعراض اخرى مثل قلة الطمث او انقطاع الطمث ، آلام الثدى ، كلف الوجه .

وهذه الاعراض تزداد شدة بارتفاع نسبة الهرمونات الداخلة فى تركيب الاقراص .

وهذه النسبة المرتفعة سببها الآتي : ـ

١ ـ تعطى الجرعة اللازمة لمنع التبويض بدلا من منع الخصوبة وهذه تحتاج لجرعة اكبر .

٢ ـ يراعى تقارب نسبة الهرمونات فى جميع انواع الاقراص برغم اختلافها فى الفعالية .

٣ ـ طريقة تناول الاقراص مرة واحدة فى اليوم تسبب ارتفاعا سريعا فى نسبة الهرمونات فى الدم ثم ينخفض تدريجيا خلال الـ ٢٤ ساعة التالية .

وعلى الصفحات التالية يوضح الجدول المرفق بيانا تفصيليا للاعراض الجانبية غير المستحبة لاقراص منع الحمل والهرمون الذى يسببها اذا كان معروفا .

تؤثر اقراص منع الحمل على عملية التمثيل الغذائي (حوالي ٥٠ أثرا) وقد قسم تأثيرها على باقى أجهزة الجسم الى ثلاثة اقسام رئيسية هي : ـ

(١) اثرها على الجهاز التناسلي

ـ **المبيض** ـ تسبب التليف المؤقت للمبيض الذى يعود لطبيعته بوقف استعمال الاقراص .

ـ **النسيج العضلي للرحم** ـ فى حالة وجود اورام ليفية (Fibroids) تزداد فى الحجم لتسبب اعراضا اكلينيكية تشعر بها المريضة ووجود هذه الاورام يمنع استعمال الاقراص .

الآثار الجانبية لاقراص منع الحمل والهرمون المسبب لها

الاثر الجانبي	هرمون بروجستوجين	هرمون ايستروجين
١ ـ القيىء والغثيان (عارض مؤقت) ويزول بعد عدة شهور ويخف اذا اخذت الحبة مع الحليب		×
٢ ـ الصداع والدوخان والصداع النصفي		×
٣ ـ الم الصدر (عارض مؤقت)	×	×
٤ ـ كلف الوجـه (Chloasma)		×
٥ ـ الضعف والاكتئاب (هذا العرض عادة موجـود قبـل تعاطي الاقراص) ويعالج بواسطة اقراص فيتامين ب٦ ٥٠ ملجم يوميا)	×	
٦ ـ حب الشباب وفروة الرأس الدهنيـة	×	
٧ ـ الصلع يسببه القلق وليس الاقراص	–	–
٨ ـ البرود الجنسي (غير موجود فى صغيرات السن مـن النساء) سببه جفاف المهبل .	×	
٩ ـ المغص والتقلصات البطنيـة والطمث المؤلـم (عارض مؤقت)	×	
١٠ ـ تقلص عضلات الساقين	×	
١١ ـ النزف المهبلي (Spotting) عارض مؤقت ويعالج بنوع من الاقراص فيه جرعة اكبر من هرمون الايستروجين	×	×
١٢ ـ الضطرابات الحيـض :		×
ا ـ قلة الطمث ويعالج باعطاء مركب فيه جرعة اكبر من هرمون البروجسترون .		
ب ـ كثرة الطمث بغير او بأدرار الحليب		
جـ ـ امتناع الحيض ، توقف الاقراص	×	×
١٣ ـ ازدياد الافرازات المهبلية البيضاء وقد يصاحبه قرحة الرحم		×
١٤ ـ الفطريات المهبليـة	×	×

الآثار الجانبية لاقراص منع الحمل والهرمون المسبب لها

الاثر الجانبـي	هرمون بروجستوجين	هرمون ايستروجين
١٥ ــ زيادة الوزن ويعالج بعمل رجيم { مؤقتا ــ بواسطة احتياس السـوائل		×
دائما ــ بواسطة ترسب الدهن وتحسن الشهية	×	
١٦ ــ بعض التغيرات فى عملية التمثيل الغذائي		
زيادة البروتين فى الدم أ ــ زيادة هرمون الكورتيكستيرون المتلصق بهما زيادة هرمون الغدة الدرقية ب ــ زيادة مادة الصفراء فى الدم وتغيير وظائف الكبد يعالج بوقف الاقراص جـ ــ تغير فى تمثيل حامض الفوليك (اللازم للدم)	←	×
١٧ ــ ازدياد الدهنيات فى الجسم	×	أو ×
١٨ ــ حصو المراره (غير مؤكد)	ــ	ــ
١٩ ــ ارتفاع ضغط الدم فى ١٪ من الحالات (موجود من قبل ويرجع للطبيعي بعد ثلاثة اشهر من توقف الاقراص .)	×	أو ×
٢٠ ــ زيادة الجلوكوز فى الدم (Glycosuria) ويوقف استعمال الاقراص فى هذه الحالة		×
٢١ ــ الجلطة الدموية والانسداد الشرياني لزيادة تجلط الدم بسبب زيادة مادة الفيرينوجين والعامل السابع والعاشر (وربما الثامن والتاسع) اللازمة لعملية تجلط الدم ، وميل الصفائح الدموية للتجمع . (هذا الاثر قاصر على المرأة البيضاء)		×
٢٢ ــ ازدياد حجم الرحم والاورام الليفية (مثلما يحدث فى الحمل)	×	×
٢٣ ــ احتمال الاصابة بسرطان الثدى او الرحم او المجـارى التناسلية السفلى ــ (بالعكس من ذلك وجد ان الاقراص تحمي من سرطان الثدى فيما بعد كما تقلل من سرطـان الرحم والمبايض) .		×
٢٤ ــ اثر الاقراص على الحمل نظريا فقط ولا يوجد دليل على تأثر الحمل بالاقراص .	ــ	ــ

ـ الغشاء الرحمي الداخلي ـ التأثير الحادث به يسبب انقطاع الحيض او قلته أو النزيف المهبلي اثناء الدورة الشهرية (Intermenatrual)

ـ **عنق الرحم** ـ زيادة الافراز المخاطي / تضخم عند عنق الرحم الحميد .

ـ **المهبل** ـ ليس هناك تأثير سيىء على الالتهابات المهبلية .

ـ **الثدى** ـ يسبب الما بالجس (بسبب هرمون الايستروجين) .

يقل ويختلف نوع الحليب اثناء الرضاع فتقل فيه نسبة البروتينات ، وتظهر هذه الهرمونات فى حليب الأم بنسب محسوسة ، لذلك لا ينصح باستعمال اقراص منع الحمل اثناء فترة الرضاع .

(٢) اثرها فى الغدد الصماء ـ

أ ـ الغدة الكظرية (فوق الكلوية) (Adrenal)

تؤثر هرمونات منع الحمل فى تركيز البروتينات فى الدم وبالتالي فى افراز الكبد لانواع معينة من البروتينات اللازمة لهرمونات الغدة الكظرية مما يسبب فى هبوط نسبة افراز كل من هرمون (١٧ كيتوسيترويد (17 Ketosteroid) وهرمون الدوستيرون (Aldosterone) كما قد تزيد فى افراز هرمون كورتيزول (Cortisol) وهذا يسبب احتباسا للسوائل فى الجسم مما يسبب الصداع والاضطرابات العصبية النفسية .

ب ـ الغدة الدرقية (Thyroid)

تسبب ازديادا فى افراز هرمون الغدة الدرقية يشبه ما هو حادث اثناء الحمل ولكن لا يوجد دليل على انها تسبب تغيرا فى وظيفة هذه الغدة .

جـ ـ البنكرياس (Pancreas)

استعمال اقراص منع الحمل لمدة طويلة يؤثر على التمثيل الغذائي للجلوكوز يبدو واضحا فى انحراف منحنى السكر فى الدم عن الطبيعي لذلك لا توصف اقراص منع الحمل لمريضات البول السكرى (Diabetes) كما يجب الحذر ومتابعة الفحص لمن لديهن استعداد وراثي او عائلي للاصابة بهذا المرض او ينجبن اطفالا يكون وزنهم أعلى من الوزن المعتاد أو بموت اطفالهن اثناء الولادة بدون سبب واضح .

د ـ الغدة النخامية (Pituitary)

من المعروف ان اقراص منع الحمل تسبب توقفا عن افراز هرمون (L.R.F.) الذى ينبه الغدة النخامية لافراز هرمون (F.S.H.) اللازم لاتمام عملية التبويض فى المبيض . وقد تستمر هذه الحالة حتى الى ما بعد ان يتوقف استعمال الاقراص نفسها مما يسبب عدم الحيض لفترات متفاوته وقد يمتنع الحيض نهائيا ولكن هذه الحالة نادرة ولا تتجاوز نسبتها ٢و٠٪ وتصيب عادة من كن يشكين من اضطرابات الدورة الشهرية من قبل البدء فى استعمال الاقراص لذا ينصح مثل هاتيك المريضات وخاصة من كن يشتكين من قلة او عدم الطمث بأن يبحثن عن وسيلة اخرى لمنع الحمل غير الاقراص أو اذا أصررن على الاقراص فيستعملن النوع المتتالي ولعل هذه هي الحالة الوحيدة التي تستعمل فيها هذه الطريقة (Sequental)

اثرها على باقي الجسم

١ ـ **الدهنيات** ـ تسبب ازديادا فى نسبة الدهنيات فى الدم وهذه بالاضافة الى التغيرات المتعلقة بتمثيل الجلوكوز فى الجسم قد يسبب تصلبا فى الشرايين Atheroscletosis ولكن لا يوجد دليل حتى الان على التعرض

للاصابة بمثل هـذه الحالـة عند استعمال الاقراص لمدة طويلة .

٢ ـ **الكبد** ـ تعرقل هرمونات منع الحمـل نشـاط الانزيمات التي تساعد على التخلص من مادة الصفراء يشبه ما يحدث اثناء الحمـل مما يزيد فرص تكون الحصو المرارى . كمـا قد يسبب الاصابة بمرض الصفراء العائد . Recurrent Jaundice . لذا يمنع من اصبن بهذا المرض من استعمال اقراص منع الحمل .

٣ ـ **انسداد الأوعية الدموية** ـ تزداد نسبة هذا الانسداد مع استعمال اقراص منع الحمل بصورة بسيطة ونسبة الوفاة لا تتجاوز ٣ من كل ١٠٠,٠٠٠ فى السنة وهي نسبة ضئيلة جدا . ولا تؤثر على الملايين من النساء اللائي يستعملن هذه الاقراص كل سنة من جميع انحاء العالم . ولكن يوصى بوقف استعمال هذه الاقراص فورا عند الاحساس بألم حاد فى الصدر .

٤ ـ **الجلد** ـ تسبب اسمرار الجلـد كمـا يحدث اثناء الحمل ويزداد بالتعرض لاشعـة الشمس ويستغرق وقتا طويلا للاختفاء بعـد التوقف عن استعمال الاقراص .

٥ ـ **الجهاز العصبي المركـزى** ـ قـد تسبب الاقراص الغثيان والصداع والاكتئاب وبعض الاضطرابات العصبيـة النفسيـة والبـرود الجنسي ، وقد يكون سببه التأثير فى النشاط الكيميائي لخلايـا المـخ وخاصـة فى مادتـي الريبتوفان (Tryptohan) والسيروتينين (Serotinin) . كما ان هناك ازديادا فى معـدل الاصابة بالضربات المخية الدموية وبالرغم مـن كونها زيادة طفيفة جدا الا انه ثبت أن هنالك علاقة اكيدة بين اقراص منع الحمـل وهـذه الضربات المخية . لذا يوقف استعمال الاقراص فورا اذا كان هناك نوبات من الصداع الشديد او ظهرت اعراض خاصة بالاعصاب الخارجية .

٦ ـ **الكلية** ـ قد تسبب ارتفاعا طفيفـا او مؤقتا فى ضغط الدم لاختلال التوازن بين مادتي الرنين (Remin) والانجيوتنسين Angiotensin فى الدم ، وينصح بقياس ضغط الدم بصورة دورية عند استعمال الاقراص لمدة طويلة .

٧ ـ **وزن الجسم** ـ هذه الهرمونات هـي مواد بنـاءة لاقتراب تركيبها الكيميائي مـن الهرمـون البنـاء المعـروف تستستيرون (Testosterone) . لـذا يجـب وقف استعمال الاقراص اذا زاد وزن الجسم عـن (١٠) ارطال في السنة او استبدالها بنوع اخـر يحتوى على نسبة أقـل مـن هرمون البروجسترون .

٨ ـ تغييرات اخرى متفرقة

(Ulcerative colifis)

قد تسبب انسداد الاوعية الدموية للغشاء المعوى او قرحـة القولون الالتهابية وهـذه الحالات تحتم وقف استعمال الاقراص فورا كما تغير فى معدل نسب بعض العناصر الغذائية فى الدم كحمض الفوليك وفيتامين ج ، ولكن المغزى الاكلينيكي لهذه التغييرات غير معروف حتى الان .

كذلك الكالسيوم والزنك. مع ازدياد نسبة فيتامين أ والنحاس والحديد فى الدم .

الحالات المرضية التي تمنع تعاطي اقراص منع الحمل بصفة قاطعة .

١ ـ سرطان الثدى والرحم .

٢ ـ الحمـل .

٣ ـ امراض الكبد الحادة النشطة .

٤ ـ ازدياد معدل تركيز الدهن فى الدم (Hyperlipidaemia)

٥ ـ مرض البول السكرى او الاستعداد الوراثي او العائلي للاصابة به .

الحالات التي قد يمنع فيها اقراص منع الحمل بصفة اختيارية .

١ ــ حالات الاكتئاب النفسي
Depression neurosis

٢ ــ الصداع النصفي Migraine

٣ ــ ارتفاع ضغط الدم Hypertension

٤ ــ الصرع Epilipsy

٥ ــ قلة او انقطاع الطمث

وينصح بالفحص الدورى مرة كل سنة على الاقل اثناء تعاطي الاقراص حيث يقاس ضغط الدم ويجرى الفحص المهبلي ويسجل وزن المريضة ويفحص الثدى ويعمل منحنى للسكر فى الدم وتعرف نسبة مادة الصفراء فى الدم ، مثل هذه المتابعة الدورية تمكن استمرار تعاطي هذه الاقراص الى سن الخمسين بدون توقف، وليس هناك اى ضرورة لايقاف استعمالها قبل سن اليأس الا فى حالة الرغبة فى الحمل . اما وقف استعمال هذه الاقراص بصفة مؤقته على فترات معينة كما هو شائع الآن فليس له اى ضرورة ، كما انه يعرض السيدة لحمل غير مرغوب فيه وبذلك يقع المحظور . وعند بلوغ سن اليأس توقف هذه الاقراص مؤقتا ويعطى بدلا عنها جرعة مخفضة من هرمون الايستروجين منفردا واذا ثبت ان المبيض مازال نشطا ويفرز بويضات صالحة للحمل فيعاد تعاطي الاقراص مرة اخرى أو تستبدل بالوسائل التقليدية القديمة كالغلاف الذكرى والحاجز المهبلي أو الرغاوى الكيميائية .

اعراض جانبية مستحبة (حميدة) لاقراص منع الحمل

١ ــ علاج او تخفيف الطمث المؤلم ــ ثبت ان اقراص منع الحمل تعالج الطمث المؤلم فى ٦٠ ــ ٩٠٪ من الحالات (من المعروف ان ٤٥٪ من النساء يشعرن بآلام) اثناء الحيض وفى ١٢٪ منهن يكون الالم شديدا جدا بدرجة لا تحتمل) .

٢ ــ علاج التوتر العصبي الذى يسبق الحيض ــ كثيرات من النساء يشعرن بتوتر عصبي فى الايام الثلاثة أو الاربعة السابقة للحيض مع بعض الاعراض كالصداع والاكتئاب وفقدان التركيز واحيانا تصاب بنوبات تشبة نوبات الصرع وقد لوحظ ان اقراص منع الحمل تخفف من حدة هذا التوتر (التوتر العصبي يصيب حوالي ٣/١ من النساء) .

٣ ــ تمنع الحيض ــ من المعروف ان الحيض هو احد مظاهر الحياة الحضارية فالمرأة البدائية اما حامل أو مرضع وفى كلتا الحالتين لا ترى الحيض الشهرى ولا تعاني من هذا النزيف الدورى . فأقراص منع الحمل تخفف الحيض الشهرى الى درجة كبيرة وقد تمنعة كلية وقد لوحظ ان نسبة هيموجلوبين الدم مرتفعة مع اقراص منع الحمل ، وفى ٥٠٪ من الحالات يقل الحيض ، وفى ١٪ يمتنع الحيض بالمرة .

٤ ــ تخفيف حب الشباب (Acne) (مرض جلدى) ــ لوحظ ان أقراص منع الحمل تعالج وتخفف من اعراض مرض حب الشباب الذى يصيب الفتيات في وقت البلوغ ويكون سببه الهرمونات الذكرية التي يفرزها المبيض اثناء البلوغ (Androgens) وقد وجد ان ٨٠ ــ ٩٠٪ من المريضات يتحسن باستعمال اقراص منع الحمل .

٥ ــ علاج اعراض الذكورة (Hirsutism) فى بعض الحالات .

٦ ــ تخفيف آلام التبويض (Mittelschmerz) والذى يحدث فى منتصف العادة الشهرية .

٧ ــ الرغبة الجنسية ــ من الصعب تقدير كمية التغير الحادث فى هذه الغريزة فهي قد تزيد فى ٥٠٪ وقد تنقص فى ٤٠٪ من الحالات.

٨ ــ تحسين الحالة النفسية للزوجين ــ حيث يشعران بالسعادة لتحكمهما فى الحمل والتخلص من الحمل الغير مرغوب فيه .

ثانيا : اللولب الرحمي

Intrauterine Contraceptive Device (loop)

تعريف ــ هي تصميمات واشكال مختلفة توضع داخل التجويف الرحمي بقصد منع الحمل وهي مصنوعة من لدائن خاملة غير فعالة ورخيصة نسبيا ويراعي فى اللولب ان يكون قابلا للانثناء ويمكن ادخاله الى التجويف الرحمي بسهولة ولا يسبب اى اذى أو خطورة على المريضة ويكون من حجم مناسب فلا يطرد من الجسم .

تاريخ استعماله ــ الفكرة نفسها ليست جديدة فقد سبق استعمال اشكال مماثله في القرن التاسع عشر ولكن كانت توضع جزئيا فى الرحم وجزئيا فى المهبل وقد عدل عنها فيما بعد بسبب الالتهابات التي كانت تنتج عنها . وطورت الفكرة بعد ذلك بوضع حلقات معدنية لولبية توضع كلية داخل التجويف الرحمي (كوقاية ضد الالتهابات) ومن امثلتها حلقة جرافنبيرج (Grafenberg ring) الالمانية

وحلقة اوتا اليابانية وهاتان الحلقتان ما زالتا تستعملان حتى الان وتصنعان اما من الذهب او من الفضة او من سبيكة من النحاس والنيكل والزنك .

كما استعملت حلقات اخرى من امعاء دودة القز او من مشتقات مادة النايلون ولو انها اقل فاعلية .

ثم استعملت الحلقات المعدنية القابلة للانثناء المعقدة بعض الشيء فى التركيب وتحتاج الى تخدير كلي .

واخيرا استعملت مادة البوليا ثيلين (Polyethylne) فى صناعة اللوالب والتي تجمع بين الرخص فى الثمن والفعالية فى منع الحمل . وتنوعت الاشكال والتراكيب وقد اثبت النو ع المسمى لولب ليبيس (Lippes Loop) انه احسنها واكثرها استمرارا فى الرحم كذلك الانواع التي على شكل حرف (T) وكل هذه الانواع لها جهاز خاص بها لادخالها فى جوف الرحم كما ينتهي طرفها بخيط متين من النايلون متدل فى المهبل ويعتبر علامة على وجود اللولب واستمراره داخل الرحم كما يمكن ازالة اللولب من الرحم بالشد عليه اذا حدث ما يستدعي استخراج اللولب .

شيوع اللولب

شاع استعماله فى السنوات الاخيرة من بدء السبعينيات حتى احتل الان المركز الثاني مباشرة بعد اقراص منع الحمل وتمزج المادة البلاستيكية للولب بمادة الباريوم الذى يتيح له الظهور بوضوح فى صورة الاشعة السينية التي تؤخذ للحوض عندما يراد التأكد من وجوده ومن موضعه . وقد أضيف عنصر النحاس على اللولب مؤخرا لزيادة فعاليته . ومعظم اللوالب المستعملة الان تكون على حجمين او اكثر للاختيار منهما على حسب حجم الرحم .

طريقة عمل اللولب

غير معروفة بالضبط حتى الآن ولكن من المتفق عليه الآن ان اللولب يمنع زرع البويضة الملقحة فى الغشاء الرحمي الداخلي بطريقة او بأخرى ولذلك يجب ان يغطي اللولب كل الغشاء الرحمي الداخلي ، ولذلك فان اللولب اذا كان صغير الحجم بدرجة

واضحة او زرع فى احد قناتي الرحم مزدوج التجويف وهو عيب خلقي يسمى (Bicornute uterus) فانه من الممكن حدوث الحمل.

وسبب منع زرع البويضة فى جدار الرحم:

١ ـ قد يكون الالتهاب الناشىء عن وجود جسم غريب داخل الرحم .

٢ ـ او ان هذا الجسم الغريب قد ينبه بعض الدفاعات فى الجسم التي تدمر البويضة بواسطة الخلايا المخصصة لذلك (Macrophages)

٣ ـ وربما سببت مادة النحاس الموجودة في بعض الانواع فى تدمير الحيوانات المنوية او البويضة الملقحة ذاتها او تجعل افراز عنق الرحم طاردا للحيوانات المنوية أو يفقد الغشاء الرحمي الداخلي استجابته لزرع البويضة .

٤ ـ والسبب الاخير قد تكون الهرمونات الداخلية فى تركيب اللوالب لها نفس التأثير اذا اعطيت بالفم او الحلق وهو مشابه لما يحدث فى الحمل .

متى يستعمل اللولب

١ ـ تستعمل اللوالب الرحمية فى حالة رفض المريضة لاقراص منع الحمل ، او عدم امكانية استعمالها لسبب من الاسباب التي تحرم استعمالها .

٢ ـ كما انها ذات اهمية خاصة عندما تكون الزوجة من النوع اللاهي الذى لا يتحمل المسئولية(وكذلك الزوج) وفى حالات الاختلال العقلي والظروف الاجتماعية السيئة .

٣ ـ فى حالة فشل او عدم امكانية الوسائل الاخرى .

٤ ـ اذا توافر الاشخاص المؤهلين لتركيب مثل هذه اللوالب فيمكن استعمالها على نطاق واسع لتحديد النسل .

متى يمنع استعمال اللولب

١ ـ فى الايام الاولى لفترة النفاس التي تعقب الولادة او الاجهاض حيث يجب مرور ستة اسابيع على الاقل على الولادة او الاجهاض قبل تركيب اللولب .

٢ ـ فى حالة النزيف الرحمي المصاحب لعادة شهرية غير منتظمة واورام الرحم وامراض الحوض الاخرى .

٣ ـ عندما تكون هناك دلائل وشواهد على وجود التهاب حوضي (Pelvic Infection) في الحاضر او الماضي .

٤ ـ عندما يكون الرحم به عيب خلقي كحالة ازدواج التجويف الرحمي (Biornute) حيث يوضع اللولب فى تجويف واحد ويترك التجويف الآخر عرضة للحمل .

٥ ـ عندما تكون المرأة بكرية ولم تلد بعد ، قد يكون اللولب ذا خطورة اثناء عملية التركيب بالاضافة الى صعوبة وصغر حجم الرحم .

٦ ـ لا يركب اللولب فى الحالات التي اجرى لها عملية قيصرية او اجهاض عن طريق البطن (Hysterotomy) فهناك احتمال كبير بعدم التئام الجرح داخل الرحم او التئامه جزئيا مما يعرض الرحم لخطورة الخرق بواسطة اللولب.

٧ ـ عندما تثبت محاولات تركيبه وجود اعراض جانبية غير مقبولة (كالنزيف والالتهابات)

فعالية اللولب

يلي الاقراص فى الفعالية الا ان به كثيرا من المزايا التي تفوقها مثل : ـ

١ ـ يقتصر عمله على الجهاز التناسلي

فقط وليس له اى اثار عامة على الجسم كاقراص منع الحمل .

٢ ـ يركب لمرة واحدة فقط ويستمر عمله لمدة سنوات بعد ذلك طالما ظل فى مكانه (اى لا يحتاج لاي اشراف طبي دوري مثل الاقراص)

٣ ـ تعرف الاطباء على فاعليته واثاره الجانبية اسرع بكثير من تلك التي جمعت بخصوص الاقراص (استغرق بعضها عدة سنوات وما زال ينقصنا الكثير)

٤ ـ وميزته الحقيقية هو انه فى حالة ثباته فى موضعه فانه غير مسبب لاي اثار جانبية (كالنزيف) ويصبح وسيلة رخيصة وفعالة لمنع الحمل وفى متناول الجميع (بعكس الاقراص التي تعتبر مرتفعة الثمن بالنسبة للولب وتحتاج لان تدفع المراة باستمرار .)

٥ ـ لا يحتاج الى عناية مستمرة وخاصة كالحاجز المهبلي .

٦ ـ لا يؤثر في الخصوبة على اى وجه ، ويمكن الحمل خلال اشهر قليلة من استخراج اللولب .

الفعالية

١ ـ وتختلف فعالية اللولب (اى نسبة الحمل) باختلاف النوع المستعمل وفى النوع المسمى لولب ليبس (Lippes Loop) لا تزيد نسبة الحمل عن ٢ر٧٪ بعد سنة من الاستعمال . ونسبة الحمل اكثر ارتفاعاً في السنة الاولى للاستعمال منها فى السنين التالية .

٢ ـ نسبة الحمل اكثر ارتفاعا كلما صغر حجم اللولب من نفس النوع المستعمل .

٣ ـ عند حدوث الحمل مع وجود اللولب فان اللولب لا يجود ابدا داخل الكيس الامينوس لان البويضة تزرع دائما فى جدار الرحم بعيدا عن اللولب .

عيوب اللولب واخطاره

١ ـ الحمل (Pregnancy) ـ حدوث الحمل مع وجود اللولب داخل الرحم غير مستبعد ، فى هذه الحالة لا يسبب اى تشوه خلقي للاجنة او زيادة فى نسبة الوفيات داخل الرحم . ولكن وجد ان نسبة الاجهاض الذاتي أعلى من المعدل الطبيعي ، وعند حدوث الحمل فتنقسم الآراء حول طريقة التعامل مع اللولب الموجود بداخل الرحم .

الرأى الاول ـ ترك اللولب وشانه حيث سيرتفع تلقائيا مع كبر حجم الرحم حتى يختفى الخيط عن متناول اليد ويتوارى اللولب بين الاغشية ولا يسبب اى ضرر حتى يقذف به خارجها مع ما يقذف من الاغشية ونتائج الحمل عند الولادة .

الرأى الثاني ـ اذا كان خيط اللولب مازال موجودا ومحسوسا فى المهبل فيمكن الشد عليه لنزع اللولب من الرحم ، ويقول اصحاب هذا الراى ان فرصة استمرار الحمل بعد استخراج اللولب اكثر من فرصتها لو ترك مكانه ، واذا لم يكن خيط محسوسا فيترك وشانه ولا يباشر البحث عنه داخل الرحم ، لان هذا حتما سيؤدى الى الاجهاض .

ونسبة الحمل مع وجود اللولب هي حوالي ٢ ـ ٥٪ في السنة الاولى لتركيب اللولب ثم تبدأ بالانخفاض بعد ذلك .

اي ان اللولب غير مرض بصفة عامة فى ٣٠ ـ ٤٠٪ من الحالات فى السنة الاولى وبعض اللوالب تسقط من تلقاء نفسها خارج الرحم وبعضها (١٥٪) تستخرج عمدا اذا كانت مسببة لاغراض جانبية غير مستحبة .

كما ان بعضها يفشل فى منع الحمل ولكن تعتمد النتيجة النهائية على اختيار المريضة ونوع وحجم اللولب المستعمل كما ان تقبل المريضة له اهمية خاصة . وهناك أمل كبير فى الانواع الجديدة المتطورة النشطة Activated appliances التي تسبب اعراضا جانبية اقل من الاولى وفاعلية اكثر ضد الحمل .

٢ ـ الحمل خارج الرحم (Ectopic Pregnanc)

اللولب يمنع الحمل داخل الرحم بنسبة ٩٧ـ ٦٨٪ من الحالات ولكنه يمنع الحمل خارج الرحم بنسبة اقل اي فى حوالي ٩٠٪ وفى حالة حدوث الحمل واللولب داخل الرحم فهناك احتمال ١/٢٠ ان يكون هذا الحمل خارج الرحم . وفى كل حالة تجرى فيها عملية اجهاض لسبب فشل اللولب فيجب ارسال عينة من البقايا المستخرجة من داخل الرحم للتأكد من ان هذا الحمل داخل الرحم .

٣ ـ طرد اللولب

يحدث ذلك في السنة الاولى فى ٢ ـ ١٠٪ من الحالات (معتمدا على نوع اللولب) وهو يعتبر من عيوب اللولب الرئيسية وخاصة اذا حدث بدون علم المريضة الذى يحدث فى حوالي ٢٠٪ من الحالات وهذا قد يتبعه الحمل غير المرغوب ، وقد وجد ان حوالي ثلث حالات الحمل مع اللولب حدثت عقب طرد اللولب بغير علم من المريضة بذلك ، وهذا يبين اهمية وجود الخيط المتصل باللولب كعامل انذار مهم اذا فقد اثره . ونسبة الطرد اعلى فى الشهور الاولى وكذلك فى السنة الاولى ، وتزداد نسبة الطرد كلما صغر حجم اللولب ولو كان من نفس النوع ، كما ان نسبة الطرد تكون اعلى ، اذا ركب اللولب فى الايام الاولى لفترة النفاس (Puerperium) كما وجد انه كلما صغر سن المريضة وقل عدد الاطفال زادت نسبة الطرد التلقائي من الرحم ، وفى بعض الاحيان النادرة قد تنزعه المريضة بنفسها سواء بالسهو او بالخطأ .

اما اذا اعيد تركيب اللولب بعد طرده فان احتمال الاحتفاظ به يصل الى ٦٨٪ واذا اعيد تركيبه للمرة الثالثة فان هذه النسبة تنخفض الى ٣٤٪ فقط اى لا توجد فائدة تذكر فى اعادة تركيب اللولب اذا تكرر طرده .

٤ ـ التوقف عن استعماله (Discontinuation)

وهذه نسبة ثابته مع كل انواع اللوالب وتبلغ حوالي ٢٠ ـ ٣٠٪ فى السنه الاولى و ١٠ ـ ١٥٪ فى السنوات التالية الى اقل من ١٠٪ فى السنة الخامسة واقل من ٦٪ في السنة السادسة ـ ونهاية السنة السادسة نجد ان حوالي ٤٠٪ من السيدات ما زلن محتفظات باللولب وهذه نسبة جيدة ـ كما وجد ان حوالي ٥١/٢٪ من حالات التوقف كان بسبب الحمل .

اسباب التوقف عن استعمال اللولب

١ ـ الحمل .

٢ ـ الالم ـ النزيف المهبلى (ولأسباب طبية اخرى) ونسبة التوقف فى هذه الحالات تبلغ حوالى ١٥٪ فى السنة الاولى وتنخفض الى ٧٪ فى السنة الثانية ، وهذا العامل يشكل نصف حالات التوقف عن الاستعمال تقريبا .

واحسن اوقات تركيب اللولب هو وقت الحيض الفعلى للتأكد من عدم وجود الحمل ، كما ان الزيادة الطبيعية التى سوف تحدث فى النزيف المهبلى الموجود فعلا لن يزعج المريضة ، وقد يزداد النزيف المهبلى بعد سنة من تركيب اللولب ، وهذا سببه ترسب املاح الكالسيوم على سطح اللولب الاملس فيجعله خشنا مما يسبب قروحا بالغشاء المبطن للرحم ، وهذا يسبب زيادة فى دم الحيض وفى هذه الحالة يستخرج اللولب ويغير نوعه .

٥ ـ خرق الرحم Perforation

هذه الحالةنادرة الحدوثونسبتها ١/٢٥٠٠ ولكن مع النوع المسمى دلكان (Dulkan) تزداد النسبة الى ١/٣٥٠ (وقد اوقف استعمال هذا النوع اخيرا وسحب من الاسواق بسبب المضاعفات الخطيرة التى كان يحدثها كالخرق والحمل والاجهاض الملوث) .

ويمكن تجنب هذه الحادثة بتوخى الحذر اللازم واتباع الطرق الصحيحة لتركيباللولب (وذلك باستكشاف تجويف الرحم بواسطة المجس الخاص قبل تركيب اللولب) وقد تساعد انقباضات عضلات الرحم على دفع اللولب خلالجدار الرحم السميكالى التجويف البيروتونى . واختفاء الخيط ليس معناه خرق الرحم بالضرورة فهو يختفي في الحالات التى يدور فيها اللولب على محوره ١٨٠ درجة ساحبا معه الخيط الى داخل الرحم .

ومع ذلك ففى حالة اختفاء الخيط تعمل صور شعاعية لتحديد مكاناللولبويستكشف داخل الرحم (بشرط التأكد من عدم وجود الحمل) . وعند التأكد تماما من وجوده داخل البطن يستخرج بواسطة منظار Laparascope او عن طريق المهبل Coldotomy . هذا اذا كان من الانواع التى قد تسبب انسدادا فى الامعاء (كالانواع الحلقية) ما عدا ذلك يمكن تركه حيث لا ضرر منه .

٦ ـ الالتهاب (Infection) والتلوث الميكروبى

لا يوجد دليل قاطع على ان اللولب هو السبب المباشر فى بعض الالتهابات التىتحدث فى المجاري التناسلية العليا التي تلاحظ احيانا مع وجود اللولب ، ولكن لا يجب تركيباللولب مع وجود التهاب فى قنوات فالوب، لان اللولب سوف يساعد على ادخال عدد اضافى من الميكروبات التى تزيد الحالة سوءا .

وعند فحص النسيج الرحمى بعد استخراج اللولب نجد ان اعراض الالتهاب غير الميكروبى تستمر مدة طويلة. هذا الالتهاب غير ضار وهو الاساس فى عمل اللولب فى منع الحمل .

ووجود اللولب يساعد على انتشار اى التهاب حاد جديد تناسلى يصيب المراة مثل مرض السيلان (Gonorrhoea) واللولب يساعد على انتشار هذا المرض الى ابواق فالوب وفي هذه الحالة يوصى باستخراج اللولب فورا وعلاج الحالة بسرعة وبحسم .

والتهاب ابواق فالوب الحاد والمزمن الذى يحدث فى ١ ـ ٢٪ من حالات تركيب اللولب عادة يحدث اذا ركب اللولب خطأ مع حمل مبكر أو كان هناك التهاب قديم بالابواق غير معلوم وقت التركيب ، أو اذا ركب مبكرا بعد حمل ، او اذا سبب اجهاضا .

٧ ـ هل اللولب يساعد على الاصابة بالسرطان

لم تثبت الابحاث المستفيضة التي اجريت على اللولب انه يؤدى الى سرطان الرحم او سرطان عنق الرحم .

٨ ـ تمزق عنق الرحم

قد تسبب بعض الانواع التى لها جزء يوضع فى عنق الرحم بعض التمزقات او الجروح به وهي ليست بذات خطر .

٩ ـ كسر اللولب

قد يصبح اللولب هشا ويكسر بعد ٢ ـ ٣ سنة من الاستعمال فيصبح بذلك غير ذى فاعلية ويعسر استخراجه من داخل الرحم كما ان اطرافه الحادة قد تخترقجدار الرحم .

١٠ ـ الاغماء عند تركيب اللولب

قد يحدث ذلك احيانا .

١١ ــ ازدياد كمية النزف الشهري او ظهور بعض البقع الدموية وسط الدورة الشهرية

وهى تحدث فى ٥٠٪ من الحالات وشائعة فى الايام والاشهر الاولى لتركيب اللولب . وقد تسبب انيميا وتعالج بمستحضر ابسيلون امينو كابوريك اسيد
(Epsilon Amino Caproico Acid)

١٢ ــ الطمث المؤلم (Dyamenonhoea)

وتسببها تقلصات الرحم وهــذه تتحسـن بتعود المريضة على اللولب .

التطورات والتحسينات التــى ادخلت علــى اللولب

لما كان اللولب حتى الآن ــ ليس بالوسيلة المثالية لمنع الحمل حيث ان هناك ٢/١٪ من حالات الحمل فى السنة الاولى للاستعمال ، كما ان هناك ١٥٪ من حالات طرد او استخراج اللولب لاسباب طبية فى السنة الاولى ايضــا فقد جرت محاولات كثيرة لتطويـــر اللولب وتحسين فاعليته كمانع للحمل ، من احــدث التحسينات التى ادخلت على اللولب هــو تعميم اللولب على شكل حرف (T) الذى يلف حوله سلك رفيع من النحاس ، وهذه الانواع ذات أهمية خاصة بالنسبة للزوجات اللاتي لم يحملن بعد (Nulliparous) واللائى عــادة لا يتحملن الانواع الاخرى بسبب الالم الــذى تسببه لهن . وقد وجد انهن يحتفظن بهذا النوع ولا يتخلصن منه ، وهذا فتح لهن المجال لمنع الحمل كبديل للاقراص .

وهناك ايضا اللولب النحاسي على شكل رقم (7) اللاتينى وهذا يشبه اللولب (TC 200) من حيث فاعليته ومناسبته للزوجات اللائى لم يحملن .

وما زالت الابحاث تجرى لاستنباط انواع اخرى من هذا النوع حيث يضاف هرمــون البروجستيرون على الزراع العمودية للولب فى محاولة لتقليل الاعراض الجانبية الى الحــد الادنى .

احسن وقت لادخال اللولب داخل الرحم

الوقت المثالى هو اثناء الحيض او بعــده مباشرة للتأكد من عدم حدوث الحمل ولكن عقب الاجاض او الولادة يستحسن ان تنتظر المريضة ستة أسابيع قبل تركيب اللولب او على الاقل بعد الحيضة الاولى للولادة حيث تفحص المريضة بعد شهر من تركيب اللولب وبعد ثلاثة اشهر ، ثم تفحص دوريا كل سنة للتأكد من وجود اللولب في مكانه ولتغييره اذا جد ما يستدعي ذلك . ويزال اللولب كليــة عند بلوغ سن اليأس وفى اى وقت قبل ذلك اذا سبب اعراضا جانبية شديدة او مضاعفات .

وفى حالة حدوث حمل بالصدفة فيفضل الكثير من الاطباء ترك اللولب وشأنه ، فمــع تقدم الحمل سيرتفع اللولب تلقائيا حتى يختفى تماما .

ثالثا : وسائل منع الحمل التقليدية

١ ــ الغلاف الذكرى (Condom)

نسبة لطبيب يدعى دكتور كوندوم ــ وهى من اقدم وسائل منع الحمل التى ما زالت متبعة حتى الآن . وهى بسيطة وفعالة وأول وصف لها نشر عام ١٥٦٤ م كان عبارة عن غلاف مصنوع من الصوف يستعمل اساسا لمنع العدوى بمرض الزهرى وتطور حتى اصبح يصنع الآن من مادة « لاتكس » مختلفة السمك ويزود احيانا بحلمة صغيرة فى القمة كخزان للحيوانات المنوية ويستعمل اما جافا او مشحما وميزته انه يحفظ الاحساس اثناء الجماع ولكن الانــواع الحديثة مرتفعة الثمن ، وفعاليته

النظرية تكاد تقارب فعالية اللولب الرحمى ، ونسبة الحمل تتراوح بين ٤ ــ ٣٦ سيدة لكل مائة عام من التعرض ــ وتزداد فعاليته اذا استعمل معه مركبات كيميائية لقتل الحيوانات المنوية واسباب الحمل مع الغلاف الذكرى هى الآتية : ــ

١ ــ التمزق اثناء الاستعمال ١/١٥٠ ــ ٣٠٠ حالة (٢ر٠ ــ ٣ر٠٪) .

٢ ــ القذف السريع قبل تثبيت الغلاف .

٣ ــ فقد الغلاف فى المهبل اثناء الجماع .

٤ ــ عدم الخبرة فى استعماله .

٥ ــ وجود عيب فى الغلاف (٣ر٠٪) وربما كان هذا سبب ارتفاع ثمن بعض الانواع التى يجرى اختبارها بوسائل متقدمة قبل طرحها فى الاسواق .

واغراض استعمال الغلاف الرئيسية هي :ــ

١ ــ الوقاية من الحمل .

٢ ــ الوقايةمنالامراض التناسليةكالسيلان والزهرى .

وللوقاية من السيلان يجب توافــر عــدة شروط كالحرص الزائد وسلامة الغلافالتامة طيلة فترة التعرض وبعدها ، وجدير بالذكــر ان هذه الطريقة التى عمرها الان اكثــر من اربعمائة عام هى الوسيلة الوحيدة الشائعة لمنع الحمل بالنسبة للذكور ، وبالغم من الابحاث المركزة من جميع انحاء العالم لايجــاد بديل شعبى وواسع الانتشار مثلها فما زالت هى الاكثر شيوعا خاصة بالرجل كوسيلة أولى ومساعدة لمنع الحمل .

٣ ــ وقاية الذكر منبعض الآلتهابات الانثوية واوقاتالعادة الشهرية (عادة غربية شائعة).

٢ ــ الحاجز المهبلى Diaphragm

سبق ووصفه ميسينا عام ١٨٨٢ م . ولكن لم يبدأ استعماله الا بعد عام ١٩٢٠ م ووظيفته مزدوجة فهو يعمل كحاجز وقائى وكوعاء لمضاد الحيوانات المنوية ، وتقترب فعاليته مع المادة الكيميائية الخاصة به (جيل او كريم) Gell or Cream من فعالية اللولب الرحمية او الغلاف الذكرى ونسبة الحمل هى حــوالى ٦ ــ ٣٠ سيدة في المائة السنة . وهو يعتمد فى فعاليته الى حد كبير على المريضة نفسها وطريقة الاستعمال بالنسبة لوقت التعرض . وميزته هو انه يمكن للمراة ان تثبته فى موضعه قبل التعرض بمدة طويلة ولذا فهو ليست له صلة مباشرة ولا يتدخل فى عملية الجماع .

ولكن هذه الوسيلة لم تلق التشجيع الكافى من جانب السيدات لاحتياجه للتثبيت (ممكن تدريب السيدة نفسها على تثبيته فى موضعه) كما ان المواد الكيميائية التى تستعمل معه قد يتقززن منها . وجدير بالذكر أن الكثير مــن الاطباء المتدربين على تركيب اللوالب الرحمية ووصف اقراص منع الحمل هم قليلو الخبرة فى تركيب وتشبث الحاجز المهبلى . ويثبت اكبر حجم يمكن للمراة ان تتحمله بدون الم، ومع ذلك تتزحزح الحاجز عن مكانه بفضــل تمدد جدران المهبل اثناء عملية الحماع وبذلك يفقد فعاليته ، وقد يحتاج الحاجز لاستبداله عدة مرات بحجوم اكبر منه . وهناك أربعــة اشكال من الحاجز المهبلى ــ (يراعى عنــد تثبيته ان يغطى عنق الرحم تماما) .

١ ــ الحاجز ذو الملف الزنبركى (Coil Snring Diaphragm) وهو سهل الاستعمال بواسطة المريضة نفسها ، ومناسب للاستعمال العام (ينثنى على محور واحد) .

٢ ــ الحاجز ذو الملف المسطح ــ وهو ايضا سهل الاستعمال .

٣ ــ الحاجز المحدب او المقوس ــ مناسب لحالات عيوب الرحم الوضعية كالرحم المائل كثيرا للامام حيث يأخذ عنق الرحم اتجاها خلفيا .

٤ ــ اما فى حالات ارتخاء الجدران المهبلية فيستعمل حاجز مهبلى على شكل عجلة هودج (Hodge Pessary) .

والحاجز المهبلى لا يصلح ولا يستعمل في حالات السقوط الرحمى الناتج عن ارتخاء عضلات الحوض . او بعض حالات العيوب التشريحية للحوض . وفى هذا الحال يستبدل الحاجز المهبلي بغطاء عنق الرحم .Cervical Cap

والطريقة المثلى للحاجز المهبلى هو تركه لمدة ست ساعات على الاقل بعد التعرض وهي المدة الكافية لتوقف حركة الحيوانات المنوية فى المهبل ــ كما تضاف كمية اخرى من الهلام القاتل للحيوانات المنوية اذا ظل فى المهبل لمدة اطول من ستة ساعات قبل التعرض ، وهذه الارشادات من باب الاحتياط ليس الا .

والحاجز المهبلى غير صالح فى حالات الجماع السريع المتتابع لانه عرضة فى هذه الحالة لأن ينزلق منمكانه ويفقد فعاليته (كما فىالومسات مثلا) .

وقد يحمى الحاجز المهبلى الى حد ما من الاصابة بالامراض التناسلية (ولكن درجة هذه الوقاية غير مؤكدة حتى الآن) .

٣ ــ قاتلات الحيوانات المنوية

(Spermicidal Preporations

هناك انواعتستعمل عادة معالحاجز المهبلى، وانواع تستعمل منفردة كوسيلة قائمة بذاتها لمنع الحمل ، وفائدتها الرئيسية انها تخلق حاجزا كيميائيا يمنع دخول الحيوانات المنوية الى داخل عنق الرحم (Endocervical Canal)

وهذه المواد الكيميائية تتخذ اشكالا مختلفة فهى اما على شكل هلام (جيلاتين) ، كريم ، معجون ، محاليل ، مساحيق ، لبوسمهبلى، مساحيق او اقراص رغوية ولكنها اقتصرت الآن على الرغوة ، الكريم ، الهلام واللبوس ، واستغنى عن الانواع الاخرى ومنذ عام ١٩٦١ استعملت رغوة ايروسولaerosol foamوشاعت حتى تساوت مع اللولب الرحمى فى الاستعمال عام ١٩٧٠ م .

والمادة الفعالة في بعض هذه المركبات هي مادة خلات الفنيك الزئبقية او مواد اخرى ذات فعالية سطحية (Surface Active) وتفضل الكثير منالسيدات استعمال الرغاوى الكيميائية لسهولتها ونظافتها ولا تترك اثرا ذا اهمية بعد الاستعمال ، ونسبة الحمل مع هذه الكيميائيات هي من ٢ ــ ٣٨ حالة حمل/ مائة سنة من الاستعمال ويراعى عند استعمال هذه المركبات ان توضع عميقا فى قناة المهبل وتقوى بكميات اخرى اذا تكرر التعرض ، وفى حالة اللبوس المهبلى يراعى ان توضع قبل التعرض بوقت كاف للانصهار وبفعل حرارة الجسم داخل المهبل اى من ١٥ الى ٣٠ دقيقة قبل التعرض .

ومن التطورات فى هذه المركبات هي ضخها فى المهبل تحت ضغط عال لتوزع بطريقة متساوية على جدران المهبل ، ويمكن لهذا المحقن ان يظل صالحا ايضا بعد التعبئة لمدة اسبوع . وجدير بالذكر ان هذه المركبات الكيميائية صالحة ايضا كوسيلة وقائية من الامراض التناسلية .

استعمالات وسائل منع الحمل التقليدية (الايروسول / الغلاف الذكرى / الحاجز المهبلى)

١ ــ فى الحالات التي لا تستطيع السيدة ان تستعملالوسائل الاخرىاو لتفضيلشخصى.

٢ ــ فى حالات الجماع المتباعد والمتفرق كسفر الزوج لمدد طويلة متعددة كما فى حالات البحارة والجنود واشباههم .

٣ ــ قد تستعمل في بعض الحالات العاجلة (الجماع المفاجيء مثلا) او لعدم تمكن السيدة من مراجعة عيادات تحديد النسل ، او لكراهيتها للوسائل الأخرى .

٤ ــ وقد تستعمل كعامل ثانوى مساعد كان تنسى السيدة قرصا من اقراص منع الحمل او اكتشاف غياب اللولب الرحمى من الرحم فى هذه الحالة يلجأ الزوجان لهذه الوسائل مؤقتا لحين مراجعة مركز تحديد النسل .

ومن واجب الاطباء دائما الا يقللوا من شان هذه الوسائل لان ذلك قد يجعل الزوجين يحجمان عن استعمالها فى بعض الحالات الطارئة مما قد يعرض المراة للحمل . ويجب ان يكون جميع الاطباء العاملين فى مراكز تحديد النسل على علم تام بهذه الوسائل ليستطيعوا افادة مرضاهم وارشادهم على الطريقة الصحيحة لاستعمالها . وجدير بالذكر ان استنباط وسائل منع الحمل المتعددة الاغراض كمضادة للامراض التناسلية والالتهابات المهبلية بجانب الغرض الرئيسي لمنع الحمل قد يؤدى الى زيادة العناية فى تطوير وتحسين الوسائل المهبلية الحالية التي تستعمل فى منع الحمل . كما ان المزيد من النساء ما زلن يفضلن استعمال وسائل منع الحمل البسيطة السهلة المأمونة بالرغم من اباحة الاجهاض فى معظم بلدان العالم الآن .

وسائل منع الحمل الثانوية

١ ــ الغسول المهبلي ــ معروف منذ القدم وذلك بفسل قناة المهبل مباشرة بعد الجماع وهي منتشرة فى الولايات المتحدة اكثر منها فى انجلترا ويستعمل عادة المحاليل المنزلية مثل محلول الخل ــ محلول الشب ــ محلول الملح، حتى الصابون وتستعمل النساء (فى بعض البلدان النامية شراب الكوكا كولا كغسول مهبلي فعال بعد الجماع) وفى الفترة من ١٩٢٥ ــ ١٩٥٥ ثبت أن ٣٥٪ من النساء الامريكيات يستعملن هذه الطريقة .

٢ ــ انواع معينة من الجماع الناقص ــ مثل

١ ــ العزل ــ القذف خارج المهبل (Coitus Interruptus)

٢ ــ منع القذف ــ بالتحكم فى عملية الجماع فلا تصل لدروتها بالقذف Coitus Reservatus

٣ ــ القذف الداخلي ــ بتوجيه الحيوانات المنوية الى المثانة باغلاق قناة مجرى البول بالضغط عليها بالاصبع عند القذف (Coitus Saxonicus)

٣ ــ طريقة الاسفنجة ــ ويمارسها كبار السن من الازواج باستعمال اسفنجة مبللة بمواد قاتلة للحيوانات المنوية او بالصابون او الزيت .

٤ ــ كيس البلاستيك ــ يوضع فى قناةمجرى البول للرجل لتلقى الحيوانات المنوية ، وعيبه انه يسبب التهابات موضعية .

٥ ــ رفع حرارة كيس الصفن ــ على اساس انه بارتفاع درجة حرارة الخصية تتوقف عن افراز الحيوانات المنوية ولكن هذه الطريقة تحت الاختبار وغير مؤكدة عمليا .

٦ ــ فترة الامان Safe Period ــ وفيه يحسب الزوجان الجماع اثناء فترة نزول البويضة فى الدورة الشهرية وهي نظريا تقع حول منتصف الدورة اى فى اليوم ١٤ في دورة من ٢٨ يوما ويحدد وقت الجماع بالفترة المباشرة للعادة الشهرية او قبلها بقليل (فترة

الامان هي اربعة ايام الحيض و٣ أيام بعــده وتسعة أيام قبله .) وفى الدورات الشهرية الاقصى تقصر فترة الامان تبعا لذلك .

ونسبة الحمل فى هذه الطريقة يصل من ١٠ ــ ٢٥ ــ ٣٥ حملا/لكل مائة سنة تعرض وهي نسبة عالية سببها ان وقت التبويض يختلف من سيدة لاخرى ومن دورة لاخرى حتى ولو كانت منتظمة .

رابعا : اتساع حقل منع الحمل ليشمل

١ ــ التعقيم Sterilization

٢ ــ الاجهاض المتعمد (Induced Abortion)
(التعقيم) Sterilization

التعقيم البشرى هو الخطوة النهائية لمنع الحمل بطريقة فعالة ، وفى السنوات الاخيرة اخذ التعقيم يلعب دورا رئيسيا فى برامج منع الحمل فى كثير من بلدان العالم . فهو مباح قانونيا فى جميع انحاء الولايات المتحدة (في الخمسين ولاية) ولا يشترط الا موافقة المريضة والجراح على اجراء هذه العمليــة الجراحية شأنهافىذلك شأنالعمليات الجراحية العادية والاختيارية ((Elective)) والتعقيم هو الوسيلة الوحيدة التي تدمر قدرة الفرد ووظيفة الطبيعة فى الانجاب والتوليد Reproductive Functionوهو يطبق على الذكر والانثى على السواء .

عمليات التعقيم الخاصة بالانثى

١ ــ ربط أو قطع اجزاء من بوقا فالــوب او استئصال البوق كله . وهذه العمليات تجرى اما عن طريق البطن أو المهبل أو المنظار البطني (Laparoscope) وهي احــدث وأسرع الوسائل المتبعة الآن ، ونسبة الحمل لا تتجاوز (١/١٠٠٠) .

٢ ــ استئصال الرحم ((Hysterectomy)

وغالبا ما يستأصل الرحم لأسباب مرضية أساسية كتراخي وسقــوط جدران المهبــل وعضلات الحوض مع ما يصاحبه من سقوط للرحم والمثانة . ومن الناحية النظرية يعتبر الوسيلة المثلى لمنع الحمل برغم ما يصاحبة من مخاطر جراحية مرتفعة ــ وخاصــة فى النساء المنجبات لعدة مرات حول سن الثلاثين حيــث تكــون عوارضــ الارتخاء العضلــي ومضاعفاته هي شغل المراة الشاغل فهو يؤمن لها الوسيلة الكاملة لمنع الحمل بالاضافة الى علاجها وشفائهامنمضاعفات الارتخاء الحوضي ومنع امراض الرحم فى المستقبل ، وايضا هي الحل النهائي عند ظهور بعض المضاعفات بعد عمليات التعقيم بواسطة ربط الابواق والتي تبلغ حوالي ٥٠٪من طرقعلاج هذه المضاعفات (أى يستأصل الرحم فى ٥٠٪ مــن حالات مضاعفات ربط الأبواق) ومنع ذلك فما زال الاتجاه حتى الان ــ هو الى عدم اللجوء لهذه العملية الخطيرة بغرض منع الحمل والتعقيم فقط . وهذه العملية تجرى اما عن طريــق البطن او المهبل (Vaginal)

٣ ــ الاشــعاع

بواسطة الراديوم أو الاشعة الســـينية العميقة وهذه الطريقة تؤدي الى حالة تشبه سن اليأس ولكن بطريقة صناعية وهــــذه تؤدى الى التعقيم ولكن تحمل فى طياتها خطر التحول السرطانى وليس لها مكان فى حقل التخطيط الاسرى الان .

ب ــ التعقيم في الذكر

١ ــ ربط وقطع الحبل المنوى (Vasectomy)

وهذه شائعة فى الهند وتعتبر الوســيلة الاكثر ذيوعا فى منع الحمل وتحديد النسل فى هذا البلد ذى العدد السكانى الهائل .

٢ ـ استئصال الخصيتين (فكرة غير مقبولة على جميع المستويات)

وعموما فان فكرة التعقيم فى الذكر لهـا مؤيدون ومعارضون ، ومعارضوها يستندون الى كونها لا تؤدى فى النهاية الى تخفيض عدد السكان ، حيث انه من المستحيل عمليا تعقيم الرجال فى مجتمع حديث ـ مثل الذى نعيش فيه الآن حيث يتوافر ويباح فيه الاتصال الجنسى بكل الطرق ـ سوف يكفى للحفاظ على عدد السكان ، اما المؤيدون فانهم يحبذونه على اساس انه وسيلةبسيطةومأمونةالعواقب جراحيا مما يؤهلها لتكون طريقة فعالة فى منع الحمل .

الاعراض الجانبية لعمليات التعقيم

(لا تؤدى الى اية اعراض في معظم الحالات)

١ ـ ازدياد الطمث (Monorrhagia) قـد تصاحب ربط الابواق وقد استدعىاستئصال الرحم فى ١٠ ٪ من حالات ربط الابواقلاسباب متفرقة .

٢ ـ بعد ربط الحبل المنوى لوحظ ارتفاع طفيف فى نسبة مضادات الحيوانات المنوية فى الدم ، ولكن افراز الحيوانات المنوية أو الهرمونات الجنسية لم يتاثر بعملية الربط ، وظل على معدله الطبيعى فى الجسم .

٣ ـ المخاطر الجراحية ـ

معدل الوفاة بعد هذه العمليات منخفض جدا حتى يكاد ينعدم فى بعض المراكز ويقل عن ١/١٠٠٠ ، علما بأن الكثير من عمليات ربط الابواق يجرى علـى مريضـات بالقلب او الرئتين ممـا يجعل الحمل ايضـا عبثا وخطرا بالنسبة لهن وهنا تتوازى المخاطرتان ، وسبب الوفاة قد يكون المخدر او الالتهابات.

٤ ـ الاضطرابات النفسية ـ الناتجـة عـن الشعور بالندم او الاحساس بعدم الرضا ، او الاعراض الاكثر شدة كالشعور بالنقص والضعـف العـام والضيـاع والتمـزق ، فهذه الاعراض تكون اوضح بـين المرضـى العصابيين من الاصل قبل اجـراء العملية ولديهم استعداد مرضي لمثلهذهالاضطرابات. كما تكون اوضح اذا اجريت بسبب طبي قاهر كمرض خطـير يجبر المراة على اجراء هـذه العملية وتكون اقل فى الحـالات التـي تطلب المريضة أجراءها من طبيبها بسبب كبر حجم عائلتها .والتعقيم سلاح قوى وخطير فى يد كل من الرجل والمراة اذا قصدا ايذاء نفسيهما او غيرهما .

ويختلف رد الفعل فى المراة عن الرجل ، ففي المراة تزداد رعايتها وتعاطفها مع أولادها وقـد تتخذ موقفا عدائيا مـن العلاقات الزوجيـة (الجنسية) وربما تشعر بالطمث المؤلـم . وبالنسبة للرجال فقد يتولد لديهم الخوف من العنة (Importence) ولكن سرعان ما يتعود الرجل الطبيعي على ذلك ويتكيف مع الوضع الجديد .

ومن اسباب القلق لدى الزوجين بعد عملية التعقيم هو الخوف من فقدان الاطفال بسبب الوفاة او اتجاه احد الشريكين للزواج من جديد لفرض الانجاب . وهذه عوارض مؤقته يطغى عليها الشعور بالراحة والامان والتخلص مـن عقدة الحمل الغير مرغوب مما يزيد فى ترابط الزوجين ويقلل من فرص الخيانة الزوجيـة بسبب الاشباع والارتواء .

٥ ـ الفشل ـ جميـع القنوات فى الجسـم بما فيها قنوات فالوب والحبل المنوى عرضة لان ينفتح مجراها من جديد ، ونسبة الحمل بعد ربط الابواب تتراوح مـن ½ ـ ١½ ٪ ويعتمد على نوع العملية المختارة وطريقـة ووقت اجرائها .

اعادة الخصوبة بعد عمليات التعقيم

صعبة ونتائجها غير مشجعة وتعتمد على مهارة الجراح وخبرته والطريقة التي يتبعها ، وأولا وقبل كل شيء على نوع العملية التي اجريت اصلا للتعقيم .

٢ ـ دور الاجهاض فى برامج منع الحمل

(Abortion)

ان ارتفاع نسبة الاجهاض فى المجتمعات الغربية الان دليل واضح على انه لا توجد طريقة واحدة فعالة بنسبة ١٠٠٪ لمنع الحمل، وقد قدرت تقارير لجنة الخصوبة الاهلية الامريكيةفى الخمس سنوات المنتهية عام ١٩٧٠ بأن حوالي ٢/١ ٢١ مليون طفل ولدوا على غير رغبة والديهم وبسبب فشل وسائل منع الحمل .

ومن المعروف ان الجنين عندما يبلغ مرحلة النضج القانونية (٢٨ اسبوعا) فان جميع القوانين تحميه وتضمن له البقاء حتى الولادة.

ولكن الأمر يختلف بالنسبة لجنين فى الأسابيع الأولى ، فبالرغم من أن الاجهاض كان يعتبر أمرا محرما منأيام **ابو قراط** حتىميثاق جنيف ، ويجب قصره فقط على الاسباب الطبيعة البحتة الا ان القوانين التي سنت فى معظم بلدان العالم مؤخرا اصبحت اكثر اتساعا وفضفضة بالنسبة لتنفيذ الاجهاض ، بل قد ابيح كلية في بعض البلاد (كاليابان مثلا) واباحة الاجهاض يعتمد على الحجج الآتية : ـ

١ ـ الغاء الاجهاض الاجرامي .

٢ ـ رفع الاعباء المالية والاقتصادية عن كاهل المراة غير المتزوجة التى تسببها ولادة طفل غير شرعي لها .

٣ ـ تجنب ولادة اطفال غير مرغوب فيهم مما يؤدى الى اهمال ذويهم لم .

٤ ـ تخفيض عدد الاطفال غير الشرعيين فى المجتمع .

٥ ـ اباحة وسلية اضافة من وسائل منع الحمل والتخطيط الاسرى .

ولكن حتى الان مازال هناك جماعاتمتدينة تعارض الاجهاض وتعتبره وسيلة لا اخلاقية غير مقبولة وما زالت هناك (بحمد الله) الكثير من البلدان التي تمنع الاجهاض بقوة القانون او تبيحه فقط فى حالات الضروره الطبية . وبذلك انقسم العالم الى ثلاثة اجزاء بالنسبة للاجهاض .

ا ـ قسم يحرمه الا فى الحدود الطبية الضيقة .

ب ـ قسم يوسع الاباحة الطبية لتكون اشمل واعم .

ج ـ قسم يبيح الاجهاض على اسس اجتماعية واقتصادية .

الوسائل المتبعة فى الاجهاض المتعمد

(Induced Abortion) ومضاعفاتها :

التحريض الطبي / توسيع عنق الرحم / زرع مواد غريبة فى الرحم / توسيع وكحت الرحم / الشفط والكحت / تفريغ السائل الامينيوس عن طريقة البطن / حقن مواد فعالة فى السائل المينوس / العجائن المجهضة / عقار البروستا جلاندين الحديث / فتح الرحم مهبليا او بطنيا / استئصال الرحم ، نسبة الوفاة ١او٠/٠٠٠ ـ **المضاعفات** ـ النزيف والصدمة العصبية ـ بقايا حمل يحتاج لاعادة العملية ـ تمزق عنق الرحم ـ خرق وانفجار الرحم ـ الالتهاب ـ انسداد الشرايين ـ اضطرابات عصبيةبعد مدة مناجراء العملية ـ مضاعفات متاخرة كالاضطرابات الحيضية ، والعقم (= ١ ـ ٢٪ من الحالات) ـ الاجهاض

ـ انفجار الرحم ـ الحمل خارج الرحم ـ مضادات عامل روسوس/مضاعفات خاصة بعنق الرحم كالناصور والتشوهات والالتهابات المزمنة .

وسائل الاجهاض الاجرامي ومضاعفاته
(Criminal)

حقن الماء والصابون او الديتول في الرحم ـ تعاطي اقراص الحديد والكينين والارجوت **المضاعفات :** كالنزيف ـ انسداد الشرايين الهوائي او السائلي ـ سيولة الدم ـ خرق الرحم ـ التلوث الميكروبي والالتهابات وخاصة بالميكروبات اللاهوائية ـ العقم ـ التسمم ـ الوفاة ـ ونسبة الوفاة بسبب الاجهاض الاجرامي هي ضعف نسبتها بسبب الولادة العادية .

والاجهاض عموما يشكل ½٪ من جميع الوفيات في المجتمع .

•••

الجوانب الطبية لوسائل منع الحمل

ان الطبيب الذى يشرف على تنفيذ برامج الحمل ويشترك فيها سوف تقابله بالضرورة كثير من الحالات ذات المجالات المتعددة . فهو سوف يصادف حالات مختلفة من أمراض النساء ، كما سيدلي بدلوه فى حقل الطب الوقائي وقد يجد نفسه مضطرا لحل كثير من مشاكل الزواج والجنس واحيانا الطب الاجتماعي Social Medicine .

١ ـ امراض النساء

أ ـ المهبل وعنق الرحم ـ يجب البدء فى معالجة اية التهابات فطرية أو ميكروبية قبل استعمال اقراص منع الحمل لأنها قد تزيدها سوءا،وفى بعض انواع الالتهابات كتلك المسببه بواسطة الفطر المسمى، Trichomonas Veginalis يجب معالجة الزوج فى نفس الوقت لانتقال المرض بواسطة الجماع ويمكن اعتباره نوعا من الامراض التناسلية .

التقرحات الموجودة فى عنق الرحم Cervical erosions والتهابات عنق الرحم يجب علاجها ، كذلك يستأصل اى ورم عنقودى به Cervical polyp

ب ـ الامراض التناسلية V.D. ـ تعالج كل حالة يثبت او يشتبه فى كونها مرضا تناسليا فى المركز المتخصص لذلك حيث تتوافر الخبرة والمهارة اللازمة للعلاج الكامل الناجع ، لأن العلاج الناقص على يد غير متخصص له نتائج خطيره على المريضة وعلى المجتمع .

ج ـ حالات اخرى ـ قد تكتشف عرضا اثناء فحص المريضة او من خلال تاريخها المرضي ، وفي هذه الحالة تحال المريضة للمكان المتخصص فى علاج تلك الحالات سواء اكانت تشوها خلقيا او حتى ورما سرطانيا . وبعد الولادة تستكشف رغبة المراة فى تحديد النسل، كأهم غرض فى رعاية ما بعد الولادة Post. Natal Care

٢ ـ الطب الوقائي

حسن توقيت الفحص الدورى والمتابعة للحالات التي تتعاطى وسائل منع الحمل المختلفة يشكل جزءا هاما من الطب الوقائي . ولكن لا يجب ان يكون ذلك بطريقة تسبب قلقا او ازعاجا للمراة . وذلك ينطبق على اقراص منع الحمل فطالما قد استقرت المراة وارتاحت مع نوع معين من الاقراص فلا داعي لمتابعتها على فترات متقاربة لمدة طويلة ، فمن المعلوم أن الجلطات الدموية والانسداد الشرياني لا يمكن التنبؤ بها ـ كما ان زيادة وزن الجسم عن

الحد المعقول سوف يدفع بالمراة لمراجعةطبيبها لاستشارته وتبديل نوع الاقراص . أما مــع اللولب الرحمي فالموضوع يختلف فيجب أعادة فحص المراة دوريا على فترات متباعدة بعــد تركيب اللولب للاطمئنان على ثباته فى موضعه أو لازالته واستبداله بوسيلة اخرى فى حالة المضاعفات التي قد يسببها .

لذا فيكفي ان تراجع المراة التي تستعمل اقراص منع الحمل مرة كل ٦ شهور، والافضل مرة كل سنة ــ وفى كل مرة تؤخذ عينات من خلايا المهبل وعنق الرحم ويفحص الثدي بدون اثارة شكوك المراة. ولكن مثل هذهالاحتياطات الوقائية واجبة . فمن المعلوم ان حوالي ثلث حالات الوفاة فى النساء ما بين ١٥ ــ ٤٤ سنة من العمر تسببها الاورام المختلفة Neoplasia ولا يجب ان تكون الاعراض الجانبية لوسائل منع الحمل ســببا لجذب الانتباه بعيدا عن الاحتياطات السليمة الواجب اتخاذها نحــو التشخيص المبكر للاورام السرطانية ، فــان اكتشاف ورم صغير فى الثدى أو العثور على خلايا مشتبه فيها فى عنق الرحم قد يؤدى الى انقاذ حياة مريضة .

ومن المعروف أن معدل الاصابةبسرطانعنق الرحم فى مرحلته الاولى insitu يبلــغ ذروته بعد ١٠ ــ ١٩ سنة من الجماع الاول ، فنسبة سرطان عنق الرحم المبدئي Pre-Clinical تكون اقل من ٠.٥ ٪ فى النساء ما بين ٢٠ ــ ٢٥ سنة من العمر ترتفع هذه النسبة الى ١٪ فى النساء ما بين ٤٠ ــ ٤٥ سنة من العمر .

ولهذا ينصح بعمل مسح للنساء ما بــين ٣٥ ــ ٦٠ سنة من العمر .

٣ ــ الحمل المبكر وطرق تشخيصه :

يليهفيالاهمية الاضطراباتالحيضية المختلفة للمراة الناتج عن التغييرات البيئية او النفسية او اضطرابــات الغــدة الدرقيــة او بعــض الالتهابات .

هــذه الحالة قــد تصادف الطبيب الــذى يشرف على وسائل منع الحمل وعليه يقع عبء الوصول للتشخيص الصحيح قبل ان يصف الوسيلة اللازمة لمنع الحمل، وهذا يتم بالفحص الاكلينيكي ابو بواسطة اختبرات الحملالمختلفة او بظهور اعراض الحمل المبكرة . واختبارات الحمل الحديثة تصدق فى حوالي ٩٥٪ مــن الحالات ويجب اجراؤها اذا اشتبه فى الحمل ولايجب وصف اى طريقة لمنع الحمل قبل استبعاد الحمل .

٤ ــ مشاكل الجنس والزواج .

قديجدالطبيبنفسهمضطراللدخولفيمشاكل الجنس والزواج التى تعترض سبيلالزوجين اللذين لجآ اليه لتلقى النصيحة بخصوصمنع الحمل طبعا فى حدود طاقته العلمية وامكانياته وتداخل هذه المشاكل فى هدفه الاســاسي فى تحديد النسل ووصف الطريقة المناسبة لمنع الحمل ، ويراعى جانب الحذر فى تناول هذه المشكلات، وهناك مشكلة غير المتزوجات والتي تبحث وتناقش بحرية اكثرفيالمجتمعاتالغربية المتقدمة بخلاف مجتمعاتنا الشرقية المحافظة المغلقة على هذه المشاكل ، ونادرا ما تصل الى مراكز تحديد النسل التي لا تقــدم العــون الا للمتزوجات .

٥ ــ مشاكل العقــم

قد يجد الزوجان نفسيهما عاجزين عــن الانجاب بعد التوقف عن استعمال موانعالحمل المختلفة التي استعملاها بصورة مستديمة فى السنوات الاولى للزواج ريثما تستقر بهمــا الحياة ويتهيآن لانجاب الاطفال ــ مثل هذه المشاكل قد يجابهها الاطباء بين قلة منالازواج،

اى من اهم اسباب الانقطاع المفاجي للحيض المنتظم عند المراة الطبيعية (سواء متزوجة أو غير متزوجة) هو الحمل .

وهــذا ((**العقم الاجبارى**)) يختلف عن العقم الاختيارى الذى يتم بوسائل منع الحمل وينتهي بانتهاء استعمال هذه الوسائل .

وقد وجد ان ٥٠٪ من حالات العقم الاجبارى سببها الزوجة .

و ٣٠٪ من الحالات يكون الزوج هو سببها.

و ٢٠٪ الباقية تكون المسئولية مشتركة بين الزوجين وقد يحدث الحمل مع طرف آخر بالنسبة للزوجين .

هذا عرض سريع للجوانب المتعددة التى يجب اخذها فى الاعتبار وحل مشكلاتها علــى قدر الاستطاعة قبل او اثناء او بعد ممارسة منع الحمل .

●●●

النواحى القانونية لمنع الحمل

تأخذ القوانين المتبعة في كثير من بلدان العالم اتجاها من ثلاث : ــ

١ ــ القيم الاجتماعية السائدة فى الاجيال السابقة .

٢ ــ اتجاهات المجموعة الحاكمة فى البلد .

٣ ــ اتجاهات تتماشى مــع الاحتياجات الحقيقية للمجتمع .

وبالنسبة لوسائل منع الحمل فهذه الاتجاهات تنسحب عليها ايضا ، ولذا نجد ان الوسائل المتبعة ونظرة المجتمع تجاهها تختلف من دولة الى اخرى ، فالولايات المتحدة واوروبا الغربية تأخذ الاتجاه الاول ، اما الدول الاشتراكية فى اوروبا وآسيا فتأخذ الاتجاه الثاني ، وبعض الدول النامية (كالهند واليابان) فتأخذ الاتجاه الثالث ، وعلى الطبيب الذى يمارس منــع الحمل فى بلد ما ان يتأكد من القوانين المتبعة فى هذا البلد وان يحتفظ لنفسه بســجلات واضحة مفصلة وخاصــة لعمليات التعقيــم والاجهاض الطبي التى اجراها .

فى انجلترا

تطورت قوانينها تجاه منع الحمل من قانون عام ١٨٥٧ الذى يمنعها الى قانون سنة ١٩٣٠ الذى يحددها الى قانون سنة ١٩٥٤ الــذى يقيد الاعلان عنها الى قانون سنة ١٩٦٧ الذى اباح جميع وسائل منع الحمل بما فيها الاجهاض على أسس اجتماعية ونفسية لاول مــرة فى بريطانيا .

ولكن قانون المهنة الطبية في انجلترا مازال يشترط ان تكتب المادة الفعالة بشكل واضح على علبة الدواء مــن الاحتياطــات لحمايــة المستهلك .

فى الولايات المتحدة

منذ عام ١٩٣٠ كان السائد فى الولايــات المتحدة هو قانون عام ١٨٧٣ الذى كان يقف موقفا عدائيا من وسائل منع الحمل . ولكن عدلت هذه القوانين تباعا حتى ابيحت هــذه الوسائل . ويتحكم فى توزيعها وبيعها قوانين اتحادية عامة وقوانين خاصة بكل ولاية مــن ولاياتها الخمســين وتتفاوت هــذه القوانين الخاصة بالولايات المتحدة فى درجة اباحتهــا لممارسة هذه الوسائل ولكن كلها لا تدخل اطلاقا فى حرية المهنة الطبية الكاملة فى ممارسة وسائل منع الحمل .

ولكن هيئة الدواء والاغذية الامريكية تراقب باستمرار كل هذه الوسائل وتشترط فيهــا شــروطا معينــة لضمان ســلامتها وفعاليتها بالنسبة للشعب الامريكي ، كما يكتب التحذير من بعض المضاعفات الجانبية على ظاهر العلبة بوضوح (كتجلط الدم) .

البلاد الاخــرى

يباح منع الحمل فى معظم دول العالم الآن ، ولكن تختلف درجة المشاركة الحكومية فيه من دولة لاخرى .

وسائل منع الحمل وقوانين الاحتكار والامتياز.

من المؤسف ان كثيراً من وسائل منع الحمل تقع تحـت طائلـة الاحتكار التجارى ، فمن المعـروف أن تكلفـة اللوالب الرحمية تبلـغ ١ ــ ٢ ٪ فقط من ثمن بيعها للمستهلك ، لذلك لا يجب احتكار هذه الانواع ويجب ان تتدخل الحكومات لتوفيرها مجانا لكافة افراد الشعب على كل المستويات اذا اريد تحقيق الفائدة المرجوة منهـا .

التعقيم الاختيارى

باسـتثناء الهنـد وبورتريكو حيث يبـاح ويشجع التعقيم الاختيارى بواسطة الحكومات المعنية فان القانون فى جميع دول العالم يقف منها موقف غير محدد بالنسبة لعمليات التعقيم التى كانت تجرى فى الاصل لاسباب طبية ثم ادخلت بعد ذلك كوسيلة مـن وسائل منـع الحمـل .

الاجهــاض

ــ ابيح فى انجلترا عام ١٩٦٧ لاسباب غير الحفاظ على حياة المراة .

ــ فى الولايات المتحدة حتى عام ١٩٦٧ لم تكن هناك غير اربـع ولايات تبيـح الاجهاض لأسباب غير الحفاظ على حياة المراة .

ثم بدات النظرة تتغير ولكن مازالت تبيح الاجهاض فى الحدود التالية : ــ

١ ــ اذا كان استمرار الحمل يضر بصحـة او عقل الام .

٢ ــ اذا كان الطفـل سيولد بعجـز خلقي شديد فى جسمه او عقله .

٣ ــ اذا كان الحمل ناتجا عن الاغتصاب Rape او الخديعة او الحيلة .

ــ أما فى الدول الاخرى فما زال الاجهاض لغير الاسباب الطبية محرما وممنوعـا بقوة القانون ــ كما في الدول العربيــة ــ وبمرور الزمن يزداد عدد الدول التي تبيح الاجهاض قانونيا استجابة للضغط المستمر على الحكومات لتغير هذه القوانين .

ــ البلاد العربية ودولة الكويت ــ

كل البلاد العربية ترفض اباحة الاجهاض قانونا حتى الآن وتعتبره معارضا للشريعـة الاسلامية التي تدين بها كل هذه الدول .

ففي الكويت على سبيل المثال تقضي المادة (١٧٤) من قانون الجزاء على توقيع عقوبة الحبس او الغرامة على كل من اجهض حاملا سواء برضاها او بغير رضاها كما تنص المادة (١٧٦) من نفس القانون على عقاب الحامل التي تجهض نفسها او سمحت للغير بأجهاضها. وتعاقب المادة (١٧٧) كل من يتخذ من وسائل الاجهاض سلعة يتجر بها ، وتنص المادة ١٨ من القانون رقم ٣٣ لعام ١٩٦٠ بوجوب امتناع الاطباء عن اى شيىء من شانه اجهاض امراة حامل ويمنعهم من اجراء عمليات الاجهاض مهما كانت الظروف . ومع ذلك فقد اباح للطبيب المتخصص فى امراض النساء والولادة ان يقوم بعملية الاجهاض اذا كان يعتقد لاسباب فنية ان هذه العملية ضرورية للحفاظ على حيـاة الحامـل .

●●●

منع الحمل والشريعة الاسلامية

الفقهاء الذين يعارضون الاخذ بوسائل منع الحمل يعتمدون على النصوص والادلة الاتية : ــ

١ ــ النص القرآني الكريم « ولا تقتلوا اولادكم خشية أملاق نحن نرزقكم وأياهم »

٢ ــ النص القرآنيالكريم «رزقكم فى السماء وما توعدون »

٣ ــ النص القرآنى الكريم « وما من دابة فى الارض الا على الله رزقها » .

٤ ــ الحديث النبوى الشريف « تناسلوا تكاثروا فانى مباه بكم الامم يوم القيامة » .

٥ ــ سئل الرسول (صلعم) عن العزل فقال هو الواد الخفي .

أما الفقهاء الذين يؤيدون الاخذ بوسائل منع الحمل (تحت ضغط الظروف الاجتماعية والاقتصادية) فهم يعتمدون على الاتي : ــ

١ ــ سئل الرسول (صلعم) عن العزل فلم يأمر به ولم ينه عنه .

٢ ــ وجاء رجل يسأل عن جارية له هل يعزل عنها فأجابه « أعزل عن الجارية وسوف يأتيها امر الله » . ومعنى هذا الحديث الشريف ان قضاء الله واقع سواء أخذ بوسائل منع الحمل ام لم يؤخذ . فهي لا تتعارض مع قضاء الله .

٣ ــ وأثر عن علي بن ابى طالب كرم الله وجهه قوله « لو كان الفقر رجلا لقتلته » .

وكثرة العيال من اهم اسباب الفقر .

٤ ــ اباحت الشريعة الاسلامية للمراة ان تمتنع عن الحمل اذا كان يضر بجمالها ، وهناك اسانيد من السنة على ذلك ، ومن باب اولى ان تبيح لها ايضا الامتناع عن الحمل اذا كان يضر باقتصاد الاسرة او دخلها المحدود .

هذه الآراء الفقهية المختلفة ان دلت على شيىء فانما تدل على الحاجة الملحة لعقد مؤتمر اسلامي جامع يشمل علماء المسلمين من كافة الاقطار ومن مختلف الفرق والآراء لوضع بيان شامل موحد فى موضوع منع الحمل .

وسائل منع الحمل الحديثة التي تستعمل الآن

١ ــ قيد الاستعمال الآن الاقراص التي تحتوى على هرمون البروجستوجين منفردا بدون الايستروجين لتجنب الاثار الجانبية الضارة التى يسببها الاخير (وأهمها اثره على تجلط الدم والانسدادات الشريانية) Minipill

والهرمون الفعال فى هذه الامراض من مشتقات هرمون البروجستوجين مثل هرمون الميجسترول ١/٢ مجم نورجستريل (٠٫٠٥ مجم) أو نورايثيسترون (٠٫٣٥ ــ ٠٫٥ مجم) وتؤخذ حبه واحدة يوميا باستمرار طيلة الدورة الشهرية واثرها اساسا على الافراز المخاطي لعنق الرحم فيجعله لزجا لدرجة لا تسمح للحيوانات المنوية باختراقه .

٢ ــ تؤثر كذلك على الغشاء المخاطي الداخلي للرحم فلا يتاثر ولا يستجيب للبويضة الملقحة وليس لها تاثير على عملية التبويض . وقد ينتج عن استعمالها حالات من الحمل خارج الرحم ولكن هذا نادر الحدوث .

كما ان النزيف المهبلي المتقطع اثناء الاستعمال شائع الحدوث (حوالي ٣٠٪ من

الحالات) Break through bleeding
وقد يصاحبه حالات من الطمث الشديد Menorrhagia هذا بالاضافة الى الاعراض الجانبية الخاصة بهرمون البروجستوجين سالفة الذكر . ونسبة الحمل مرتفعة من هذا النوع وتبلغ ٤ ـ ١٢/امراة فى ١٠٠ سنة من الاستعمال وعلى الاقل ٢٪ نسبة فشل فى العام .

٢ ـ الهرمونات ممتدة المفعول HormoneDepots

لكي يُتَجنَّب الحاجة لتعاطي قرص كل يوم بدىء فى استعمال اقراص ذات مفعول يمتد على مدى شهر باحتوائها على الهرمونات الممتدة المفعول . كهرمون كونيسترول ٢ مجم ، وهرمون كوينجسترول ٥ مجم ولكن اوقف استعمال هذا النوع واستبدلت بأقراص تحتوى على هرمون البروجستوجين ممتد المفعول منفردا وهي تستعمل فى الاماكن المتخلفة فى العالم ويعطى بواسطة الحقن العضلي وتحتوى على جرعات كبيرة ١٥٠ ـ ٢٠٠ مجم من عدة مركبات من هذا الهرمون (طويلة الاثر) . هذه المركبات تسيطر على الحمل ولكن قد تسبب بعض النزيف المهبلي اثناء الاستعمال كما يذهب تماما بالدورة الشهرية وقد تسبب وقفا تاما للعادة الشهرية Amenorrhoea اذا استعملت برغم ظهور هذه الاعراض ، واحسن وقت لاستعمالها هو لحماية المرأة فى الثلاثة اشهر التى تعقب الولادة حيث لا يهم النزيف المهبلي وحتى تتمكن المرأة من استعمال وسيلة اخرى كاللولب مثلا ولتخفيف اثر الاقراص العادية على الرضاع .

٣ ـ قرص الصباح التالي Post Coital Pill

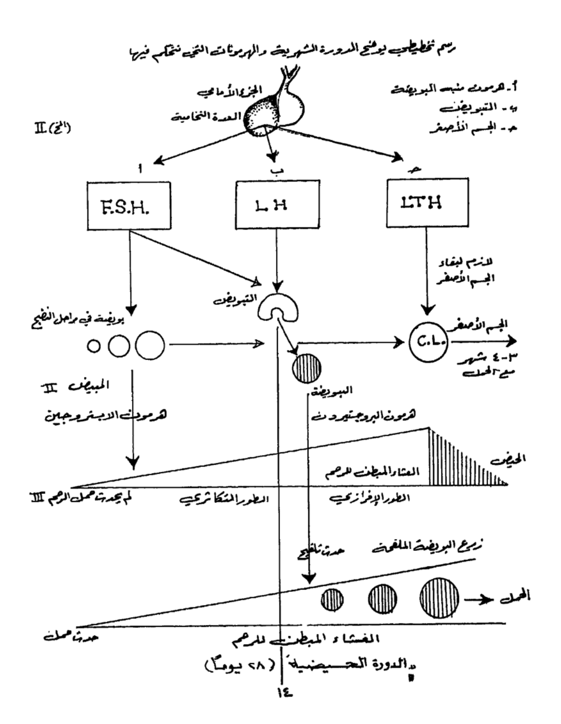
ويعني القرص الذى يؤخذ بعد عملية الجماع لتجنب الحمل . وقد وجهت الابحاث التي كانت وما تزال تجرى ـ وجهتها نحو الحالات التي يراد منها تجنب الحمل بعد حدوث التعرض بايجاد العامل أو العقار الذى يمكنه تدمير البويضة الملقحة او يمنع زراعتها فى الرحم ، وقد اجريت ابحاث على حيوانات التجارب باعطاء جرعات كبيرة من هرمون الايستروجين يوميا لمدة ٤ـ٦ يوم ، ولكن مثل هذه الجرعات الكبيرة تسبب القيء وفاعلية هذه الطريقة مشكوك فى أمرها فلو لم يحدث الحمل ونزل دم الحيض عقب استعمالها فمن المستحيل معرفة السبب هل هو من الاقراص او من الصدفة المحضة ، واذا حدث الحمل قد يتأثر الجنين ويصاب بالضرر من هذه الجرعة الكبيرة من الهرمونات . ولكن مكانها الوحيد هى بعد عملية الاخصاب حيث يعطى على أمل وليس على ثقة من تدمير هذا الحمل .

٤ ـ مضادات الهرمونات Antihormones

الابحاث مستمرة ولم تتوقف منذ سنوات عديدة لاكتشاف عقار ـ غير الهرمونات ـ يمنع عملية التبويض من المبيض ، وقد عثر حتى الان على مضادات هرمونات الغدة النخامية LH - RH ومازالت تجرى التجارب حتى الان على حيوانات المعامل فى هذا الحقل .

٥ ـ المناعة الطبيعية واستغلالها
Immunological Methods

أمكن تدمير خلايا الخصية فى الحيوانات بواسطة حقن مركبات خلاصة الخصية وبالتالي تدمير الحيوانات المنوية . وهناك بعض الدلائل ان هذه النتائج يمكن الحصول عليها فى الانسان ولكنها غير عملية حتى الان


رسم تخطيطي يوضح الدورة الشهرية والهرمونات التي تتحكم فيها
الجزء الأمامي
الغدة النخامية
II (المخ)
أ- هرمون منبه البويضة
ب- التبويض
ح- الجسم الأصفر
أ
ب
ح
F.S.H.
L.H
LTH
لازم لبقاء الجسم الأصفر
التبويض
بويضة في مراحل النضج
الجسم الأصفر
C.L.
٣-٤ شهور من الحمل
المبيض II
البويضة
هرمون الاستروجين
هرمون البروجستيرون
الحيض
الغشاء المبطن للرحم
لم يحدث حمل الرحم III
الطور التكاثري
الطور الإفرازي
زرع البويضة الملقحة
حدث تلقيح
الحمل
حدث حمل
الغشاء المبطن للرحم
الدورة الحيضية (٢٨ يوماً)
١٤

وقد تكون ضارة اذا كانت عملية التدمير هذه جزئية ولم تقض على كل الحيوانات المنوية (حيث تبلغ اعدادها بمئات الملايين) كما ان تجارب حقن المراة بخلاصة المني لتعقيمها باءت كلها بالفشل .

الابحاث الحديثة والحاجة لتطوير وسائل منع الحمل :

ان نسبة الاجهاض المتعمد العالية ، بالاضافة الى الاعداد الكبيرة من الحمل السهو والاطفال غير المرغوب فيهم الذين يقذف بهم الى مجتمع معاد لهم كل عام بالملايين اثبتت أن الحاجة مازالت ملحة الى وسيلة متكاملة حديثة لمنع الحمل بالرغم من وجود الاقراص واللولب والطرق الاخرى ، وهذه الحاجة الى تطوير الابحاث وجهت انظار الباحثين الى فهم اعمق واكبر للعمليات الحيوية المعقدة المتصلة بوظيفة الانجاب والتكاثر الانساني .

طرق خاصة بالرجال :

١ ـ طريقة الهرمون المزدوج المضادة للحيوانات المنوية ـ (بمنع تكونها) وهي تعطى بالفم او بالحقن او بزرع كبسولات تحت الجلد Implants . وتعتمد هذه الطريقة على زرع هرمون الذكورة Androgen بواسطة كبسولات تحت الجلد يستمر تأثيرها على الجسم لمدة عام او اكثر وهذا يساعد بواسطة حقن هرمون البروجستوجين اسبوعيا في نفس الوقت .

٢ ـ طريقة الهرمون الذي يحقن ثلاث مرات في السنة :

وقد جرب في هذه الطريقة على الاقل ثلاثة انواع من هرمون الذكورة ومشاكل هذه الطريقة التي يجب التغلب عليها هي أنها تسبب ضعف الرغبة الجنسية او فقدها او تضخم الثدي في الرجل Gynaecomastia عند استعمال هرمون البرجستيرون كذلك الخوف من المخاطر التي قد تعرض الجهاز القلبي الدوري للمضاعفات . وبرغم هذه المشكلات فقد ثبت انه بالامكان منع تكون الحيوانات المنوية مؤقتا Azospermia بواسطة التحكم في افراز الغدة النخامية (نفس الفكرة المتبعة في اقراص منع الحمل للنساء) .

٣ ـ طريقة مضاد هرمون الذكورة Antiandrogen بالفم او بزرع كبسولات تحت الجلد (او في الخصية نفسها):

هذه المركبات تمنع نضج الحيوانات المنوية في مجمع المني في الخصية Epididymes فلا تتحرك بطريقة طبيعية وتسبب بذلك العقم المؤقت من غير فقد للقدرة الجنسية . وتجرى الابحاث الآن على متطوعين يتعاطون هذه المواد بالفم يوميا .

٤ ـ ربط الحبل المنوي ربطا مؤقتا بواسطة مشابك قابلة للخلع Removable Clips

وهذه يمكن استخراجها وازالتها بعد انتهاء الحاجة اليها ، ولكن لم تتوصل الابحاث الى النوع المناسب من هذه المشابك .

٥ ـ اغلاق قناة الحبل المنوي بواسطة جسم غريب ـ

وهذه الطريقة اجريت على حوالي ١٠٠٠ متطوع وكان نجاحها جزئيا حتى الآن وقد طورت هذه الطريقة بادخال مواد غريبة نشطة

الى داخل قناة الحبل المنوى تسبب تشوهـا فى الحيوانات المنوية .

طرق خاصة بالنساء

١ ــ حقن هرمون البروجستين ممتد المفعول (سبق الاشارة اليه) .

٢ ــ زرع كبسولات هرمون بروجستين تحت الجلد (سبق الاشارة اليه) . من مدة تتراوح بين ٩ اشهر الى سنة .

٣ ــ حلقة مهبلية تحتوى على هرمون البروجستين ــ وهذه الطريقة تعتمد على امكانية امتصاص هذا الهرمون بواسطة الغشاء المبطن للمهبل .

٤ ــ الاعتماد على امكانية امتصاص هرمونات منع الحمل عن طريق الجلد وتوضع هذه الهرمونات فى مركبات تلبس على هيئة سوار على المعصم ، ومشاكلها هو تصميم مركب يمتص بطريقة منتظمة عن طريق الجلد .

٥ ــ لوالب رحمية او عنق رحمية حديثة ــ

اجريت الابحاث حتى الآن على سبعة انواع من اللوالب الرحمية ونوع واحد من اللوالب العنق رحمية Cervical ، ومعظمها يعتمد على ادخال بعض المركبات المضادة للحيوانات المنوية فى تركيب اللولب (كالنحاس ، وهرمون البروجستوجين ، او مركب غير هرموني) واللولب النحاسية ادخلت فعلا الآن ، اما الاخرى فما زالت قيد التجربة والبحث وخاصة تلك التي تحتوى على هرمون البروجستيرون الذى يفرزه بانتظام ، وبكميات محسوبة لمدة عام كامل ــ ويبحث الآن فى زرع اجسام غريبة تحتوى على مركبات مضادة للحيوانات المنوية وغير هرمونية ــ .

٦ ــ القرص او اللبوس المهبلي الشهرى الذى يسبب نزول الحيض

اختبرت حتى الآن قلة من المركبات التي تعتبر من مضادات للجسم الاصفر Corpus Luteum الموجود فى المبيض واللازم لعملية غرز البويضة فى الرحم واستمرارها اذا حدث وجرى تلقيحها بعد عملية التبويض ، وهذه المركبات بعد ان توقف النشاط الهرموني للجسم الاصفر (الذى يفرز هرمون البروجستيرون) تؤدى الى نزول دم الحيض لفقدان الدعم الذى يقوم به هذا الهرمون للبويضة الملقحة . ومن هذه المركبات مادة البروستاجلاندين Prostaglandin

التي يمكن أن تمتص من خلال جدران المهبل او الشرج والذى يمكنه وقف نشاط الجسم الاصفر .

كما جرب هرمون البروجستوجين الصناعى فى منتصف العادة الشهرية او فى الاسبوع الاخير منها لوقف افراز هرمون البروجستيرون الطبيعى . والابحاث موجهة الان نحو تطوير هذه الفكرة الجديدة التي تبشر بالنجاح والتى تحل مشاكل التعرض للمخاطر باستعمال هرمونات منع الحمل باستمرار .

٧ ــ الحبة الشهرية او الحقنة او اللبوس الشهرى الذى يمنع التبويض Ovulation

سبق الاشارة اليها .

٨ ــ الحبة الشهرية (او الحقن او اللبوس المهبلى) الذى ينظم الدورة الشهرية ويحدد موعد التبويض بالضبط لتحسين استعمال اقراص منع الحمل ، باستعمال مركبات الاخصاب ، ونتائجه غير مشجعة ، او استعمال

المواد المنبهة لهرمون الغدة النخامية المعروف باسم LRF والذى يمكن عن طريقه التحكم فى عملية التبويض . كماتجرى الابحاث لاستنباط مركبات مقارنة لها Analogue لها القدرة على اتمام عملية التبويض بدون بويضة Anovulatory كطرق مناسبة لمنع الحمل .

٩ ـ حبة ما بعد الجماع Post coital

سبق الاشارة اليها .

١٠ ـ الحبة الاسبوعية التي توقف نمو الغشاء المبطن للرحم

ولكن وجد ان نسبة الحمل مرتفعة كما يصاحبها اضطرابات نزفية .

١١ ـ المجهضات الكيميائية

باستعمال مركبات البروستاجلاندين او قرائنها المشابهة فى الثلاثة أشهر الاولى من الحمل بغرض الاجهاض ولكن نتائجها مخيبة للآمال وغير مشجعة فى الوقت الحالى . ولكن تستعمل هذه المادة الآن فى المستشفيات كعامل مساعد على الانقباضات الرحمية فى حالات الانهاء المتأخر للحمل . كما استعملت العقارات المضادة للسرطان كقاتلة للجنين والمشيمة فى أشهر الحمل الاولى .

١٢ ـ تختبر الآن طرق لاغلاق فتحات قناة فالوب عن طريق الرحم بواسطة الكي الكهربائى (باستعمال منظار الرحم) او حقن سوائل كيميائية قوية المفعول تغلق هذه الفتحات ، واذا نجحت هذه الطرق فسوف تحل مشكلة شغل الاسرة فى المستشفيات لغرض التعقيم بالطرق التقليدية .

١٣ ـ احداث مناعة فى جسم المرأة بتنبية اجسام مضادة Antibodies لهرمون الغشاء الخارجي للمشيمة (Chorionic (RGG) Gonadorrophia) واللازم فى أسابيع الحمل الاولى لبقاء الجنين واستمراره . وبذلك يساعد على نزول دم الحيض فى موعده حتى ولو حدث ولقحت البويضة فى هذه الدورة ، ولكن لهذه الطريقة أيضا مشاكلها ومصاعبها .

من كل هذا نستنتج ان هناك ١٨ طريقة تحت الاختبار لمنع الحمل خمسة منها تختص بالرجال والباقى (١٣) طريقة تختص بالنساء ، وهذه الطرق الثمانى عشرة تمثل الامل فى استنباط وسيلة جديدة لمنع الحمل فى المستقبل القريب تكون أكثر فعالية وأكثر امانا من سابقاتها .

ما هي الطريقة المثلى لمنع الحمل :

ـ اختيار النوع المناسب يعتمد على الزوجين نفسيهما فى المقام الاول .

ـ الغلاف الذكرى + مضاد الحيوانات المنوية يعتبر الوسيلة المناسبة فى أشهر الزواج الاولى لكثير من الازواج .

ـ اذا توفرت القدرة المالية فتكون اقراص منع الحمل المزدوجة هي الوسيلة المناسبة فى حالة موافقتها للصحة العامة للمرأة .

ـ فى سن ٣٥ وما فوق يوصى بعمليات التعقيم لتجنيب المرأة مخاطر الاستعمال الطويل المستمر للهرمونات وهي فى هذه السن المتأخرة وخاصة اذا كانت قد انجبت ما تشاء من أطفال .

ـ وبالنسبة للزوجات اللاهيات (لا يتحملن المسئولية) والجاهلات واللاتى لا يهمهن أن تكون وسيلة المنع مضمونة مائة فى المائة ، فيمكنهن استعمال اللولب الرحمي بكافة انواع

هرمون البروجستوجين ممتدة المفعول Depot كوسيلة فعالة على المدى القصير .

ـ أما بالنسبة للنساء الذكيات المتعلمات اللائي لا يتحملن اقراص منع الحمل ولا يردن اللولب الرحمي فيمكنهن استعمال الحاجز المهبلي + مضاد الحيوانات المنوية حيث أن فعاليته عالية وليس له اى اعراض جانبية شريطة ان تحسن تركيبه واستعماله .

ـ أما باقي الطرق الاخرى فهي أما غير فعالة الى حد كبير ، او تحدد او تؤثر فى عملية الجماع التي هي أساس السعادة والاستقرار الزوجي .

الحساسية لموانع الحمل الموضعية Allergy

قد تتولد بعض الحساسية ـ فى اى من الشريكين ـ من بعض الوسائل المطاطية او الكيميائية ـ وتشمل فى النساء على التهابات مهبلية كيميائية ، والتهابات قناة مجرى البول، والتهابات المثانة التي قد تكون من الشدة لتسبب البول المدمم Haematuria وارتفاع درجة الحرارة والاعراض الاكلينيكية العامة Systemic وفى حالة حدوث هذه الاعراض فتغير وتبدل الانواع المستعملة حتى يمكن الاهتداء الى نوع معين لا يسبب هذه الحساسية . او تغير الوسيلة كلية الى وسيلة اخرى غير موضعية اذا كان ذلك ممكنا .

★ ★ ★

المراجع

(1) ANN B. MSNAUGHT & Robin CaALLANDER, Illustrated Physiology, 3d. Edition 1975.

(2) TNA JEFF COATE, Principles of Gynoecology & Obstetrics, 4th Edition 1975.

(3) Clinucal Obstetrics & Gynoecology, American Medical Magazine (New York No. March 1974).

(4) TEXT Book of Contraceptive Practice By John Peel & Malcolm Potts (1975).

* * *

صورة الاسلام والمسلمين في الأدب الغربي حتى القرن الثامن عشر

محمد عصفور

في الاجتماع السنوى الثانى والعشرين للجمعية الأمريكية الكاثوليكية التاريخية ، الذى عقد عام ١٩٤١ ، ألقى مارشال و . بولدوين ، بوصفه رئيس الجمعية ، خطابا جاء فيه قوله : ان الغرب ما عاد ينظر الى الاسلام باعتباره خطرا على الحضارة . وهو فى ذلك انما كان يصف وضعا حديثا كانت فيه البلاد الاسلامية كلها تقريبا تحت السيطرة الغربية . لذا فقد كان اختياره لموضوع مثل « الاتجاهات الغربية نحو الاسلام » فى تلك السنة بحاجة الى تبرير ، لأن العالم كان « مشغولا بأمور أشد خطرا من المذهب المحمدى . »[1] وقد ذكر بولدوين مستمعيه بأن « العالم المسيحى ، أو أجزاء هامة منه

* تمتلىء الكتابات الغربية عن الاسلام والنبى بكثير من الافتراءات وسوء الفهم وسوء القصد . ومن حق المسلمين ان يعرفوا مايقال عنهم وعن دينهم وعن نبيهم ـ وهو الموضوع الذى يعالجه هذا المقال ـ التحرير .

1. Marshall W. Baldwin, „Western Attitudes toward Islam," **The Catholic Historical Review**, 28 (1942), 403.

على الأقل ، ظلت تواجه خطر عالم اسلامى معاد لفترة تقرب من الألف سنة تمتد من تاريخ وفاة النبى عام ٦٣٢ حتى تاريخ انهيار آخر هجوم عثمانى أمام فيينا عام ١٦٨٣ . » ثم أضاف « ان الاسلام كان الدين الوحيد الذى جاء عقب المسيحية وغنم منها مناطق شاسعة ، وكبدها هزائم عسكرية كبرى . »(٢)

اذن كانت النظرة التى نظر بها الغرب للشرق الاسلامى منذ البداية وحتى عام ١٦٨٣ ، أو ـ كما يفضل بعض المؤرخين (٣) ـ ١٦٩٩ ، سنة ابرام معاهدة كارلويتز ، نظرة عداء دفاعى فى البداية تحولت الى عداء هجومى فيما بعد. ان العداء يولد التحامل ، والتحامل يولد الجهل . لذا فان تلك الروح الخلاقة التى دفعت ، ابان قوتها وعنفوانها ، بالعرب البدو من صحرائهم ليشيدوا مدنية شاسعة خلال فترة مدهشة القصر ظلت غير مفهومة من قبل الغرب المسيحى . وأسباب عدم الفهم هذا ليست بعيدة المنال . فكما قال مريدث جونز : « استند المفهوم الغربى لمحمد وتعاليمه على المصادر الادبية لا على الملاحظة المباشرة الفعلية للمسلمين . . . وقد استمد الكتاب من أمثال مائيو بارس معلوماتهم من مصادر ثانوية مغمورة ، فكانت النتيجة مزيجا من قدر ضئيل من الحقيقة وقدر كبير من الخيالات ذات الصبغة المتحاملة جدا . » (٤) وقد جاء بهذه المصادر فى أغلبها المسيحيون الشرقيون الذين كانوا يهربون من أمام الجيوش الاسلامية المتقدمة فى كثير من الجبهات ، والذين كانت تمنعهم معتقداتهم الدينية من تصور صورة صحيحة عن الاسلام ، ناهيك عن نقل مثل تلك الصورة لمسيحيى الغرب . ثم انه لم يطل الأمر بالاسلام حتى بدأ يدق أبواب أوروبا نفسها ، ويؤسس موطىء قدم قوى هناك كان من المحتمل دائما أن يستعمله من أجل فتوحات أخرى . وعندما تفتتت قوة المسلمين فى اسبانيا ظهر خطر أعظم هو الخطر العثمانى الذى بدأ يهدد الغرب من جهته الشرقية . وفى تلك الأثناء كانت الحملة الصليبية الغربية لاستعادة بعض المناطق التى خسرتها المسيحية للاسلام قد فشلت فى أن تحقق الكثير سواء من الناحية العسكرية أو التبشيرية .

واضح اذن أن تاريخ الصلات بين الشرق المسلم والغرب المسيحى تاريخ ملأته العداوة المستديمة والشك المتبادل فى النوايا . لذا فان من غير المستغرب أن تكون الصورة التى كونها الغرب عن الاسلام والمسلمين صورة مشوهة لم تتضح معالمها الا ببطء شديد خلال القرنين الأخيرين مع تقدم الروح العلمية الحديثة وزوال التطرف الدينى . وأصول هذه الصورة تعود الى العصور الوسطى حين كان الاسلام هدفا للكثير من الكتابات الجدلية ، بينما ملأ المسلمون ـ تحت اسم السراسينيين قصص وملاحم تلك الفترة .

لقد ظلت استراتيجية المجادلين المسيحيين الذين تباينوا أشد التباين فى درجات معرفتهم بالاسلام هي نفسها حتى وقت متأخر نسبيا: كان همهم ان يفندوا الاسلام باستعمال عدد قليل من الانتقادات التقليدية ، دون الخوض بالمسائل الكبرى كمسألة الوحدانية ، وسبب ذلك نابع من طبيعة المشكلة . فكما يلاحظ نورمان دانييل فى دراسته الممتازة عن الموضوع: « ظلت النقاط التى يختلف فيها الاسلام مع

2. Ibid. 1

3. Paul Coles, **The Ottoman Impact on Europe** (New York : Harcourt, Brace, and World, 1998), p. 160.

4. C. Meredith Jones, „The Conventional Saracen of the Songs of Geste," **Speculum**, 17 (1942), 202.

المسيحية هى هى ، لذا فقد مال المسيحيون دائما الى أن يثيروا نفس الانتقادات . وحتى حين حاول بعض الكتاب في العصر الحديث نسبيا أن يتحرروا من الاتجاهات المسيحية فانهم — عموما — لم يحققوا من النجاح بقدر ما توهموا . » (٥)

ان بعض النقاط التى أثيرت ضد الاسلام يمكن — جدليا — أن نتوقعها من المسيحيين. فمثلا لا بد أن يؤدى ايمان المسيحى بألوهية يسوع الى انكار أى ادعاء بعكس ذلك . والاسلام لاينكر الوهية يسوع فحسب ، بل انه ينكر أنه صلب أيضا ، مما يجعل الفكرة المسيحية عن المخلص أو الفادى موضع شك بحد ذاتها . كذلك فان اعتماد المسيحية على التبشير سبيلا للانتشار يمكن — جدليا — ان تثار ضد الاسلام الذى لم يتنكب عن استعمال القوة لأسباب يحلو للمسيحيين اختزال الجانب الدينى منها . (لكن هنا جعلت المسيحية من نفسها عرضة لنفس الانتقاد حين لجأت الى الحملة الصليبية العسكرية لفترة تناهز القرنين .) كذلك فان الكنيسة التى فرضت العزوبية على رجالها تقليدا للسيد المسيح يمكن — جدليا — أن تعترض على سماح الاسلام لأى مسلم بالزواج من أربع نساء فى وقت واحد وعلى زواج النبى نفسه من أكثر من ذلك العدد .

لكن هذه النقاط وغيرها لم تكن الا جزءا يسيرا من الكتابات الجدلية ضد الاسلام التى بدأت بالظهور منذ العصور الوسطى . أما البقية فهي خليط عجيب من الحقائق والخيال، تفسر فيه الحقائق بشكل مفرض متوقع النتائج ، ويوجه الخيال فيه الى جمهور يبدو لنا اليوم مفرطا فى السذاجة .

واذا ما بدأنا بالجانب الذى يعتمد على بعض الأصول التاريخية وجدنا أن المجادلين من أمثال ماثيو بارس وسان پيدرو باسكوال وكتاب ما يدعى ب « المجموعة الكلونية » (٦) مالوا لأن يأخذوا بعض الأحداث فى حياة محمد من اجل ان يشككوا بأهليته للنبوة . فقد شددوا على وثنيته قبل ادعائه النبوة مستندين — فيما يبدو — على رواية تقول أنه فى شبابه قد ضحى بنعجة بيضاء للعزى . (٧) وأكدوا انه كان يعانى من الصرع ، وانه ادعى أن جبريل يزوره أثناء « النوبات » ليخفى مرضه. ورووا قصص زيجاته المتعددة باسهاب ، واستنتجوا منها أنه كان عبدا لحواسه (مما يتناقض مع روحانية المسيح) ، وأنه لذلك لا يصلح للنبوة ، وأنه كان دجالا لأنه لم يقم بعمل معجزات ، ولم يتنبأ بأحداث المستقبل مثلما فعل أنبياء التوراة .

كل هذه النقاط لها أصول تاريخية رغم ان تفسيرها غير صحيح فى كل الحالات — على الأقل من وجهة النظر الاسلامية . لنأخذ مسألة الصرع مثلا . ادعى محمد ، وآمن المسلمون ، أنه خلال تلك « الحالات » التى سموها نوبات صرع كان يتلقى الوحي . والشك في ادعاء محمد وقبول التفسير المسيحى يقتضى الايمان بأن شخصا مصابا بالصرع يمكنه أن يؤلف **خلال النوبات** التى استمرت مدة طولها ثلاث وعشرون سنة كتابا كاملا له من الاتساق الفكرى والروعة الأسلوبية مايتصف

5. Norman Daniel, **Islam and the West** (Edinburgh : Edinburgh Univ. Press, 1960), p. 1.

للحصول على معلومات ببليوغرافية وافية انظر :

6. Daniej, pp. 3b5-408.

7. See Alfred Guillaume, **Islam** (Harmondsworth : Penguin Books, 1956), p. 8.

به القرآن الكريم. (٨) ولقدبين نورماندانييل، وليس هو بالمسلم ، كيف أنه في بعض الحالات كانت توضع شروط معينة من قبل أولئك المجادلين (بشكل يعهده قراء الفلسفة المدرسية) يكون بمقتضاها الانسان مؤهلا للنبوة لكنها تناقض جوانب من حياة محمد ، مما يجعله غير أهل لها . (٩) يقول دانييل : « كل ما بدا للمسيحي كريها في الاسلام بدا له أيضا أنه أشد صفاته أهمية ، وقد كان من السهل وضع معايير تقاس بها كل النبوات وتفشل بها نبوة محمد . » (١٠) فقد أنكر محمد القدرة على عمل المعجزات والعلم بالغيب، فأعطى ذلك الفرصة للمجادل المسيحي لأن « يثبت » بطلان نبوة محمد ، وذلك بأن يشترط في النبي القدرة على عمل المعجزات وعلى التنبؤ بأحداث المستقبل ولما لم يقم محمد بأي من هذين الشرطين ، لذا فان نبوته باطلة. « من الواضح » ، كما يقول دانييل ، « أن هذه المعايير فصلت مقدما كي تناسب ظروف محمد . » (١١)

أما في جانب الخيال فقد أكد الكثير من الكتاب أن محمدا كان كردينالا مسيحيا طموحا اخترع الاسلام ، نتيجة عجزه عن الوصول الى كرسي البابوية ، كي ينفس به عن غيظه . وقد قيل عنه انه كان أحد أقانيم الثالوث الذي يضم ما هوند (أي محمد) وتيرماجنت (أو تير فاجنت) وأبوللين ، وهو الثالوث الذي قيل ان المسلمين يعبدونه نتيجة جهلهم . كذلك ادعى بعض الكتاب أن محمدا كان أحد أتباع هرطوق مسيحي يدعى سيرجيوس هرب من البلاد المسيحية الى شبه جزيرة العرب حيث ضلل العرب البدو بمعونة محمد واليهود المحليين. كما أنهم كثيرا ما رووا أن النبي درب حمامة لتأكل الحب من أذنه مقلدة بذلك الروح القدس (١٢) ، أو أنه درب ثورا أو عجلا كي يأتيه عندما يأمره حاملا القرآن على قرنيه . (١٣)

يمكننا ان نستنتج اذن ، وبدون أي تجن ، أن مجادلي تلك الفترة لم يرسموا صورة متسقة للاسلام ونبيه ، وأن الصورة التي رسموها فعلا قاربت في الغالب جانب الاسفاف ومن الجدير بالذكر هنا أن القيمة الجدلية لكثير من تلك الكتابات تكاد تكون معدومة لأن أكثرها ، ان لم يكن كلها ، كتب باللاتينية وكان موجها الى جمهور القراء المسيحيين ، وعلى التحديد أولئك القادرين على قراءة اللغة اللاتينية، وهم الكهنة، لا الى جمهور المسلمين. لكن المعلومات التي تضمنتها تلك الكتابات ، سواء منها ما استند الى الحقيقة أو كان من نسج الخيال ، انتقلت هي والاتجاهات العدائية التي شجعتها عبر لاتينية الكتاب العالية الى اللغات المحكية المحلية ، وغدت جزءا من

لمن شاء الاستزادة حول هذه النقطة ، هناك كتاب :

8. Tor Andre, **Mohammed : The Man and His Faith,** trans. Theophil Menzel (New York : Harper Torchbooks, 1960), pp. 45-47.

9. Daniel, pp. 97-73.

10. Ibid., p. 68.

11. Ibid., p. 71.

ظلت هذه الفكرة تتردد حتى زمان شيكسبير . انظر :

12. **I Henry VI,** I.ii. 140-11.

بل انها تظهر بعد ذلك التاريخ كما سنرى .

13. See Byron Portes Smith's **Islamin English Literature** (Beirut : The American Press, 1939), pp. 6-7.

الصورة الأوروبية الشائعة عن الاسلام والمسلمين ، تلك الصورة التى ظلت على ما هي عليه لفترة طويلة لاحقة . وكما قال ميريدث جونز : « كان مفهوم شعراء العصور الوسطى عن الاسلام يستند على المصادر الكنسية التى كان من همها ان تشوه معتقدات الكفار وعاداتهم . » (١٤) وقد تكررت صورة السراسينى الكافر المشوهة تكررا بلغ من كثرته في الأغانى الشعبية فى العصور الوسطى انه أدى الى تحنط تلك الصورة وتجمدها . لذا فان كتاب الملاحم فى ذلك العصر وجدوا ، عندما ارادوا الكتابة عن السراسينى ، صورة مألوفة يستعملونها وصورة متوقعة يرسمونها لقرائهم . وقد وصف جونز هذه الصورة التقليدية للسراسينى كما رسمتها مجموعات « **الشانسون دى جيست** » على النحو التالى:

(السراسينيون) قوم أشرار يقضون أيامهم فى كراهية المسيح والسخرية منه وفى تهديم كنائسه . وهم أبناء صانع كل الشرور ، أبناء الشيطان . وهم ، كسلفهم ، يكرهون الله ويضعون انفسهم دائما تحت حماية الشيطان . . وغالبا ما يوصفون بهيئات شائهة التكوين ، فالكثير منهم عمالقة ، وقبائل برمتها لها قرون على رؤوسها ، بينما توجد قبائل سواها سوداء كالشياطين . وحين يهرعون للمعارك يطلقون صيحات أشبه بنباح الكلاب . وهم اناس مشبوبو العاطفة ، سريعو الاستثارة ، سرعان ما تسيل دموعهم او يتملكهم الغضب. اما من الناحية الاجتماعية فانهم يمثلون ابشع انواع العادات ، وذلك ببساطة لانهم يفتقدون الشيء الأساسى فى نظر المسيحيين للكمال ــ الايمان بالمسيحية . لذا فانهم يستعملون العبيد ، ويأكلون أسراهم ، ويشترون نساءهم ويبيعونهن ، ويمارسون تعدد الزوجات . . . وقد اخترع الشعراء لهم عددا من الصفات التحقيرية والتعابير المهنية هي من عدة الأسلوب الملحمى المعتادة كي يؤكدوا فقدانهم للايمان ، الذى هو سر شرهم برمته . (١٥)

أما الاسلام فيوصف عادة باعتباره من اختراع محمد الذى هو احد أقانيم الثالوث

14. Jones, p. 203.

15. Ibid., pp. 204-5.

اما الكاتب صموئيل سى . تشو فقد استنسخ رسما اليزابيثيا عنوانه « اشكال وحشية توجد بين افريقيا والهند » . وهى منطقة تشمل معظم العالم الاسلامى ، تظهر فيها خمسة اشكال من الرجال الذين يوجدون فى تلك المنطقة : الاول يدعى Sciapod وله قدم واحدة يستعملها كمظلة ، والثانى له عين واحدة فى جبينه ، والثالث قزم براسين ، والرابع توجد عيناه وانفه فى صدره ، والخامس له راس كلب فوق كتفيه . والرسم المذكور يظهر فى مقابل الصفحة ١٣ من كتاب :

Samuel C. Chew, The Crescent and the Rose (New York : Oxford Univ. Press, 1937),

وفكرة الاشكال الوحشية هذه موجودة ــ بشكل مدهش ــ حتى عند درايدن . انظر :

Don Sebastian, II. i. 458 وفى عام ١٧٢٨ شعر الرحالة الانكليزى توماس شو Thomas Shaw ان من الضرورى ان يبدد مخاوف قراء كتابه المعنون

Travels.........to several Parts of Barbary and the Levant

فيما يتعلق بالفكرة السائدة التى تقول آن افريقيا كانت مليئة بالمتوحشين . انظر ايضا :

Wallace Cable Brown, ,,The Popularity of English Travel Books about he Near East, 1775-1825,'' PQ, 15 (1936), 70-71.

الذى ذكرناه ، وهو يرئس هيئة كبيرة من الآلهة الأقل شأنا مثل جوبيتر ، وجوبين ، وأفلاطون ، وفرعون ، وباراتون ، وكاهو ، ومارغوت ، ومالاكوين ، وسوراب ، وبابلت، ويعلزبوب ، وغيرهم . ويوصف المسلمون بأنهم قوم ذوو كهنوت منظم يرئسه بابا ، وتقام عندهم الصلوات فى محمديات (أى جوامع) أو معابد من قبل رهبان أو كهنة بشكل شبيه بالطقوس المسيحية . (١٦) وباختصار ، فان الاسلام يرى بمنظار مسيحى (ثالوث ، رهبان) بغرض اظهاره وكأنه تشويه للمسيحية .

ان صورة محمد والمسلمين في **الكوميديا الالهية** لدانتى تنسجم مع هذه النظرة . ففى **الجحيم** نجد كلا من محمد وعلى ، ابن عم الرسول ، بين ناثرى بذور الخلاف والفضائح والشقاق (٢٨ : ٣٥) فى موقع عميق فى الدائرة التاسعة من دوائر الجحيم . والعقاب الذى يلقاه محمد على جريمته « ليس فقط أشد فظاعة وتشنيعا من أى عقاب غيره ، بل انه لا مثيل له فى أى مكان آخر من **الجحيم** من حيث التنفير والتشويه الجسمانى وقبح التصوير . » (١٧) وتصوير محمد باعتباره منشقا يستند بوضوح على الادعاء المسيحى بانه تلقى العلم من هرطوق مسيحى ، أو ان محمدا نفسه كان كردينالا فاشلا كما مر بنا . (١٨) وبهذا الاعتبار تبدو جريمته أعظم من جريمة الوثنى العادى . **فهو ، كمسيحي** منشق ، كان يسبب صدعا فى هيكل الكنيسة المسيحية بهرطقته (وقد اعتبر الاسلام فعلا بدعة نسطورية) . وعلى أى حال فان نظرة دانتى لما حققه محمد وأتباعه هي النظرة نفسها التى يقبلها المؤرخون المسيحيون فى زمانه . فمثلما يتضح من **الفردوس** (٣٢ : ١٣٠ ــ ١٣٥) حيث «يرمز كسر أرضية عربة الكنيسة من قبل الوحش الى الخسارة التى أصابت الكنيسة عن طريق محمد » كما يقول تاتلوك(١٩) يعتقد دانتى أن العالم المسيحى قد خسر خسائر فادحة للاسلام ، وأن العقوبة الفظيعة التى يفرضها على **محمد تعكس فظاعة الجريمة** التى ارتكبها من وجهة النظر المسيحية .

لكن تجدر الاشارة هنا الى أن دانتى قد وضع ثلاثة من المسلمين البارزين هم ابن سينا وابن رشد وصلاح الدين الأيوبى في دائرة الجحيم الأولى مع الوثنيين الفضلاء . وقد كان الأولان فيلسوفين من أتباع المدرسة الأرسطية ، ووضعهما فى الدائرة الأولى يبدو لي اعترافا بقيمة آرسطاليتهما أكثر مما هو تسامح مع دينهما . أما ادراج صلاح الدين

---

16. Jones, pp. 208-10.

وفكرة الكنيسة والرهبان توجد حتى فى درايدن . انظر مسرحية Don Sebastian حيث يدعى المفتى رجل كنيسة . ان الاسلام ــ طبعا ــ لا يضم اى مؤسسة شبيهة بالكنيسة المسيحية .

17. J.S.P. Tatlock, „Mohammed and His Followers in Dante,"MLR, 27(1932), 192.

يخالف تاتلوك هذا الرأى . لكن من يشاء الاطلاع على دراسة ممتعة للعلاقة بين الاسلام والكوميديا الالهية فان عليه قراءة كتاب :

18. Mignel Asian Y Palacios,
Islam and the Divine Comedy, trans. Harold Sunderland (1928 ; pt. London : Frank Case, 1968).

19. Tatlock, p. 186.

مع هذه النخبة فيبدو أعيا على التفسير . فلقد كان صلاح الدين هو البطل الاسلامى الذى دافع عن قضية الاسلام عندما كان الغـــرب المسيحى يحاول استعادة بعض الأرضية التى خسرها للدين الجديد . لذا كان من المنطقى ان يوضع صلاح الدين عميقا فى جحيم دانتى لا مع الوثنيين الفضلاء . لكن دوروثى ل . سايرز Sayers تفسر ذلك بقولها : « أن ادراج صلاح الدين هنا (فى الدائرة الاولى) مع لوقان وابن رشد وغيرهما من شخصيات الحقبة المسيحية ممن لم يحرموا من فرصة الاختيار لربما اشار ضمنا الي رأى دانتى بشأن كل أولئك الذين كانوا صادقين فى عدم استطاعتهم قبول الوحى المسيحى رغم اتصالهم بالمسيحية ، ورغم ممارستهم لكل الفضـــائل الأخلاقية . » (٢٠) وسواء قبلنا هذا التفسير أم لم نقبله فان من اللافت للنظر أن شخصية صلاح الدين قد عوملت دائما بقدر من الاحترام فى الأدب الغربى لم تلقه أية شخصية اسلامية أخرى . (٢١)

يشبه المفهوم الـــذى ســـاد فـــي الادب الانكليزى حتى اوائل القرن الثامن عشر عـــن محمد والمسلمين ذلك المفهوم الذى وجدناه في سائر أوروبا . ففي الحكايات الشعرية الانكليزية القديمة المسلسلات المسرحية (Cyclical Plays) يظهر السراسينيون دائما كوثنيين لهم اله اســـمه محمد هو واحد من عدد مـــن الآلهة . وهذا أمر متوقع طبعا لان ذلك المفهوم كان جزءا من التراث الاوروبي ، ولان الادب الانكليزى المبكر كان مقلدا الى حد كبير للادب الفرنسي الاكثر ازدهارا . (٢٢)

لكن الغريب ان كلمة سراسين غالبا ما استعملت لتضم عناصر اوروبية كالسكسون ، بل انها عنت أى شعب وثني . وقد كان من السهل بعد ذلك ان يعتقد مؤلفو ذلك الادب وقراؤهم ان محمدا كان معبود جميع الوثنيين بغض النظر على التسلسل التاريخي او البعد الجغرافي . وهكذا فاننا نجد فرعونا في واحدة من المسرحيات الدينية الانكليزية يحض اتباعه للصلاة لما هوند (محمد) كـــي يعينهـــم فـــي محنتهم . ونجد القيصر اغسطس يقسم بنفس الاله ويصلي له ، بينما يدافع هيرود عنه ويهدد كل من لا يؤمن به . (٢٣) والمعنى الحديـــث للكلمة الانكليزية Maumet ، اى صنم او دمية ، تعود جذوره الى هذه الحقبـــة التاريخيـــة . والكلمة مستمدة طبعا من اسم النبى محمد ، وفكرة انه كان يعبد ادت الى فكرة انه كـــان صـــنما ، ومن هـــذا المعنى تفـــرعت المعـــاني

20. Dorothy L. Sayers, trans., **The Comedy of Dante Alighieri : Cantica I: Hell** (Baltimore: Penguin Books, 1919), p. 96.

21. انظر مثلا رواية **The Talisman** للسير ولتر سكوت التى نشرت لاول مرة عام ١٩٢٥ .

حول تقليد الادب الايكليزى المبكر للادب الفرنسى انظر:

22. Albert C. Baugh et al., **A Literary History of England**, 2nd ed. (New York : Appleton-Century Crofts, 1967), p. 114.

23. See Chew, pp. 390-91. Chew refers to the **York Plays**, xix; **The Townley Plays**, ix, xiv, xvi ; and the **Chester Plays**, i, viii, x.

الاخرى . وقد اعطت هذه الكلمة للغةالانكليزية الكلمتين mahometry و mawmetry اللتين تعنيان « عبادة الاوثان » او « الدين الباطل » . وقد ظل هذا المعنى مستعملا حتى أواخرالقرن الخامس عشر ، بدليل وروده في قصيدة لكاكستون بعنوان خود فرى (God Frey) (١٨٧ : ٢٧٤) . اما قصيدة جون لدجيت المسماة « عن محمد النبى المزيف وكيف اكلته الخنازير وهو سكران » فتعطينا اول « ترجمة كاملة » للنبى في الادب الانكليزى . ففي مدى مائة واحد عشر بيتا تمكن لدجيت من حشر معظم الاساطير الخيالية التى كانت سائدة في زمانه (١٣٧٠ ــ ١٤٥١) . اذ تصور القصيدة النبى على انه كان نبيا مزيفا وساحرا وضيع الاصل ، وانه درس الكتاب المقدس في مصر واقنع السيدة كارديجان (خديجة ؟) من بلاد كوروزان (قريضة ؟) كى ترضى به زوجا ، مسعملا اساليب الاغراء الخبيثة المزيفة (الابيات ٦٧ ــ ٦٩) . ونقرأ كيف انه ، ادعى انه هو المسيح (٧٥) وقاد شعبه الى الخطأ العظيم . ونقرأ انه كان مصابا بالصرع ، ذلك الداء الذى فسره بقوله ان « جبريل / قد ارسل اليه من علياء السماء / من قبل الروح القدس كي يعلمه / وظهر عليه الملاك بطلعة بلغ من بهائها/انه لم يستطع الوقوف في حضرته» (٨٧ ــ ٩١) . كذلك تجد في هذه القصيدة ــ كما هو متوقع ــ اساطير الحمامة التي تأكل الحب من اذن محمد ، وسيرجيوس ، والثور ، لكن الثور هذه المرة لا يحمل القرآن على قرنيه بل يحمل « جرار اللبن والعسل » (١٠٤) . كما نجد ان محمدا كان « زانيا وقحا / فأشاد تمثالا لفينوس » (١٣٢ ــ ١٣٣) . ورغم انه كان سكيرا الا أنه منع قومه من شرب الخمرة. واخيرا

مات كأى انسان نهم

لانه افرط في شرب الخمرة

ووقع في بركة موحلة واكلته الخنازير .

(٢٤)

(١٥٢ ــ ١٥٤)

ولعل هذه في نظر لدجيت وقرائه هي الاسباب التي جعلت الاسلام يحرم الخمرة ولحم الخنزير !

● ● ●

اذا ما وصلنا الفترة الاليزابيثة وجدنا الكثير من المسرحيات التي تقوم على مواضيع اسلامية استمدها الكتاب من كتب التاريخ القديمة والحديثة للشعوب الاسلامية ، فضلا عن الاساطير التي تجمعت في اوروبا عن الاسلام والمسلمين منذ العصور الوسطى . وقد قام لويس وان باستعراض مفيد للمسرحيات الاليزابيثية المرتكزة كلا او بعضا على مواضيع شرقية . (٢٥) ووجد انه بين عام ١٥٥٨ وعام ١٦٤٢ هناك سبع واربعون مسرحية تعتمدعلى مثل تلك المواضيع كتب اكثرها في الفترة ما بين ١٥٨٦ و ١٦١١ . وقد انجذب اكثر الكتاب الكبار الى سحر الشرق انجذابا دعا كلا منهم الى كتابه مسرحية واحدة على الاقل عن هذه المنطقة . ومن اللافته للنظر ، كما

---

24. See John Lydgate,s **Fall of Princes**, ed. Henry Bergen (London : EETS, Extra Ser., no, 123, 1924), Pt. III, Bk. IX, pp. 920-23.

25. Lewis Wann, „The Oriental in Elizabethan Drama," **MP**, 12 (1915), 423-47.

يقول وان ، نجد ان « ثلثي هذه المسرحيات الشرقية مأساوية الطابع . » وان « كل المسرحيات التي تعالج موضوعات شرقية خالصة هي اماتراجيديات خالصة او مسرحيات غزاة . » (٢٦) والتفسير الذى يقدمه وان لهذه الظاهرة هو ان الاليزابيثيين — فيما يبدو — قد تصوروا الشرق باعتباره « منطقة تسود فيها عناصر الحرب والغزو وقتل الاخ لاخيه والشهوة والخديعة اكثر من سيادتها في البلاد المجاورة » — وهو تصور يدعي وان « ان الاحداث الواقعية تبرره . » (٢٧)

واضح من ذلك ان كتابات المسرحيين الاليزابيثيين لم يكونوا يهتمون الا بالعناصر المثيرة ، وانهم اغفلوا الجوانب المشرقة ، لانها لم تكن تلائم طبيعة الاسلوب الادبى المستعمل، وهو اسلوب يفضل ، كما يوحى اسمه ، كل ما هو دراماتيكي .

لكن الملاحظ — حتى من دراسة وان نفسها — ان الدراماتيكي قد قبل على أنه كل الحقيقة . وهكذا فان كلمة « تركي » ، وهي الكلمة التي كانت تستعمل في اوروبا اسما لكل مسلم ، ولم تكن تستثير فى ذهن مستعملها او سامعها اكثر من صورة للقسوة والعداء للمسيحية . وكان « الاستتراك » (to turn Turk) يعني العار الاكثر بالنسبة لأي مسيحي ، لأن ذلك كان يعني فقد كل الاخلاق والدين .

لقد كان الأتراك قساة حقا ، وغالبا ما استعملت قسوتهم بينهم هم أنفسهم (كما هي الحال فى المكائد التي كانت تحصل فى قصور السلاطين ، وهي الأمور التي مسرحت كثيراً على المسرح الاليزابيثي) ، الا أن هذه الصفة ، كما يقول لنا المؤرخون المعاصرون ، صفة بولغ فيها جدا ، وشيعتها الروايات الأوروبية من اجل تحريض القوى المسيحية لمقاومة تلك القوة الكاسحة. فكما يقول المؤرخ **بول كولز** : « كلما اتجهنا غربا فى مناطق المجتمع الأوروبي النائية زاد ظهور العثمانيين كمصدر للكراهية والخوف .

لقد كان الناس يعتقدون أن الأتراك ليسوا خارج حدود المسيحية فقط بل خارج حدود المدنية نفسها » . ويضيف كولز : « ان التقليد (القاضي بالتشهير بالاتراك) استمر وامتد الى عامة الناس خلال القرن السادس عشر عن طريق الحرب الدعائية الفجة التي شنها بارثولوميو جيورفتش الكرواتي ، الذى ظهر كتابه ذائع الصيت **آلام ومآسي المسيحيين الذين يعانون من الجزية والعبودية التركيتين** عام ١٥٤٤ وطبع طبعات كثيرة وبلغات متعددة. »(٢٨) وسواء عرف الكتاب المسرحيون او كان باستطاعتهم أن يعرفوا أن الأتراك كانوا يتسامحون مع المسيحيين واليهود وأنهم كانوا، لأسباب اقتصادية على الأقل ، يستقبلون من قبل قطاعات كبيرة من الشعوب البلقانية كمحررين من جور الاقطاعيين المحليين(٢٩) فان ذلك لا يهمنا كثيرا هنا . ان ما يهمنا هو أن الصورة التي رسموها عن الأتراك كانت ، فى

26. Ibid., 428-29.

27. Ibid.

28. Coles, **Ottoman Impact**, pp. 145-47.

29. Ibid., p. 145.

اقل ما يقال عنهـا ، هي الصورة التقليديـة الجامدة التى اخترعها الأوروبيون . وهـذا الوضع يشبه الى حد بعيد صورة السراسيني التي ظهرت فى أقاصيص العصور الوسطى : كان الناس يتوقعون صورة معينة فقدمت لهم تلك الصورة .

عندمـا كتب كرستوفـر مارلو مسرحيـة **تيمورلنك الكبير** (الجزء الاول عام ١٥٨٧/ ١٥٨٨ والجزء الثاني عام ١٥٨٨) كان الخطر الاسلامي ، اى التركي ، قد بلغ ذروته . ولهذا السبب كان من الطبيعي أن يرحب المسيحيون باي شيء يمكن ان يريهم ان الأتراك لم يكونوا قوة لا تغلب . وهذا يعني أن **مارلو** باختياره قصة تيمورلنك كان يستغل العاطفة الشعبية السائدة . فتيمورلنك لم يخضع الأتراك ويذل سلطانهم بايزيد فقط ، بل انه كان ــ عن غير قصد منـه ــ عونا غير مباشر للمسـيحيين المحاصرين في الفلسطنطينية منذ فترة طويلة . وقد اضطر مارلو ، من أجل التركيز على هذه النقطة ، أن يخالف التاريخ الحقيقي ويخلق شخصية يمكن للمسيحيين أن يقبلوها علـى انها سوط الله المسلط على المسلمين . وهكذا تحول تيمورلنك المسـلم ، الـذي يقول لنـا التاريخ انه كان متساهلا مع اعدائه المسلمين وقاسيا اشد القسوة ضد المسيحيين ، تحول (باسـتثناء بعـض التناقضـات فى تصـوير شخصيته) الى بطل شبه وثني ، واسـع الاطلاع علـى الكتابات الكلاسيكية والديانـة اليونانية والرومانية ، والى قاهر لا يرحـم اعداءه المسلمين ، بينما يميل بشكل يصعب تفسـيره للاسـتجابة الـى آمال المسـيحيين وطموحاتهم . ففي الجزء الأول ، مثلا ، يقسم تيمورلنك أن« يخضع الأتراك ويحرر الاسرى المسيحيين » الذين كانوا يستعملون لتسيير سـفن القراصنة المسلمين . (٣٠) وفى الجزء الثاني يطالب مواطنو بابل حاكمهم عندما تهدد قوات تيمورلنك المدينة أن :

يستسلم ويرفع علم الهدنة

كي يشفق علينا تيمورلنك

ويعاملنا معاملة الفاتح الحدوب

ورغم أن هذا اليوم هو آخر أيام حصـاره المخيف ،

وهو يوم توعد بعده الا يبقي رجلا او طفلا ،

لكن عندنا بعض المسيحيين من جورجيا وهم سيحصلون على عفوه ان تكرمت بارسالهم لـه

لانه دائمـا كان يشـفق عليهـم ويعينهم في مصابهم .

(جـ ٢ ، ف ٥ ، م ١ ، ٢٦ ــ ٣٣)

وعندما يقارن تيمورلنك محرر المسيحيين مع الحكام المسلمين الذين يحاربونهم (كما يفعل بايزيد) ،ويستعملونهم عبيدا لتسيير سفنهم (كما يذكرنا مارلو عدة مرات فى سياق جزاي مسرحيته) فان عواطف المشاهدين ستميل

---

30. 1 **Tamburalaine the Great, III.** iii. 46-47.
All quotations from this play are from U. M. Ellis-Fermor's edition (London : Methuen, (1930) which is part is of the **Works**, ed, R, H. Case See also Pt. 1, III, iii, 248-51,

حتما الى تيمورلنك رغم قسوته التي لاترحم والتي يظل شعور مارلو نحوها شعورا غامضا صعب التحديد . كذلك يجب الا ننسى أن انتصارات تيمورلنك كلها تحققت ضد المسلمين مما يسهل على جمهور النظارة والمسيحيين ان يتقبلوه ويعدوه فى صفهم .

غير أن من الغريب أن نجد تيمورلنك بعد ذلك كله يقسم بمحمد فى الجزء الثاني من المسرحية . فان كان علينا أن نفترض أنه مسلم منذ البداية (كما كانت مصادر مارلو ستقول له) فان حماسه لقضية المسيحيين يعتبر تناقضا فى شخصيته . لكن الأقرب الى الصواب هو أن هناك القليل القليل من الاسلام عند أي من الشخصيات المسلمة فى المسرحية باستثناء اشارة عابرة لمحمد هنا وهناك، ضمن قسم فى العادة . وجميع هذه الشخصيات الاسلامية تبدي معرفة أوسع باوفيد من معرفتها بالقرآن . (٣١) زد على ذلك أن هدف مارلو كان سيتزعزع لو أنه ترك تيمورلنك يحتفظ بدينه ، لان ذلك كان سيناقض مهمته في الوقوف ضد الاسلام ، وهذه نقطة تؤكدها انتصارات تيمورلنك الساحقة ضد الأتراك وحلفائهم ، مثلما يؤكدها تكرر ذلك التعبير كثيرا خلال المسرحية كلها . ولهذا فان مما ينسجم وهدف المسرحية العام أن يندد تيمورلنك بمحمد وأن يحرق «القرآن التركي» الذى تعبر بعض الشخصيات عن ايمان مهزوز به هنا وهناك فى المسرحية . ويأتي هذا التنديد في الخطبة الشهيرة في المشهد الاول من الفصل الخامس ، وهي الخطبة التي جلبت على مارلو فيما بعد تهمة الالحاد . وعلى اي حال فان لغة الخطبة العنيفة لا بد أنها راقت للجمهور الذي كان يتمنى سقوط « خطر » الاسلام ممثلا بالامبراطورية التركية فى ذلك العهد .

ولئن كانت مسرحية **تيمورلنك** مثلا جيدا على ما يدعوه **لويس وان** بمسرحيات الغزاة ، وهي مسرحية ظهرت فيها أربعة موضوعات على الاقل من الموضوعات التي يعتقد **وان** انها تشكل بمجموعها المفهوم الاليزابيثي عن الشرق (الا وهي موضوعات الحرب ، والغزو ، وقتل الأخ لأخيه ، والخيانة) فان مسرحية فيليب **المرتد** (١٦٢٤) مثل جيد على الموضوعة الخامسة ؛ الا وهي الشهوة . والمسرحية تتضمن مقابلة أساسية بين مايزعمونه عن الطهارة المسيحية والحسية الاسلامية . وتتمثل هذه المقابلة بأجلى صورها فى شخصيتي بولينا ودونوسا . أما بولينا فهى أسيرة عصام بك . واستسلامها لرغبات آسرها من شأنه أن يعطيها الحرية والسلطات . الا أنها ترفض الاستسلام لان « عفافها مرتكز على صخرة دينها . » (٣٢) اما

---

31. ان اعتراض جوزيف اديسون ضد الاشارات الاوفيدية التى يضعها درايدن فى افواه شخصياته المسلمة فى مسرحية Don Sebastian ، والذى نشره فى صحيفة The Guardian ، العدد ١١٠ ، الصادر بتاريخ ١٧ تموز عام ١٧١٣ لهو احرى بان يثار ضد مسرحية Tamburlaine لمارلو لان مثل هذه الاشارات ترد فيها اكثر مما ترد فى مسرحية درايدن

32. The Dramatic Works of Massinger and Ford, ed. Hartley Coleridge (London : Routledge &Sons, 1875), p. 115.

ستكون الاشارات التالية للصفحات وليس للفصول والمشاهد لان ابيات المسرحية غير مرقمة ، وسترد الاشارات فى المتن نفسه بعد كل اقتباس .

دونوسا فهي أميرة مسلمة ، لكن مركزها هذا لا يمنعها من استغلالها أول فرصة تسنح لها مع بائع عادى للاوانى الزجاجية لاشباع رغبتها الجنسية . وتفسير هذا التهور عند الأمير يأتينا من فم الأميرة نفسها : فخلافا لحالة السيدات المسيحيات « اللواتي يتمتعن بقدر أكبر من الحرية ممن يولدن هنا » ، تقول دونوسا :

نحن معشر العثمانيات لا نستمتع

أكثر منكن رغم أن ديننا

يسمح بكل الملذات (ص ١٠١) .

المسلمات ممنوعات من المتع رغم ان الاسلام ـ فيما تقول هذه الاميرة المسلمة ـ يسمح بكل الملذات . ان هذه الفكرة ليست بالجديدة . فلطالما اعتبر مسيحيو الغرب الاسلام دينا اباحيا . وقد اعتبرت هذه الاباحية واحدا من اهم أسباب نجاح الاسلام فى أوائل عهده ، لكن الشيء المدهش فى دونوسا ليس علمها بامور دينها بقدر ما هو استعدادها للتضحية بمكانتها كأميرة وتصرفها تصرف المومسات ، بالمعنى الحرفى للكلمة . انها ليست قبيحة : فيتللي نفسه يشهد بالعكس . لكنها رغم جمالها تقوم بكل مقدمات الاغراء على المسرح :

سأعلمك بالغريزة (ماذا تقدم)

وبتلك السهولة التي يجعلنى الحب اطلبها منك .

عندما تقوم سيدة باعتصار يدك هكذا ،

أو عندما تضغط على قدمك بلمسة عاشقة ،

وتحدق فى عينيك ، وتداعب خصلات شعرك ،

الا تفهم ، حتى بدون عون المعلم ،

ماذا تطلب منك ؟

ثم تقبله فيستجيب ، وتعود هى الى القول :

وافرض أنها تشير الى

حجرة خاصة لا تدخلها أشعة الشمس أبدا . . . (ص ١٠٦) .

وتترك المسرح وهى « تدعوه كي يتبع » فيما تقول تعليمات المؤلف (ص ١٠٨) . كذلك فان دونوسا هي التى تطلب « لقاء ثانيا » (ص ١٠٨) في اليوم التالى ، بينما يرفض فيتللي طلبها . ورغم اللغة القاسية التي يستعملها معها الى انها تستمر فى الاستجداء، بل انها تركع له في النهاية :

هل انت من حجر ؟

ان كان للمسيحيين امهات فلا شك أن

فيهن من شراسة النمور نصيب . فلو كان عندك شيء من الشفقة الانسانية لماتحملت

ان تركع أميرة لك . . . (ص ١١٣) .

تلك هي شهوة المسلمين !

اما في جانب الذكور من أشخاص المسرحية فان قدرة فيتللي على احتمال الآلام تكسب له اعجاب عصام بك ، بل حتى احترام مصطفى القاسى ، الذى هو غريمه فى الحب . لكن غرام عصام بك المفرط ببولينا هو الذى يؤدى فى النهاية الى هرب المسيحيين من الاسر . فعصام المسكين هذا ـ شانه شأن غيره من المغرمين المسلمين ـ سرعان ما يخدع بوعد من المعشوقة بولينا بأن « تتحول الى تركية » (اى تسلم) وتعطيه ما يريد شريطة أن يسمح لها بتعذيب دونوسا المجرمة وبمصادرة

مجوهراتها . لكنها ـ بطبيعة الحال ـ تستغل هذه الفرصة كي ترسل وسيلة الهرب لفيتللي ودونوسا بعد أن تكون هذه الاخيرة قد اعتنقت المسيحية .

ان المشهد الذى تتحول فيه دونوسا من الاسلام الى المسيحية يستحق بعض النظر هنا ، لا لما يتمتع به من قيمة فنية (وهو فى الواقع خلو منها) بل لما يلقيه من ضوء على أفكار القرن السابع عشر عن الاسلام ، التي ظلت هي فى الواقع أفكار العصور الوسطى . تحاول دونوسا فى هذا المشهد ، مثلما نذكر ، كي تخلص نفسها من فضيحة الزنا ، أن تكسب فيتللي للاسلام ، الذى يقال لنا ان فيه حكما شرعيا يسمح للمرأة المسلمة بالزنا مع كافر اذا تمكنت بهذه الطريقة من كسبه للاسلام . هذه فرية سخيفة بطبيعة الحال ، لكن طريقة الاقناع أسخف . فدونوسا تحاول اقناع فيتللي بصدق الاسلام عن طريقين الاولى هي أنه بينما تقتضي المسيحية من المسيحي أن يظل « حذرا » ، « فطنا » ازاء اغراءات الدنيا ، فان الاسلام ، على العكس من ذلك ، يوفر الفرصة « للتنويع ، ولاختيار كل الملذات التي يستطيع البشر ممارستها » (وهنا لابد أن نلاحظ كيف أن دونوسا بهذه الفكرة تفتح المجال لاثبات أفضلية المسيحية على الاسلام) . والثانية هي أنه مادام الاسلام مزدهرا والمسيحية ضعيفة فانه لابد أن يكون الله فى صف الاسلام ، لذا فلا مفر من أن يعترف فيتللي بأن معبوده « يحتاج الى القوة اللازمة لمساعدة » المسيحيين (ص ١١٧) . أما رد فيتللي « المفحم » فهو هذا :

لن الوث فمي بالكلام عن شعوذات

من غرر بك ، عن مولده الوضيع ، وعن علاقاته المشينة مع النساء ،

وعن زيف دعاوية الغربية ، ولن أقول كيف

انه علم حمامة كي تأكل من اذنه

وجعل اتباعه السذج يؤمنون

انها كانت ملاكا يعلمه

أقوال القرآن ...

ان عزمك على كسبي

لدينا مرده

خوفك من الموت . هل هناك قوة في ذلك

الدين الذى يجعلنا نرتعش

من ذلك الذى نسارع كل يوم ، بل كل ساعة ، نحوه ؟

(ص ١١٧ – ١١٨)

« هذا رد مفحم » ـ هذا ما تقوله دونوسا ، منقلبة عن دينها بسببه ، باصقة على محمد لاستكمال مراسيم اعتناقها للمسيحية !

واضح تماما أن دونوسا قد تنازلت عن دينها بيسر شديد . لكن هذا التنازل فى مسرحية كتبت لنظارة انكليز في القرن السابع عشر اقنع كاتبه ومشاهديه على السواء . فرد فيتللي يعيد كل النقاط المعروفة عن الاسلام ، ويثبت مدى « زيف » الاسلام لنظارة لا يطالبون بكثير من المنطق في هذا المجال .

● ● ●

تستخدم مسرحية جون درايدن **دون سباستيان** (١٦٩١) ، التي تعتبر عموما واحدة من افضل مسرحياته ، موضوعات

شـديدة الشبه بتلك التي وجدناها في المرتد لما سـنجر . ففي كل منهما نجد طاغية مسلما (شـخصية معتادة في المسرحيات التي تتناول الشرق) يقع في غرام البطلة المسيحية ، ونجد مرتدا يعود في النهاية الى دينـه الاصـلي ، المسيحية ، وينقذ اخوانه المسـيحيين ، ونجد بطلة تنبذ الاسـلام وتعتنق المسيحية ، ونجد أحداثا جادة مطعمة بعناصر كوميدية خشـنة يعرض فيها الجانب المضحك من الاسلام مـن وجهة نظر الكاتب ، ونجد قـوة مسـيحية صـغيرة تنتصر في النهاية على المسلمين في عقر دارهم ، رغم أن درايدن اختار أن يسـلب سباستيان انتصاره باضافته لموضوع السفاح الذي يعتذر عنه في مقدمة المسرحية (٣٣) .

كما هي العادة ، يختلف الجانب المسيحي من شخصيات المسرحية عن الجانب المسـلم اختلافا جليا . فالامبراطور المسلم « المـلا مالك » قصد خالقه منه أن يكون « تشخيصا ساطعا للوحشية » (المقدمة ، ص ٢٨٩) . انه « بذاخ ، خبيث ، قاس/كريم عندما يروق له ، لكنه عن الشر لا ينثني أبدا » (ف ١ م ١ ، ٢٥ ـ ٢٦) . أما سباستيان في المقابل

فقد كان رجلا

اطول من غيره من الرجال ، يكاد يصل مرتبة الالوهية .

شجاع ، ورع ، كريم ، عظيـم ، حـر ،

عادل كميزان السماء الذي يزن الفصول ،

احب قومه فأحبوه حب العبادة ...

(ف ١ ، م ١ ، ١٠١ ـ ١٠٥)

أما بندر كار المسلم فيقابلـه دوراكس المسيحي . الاول هو الاثير عند الامبـراطور الذي يثق به ويستشيره في كل خطوة يخطوها ، حتى في الامور الشخصية . ولكنه (تنفيـذا لمبدأ الخيانة الذي صادفناه سابقا) يخـون سيده ويتآمر على حكمه . وليس هو بالمخلص حتى لشركائه في المؤامرة لان حافزه هو طموحه الشخصي الذي لا تحده حدود . أما دوراكس فيشعر انه كان قد أهين من قبل سباستيان بدون وجه حق . لذا فانه يستترك (أي يسلم) نكاية بسباستيان ويلتحق بجيش الملا مالك . لكن عندما تلوح الفرصـة له يرفض خيـانة الامبراطور المسلم رغم أنه لا يحبه ، ويرفض ان يخون عدوه الملك سباستيان الذي كان قـد اقسم ان ينتقم منه. وفي النهاية يثبت دوراكس انه مثـال الاخلاص والشرف .

أخيرا هناك شخصيتا المفتي والفاريز . هنا أيضا تظهر المقارنة تفوق شخصية المسيحي على نده المسلم . فالمفتي ليس فقط انتهازيا ، شهوانيا ، صاحب أعـداد كبيرة من الزوجات والجواري والعبيد ، بل هو أيضا حر التصرف بدينه بشكل مدهش ، يفسر شرائع الاسلام حسبما تقتضي الحاجات السياسية الآنيـة . اما الفاريز فعلى العكس من ذلك ، اذ يبلغ من حرصه على الفضيلة انه مسـتعد للمخاطرة بحياته كي لا يسـمح للملك سباستيان ان يرتكب جريمة السفاح ولو جهلا .

منـذ بداية المسرحية هناك تأكيـد على قسوة المسلمين. فالمسرحية تبدأ بهذه الابيات

---

33 John Dryden, Four Tragedies, el. A. Beaurline and PFredson Bowers (Chicago and London :Univ- of Chicago Press, 1967). p. 288.

ستوضع جميع الاشارات التالية لهذه المسرحية في متن البحث نفسه .

التي يفوه بها الملا زيدان ، أخو الامبراطور (الذى يتآمر على أخيه كما هو متوقع) :

الآن انتهت حروب أفريقيا الطويلة .

وقد استقت ارضنا العطشى من دم المسيحيين ،

وسيكون عند أخى الفاتح كفايته من العبيد

كى يفي بنذره القاسى لقاء النصر .

(ف ١ ، م ١ ، ١ ـ ٤)

وعندما يظهر الامبراطور نفسه بعد ذلك بفترة وجيزة نسمع المفتي ، الذى هو اعلى سلطة دينية فى البلد ، يطالب بوفاء ذلك النذر :

نبينا الجبار يطالبك ، لقاء يوم النصر هذا ،

بالعرفان بالجميل ، بأن تضحي

بالعبيد المسيحيين الذين يجب أن تقدمهم طائعا عند النصر .

(ف ١ ، م ١ ، ١٦٠ ـ ١٦٨)

لسنا بحاجة الى القول ان «نبينا الجبار» لا يطالب بأى « تضحية » من هذا النوع ، لكن هذه الفرية تناسب الصورة التقليدية عن الاسلام كدين قاس انتشر عن طريق الغزو واراقة الدماء فقط (٣٤) .

لكن اذا كان المسلمون ـ فيما تقول المسرحية ـ شديدى الرغبة فى اراقة الدماء، فما أبعدهم ـ فى نظرها ـ عن اتباع بقية تعاليم دينهم . ان الامبراطور يجيب المفتى بهذه الكلمات :

سيرد ثمن الهدية الحمراء مضاعفا ،

وعندما نفي بالنذر سنلغي الصيام ،

اذ ليس يخدم السماء جيدا أولو الوجوه الجائعة .

توقف عن وعظ الناس بالكف عن الشراب انا اقول لك يامفتي

ان احياء الولائم خشوع ، وانت يارأس ديننا

عندك وجه احمر متدين .

سنتعلم البذخ ، فديننا البخيل

يخزينا أمام المسيحيين الذين يطعمون جيدا .

اما اذا اصلحت ديننا من الصوم للولائم

فيمكنك عندئذ ان تتوقع أفواج المؤمنين .

(ف ١ ، م ١ ، ١٦٩ ـ ١٧٨)

وسرعان ما يطيع المفتي فيقول :

الصوم هو حرفية الشريعة

التى تصلح للرعاع .

---

٣٤ ـ قارن هذه الابيات التى يفوه بها وزير تركى فى مسرحية بعنوان 34. Mustapha للكاتب Roger Boyle :

فليصدأ الملوك المسيحيون فى السلام الخامل

لانهم يظنون انه ليس هناك حرب عادلة الا الحرب الدفاعية .

اما نبينا الشجاع فقد بزغ نجمه بالمذابح

لان الغزو جزء من ديننا .

كذلك الخمرة تعارض الشرع ، لكن هذا أمر حر في أيضا .

أما ان كانت للملوك وهداتهم فالخمرة شراب مقدس .

(ف ١ ، م ١ ، ١٧٩ ــ ١٨٣)

هذا اللغو يفضح نفسه بنفسه ولايحتاج الى تعليق . لكن ذروة الشهوانية الاسلامية ــ في رأيه ــ ليست هي مجرد تحويل الصيام الى ولائم وتحويل الامتناع عن المسكرات الى الاستمتاع « بالشراع المقدس » ، بل هى ــ كالعادة ــ الجنس. فسهم الحب يخترق قلبه الامبراطور فى نفس اللحظة التي تزيح الميدا ، أسيرته ، الحجاب عن وجهها في السوق ويرى جمالها الساحر . وبما أن الحب هو الجنس في نظره فانه يقول لبندركار :

لابد ان أمتع نفسي بها ،

لابد ، ومالابد لي أن افعله سأفعله .

اذ ماهو الملك ان لم يعن القدرة على امتاع النفس ؟

(ف ٢ ، م ١ ، ٤٤ ــ ٤٦)

(قارن هذه الجملة الاخيرة مع صورة سباستيان التي وصفت قبلا) .

من بين وسائل اشباع الرغبة الجامحة عند الامبراطور الزواج . لكن الميدا ، التي تحب سباستيان، ترفض الزواج من الامبراطور وسبب رفضها ــ فيما تقول ــ هو انها قد تحولت الى الدين المسيحي : « وشريعتك لا تسمح لك بالزواج منى » (ف ٢ ، م ١ ، ٤٧٩) . لكن الشريعة الاسلامية ــ كما نعرف ــ لا تمنع المسلم من الزواج من مسيحية . الا ان حبكة المسرحية تتطلب مثل ذلك الحكم الشرعى ، وما أسهل أن يخترع درايدن حكما كذلك للاسلام . أما الامبراطور الذى اغضبه أن يحال بينه وبين شهوته فانه يهدد « بالحصول على سعادته بالقوة » (ف ٢ ، م١، ٤٩٠) وحين يسمع ــ فيما بعد ــ أن الميدا قد تزوجت من سباستيان فانه يحاول اجبار المفتى على اختراع نص قرآنى يبطل الزواج « ويجعل من رغبته شرعية » (ف ٣ ، م ١ ، ٨٦) . لكن المفتى يتردد بادىء ذى بدء نظرا لجسامة الطلب ، الا أنه يرضخ مرة ثانية عندما يهدده الامبراطور بالقتل اذا لم يجد للمازق حلا . يقول المفتي الجليل :

صحيح أن شرعنا يمنع الزواج من مسيحية ،

لكنه لا يحرم عليك اغتصابها ،

اذ أن لك حق الفاتح على عبدتك .

ثم انك كلما تماديت فى ايذاء المسيحيين

خدمت النبي اكثر لانه يكره تلك الطائفة .

(ف ٣ ، م ١ ، ٩٤ ــ ٩٨)

●●●

ليس من الضرورى ، فيما أعتقد ، أن نتابع هذا الموضوع اكثر مما تابعناه فى الحبكة الكوميدية الثانوية حيث لا تكاد سلاسة الحديث التى تتصف بها الكوميديات السلوكية التي كانت سائدة فى ذلك العصر ان تنجح فى انقاذ المسرحية، او على الاقل حبكتها الكوميدية الثانوية ، من صفة الابتذال . فالاقتباسات التي اقتبسناها اعلاه تكفي لان توضح أن الموضوعات التي كنا صادفناها سابقا ظلت تتكرر المرة تلو المرة فى الادب الابداعى الذى استعرضناه . لقد ظلت صورة الاسلام المشوهة تتردد ، وظل يتردد معها اتجاه واضح العداء للاسلام وللمسلمين .

غير أن هـذا الاتجـاه لم يكن وقفا على الادب الابداعى فقط . ففى عام ١٦٤٩ قـام **الكساندر روس** ، كما يعتقد أكثر الباحثين ، بعمل أول ترجمة انكليزية للقرآن من خـلال الترجمـة الفرنسـية التى قام بها **اندريـه سـور دوريبه** والتي نشرت فى ذلك العـام . وعنوان ترجمة روس واضح الدلالة : **قرآن محمد ، ترجمة من العربية للفرنسية سـور دوريبه ... وترجم للانكليزية حديثا لارضاء كل من يود النظر فى اباطيل الاتراك** . لكن يبدو أن روس وناشره لم يكونا واثقين — كما يشير العنوان — من أن تلك الاباطيل واضحة للعيان . كان الامر فى نظرهما يحتاج الى مزيد مـن التفسير ، لذا كتب **روس** « تحذيرا لازما أو نصيحة لاولئك الذين يودون معرفة الفائدة المرجوة من قراءة القرآن ، أو ان كان هناك خطر فى ذلك . » وقد ضمن هذا التحذير فى الترجمة ذاتها . يبدأ التحذير بهذه الكلمات :

أيها القارىء الكريم ، ها قد وصل الدجال العربي

الكبير أخيرا بعد الف سنة عبر فرنسا الى انكلترا ،

وقد تعلم قرآنه ، ذلك الخليط من الاباطيل (ابن

مشوه كأبيه ، وفيه من الهرطقات بقدر ما في رأس صاحبه

الشائه من قشرة) أن يتكلم اللغة الانكليزية . (٣٥)

يقول روس انه لا خطر من قراءة القرآن لان المسيحيين عندهم كتب أعظم منه . وهـم يقرأون الكتب الهرطقية أحيانا بدون ان ينخدعوا بها . ثم ان القرآن متوفر لقرائه بالفرنسية والايطالية ، لذا فان اضافة ترجمة انكليزية لا ضرر منها . (٣٦) كذلك يبدو أن روس هو الذى كتب سيرة محمد التى تضمنتهـــا الترجمة . وكما يلاحظ **بايرون سمث** بحـق ان تلك السيرة « مثل صارخ على بقاء الاساطير القديمة حتى تلك الفترة . » (٣٧) فهي لا تزيد عن كونها تجميعا للاساطير التي صادفناها منذ العصور الوسطى : المولد الوضيـــع ، الصرع ، سيرجيوس ، الحمامة ، الثور ... لم يكن وضع البحث العلمى قد تحسن كثيرا بعد .

● ● ●

هناك سيرتان اخريان تستحقان الاشارة . (ولنقل هنا بشكل عابر ان هذا التركيز على شخصية الرسول ليس وليد المصادفة . فقد كان من هم الجدل المسيحي ان يفند الاسلام عن طريق تشويه سمعة محمد على الطريقة التي دعوها المناطقة argumentum and hominem والتي كانوا يظنونها أقوى سبل الهجوم .) واولى هاتين السيرتين تلك التي كتبها لانسيلوت أديسون بعنوان **حالة المذهب المحمدى الاولى ، أو وصف للدعوى الباطلة ولحياة مؤلفهـــا** . وقد نشرت تلك السيرة بدون اسم مؤلفها عام ١٦٧٨ ، ثم تحت اسم المؤلف عـام ١٦٧٩ وبعنوان **حياة محمد وموته** .

35. Quoted by Chew, p. 449,
36. See Chew, p. 450.
37. Smith, pp. 29-60,

وكما يقول بايرون سمث : « يحاول أديسون أن يقدم لنا حياة محمد خالية من الاساطير التي تجمعت حول اسمه ، وهو ينجح في ذلك بشكل يدعو الى الاعجاب ، حتى الى حد اطراح قصة سيرجيوس . لكنه احيانا لا يستطيع أن يقاوم اغراء سرد القصة الاسطورية أولا ثم الحقيقة التاريخية. » (٣٨) لكن اطراح العنصر المختلق عن حياة الرسول لا يعني المحاولة المحايدة غير العاطفية لفهم الرجل والدين الذي بشر به . فما يزال محمد في نظر هذا الباحث دجالا ودينه هرطقة (غير مسيحية هذه المرة) انتشرت عن طريق القوة والخديعة .

اما السيرة الثانية فهي أكثر طموحا رغم انها تظهر نفس الروح العدائية المتعصبة . وقد كتبها همفري بريد وبعنوان **الطبيعة الصحيحة للدعوى الباطلة كما تظهر على اوضحها في حياة محمد (١٦٩٧)** . وقد قصد المؤلف من كتابه أن يثبت لتلك الطائفة من المفكرين الذين يؤمنون بالله ولا يؤمنون بالاديان المنزلة (deists) أن المسيحية ليست باطلة عن طريق اظهار الطبيعة الحقيقية للدعوى الباطلة كما تتمثل بالاسلام . أن صفات الدعوى الباطلة في نظر بريد وسيع هي كما يلخصها بايرون سمث : « ان الدعوى تشجع الشهوات الجسدية ، ان مؤلفيها لناس اشرار ، إن كلتا الصفتين السابقتين تظهران في تركيبها ذاته ، أنها دائما تضم امثلة واضحة على الزيف ، أنها تنتشر أول ما تنتشر بالخداع ، أن طبيعتها لا يمكن أن تخفى طويلا بعد ان تظهر للكثير من المتآمرين وانها لا يمكن ان تتركز الا بالقوة . » (٣٩)

وكلنا يذكر كيف أن المجادلين المسيحيين في العصور الوسطي كانوا يشترطون بعض الشروط للنبوة يعرفون مقدما انها شروط تغاير حياة محمد . هنا أيضا نرى أن **بريدو** يجادل بنفس الطريقة ، فهو يفسر الحقائق التاريخية المعروفة عن الاسلام بطريقة تجعل من السهل عليه أن يضع معايير يستطيع عن طريقها ان يظهر ان الاسلام دعوى باطلة . خذ مثلا مسألة الشهوة الجسدية . في التراث المسيحي كان محمد دائما يعتبر رجلا حسيا ، كثيرا ما اخترع الآيات القرآنية كي يبرر شهوته للنساء . وازاء ذلك لم يكن في وسع بريدو أن يقاوم اغراء وضع الشهوة الجسدية كواحدة من أولى صفات الدعوى الباطلة . ولو تمكنا بشكل ما من اثبات ان زيجات محمد لم تكن في الواقع انعكاسا لشهوته فان هذا الجانب على الاقل من جدل بريدو سيسقط سقوطا لا يقوم بعدها . ليس من همنا أن نفند اراء **بريدو** هنا ، لكن النقطة التي تستحق التأكيد هي ان روح التعصب ضد الاسلام حتى بين الباحثين كانت ما تزال قوية جدا حتى في نهاية القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر .

لكن رياح التغيير كانت قد بدأت تهب . فقد بدأت بعض الاختلاقات ، الاشد سخفا عن شخصية الرسول بشكل خاص ، بالاختفاء ، وأدى ضمور الحماس الديني في القرن الثامن عشر بالمقارنة مع القرون الماضية الى تقبل نظرة اكثر موضوعية عن الاسلام والمسلمين . ويعطينا **جورج سيل** ، أول من ترجم القرآن الى الانجليزية عن العربية مباشرة مثالا جيدا على الاتجاه الآخذ بالتغيير . ولنلاحظ على الفور

38. Ibid., p. 30.
39. Ibid., p. 32.

انه لم يكن لدى سيل اى تعاطف مع الاسلام وانه كان يعتقد ان القرآن « كتاب مزيف بشكل واضح » (٤٠) ، وانه ، اى سيل ، هو الذى أشاع الفكرة التي طالما ترددت بعده والقائلة بأن القرآن كتاب بليد ، مليء بالتكرار . كذلك فان سيل ترجم القرآن ليقدم للبروتستانيين (الذين كان يعدهم مؤهلين أكثر من الكاثوليك) وسيلة لكسب المسلمين الى دينهم بعد ان يفهموا نقاط الضعف في الاسلام . لكن سيل كان رجل بحث وعلم ، وانعدام التعاطف مع الاسلام يفسره ايمانه بدين آخر ، وانتقاده لاسلوب القرآن مسألة تهم النقد الادبي بالدرجة الاولى وقد وجد سيل البحاثة « أن أولئك الذين يتصورون أن (شريعة محمد) قد انتشرت بالسيف وحده مخطئون أشد الخطأ . » (٤١) ويقول : « عندما تكلمت عن محمد وقرآنه لم اسمح لنفسي ان استعمل تلك الصفات الكريهة والتعابير البذيئة التي يبدو انها اقوى وسائل التنفيذ لدى الكثيرين ممن كتبوا عنهما . »(٤٢) لا عجب أن هذا الكاتب ، حسبما يقول ر . آ . دافنبورت الذى كتب النبذة القصيرة عن حياة المترجم في الطبعة التي نستخدمها ، كان قد اتهم بأنه اعتنق الاسلام سرا . (٤٣)

● ● ●

لقد كان سيل واحدا من مجموعة كبيرة من الباحثين الذين كانت تهمهم الحقيقة اكثر مما يهمهم تشويه الاسلام ، نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر « ديربيلو » ، الاستاذ فى الكلية الملكية الفرنسية ، والذى ألف الكتاب الرائع المكتبة الشرقية (معجم موسوعي يضم معلومات موثوقة عن التراث الاسلامي) ، وتلميذه « جالان » الذى خلفه فى كرسي الاستاذية وترجم الف ليلة وليلة الى الفرنسية و « بوكوك » ، أستاذ الدراسات العربية فى أوكسفورد الذى ترجم حى بن يقظان الى اللاتينية بعنوان معناه معلم نفسه ، « واوكلى » أستاذ اللغة العربية فى جامعة كيمبرج الذى كتب تاريخا هاما للعرب .

لقد درس هؤلاء الكتاب النصوص الاصلية فوجدوا فيها صورة مختلفة أشد الاختلاف عن الصورة التي كانت شائعة في التراث الأوروبي . ويلخص بول آزار الافكار الجديدة التي جاء بها هؤلاء بهذه الكلمات :

اشار هؤلاء العلماء الى ان ذلك القسم الكبير من الجنس البشرى ما كان ليتبع خطى محمد لو انه لم يكن اكثر من حالم مصاب بالصرع . وما كان لدين بتلك الدرجة من الفجاجة والسذاجة ، كما كان يشاع عنه ، ان يبدى تلك الدرجة الحيوية ويحرز مثل ذلك التقدم . ولو ان الناس بدلا من ان يشيعوا اكذب القصص وابعدها عن الحقيقة ذهبوا الى العرب أنفسهم من

40. George Sale, trans., The Koran : Commonly Called The Alcioran of Mohammad...to Which is Prefixed a Preliminary Discourse, 6th ed. (1734; rpt. Philadelphia : Lippincott & wo., 1876),

41. Ibid.

42. Ibid., p. vi.

43. Ibid., p. xiii.

اجل معرفة الحقيقة لوجدوا ان محمدا واتباعه كانوا يتمتعون بصفات فى القلب والعقل تجعلهم لا يقلون قيد انملة عن اعظم الابطال عند اى من اجناس العالم الاخرى ... والواقع انه كان فى دينهم من التناسق بقدر ما فيه من السمو والجمال . وعندما اجتاحت البربرية وجه البسيطة ، من هو الذى حمل لواء العقل وحضارته ؟ انهم العرب ... (٤٤)

لقد ادى انكماش قوة الامبراطورية العثمانية ، وازدياد السيادة البحرية البريطانية على بحار العالم (مما خفف خطر قراصنة شمال افريقيا على التجارة الدولية) ، وزيادة الاتصالات المباشرة بين الشرق والغرب (مما أدى الى ازدياد عدد كتاب الرحلات الموثوقة التي يعتمد عليها أكثر من سابقاتها فى القرون الماضية) ، وارتقاء البحث العلمي الحديث وروحه الاكثر تجردا (مما ادى الى زيادة عدد الترجمات المباشرة عن اللغات الشرقية عامة والعربية خاصة ، فضلا عن زيادة عدد البحوث المتجردة) ـ كل هذه العوامل وغيرها ادت الى تغير الصورة القديمة وبروز صورة جديدة . الا أن الصورة الجديدة بدورها ليست صورة دقيقة كل الدقة . فلئن كانت الصورة الاولى قد حددتها الرومانسية المتنامية والاستطيقا الجديدة ، ان صح التعبير . فترجمة جالان لالف ليلة وليلة فى أوائل القرن الثامن عشر مثلا شحذت الاهتمام بالشرق بصورة دفعت بالدين الى المؤخرة وغذت بدلا عنه تلك الروح الرومانسية المتنامية التي كانت تغتذى من مصادر أخرى فى نفس الوقت أهمها المصادر الصينية والامريكية والاسكندنافية .(٤٥) وهذه الصورة الرومانسية الجديدة نأمل ان نرسمها فى بحث خاص بها فى المستقبل القريب .

* * *

44. Paul Hazard, **The European Mind** : 1680-1715, trans. J. Lewis May (Harmondaworth Penguin Books, 1964), p. 32,

حول اثر الف ليلة وليلة وغيرها من الاقاصيص الشرقية التى ترجمت الى اللغات الاوروبية بعد النجاح الهائل الذى احرزه الكتاب الاول انظر :

45. Martina P. Conant, **The Oriental Tale in England in the Eighteenth Century** (New York : Columbia Univ. Press, 1968).

اما الصورة المتغيرة للاسلام والمسلمين التى بدات بالظهور فى القرن الثامن عشر واستمرت بالتطور خلال القرن التالى فتجد تتبعا لها فى الاطروحة غير المنشورة لكاتب هذا البحث بعنوان :

The Crescent and the Cross : Islam and the Muslims in English Literature from Johnson to Byron.

والتى قدمها لنيل درجة الدكتوراه عام ١٩٧٣ فى جامعة انديانا بالولايات المتحدة .

قصة ٣٥٠٠ عام من عمر ايران

ترجمة الدكتور : احمد كمال الدين حلمى

كلما تطرق بنا الحديث الى التاريخ السياسي لايران ، وعرّج بنا على جغرافيتها التاريخية ... وجدنا انفسنا مضطرين الى ادارة دفة الحديث نحو حدودها الحالية .. تلك الحدود التي خلّفتها الحوادث السياسية والعسكرية التي تعرضت لها البلاد فى القرنين الأخيرين .. ووجدنا انفسنا بالتالي مضطرين الى تعميم بحثنا بحيث يشمل البلاد الواسعة التي يطلق عليها « فلاة ايران » .

وفلاة ايران (١) أو بتعبير آخر «نجد ايران» هي احدى فلوات آسيا الواسعة المترامية

الهدف من هذا البحث هو ايراد خلاصة تاريخ الآريين الايرانيين فى بلاد ايرن ... وهو التاريخ الذى ينحصر بين الالف الثاني قبل الميلاد وعصرنا الحالى ، اى اواخر الالف الثانى بعد الميلاد .. وهى فترة تناهز الثلاثة آلاف وخمسمائة عام . (المترجم)

(١) وقع اختيارى على كلمة « بشته » لتكون ترجمة فارسية للكلمة الفرنسية plateau ، تلك الكلمة التى ترجمها البعض الى (فلاة) .. وكانما كانت هناك علاقة مشابهة ـ فى الصورة لا فى المعنى ـ بين كلمتى (بلاتو) و (فلاة) . وقد اسعفت هذه الكلمة من يترجمون الى العربية الى حد ما ، وشجعتهم على اختيارها . وان كانت الفلاة تعنى فى العربية الصحراء التي لاعشب فيها ولا ماء ، او الخالية من الماء فقط كما يرد فى كتاب منتهى الارب ، بينما ترد كلمة (بلاتو) فى الفارسية بمعنى الصحراء المرتفعة .

الأطراف . ويحدها من الجنوب بحر فارس وبحر عمان . وبحر فارس اسم آخر من أسماء الخليج (٢) ، وقد أطلق عليه ياقوت هذا الاسم ، وقال ان حمزة اسماه باسمه الفارسي على النحو التالي : (زراه « زره » كامسير) . كما قال ان القوم كانوا يسمون قسما منه ــ وهو القسم الواقع فى مدينة (مهروبان) الى جوار عبادان ــ باسم (زراه «زره» افونج)(٣) .

أما حدود الفلاة من الشمال فهي بحر مازندران وحوض نهر كورا وصحراء خوارزم. وبحر مازندران اسم آخر لبحر آبسكون ، وبحر طبرستان،وبحر جرجان ، وبحر الخزر، وبحر خزران. وبناء على قول حمزة بن الحسن فان الفرس كانوا يسمون هذا البحر : زره اكفوده (اكفرده) ، كما كانوا يسمونه : بحر اكفرده (اكفوده) (٤) .

أما (كورا) أو (كر) فهو حوض نهر يجري فى بلاد القوقاز الحالية من الغرب الى الشرق ويصب فى بحر مازندران .

وصحراء خوارزم تطلق على الفلاة التي يمر قسمها الشرقي بحدود مرو حتى يصل الى جيحون ، ويمر قسمها الجنوبي بحدود باورد ونسا وفرا ودهستان وبحر خزران حتى يبلغ حدود اتل . وفى غربي هذه الفلاة يجري نهر اتل، بينما يجرى نهر جيحون وبحر خوارزم فى شمالها ، وتقع حدود الفوز (الفز) الممتدة حتى حدود البلغار .

هذا ويطلق على هذه الصحراء اسم مفازة الفزية أو مفازة خوارزم أو صحراء التركمان ، ويستندون فى التسمية الأخيرة الى أن الفز = التركمان . ويشكل حصى خوارزم أو حصى آمو جزءا من هذه الصحراء التي قد يبلغ اتساعها فى بعض المواضع منزلا واحدا ، وقد يصل فى بعض المواضع الى سبعة منازل .(٥)

ويحد الفلاة من الغرب السفوح الغربية لجبال زاجروس (Zagros) ممتدة من الشمال الغربي الى الجنوب الشرقي ، ومنطقة آروند رود (٦) . بينما يحدها من الشرق جبال وادي السند الغربية وسفوح جبال بامير الغربية ومنطقة نهر آمويه (جيحون) .

هذا وتقدر مساحة هذه الفلاة الواسعة بـ ٢٦٠ ألف كيلو متر مربع . ومنذ القدم وهذه

---

(٢) انظر : حدود العالم ، طبع طهران ، ص ٨ .

(٣) انظر : معجم البلدان لياقوت الحموى ، تحتعبارة : بحر فارس .

(٤) انظر : معجم البلدان لياقوت الحموى ، تحتعبارة : بحر الخزر .

(٥) انظر : حدود العالم ، طبع طهران ، ص ٣٥ .

(٦) اروندرود : هو الاسم الذى اطلقه الايرانيونعلى نهر دجلة . يقول الفردوسى الشاعر اثناء عرضه لقصة ثورة فريدون على الضحاك ..

ــ فاذا كنت لاتعرف اللغة البهلوية ..

فاطلق على (اروند) اسم دجلة كما فى العربية .

فمما ذكره الفردوسي يفهم ان (اروندرود) هوالاسم البهلوى لدجلة .

« واروند » التى يمكن ابدالها فى الفارسية عادةالى « الوند » تعنى المنحدرات الشديدة ، وتطلق على الجبل العالى ذى المنحدر الوعر ، او على مجرى النهرالذى ينحدر ماؤه فى سرعة فائقة .

والاصل فى اللغة الافستية (اروئت) Aurvant بمعنى حاد وسريع

E. Blochet ; Lexique des Fragments de I, Avesta, Paris 1900 p. 5

البلاد تسودها ــ على سعتها ــ لغة واحدة ، وتعمها لهجات متشابهة ، وتروج فى جنباتها ثقافة واحدة . هذه اللغة الواحدة هي لغة ايران ، وهذه الثقافة هي ثقافتها .

وكان يسكن وديان هذه البلاد واراضيها الخصيبة ــ هجرة الآريين الايرانيين اليها ــ اناس ينتمون الى العديد من العناصر والاجناس ، ويتشابهون فى نسيج حضاراتهم .. غير اننا لا نملك الكثير من المعلومات عنهم .

وقد تجمعت ــ عن طريق الحفريات التي اجريت فى فلاة ايران خلال القرن الاخير بعض المعلومات الخاصة بهذا الشأن ، وما زالت فى نمو مطرد ، تنحو نحو التكامل .

والامر المسلّم به ، والذي امكن استنتاجه من هذه الحفريات هو ان بعض هذه الاقوام كان يسكن المدن والقرى ، ويمارس صناعة الأواني والآلات المعدنية ، ويعرف كيفية دفن اجساد الموتى ، ووسائل تربية الحيوانات .. وغير ذلك من اساليب الحياة الحضارية واحتياجاتها ، كما امكن استنتاج ان حضارة بعضهم تعود الى ما قبل ميلاد المسيح بأربعة آلاف سنة .

ومن القبائل المعروفة التى سكنت هذه البلاد ــ قبل هجرة الآريين ــ قبيلة تنتمي الى العنصر الكاسي (Kassites) . وكانت هذه القبيلة تعيش فى الاماكن الجبلية من زاجروس . وقد امكنها ان تسيطر على بابل ، وان تقبض على زمام الحكم فيها ابتداء من القرن الثامن عشر قبل الميلاد وحتى عام ١١٧١ ق.م. **وينتمي افرادها الى نفس العنصر** الذي ينتمي اليه الأوراتيون اي شعب اوراتي (ouratiens) الذي كان يتخذ من ارمنستان مسكنا له ، والميتانيون اي الشعب الميتاني الذي كان يسكن شمال العراق ، والعيلاميون الذين يعتبرون ابرز هذه الشعوب . وكانوا يحكمون فى انزان وشوش ، ويمتد نفوذهم فى بعض الاحيان الى حدود بابل .

فهؤلاء القوم اذاً هم من العنصر الذى كان افراده متناثرين على امتداد زاجروس ، والوديان التي فى اطرافه من الشمال الى الجنوب .

اما الشعوب والاجناس الاخرى التى كانت تسكن الانحاء الوسطى والشمالية من ايران .. فان حضارة بعضها ــ امثال سكان هضبة سيلك كاشان ــ حضارة تسترعى الالتفات . (٧)

وفي منتصف الالف الثانية قبل ميلاد المسيح سلكت طوائف تنتمى الى عنصر ابيض طريقها الى داخل نجد ايران .. عابرة فى سبيل ذلك جيحون وجبال القوقاز .

وهكذا وفدت على البلاد عدة قبائل تشكل فرعا من فروع العنصر الابيض الهندو اوروبى (٨) ، اتخذت لها مقرا رئيسيا هو المساحة الواقعة بين هندوستان وسواحل

---

(٧) ارجع فى هذا الصدد الى :

ايران از آغازتا اسلام .. تاليف آقاى گيرشمن ، ترجمة آقاى دكتر محمد معين ، ص ٨ ــ ٥٦ .

(٨) يلق الاسم :Indo-européen(enne) على عدد من الشعوب ذات لغات متقاربة متشابهة تنحدر من اصل واحد .

المحيط الاطلسي فى أوروبا (مضافا اليها جزر بريطانيا العظمى) (٩) .

ويعرف عن هذه القبائل أنها قد انفصلت عن زميلاتها فى العنصر قبل ميلاد المسيح بما يناهز الثلاثة آلاف عام .. اذ يرجع عهد أقدم مؤلف أدبي ما زال فى أيدينا عن هذه الشعبة ـ ونعني به اجزاء الفدا القديمة ـ الى أواسط الالف الثانية قبل ميلاد المسيح .

وقد كان حساب القرون المحصورة بين ظهور أدب الفدا وهجرة الطائفة الهندية المتفرعة من الشعبة المذكورة من آسيا الوسطى الى الهند ... وحساب المدة التي ينبغي ان تعيشها هذه الطائفة مع طائفة أخرى تنتمي الى نفس الشعبة فى آسيا الوسطى .. نقول كان هذا الحساب وذاك هما الدافع الذي دفع المحققين الى قبول التاريخ المذكور .

وقد اطلق على الشعبة التي اشرنا اليها اسم آريا (= آرى = Arya) . وهي تنقسم الى طوائف ثلاث : الهنود والايرانيين والسكا . (١٠)

واخذت هذه القبائل الوافدة المهاجرة تتجول فى الصحراء وترعى الماشية ، وكانت شأنها شأن غيرها من سكان الصحراء .. تبدى تفوقا فى ميدان الفروسية ، ومهارة فى قذف السهام . وانتهى بها الامر الى ان تعيش مع بعضها البعض فى جهة من جهات آسيا الوسطى .. كانت تمتد محتوية سفوح نجد بامير ، ووادى آمويه وسير الخصيبين .

وقد اختلف الباحثون والمحققون فيما يتعلق بالموطن الاول للآريين ـ أي الشعبة الهندو اوروبية التي هاجرت الى آسيا الوسطى ـ فقال البعض انه يقع فى وسط وادي نهرى سيحون وجيحون الخصيبين . وقال البعض بل هو سفوح فلاة بامير ومنابع النهرين الكبيرين المباركة . واعتقد آخرون انه يشغل كل الاجزاء الخصيبة التي تجاور بلاد ما وراء النهر .

واذا اخذنا براي الاغلبية لحكمنا بأن أول موطن للشعوب الآرية الايرانية ـ بعد انفصالها عن بقية الشعوب الآرية ـ هو آسيا الصغرى.

ويرى المحققون امثال تيل Tiele يوستي Yusti ، ماركوارت Marquart وآندراس Andreas أن الموطن المذكور يقع الى جانب خوارزم وخيوه الحاليين .. أي

---

(٩) تتعدد البحوث حول اجابة السؤال التالى :

اين كان اول مقر للهندو اوروبيين الاصليين ؟

تتفاوت آراء علماء الاجناس واللغات فى القرنين التاسع عشر والعشرين حول هذا الموضوع ومن جملة الاسماء التي ذكروها فى هذا الشأن : اوروبا الشرقية ،اوروبا الشمالية (البلاد الاسكندنافية) ، سواحل البحر الاسود ، وناحية من نواحي آسيا الوسطى .

(١٠) استعمل الكتاب اليونانيون اسم Aryen (enne)ـ منذ اقدم العصور ـ لنفس الغرض ، ارجع الى دائرة المعارف ـ لاروس ، والى تاريخ ايران باستان ،.تاليف المرحوم بشير الدولة ، الطبعة الاولى ، ص ١٥٣ وما بعدها ، والى يسناها ـ الاستاذ بور داود ج ١ص ٣٤ .

يضاف الى ذلك انه يكثر فى الاشارات القديمة التي خلفها الايرانيون اطلاق اسم الآريين على الايرانيين . فنجد ان « داريوش الكبير » ـ على سبيل المثال ـ قداعتبر نفسه فى نقش رستم (آريا ومن العنصر الآرى) . وبالرجوع الى مهريشت نجد انه قد اشير فيها الى مشاهدةمهر للمواطن الآرية Airyana Shayanem .

في الناحية التى أطلق عليها في الأفستا ــ كتاب زرادشت المقدس ــ اسم آئيرين واجه (ايران ويج) Airyana-Vaéjah (١١)

ويمكننا القول بأن هذه الاقوام كانت تنقسم في جملتها الى مجموعتين اساسيتين ، يطلق على اولاهما ــ وهي التي تتميز بالقوة والعنف ــ اسم (سك) . بينما يطلق على المجموعة الثانية ــ وهي التي تفوق الاولى تمدنا وحضارة ــ اسم (آري) .

ويرد اسم السكا في المتون الاوروبية قديمها وحديثها على النحو التالي :
Scythe, Sace Saka (وهو نفس الاسم المأخوذ من الاصل اليوناني « شكوث ») .

وبناء على ما ذكره هيرودوت فان هذه الطائفة هي الطائفة نفسها التي كان أفرادها يسمون انفسهم Scolotes .

وكان السكا دائمي الترحال لا يقر لهم قرار ، كما كانوا فرسانا يتميزون بالشجاعة والاقدام والمهارة في تفويق السهام . وطبقا لاقوال الجغرافيين والمؤرخين أمثال (هيرودوت (Herodote) كتزياس (Ktésias) ، جوستن (Justin) ، وديودور سيسلي Diodore de Sicile
فقد استطاع السكا بفضل هذه الشجاعة وتلك المهارة ان يسيطروا في سرعة خاطفة على آسيا الوسطى ، وان يخضعوا لسيطرتهم المنطقة المحصورة بين حدود جيحون من جهة القوقاز وسواحل البحر الاسود من جهة أخرى .

وفي القرن السابع قبل الميلاد تمكن هؤلاء القوم من عبور جبال القوقاز ، وتدفقوا في الاماكن المجاورة لما بين النهرين ، حيث هزموا « كواكسارس » الملك المادي ، قبل ان يسلكوا الطريق الى حدود مصر . وقد نجم عن تقدمهم وغلبتهم خراب كبير ، ولم تتمكن الدولة المادية من الخلاص من براثنهم الا باللجوء للحيلة والخديعة ، وقتل زعمائهم في وليمة رسمية . (١٢)

ويرى بعض الدارسين ان قبيلتي داه Daha وسئيريم Saïrima ــ اللذين ورد اسمهما في افستان ــ قبيلتان ايرانيتان ، بينما يرى البعض الآخر انهما تنتميان الى السكا .

وكلمة داه تلفظ في السنسكريتية (داس) ، وهي تعني قبائل العدو الشريرة التي تحمل صفات الشيطان . وبناء على قول آرين Arrien

---

(١١) فيما يتعلق بهذه الكلمة والشروح المستفيضة حولها ، ارجع الى : اليستا ، درج ١ تحت عنوان « ايران ويج » للاستاذ بور داود ، ص ٣٨ وما بعدها مزدا برستى در ايران ، ترجمة الدكتور صفا عن رسالتى كريستنى سن ، متن الصفحات ١٣ ، ١٤ ، ١٥ وحواشيها ، طبع طهران ١٣٣٦ .

هذا ، وقد لفظ بعض المستشرقين (آندراس وبيعه كريستن سن Arthur Christensen كلمة اليرين واجه على النحو التالى : آرين ، ويوجه Aryana vyôcah ولكن الرواية التقليدية لهذه الكلمة تاخذ الصورة التى كتبناها .

انظر : مزدا برستى در ايران ، للدكتور صفا ، حاشية ص ١٣ .

(١٢) اورد هيرودوت شرحا مسهبا عن السكا الغربيين ومساكنهم ، وذكر عاداتهم وتقاليدهم ، وهو شرح هام يستحق الدراسة والتمحيص .

انظر : تاريخ هيرودوت (كتاب ١٤ ــ ٨٢) .

وفيما يتعلق بالسكا ، ارجع الى : ايران باستان ، للمرحوم مشير الدولة ، ج ١ ط ١ ص ٥٧٧ ــ ٦١٨ ، ج ٣ ط ٢ ، ص ٢٢٥٦ ــ ٢٢٥٧ ، ٢٢٦٢ ــ ٢٢٦٥ .

فان قبيلة داه أو دا أى dâoi أو داه Dahae كانت تسكن شمال جرجان (هيركانيا) ومرو على عهد الاسكندر . وبناء على قول غيره من المؤرخين فانها لم تترك شمالي جرجان قط ، وظلت هناك على نحو جعلهم يطلقون على هذه الناحية اسم (دهستان) . (١٣)

اما الاسم سئيريم Sairima ــ سارمات Sarmate فقد ورد فى الفقرة ١٤٣ من اليشت ١٣ (فروردين يشت) . ويرى **دوهار له** أن مملكة سئيريم هي سورية وآسيا الغربية ، ويرى ماركوارث ان سئيريم تعني شعب سور ماتاى Sauromat (١٤) .

ويقصد بكلمة (سرم) الواردة فى أفستا العصر الاشكاني نفس شعب (سارمات) الذي ذكره الكتاب اليونانيون القدماء . ويحتمل ايضا ان يكون (سورماتاى) و (سارمات) اسمين لشعبين مختلفين . (١٥)

وقد أخذت قبائل سارمات العديدة ــ التي نشاهد اسمها فى المتون اليونانية . كتاريخ هيرودوت ــ تنتشر ابتداء من القرن الخامس قبل الميلاد تقريبا فى الممالك الواسعة الواقعة بين البيلقان والسواحل الغربية لبحرمازندران . وكانت هذه الجهات الواسعة تنقسم الى قسمين :

سارماتى الغربية (أوروبية) وسارماتى الشرقية (آسيوية) .

وطبقا لما ورد فى احدى القصص القديمة فان قبائل سارمات أو سوروماتSauromate قد نشأت عن اختلاط السكا والعنصر الامازوني Amazone وعلى أي حال فان قبائل سارمات من نفس جنس قبائل السكا ، وكانت تحارب الى جوارها جنبا الى جنب ضد الشاهنشاه الهخامنشي « داريوش » .

وقد نشأت قصة « سلم » (=سرم) وحربه الى جانب أخيه « تور » ضد « ايرج » .. نتيجة لصراع قبائل سارمات (سورمات) مع الايرانيين ، تلك القبائل التي كان يتكون من مجموعها (شعب سئيريم) الوارد فى الافستا .

هذا وترد فى النقوش الهخامنشية والكتابات الفارسية واليونانية عدة أسماء لقبائل اخرى غير ما ذكرنا . ومن بين هذه الاسماء : سك هئوم ورك Saka-Haoma-Varka (١٦) ، سك تيكرخئوده Saka-Tigra-Axodah (١٧) وكل طائفة من هاتين الطائفتين فرع من السكا مجاور لسيحون .

ويقصد ب Sakâtyaya-tara-darayâ البلاد التي استوطنها السكا فيما وراء البحر ونعني بالبحر هنا البحر الاسود . كما يقصد بها مجموعة السكا الاوروبيين .

وفى العصرين المادي والهخامنشي اكثر عدد من هذه القبائل من الاغارة على الآريين

(١٣) مزدا برستى در ايران قديم ص ٨٥ .

(١٤) (سئوروم ــ ت) Sauruma-ta يتكرر فيهاحرف « U » وتستعمل التاء فى حالة الجمع . وقد كان فى الاصل طبقا لرسم ايران الشمالية (سئى ريم) بتكرارالحرف (أ) ..

(١٥) انظر : مزدا برستى در ايران قديم ، ترجمةدكتر صفا عن رسالتى كريستن سن ، ص ٨٣ ــ ٨٤ .

(١٦) هئوم = هوم : وهو عشب مقدس لدى الآريين القدماء . ومن المسلم به ان هذا العشب كان مقدسا ايضا لدى ابناء عمومتهم من السكا .. وكان يستخدم فى الاحتفالات الدينية . ورك يعنى برك اى ورقة شجر .

(١٧) الاسم يعنى السكا التشيطين .

الايرانيين . وقد تمكن داريوش الكبير ــ لاول مرة ــ من اخضاع معظمها ، وأفلح فى ادخالها فى طاعة الدولة الايرانية . (١٨)

وقد ترك طول الصراع والجلاد بين الايرانيين والسكا أعمق الاثر فى قصص ايران الشعبي . ووضح فى الكتب ابتداء من الاڤستا حتى الشاهنامة . وباتت هذه الصراعات تشكل جانبا من مادة تاريخ ايران البطولي ، وحين حلت القبائل الصفراء الاورال التائية محل عناصر آسيا الوسطى البيضاء ، وشغلت مكانها فى القرون التالية ، نسبت كل هذه الاحداث التاريخية المرتبطة بها الى العناصر الصفراء التورانية . بينما تؤكد التحقيقات ويثبت الحديث من الابحاث انه حتى العنصر التوري (التوراني) ــ وهو العنصر الذي تكرر ذكر اسمه فى الاڤستا ــ كان هو الآخر ــ بكل أبطاله وملوكه ــ أحد عناصر آسيا الوسطى الهندو أوروبية .

ويطلق الاسم : اورال التائى Ouralo-Altaique على مجموعة من الاجناس البشرية ولغاتها ، وهى الاجناس التى كانت تقع مواطنها الاصلية بين سلسلة جبال اورال (الواقعة فى أوروبا الشرقية ، والتى تعد الحد الفاصل بين اوروبا وآسيا) وبين جبال التائى فى منشوريا ، ثم انقسمت بعد ذلك بسبب تفرق ابنائها وتبعثرهم .

ومن الاسماء الاخرى التى تسمى بها الأجناس الأورال التائية :

اورالى Ouralien ، اوكروفنلاى Ougro-Finnois ، اوكرو التائى Ougro-Altaique ، فينو اوكرابى Finno-Ougrien ، فينو تاتارى Finno-tatar ، تورانى ، وغيرها .

ويطلق الايرانيون على هذا الجنس فى أدبهم الفارسى اسم الترك والتورانيين . وينسبون اليهم العديد من الاقوام أمثال :

الهون ، القرقيز (الخرخيز) ، القرلق (قارلق ، خرلخ ، خلخ) ، الغز (التركمان ، تغزغز ، تغوزا ، غوز) ، القفجاق ، الكيماك يغما ، توخشى ، القنقلى ، الخزر ، التتار ، المغول ، الخطأ وامثالها) .

قدم الآريون الايرانيون الى ايران ــ كما رأينا ــ من عدة أماكن ، وسلكوا اكثر من طريق ، وتمت هجرتهم تدريجيا . وحين وطئت قدم أول جنس آرى فلوات ايران .. تبعتها اقدام بقية القبائل ، وأخذت فى الانسياح تدريجيا . غير أن دخولها البلاد وانتشار نفوذها لم يكن بالأمر الهين السهل ، فقد اضطرت الى الصدام بمن تقدمها من قبائل. ولم تنج احداها من الوقوع فى قبضة قبائل السكا التى كانت تهاجم حدود سيحون ، ويصل بها الهجوم الى أعماق ما وراء النهر والجهات القريبة من آموية .

وكما نتج عن اصطدام الايرانيين بالسكا قصص بطولية عديدة .. فقد نسجت أذهان الايرانيين الشرقيين اكثر من قصة نتيجة للحروب التى وقعت بين الايرانيين وتلك الشعوب التى ذكرناها . . وهذه القصص تشكل التراث القصصى البطولى الشعبى لايران .

وقد تسببت هجمات الأورال التائيين على قبائل السكا فى اضطرارها الى التقهقر ، واتجاه بعضها شطر حدود ايران الشمالية والشرقية . كما تسببت هذه الهجمات نفسها فى ارتباط طوائف أكبر ببنى عمومتها ، وذلك فى الاراضى الواقعة شمالى بحر الخزر وغربه، أو البحر الاسود ، أو الاراضى الشرقية لشبه

---

(١٨) ارجع الى : تاريخ ايران باستان (تاريخ ايران القديم) للمرحوم مشير الدولة ، ج ١ ص ١٨٢ ــ ١٨٤ ، ص ٦١١ وما بعدها .

جزيرة البلقان .. تاركة منازلها ومساكنها للجنس الاصفر .

وحين اصبح الايرانيون جيرانا للاوراليين والالتائيين ، اخذوا يتذكرون الوقائع التى تمت على يد سكان سيحون وجيحون ، فمحوا من اذهانهم ذكرى السكا ، وانضموا الى الجيران الجدد .

ونجد من المناسب هنا ايضا ان نتحدث عن الاسم تورى Turya فنقول انه فى المقام الاول كلمة من كلمات الافستا نسبة الى تور Tûra وتعنى تورانى .

أما كلمة توران الواردة فى القصص الشعبى وفى التاريخ فهى اسم للبلاد التى كانت تقع فى شمال شرقى ايران . ويرتبط هذا الاسم باواخر العصر السابق على العصر الوسيط فى تاريخ ايران ، أو ربما يرتبط بأوائل العصر الوسيط .

ويعرف دارسو البهلوية ان الاداة (ان) تستخدم فى تلك اللغة كأداة من أدوات النسبة مع الاشخاص والطوائف ، فيقولون مع الاشخاص مثلا :

وزر كمتر بوختكان ، بهمن سپند داتان ، رام وشتاسپان .

ويقولون مع الطوائف والشعوب :

خوزان ، ديلمان ....

وبناء عليه فان (توران) تعنى ناحية منسوبة الى شعب (تور) .

وقد ورد ذكر اسم قبيلة تور فى الافستا عدة مرات (١٩) .. مقترنا بلقب آسو اسب Asu-aspa اى مالك الجواد السريع ، كما ذكرت باعتبارها عدوة للايرانيين وهذه الكلمة تلفظ عند النسبة : توريه Turya (تورى ، تورانى) . وقد ورد اسم البلاد التى عاش فيها شعب تور ــ أى توران ــ فى الافستا على هذه الصورة : تورين Turyana وكان من بين ابناء هذا الشعب من يعتقدون فى مزديسنا . (٢٠)

ويمكننا الاستفادة من اشارة آبان يشت (٢١) فى تحديد محل سكنى التورانيين ، وتعنى بذلك الاشارة الخاصة بحرب (توس تهم) قائد الجيوش مع شباب أسرة واس (ويسه) الملكية . وقد وقعت تلك الحرب فى ممر (خشتر سوك) على مشارف قلعة كنك . ولو اخذنا بما قاله ماركوارت Marquart فى ابحاثه من ان هذه القلعة كانت فى بخارى .. لترتب على ذلك ان يكون موضع سكنى التورانيين هو هذا الجانب من جيحون المحصور بين بخارى وبحيرة خوارزم . ويتفق بطليموس مع ماركوارت فى اعتبار توران نفس خوارزم .

ويساعدنا تحقيق ماركوارت هذا فى الاتجاه الى التفكير فى ان التورانيين فرع من الجنس الآرى الايرانى (٢٢) . كما يجعلنا نحكم بخطأ كل الاشارات الواردة فى المتون البهلوية

---

(١٩) يشت ١٣ ، البندان ١١٣ ، ١٢٣ ، ويشت ١٧ ، البندان ٥٥ ، ٥٦ .

(٢٠) يسناى ١٢ بند ٤٦ ، فروردين يشت بندهاى ١١٢ ، ١٢٠ ، ١٢٣ ، ١٤٣ .

(٢١) البنود من ٥٣ ــ ٥٩

(٢٢) ارجع مقالة الاستاذ مينورسكى (Minorsky) وعنوانها توران ، وذلك فى دائرة المعارف الاسلامية .

وما تلاهــا من اشارات تتعــلق باعتبــارهم اتراكا (٢٣) . وهكذا نفترض قرابة التورانيين للاريين الايرانيين . ونخلص الى ان الشعب الايرانى الذى هاجر الى بلاد ايران واستقر فى المدينة قد طــرد القبائل الآرية الاخـرى التى كانت مازالت تسكن الخيام ، وتهاجم البلاد العامرة المجاورة طلبا للوقت .. وانه ـ اى الشعب الايرانى ـ قد اعتبر هذه القبائل من طينـة غير طينته .

والواقع ان اســماء المـلوك والابطال التورانيين امثال :

فرنجرسين Frangrasyana) فراسياب ، افراسياب (، اغرارث Aghraeratha(اغريرث كرسوزد Keresavazda(كرسيوز) ، ارجـت آسب Aredjat-aspa (ارجاسب) بمعنى (مالك الجواد والمنزلة) ، وندر منّى فيشــن Wandere Mainish (وهـــو فى الشاهنامة انديرمان) واوسك Vaesaka كلها اسماء آرية ايرانية ، ولا يوجـد أدنـى تشابه بين اسم منها واسم من اسماء الاورال التائيين .

ولم تكن هناك علاقــة جوار أصلا بين الآريــين والايرانيين وبين القبائــل الصفراء الاورالية والالتائية فى عصر تدوين الافستا .

وقد حدث هجوم قبائل السكا وضغطهم علــى الحــدود الشاهنشاهية الاشكانيــة فى اواسـط القرن الثانى قبـل الميلاد . ويرجع السـبب فى ذلــك الى أن عــددا مــن القبائل الاورالتائية قد غيرت طريــق غاراتها ـ بعد ان أمر « سين » امبراطور الصين بانشاء سور الصين العظيم ـ واصبح هجومها موجها الى الغرب . وقد بدات هذه القبائل الاورالتائية بمهاجمة بعض قبائل السكا من سكان آسيا الصغرى . وكانت بداية الهجمات موجهة من قبل قبائل (يوئه جى) التى كانـت بدورها عرضة لهجوم قبائل الهون (خيونان ، طبقا للتسـميــة التــى وردت فى الكتاب البهلـوى آياتكار زريران) التى الحقت بها الهزيمة فى حدود عام ٢٠٠ قبل الميلاد .

وقد اغارت قبائل يوئه چى ـ بعـــد فقدان منازلها ـ على حدود أراضى ســيحون الشرقية ، وطردت قبائل السكا نحو الجنوب الغربى . وكان فرهاد الثانى (١٣٦ ـ ١٢٧ ق . م) اول من تصدى لهم من بين الملوك الاشكانيين ، وقد قتل خلال حربه معهم .

وفى غمرة هذه الاحداث اغار السكا على الجهات الغربية من دولة اليونان ، ثم استقروا فى افغانستان الحالية ، وطردوا يونانيي الغرب نحو كابل ووادى السند . ولم يمض طويل وقت حتى سقطت بقية دولة اليونان الغربية فى أيديهم فكونوا دولة جديدة هندوسكائية تقع بين حدود رُخّج ووادى السند . كمـا ادت تلك الغارات أيضا الى سكنى قبائل من السكا ـ قدمت من أطراف سيحون وانحاء جيحون ـ فى مملكة سيستان .

وكان اسم سيستان ـ قبل ســكنى السكا فى شرقى ايران ـ يرد فى الروايات الايرانية على هذه الصورة : زرنك Zaranka

---

(٢٣) ارجع فى هذا الصدد الى :

اولا : مقالة استاذى وصديقى الفاضل « السيدمينورسكى »

ثانيا : دراساتى فى كتاب : « حماسة سرايى در ايران » ، چاپ دوم ١٣٣٣ ص ٦١٣ .

وهو نفس الاسم الذى كان اليونانيون يكتبونه درنكيانا Drangiana . وقد حددوها من الشمال بآريانا (خراسان) ، ومن الشرق بآرخوزيا Arachosia (رخج) ومن الجنوب بـ كدروزيا Gedrosia ، ومن الغرب بكرمانيا Caramania (كرمان) .

اما بعد سكناهم فى شرقى ايران فقد تحولت زرنك (درنكيانا) الى سكستان .وهى نفسها الكلمة التى تطورت فى العهد الاسلامى الى سجستان وسيستان .

والنسبة الى هذه الولاية فى الفارسية (سكزى) سجزى ، اما اسم الولاية القديمة فقد ظل يطلق على المدينة الرئيسية (سيستان) وحدها ، وهى المدينة التى ظل اسمها لفترة من فترات العهد الاسلامى (زرنج) . (٢٤)

وعلى اثر مجاورة العناصر الصفراء للامبراطورية الايرانية عرف الايرانيون القبائل الاورالية والالتائية على حدود نجد ايران الشرقية ، واطلقوا عليها فى آثارهم الادبية ـ التى يرجع تاريخها الى القرون الميلادية ـ اسم خيون تارة وهفتال تارة أخرى . .واخيرا اطلق عليها اسم الترك . (٢٥)

وفى قصص ايران الشعبية البطولية ـ تلك القصص التى يرجع تاريخ وضعها وتدوينها الى مابعد القرن الثانى الميلادى ـ نسبت كل الاحداث التى جرت بين الشعوب الآرية الايرانية وبين سائر الشعوب الآرية فى جيحون وسواحل سيحون .. الى هذه الاجناس الصفراء بعينها .

ويبدو أن غارات القبائل الصفراء وهجماتها كانت سببا فى الهجرات التى قام بها العديد من طوائف السكا ، وتركها آسيا الوسطى وانضمامها الى زميلاتها فى العنصر ، وسكناها فى سواحل بحر مازندران الشرقية والشمالية واقامتها فى الاراضي الواقعة شمالى البحر الاسود وشماله الغربى .

ذكرنا آنفا ان قبائل آسيا الوسطى الهند أوربية كانت تنقسم الى شعبتين كبيرتين هما السكا والآريين . وتعتبر القبائل الآرية التى نسميها بالهندو ايرانية بمثابة الآباء لشعبى ايران والهند الكبيرين . وكانت تطلق على نفسها لقب (ارى) اى الشجاعة والشريفة . وهذا هو السبب نفسه فى أنه حين عبر قسم من هذه القبائل اراضى (الهندوكوش) واستولى افراده على وادى السند وجزء من اراضى الهندوستان ، اطلق عليه اسم (ارى ورت) Aryavarta (٢٦)

كما انه بعد سكنى القسم الاخر ـ اى القوم الذين كانوا يطلقون على أنفسهم اسم (ائيرى) فى نجد ايران ـ بات يطلق على هذه البلاد اسم (ائيرين) أى بلاد الآريين (بلاد

---

(٢٤) ارجع الى معجم البلدان لياقوت ، تحت كلمةزرنج .

(٢٥) الترك : نفس الكلمة التي استخدمت فيجميع الكتب الفارسية والعربية فى العصر الاسلامى تسمية لسائر قبائل آسيا الوسطى الصفراء .

ارجع الى : تاريخ أدبيات در ايران ، الدكتورصفا ، ج ٢ طهران ١٣٣٦ ، ص ٧٧ وما بعدها .

(٢٦) اطلقت هذه القبائل على تلك البلاد اسم(بهارت ورش) Bharatavarsha او بهارت بهومى Bhârata dhumi اما الايرانيون فقد اطلقواعليها اسم (الهند) .

ارجع الى : سنا : آقاى بور داود ، ج ١ ص ٣٤

الشعب الآرى) (٢٧) . وظـل هـذا الاسم يستعمل فى عصور ايران التاريخية بأسرهـا ومازال . وكان يلفظ فى لهجات ايران الوسيطة على هذا النحو اران وارانشتر ، ويلفظ فى اللهجات الحديثة : ايران وايرانشهر .

وقد توقفت هجرات القبائل الآرية الى ايران فى اواسط الالف الثـانية قبل ميـلاد المسيح .. وبين أيدينا الكثير من الادلة التى التى تثبت هذا الامر ، من بينها ما يستقى من متون الهيتيين .. سكان آسيا الصغرى .

والشعب الهيتى Hittite او Hétèen او Hétheèn يسـمى فى اللغـة اليـونانية ختايوس Khettaios ، وفى السريانيةختى Khati ويشكل احد شعوب آسيا القديمة التى كانت تسكن المنطقة الواقعة على نهـر هاليس Halys واعالى نهر الفرات فىالعصور التاريخية الموغلة فى القدم . وكان هـذا الشعب يخضع فى بعض العصور للامبراطورية الآشورية ، وفى بعضها لفراعنة مصر . وكان يعبد الاوثان ، ويطلق على رب الارباب لديه اسم خاتى Khâti وكان حكامه يسيرون على طريقة ملوك الطوائف فى حكمهم ، اما الامراء فكانوا يدينون بالطاعة لملك واحد كبير .

ويؤثر عن الهيتيين ان نفوذهم قد سرى لعدة قرون ، سيطروا فيها على ممالك تابعة لآسيا الصغرى وسوريا ووديان الفرات العليا، وذلك قبل ان تخضعهم آشور فى القرن التاسع قبل الميلاد . ولم يحاول الهيتيون اسـتعادة ما سلب منهم ، ولم ينهضوا طلبا للاستقلال وانهاروا بصفة نهائية . والمتون التى نعنيهـا والتى تنسب الى هذا الشعب ترجع كتابتها الى القرن الرابع عشر قبل الميلاد تقريبا . وقد تم العثور عليها اثناء الحفريات التى أجريت بين الميتانيين ــ سكان شمال بين النهرين ــ وبين الدولة الهيتية .

وفى هذه المتون يقسم الامراء الميتانيـون بآلة الآريين امثال (ميثر) (٢٩) Mithra (ورون) Varuma ، و (ايسندرا) Indra اله الحرب لدى الهنود والآريين ــ وناس‌تياس Nasatyas وهذا القسم فى حد ذاته يدل على تغلغل نفوذ الهند وايرانيين فى فلاة ايران قبل التاريخ المذكور .

وقد تصور البعض ــ بسبب ظهـور اسماء هذه الآلهة ــ أن عددا من الهنود أو جيرانهم الذين كانوا يعبدون الفدا قد هاجروا الى آسيا الصغرى وحملوا معهم هذه الاسماء

---

(٢٧) Airyana ايران : تعنى بلاد الآريين (ائيريه Airya) . ويجب ان يسمى غير الايرانى : آن اليري (Anairya) ، وان تسمى ما عدا ايـران آن ائيريـن(Anairyana) .

وكلمة ائيرين فى اللهجة البهلوية : اران êrân وفىالفارسية ايران .

وكلمة آن اليرين فى البهلوية تلفظ انيران (بالياءالمجهولة) واذا استخدمت فى الفارسية فانها تقرأ ــ طبقا للقاعدة ــ (انيران) ، باستعمال الياء المعروفة .

(٢٨) بغازكويـى Boghazkoi او بغاز كيوئـي Boghaz-Keui اسم قرية فى تركيا تقع فى مدينة انقرة (انكارا) . وتوجد اطلال مدينة بتر Ptérium فى المرتفعات المطلة على هذه القرية .

(٢٩) ميثر Mithra هى فى السنسكريتية متير Mitra ، وفى البهلوية متر Mitre وفى الفارسية مهر . مثير اسم اله من اهم آلهة الدين الافستى . ومدحهذا الاله قائم على جذور هندية وايرانية .. وقد كان فى حد ذاته علة ظهور دين خاص باسم مهر برستى ، اى عبادةمهر Mitraisme . فيما يتعلق ب (مهر) انظر : اقاى پور داود ، يشتها ، ج ١ ص ٣٩٢ وما بعدها .

بينما تصور غيرهم أن المهاجرين كانوا من الآريين الذين وفدوا من جانب بحر مازندان، واحضروا معهم عقائد أجدادهم الهندوايرانيين والرأى الاكثر قبولا والاقرب الى الصواب هو أن الميتانيين قد اخذوا أسماء هذه الالهة عن جيرانهم الجدد الذين كانوا قد ظهروا فى نجد ايران ، ونعنى بهم الآريين الايرانيين ، وكان هؤلاء بدورهم قد ورثوا الاسماء عن أسلافهم الهندوايرانيين .

ويستنتج من ذلك أن الآريين قد ظهروا فى نجد ايران قبل حلول القرن الرابع عشر قبل الميلاد . (٣٠)

وتوالت الهجرات الى ايران عن طريق الشرق والشمال واستمرت فترة طويلة . واقرب الآراء الى الصحة بالنسبة لما يتعلق بالطريق الذى سلكه الآريون فى هجرتهم الى نجد ايران هو ان مجموعة كبيرة منهم قد وفدت الى ايران عن طريق جيحون . ويجب أن نعتمد فى هذا الصدد على اشارة الافستا الواردة فى (فركود اول ونديداد) * ، حيث يدور الحديث أول مايدور حول خلق (آئيرين واجه) بمشيئة (آهو رمزدا) وقدرته ، ثم ينص على أنه بعد افساد (اهريمن) وتخريبه فى تلك البلاد . استحكم بردشديد ، واصبحت مدة الشتاء ١٠ شهور ، ومدة الصيف شهرين وكان شهرا الصيف بدورهما باردين لهما تاثيرهما القاسى على الماء والارض والعشب . عندئذ خلق اهور مزدا اراضى أخرى مثمرة مثل :

سوغد Sughdha (سغد) ، مورو Mouru (مرو) ، باخذى Bâkhdhi (بلخ) ، نيسايه Nisaya (نسا) بين مرو وبلخ ، هرئو Haraeva (هرات) ، واكرت Vaekereta (كابل) ، أورو Urva وموقعها فى خراسان الحالية ، وخننكت Khnengta فى بلاد وهركن Vehrkana (كر كان = جرجان) .

(و (وهركن) هي نفس الاسم الذي ورد فى نقوش بيستون مضبوطا على النحو التالي : وركن Varkana ، ورد فى المتون اليونانية على النحو التالي : هيركانيا Hyreania والرى (رغ Ragha) . (ويرى البعض نتيجة تأثرها بالتفاسير البهلوية أنها نفس المدينة المجاورة لطهران حاليا . بينما يعتقد كيبرت Kiepert ودوهار له De Harlez انها مدينة (راكايا Ragaia) الواقعة فى بلاد (برئو) أي بارث التي اشار اليها بطليموس فى كتابه الخاص بالجغرافيا) .

وعقب هذه الاسماء وردت فى هذا الفركرد أسماء ممالك أخرى تصل الى هتاهندو Haptâhindu ، أي تشمل قسما من بلاد السند وحدود الهند . وهذه هي النواحي التي هجرها الآريون متنقلين فى انحائها المختلفة هربا من الكوارث التي كانوا يواجهونها حيث ينزلون .

ويوضح خط السير ان حركة الآريين كانت تتجه من جنوب بحيرة خوارزم حتى خراسان وكابل والسند من جهة ، وتتجه غربا حتى تبلغ غربي كومش (قومس) وحدود الرى من جهة أخرى .

---

(٣٠) ارجع فى ذلك الموضوع بصفة خاصة الى :

كريستن سن : ملاحظاتى در بارة قد يمترين عهودآيين زردشتى (در مجموعة مزدا برستي در ايران قديم ، ترجمة دكتر صفا ، ص ٢٣ ـ ٢٦) .

* الونديداد : اسم النسك العشرين فى كتاب الزند .

وبناء على بعض الآراء .. فقد استمرت هذه الحركة من المشرق الى المغرب ، وبلغت الاجزاء الوسطى من آذربيجان .

وفى عام ٨٣٦ قبل الميلاد — وقت ان كان شلم نسر الثاني يحارب الآريين فى نجد ايران — كانت هناك قبائل اخرى باسم بارسوا آ (بالضبط الآشوري) . وكانت هذه القبائل تعيش فى شمال الممالك التابعة للقبائل المادية قبل ان تتجه جنوبا تاركة وديان مغرب ايران ، وتسكن بلاد فارس .

وهناك رأي يؤكد ان طائفتي ماد وبارس قد قدمتا معا الى ايران عن طريق جبال القفقاز ، وبعد أن عاشتا معا فترة من الوقت انفصلتا عن بعضهما البعض .

واستطاعت القبائل الدائبة الحركة أن تطهر الانحاء الشمالية الغربية ، والغربية ، والوسطى ، والشرقية من بلاد ايران ، فتطرد منها سكانها وتحل محلهم .

وكما يبدو من نقش شلم نسر الثاني الملك الآشوري Shalmanassar II فان من سكنوا المناطق المذكورة كانوا ينتمون الى قبيلتي (ماداى) Madai و (بارسو آ) Parsua ، وان هذا يرجع الى القرن التاسع قبل الميلاد طبقا للضبط الآشوري . كما يتضح من النقش ان ملك آشور كان فى عام ٨٣٧ ق.م يخضع تلكما القبيلتين لنفوذه ،ويحصل على خراج منهما .

وتجمع الآراء على ان قبائل (ماداى) هى نفسها قبائل (ماد) ، اما قبائل (بارسوآ) فان البعض يحكم بأنها نفس شعب بارث (أصلها برثو Parthava) ، بينما يحكم آخرون بانها قبائل (بارس) ، وظاهر الكلمة يؤيد صحة الحكم الثاني (٣١) .

وكانت قبائل بارس ما تزال تسكن فى تلك الآونة شمالي بحيرة (أورمية) .. اي شمالي نفس البحيرة التي ورد اسمها هكذا فى متون الافستا : (جئجست) (٣٢) Tchaêtchasta ، وفى المتون البهلوية : (جچست) Tchêtchast وفى شاهنامة الاستاذ أبى القاسم الفردوسي (جيجست) .

اما الطائفة التي عبرت جيحون ، واختارت انحاء ايران الشرقية والشمالية الشرقية مكانا لسكناها .. فهي نفس الطائفة التي راجت الافستا بين افرادها باللهجة التي كانت متداولة بينهم .

وطبقا للاشارات الواردة فى الكاثات واليشتات القديمة أمثال : مهريشت وآبان يشت ، وبناء على ما ورد فى قطعات اليسنات القديمة التي يعود زمنها برمتها الى ما بين القرنين الخامس والعاشر قبل الميلاد .. (٣٣)

---

(٣١) رسالة كريستن سن بعنوان : ملاحظاتى ،در بارة قديمترين عهودآيين زرتشتى . (ملاحظات حول اقدم عهود الدين الزردشتى) ، وهى الرسالة التىترجمتها ضمن مجموعة « مزدا يرستى در ايران قديم » ص ٢٧ ، ٢٨ . (تاريخ ايران باستان) للمرحوم مشيرالدولة بيرنيا ، ج ١ ص ١٦٩ . ويثبت هذا المرجع أن حملة شلم نسر قد كانت فى عام ٨٣٨ قبل الميلاد .

(٣٢) اورميه هى الاسم السريانى لـ « جيجيست »اى الرضائية الحالية ، ومعناها المدينة التى على شاطىء النهر ، ويلفظ هذا الاسم فى الآونة الاخيرة خطأ « اروميه ».

(٣٣) فيما يتعلق بتاريخ اليشتات ، انظر :

رسالة (تحقيقات در باب كيش زرتشتى ايرانباستانى) ، تاليف المرحوم آرثر كيستن سن ، التى قمت بترجمتها ضمن مجموعة « مزدا يرستى در ايران قديم »(عبادة مزدا فى ايران القديمة) ، ويمكن الاستفادة بصفة خاصة من الفهرست الذى طبع فى ص ١٢٢ .

كان يحكم هذه الطائفة عدد من الامراء المحليين ، يلقب كل منهم بلقب (كوى) أو (كى) .

داولى الكلمتين نصادفها فى اكثر من موضع فى الكاثات واليشتات ، وهي نفسها الكلمة التي تغيرت فى اللغة البهلوية الى كي او كى بالياء المجهولة ké وهي نفسها التي تغيرت ايضا في اللغة الفارسية الى كي . واصبحت فى تاريخ ايران بمثابة لقب يطلق على مجموعة خاصة من الملوك بدأ حكمهم بتولية قباد .

وكلمة (كوى) ــ فى الافستا ــ الى جانب كونها لقب لمجموعة خاصة من الملوك ، فانها تعني مطلق شاه وأمير . وقد استخدمها الفردوسي الشاعر فى هذين المعنيين . فنجده فى البيتين التاليين مثلا يستخدم (كى) (٣٤) بمعنى شاه ، وذلك عند حديثه عن أفريدون الذي لم يكن ولا شك عضوا فى سلسلة الكيانيين :

ندانست خود افريدون كجاست
سراندر كشيد وهمى رفت راست
جو آن بوست نيزة بر ديدكى
بنيكى يكى اختر افكند بى

ويقال ان هؤلاء الحكام من الامراء المحليين كانوا يبسطون نفوذهم على رقعة واسعة من الارض ، ويمتد حكمهم فيشمل جرجان ومازندران من جهة ، ووادى السند من جهة اخرى .

والواقع ان ليس بين ايدينا دليل تاريخي يمكننا الاعتماد عليه كلية فى هذا الصدد .

ولو اخذنا بما ورد فى الافستا من اشارات ، وبالمعلومات التي نصادفها فى القصص الشعبي الايراني .. لوجدنا ان نطاق نفوذ كاوس (كوى أوسن Kaviusan) أو (كوى اوسون Kavi usdhan) على سبيل المثال كان يمتد الى حدود وادي السند .. لاننا نرى اسمه فى الفدا على النحو التالي :

اوسنس كاوى Usanaskavya (٣٥) .

وطبقا لاشارات الافستا والمتون البهلوية الفارسية فان هذا الملك نفسه قد اغار على بلاد الشيطان المازندراني . ونستخلص من هذا اللون من الروايات رايا يقول بأن نطاق هجوم الكيانيين كان محصورا بين وادي السند ومازندران . ولا يستبعد ان يكون تقدمهم صوب مازندران قد تم عن طريق شمال خراسان وعن طريق جرجان .

ومهما يكن من امر فان أول ملك ورد ذكره فى الافستا من بين هؤلاء الحكام هو (كوى كوات) (كيقباد) ، واكبر الملوك واعظمهم هو (كوى هئو سروه) (كيخسرو) ، اما آخرهم فهد (كوى ويشتاسب) (كي كشتاسب) ظهير الرسول زردشت وحاميه ونصيره . ويشاهد أسم هذا الملك مرارا فى الكاثات .

وهناك تضارب فى الاقوال فيما يتعلق بالعصر الذي عاش فيه زرتشت . غير ان المحققين قديمهم وحديثهم يجمعون على أنه ينحصر بين القرنين الحادي عشر والسادس قبل الميلاد . ومن بين أقوال قدامى المحققين يبرز قول جدير بالاهتمام نادى به خسانتوس الليدي Xanthos de Iydie

---

(٣٤) ارجع فيما يتعلق بلفظ (كى) ومعانيها الى :
حماسة سرايى در ايران ، دكتر صفا ، چاپ دوم ، ض ٤٩١ ــ ٤٩٣ .

(٣٥) المرجع السابق ، ص ٥٠٩ .

الذي كان يعيش فى القرن الخامس قبل الميلاد . ومن قوله يفهم ان عهد زرتشت سابق على حملة خشاریاشا على اليونان بمدة ٦٠٠ سنة ، أي عام ١٠٨٠ ق.م. (٣٦)

ولو ثبت ان ظهور زورتشت الرسول كان قبل مولد المسيح بعشرة قرون لثبت بالتالي ان تاريخ السلسلة الكيانية سابق على هذا التاريخ .

وان مانشاهده فی تاريخ الكيانيين الاسطوري متعلقا بالملوك الذين حكموا بعد « كى كشتاسب » من خلط فى المعلومات لناجم عن تأثر بتاريخ الملوك الهخامنشيين ، كما انه وليد الافكار التي اختزنها الايرانيون فى اذهانهم حول هذه السلسلة عقب حملة الاسكندر . (٣٧)

ونحن لا نملك معلومات كافية عن وضع الآريين فی مشرق ايران قبل عهد الهخامنشيين . والمعروف ان هؤلاء الآريين كانوا ينقسمون الى شعاب عديدة ذات خطر . ولن نحصل على ما نشاء من معلومات الا اذا طبقنا اشارات الافستا على بعض الشواهد التاريخية ، واستفدنا منها فى هذا الصدد .

وتكمن اهمية هذه الطائفة فى ان اكبر مصلح ديني آرياني ايراني قد نشأ فى احضانها بالرغم من الروايات التي تنسبه الى (رك = الرى) و « جنجست = اورمية) . (٣٨)

ونعني بهذا المصلح زرتوشتر سبيتمه Zarathushtra Spitama « مالك الجمل الاصفر » كما يفضل البعض ترجمة اسمه . ويلاحظ ان هذا الاسم يضبط فى البهلوية على هذا النحو : Zaratucht ، وفى الفارسية على هذا النحو : زرتشت ــ زردشت ــ زرتهشت ــ زراتشت . هذا بالنسبة للقسم الاول منه ، اما القسم الثاني ونعنى به (سپی تم) فان معناه العنصر الابيض (سپید تخمه : البيضة البيضاء) . ويلزم بناء على هذا المعنى ان يكون اسما لاسرة زرتشت ، على النحو الذي كان متبعا فى ايران فى عصر الافستا . (٣٩)

وزرتوشتر هو الذي غير عبادة الشياطين الهندوايرانية ــ تلك العبادة التي كانت تمثل أرباب النوع غير المجردة والعوامل الطبيعية المختلفة أو المفاهيم المجسمة المعنوية ــ الى

---

(٣٦) ارجع فى هذا الصدد الى مقالة « زمان زرتشت » ، لاقاى پور داود ، يسنا ، ج ١ ص ٧٥ ــ ١١٠ ، مزدا پرستی در ایران ، ترجمة رسالتی كريستن سن للدكتور صفا ، ص ٢٧ ــ ٣٠ .

(٣٧) انظر : كيانيان Kayanides تاليف Arthur Christensen ، ترجمة دكتر صفا ، تهران ١٣٣٦ ص ١ وما بعدها ، حماسه سرايى در ايران از قد يمترين عهد تاريخى تاقرن چهاردهم هجرى ، چاب دوم ص ٤٨٤ ــ ٤٨٧ و ٥٣٧ ــ ٤٥٨ .

(٣٨) فيما يتعلق بمكان زرتشت اى محل ولادته والبيئة التى نشا فيها وبث فيها دعوته وفيما يتعلق بزمان وجوده .. يوجد نقاش وخلاف . ارجع فى ذلك الى :الكاتها ، للاستاذ ابراهيم پور داود ، ص ٢٣ ــ ٢٦

C. de Harlez, Avesta ; deuxième edition, Paris 1881 Introduction, p. XXIII - XXIV

بناء على المعلومات المستقاة من الافستا يجب ان يكون موضع ولادة زردتشت وحياته ومكان ظهوره وبثه رسالته هو النواحى الشرقية او الشمالية الشرقية لايران .

(٣٩) للاطلاع على بعض آراء العلماء حول معانى هذا الاسم المختلفة ، انظر :

C. de Harlez Manuel de la Iangue de L'Avesta, Paris 1882, p. 445

E. Blochet, Lexique des Fragments de L'Avesta, Paris 1900, p. 73

گاتها : ترجمة آقاى ابراهيم پور داود ، ص ٢٢ ، ٢٣ وغيرها .

عبادة المفاهيم المجردة . ويمكن ان يقال بعبارة اخرى انه أحل « مزد يسنا » القريب من التوحيد خلفا « لديويسنا » رفيق الشرك وحليفه .

ولهذه الطائفة اهمية اخرى وهي أنها تضع بين ايدينا المادة الاساسية للتاريخ الاسطوري وللملاحم القومية الايرانية . فقد ورد قسم من تاريخ ايران الاسطوري السابق على العهد الهخامنشي في واحدة من (نسكلت) الافستا المفقودة ، تسمى (جهردات نسك) . كما بقيت اجزاء هامة منه أيضا وذلك في النسكات المتبقية من الافستا ، خاصة في اليسنات والبشتات .

هذا وتشكل حروب أمراء وملوك الطوائف البارثيين بدورها قسما آخر من مادة ملاحمنا القومية . والبارثيين هم الذين ذاعت شهرتهم بعد العصر الافستي (العصر الزردشتي) .

وقد ربطت اذهان واضعي القصص الايرانيين بين اخبار معارك امراء وملوك الطوائف وبين حوادث العهد الافستي واخبار أبطاله ، واضافت الى ذلك بقايا المعلومات الخاصة بتاريخ الملوك الهخامانشيين وسيرتهم ، وعن هذا الطريق برزت الى الوجود القصص المدونة المعونة :

خد اينامه ها (الالهيات أو كتب الالهة) ، شاهنامه ها (كتب الملوك) (٤٠)

أما بالنسبة لتاريخ ايران المدون غير الاسطوري ـ على النحو الذي كتبه اليونانيون والروم والآراميون والارمن ـ وهو الذي تؤيده النقوش ، وتعززه الاشارات الواردة في كتب العهد القديم ، وبعض الآثار التي اكتشفت في ايران وما جاورها من ممالك . . فان هذا التاريخ يبدأ بايرانيي المغرب والجنوب . . أي الطائفة التي سلكت طريق جبال القوقاز الى مفازة ايران ، ثم انقسمت الى فرق كالارانيين والماديين والبارسيين ، وخضعت للدولة الآشورية فترة من عمرها .

وقد سكنت قبائل ماد ـ وهي احدى القبائل الآريانية الغربية ـ في الولايات التي كانت تبدأ من (الري) وتتقدم نحو المغرب شاملة مرتفعات زاجروس ، كما تتقدم نحو الطرف الشمالي والشمالي الغربي بالغة حدود نهوكورا . وهذه المنطقة هي نفسها المملكة التي تعرف باسم ماد الكبرى . واكبر مدنها مدينة (هك متان) ، وهي نفس المدينة التي كان الآشوريون يسمونها (آمادانا) ، ونسميها نحن الآن (همدان) .

وبين أسوار هذه المدينة العتيقة نفسها وضعت نواة دولة تاريخية لايران الغربية والوسطى ، وقد وضع هذه النواة (ديا اكو) عام ٧٠٨ قبل ميلاد المسيح .

وقد تمكنت دولة ماد خلال قرن ونصف من سيطرتها ـ اثر انقراض الدولة الاشورية القوية ـ من تأسيس امبراطورية واسعة مترامية الاطراف ، كانت تمتد من جنوب ايران حتى تشمل قسما من أراضي آسيا الصغرى . وبناء على هذا يمكن القول بأن القبائل المادية لم تلفت نظر القبائل الآرية الايرانية المتناثرة الى الدول المستقلة المستقرة المتمركزة فحسب ، بل انها أول القبائل الايرانية التي بسطت حكمها خارج اراضي الآريين الايرانيين، وعلمت من يشاركونها العنصر والارومة كيفية تشكيل الامبراطوريات.

---

(٤٠) قمت ببحث مفصل للغاية في كتاب « حماسه‌سرايى در ايران » كفتار جهارم ، تحت عنوان « بنياد داستانهاى ملى » الطبعة الثانية ص ٣٩٢ ـ ٦٢٩ ... حول أساس التاريخ والقصص الشعبي البطولي الايراني ، فليرجع اليه الراغبون .

وتصل المدة مابين العام الذى وضع فيه الماديون حجر الاساس فى امبراطورية ايران ــ وسط ايران ومغربها ــ وبين زماننا هــذا الى ٢٦٦٨ سنة . كما تبلغ المدة الواقعة بين التاريخ الذى اسقط فيه (هو وخشتر) ملك الماديين الامبراطورية الآشورية فى عام ٦٠٥ قبل الميلاد وبين عصرنا الحالى ٢٥٦٥ عاما . وطبقا لما ذكره هيرودوت فان أسماء ملوك ماد تسير على النحو التالى :

ديوكس ــ فرا ارتس ــ كياكسارس ــ آستياكس .

غير أن الفهرســت الذى ورد فى كتــابات كتزياس أكثر تفصيلا ، ويشتمل على ١٠ملوك يبلغ مجموع سنوات حكمهم ٣٥٠ سنة . ولو قبلنا هذه الرواية لقبلنا ان يكون تاريخ حكم سلسلة ماد الحقيقى قد بدأ منذ عام ٩٠٠ ق . م .

وقد انهارت الامبراطورية المادية بعد ١٥٨ عاما من تأسيسها . ويرجع السبب الرئيسى فى انهيارها الى انعـدام التشكيلات المنـظمة والتنسيق بين جهاز الدولة والبلاط ، كمـا يرجع الى ضعف الجنود وفتورهم اثر ثرائهم، والى الفرقة والشقاق والخلاف بين قــواد الدولة انفسهم .

وازاء هذه الحالة ، هبت طائفة أخــرى تابعة لقبائل ايران الغربية مستهدفة حمـل راية العنصر ومواصلة المسيرة . وهى نفس الطائفة التى كانت قد حررت قسما منجنوب ايران ــ منذ مدة ــ واستخلصته من أيدى سكانه . اما القبائل التى تتبعها فهى قبــائل بارس ذات الاقسام العشرة .

ويبلغ بنا الحديث الاسرة الهخامنشية . وهى أسرة تنحدر من قبيلة فارسية كبيرة . وتنسب الى الجـد الاكبـر للأسرة ويدعى « هخامنش » الذى انحدرت من صلبه سلسلة ملوك فارس وانزان .

وقد حكم البلاد ــ ابتداء من جا اش پش الثانى حتى هخامنش ــ خمسة ملوك (٤١) . ويرد فى كتب التاريخ أن كوروش ينتمى الى الفرع الانزانى بينما ينتمى داريوش الى الفرع الفارسى .

ويؤكد هيرودوت ان القبيلة الفارسية التى ينحدر منها الهخامنشيون كانت تنقسم الى ست طوائف تقيم فى المدينة ، وعشر طوائف تقيم فى القرى ، واربع طوائف تقيم فى خيــام بالصحراء .

وحــين ســيطر « كوروش الاكبــر » بن « كمبوجيه » بن « كوروش » بن « چا اش پش » سليل الأسرة الهخامنشـية واحــد أبناء قبيلة بارس ــ على (هكمتان) فى عــام ٥٥٠ قبل الميلاد ، خضعت امبراطورية مــاد القـوية ، واخـلت مكانهــا للامبراطـورية الهخامنشية ، فبسـطت نفوذها على الاراضى الواسعة المحصــورة مابين وادى الســند والبنجاب وفلاة سفوح بامير الغـربية وبـين اليونان وقرطاجنة . وظلت تسيطر على دنيا العالم المتحضر تخضعها لنفوذها مدة ٢٢٠سنة تقريبا ، اذ استمر سلطانها نافذا من اواسط القرن السادس حتى اواخر القرن الرابع قبل ميلاد المسيح .

ووفى هذه الفترة التى تدعو الى الفخار . . حكم العالم المتحضر ملوك كبار امثال كوروش الاكبر وداريوش الاكبر وخشايارشا واردشير درازدست (أو دراز انكل) .

---

(٤١) وذلك بناء على الشـجرة التى رتبهـا نولدكه Noldeke فى التاريخ الفارسى . انظر : مشير الدولة بيرنيا ، چاپ اول ، ١٣٠٦ ، ص ٨٠ .

ويشتهر الاخير بين المؤرخين بأنه تزوج من ابنتيه : (آتس سا) و (آمس تريس) ، ويلقبه اليونانيون منهم : ماكرو خثير Makroxeir والرومانيون منهم : لونكى مانوس Longimanos .

وقد ورد اسمه فى كتب التاريخ الاسلامية على هذا النحو : بهمن الملك الكيانى المدعو أردشير ، والملقب بطويل اليدين او طويل الاصابع . ويقول البيرونى : اردشير بهمن ، واسمه فى كتب أهل المغرب ارطخشست ، ولقبه طويل اليدين . ونجده فى بعض المواضع يسميه (مقدوش) . وهذا الاسم ولا شك صورة محرفة للاسم ماكرو خثير اليونانى . اما ابن النديم فيسميه احيانا : طويل الباع . (٤٢)

وقد وجد شعب ايران الآرى فى ظل نفوذهم فرصة سانحة لنشر ثقافته وحضارته بصورة محسوسة ملموسة . كما وجد الفرصة للقضاء على كثير من العادات الهمجية غير الانسانية التى كانت سائدة فى الدنيا القديمة من قبيل سلب البلاد، وقتل العامة، وتخريب المعابد ، وفرض عقائد المنتصرين المذهبية على المهزومين ، وذبح الآدميين وتقديمهم قربانا للاصنام وارباب النوع .

وهكذا نشأت فى العالم ــ لاول مرة ــ تشكيلات امبراطورية منظمة قائمة على قوانين مقننة مدونة ، تطبق على كافة ممالك الامبراطورية بصورة واحدة . وكان من مميزات الامبراطورية الهخامنشية : اطلاق الحريات ، احترام العقائد والاديان ، والافادة من جهود الشعوب فى البلاد المفتوحة ، وتوجيهها لصالح الامبراطورية فى شتى المرافق . وانتصر الاسكندر المقدونى ، ولقبه الايرانيون ــ قبل الاسلام ــ ب (المخرب) ، واطلقوا عليه لفظ (كجستك) أى الملعون(٤٣) واذا كان البعض ــ بعد الاسلام ــ قد رفعه الى مرتبة الرسول ، وخلط بين قصته وقصة ذى القرنين ، وانزل كتبه الفارسية المنظومة والمنثورة واصولها العربية منزلة الحكمة العالية والنبوة السامية (٤٤) . . فان الفردوسى قد اتهمه بالتخريب ، وسوء الذكر ، وتنبأ له بالخلود فى النار شأنه شأن الضحاك وافراسياب .
يقول الفردوسى ذاكرا اعمال الضحاك وافراسياب السيئة :

نكه كن كه ضحاك بيداركر
چه أورد از آن تخت شاهى بسر
هم افراسياب آن بدانديش مرد
كزو بد دل شهرياران بدرد

وبعد أن ينعت أولهما بالظلم وينعت ثانيهما بسوء الظن يقول فى حق الاسكندر :

سكندر كه آمد برين روزكار
بكشت آنكه بد درجهان شهريار

والمعنى ــ الاسكندر الذى قدم فى هذا العهد ، فقتل فى الدنيا كل ماهو عظيم .

ثم يقول فى حق الثلاثة :

برفتند وزايشان بجزنام زشت
نماند ونيابند خرم بهشت

---

(٤٢) انظر : مجمل التواريخ والقصص ، طبع طهران ص ٣٠ ، رسالة البيرونى فى فهرست كتب محمد بن زكريا ، طبع باريس ١٩٣٧ ، ص ٢٣ ، ١٤٠ ، الفهرست لابن النديم ، طبع مصر ص ٣٤٤ ، الآثار الباقية للبيرونى ص ١١١ ، ١٠٥ .

(٤٣) ارجع الى الفصل ٣٣ من كتاب بند هشن ، والى مقدمة كتاب ارداى ويرافنامك ، والى مجمل التواريخ والقصص ص ٤١٨ .

(٤٤) انظر : حماسة سرايى در ايران ص ٣٤٣ ــ٣٥٢ ، مقالة داستان اسكندرى لذبيح الله صفا ، بمجلة اموزش وبرورش .

والمعنى — ذهبوا ولم يتركوا وراءهم سوى الذكر السيء ..

وسوف لايكون مآلهم الجنة ، ولن ينعموا

وفى البيت التالى من أبيات الشهنامة :

نخست اندرآيم زسلم بزرك
زاسكندر آن كينه وربير كرك .

يصف الفردوسى الاسكندر بأنه حاقدمنتقم وذئب عجوز .

وفى البيت التالى :

هيونى ذكر مان بيامد دمان
بنزريك اسكندر بد كمان

يقول فى حق الاسكندر :

وجاء أحد الرسل مسرعا صوب الاسكندر سيء الظن .

والحق ان انتصار الاسكندر وفتح تخت جمشيد عام ٣٣٠ ق . م . لم يكن هزيمة لكل آريى ايران . فبعد وفاة الاسكندر بسبع وستين عاما ، اى فى عام ٢٥٦ ق . م . رفع (اشك الاول) علم الاستقلال فى پرثو (٤٥) اى فى خراسان ، وتمكن أعقابه من أن يخضعوا بسرعة كل انحاءايران، وان يطردواالسلوقيين — الذين بقوا بعد « سلوكوس نيكاتور » — من غربى ايران الى نواحى سوريا وفلسطين.

وسلوكس نيكاتور Sèleucos Nicator هو قائد جيوش الاسكندر الملقب بنيكاتور اى الفاتح . ولد فى عام ٣٥٤ ق . م تقريبا ، وتوفى فى عام ٢٨٠ ق . م .

وقبض على زمام الامور فى بابل وحكمها بعد وفاة الاسكندر بمدة قصيرة (٣٢٠ ق . م) وحين عزله آنتى كون Antigone والى كيليكيه من منصبه هذا فى عام ٣١٥ق.م صحب بطليموس وعددا آخرمن قادةالاسكندر وتمكن بمساعدتهم من الانتصار على أعدائه ، وفتح غزة عام ٣١٢ ق . م ، واستعادة حكم بابل الاستقلال بها .

كما تمكن بعد فترة من الاستيلاء على ولاية شوش وعلى مادى وكل الممالك المحصورة بين الفرات والسند . وفى عام ٣٠٧ ق . م . اطلق على نفسه لقب سلطان . ثم فتح بين النهرين وارمنستان فريكينه وسورية .. وهكذا اسس السلسلة السلوكية (السلوقية) Séleucide .

وكانت السلسلة السلوكية (السلوقية) تستقر بادىء الأمر فى بابل ، ثم استقرت فى سلوكية (سلوقية) التى كانت تقع عند بغداد ، وبعدها استقرت فى انطاكية .وكانت تخضع لسلطانها أول الامر قسما من ايران . ومنذ عهد « آنتيوخوس الثانى » — حفيد سلوكوس — نشأت الدولة الاشكانية ، وكان مقرها مملكة خراسان . وارتقى أمرها سريعا وبلغت من القوة حدا ان استطاعت فى عهد مهرداد الاول (أشك السادس) وفرهاد الثانى (اشك السابع) أن تنتزع ايران بأسرها من يد السلوقيين ، وان تكف يدهم عنها ، وتزيل سلطانهم منها نهائيا .

وهكذا انتهى حكم اليونانيين فى ايران ، وكان آخر ملك سلوكى يحكم قسما من ايران الغربية هو « أنتيجوس السادس » الذى طوى بساط حكمه فى عام ١٢٩ قبل الميلاد على يد فرهاد الثانى .

---

(٤٥) پرثو (پرتَف) Parthava هى نفس الكلمةالتى اشتقت منها فى اللغات الاوروبية كلمة parthe ، وهى نفسها التى صارت أصل الكلمات پهلو ، پهله ، پهلوان ، پهلوى ، پهلوانى .

وقد حكم ايران مابين آشك واردوان ـ فى الفترة مابين عامى ٢٥٦ ق . م ، ٢٢٤ م وهى فترة تبلغ اربعمائة وثمانين عاما ـ ٢٨ ملكا بارثيا . ومن بين هؤلاء الملوك تبرز أسماء يعد أصحابها مفخرة للجنس الآرى الايرانى ، أمثال :

مهرداد الاول (اشك السادس) (١٧٣ ـ ١٣٧ ق.م) .

فرهاد الثانى (اشك السابع) (١٣٦ ـ ١٢٨ ق . م) .

مهرداد الثانى (١٢٤ ـ ٨٧ ق . م) ، ارد الاول (٥٥ ـ ٣٧ ق . م) .

فرهاد الرابع (٣٧ ـ ١ ق . م) .

وفى عهد الامبراطورية الاشكانية تحررت الثقافة الايرانية ، وتجاوزت مرحلة الخطر وبدأت فى فرض وجودها بعد أن تضاءلت امام نفوذ الثقافة اليونانية زمنا ، واصبحت اللغة البهلوية الشمالية او البهلوية الاشكانية ـ بخطها الخاص المقتبس من الاصل الآرامى ـ لغة البلاد الرسمية ، وبها الفت بعض الاثار المنثورة والمنظومة ، مازال بعضها بين ايدينا. فمن الآثار الهامة التى تنسب الى أواخر عهد الاشكانيين كتاب (اياتكار زريران) وكتاب (درخت آشوريك) . وقد ثبت فى الآونة الاخيرة انهما منظومان (٤٦) .

ومن أجل الخدمات التى قدمها الاشكانيون للشعب الايرانى ـ بالاضافة الى طرد اليونانيين وتحقيق الاستقلال ـ دفاعهم البطولى عن الحدود الغربية والشرقية ضد الرومان والمغيرين من الجنس الاصفر . ولو أن هذه السلسلة لم تأخذ على عاتقها ـ خلال فترة حكمها التى استمرت اربعمائة سنة ـ عبء الدفاع عن ايران فى الشرق والغرب . . لوطئت بلادنا ولاشك اقدام الجنس الاصفر من الاورالیين والالتائيين أو الرومان ، ولوجدت فى هذه البلاد حضارة وثقافة من لون آخر .

وقد حالف التوفيق الأباطرة الاشكانيين فى فتوحاتهم حتى آخر سنوات حكمهم ، فكان النصر دائما نهاية كل لقاء بينهم وبين الروم المهرة المحنكين ، وكانت الغلبة لجيوشهم على جيوش الروم المتمرسة بالقتال . حتى انه يمكن القول بأن الامبراطورية الاشكانية عند سقوطها وزوالها لم تكن قد ضعفت بعد من حيث الفتوحات الخارجية ، فقد تم آخر فتح من فتوحات الاشكانيين وآخر انتصار لهم على الروم فى عهد أردوان ، وذلك فى حدود عام ٢١٨ م . وكما نعلم ، فان السلسلة الاشكانية قد انقرضت بعد هذه الواقعة بست سنوات .

وقد انقرضت الدولة الاشكانية عام ٢٢٤ ميلادية ، على اثر هزيمة « اردوان » على يد « اردشير بن بابك » . ولم يكن انقراضها فى الحقيقة سوى حادثة داخلية وانتقالة حكومية من طوائف ايران الشرقية الى البارثيين ، وتغيير حكومة ملوك الطوائف اللادينية ، واحلال حكومة دينية مركزية فى مكانها .

وقد سار الساسانيون على سياسة الاشكانيين ، وحذوا حذوهم فى الدفاع عن الحدود الشرقية والغربية فى بطولة وبسالة، واستطاعوا بما لديهم من تشكيلات منظمة مدنية وعسكرية ان يجعلوا حدود البلاد تضارع الحدود التى بلغتها الامبراطورية الهخامنشية .

(٤٦) فيما يتعلق بكتاب اياتكار زريران يمكن الرجوع الى :سلسلة المقالات التى نشرها الكاتب فى مجلة سخن ، السنة الاولى ، حماسة سرایی در ایران ، الطبعة الثانية ، ص١٢١ ـ ١٣١ .

ويعد كل ملك من مشاهير ملوك الساسانيين امثال :

أردشير بن بابك (٢٢٤ – ٢٤١ م) ، شابور الاول (٢٤١ – ٢٧١ م)

شابور الثانى (٣١٠ – ٣٧٩ م) ، بهرام الخامس (بهرام كور ٤٢٠ – ٤٣٨ م)

قباد الاول (٤٨٧ – ٥٣١) ، خسرو الاول انوشيروان (٥٣١ – ٥٧٩ م)

خسرو الثانى ابرويز (٥٩٠ – ٦٢٧ م)

... يعد كل واحد من هؤلاء الملوك – لسبب من الاسباب – صاحب سيرة محمودة ومقام رفيع واثر وخطر فى تاريخ البلاد خاصة وفى آسيا عامة . كما تعتبر الخدمات التى قدمها بعضهم للعلم والأدب خدمات جليلة لا تنسى.

ولا بأس هنا من ذكر معلومات حول بعض هذه الاسماء وكيفية نطقها . فالاصل الذى ورد فى الافستا بالنسبة لاسم « قباد » على سبيل المثال هو كوات (كڤات Kavata وهو يلفظ فى البهلوية كوات (كڤات Kavat) لذا يجب أن يضبط ويشكل فى الخط الفارسي الجديد (قباد) بفتح القاف . ونطقه بضم او له ، او كتابته بالغين (غ) امر بعيد عن الصواب .

أما « أنوشروان » فانها التسمية الفارسية لأنوشك روان (روڤان – Anoshak ruvân اى الروح الخالدة .. وهى عبارة تستعمل عادة عندما يذكر أحد بالخير ، أو عندما يوجه الدعاء للموتى .

وتتكون (انوشك) من (أ) حرف نفى ، (أوش Osh) بمعنى الموت ، ومن حرف النون الذى كان ياتى عادة من اللهجات الايرانية القديمة بين حرفين مصوتين للربط بينهما ، (مثل : آنيران بمعنى غير ايران ، حيث جاءت بين حرف النفى (أ) وبين كلمة ايران (نون)) . وقد وردت (هوش) فى اللغة الفارسية بمعنى الموت أو الروح أو قوة الادراك والفهم .

ففى المعنى الاول يقول الفردوسى :

ورا هوش در زاولستان بود
بدست بل پور دستان بود

وهو يعنى ان موت اسفنديار قد كان فى (زاپلستان) ، وهنا هوش بمعنى الموت .

وفى المعنى الثانى يقول الفردوسى :

مبريش بيل زيان هوش خويش
نهاده برين كونه بردوش هويش

وهو يعنى هنا الا تعرض روحك للهلاك امام فيل مخيف متوحش ، وهنا هوش بمعنى الروح .

وقد تحولت كلمة (انوشك) فى الفارسية الى (آنوشة) .

اما ruvan فأصلها فى الافستا (أورون Urwan والفارسى منها (روان) . انوشة روان ، انو شروان ، انو شيروان ، نوشيروان ، نوشين روان كلها صور فى اللغة الفارسية مشتقة من الاصل البهلوى أنوشك زوان .

واذا تعرضنا لكلمة أبرويز وجدناها تعنى: غير قابل للهزيمة لايقهر . وكانت هذه الكلمة تستخدم بصفة دائمة كلقب لخسرو الثانى الشاهنشاه الساسانى . ومعرب الاسم ابرويز ، والالف فيه (أ) تفيد النفى ، وقد حذفت فى الفارسية الدرية ، وقيل پرويز .. نتيجة للجهل باصل الاسم ومعناه ، ونتيجة للاعتقاد بان الالف فى أول الاسم تشكل جزءا منه (من بنية الكلمة) .. بينما الاسم بهذه الصورة – أى بعد حذف الالف – يعنى تماما عكس معنى (أپرويز) .

ووفى نهاية هذا العهد .. لم يكن للهجتين: البهلوية الشمالية والبهلوية الجنوبية رصيد كبير فى المؤلفات المنظومة والمنثورة دينية وغير دينية فحسب ، بل انهما احرزتا تقدما وانتصارا كبيرين فى ميدان العلوم اثر امتزاج ثقافات الايرانيين وعقائدهم بثقافات وعقائد كل من اليونانيين والاراميين والرومانيين والهنود .

وفى القرون الخامس والسادس والسابع الميلادية ، وحتى انتصار العرب ، كانت هناك فى ايران مراكز زرتشتيه ومانوية ومسيحية ويهودية .. وكان كل مركز من هذه المراكز مشغولا ــ بصورة من الصور ــ بنوع من انواع العلوم كالحكمة الايرانية او الخسروانية ، الفلسفة الافلاطونية ، المنطق ، العلوم الارسطوية ، الطب ، الرياضيات ، النجوم .. وغيرها .

وقد دخلت اكثرية هذه المدارس فى عداد المراكز العلمية الاسلامية .. بعد انتصار الاسلام أو بعد التحول من اللغتين البهلوية والسريانية الى العربية . ونجم عن انتقال اغلب علماء هذه المراكز الى بغداد أول عصر من عصور النهضة العلمية فى هذه المدينة.(٤٧)

ولقد تيسر للعرب الانتصار على الايرانيين فى ضوء نور الاسلام ، ونتج عن هذا ان استمر النزاع والصراع بين الدين الاسلامى وغيره من الديانات الشائعة فى ايران آنذاك، ونعنى بها الزردشتية والمانوية والمزدكية والمسيحية واليهودية والبوذية . (٤٨) وظل النزاع والصراع قائمين طوال قرون اربعة كان فيها النصر حليف الاسلام ، والضعف والوهن من نصيب الاديان المذكورة .

وفى سرعة عجيبة ، تسلل عدد من عظماء ايران وصفوتها المختارة الى الاجهزة الدينية فى حكومات الخلفاء ، وتغلغل افراد الشعب الايرانى فى مختلف اجهزة الدولة . وشغلوا العديد من المناصب ، فكان من بينهم الوزراء، ومستشارو الدولة ، والقواد والكتاب ، والعلماء المشتغلون بشتى الفنون والشعراء ، ومشاهير المؤلفين . وبتعبير آخر فان شعب ايران قد استعاض عن هزيمته السياسية والدينية بالفتح الثقافى والعلمى . حتى ان كثيرا من المذاهب الدينية والفرق الاسلامية كانت وليدة افكار البحاثة الايرانيين واجتهاداتهم ونتاج آرائهم بالنسبة لمعتقدات الدين الاسلامى وفروعه ، او كان للفكر الايرانى فضل المساهمة فى ايجادها . ومن هذه الفرق على سبيل المثال :

الجهمية : نسبة الى جهم بن صفوان من موالى خراسان ، الكعبية : نسبة الى ابن القاسم الكعبى البلخى ، البهشمية : نسبة الى ابى هاشم الجبائى الخوزستانى ، الكرامية : نسبة الى محمد بن كرام السيستانى ، الرزامية ، أبو مسلمية ، الراوندية ، المقنعية (المبيضة ، بيض الثياب ، وهم اتباع عطاء او هاشم أو هشام بن حكيم المعروف بالمقنع) ، القرامطة ، الاسماعيلية ، الدرزية ، وبعضها من فرق الشيعة الغالية والشيعة الامامية . كما ان بعضها يتبع مذهب أهل السنة الفقهية كالحنفية والداودية والطبرية وغيرها وغيرها.

وتشكل جهود الايرانيين فى سبيل تحقيق الاستقلال السياسى واحياء اللغة والادب القومى قصصا شيقة يضيق المقال عن ايرادها وقد ولج ابطال هذه المعركة القومية وفرسان

---

(٤٧) ارجع فى ذلك الى : دانشهاى يونانى در شاهنشاهى ساسانى (العلوم اليونانية فى الامبراطورية الساسانية) للدكتور صفا ، تاريخ علوم عقلى درتمدن اسلامى ، الطبعة الثانية ، تهران ١٣٣٦ ، ص ١٠ ــ ٢٦ ، تاريخ ادبيات در ايران ، للدكتور صفا ، ج ١ ط ٣ تهران ١٣٣٨ ص ٩٤ ــ ١٠٧ .

(٤٨) تاريخ ادبيات در ايران ، ص ٦٣ ، ٢٣٠ ، ٢٣٣ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ .

هذه الحركات التحررية ميدان الكفاح بطرق مختلفة وصور متعددة ، فولجه بعضهم عن طريق الترجمة ونشر الكتب التى تخص بالذكر مفاخر ايران ومآثرها . وولجه البعض عن طريق اشعارهم العربية المحركة للقلوب وما تشتمل عليه من مفاخر ومآثر . وكان هؤلاء المؤلفون والمترجمون ينتمون عادة الى فرقة الشعوبية التى تنادى بتفضيل العجم على العرب . وكانت مؤلفاتهم فى اثبات هذا الرأى ، وترجماتهم العديدة للكتب التى تدور حول سير الملوك نابعة من تأثرهم بهذه الفكرة كما كان تأليفهم للشاهنامات ونظمهم لهاناجما عن هذه الفكرة ذاتها .

ومن بين الشعراء الذين نشطوا لبيان مفاخر الايرانيين العنصرية .. يمكننا ان نذكر الاسماء التالية :

اسماعيل بن يسار ، بشار بن برد (م١٦٧) أبا نواس حسن بن هانيء (١٤٥ — ١٩٩) ، المتوكلى ابا اسحق ابراهيم بن ممشاذ الاصفهانى ، وأمثالهم .

كما ولج البعض هذا الميدان عن طريق تدبيج المقالات الدينية ، والبعض عن طريق اللجوء الى السيف والثورات العسكرية . (٤٩)

واذا حسبنا المدة التى انقضت بين اليوم الذى انهار فيه الكفاح العسكرى الايرانى المنظم أى فى عام ٢١ هـ ، وبين اليوم الذى دخلت فيه جيوش « ابى مسلم الخراسانى » (٥٠) الفاتحة الكوفة لاجلاس الامام العباسى «عبدالله السفاح » على عرش الخلافة مكان مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين .. لوجدناها ١١١ عاما .

وبعد ست وستين عاما من تاريخ الحدث الاخير ، أى فى عام ١٩٨ هـ ، فتح « طاهر ذى اليمينين » (٥١) بغداد عاصمة العباسيين بعد محاصرتها ، وتمكن من قتل الخليفة العباسى .

وفى المدة المحصورة بين التاريخين الاخيرين قامت عدة ثورات ، من بينها : ثورة القائد فيروز الشهير بسنباد كبر فى الرى (٥٢) عام ١٣٧ هـ ، ثورة استاسيس فى خراسان (٥٣) عام ١٥٠ هـ ، وثورة المقنع هشام ابن حكيم (٥٤) فى ما وراء النهر سنة ١٥٩ هـ

وفى عام ٢٠١ هـ . هب بابك خرم دينى (٥٥) فى بغداد مقاوما جيوش الخليفة ، بينما شغل مازيار بن قارن (٥٦) (م ٢٢٤ هـ) فى مازندران بمقاتلة الموالين للخلافة العباسية

(٤٩) فيما يتعلق بكيفية مقاومة الايرانيين ، انظر : دكتر صفا ، نهضت ملى ايرانيان ، مجلة ارتش ، سال ششم .

(٥٠) يمكن معرفة الكثير عن ابى مسلم الخراسانى بالرجوع الى مقالة الكاتب ، وعنوانها : أبو مسلم الخراسانى ، وذلك فى مجلة (آرتش) ، سال هفتم (السنة السابعة) .

(٥١) بالنسبة لطاهر ذى اليمينين ، يمكن الرجوع الى مقالة الكاتب ، مجلة ارتش سال نهم (السنة التاسعة) ، شمارة ١ ، ٢ (بالعددين الاول والثانى) .

(٥٢) دكتر صفا ، مجلة آرتش — سال هشتم (السنة الثامنة) : سبهبد فيروز .

(٥٣) دكتر صفا ، مجلة آرتش — سال هفتم (السنة السابعة) : استاسيس .

(٥٤) دكتر صفا ، مجلة مهر — سال جهارم (السنة الرابعة) سمارة ١٢ (العدد ١٢) ، شمارة اول سال بنجم : نقابد ارخراسان ، مجلة آرتش ، — سال هشتم (السنة الثامنة) : المقنع .

(٥٥) دكتر صفا ، مجلة آرتش شمارة ٨ ، ٩ ، ١٠ سال هشتم : بابك خرم دين .

(٥٦) دكتر صفا ، مجلة آرتش شمارة ٢ — ٧ سال نهم (السنة التاسعة) : مازيار پسر قارن .

فى بغداد . وكان الخوارج فى سيستان وفى خراسان دائمي الثورة بدورهم ، يقودهم المقاتلون أمثال حمزة بن آذرك شارى (٥٧) .

سارت حكومة الخلفاء فى ايران فى طريق الوهن والضعف .. فى الوقت الذى كانت فيه امارات ايران المحلية تستقيم على طريق الحياة من جديد . فكان أبناء طاهر ذى اليمينين يواصلون استقلالهم الداخلي فى خراسان . اذ أخذ طاهر بن الحسين من المأمون (فى عام ٢٠٥ هـ) تفويضا بحكم كثير من نواحي ايران . وظل أعقابه يشغلون كرسى الحكم بعد موته الى عام ٢٥٩ هـ . اما سيستان فكانت قد انتزعت فعلا من بين الممالك التابعة للخلفاء العباسيين . (٥٨) وكانت نواح واسعة من جرجان ، ومازندران ورويان وبلاد الديلم وكيلان تدار بواسطة الامراء المنحدرين من صلب الاسر القديمة التي بقيت عن العهد الساساني (٥٩) . وقد استمال هؤلاء اليهم ــ فى عام ٢٥٠ هـ ــ واحدا من صلب علي بن أبي طالب، يدعى حسن بن زيد ، ونصبوه اماما دينيا على الرغم من الخلفاء العباسيين . (٦٠)

ولم تخل آذربيجان واران وشروان والاراضى الجبلية التى تقع جهة الجبال من الفتن والثورات بدورها ، وسقطت ما وراء النهر هى الاخرى فى يد اعقاب « سامان خدا » منذ عام ٢٠٤ هـ تقريبا ، وتحولت بسرعة الى عاصمة ومركز للدولة السامانية الكبيرة . اما خوارزم وغور وغرجستان فكان يقبض على زمام الامور فيها عدد من الامراء المحليين .

من هذا يمكننا ملاحظة ان نفوذ الخلفاء وحكمهم فى ايران خلال القرنين الثانى والثالث الهجريين كانا فى اغلب الاحوال اسميا اكثر منه رسميا . وهذا نفسه احد اسرار بقاء الثقافة الايرانية .

وفى أعقاب الجهود التى بذلت حتى أوائل القرن الثالث فى سبيل استعادة ايران لاستقلالها خرج يعقوب بن الليث السيستانى على الخلافة وولى وجهه ــ بصحبة محاربى سيستان ومقاتليها ــ شطر بغداد فاتحا . (٦١)

ويعقوب بن الليث واحد من اكبر رجال ايران العسكريين والسياسيين الذين ثاروا فى مشرق ايران بعد ابى مسلم الخراساني ، وكان حكمه نقطة تحول بالنسبة لمسار الادب الفارسي ، فقد منح هذا الادب الاستقلال عن طريق تحريم الشعر العربي فى دولته، وتشجيع الشعراء على نظم اشعارهم بالفارسية . كما ان اللغة الفارسية الدرية قد تحولت فى عهده الى لغة بلاطات المشرق الرسمية ، وباتت الكنز الرئيسي الذي يثري خزانة الادب الفارسي .

وظلت الحكومة التي أقامها يعقوب بن الليث باقية من بعده ، يتولى زمام الامور فيها اخوته

---

(٥٧) دكتر صفا ، مجلة مهر ــ سال نهم ــ شمارة ٨ ، ٩ : يسر آذرك .

(٥٨) دكتر صفا ، تاريخ ادبيات در ايران ، ج ١ ، ط ٣ ، ص ٣٢ ــ ٣٩ .

(٥٩) نفس المصدر والطبعة ص ٢٠٩ وما بعدها .

ابن اسفنديار : تاريخ طبرستان ، چاپ مرحوم عباس اقبال ، ج ١ ص ١٤٧ وما بعدها .

(٦٠) تاريخ طبرستان ، ج ١ ، ص ٢٢٤ وما بعدها .

تاريخ ادبيات در ايران ، ج ١ چاپ سوم ، ص ٢٠٩ ــ ٢١٠ .

(٦١) دكتر صفا : يعقوب بسر ليث ، مجلة آرتش سال سشم .

وابناء اخوته وابناء عمومته ، الى ان سقطت عام ٣٩٣ هـ على يد محمود الغزنوي . ونتج عن ثورة يعقوب تشكيل عدة سلالات ايرانية مستقلة فى انحاء متفرقة من البلاد . ولم يعد للخلفاء فى ايران ـ بعد هذه الثورة ـ سوى الرياسة المعنوية والدينية .

وقد كانت عهود حكم السامانيين والزياريين والبويهيين وامثالهم باعثة على احياء كثير من السنن والعادات والتقاليد الايرانية القديمة ، ومواصلة الكتابة بالفارسية نظما ونثرا ، وترويج العلوم ، واطلاق الحرية للافكار الدينية والآراء الفلسفية .

وفى هذه العهود ظهر عدد من كبار العظماء الذين يعدون مفخرة للعلم والادب فى ايران ، امثال :

أبو زيد احمد بن سهل البلخي(م ـ٣٢٢هـ)، محمد بن زكريا الرازي (م ـ ٣١٣ هـ) ، علي بن عباس المجوسي الاهوازي (م ـ٣٨٤هـ)، ابو نصر الفارابي (م ـ ٣٣٩ هـ) ، ابو علي مسكويه (م ـ ٤٢١ هـ) ، كوشيا ركيلى ، احمد بن عبد الجليل السجزى (م ـ ٤١٤هـ).

ابو الوفاء البوزجاني (م ـ ٣٨٧ هـ) ، ابو حيان التوحيدي (م ـ ٤٠٠ هـ) ، أبو علي بن سينا (م ـ ٤٢٨ هـ) ، ابو ريحان البيروني (م ـ٤٤٠هـ)، بهمنيار بن مرزبان (م ـ٤٥٨هـ)، الرودكى السمرقندى (م ـ ٣٢٩ هـ) ، الدقيقي (م ـ ٣٦٨ هـ) ، الفردوسي الطوسي (م ـ ٤١١ هـ) ، أبو علي البلعمي ، وغير هؤلاء . (٦٢)

ومنذ أوائل القرن الرابع الهجري وحتى اواسط القرن الخامس ـ وهي الفترة التي كانت فيها ايران خاضعة لسلاطين من اصل ايراني او نشأوا من بيئة ايرانية ـ كانت السلالات : الصفارية (حتى سنة ٣٩٣هـ) ، والسامانية (حتى سنة ٣٨٩ هـ) ، والزيارية (من ٣١٨هـ فما بعد) ، والبويهية (من ٣٢٠ هـ فما بعد) الغزنوية (من ٣٥١ هـ فما بعد) ، وعدة سلالات اخرى صغيرة مثل الخوارزمشاهيين والامراء الجغانيين وامراء الغور ... تقبض بيدها على زمام الحل والعقد فى انحاء البلاد المختلفة .

وقد زالت بعض هذه السلالات اثر حملة التركمانيين السلاجقة ، وبقى بعضها حتى اوائل القرن السابع أو الى ما بعد ذلك .(٦٣)

وقد رأى كل هؤلاء الامراء ـ صغارهم وكبارهم ـ فى تشجيعهم العلماء والكتاب والشعراء فريضة تنبع من همتهم ، فسعوا

---

(٦٢) دكتر صفا : تاريخ علوم عقلى در تمدن اسلامى ،ج ١ ط ٢ ، ص ١٦٥ ، ١٦٩ ـ ١٩٤ ، ١٩٨ ـ ٢٠٢ ، ٢٠٦ ـ ٢٨٧ ، ٢٨٩ ـ ٢٩٠ .

دكتر صفا : تاريخ ادبيات در ايران ، ج ١ ط ٣ ،ص ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩ ، ٣٤٦ ، ٣٤٧ ، ٢٩٣ ـ ٢٩٩ ، ٣٣٣ ، ٣٣٤ ، ٣٠٠ ـ ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣١٨ ـ ٢٣٣٧ ، ٣٤٢ ، ٤٥٨ ـ ٥٢١ ، ٤٠٨ ـ ٤١٩ ، ٦١٨ ، ٦١٩ .

حواشى جهار مقالة عروضى ، جاپ مرحوم قزوينى ،ليدن ص ٢٠٢ ـ ٢٠٣ ، ابن النديم : الفهرست ، طبع مصر ص ٣٩٤ ، جشن نامه ابن سينا تاليف ذبيح الله صفا ج ١ ،معجم الادباء لياقوت ، طبع مصر ج ١٥ ص ٥ ـ ٥٢ .

شرح احوال وآثار رودكى ، اقاى سعيد نفيسي ، فى ثلاث مجلدات ،

Aldo Meili, la Science arabe, Laide, p. 108.

(٦٣) لجمع المعلومات عن هذه السلاسل باسرها ،ارجع الى :

تاريخ ادبيات در ايران ج ١ ط ٣ ص ٢٠٧ وما بعدها ،ج ٢ ط ١ ص ٣٨ ـ ٥٥ .

سعيا كبيرا فى سبيل احياء الرسوم القومية ، والمحافظة على آداب السلف ، وتحقيق رفاهية الشعب .. حتى ليمكن القول بأن عهدهم كان عهد رفعة الحضارة الايرانية وسموها ، ورقي العلوم والآداب الاسلامية ونموها .

غير أن كل ارتفاع يعقبه هبوط ، وقد سرى هذا الهبوط الى ايران سريعا ، وذلك منذ أواسط القرن الخامس اثر استيلاء القبائل البربرية والغلمان التابعين لاجناس آسيا الوسطى الهمجية على البلاد وسيطرتهم عليها . واستمر الهبوط ساريا عدة قرون ، وتمخض عن انحطاط مرعب فى حضارة ايران وثقافتها . وبعد انتصار التركمانيين السلاجقة ــ وهم شعبة من شعب الغز ــ نقطة البداية بالنسبة للهبوط والانحطاط . فمع انتصار هذه الطائفة ، وطئت ايران أقدام العديد من قبائل آسيا الوسطى المنتمين للجنس الاصفر ، وهم يعرفون لدى المؤرخين والكتاب والشعراء من أصحاب اللسانين باسم (الترك) . وهكذا وطئت ايران اقدام القراق والقراغز والقفجق والقراخان والقراخطا ، واجتمع اليهم حشد لا حد له من المهاجرين والغلمان ممن ينتمون الى القبائل الصفراء التي تسكن آسيا الوسطى . (٦٤)

ومع سيطرة هذه القبائل وتسلط هؤلاء الغلمان انهار صرح الحرية ، وكسدت سوق العلم والادب ، وعرف الفساد والعطب طريقهما الى البناء الاخلاقي والاجتماعي .

وزاد الطين بلة أن تفشت فى بلاد ايران العامرة الحافلة بالرونق والبهاء مظاهر الخراب والفقر والتشتت والضياع . (٦٥)

ورغم ان هؤلاء القتلة الذين يماثلون الشيطان طباعا كانوا يملكون فى أيديهم القوة والسيطرة فى بعض الاحيان كما يبدو ظاهريا ، فانهم لم يتمكنوا من التحكم فى قلوب الايرانيين وافئدتهم . ومصداق قولنا ماورد من أقوال كثيرة على لسان المتحدثين فى القرنين الخامس والسادس الهجريين .. اولئك الذين انبرى كل فرد منهم لانتقاد هؤلاء الشياطين بصورة من الصور ، وسب بعضهم هؤلاء الملاعين السفاكين المخربين سبابا فاحشا ، ونعتهم بما لا يليق (٦٦) .

وفى الفترة المحصورة مابين أواسط القرن الخامس الهجرى وأوائل القرن السابع الهجرى .. سيطرت على ايران سلالات من السلاطين والأمراء كانوا ينتمون الى السلاجقة العظام (٤٣١ ــ ٥٥٢ هـ) ، وسلاجقة العراق (٥١١ ــ ٥٩٠ هـ) ، وسلاجقة كرمان (٤٤٢ ــ ٥٨٢ هـ) ، واتابكة العراق وآذربيجان (٥٣١ ــ ٦٢٢ هـ) والاتابكة السلفريين «اتابكة فارس » (٥٤٣ ــ ٦٨٦ هـ) ، والخوارزمشاهيين من آل اتسز (٤٩٠ ــ ٦٤٨ هـ) ، وأمراء الغور ، وآل باوند وامثالها .

---

(٦٤) لمعرفة كيفية نفوذ القبائل الصفراء من الاورال والالتائيين وسيطرتهم ، وهم الذين عرفوا فى تاريخنا بالترك .. ارجع الى :

تاريخ ادبيات در ايران ، ٢ ط ١ ، ص ٥ ــ ٣٧ ، ٦٨ ــ ٩٤ .

(٦٥) نفس المرجع ، ج ٢ ط ١ ، ص ٩٤ ــ ١٣٥ .

(٦٦) للحصول على نماذج من هذه الاقوال .. ارجع الى :

نفس المرجع ، ص ١٢٤ ــ ١٣٠ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١١٢ ــ ١١٧ .

(٦٧) للاطلاع وتحصيل المعلومات عن هذه الاسر ، ارجع الى :

نفس المرجع ، ص ٥٩ ــ ٦٧ .

ومع أن معظم هذه السلالات ليست من اصل ايرانى .. الا أنها سرعان ما تأقلمت وخضعت للثقافة والحضارة الايرانية ، نتيجة للتأثر بالوزراء والكتاب وكبار رجال البلاط ممن كانوا يختارون عادة من بين أبناء البيوتات الايرانية المعروفة ، ومن ثم قامت بتعميم هذه الثقافة وترويج تلك الحضارة .

والحق أن بعض الاسر الايرانية الكبيرة التي واكبت ذلك العهد ، أمثال : آل برهان ، آل صاعد ، آل عمران ، الاسرة المنيعية ، والأسرة النظامية ونظائرها .. كان لها حكم العصب الذى يربط نظام حضارة ايران وثقافتها ، وقد ساهمت كل منها مساهمة فعالة فى تربية الفضلاء والكتاب والشعراء .

وبعد هزيمة محمد خوارزمشاه المخجلة امام جنكيز ، وعلى اثر غارات المغول والتاتار ، التي بدأت فى عام ٦١٦ هـ - تفشت فى ايران الفوغائية من قتل ونهب وسلب وتخريب . وتعدهذه المصيبة من اكبر المصائب التي يمكننا ان نصادفها في تاريخ الربع المسكون ، خاصة اذا عرفنا انه على اثرها قد شبت ثورات عنيفة متوالية ، ووقعت في البلاد اتفاقيات مخيفة . وقد توجت هذه الاحداث فى النهاية بحملة تيمور شارب الدماء .. تلك الحملة التي قادها ضد البلاد في عام ٧٨٢ هـ .

وبالرغم من ان خلفاء تيمور - الذين حكموا ايران الى عام ٩٠٧ هـ - كانوا عاجزين عن تركيز قواهم فى البلاد وتوطيد الأمن والامان فيها .. الا انهم حققوا نجاحا وتوفيقا كبيرين فى ميدان تربية الشعراء والادباء والفنانين .

وعلى وجه العموم .. فان الحوادث الرهيبة التي كانت تحدث فى ايران فيما بين عامى ٦١٦ هـ ، ٩٠٧ هـ كان لها حكم الضربات المتوالية على جسد ايران الخالي من الحياة ، وبحلول عام ٩٠٧ هـ وجلوس الشاه اسماعيل الصفوى على العرش تغير الوضع وتبدل الحال .

ويمكن القول بأنه نتيجة لتلك الاحداث التى وقعت على مدى ٣ قرون متوالية ضاع تراث ايران القديم ، وذهبت حضارتها العريقة ادراج الرياح ، ولحقها الفناء والعدم ، وبلغ انحطاطها منتهاه .

ولولا ظهور عدد من المفكرين فى هذه الحقبة الزمنية الطويلة ، ممن عاشوا قبل دخول المغول او تربوا على يد من تبقوا عن الازمنة السابقة على عهد هؤلاء الغزاة ، لبدت بلادنا فى صورة سجن أسود يضم بين جدرانه المخيفة هيكل الجهل والانحطاط والفساد .

ولم يكن يتوقع من أى شعب مهما بلغت قوته ان يتحمل تلك النكبات وان يملك القدرة على الصمود فى وجهها .. تلك النكبات التي حلت بالبلاد مع أواخر القرن الخامس الهجرى ، وزايلتها في أول القرن العاشر .

لقد زالت كثير من الشعوب الكبيرة من الوجود نتيجة غارة واحدة من هذا اللون من الغارات الوحشية البربرية ، وبقي شعب ايران صامدا .

وفي العصر الصفوى - ذلك العصر الهام الذى يستغرق الفترة مابين عامى ٩٠٧ هـ ، ١١٤٨ هـ - استعادت الامبراطورية الايرانية عظمتها السابقة . فمنذ زوال الدولة الساسانية والاحداث تتوالي فى ايران ، والشعب الايرانى وسلاسل الأمراء والسلاطين الايرانيين لايكف صغيرهم ولا يتوانى كبيرهم عن بذل كل جهد ممكن لاعادة كمال النظم التى كانت سائدة في العصر الساسانى . لقد سعى الجميع جاهدين ولمدة تناهز التسعة قرون ، الى ان ظهر الشاه اسماعيل - احد نوابغ التاريخ الايرانى - فكلل هذه الجهود وتلك المساعى بالنجاح ، ومن

يومها بلغت بلاد ايران المستقلة حدودهـا الطبيعية .

هـذا ، وتتشابه الامبراطوريـة الصفويـة الساسانية فى كثير من النواحى .. خاصة فى فرضها مذهبا خاصا وجعله مذهبا رسـميا للدولة ، وفى سيطرة الدولة المركزية علىحدود فـلاة ايران وثغورهـا الطبيعية ، وفى ايجاد حكومة مستقلة مركزية وازالة ملوك الطوائف، وفى تشجيع التجارة والزراعة والصناعة والفن فى البلاد، وفى الاهتمام بانشاء الابنيةوالعمارات ونشر العمران ، وفى الصمود فى وجه الطامعين في ايران .. ممن كانوا يغيرون عليها من الشرق والغرب .. وامثال ذلك .

وهكذا يجب أن يكون مقبولا ـ على ضوء ما ذكرنا ـ ان ايران الصفوية أكثر من غيرهـا مشابهة لايران السياسية فىكثير من الجوانب.

ومن المسلم به أن التقدم السريع أمر لايمكن تحققه بالصورة التى يتوقعها معاصرونا،خاصة وأن من يتوقع منهم ذلك كانوا أناسا يرزحون تحت نير انحطاط استمر مئات السنين .

ومن أهم الحوادث السياسية التى تستحق التسـجيل والتى وقعت فى ايران بعد زوال الدولـة الصفوية .. ظهور « نادر شاه » ، وتشكيل الدولة الافشارية (ابتداء من عـام ١١٤٨ هـ) ، وثورة كريمخـان زند واقامـة الدولة الزندية (من عام ١١٧٢ هـ)،وتأسيس الدولة القاجارية على يد آقا محمد خان (من عام ١١٩٣ هـ) وتشكيل وزارة ميرزا تقى خان الامير الكبير (من ١٢٦٤ هـ حتى ١٢٦٨هـ) واعلان الحياة النيابية فى عام ١٣٢٤ هـ . ق ، واقامة أول دورة لمجلس النـواب الايرانـي فى نفس العام ، والانقلاب الذى قام به رضا شاه الكبير فى عام ١٢٩٠ هـ . ش ، وانقراض السلسـلة القاجارية ، وتشـكيل السلسـلة البهلوية المصلحة الساعية نحو الرقى (في عام ١٣٠٤ هـ.ش) .

* * *

الإنســـان والـــزمن في الـــتراث الشـــعبى

د. نبيلة ابراهيم *

(١)

من العبث ان نبحث فى معجم الانسان البدائي والشعبى عن المصطلحات الفلسفية الخاصة بعلاقة الانسان بالزمن مثل الوجود والعدم ، والشيء الحقيقي والوهمي ،والثبات والصيرورة الى غير ذلك،على اننا اذا كنا نفتقد هذه المصطلحات الفلسفية ، فاننا نجد البديل عنها وهو الشيء نفسه او الرمز المجسد فى الاساطير والطقوس .

فمنذ ان وجد الانسان نفسه على سطح الارض ، ملك العالم السماوى عليه حسه وفكره نتيجة شعوره العميق بارتباط حياته المادية بهذا العالم . فلما أطلق العنان لخياله فى تصور هذا العالم ، صوره صورة مطابقة لعالمه الحسي بما فيه من انهار وجبال وخضرة . ولابد ان تتربع على عرش هذا العالم القوة المحركة لهذا الكون والمتحكمة فى مصيره ، وهي الآلهة . ولكن كيف كانت علاقة الانسان بالعالم السماوى وآلهته ؟ هل كانت تتحكم فى

---

* الاستاذة الدكتورة نبيلة ابراهيم استاذة الادب الشعبى بكلية الاداب جامعة القاهرة ، لها العديد من الدراسات فى القصص الشعبى والسير العربية وترجمات لبحوث اوروبية .

مصيره بحيث انها اذا قضت عليه بالشر أو المرض والعجز ، ارتضى هذا الحكم واستسلم له ، أم انه كان يتدخل فى هذا الحكم بصورة أو بأخرى بحيث يغيره من مجرى الشر الى مجرى آخر يقنعه بحقيقة وجوده ، وبقيمة الحياة التي يحياها ؟

أول ما يقال بصدد الاجابة عن هذه التساؤلات هو ان حقيقة العالم السماوى كانت تأسر الانسان البدائي ، ومثله الانسان الشعبي ، الى درجة انه يحن دائما الى أن يعيش فيما يشبه هذه الحقيقة او يقلدها . واذا كانت حقيقة العالم السماوى مرتبطة كل الارتباط بقدسيته ، فانه يحاول قدر الامكان ان يخلع على المكان الذى يعيش فيه طابع التقديس ، لان هذه القدسية هي التي تشعره بمغزى وجوده وحقيقته . فهو فضلا عن أنه يشعر بعلاقة روحية بينه وبين الطبيعة التي يعيش وسطها لانها تثير في نفسه قدسية العالم السماوى ، فانه يحرص على أن يشيد وسط المكان الذى يسكنه ما يجسد هذه القدسية ، وليكن ضريحا لولي ، أو كنيسة أو جامعا . وبهذا تكتمل قدسية المكان ويصبح صورة مصغرة للعالم السماوى المقدس . ولعل هذا يفسر لنا بناء الانسان القديم للاماكن المقدسة مثل الكعبة والقدس وبابل ، فهي تمثل مع غيرها من الأماكن المقدسة صورة مكررة للنظام السماوى المقدس . ومن ثم كانت بعض هذه الاماكن ، وما يزال بعضها الآخر ، يمثل وجودا حقيقيا لا تتميز به الاماكن الدنيوية الاخرى . ولعل هذا يفسر لنا كذلك الانسان الشعبي على الا يسكن مكانا جديدا ، او يعمر مكانا غير مأهول ، الا اذا اجرى بعض طقوسه ، ولتكن اشعال البخور وقراءة التعاويذ أو الآيات المقدسة ، ولتكن تقديم ضحية عند عتبة المسكن الجديد ، ولتكن دفن تميمة أو حجاب تحت أساس البيت الجديد . ومن البديهي ان الانسان الشعبي يفعل هذا لكي يكون المكان قابلا للسكنى ، اما قبل ذلك ، فانه يكون منتميا الى عالم الفوضى حيث تجد الاشباح والعفاريت مأوى لها . أى أن الانسان الشعبي يستطيع ان يحول الفوضى الى نظام عن طريق اجراء الطقوس ، وبهذا يصبح المكان مقدسا ، ومن ثم تنشأ العلاقة الروحية بينه وبين هذا المكان .

وليست رحلة البطل من الاساطير والحكايات الخرافية للوصول الى شجرة الحياة او التفاحة الذهبية او الاميرة المسحورة أو نبع الخلود ، سوى تعبير رمزى فني عن فكرة الوصول الى المكان المقدس . والطريق الى هذا المكان شاق ومحفوف بالمخاطر ، ذلك ان الوحش المهول يقف هناك متربصا بالبطل . واذا كان هذا الوحش رمزا للفوضى ، فلا بد للبطل من أن يقتله ، لكي تستعيد الحياة نظامها وقدسيتها .

وكما يخلع الانسان الشعبى طابع القدسية على المكان ، فانه كذلك يخلع طابع القدسية على الزمان . والزمان المقدس يعني الزمن الاسطورى الذى لا ينتهي . أى أن الانسان البدائي ومثله الشعبي يصارع التاريخ ، بمعنى انه أحداث متعاقبة لا يمكن تفاديها أو تفادى نتائجها ، بل انه يحن دائما الى الزمن الاسطورى ، الزمن الاكبر حيث بدء كل شيء . وهنا يختلف الانسان الشعبى أساسا عن الانسان العصرى (modern) . فالثانى يحمل عبء الزمن وثقله ، وهو يفكر دائما فى لا مغزى ولا معنى الحياة . ذلك لأن الحياة تصل بكل شيء الى قمة ازدهاره وحيويته ثم تؤول به بعد ذلك الى الفناء . أما الانسان الشعبي الذى يسعى دائما الى الاحساس بوجوده الحقيقي ، فانه لا يريد أن يفقد صلته بالوجود ، ولا يريد ان يقع فريسة الاحساس باللامعنى . وهو يصل الى قمة هذا الاحساس عندما يجد نفسه يعيد ما فعل من قبل ، اى يمارس الطقوس والاحتفالات التي فعلها اجداده . ففي هذه الاحتفالات التي يمارس الجميع فيها طقوسا واحدة ، يشعر الانسان الشعبي حقا انه نغمة في لحن جماعي ، بل في لحن الكون . هذا

الكون الذى يتجدد دائما بتجدد ليله ونهاره ، وتجدد فصوله ، وتجدد قمره .

الانسان الشعبي (١) اذن يسعى الى تجديد الحياة ، اى محو الزمن الحسى وهذا مانعنيه بحنينه الى الزمن الاسطورى ، اى الزمن المتجدد كما عبر عنه فى اساطيره وما زال يعبر عنه فى احتفالاته وممارساته . ولا يعنى هذا ان الانسان الشعبي لا يشعر بنهاية الاشياء او نهاية فترة ما ، حقا انه يشعر بهذا ، ولكنه سرعان ما يشعر باستمرار الحياة ، ويحن الى الخلق الجديد كما صوره فى اساطيره ، فيقلده او يعيد ذكراه .

وانطلاقا من هذه الفلسفة نستطيع ان نصل الى أبعاد طقوسه واحتفالاته الدورية ، وأن نكشف عن كنه كثير من ممارساته التي قد تبدو غامضة عندما يعجز الباحث عن ان يجد لها تفسيرا مقنعا .

ويمكننا ان نقسم هذه الاحتفالات الى نوعين : نوع يهدف الىتطهير حياته منالاشباح والامراض والذنوب ، والنوع الآخر يهدف الى تجديد دورة الحياة الطبيعية المرتبطة بالخصب والنماء .

أما النوع الاول فتتمثل طقوسه فى مراسيم التطهر ، وفى الصيام الدورى ، وفي طرد الاشباح والعفاريت من حياة الفرد والجماعة ، وفى تقديم الضحية فى مناسبات معينة ، وغير ذلك .

وأما النوع الثاني فتدور حوله كثير من الاساطير والطقوس التي عرفتها شعوب العالم اجمع وما تزال تعيد ذكراها بصورة أو بأخرى.

والواقع ان كلا النوعين من الاحتفالات يهدف الى الاحساس بجدة الحياة واستمرارها ، وخلوها من عوائق الاحداث التى نعبر عنها بالتاريخ .

فقد يمارس الانسان الشعبي الزار فىأوقات دورية اثر احساسه بوجود عائق بداخله يفسره بانه تملك الجن له . وهذا العائق يحول بينه وبين الاحساس بالارتياحفىحياته . وغالبا ما ينتابه هذا العائق فى الحقيقة اثر حادث معين . ولكن لان الانسان الشعبي ينزع دائما الى محو الزمن الحسي والعيش في الزمن الاسطورى ، حيث يتجدد كل شيء ، فانه لا يفكر فى هذا الحادث ، بل انه لا يتذكره . وقد عبر احد أبناء الشعب المصرى عن شعوره اثر اجرائه طقس الزار ، بانه يشعر انه يولد من جديد . فهذا طقس يمارس بقصد طرد الاشباح من عالم الانسان ،ولكن الهدف البعيد منه في الحقيقة ، هو البعث الجديد على نحو ما يحدث في العالم الاسطورى ، عندما تبعث الحياة بعد القضاء على العناصر الشريرة .

ويرتبط بفكرة تعلق الانسان الشعبيبالزمن الاسطورى المتجدد موضوع تقديسه للاموات. فحرص الانسان الشعبي على زيارة الاموات وتقديم القرابين لهم بصفة دورية ، وحديثه عن ان الاموات يزورونه فى الاحلام ، ويبلغونه قولا يتعلق بموضوع يعايشه ، وقد يتنبأون بما يمكن ان يحدث فى المستقبل ، كل هذا يعنى ان الاموات قد انتفت عنهم الصفة التاريخية ، وانهم يعيشون معه على الدوام . ولهذا يتحتم تجديد العهد بينه وبينهم في فترات دوريةحتى يعيشوا معا فى تصالح دائم .

وحنين الانسان الشعبي الى الزمن الاسطورى المتدفق جعلهيهتم بالاحتفالبتجديد دورة الحياة ، وذلك عن طريق احتفالاته

---

(١) سوف نلتزم بهذا الاصطلاح الذى نعنى به بشيءمن التجاوز كلا من الانسان البدائى والانسان الشعبى الذى يعيش مرتبطا بالعادات والمعتقدات والتقاليد الجمعيةالمتوارثة .

بالخصب والنماء . وهو في هذه الاحتفالات يشخص ما رواه في أساطيره عن الحياة المتجددة في العالم العلوي .

فقد احتفلت جميع شعوب العالم ، وما تزال تحتفل بصورة أو بأخرى ، بعودة النضرة للحياة ، اما بعد صيف جاف حار أصاب المزروعات بجفافه ، أو بعد شتاء قارس قتل المزروعات بصقيعه . ففي كلتا الحالتين كانت الشعوب تحيى ، في قداسة بالغة ، الاحتفالات الدينية ، وتجرى الطقوس التي تتوسل عن طريقها الى الآلهة لكي تعيد للحياة نضرتها على الدوام . ويعد الرقص عنصرا هاما في اجراء الطقوس ، لان الغرض منه هو اثارة الطبيعة كي تسقط أمطارها فتمتلىء الانهار بالمياه ، ويرتوى الزرع وتعود للحياة نضرتها .

وقد كان المصريون القدماء يحتفلون بفيضان النيل كل عام ، بان يلقوا فيه بعروس مزدانة لكي يتزوجها النيل ، فيعود الى حيويته ونشاطه . ومعنى هذا ان النيل الذى قد يصل نشاطه الي حد الإنهاك ، لابد ان يعود الى كامل قواة وحيويته عن طريق الزواج الجديد .

وحول هذا المغزى تدور أسطورة ادونيس . فلقدكان ادونيس شابا جميلاغرمت به الالهة أفروديت . وذات يوم هاجم أدونيس ثور وحشي واصابه بجرح افضى به الى الموت . وحزنت افروديت على موت حبيبها كل الحزن ، واخذت تتضرع للاله زيوس ان يعيد الحياة الى أدونيس . فاشفق زيوس عليها ومنح ادونيس منحة العودة الى الحياة ، ولكن في فترة معينة فقط من السنة . وتشير الطقوس التي كانت تؤدى للتعبير عن موت ادونيس ومن عودة الحياة اليه ، كما يشير توقيت الاحتفال وطابعه ، الى ان ادونيس لم يكن مجرد اله ، بل كان تجسيدا للزمن المتجدد الذى يؤدى الى سلامة الطبيعة واحيائها على الدوام . فقد كان الاغريق يحتفلون بهذا العيد في الربيع . وكان يحتفل به في فلسطين في شهر يونيه عندما يصل ازدهار النبات الى قمته . ويقع موت ادونيس في التقويم السرياني المقدوني في الثالث والعشرين من شهر سبتمبر كما يقع بعثه في اليوم الاول من شهر اكتوبر ، وهو بداية العام الجديد في هذا التقويم . وكان الاحتفال بموت ادونيس يتميز بعويل النساء عليه بصفة خاصة ، وذلك لخوفهن من أن يصبن بالعقم ، حيث ان الجدب يشمل كل مظاهر الحياة (٢) .

ويذكرنا عويل النساء على أدونيس بما روى من عويل البابليين والكنعانيين بسبب اختفاء الههم تموزعنهم . وقد نجم عن ذلك ان حل الخراب بالارض ، واصاب العقم الحيوان والانسان . عند ذاك رفع الناس أصواتهم بالبكاء والعويل متوسلين الى الاله تموز ان يعود اليهم ،وسمع الاله تموز بكاءهم ،فأشفق عليهم ، وقرر ان يضع حدا لمتاعبهم بأن يعود الى الارض فترة قصيرة في كل عام . وها هي ذى بعض عبارات هذا العويل . .

بكاؤنا يسمع في كل مكان في الارض ، مرتفعاتها ومنخفضاتها لعله يصل الى بيت الاله .

انه عويل من اجل النبات الذى كف عن النمو

ومن اجل الشعير الذى ذبل

ومن اجل الناس والقطيع ، فقد كفوا عن التوالد .

ومن اجل موت الشباب والاطفال

---

(٢) Jessie L. Weston : From Ritual to Romance. P. 47 (New York 1957).

ومن اجل النهر الذى كف عن الفيضان
ومن اجل السمك الذى اختفى

ومن اجل الغابات التي لم يعد ينمو فيها شجر التمرسك

ومن اجل مخازن البيوت التي لم تعد تستقبل النبيذ والعسل

ومن اجل البرارى التي لم تعد تنبت فيها الحشائش

ومن اجل القصر الذى ولت عنه بهجة الايام الماضية .

واذا كان النص لم يشر الى احتفالات الشعب ببعث الاله تموز ، الا ان تكملة النص تشير الى عودة الخصب الى الحياة مرة أخرى، فقد ورد فيه :

لقد ترعرعت الحشائش حيث كانت قد اختفت

وتدفقت المياه وعاد الناس يجرعونها
واستعاد الناس بناء الحظائر بعد أن كانت قد هدمت (٣) .

وقد تعود البابليون احياء ذكرى الصراع بين تيامات ، وحش البحر الذى يمثل الفوضى ، والاله مردوك الذى يرمز الى النظام ، وقد تمكن مردوك من ان يقتل تيامات، ثم شرع بعد ذلك فى خلق الكون والانسان . وقد كانت الطقوس التي تحيى ذكرى هذه الحادثة الاسطورية ، تجرى على النحو التالي :

١ ــ قضاء فترة من التطهر والتكفير عن الذنوب، وتقديم الضحية وهي تمثل الفترة التي كان فيها مردوك اسيرا فى الجبال عاجزا عن التخلص من سيطرة تيامات عليه . وكل هذا يرمز لمرحلة الفوضى التى سبقت خلق الكون وتنظيمه .

٢ ــ يدور الصراع بين فريقين احدهما يمثل مردوك والآخر تيامات ، ويصيح الناس بفريق مردوك ان ينتصر ، بينما يدعون على الفريق الآخر بالفناء .

٣ ــ انتصار فريق مردوك الذى يعني الخلق الجديد للعالم والانسان وما يعقب هذا من احتفالات (٤) .

ويحتفظ اليابانيون فى تراثهم بذكرى « تاما » ، والتاما عنصر روحي يعيش مع الانسان ومع الأموات ومع القديسين . فاذا اوشك الشتاء على الانقضاء مسلما دورة الحياة الى الربيع : تهجيت التاما وحاولت ان تترك جسم الانسان الحي ، كما تحاول تاما الاموات أن تغزو مساكن الاحياء . والغرض من هذا الاحتفال المشبع بالمغزى النفسي الفسيولوجي هو تثبيت تلك المادة الروحية فى الجسم . ذلك ان النفس الانسانية التي يطول كبتها فى موسم الشتاء ، تتهيج عندما تشعر بمقدم الربيع ، موسم الازدهار والاخصاب . ومن ثم يجرى هذا الاحتفال لوضع حد لتهيجها لكي تمارس نشاطها فى نظام مع مطلع الميلاد الجديد .

كل هذه الشعائر والطقوس هي فى تكوينها البنائي نوع من سحر المشاركة كما شرحه **فريزر** فى كتابه « الغصن الذهبي » . وهي تنبع اصلا من حاجة الانسان الشعبي الى تحرير نفسه من اسر الاحساس بالزمن عن طريق استحضار النموذج القديم الذى يجعله يشعر بانه معاصر للخطة الميثولوجية لبداية الحياة .

(٣) Op. Cit. P. 39-40.

(٤) Mircea Eliade : Cosmos and History, P. 57, 58 (New York, 1959).

وهو يشعر بالحاجة الى العودة الى تلك اللحظة أكبر وقت ممكن ، لكي يجدد نفسه ويجدد حياته . وسواء كانت تلك الطقوس جمعية أو فردية ، وسواء كانت دورية او تلقائية ، فانها تحتوى فى بنائها على معنى الاحياء عن طريق تكرار الفعل القديم ، الذى غالبا مايكون فعلا قد شارك فى تكوين الكون لاول مرة . وكل مايهمنا من سرد هذه الامثلة هو تأكيد نزوع الانسان الى محو الزمن الحسى .

واكثر ما يؤكد لنا هذه الفلسفة ، تعلق الانسان الشعبي منذ القدم بالقمر ، بحيث صاغ حوله الاساطير التي سنشير اليها وشيكا .

فاذا كان القمر قد اسعف الانسان بقياس الزمن بطريقة حسية ، وذلك قبل ادراكه للحساب الشمسي بزمن طويل ، فان القمر فى الوقت نفسه رمز للعودة الابدية . انه النمط القديم للاستمرار الذى يحن اليه الانسان الشعبي ويصارع الحياة من اجله . فكما ان القمر يبزغ ثم يكتمل ثم يتمزق ويختفى ثم يعود للحياة مرة اخرى ، فكذلك يولد كل شيء فى الحياة ، وينمو ثم يعود للحياة مرة اخرى .

(٢)

وفى مرحلة تالية لذلك كان ينظر الى الملك عند شعوب الحضارات القديمة ، بل وعند بعض سكان افريقيا الاصليين فى العصر الحاضر ، كان ينظر اليه بوصفه ممثلا للاله .

فقد كان الملك عند الاغريق يعد ممثلا للاله زيوس . وقد كانت الواجبات الملقاة على كاهل هذا الملك من المشقة بمكان ، بحيث لا يمكن ان يقوم بها سوى رجل خال من اى عيب جسدى او عقلي ، اى لابد ان تتوفر لهذا الملك الحيوية والشباب طالما كان يحكم شعبه . لقد كان شعبه يطلب منه ان يكون مهابا من الرجال الاقوياء ، وان يستطيع ان يحكم بالعدل بينهم ، وان تنبت الارض طول مدة حكمه الشعير والقمح وتحمل الاشجار الفواكه والثمار الطيبة . ويلد القطيع الصغار ، كما يتوالد السمك فى البحار ، وان يعيش الشعب فى رخاء دائم . والملك يقدر على تحقيق كل هذا لشعبه اذا كان خاليا من اى عيب جسدى او عقلي ، اما اذا كان مريضا على نحو ما ، ابتليت مملكته بالمرض . « ولهذا فقد حذرت النبوءة الاسبرطيين من الحكم الاعرج » (٥) .

وقد روى فريزر ما يشبه هذا التصور عند الاغريق ، عن قبيلة الشلوك التي تسكن النيل الابيض فى منطقة تمتد من الشاطيء الغربي عند مدينة كاكا فى الشمال الى بحيرة نو فى الجنوب ، كما تسكن الشاطيء الشرقي من النهر من فاشودة الى التوفيقية . فملكهم الذى كان يقيم فى فاشودة ، ينظر اليه بوصفه تجسيدا للبطل المؤله « نياكنج » الذى كان اول من استوطن بقبيلته هذا المكان وفقا لاسطورتهم . وقد كان هذا البطل يؤله بوصفه مانح المطر . وعلى الرغم من تقديس القبيلة للملك على هذا النحو فانه لم يكن يسمح له بأن يصير هرما ضعيفا ، والا سرت عدوى الضعف الى قبيلته ، فيمرض القطيع وتذبل المحاصيل ويموت الرجال باعداد كبيرة ، واحدى علامات ضعف هذا الملك عجزه عن تحقيق رغبات زوجاته اللاتي يمتلك منهن العدد الكبير . فاذا حدث هذا رفعت الزوجات شكواهن الى رؤسائهن الذين يشرعون على الفور فى تعريض الملك العجوز للقضاء ، واحلال ملك شاب قوى مكانه (٦) .

---

(٥) From Ritual to Romance : P 58.

(٦) Frazer : The Golden Bough, Vol. V. PP. 17 et seq.

وكل هذا يعنى ان الملك لم يكن مجـردرجل يحكم ، بل كان تجسيدا لقوة الهيـة مرتبطة بخصب الارض ورخاء الناس ، وقدرة الانسان والحيوان على الاخصاب. انه نصف اله ونصف انسان ، ومركزه يقع بين الناس والارض مـن ناحية ، والقوة الخفية التي تتحكم فى مصائـر الناس من ناحيـة اخرى . وسواء كان هـذا الملك هو ادونيس او تموز ، او كان ملكا حقا ، فان نسيج قصته واحد ، وطقوس الاحتفـال بموته وبعثه واحدة . ويتالف نسيج القصـة اساسا من مجموعة من المتناقضات هي الموت والبعـث ، والجـدب والخصـب ، والحزن والبهجة .

وقد ظلل تأثير هـذه الاساطير ممتدا حتى العصـور الوسطى . فقـد شاع فى القصـص الرومـانسي فى هـذه الفتـرة فى أوروبا نمط قصصي هو قصة « الملـك الصـياد والكأس »
The Fisher King and the Grail

وقد درست جيسي وستون « هذه القصة فى كتابها القيم « مـن عصر الطقوس الى العصر الرومانسي » ، بقصد الكشف عن اصول هذه القصة ، وتفاصيل الطقوس والاساطير القديمة الخاصة بتجدد الحياة ، يؤكد ان قصة الملك الصياد والكأس ليس سوى امتداد للاساطير القديمة . ولا يرجع ظهور هذه القصة فى الادب الـرومانسى فى العصور الوسطى الـى مجرد تقليد هذا الأدب الشعبي القديم واستيحائه لبعض نماذجه ، بل يرجع الى امتداد الاعتقاد القديم فى حد ذاته ان الحياة تتجد كلما آل بها الزمن الى الهرم ، وان هذا التجدد يحتاج الى اجراء طقوس معينة لكي تعود القوة والحيوية الى الشخوص الاسطورية التي يرتبط شبابهـا بشباب الارض ومن عليها .

وتتلخص هذه القصة فى اكمل رواياتها فى ان الملك الصياد كان يعاني من ضعف بسـبب مرضاو بسبب الهـرم .ولو كان ضعف هذا الملك يعنيه وحده ، لما اهتم بذلك احد ، ولكن هذا الضعف الجسدى ، وربما العقلي كذلـك الذى انتابه، هدد بلاده بالخراب. وكان يتطلب الامر ، لكي يستعيد الملك قواه وحيويته ، ان يرحل فارس شاب الى قلعة بعيدة يكتنفهـا الغموض ليحضر منها السيف والكأس . ومـا ان وطئت قدماه هذا المكان حتى بدت له اشياء يقف لها شعر الراس رعبـا . فقد بدا لـه فى السكون والظلمة المخيمة على المكان ، جسـد ميت،كما امتدت اليه يد مدمية من مكان مجهول، والى جانب هذا سمع اصواتا مرعبة تحذره من الاقتراب من هدفه ، ولكن الفارس البطـل ، استطاع رغم كل ذلـك ، مستعينا بتعاويـذه السحرية ، ان يصل الى مطلبه . ثم راح بعـد ذلك فى سبات عميق . فلما استيقظ وجد أن القلعة قد اختفت ، وابصر نفسه يسير وسط ربوع خصبة مليئة بالورود . وعندما عاد الى بلده ،حيث ترك الناس يبكون ويولولون بسبب الخراب الذى يتهددهم ، وجد المأتم قد انقلب الى فرح وسعادة ، ووجـد الناس ينتظرون قدومه لكي يستقبلوه استقبال البطل الـذى استطاع ان يعيد للملك شبابـه ولحياتهـم الخصب بعدان تمكن من الحصول على الكأس والسيف .

هذه القصة التى وردت فى ملحمة الملك آرثر وفى قصـة برسيفال ، وربما فى غير ذلك مـن القصص الـذى شاع فى العصـور الوسطى ، تشبه ولا شك الاساطير الطقوسية التي سبق ان أوردناها .

واذا كان الباحثون قد انتهوا الى ان الكأس يرمز للانثى ، وان السيف يرمز للذكر ، فان دواء الملك الذى يسعى الفارس فى الحصـول عليه اذن ، يتمثـل فيما يمكن ان يعيد للملك قواه الجنسية لكي يكون قادرا على الاخصاب فتخصب الارض ، نتيجة لذلك ، بتأثير سحر المشاركة .

ولا ننسى أن نذكر فى هـذا المجال ان لقب « الملك الصياد » هو فى حد ذاته الرمز الـذى تدور حوله الاسطورة باكملها . ذلك ان السمكة تعد رمزا للاخصاب منذ العصور القديمة حتى اليوم ومعنى هـذا ان الملك الـذى يرتبـط شباب الارض بشبابه ، ينبغي ان يكون ممتلكا لمصدر الاخصاب وما يتولد منه ، وهو الماء .

على أن اساطير الخصب القديمـة لم يقف تاثيرها عند هذا الحد،بل مايزال تاثيرها وتاثير المعتقد نفسه جليا فى الحياة الشعبية المعاصرة وفى التفكير الشعبي بصورة او باخرى . فاحتفالات الربيع التي تجرى فى جميع انحاء العالم ، ومن بينها احتفالنا الشعبي بشـم النسيـم ، ليس سوى تكرير للطقوس القديمة، وان غاب المضمون الديني المقدس عن هذه الاحتفالات . وقد اعتاد الاطفال فى بعض قرى مصر ان يصنعوا عروسة من الخشب او القماش ويلبسوها ، ويطوفوا بها فى الشوارع ليلة الاحتفال بشم النسيم ، ثم كانوا يحرقون العروس فى نهاية الاحتفـال ويلقوا بها فى النيل وهم يغنون :

عروسة شم النسيم

كل سنة وانتم طيبين

عروسة شم النسيم

سنة يبضه عليّ حاضرين

قوم اصحى يا وخم

قوم اترك البلد

فالعروسة هنا رمز للسنة المنصرمة التى اصابها الهرم بحلول فصل الشتاء ، ولابد لهذه السنة أن تتجدد بحلول فصل الربيع . ولهذا فان العروسة يلقى بها فى الماء لانه اصـل كل شيء حي كما سبق أن ذكرنا ، ومن هنا نفهـم الصلة بين الاغنية وحرق العروسة، إذ ان الاغنية تتمنى للناس بعد القضاء على الشيء البالى ، عاما كله خير وبركة ، مليئا بالحيوية والنشاط،

وليس احتفال الشعب بالزواج وفقا لطقوس معينة ، ودعاؤهم للعروس ليلة زفافها بقولهم : « ربنا يجعلك شجرة تطرح وتملا المطرح » ، سوى تعبير عن الاحتـفال باستمرار الحيـاة المتمثلة فى جيل مخصب يعقب جيلا اصـابه الجدب والهرم ، بل أن الربط بين الشـجرة المثمرة والعروس المخصبة لأكبر دليل على حنين الشعب لان يرى الاخصاب المتجدد فى كل مظاهر الحياة .

ويحتفل الشعب بميلاد الطفل بطقوس معينة حيث أن هذا الميلاد رمز لاستمرار الحيـاة . ولهذا فان الشعب يحيط هذا الميلاد الجديد بكل ما يضمن له البقاء والاستمرار ، فهـو يحميه من الارواح الشريرة عن طريق تعاويذه وطقوس سحره ، وهو يجرى له احتفالا خاصا فى اليوم السابع من ميلاده عندما تفارقه الملائكة وفقا لاعتقاده ، بعد أن رعته من الشر الذى يكون معرضا له أكثر ما يكون فى السبعة أيام الاولى من ميلاده . وفى هذا الاحتفال يدق الهاون حتى تهرب الارواح الشريرة التى تفزع من صليل النحاس ، كما انه يضع بجانبه الماء من القلة أو الابريق ، وكذلك يضع سبع حبات فى الماء كي تنبت . وهذا تعبير رمزى مجسـد مغزاه أن تكون حياة الطفل جارية جريان الماء، ونضرة نضرة الزرع .

وحنين الشعب الى الزمن الاسطورى يدفعه لان ينتزع الشخصيات الجذابة التى تروقه لسبب أو لآخر من اطارها التاريخى ويضـعها فى قالب اسطورى . ومن هنا ظهرت اساطير هرقل وجلجامش ومارجرجس ، والسـيد البدوى ، وعنترة وغيرهم . وكلها ينزع الى تشكيل الحدث الواقعى فى شكل اسـطورى ، بحيث يصبح هذا الحدث الاسـطورى هـو الأصل، والحدث الواقعى صورة ممسوخة له. ونلاحظ أن كل هذه الشخوص صارعت القوى المهولة سواء كانت تنينا أو غيره ، لأن هـذا الفعـل وحـده يكفى أن يزج بهـا فى الزمن

الاسطورى ويبعدها عن الزمن التاريخى . وكلما ارتبطت الشخصيات بطقوس معينة تمارس دوريا على سبيل الاحتفال بذكرها ، عاشت هذه الشخصيات على الدوام فى ضمير الشعب. ولهذا كانت شخصية القديس مار جرجس والسيد البدوى على سبيل المثال ما تزال وسوف تظل ماثلة فى نفوس الشعب المصرى ، فى حين أن شخصيات السير الشعبية مثل **الظاهر بيبرس وعنترة** قل حجمها بمجرد اختفاء الانماط القصصية التى نسجت حولها، وذلك لعدم ارتباط تلك الشخصيات بطقوس معينة .

واذا قام الانسان الشعبى بعمل تتعلق حياته بنتيجته ، سرعان ما يشعر بسيطرة العالم المقدس عليه ، أو لنقل انه سرعان ما يتجاوز العالم المعلوم الى العالم الغيبى ، حيث يعيش فترة فى الزمن الاسطورى المقدس ، فقد حكى لنا صياد من منطقة رشيد الساحلية فى مصر عن تجربته الشخصية عندما يخرج للصيد من رشيد متوغلا فى أعماق البحار فقال : عندما نقف على الشاطىء ، وقد استعد المركب للاقلاع نوجه بصرنا الى ضريح الشيخ أبى مندور الذى يقع قبالتنا على الساحل الآخر . فاذا بشعلة خافتة من الضوء تخرج من هذا الضريح وتتجه الينا . عند ذاك نتوكل على الله ونبحر والضوء ملازم لنا كأنه النور الهادى لنا فى الطريق . ويظل هذا الضوء يصحبنا حتى نجتاز المنطقة الخطيرة . وعند ذاك ينحسر الضوء ويرتد الى الضريح ، وبعد ذلك نشتم رائحة بخور عطر تنتشر فى الجو .

وقد يبدو هذا السلوك ساذجا لمن هو بعيد عن روح الحياة الشعبية ، ولكننا عندما نتعمق فى طبيعة الانسان الشعبى ، ندرك أن هذا السلوك ينتمى الى فلسفته العامة فى اكساب كل ما هو دنيوى طابعا دينيا مقدسا ، لان الحقيقة الكبرى لا تتمثل الا فى هذا الشىء المقدس . ومن ثم فقد نقل الحدث الحسى الى الزمن اللا حسى الاكبر حيث تقضى القوة الخيرة على القوة الشريرة ، فتعود للحياة صيرورتها الدائمة ونظامها .

(٣)

ويتنوع تجسيد الشعوب لفكرة الزمن اللامتناهى بحيث تأخذ أشكالا عدة تكون منبعا لتراث شعبى خصب . وقد سبق أن رأينا كيف انتشرت فى التراث الغربى حتى العصور الوسطى فكرة الملك المقدس الذى يتحتم عليه أن يظل شابا مليئا بالحيوية والا قضى عليه بالموت . اما فى مجتمعنا العربى ، فقد تجسدت فكرة الزمن اللامتناهى فى شخصية **الخضر** وفيما صيغ حولها من روايات .

فمن هو الخضر ؟ ولماذا سمى بهذا الاسم ؟ يفاجئنا هذا الاسم فى شرح المفسرين للآيات القرآنية التى تحكى عن مقابلة **موسى** عليه السلام للشخصية المجهولة عند مجمع البحرين على نحو ما ورد فى سورة الكهف فى قوله تعالى « **واذ قال موسى لفتاه لا أبرحُ حتى أبلغَ مَجمعَ البحرين أو أمضى حقبًا . فلما بلغا مجمع بينهما ، نسيا حوتهما فاتخذ سبيله فى البحر سربًا . فلما جاوزا قال لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبًا . قال أرأيت اذ أوينا الى الصخرة فانى نسيتُ الحوت وما انسانيه الا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله فى البحر عجبا . قال ذلك ما كنا نبغ ، فارتدا على آثارهما قصصا . فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما** » .

وقد أورد الطبرى على عادته روايات عدة تشرح سبب نزول هذه الآيات وتفسرها فى الوقت نفسه . ومن بين هذه الروايات أورد رواية هذا نصها : « ان موسى هو نبى بنى اسرائيل سأل ربه فقال : أى رب ان كان فى عبادك أحد هو أعلم منى فادللنى عليه . فقال له : نعم فى عبادى من هو أعلم منك . ثم

نعت له مكانه وأذن له فى لقيه . فخرج موسى ومعه فتاه ومعه حوت مليح وقد قيل له : اذا حيى هذا الحوت فى مكان فصاحبك هنا لك وقد ادركت حاجتك. فخرج موسى ومعه فتاه، ومعهما ذلك الحوت يحملانه. فسار حتى جهده السير وانتهى الى الصخرة **والى ذلك الماء ، ماء الحياة ، من شرب منه خلد ولا يقاربه شيء ميت الا حيى** . فلما نزلا ومس الحوت الماء حيى فاتخذ سبيله فى البحر سربا . فانطلقا . فلما جاوزا منقلبه قال موسى : آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا . قال الفتى وذكر : « ارايت اذ اوينا الى الصخرة فانى نسيت الحوت وما انسانيه الا الشيطان ان اذكره ، واتخذ سبيله فى البحر عجبا . » قال ابن عباس : فظهر موسى على الصخرة حتى انتهيا اليها . فاذا برجل متلفف فى كساء له : فسلم موسى فرد عليه السلام ثم قال له ، ماجاء بك ان كان لك فى قومك شغل ؟ قال له موسى: جئتك لتعلمنى مما علمت رشدا . قال : انك لن تستطيع معي صبرا . وكان رجلا يعلم علم الغيب قد علم ذلك . » (٧)

وفى رواية اخرى أن رجلا من بنى اسرائيل سأل موسى : « هل على الارض أحد اعلم منك يارسول الله ؟ قال : لا . فبعث الله جبرئيل الى موسى عليهما السلام فقال : ان الله يقول: وما يدريك أين أضع علمى . بل ان على شط البحر رجلا أعلم منك . فقال ابن عباس : هو الخضر . فسأل موسى ربه أن يريه اياه . فاوحى الله اليه أن ائت البحر فانك تجد على شط البحر حوتا . فخذه فادفعه الى فتاك ثم الزم شط البحر . فاذا نسيت الحوت وهلك منك ، فثم تجد العبد الصالح الذى تطلب » . (٨)

وروى أن **ابن عباس** تمارى هو **والحر بن قيس بن حصن الفزارى** فى صاحب موسى : فقال ابن عباس : « هو خضر . فمر بهما **ابى بن كعب** فدعاه ابن عباس فقال : انى تماريت أنا وصاحبى هذا فى صاحب موسى الذى سأل السبيل الى لقيه . فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر شانه ؟ قال : انى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : بينا موسى فى ملأ من بنى اسرائيل اذ جاءه رجل فقال : تعلم مكان أحد اعلم منك؟ قال موسى : لا . فأوحى الله الى موسى : بل عبدنا خضر . فسأله موسى السبيل الى لقيه . فجعل الله له الحوت آية وقيل له : اذا فقدت الحوت فارجع فانك ستلقاه . فكان موسى يتبع أثر الحوت فى البحر . فقال فتى موسى لموسى : أرايت اذ أوينا الى الصخرة فانى نسيت الحوت . قال موسى : ذلك ما كنا نبغ، فارتدا على آثارهما قصصا ، فوجدا عبدنا خضرا ، وكان من شأنهما ما قص الله فى كتابه . » (٩)

من كل ذلك نستخلص ما يلى :

اولا : ان الآيات القرآنية لم تذكر اسم ذلك العبد الذى لقيه موسى ، بل اقتصرت على الاشارة الى كنهه فى قوله تعالى : **فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما »** . وعندما شرع المفسرون فى شرح الآية ، والحوا على تحديد اسم هذا العبد حتى تتحدد شخصيته ويصبح تجسيدا لطبيعة مميزة بأفعالها وروحانياتها . وهذه الطبيعة لا تنتمى الى الطبيعة البشرية كلية ، بل انها تخرج من دائرة الانبياء المعروفين لتدخل فى مجال أشد قربا الى الطبيعة الالهية ، وأكثر ابتعادا عن الطبيعة الانسانية . وعندما سميت

---

(٧) الطبرى : جامع البيان عن تأويل آى القرآن : ج ١٥ ص ٢٧٩ ، ٢٨٠ .

(٨) نفسه ص ٢٨١ .

(٩) نفسه ص ٢٨٢

هذه الشخصية باسم أطلق عليها اسم الخضر وليس هناك شك في أن الاسم يعنى الخضرة اى النضرة الدائمة .

ثانيا : ان اكثر ما يميز هذه الشخصية هو وصولها الى العلم الغيبى . وعلى الرغم من أن موسى نبي الا ان الآيات شاءت أن تؤكد ان نبوته لم ترفعه كلية عن مستوى قدرات البشر العاديين . ولهذا فان أول ما يفاجئنا فى الآيات، ادراك هذا العبد بأنه ارفع قدرا من موسى ، ولم ينس لذلك أن يذكر موسى بهذا الامر منذ بداية مقابلته له وطوال رحلته معه : « قال له موسى : **هل اتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا . قال انك لن تستطيع معى صبرا . وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا . قال ستجدنى ان شاء الله صابرا ولا اعصى لك امرا. قال فان اتبعتنى فلا تسالنى عن شىء حتى احدث لك منه ذكرا** » . فلما الح موسى على ان يعرف منه ما عجز علمه عن ادراك مغزاه ، ذكره العبد اكثر من مرة بوعده له بانه لن يتدخل فى شئونه فكان موسى يعتذر له المرة تلو الاخرى . حتى اذا نفد صبر موسى والعبد معا ، شرع العبد فى ازاحة الستر الذى يقف حائلا بين موسى وبين ادراك الحقيقة الغيبية ، ولكنه فارقه واختفى أثر ذلك . « **قال هذا فراق بينى وبينك ، سانبئك بتاويل ما لم تستطع عليه صبرا** » . وكان العبد او الخضر، فى اثناء تفسيره لمغزى ما أقدم عليه من فعل يبدو فى ظاهره منكرا ، وان كان فى باطنه فعلا طيبا ، ينسب الارادة لنفسه : « **فاردت ان اعيبها** » « فخشينا ان يرهقهما **طغيانا وكفرا** » « **فاردنا ان يبدلهما ربهما خيرا منه زكاة واقرب رحما** » . حتى اذا جاء الى نهاية تفسيره « ذكر ان الارادة الالهية هي التى أودعته سرها » : « **وما فعلته عن امرى** » . ومعنى هذا انه بعد ان منح هذا السر الالهى ،اصبحت له قدرة التصرف وفقا لما ينجلى له باطن الامر.

ثالثا : ان العلامة التى اعطيت لموسى للتعرف على هذا العبد المجهول ، تحددت أولا فى العثور عليه فى مكان ما ، سمى بمجمع البحرين ،واثر حادث غريب هو ان السمكة المملحة التى كان يحملها فتى موسى لابد أن تحيا اثر تسربها فى البحر . ولهذا عندما أعلم الفتى موسى بأن السمكة تسربت فى البحر ، على نحو ما ورد فى الآية الكريمة : « **ارأيت اذ اوينا الى الصخرة فانى نسيت الحوت وما انسانيه الا الشيطان، أن اذكره ، واتخذ سبيله فى البحر عجبا** . » فرد موسى قائلا على الفور : «**ذلك ما كنا نبغ**» ولعل هذا ما دفع بعض المفسرين لأن يوضح طبيعة الماء الذى تسربت اليه السمكة ، او بالأحرى الحوت ، بقوله : « فسار (اى موسى) حتى جهده السير وانتهى الى الصخرة والى ذلك الماء ، ماء الحياة ، من شرب منه خلد ولا يقاربه شىء ميت الا حيى . فلما نزلا ومس الحوت الماء حيى « **فاتخذ طريقه فى البحر سربا** » . والواقع ان حتمية وجود العبد الصالح او الخضر عند هذا الماء بعينه الذى حيى فيه الحوت يدعو الى التساؤل : هل هناك علاقة بين عودة الحياة الى الحوت اثر لمسها لهذا الماء ، وبين وجود الخضر فى هذا المكان ؟ وبمعنى آخر : هل يعد هذا العبد الصالح خالدا لكونه كان يعيش عند نبع الخلود الذى شرب منه بالضرورة ؟ وهل اصطلح ،لهذا السبب بعينه ، على تسميته بالخضر اى الذى يتصف بالنضرة الدائمة ؟ هذا على الاقل ما رسخ فى نفوس الشعوب الاسلامية ، وساعد على أن تعيش هذه الشخصية فى ضمائر الناس بوصفها تجسيدا للزمن اللامتناهى .

ونحاول الآن ان نرى كيف استغلت هذه الشخصية فى الروايات الشعبية .

لعب **الخضر** دورا مهما فى حياة بعض الشخصيات التاريخية البارزة التى نسج حولها القصص الشعبى. ومن تلك الشخصيات شخصية ذى القرنين التى ورد ذكرها فى القرآن

الكريم . ووفقا للرواية الشعبية المدونة التى رواها وهب بن منبه فى كتاب « التيجان فى ملوك حمير » عن ذى القرنين ، ان الصعب ذا القرنين ــ كما يسميه ــ رأى فى مطلع حياته ، وقبل ان يقوم بمغامراته العجيبة ، راى رؤى غريبة على مدى اربع ليال على التوالى . فقد راى فى الليلة الأولى « أنه يرقى جبلا عظيما منيعا لا يسلك فيه سائر من هول ماراى ، اذ اشرف على جهنم وهي تحته تزفر وامواجها تلتطم » ورأى فى الليلة الثانية « كأنه نصب له سلم الى السماء ورقى عليه ، فلم يزل يرقى حتى بلغ الى السماء ، فسل سيفه ثم علقه مصلتا الى الثريا ، ثم أخذ بيده اليمنى الشمس واخذ بيده اليسرى القمر ، ثم سار بهما وتبعته الدرارى والنجوم ثم نزل بهما الى الارض ، فلم يزل يمشى بهما وتبعته النجوم فى الارض » وفى الليلة الثالثة راى « كأنه جاع جوعا شديدا وظهر الى الارض فصارت له غذاء ، فاقبل عليها ياكل جبلا جبلا وارضا أرضا حتى أتى عليها كلها ، ثم عطش فاقبل على البحار يشربها بحرا بحرا حتى اتى على السبعة ابحر . ثم اقبل على المحيط يشربه فلما أمعن فيه اذا هو بطين وحماة سوداء لم تسغ له بما اتاه . فلما نام فى الليلة الرابعة « رأى كأن الانس والجن أتوه من الارض كلها حتى جلسوا بين يديه ، ثم اقبلت البهائم والانعام من الارض كلها حتى جلست بين يديه . ثم اقبلت الوحوش من الارض كلها حتى جلست بين يديه ، ثم اقبلت الطير كلها حتى اظلته ، واقبلت الهوام من جميع الارض كلها حتى حفت به ، ثم اقبلت الرياح حتى استدارت فوقه » (١٠)

وكان من الطبيعى أن يشعر ذو القرنين بقلق بسبب هذه الرؤى ، ولهذا فقد سعى الى من يفسرها له . وأشار عليه احد حكماء قومه بقوله : « ليس على الارض من يفسر تأويل رؤياك الا نبي بيت المقدس من ولد اسحق ابراهيم الخليل . « فاستعد الاسكندر لمقابلته» فلما نزل بيت المقدس سأل عن النبى الذى ذكر له ولم يطلب شيئا غيره حتى ظهر عليه . قال له الصعب : انبي أنت ؟ قال له موسى الخضر: نعم . عند ذلك قص عليه ذو القرنين ما رآه فى رؤياه . فاعلمه الخضر بانه مقدم على مغامرات وفتوحات وانه سيصطحبه فيها .

وسار ذو القرنين يفتح البلاد البعيدة التى يسكنها اقوام غرباء والخضر بصحبته . وكان كلما عن له أمر من الامور ، سأل الخضر ، وكان الخضر يجيبه فى غير تعنت . حتى اذا اقتربا من صخرة ، حاول ذو القرنين أن يرقاها عدة مرات ، ولكنها كانت فى كل مرة تنتفض وترتعد وتقعقع . فلما دنا منها الخضر سكنت فرقى عليها ، فلم يزل يرقى وذو القرنين ينظر اليه والخضر يطلع الى السماء حتى غاب عنه . فناداه مناد من قبل السماء . امض امامك فاشرب فانها عين الحياة ، وتطهر فانك تعيش الى يوم النفخ فى الصور ، ويموت اهل السماوات وأهل الارض ، فتذوق الموت حتما مقضيا ... فلما رجع الخضر الى ذى القرنين، قال له : ياذا القرنين انى شربت من ماء الحياة وتطهرت منه وأعطيت الحياة الى يوم النفخ فى الصور وموت أهل السماوات والارضين ثم أموت حتما مقضيا ، ومنعت أنت ذلك ولك مدة تبلغها وتموت ، فارجع فليس بعدها مزيد لانس ولا جن » (١١)

ولم تقف هذه الحقيقة ، رغم هولها ، دون مواصلة ذى القرنين لمغامراته فى العالم المجهول بعد ان فرغ من غزو العالم المعلوم . وذات مرة قاده الطريق الى مكان تشيع فيه الرهبة ويشيع فيه السكون . ولم يكن قد ادرك انه قدتجاوز

(١٠) انظر كتاب « التيجان فى ملوك حمير » عن وهب بن منبه رواية ابى محمد عبد الملك . ط . حيدر اباد . من ص ٨٢ الى ٨٤ .

(١١) انظر نفسه من ص ٨٦ الى ٩١ .

حدود الارض الى عالم الملائكة . وفجاة برز له شخص أخذ يزجره على نهمه الذى دفعه لان يتجاوز عالم الانس الى عالم الملائكة . وفى النهاية قدم له هذا الشخص حجرا صغيرا وقال له : « زنه بما ترى عينك فى الدنيا ، فان لك فيه عظة وعبرة » . فاخذ ذو القرنين الحجر « فوزنه بجميع جواهر الارض فرجح عليه ، ولم يزل يرجح كل ما وزنه به ، ولو وزنه بالكثير من جميع ما فى الارض ما وزنه ، والخضر ينظر اليه ساكنا ، قال له ذو القرنين: يا وليّ الله ، هل عندك علم من هذا المثل ؟ قال له : نعم هذا الحجر مثل لعينيك ، لم يملأ عينك جميع ما فى الارض ، مثل هذا الحجر الذى لم يرجح عليه شىء فى الارض ، ولكن هذا يملؤها . ومد يده فاخذ قبضة من تراب فجعلها فى الكفة وجعل الحجر فى الكفة الاخرى فرجح عليها التراب وخف الحجر . قال له الخضر : هذه عينك لا يملؤها الا التراب وهو الغالب عليها . » (١٢)

هذه هى رواية وهب بن منبه لقصة ذى القرنين . وهي تشبه الى حد كبير رواية عبيد بن شريّه ، عن ذى القرنين فى كتابه « أخبار اليمن وأشعارها وانسابها » . ويختتم وهب‌بن منبه روايته بقوله : « ومات ذو القرنين بعد ذلك بفترة ، ثم غاب الخضر فلم يظهر الى أحد بعده الا لموسى بن عمران صلى الله عليه وسلم، وعلى جميع النبيين . (١٣)

نستخلص من هذه الرواية مايلى :

١ ــ ان اسم الخضر فى هذه الرواية اصبح موسى الخضر . وهذا اعتراف ضمنى بانه هو العبد الصالح الذى لقيه موسى عند مجمع البحرين ، وفقا لما اصطلح عليه المفسرون .

٢ ــ حدث خلط تاريخى فى الروايات الشعبية عندما تصور الرواة أن ذا القرنين‌الذى عرف بانه الاسكندر الاكبر (انظر الطبرى‌ج١٦ فى تفسير آية « ويسئلونك عن ذى القرنين » من سورة الكهف ، قد عاش قبل زمن موسى، وبهذا يكون الخضر قد ظهر له قبل أن يظهر لموسى . بل ان أول ظهوره كان لذى القرنين ، ثم ظهر من بعده لموسى ولجميع النبيين كما تقول الرواية .

٣ ــ ان المضمون الاساسى الذى شاء الراوى الشعبى أن يبرزه فى قصة الاسكندر هو خلود الخضر فى مقابل فناء الانسان العادى مهما بلغت سطوته وبعد صيته . والسبب فى خلود الخضر شربه من عين الحياة أو ماء الحياة ، فى حين حرّم هذا على ذى القرنين . ولكن على الرغم من خلود الخضر ، فان خلوده ليس نهائيا ، فهو سوف يذوق الموت قبل البعث مباشرة كما وضح له الصوت الذى سمعه‌عندما رقى الصخرة فى قوله : « امض أمامك واشرب فانها عين الحياة ، وتطهر ، فانك تعيش الى يوم النفخ فى الصور ويموت أهل السماوات والارض فتذوق الموت حتما مقضيا . »

وقد نتساءل بعد ذلك : لماذا لم يمتد القصاص الشعبى بقصة الخضر مع سيدنا موسى بدلا من ربطه بين الخضر وذى القرنين مرة اخرى ؟ ونحن نرد على ذلك بانه من السمات الاساسية فى القصص الشعبى استغلال الحادثة الجزئية (الموتيف) فى اكثر من قصة ، بل ونقلها كلية فى بعض الاحيان من القصة التى ارتبطت بها أصلا الى غيرها من القصص المؤلف . وربما كانت اهم حادثة جزئية استرعت نظر القصاص الشعبى فى‌قصة الخضر وموسى ، هى خلود الخضر . فلما شاء أن يقابل بين الخلود الذى يحن اليه ،بل‌ويشعر

---

(١٢) المرجع السابق ص ١٠٢ .

(١٣) نفسه ص ١٠٩ .

انه جزء من تكوين هذا الكون ، وبين الفناء الذى قدر للانسان مهما بعد صيته ، ربط بين الخضر والاسكندر الذى لم يضارعه انسان فان فى فتوحاته .

هذا شيء ، والشيء الآخر هو أن شخصية الاسكندر الاكبر ، فى الحقيقة، لم تستهو خيال القصاصين العرب وحدهم ، بل استهوت خيال جميع القصاصين فى بلاد العالم على وجه التقريب . وتكاد تتفق الروايات العربية والاجنبية جميعا حول رغبة الاسكندر الملحة فى الحصول على الخلود ، كما انها تتفق جميعا فى انه حرم هذا الخلود، فى حين قدر لشخصية اخرى هي الخضر فى الروايات العربية وطاهى الاسكندر فى الروايات الغربية . فتحكى هذه الروايات الاخيرة ان الاسكندر قام بمغامرة الى بلاد الظلمات بهدف الوصول الى منبع الفرات حيث يوجد نبع الخلود . وطال تجوال الاسكندر فى بلاد الظلمات دون أن يهتدى الى مطلبه . فلما تعب استقر مع طاهيه عند نبع تخيله نبعا عاديا كسائر الانبع التى مر بها . ثم طلب من طاهيه ان يعد له طعاما . فأخذ الطاهى سمكة مملحة ونزل فى النبع لكى يغسلها، ولكنه فوجيء بأن السمكة تحيا وتتسرب فى البحر . وادرك الطاهى توا أنه بازاء نبع الخلود . فأسرع وتجرع جرعات من مياهه ، واخفى خبر هذا الحادث عن الاسكندر . ثم أعد له طعاما آخر ، فأكلا معا ثم استأنفا سيرهما ، حتى بعدا كلية عن هذا النبع ، ولم يكن هناك سبيل للرجوع اليه . وشاء الاسكندر أن يستريح مرة اخرى ، ثم طلب من طاهيه أن يقص عليه حكاية لتسليته . فحكى الطاهى ، مدفوعا بغرابة ما حدث ، حكاية السمكة التى تسربت الى الماء وحييت . فتميز الاسكندر غيظا لخيانة الطاهى من ناحية ، ولاستحالة الوصول الى هذا النبع مرة اخرى » بل التعرف عليه فى تلك الظلمات الحالكة . فقام بدافع الغضب واليأس ، ورمى طاهيه بحجر كبير ليقتله . ولكن الطاهى كان قد اكتسب الخلود ، فلم يمت ، فأخذه ورماه فى الماء كي يغرقه ، ولكن الطاهي لم يغرق . عندئذ أمسك به الاسكندر وربطه فى حجر ثقيل ورماه فى قاع الماء لكى يعيش حياته الخالدة مع الاحياء المائية . وهكذا فشل الاسكندر فى الوصول الى الخلود ، وهو الذى شقى فى سبيل ذلك ، فى حين حصل عليه شخص آخر لم يكن يسعى اليه .

وكما استغل القاص الشعبى شخصية الخضر فى حكاياته عن الاسكندر الاكبر ذى القرنين ، استغلها كذلك فى انماط أخرى من قصصه ونخص بالذكر هنا **سيرة الظاهر بيبرس** . واذا كان الخضر لا يظهر الا لأولياء الله الصالحين ، فقد ظهر دوما للظاهر بيبرس لانه كما تصوره السيرة ، كان على درجة كبيرة من الولاية . وتحكى السيرة على سبيل المثال، ان **الملك الصالح نجم الدين ايوب** ، بعث الظاهر بيبرس وبرفقته الوزير **ايبك** والقاضى **جوان** ، على راس جيش الى انطاكية ، لا لحصارها بل لاحضار ملك أنطاكية اليه حيا . فلما حاول الجيش أن يعبر البحر ، فوجيء بأن ملك انطاكية قد أغلق البحر بالسلاسل الضخمة ، فوقف حيثما كان . ووجد ايبك وجوان ، اللذان كانا يكنان الحقد والغدر للظاهر بيبرس، وجدا ذلك فرصة لتحريض الجيش على التذمر ، فيضطر الظاهر بيبرس الى العودة دون أن يحقق رغبة الملك ، فيأمر الملك عندئذ بقتله . وتذمر الجيش وازداد تمرده عندما اشتد البرد وتفشى المرض بين الجنود ، ومع ذلك لم يفكر الظاهر بيبرس فى العودة ، بل كان يخرج فى ظلام الليل وحده يبتهل الى الله. وذات مرة ابصر مركبا يتجه نحوه ويرسو ، ثم تقدم اليه المركبى وحياه ، فلما نظر اليه الظاهر بيبرس عرف انه الخضر ، وطلب منه الخضر فى الحال ان يركب معه . فلما استقرا فى المركب هتف الخضر قائلا : باسم الله مجريها ومرساها . وفى لحظة كان المركب قد وصل الى شاطيء أنطاكية . عند ذلك قال الخضر للظاهر بيبرس: اذهب الى باب المدينة وستجد هناك رجلا فى انتظارك وسيقدم اليك صندوقا،

فخذه منه ، ولا تسأله بعد ذلك عن شيء .. ومشى الظاهر بيبرس حتى وصل الى باب المدينة وهناك قابلة رجل وسلم اليه صندوقا. وساله بيبرس عن اسمه فرد قائلا : تابعى الذى وراءك سيخبرك بذلك ، ثم اختفى الرجل فى طرفة عين . ولما عاد بيبرس الى المركب وجد الخضر فى انتظاره . فقال له معاتبا : الم انهك عن ان تسأل ذلك الرجل عن شيء ؟ ثم ركبا المركب وهتف الخضر قائلا مرة أخرى : باسم الله مجريها ومرساها . فوصل المركب فى لحظة الى الشاطيء الذى كان جيش المسلمين يقف عنده فى اشد حالات التململ . فلما استدار الظاهر بيبرس ليصافح الخضر ، كان الخضر قد اختفى . وعندما فتح الصندوق بعد ذلك ، وجد فيه ملك انطاكية مغشيا عليه. فاغلق الصندوق وعاد بالجيش قافلا يحمل الغنيمة الى الملك الصالح نجم الدين أيوب .

وما تزال شخصية الخضر ماثلة فى نفوس الشعب العربى بصفة عامة والشعب المصرى بصفة خاصة (١٤) تجسيدا للزمن الأبدى الذى تتجدد دوراته ولا ينتهى . فالخضر لم يمت وهو موجود فى مكان ما . فاذا ذكره انسان تقى طيب للاستعانة به فى موقف متأزم ، حضر الخضر ، وان لم يظهر فى صورة مجسدة لكى يسهم مع الناس فى حل ازماتهم . وقد يشارك الخضر فى ذلك اولياء الله الصالحين الذين يعتقد الشعب فى مشاركتهم بأرواحهم الخالدة فى شئون حياته . ولكن الخضر يختلف عن هؤلاء فى أن وجوده لا يرتبط بضريح بعينه لأنه لم يمت ، ومن ثم فهو باق بوصفه فكرة مجردة للبقاء الأبدى .

وهكذا نرى الى أى حد يحن الانسان الشعبى الى الزمن الاسطورى حيث يولد كل شيء وحيث لا يفنى شيء ، والى أى حد يدفعه هذا الحنين الى تجسيد فكرة الزمن الابدى ، فى صورة أو بأخرى . حقا أن شخصية الخضر لا تطابق شخصية الملك الصياد تماما ، بمعنى أن قصته لم تذكر صراحة أن خصب الحياة مرتبط بشبابه وحيويته ، ولكن الخضر على نحو ما صور بوصفه عقلا وروحا ابديين يشارك كان الحياة تجددها المستمر ، ربما كان أبعد رمزا وأكثر اتساقا مع فكرة الزمن الأبدى الذى لا ينتهى .

●●●

وعلى الرغم من أن الانسان الشعبى يقاوم الزمن الحسى عن طريق ممارسته للاحتفالات والطقوس التى يشعر من خلالها بأن حياته تسير فى نغمة متناسقة مع لحن الطبيعة المتجدد على الدوام ، وعن طريق تجسيد فكرة الزمن اللانهائى ، على الرغم من ذلك ، فقد حركت حقيقة المصير المقدر له مشاعره بحيث لم يستطع اخفاءها فى تعبيره الادبى . ولقد رأينا كيف استغلت شخصية الخضر فى رواية قصة الاسكندر ذى القرنين ، لا بهدف تأكيد هذا الرمز الأبدى لنضرة الحياة الدائمة فحسب بل اكثر من ذلك لتأكيد هذا التعارض بين حياة نضرة خالدة وحياة مؤقتة فانية من ناحية ، ورغبة الانسان الملحة وسعيه فى الحصول على الخلود من ناحية اخرى . وحول هذا المعنى يدور كثير من أروع نماذج القصص الشعبى ، ونسوق هنا بعضا منها .

قصة لقمان بن عاد صاحب النسور السبعة مشهورة فى التراث العربى . فقد روى (١٥) أن لقمان تمنى على الله أن يعيش أطول عمر ممكن فدعاه قائلا :

اللهم يارب البحار الخضر

والارض ذات النبت بعد القطر

اسألك عمرا فوق كل عمر

---

(١٤) ومن لم تكثر التسمية باسمى « خضر » و« خضرة » (فى الريف المصرى) .

(١٥) اخبار عبيد بن شرية الجرهمى (ط حيدر اباد) من ص ٣٥٦ – ٣٦٧ .

« فنودى ان قداعطيت ماسألت ولا سبيل الى الخلود . فاختر ان شئت بقاء سبع بعرات من ظبيات عفر ، فى جبل وعر ، لا يمسهاقطر، وان شئت بقاء سبعة أنسر سحم ، كلما هلك نسر أعقب نسر . فكان اختياره بقاء النسور. فبينا لقمان يدور ذات يوم فى جبل أبى قبيس بمكة ، سمع مناديا لا يرى شخصه وهو يقول : يالقمان بن عاد المغرور ، اطلع رأس ثبير ، ليس يعدو قدرك المقدور . فطلع رأس ثبير ، فاذا بوكر نسر فيه بيضتان قد تفلقتا عن فرخيهما ، فاختار لقمان أحد الفرخين(١٦) ثم عقد فى رجله سيرا ليعرفه وسماه المصون. ثم قال : المصون الخالص المكنون ، ومحذور السنون ، والباقى بعد الحصون الى آخر الدهن الخؤون » . ولكن الزمن ولى على هذا النسر ، وكبر وضعف ثم خر ميتا . فجزع (لقمان) لذلك جزعا شديداً ، وقال : هـذا بلاء ، وأنشأ يبكى نفسه ويقول :

موت المصون دل على أنا

نذوق الحمام حقا يقينا

ثم منح بعد ذلك النسر الثانى الذى سماه « عوضا » ، ولكنه لقى مصيره كذلك بعد وقت. وظلت نسوره تتساقط موتى واحداً تلو الآخر حتى لم يبق الا النسر السابع . فقال ابن اخ له : « ياعم ما بقى من عمرك الا عمر هـذا . فقال لقمان : هذا لُبَدُ ولبَد بلسانهم (أى بلسان العرب) الدهر ، وهو اسم نسر من نسور لقمان . فلما انقضى لبد ، رآه لقمان واقفا . فناداه : انهض لبد ! فذهب لينهض فلم يستطع فسقط ومات ، ومات لقمان معه»

وقد اغرم القصاصون العرب بتصوير الانبياء وهم يستقبلون الموت . وربما لم يقاوم نبى الموت ، وفقا لرواية هذا القصصى ، كما قاومه موسى عليه السلام . فقد روى أن الله كلمه قائلا : « ياموسى : انى حكمت على جميع خلقى بالموت . فقال موسى : الهى وسيدى ، انى أخاف من الموت ومرارته . فنزل ملك الموت على موسى وهو جالس يتلو التوراة . فقال : السلام عليكم ياموسى . قال : وعليكم السلام ، من انت ؟ فقال : انى ملك الموت جئت لاقبض روحك . قال موسى : من أين تقبضها ؟ قال : من فمك . قال : كلمت به ربى . قال : فمن يديك . قال : قد اخذت بهما الالواح . قال: فمن اذينك . قال : سمعت بهما الخطب من ربى . فقال له : فمن رجليك. قال : قد وقفت بهما على جبل طور سيناء لمناجاة ربى . فقال له ملك الموت : انى أراك تكلمنى كلام من طلب المسكر . فعند ذلك اختلط عقله وقال : ما شربت خمرا قط . فدنا منه ملك الموت ليقبض روحه ، فلطمه موسى على عينه ففقأها . فرجع ملك الموت الى الله عز وجل فقال : يارب ، انك أرسلتنى الى عبد لايريد الموت ففقأ عينى . فرد الله عليه عينه وقال له : ارجع الى عبدى وقل له ، ضع يدك على متن ثور ، فلك بكل شعرة تحصل تحت يدك عمر سنة . فقال موسى : وما بعد ذلك ؟ قال : الموت . فقال : يارب الموت أحب الى الآن . فقبض ملك الموت روحه » . (١٧) وقد قيل : « ان ملك الموت كان يجىء عيانا ، حتى جاء الى موسى فلطمه ففقأ عينه ، فأصبح يجىء مستترا » . (١٨)

وتعد ملحمة جلجامش البابلية أروع عمل أدبى قديم عالج موضوع صراع الانسان الفانى مع الموت .

---

(١٦) قال عبيد بن شرية : « انه كان ينظر الى اعظمهارأسا واجلها عظما » (نفسه ٣٥٧) .

(١٧) الكسائى : قصص الانبياء ــ ص ٢٣٩ .

(١٨) الثعلبى : قصص الانبياء المسمى بالعرائس :ص ١٩٣ .

لقد كان جلجامش ملك « ورقا » . وكان ثلثه انسانا وثلثاه الآخران الها . وكانت صورته الجسدية تثير الرهبة والخوف معا . كان جميع أهل ورقا فى خدمته ، الاقوياء والاسياد والحكماء والصغار والكبار ، بل والنساء كذلك فلم يترك فتاة لحبيبها ، ولم يترك زوجة لزوجها البطل ، حتى ارتفعت أصواتهن بالشكوى الى الاله الكبير ، رب السماء ورب « ورقا » : لقد خلقت الوحوش المفترسة والآساد الضارية ، ولكن جلجامش يفوقها قوة ، فمثله لم نر أحدا ، لم يترك الحبيبة لحبيبها ، ولا البطلة لزوجها البطل . واستمع الاله « أنو » لشكواهن ، ودعا الالهة «اورورو» خالقة البشر وقال لها : لقد خلقت الوحوش يوم ان خلقت مردوك ، اله مدينة بابل ، فاصنعي الآن مخلوقا يشبه جلجامش ويكون منافسا له ، حينئذ يعم « ورقا » الهدوء . وخلقت الالهة « انجيدو » انسانا قويا يملأ جسده الشعر ، ولا يعيش الا مع الحيوان البرى . وكان يقف متصدرا الغابة مثيرا الرعب فى قلب كل من يقترب من الغابة . وسمع جلجامش بهذا الانسان الغريب ينافسه فى قوته ، فعزم على أن يحتال عليه لاخراجه من الغابة . وكان قد رأى رؤيا فسرتها له أمه على أن مناوئا سيظهر له فى الميدان ، وسيصبح فيما بعد رفيقا له فى الكفاح . ونجح جلجامش فى اخراج « انجيدو » من مملكة الحيوان الى مملكة الانسان ، بل الى مملكة البطولة التى لا يقف فى سبيلها اى عائق .

وضجت الآلهة بمغامرات جلجامش التى كثيرا ما كانت تتجاوز عالم البشر الى عالم الآلهة ، ولهذا فقد عزمت على أن توجه اليه ضربة قاصمة تصرفه كلية عن تلك المغامرات الجريئة التي يتحدى بها الآلهة .

قال له **انجيدو** ذات يوم : « اننى رأيت حلما اقض مضجعى ، رأيت ان السماء تبرق وان الارض تهتز ، ورأيتنى اقف وحيدا امام مخلوق وجهه مكتئب أسود كالظلام . لقد كان يبدو امامى شرسا ككلب المفاوز . وفى لحظة قذف بي بعيدا فى حفرة ، ثم حولنى الى شكل آخر ، واستبدل بذراعيّ جناحين وقال : الآن طر بجناحيك بعيدا حتى تصل الى طريق لامخرج للانسان منه ، فسر فيه ، حتى تقابل بيتا لا مخرج له ، فادخل فيه . هناك يعيش الناس فى حلكة دامسة ، فهم عن الضوء فى غنى » .

ولم يفهم جلجامش ان هذه الرؤيا كانت نذيرا بموت صديقه ورفيقه فى الكفاح ، اذ لم يكن قد فكر قط فى الموت من قبل . وفى يوم آخر استيقظ انجيدو من نومه مذعورا ودخل على جلجمامش وقال له : « لقد تدبرت الآلهة امرها ياجلجمامش وأحسبها انها تدبر هلاكى . ان حلمى الليلة كان مزعجا ، لقد أنبأتني بخطر عاجل . فقد ابصرت نسرا عظيما هوى من السماء ثم حملنى فى الفضاء عليا وظل يصعد بى الى السماء ، ثم قال لى : الق ببصرك الآن الى أسفل ، كيف ترى الارض وكيف ترى البحر ؟ فلما نظرت وجدت البحر كالقصعة والارض كقطعة العجين ، عندئذ تركنى اهوى من بين مخالبه ، فهويت من اعلى محطما . »

ولاول مرة يفكر جلجمامش فى سلطان الآلهة ، اذ قال لصديقه : الويل لنا ان كانت الآلهة قد أرادت بنا سوءا . »

ثم تملكت انجيدو الحمى ورقد طريح الفراش ، ولكنه كان مازال يتحدث الى جلجامش ، وكان قلبه مازال يخفق . وفجأة كف انجيدو عن النظر الى صديقه ، وكف قلبه عن الخفقان . وفزع جلجامش وهزه فى عنف وهو يصرخ به : « صديقى انجيدو ، ألم تعد تسمعنى ، ألم تعد ترانى ؟ بل ألم تعد ترى الضوء ؟ » .

وظل جلجامش راقدا بجانب صديقه يبكيه بعويل مزعج طيلة ستة ايام وست ليال ، ثم حفر

له في اليوم السابع ودفنه . وخرج هائما على وجهه في البرارى . فقابله رجل أزعجه منظر الملك فاستوقفه وسأله : « ما الذى جعل وجهك هكذا شاحبا ؟ وما الذى أظلم روحك واحنى جسدك ؟ ولماذا يمتلىء قلبك بشكوى مريرة تودان تفرغها فى أسى ؟ » وفتح جلجامش فمه فى مشقة وقال : « صديقى انجيدو الذى ارتبط بى كعضو من جسدى . . صديقى الذى تجولت معه ، وصارعت الآلهة معه قد وصل الى المصير الانسانى . . كيف يمكننى ان استقر وبمن يمكننى ان استغيث بعد أن أصبح صديقى ترابا ؟ وهل سالقى يوما مثل هذا المصير ثم أظل راقدا الى الابد ؟ » .

وكان جلجامش يعلم أن « أوتنا بشتيم » الانسان قد حصل على الخلود ، وانه يستقر هناك عند نهاية بحار الظلمات . فقرر أن يرحل اليه لعله يكشف له عن سر خلوده . ان الرحلة محفوفة بالمخاطر ، والاشكال المهولة تسد طرقاتها . ومع ذلك فقد اصر جلجامش العنيد على الرحيل ، اذ كان الامل عنده أقوى من الخوف .

واستطاع جلجامش أن يذلل كل صعوبة فى رحلته ، وكان كلما استوقفه حارس مفزع من حراس العالم الآخر ويتأهب لطرده والحيلولة بينه وبين السير فى الطريق الذى يحرسه ، يعود فيسمح له بالدخول عندما يقرأ في عينيه الاصرار والألم معا .

واخيرا وصل جلجامش الى **أوتنا بشتيم** فى سفينة يقودها نوتى أوتنابشتيم نفسه، على الرغم من أن هذا النوتى قد حذر من أن يأتى بانسان فان الى هذا المكان. **فلما لمح أوتنابشتيم جلجامش برفقة النوتى ، صرخ بنوتيه لانه يجيئه لاول مرة مصطحبا انسانا فانيا . ورد جلجامش على أوتنا بشتيم قائلا : « اننى جلجامش الملك ، وقد أتيتك من مكان بعيد للتحدث معك فيما يزعج خاطرى . لقد عذبنى موت صديقى انجيدو ، ولذلك فقد جئت اليك** لعلك تشفى غلالة صدرى ، فترشدنى الى الوسيلة التى حصلت بها على الخلود ، لعلى استطيع أن أرد الحياة لصديقى وأن احتفظ بها لنفسى . « عند ذاك رد عليه أوتنا بشتيم قائلا : « اترك شكواك وغضبك جانبا يا جلجامش ان الفرق كبير بين الآلهة والانسان . الموت للانسان والدوام للآلهة . واذا كان ثلثاك الها ، فان ثلثك الانسانى يدخلك في زمام البشر . ما ان يستقبل المولود ضوء الحياة ، حتى يجتمع « أنونانكى » الروح الاكبر مع **ماميثوم** الاله الخالق للمصاير ، ثم يديرا معا أمر هذا المولود ، فيقررا معا ولادته ووفاته . أما يوم ولادته فيعلنان عنه ، وأما يوم وفاته فيحتفظان به » .

والح جلجامش على أوتنابشتيم أن يكشف له سر خلوده . وكشف له **أوتنابشتيم** السر . لقد كان صراعا بين الآلهة أدى الى أن يأمر **بعضها باغراق الارض ومن عليها . واختلفت الآلهة اثر ذلك ، وعقدت مجمعها وقررت فيه ان تنقذ** انسانا واحدا من البشر حتى لاتفنى **البشرية عن آخرها ، وكان هذا الانسان هو** أوتنا بشتيم . انها حادثة حدثت مرة ، ولكنها لن تحدث مرة أخرى ، كما قال له أوتنابشتيم . وبعد ذلك أمره أوتنا بشتيم أن يصعد المركب **ويعود الى « ورقا » . ولكن زوجة اوتنابشتيم التى كانت تستمع الى جلجامش فى ألم ، توسلت الى زوجها أن يكشف له عن سر آخر للخلود . فاشفق أوتنا بشتيم عليها وأفشى لجلجامش عن مكان عشب الخلود فى البحر الذى سوف يبحر فيه . فاذا عثر عليه واكل منه اصبح خالدا . ودب الامل فى نفس** جلجامش مرة أخرى ، **وانتعشت روحه . وفى** الحال استقل المركب **مع النوتى الى المكان الذى حدده جلجامش . وهناك عثر على عشب الخلود ، فامسكه بين يديه والامل يحلق به ، ولكنه لم يشأ أن يأكل منه الا بعد ان يغتسل** فى مياه البحر ، وينفض **عنه غبار الرحلة** ومتاعبها . **ولهذا فقد القى العشب على** الشاطىء ريثما يستحم ، **وما كاد يخرج من**

الماء فى اتجاه الشاطىء ، حتى ابصر حيةتقضم آخر قضمة فى العشب . فنظر اليها جلجامش فى ذهول ، وهي تخلع عنها جلدها القديم وتكتسى جلدا جديدا . لقد عثر على عشب الخلود ، ولكنه حرم منه واستفاد به حيوان دنىء لم يسع اليه ، ولن يستمتع بمفعوله .

وهكذا باءت رحلة جلجامش بالفشل ، ولم يكن لديه من سبيل سوى أن يرحل الى«ورقا» وينتظر موته . (١٩)

والعلاقة واضحة بين الحكايات الثلاث التى سقناها ،وهي تعد جميعا من تراث الشعوب . فالبطل فيها يتمنى الخلود ويسعى اليه ،ويظل الامر يساوره زمنا فى الحصول على الخلود . ولكنه يقر فى النهاية بانه لن يحصل عليه لانه ينتمى الى الجنس البشرى . وعلى الرغم من أن هناك ما يسمى فى القصص الشعبى بعشب الخلود أو ماء الحياة الذى قد ينجح الانسان فى الوصول اليه على نحو ما فعل الاسكندر وجلجامش ، ولكن الوصول لا يعنى الحصول على الشىء . وكأن الفنان الشعبى شاء ان يؤكد ان الخلود موجود ، وهو قريب من الانسان ، لانه يمثل جوهر الكون الذىيعيش فيه ، وان فنى هو جيلا بعد جيل .

وطبيعى أن يكون الانسان الشعبى العصرى أكثر واقعية ممن سبقه ، ومن ثم فان تعبيره يكون أكثر تشاؤما اذا ما تناول هذه الظاهرة فى قصصه . وتحكى حكاية مصرية معاصرة ، وقد وردت فى أكثر من رواية عربية اخرى ، ان رجلا كان يعيش فى رغد من العيش ،ولكن الاحداث أطاحت بثروته . فخرج من بيته ذات يوم حزينا وجلس عند ضريح السيدة زينب . فمر امامه رجل شيخ اخذ يتحدث معه وعرف منه قصة ضياع ثروته ، فقدم الشيخ له عباءة وطلب منه أن يدخل فيها . فلما فعل الرجل هذا وجد نفسه فى مكان آخر لم يعرفه من قبل ، كما وجد نفسه يقف امام حانوت . ولما كان جائعا ، فقد طلب من صاحب الحانوت أن يعطيه رغيفا يقتات به . فسأله صاحب الحانوت عما اذا كان غريبا فى هذا البلد ، فأجابه بالايجاب . عند ذلك اخبره بأن الحظ يبدو أنه سيحالفه ، اذ أن الملك قد أعلن انه سيزوج ابنته لاول غريب تطأ قدمه المدينة . ثم اصطحبه الى الملك الذى وافق على زواجه من ابنته بشرط واحد هو الا يتدخل فيما لا يعنيه . ولم يعترض الرجل الغريب على هذا الشرط ، اذ اعتقد أنه من السهل تحقيقه فى يسر . وذات يوم كان يسير فى حديقة القصر ، فأبصر رجلا دائم الصعود والهبوط على شجرة ، وكان يأكل فى أثناء ذلك ثمارها الحلوة والفجة على السواء. فاخذ ينظر اليه فى تعجب ثم سأله : لماذا تصعد الشجرة وتهبط عليها على هذا النحو ؟ ولماذا لا تستقر فى مكان واحد منها وتلتقط ثمارها الحلوة وتأكلها حتى تشبع ؟ عندئذ رد عليه الرجل قائلا : ان هذا أمر لا يعنيك وليس من حقك التدخل فيه . وفى الحال تذكر الرجل الشرط الذى اشترطه عليه الملك ، ولكنه تصور أن أحدا لم يره . وعندما عاد الىزوجته فوجىء بقولها : انك أصبحت محرما عليَّ بعد أن نقضت العهد الذى اخذته على نفسك . انك تصورت اننى لم أرك ، ولكن الحجاب مكشوف عن بصرى ، ولهذا فقد رأيت كل شىء . فخرج الرجل من عندها خائبا وسار فى طريقه الى دكان الخباز . وتوسط لهالخباز عند الملك كي يعفو عنه ويزوجه ابنته الثانية . ووافق الملك على ذلك ولكنه اشترط عليه الشرط نفسه . وأيقن الرجل انه لن يخطىء مرة اخرى . وذات يوم كان يسير على شاطىء نهر فأبصر رجلا يملأ دلوا بالماء حتى يطفقه ثم يسكبه فى أرض عطشى . فوقف متعجبا

---

(١٩) انظر لكاتبة المقال فصل ملحمة جلجامش من كتاب اشكال التعبير فىالأدب الشعبى ــ الطبعة الثانية ــ مكتبة نهضة مصر .

من صنع هذا الرجل وسأله : لماذا لا تهتم بالارض المجدبة فتسكب فيها الماء الكثير على نحو ما تفعل مع الارض المخضرة ، فرد عليه الرجل قائلا : ان هذا أمر لا يعنيك وليس من حقك التدخل فيه . وادرك الرجل انه قد نقض العهد للمرة الثانية ، فلم يعد الى القصر، بل رجع الى صاحب الحانوت ليحكى له فى أسف انه قد نقض العهد للمرة الثانية . فتوسط صاحب الحانوت له عند الملك حتى يزوجه ابنته الثالثة بعد أن وعده أن الرجل سيبقى على وعده ولن يتدخل قط بعد ذلك فيما لا يعنيه . ووافق الملك على زواجه من الابنة الثالثة وفقا لهذا الشرط . وقرر الرجل الا يخرج فى مكان تطأه الاقدام حتى لا يبصر ما يمكن أن يدفعه الى السؤال . فخرج ليسير على جبل بعيد لا تطأه قدم ، وما كاد يسير بضع خطوات حتى ابصر جماعة يشدون طوقا فيما بينهم دون انقطاع أو كلل ، بحيث كان يحاول كل منهم أن يشد الطوق نحوه . فوقف الرجل ينظر اليهم فى دهشة ثم سألهم عما هم فاعلون ، فردوا عليه بأن هذا أمر لا يعنيه ومن ثم لا يجوز له السؤال عنه . وعند ذلك ادرك الرجل انه قد تجاوز المحظور للمرة الثالثة ، وكان هذا كافيا لان يفكر فى الا يعود الى القصر أو الى صاحب الحانوت . ثم ارتدى عباءته فاذا به يجد نفسه مرة أخرى عند ضريح السيدة زينب ، والرجل الشيخ يقف امامه مبتسما . فسأله الرجل الشيخ : هل كنت فى علم أم حلم ؟ فقال له الشيخ : بل كنت فى علم وعليك أن تقص عليّ ما رأيت . فقص عليه الرجل ما حدث له مع الرجال الغرباء الذين كانوا يسلكون على نحو غريب دفعه للتدخل فى امرهم . ثم قال له انه لم يفهم شيئا عن سلوكهم الغريب ، رغم محاولته التدخل فى شئونهم . عند ذلك شرع الشيخ يفسر له ما غمض عليه. فقال : ان الرجل الذى رايته يصعد الشجرة ويهبط عليها دون ملل او كلل ، وكان فى أثناء ذلك يأكل الثمرة الحلوة والفجة معا ، هو عزرائيل قابض الأرواح ، انه دائم التجول بين الناس يخطف أرواح الأخيار والأشرار على السواء . اما الرجل الذى رأيته لا يعدل فى توزيع الماء بين الارض المخضرة والأرض الجدباء ، فهو الملك المكلف بتوزيع الارزاق . انه يوزع الرزق حسبما تراءى له ، فقد يزيد فى رزق الثرى ويقتر فى رزق المعدم . واما الناس الذين يشدون الطوق فيما بينهم ، فهم اناس هذه الحياة . ان كلا منهم يحاول ان يشد الحياة نحوه ويحرم منها غيره ، على الرغم من علمه أن نصيب كل انسان من الرزق مقدر له ، وعلى الرغم من علمه ان الموت هو نهاية سعي الانسان فى الارض .

فهذه الحكاية جمعت بين مشكلتين ، احداهما مشكلة اجتماعية وهي عدم العدالة فى توزيع الارزاق ، والاخرى غيبية وهي مشكلة الموت . وحيث ان المشكلة الاولى لم تحل على مستوى اجتماعى ، وحيث ان الانسان الشعبى عجز عن ان يفسر هذا الظلم الذى يشعر به فى توزيع الارزاق ، فقد ربط بين هذه المشكلة ومشكلة الموت على أساس انهما معا مشكلتان غيبيتان ، ليس من حق الانسان العادى التدخل فيهما والسؤال عنهما . وهذا ما رمت اليه الحكاية بشرط الملك الذى كان على الرجل بمقتضاه الا يتدخل فيما لا يعنيه .

●●●

ـ ٥ ـ

لقد فكر الانسان الشعبى اذن فى الزمن ، رغم سعيه الدائم ، الى تجديد دورة الحياة ، ذلك ان الموت حقيقة واقعة . حقا انه يعتقد فى ان الاموات لا ينفصلون عنه ، بل يشاركونه احداث حياته المعاشة . ولكنه يعلم كذلك انهم يفعلون ذلك بعد ان يصبحوا مجرد ارواح او أشباح ، وبعد أن يغادروا عالمهم الحسي الى عالم آخر غير مرئى ، لايدرى كنهه على وجه التحديد . وكان من الطبيعى بعد ان ادرك الانسان ذلك ، ان يفكر فى سبب ابتلائه

بالموت . فاذا كانت الالهة خالدة ، فلماذا لا تمنح الانسان الخلود على نحو ما تحقق لها ؟ وهل قررت له هذا الحرمان بدافع حقدها عليه ، ام ان غباء الانسان ونوازعه الانسانية كانا السبب فى ابتلاء الانسان بالموت؟

لقد رفض الانسان البدائى الاعتقاد فى ان الموت قدر للجنس البشرى منذ ان وجد على سطح الارض ، ولكنه عندما راى من ناحية اخرى ان الموت حقيقة واقعة ، حاول تفسير حدوثه من خلال تصورات فلسفية انعكست فى حكاياته . وجوهر هذه الحكايات جميعا يتلخص فى ان الانسان كان قد منح الخلود فى بادىء الامر ، ولكنه فقد هذه المنحة اما بسبب غبائه ، او بسبب خداع الحيوانات الدنيا له كما يتضح ذلك من الامثلة الآتية ..

لقد استرعى نظر الانسان البدائى عملية نمو القمر حتى يصبح بدرا ، ثم تضاؤله واختفائه بعد ذلك. ومن ثم فقد تصور ان القمر يخوض كل شهر تجربة الحياة والموت ثم البعث . ومعنى هذا ان القمر عندما يختفى ثلاثة ايام، وهى المدة التى تفصل بين اختفائه وظهوره من جديد ، يموت موتا مؤقتا ثم يعود للحياة مرة اخرى ، فيبدأها من بدايتها ، كمايبدأها الطفل ، صغيرا ثم يكبر . ومن ثم كان القمر، كما سبق ان ذكرنا فى بداية بحثنا ، أوضح نموذج او مثال لتجدد الحياة على الدوام ، ذلك التجدد الذى يحن اليه ، ويمارس طقوسه بشكل او بآخر .

ويعنينا من كل ذلك ان الانسان نظر الى القمر بوصفه الها . واذا كان هذا الاله قد منح منحة الخلود على نحو مايراه حسيا ، فان هذا الاله لم يبخل بهذه النعمة على البشر ولهذا فقد قرر ، بعد تدبر ، ان يرسل رسولا للانسان يخبره بان لا يحزن اذا ما فارقت الروح جسده ، لان هذا الفراق لن يكون ابديا ، بل سوف تعود الروح اليه ويعود للحياة مرة اخرى ، تماما كما يحدث معه .
وكلف القمر الأرنب ان يحمل رسالته الى البشر ويقول لهم : كما انى اموت ثم احيابعد ذلك ، فكذلك انتم سوف تموتون ثم تحيون مرة اخرى . ولكن الأرنب ابلغت الرسالة خاطئه الى الناس اما عمدا او سهوا . فلقد قالت لهم : ان القمر يموت ثم يحيا بعدذلك، اما انتم فقد شاءلكم الاله القمر ان تموتوا الى الابد . وعندما عادت الارنب الى القمر واعادت عليه الرسالة كما ابلغتها، غضب القمر وضربها على وجهها ففلق شفتها العليا . وقد ردت عليه الارنب فلطمته على وجهه فخدشته ، ثم ولت مسرعة ، وما تزال الارنب تعدو حتى اليوم .

ويقال ان رسول القمر ابلغ الرسالة صحيحة الى البشر فقبلوها .. ثم حدث بعد ذلك ان ماتت أم رجل . وظل الابن ينتظر عودة الروح اليها اياما طويلة ، ولكن الأم ظلت راقدة امامه بلا حراك ، فبدأ الرجل يشك فى رسالة القمر، وحاول القمر اقناعه بأن امه لم تمت ، وانما هى نائمة الى حين ، فعارضه الرجل وصرخ فيه قائلا : لا بل انها قد ماتت ولن تعود الى الحياة مرة اخرى . فاغتاظ القمر وصفعه على وجهه ففلق شفته ثم مسخه أرنبا لانه ، كما قال القمر ، قد عارضنى ورفض ان يقتنع برسالتى . ثم قرر القمر بعد ذلك ان يكون مصير الانسان الموت الابدى . ولعل هذا هو السبب فى ان بعض القبائل ترفض اكل لحم الارنب ، لانها وفقا للروايتين ، هى التى تسببت فى محنة البشرية .

وتروى بعض الشعوب البدائية كذلك ان الاله كان فى الزمن القديم يعيش بين الناس ويتحدث معهم وجها لوجه . ولكن تلك الايام السعيدة لم تدم . فذات يوم كانت بعض النسوة يسحقن الشعير ونظرن ، فاذا بالاله يقف بجوارهن يستمع الى حديثهن ويشاهد ما يفعلنه ، فتضايقت النساء وطلبن منه ان يبرح هذا المكان . فلما أصر الاله على الوقوف،

أمسكن بحفنة من الشعير ورمينه بها . فغضب الاله وصعد الى السماء ولم يعد الى الارض مرة اخرى . ومع ذلك فان الاله الرحيم ارسل رسالة الى الناس يقول لهم فيها : ان هناك شيئا يسمى الموت وسوف يصيبكم جميعا . ولكنه لن يقضى عليكم الى الابد ، اذ سوف تصعدون اليّ بعد ذلك وتعيشون معى فى السماء . واختار الاله الجدي رسولا ليبلغ الناس الرسالة . ولكن الجدي تلكأ فى الطريق ، ورآه الاله وهو رابض مستريح يقضم الاعشاب ، فاسرع الاله وارسل الشاة فى اثره لتبلغ الرسالة ولكن الشاة ابلغت الرسالة خاطئة ، اذ قالت للناس : ان هناك شيئا اسمه الموت ، وسوف يقضى عليكم لا محالة ، فلما وصل الجدي بعد ذلك وابلغهم الرسالة الصحيحة، لم يصدقها الناس وقالوا له : ان ما ذكرته الشاة هو الرسالة الصحيحة لانها وصلت قبلك . وأما ما قلته انت فهو كذب ملفق (٢٠) ومعنى هذا ان الناس قد قبلوا الموت بسبب غبائهم ، اذ انهم لم يستطيعوا آنذاك أن يتصوروا ماهية الموت .

وهكذا نرى ان السبب فى ابتلاء الانسان بالموت يرجع فى بعض الحكايات الى خديعة الحيوان ، وفى بعضها الآخر الى غباء الانسان وسذاجته . اذ لماذا لم يصدق الرجل الذى ماتت امه ، وظل يصرخ فى وجه القمر بانه غير صادق وان امه ماتت الى الابد ، حتى أغضب القمر فحكم على الجنس البشرى كله بالفناء؟ ولماذا رفض الناس رسالة الجدي الصحيحة واصروا على ان الرسالة التى ابلغتها الشاة والتى بمقتضاها يفنى الانسان الى الابد ،هى الرسالة الاصلية ؟

ويتمثل غباء الانسان فى رفضه العودة الى الحياة فى حكاية طريفة اخرى تروى على النحو التالى : اجتمعت الالهة ذات يوم لتقرر مصير الانسان ، فاقترح احد الالهة ان يغير الانسان جلده كلما بلى ، وبذلك يتجدد شبابه . وعلى الانسان الهرم فى هذه الحالة ان يذهب الى شاطىء البحر وينزع جلده القديم ،ويصطاد جلدا جديدا من البحر ويرتديه .

وذات يوم شعرت امراة بانها قد هرمت ، فذهبت الى شاطىءالنهر لتخلع جلدها القديم وترتدى جلدا جديدا ، ثم عادت الى بيتها بعد ان ارتد اليها شبابها . فلما ابصرها حفيدها الذى كان يعيش معها أنكرها ، وعبثا حاولت ان تقنعه بانها جدته التى يحبها ، فقد استمر حفيدها فى عزوفه عنها ، لانه لا يود ان تكون جدته على هذا النحو من الشباب . وعندذاك عادت الجدة آسفة الى شاطىء البحر مرة اخرى حيث اصطادت جلدها القديم وارتدته . وفرح حفيدها بلقائها عند ماعادت اليه مرة اخرى فى صورتها القديمة المألوفة لديه . أما الجدة فقد امتلأت حزنا على فقدانها نعمة تجدد شبابها ، بل تجدد شباب الجنس البشرى بأكمله ، ذلك أن الجنس البشرى قد حرم نعمة تغيير جلده اثر هذا الحادث . وقد كان فى وسع الجده ان تصر على ارتداء جلدها الجديد حتى يتعود حفيدها منظرها على هذا النحو . ولكن الانسان البدائى شاء أن يعبر عن فلسفة أخرى تبعث من احساسه بسيطرة الزمن على الانسان ، وهي أن لكل عمر سحره، وأن شخصية الانسان وسلوكه يتحددان بعمره . والطفل فى هذه الحكاية لم يكن يهمه أن تعود الجدة الى شبابها بقدر ماكان يهمه ان يحتفظ بحبه لشخصها ، الذى تكيف على هذا النحو بتقادم السنين عليه . أما اذا ارتدت الجدة الى شبابها ، فلابد ان يتغير سلوكها وفقا لذلك وهذا ما يرفضه الحفيد . ولهذا فقد صرخ الطفل عند رؤية الجدة الشابة ، وهدأ روعه عند رؤية الجدة الهرمة ، وهي مفارقة قد تبدو غريبة ، ولكنها تحمل جانبا من جوانب فلسفة الزمن .

---

(٢٠) انظر فريزر : الفولكلور فى العهد القديم ــ الترجمة ــ الجزء الاول باب سقوط آدم .

واخيرا هناك حكاية اخرى تحكى أن الالهة فزعت لتكاثر الناس فى الارض ، وخشيت أن تضيق بهم الارض فى يوم ما ، ولهذا فقد عقدت مجلسها وقررت أن يكون مصير الانسان كمصير شجرة الموز ، فشجرة الموز تكبر ثم تموت تاركة وراءها ذريتها ، وهكذا ينبغى أن يفعل الانسان حتى تجد الاجيال الجديدة مكانا لها على وجه الارض ، وقد ارتضى الناس هـذا الحكم ونفذوه ، ومازالوا ينفذونه حتى اليوم.

ومع أن الناس ابتلوا اثر هذه الاحـداث بالموت ، فان هذا لم يحز فى نفوسهم كثيرا ، ذلك أن الموتى كانوا يختلطون بهم يوما فى كل عام ، وكانوا يحتفلون بهذا العيد الموسمى لهذا الفرض . ثم حدث أن توفيت امراة تاركة وراءها ابنة حبلى ، ولما ولدت الام الطفل ، لم يكن لديها الغذاء الكافى لاطعامـه ، فانتهزت فرصة وفاة رجل وارسلت معه رسالة لامها ترجوها فيها أن تحضر لابنها غذاء من عـالم الموتى ، فحملت الجدة سلة مملوءة بالنبات ، ورحلت الى أرض الاحياء . وعندما وصـلت الى بيت ابنتها ، اخذت تفلح الحديقة لتزرع النبات الذى احضرته . وبينما كانت ابنتهـا تطل من النافذة ، أبصرتها وأنكرتها ، اذ كانت تبدو غريبة تماما عن الأحياء . ولم تستطع الابنة مقابلتها وهيءلى هذا النحو، بل صرخت فى وجهها من بعد وطلبت منها أن تعود عـلى الفور الى ارض الأموات ، فغضبت الأم وقالت لابنتها : « لماذا تطردينني على هذا النحـو ؟ الم ازرع النبات لحفيدى ليتغذى من ثمـره ؟ انني ذاهبة » . ثم اخذت ثمرة من ثمار جوز الهند وشقتها الى نصفين ، واعطت لابنتهـا النصف الذى لا يبصر الانسان مـن خـلاله شيئا ، واحتفظت لنفسها بالشق الذى يتمكن الانسان الرؤية من خلاله ، ثم قالت لابنتها ، من الآن فصاعدا لم يعد الأحياء يرون الأمهات رأى العين . اما نحن فسوف نراكم من خلال شق ثمرة جوز الهند الذى احتفظنابه لأنفسنا ، ورحلت . (٢١)

ومعنى هذا ان الانسان قد سلم فى نهـاية الأمر بأن الموت قد قدر له ، وان الأمـوات يعيشون فى عالم منعزل عن عالم الاحياء ،بحيث لايتمكن الأحياء من رؤيتهم ، وأن تمكنوا هم من التحليق فى عالم الاحياء والاطـلاع على ما يجرى بينهم . ومهما تكن الاسباب التى أدت الى ابتلاء الانسان بالموت ، فان السـبب لا يرجع قط الى حقد الآلهة على الانسان ، بحيث شاءت أن تحرمه من نعمة احتفظت بها لانفسها ، والأحرى أن وسيلة الاتصال المباشر بين الناس والآلهة لم تكن ميسرة بحيث حدث تحريف فى تبليغ رسالة الآلهة الى الانسان ، أو رسالة الانسان الى الآلهة .

هذا التفاؤل الذى يعد من أبرز خصـائص الانسان الشعبى منذ القدم ، مازال يتصف به الانسان الشعبى المعاصر . فهو يتفاءل بدعـاء شخص له بطول العمر اذا ما عمل له عملا خيرا . وعلى الرغم من اقتناع الرجل الشعبى بأن الاجل محتوم ، وان موت الانسان مقـدر بزمان ومكان محددين ، الا انه يسعد بهـذا الدعاء لاعتقاده بفاعليته .

تحكي حكاية معاصرة ان فلاحا كان يعمـل فى حقله الذى يقع بالقرب من المقابر ، وذات يوم بينما كان يعمل فى الحقل ، سمع صـوتا يقول له : ان فلانا سوف يحمل الى ذاك المكان وبالمثل فلانة . اما فلان فقد كان جاره ، واما فلانة فكانت زوجته . وعاد الرجل الى بيته حزينا ولكنه لم يخبر زوجته بأى شىء . وفى الصباح سمع صراخا وعويلا مصدره بيت جاره، فايقن ان جاره قد فارق الحياة كما أخبره الصوت . واذن فسوف تموت زوجته حتما . ولكنه نظر الى زوجته فوجدها تمتلىءبالنشاط والحيوية ، ولهذا فقد سلم أمره الى الله

(٢١) Malinowski (B). : Magic, Science and Religion pp. 104-110 (Boston 1948)

ورحل الى حقله . فلما عاد الى بيته فى المساء فوجىء بأن امراته ماتزال فى نشاطها وحيويتها . فسألها عما فعلته طوال النهار ، فحكت له انها فرغت من أعمال المنزل ثم أعدت له الطعام واخذت تنتظره . فلما تأخر عن موعده ، وكانت تشعر بالجوع ، أعدت لنفسها طعاما سريعا . وما كادت تجلس لتأكله حتى طرق بابها طارق جائع وطلب منها أن تمنحه رغيفا من الخبز يسد به رمقه . فرفعت الأكل كله الذى كان امامها وأعطته للشحاذ الذى دعا لها بطول العمر . وسكت الرجل وظل يتوقع فى كل لحظة أن تسقط زوجته ميتة . فلما استيقظ فى الصباح كانت زوجته ما تزال نشطة قوية ، فودعها وانصرف الى حقله . وهناك تحدث الى الصوت الذى سمعه وقال له : « انك قلت أن فلانا سوف يحضر الى هذا المكان فى الغد وكذلك فلانة ، وقد حضر فلان حقا ، ولكن فلانة ماتزال على قيد الحياة قوية ومليئة بالحيوية . فطلب منه الصوت أن يرفع بصره الى السماء . فلما فعل الرجل ، ابصر حجرا كبيرا كاد يهوى على راس زوجته ولكن طبقا به طعام ، ورغيف حال بينه وبين السقوط . عندئذ تذكر الرجل قصة الشحاذ الجائع الذى أطعمته زوجته بطعامها ، فدعا لها الشحاذ بطول العمر .

وعند ذاك قال الفلاح لنفسه : « حقا ، ان اللقم تمنع النقم » .

نستطيع أن نستخلص من كل ما أوردناه ما يلى :

أولا ـ ان ارتباط الانسان الشعبى نفسيا بالزمن الاسطورى حيث يولد كل شىء من جديد ، كان سببا وراء نزوعه الدائم الى تجديد حياته . وهو يفعل هذا من خلال ممارساته واحتفالاته وتصوراته .

ثانيا ـ وهذا لايعنى ان فكرة الموت لم تزعج الانسان الشعبى ، وانه لم يتساءل عن سبب ابتلائه بالموت ، ولكنه عندما فعل ذلك ، كانت اجابته نابعة من طبيعته المتفائلة بصفة عامة ، وهي تلك الطبيعة التى تتجنب التفلسف الذى قد يفقده الاحساس بقيمة الحياة وجوهرها الحقيقى . ومن ثم فقد رأى انه قد ابتلى بالموت بسبب سلوك غبى من الانسان ، أو بسبب خداع الحيوان له . اما الآلهة فهى بريئة من أن تتهم بابتلائها الانسان بالموت .

فاذا كاد تعبير الانسان الشعبى يقترب من الحس المأساوى كما هو الحال فى قصة الاسكندر الاكبر ، غلبته طبيعته المتفائلة وجعلته يذكر شخصية الخضر ويؤكد تجسيدها لفكرة شباب الحياة الدائم .

ثالثا ـ فى ضوء هذه الفلسفة العامة التى نستخلصها من التراث الشعبى ومن سلوك الانسان الشعبى ، نستطيع أن نقرر أن ماورد فى التراث الشعبى ، وهو فى الحقيقة قلة ، معبرا فى حزن عن مأساة الانسان الذى تنتهى حياته بعد كفاح طويل بالفناء ، ليس سوى تعبير عن احساس مؤقت باليأس ، ولكن ما يلبث هذا الاحساس ان يغلبه الشعور العام بتلك القوة الدافعة المتدفقة القادرة على تجديد الحياة وبعثها من جديد .

● ● ●

ـ ٦ ـ

وعلى الرغم من أن الهرم سبيل الى الجدب ، والجدب سبيل الى الفناء ، فان تلك النظرة السلبية الى الشيخوخة يعوضها ما اكتسبه الانسان الهرم من تجارب وخبرة وحكمة . ومعنى هذا أنه اذا كان الانسان الهرم يرمز الى اضمحلال الحياة وتدهورها ، فانه فى الوقت نفسه يمثل قمة الحكمة والتجربة . ومن هنا استغلت شخصية الرجل العجوز استغلالا رائعا فى القصص الشعبى والأمثال الشعبية .

فقد الفنا ظهور شخصية الرجل العجوز فجاة للبطل فى القصص الخرافى ، وذلك عندما يصبح البطل فى حيرة من أمره ، وتعز عليه النصيحة . ويحدث هذا عندما يعتزم البطل القيام بمغامرة من أجل الحصول على شيء محدد من العالم المجهول . عندئذ يخرج من بيته وحيدا ، ويسير فى طريق يبدو له أول الأمر معلوما ، ولكنه ما يلبث ان يصادف مفترقا من الطرق ، فيقف فجاة ولا يدرى اى طريق يسلك . فى تلك اللحظة يظهر له شيخ عجوز يسأله من تلقاء نفسه عن هدفه ، وعندما يجيبه بانه يعتزم الوصول الى الاميرة المسحورة او الليمونات الثلاث ، او الى أى شيء من تلك الاشياء الغريبة التي تعد رموزا فى القصص الشعبي ، اشفق عليه الرجل العجوز من مخاطر الطريق الوعر ، الذي ينبغي عليه ان يسير فيه لكي يصل الى مأربه، ونصه بدافع هذا الاشفاق ،ان يعود مدرجه. ولكنه عندما يرى ان الشاب مصر على الوصول الى هدفه ، وان خاض فى سبيل ذلك الاهوال ، كشف له الرجل العجوز عن الطريق الصحيح الذي يوصله مباشرة الى غرضه ، وحذره من انه سوف يقابل قوى شريرة فى شكل مارد أو وحش مفترس أو تنين يقف متربصا به ويود ان يبتلعه . ثم يقدم له الشيخ فى النهاية ، بدافع الحرص الشديد على نجاح مهمته ، اداة سحرية . كأن تكون حصانا ، او عصا ، او أى شيء آخر . فاذا استخدم البطل هذه الاداة السحرية فى اللحظة المناسبة ، جنب نفسه المخاطر ، ووصل الى مأربه .

وقد أفاض العالم النفسي **يونج** ومن ورائه مدرسته فى تفسير رموز القصص الخرافي ، الذي يتشابه كثيرا فى جميع انحاء العالم ، على أساس ان هذه الرموز تكشف عن تكوين اللاشعور الجمعي الذي اهتمت هذه المدرسة بصفة خاصة بالكشف عنه ، وذلك فى مقابل اهتمام **فرويد** بالتحليل النفسي ، واهتمام **آدلر** بعلم النفس الفردي .

وقد نظر يونج الى النفس الانسانية بوصفها وحدة متكاملة من الشعور واللاشعور. وهذا اللاشعور لا يحتوي على صنوف من الكبت النفسي فحسب ، بل انه يحتوي على ما هو اهم من ذلك بكثير ، وهو القوة الدافعة الى تكييف الانسان لحياته بصفة عامة . وهذه القوة الدافعة هي التي تثير القدرة على التخيل ، وهي التي تنظمها على نحو ما يظهر فى أشكال التعبير الشعبي والادبي بصفة عامة . فاللاشعور عند يونج يتكون من عنصرين : **عنصر فردي وعنصر جمعي** . اما العنصر الفردي فهو ما تحدث عنه فرويد واهتم به ، وهو ملك للانسان الفرد . واما العنصر الجمعي فهو ملك للناس جميعا ، لانه يحتوي على القوى الدافعة التي تعد عنصرا قائما فى تكويننا النفسي ، وجزءا حيا وضروريا فى حصيلتنا النفسية ، وهي ما اصطلح يونج على تسميتها بالانماط الاصلية Archetypes وعندما تتحرك تلك الدوافع أو الانماط الاصلية بداخلنا يكون لتأثيرها سلوك ذو طابع سحري وروحي . فكم منا يشعر بشعور مخيف ازاء القوى المهددة التي ترقد مكبلة بداخلنا ، ولا ينطق فى هذه الحالة سوى بكلمة السحر التي تخلصه منها ؟ أن كلمة السحر فى هذه الحالة ليست سوى تعبير عن الدور الفعال للنمط الاصلي الذي يتحرك بداخلنا . ويعد النمط الاصلي احد أقطاب لا شعورنا ، اما القطب الآخر فهو القطب السلبي ، وهو ما يمكن ان نسميه بالغرائز . وعلى الرغم من أن الانماط الاصلية والغرائز متعارضة للغاية ، الا انها مرتبطة بنظام معين ، ذلك ان القوى الخلاقة فى الانسان انما تنجم عن هذا التعارض البالغ بين القوى الايجابية والقوى السلبية (٢٢)

(٢٢) Hano E. Giehr : Volksmarchen und Tiefen Psychologie München, 1970, S. 19

وعلى ذلك يمكننا ان نلخص فكرة يونج فى الانماط الاصلية فى أنها الطبيعة الصافية غير الفاسدة فى الانسان . ولا يجوز لنا ان نخلط ، كما يقول ، بين الانماط الاصلية والتصورات والخيالات النابعة عنها ، ذلك ان الانماط الاصلية ليست سوى دوافع ، وهذه الدوافع تتحرك فى نشاط داخل الانسان ، وتدفعه الى تحقيق الشيء الكامل والى الشعور بالانسجام التام مع الوجود كله . وينتج عن هذا التحرك انماط من السلوك ، كأن ينطق الانسان بكلمات أو يقوم بافعال لا يدرك مغزاها . وقد يستدعي هذا التحرك اشكالا من الخيالات تظهر فى الاحلام او فى التعبير الادبي أو فى حالة الامراض النفسية .

ولا يهمنا بطبيعة الحال فى هذا المجال ان نفسر كل صور القصص الشعبي بناء على نظرية يونج ، ولكن يهمنا ان نشير الى ما يخص موضوعنا ، وهو ظهور شخصية الرجل العجوز او المرأة العجوز كثيرا فى الادب الشعبي .

وقد سبق ان أشرنا الى ان الرجل العجوز المجهول كثيرا ما يظن فى غير توقع لبطل الحكاية الخرافية ، وذلك عندما يتأزم موقف البطل فى رحلته المجهولة ، فيشفق عليه ويمنحه النصيحة ويقدم له الاداة السحرية . وشبيه بهذا حكاية تحكى ان طفلا عهد اليه ان يرعى بقرة ، ولكن البقرة ولت منه هاربة . وظل الطفل يبحث عنها وهو خائف من العقاب الذي سيوقع عليه ، ولكن دون جدوى . فلما تعب من البحث نام فى ظل شجرة ، واستيقظ فجاة وهو يحس بأن سائلا كطعم اللبن يتسرب الى فمه . فلما فتح عينيه ابصر رجلا عجوزا يصب اللبن فى فمه . فسعد به الطفل وتوسل اليه ان يزيده من جرعات اللبن ، ولكن الرجل العجوز قال له : كفاك اليوم يا بني هذا المقدار ، لقد كنت على وشك الموت حينما قابلتك ، ثم طلب من الصبي أن يحكي له قصته . فحكى له الصبي قصته مع البقرة الضالة ، وكيف انه يخشى العقاب ، عندئذ قال له الرجل العجوز : انك يا بني لن تستطيع ان ترجع الى الوراء بعد اليوم ، ولا مفر لك من التقدم حيث الجبل الشاهق الذي يقع شرقا ، ثم منحه العجوز النصيحة والتميمة لكي يكونا عونا له فى رحلته التي سيخوضها وحيدا .

فالطفل هنا ، وهو خيال نجم عن قوة الانماط الاصلية ، يرمز الى الشيء الذى يولد ثم ينمو ويترعرع . ومن ثم فقد تحتم على الطفل الا يعود الى وراء ، بل يتحرك الى أمام حيث الجبل الشاهق الذى يشبه ما تصبو اليه نفسه رفعة ، وحيث ان الطفل لم يستطع ان يحقق لنفسه ــ لاسباب داخلية وخارجية ــ المعرفة اللازمة التي يحتاج اليها، فان هذا الاحتياج النفسي يتجسد فى شكل رجل عجوز حكيم يقدم له الغذاء الضرورى ، كما يقدم له الوسائل السحرية التي تعينه على تحقيق هدفه .

وهكذا نرى كيف ان شخصية الرجل العجوز التى استقرت فى نفوس الناس بوصفها تجسيدا للخبرة والحكمة والطيبة ، اصبحت فى القصص الشعبي انعكاسا للتأثير الايجابي للقوى الداخلية التي تدفع الانسان الى تحقيق الشيء الكبير . وحيث ان الانسان فى مراحل حياته يجتاز العقبة تلو العقبة . كما لو كان ذلك يتم بطريقة سحرية ، حتى يصل الى الشخصية المتكاملة ، فكذلك يصل البطل فى القصص الخرافي الى ما تصبو اليه نفسه عن طريق الاداة السحرية ، فكأن نوعا من السحر قد أوصله حقا الى مأربه .

وفى مقابل شخصية الرجل العجوز الحكيم الذى كثيرا ما نصادفها فى القصص الشعبي، نجد شخصية المرأة العجوز . ولكن اذا كان الرجل العجوز قد اصبح رمزا للحكمة واتساع الخبرة ، ومن ثم فهو يظهر للبطل عندما يحتاج نفسيا الى قوة البصيرة التي تهديه سواء الطريق ، فان المرأة العجوز ، على

العكس ، هي رمز للخداع والمكر . وقد تصل الى قمة الشر لتصبح أمنا الغولة . وكلنا يذكر ان زوجة الاب او الحماة فى القصص الشعبي، اذا أرادت بابنة زوجها أو زوجة ابنها شرا ، استعانت بعجوز شمطاء لكي تدبر لها مكيدة ضد البنت الطيبة البريئة . وهناك حكاية عربية تحت عنوان « كيد النساء يغلب كيد ابليس » تصور هذه النظرة الشائعة الى المراة العجوز . فقد تراهن ابليس مع امراة عجوز على ان يترك لها البلد ان هي استطاعت ان تقوم بعمل لا يقدر هو على فعله . فذهبت العجوز الى حانوت رجل يبيع القماش واخذت تبكي لصاحبه وتتوسل اليه ان يمنحها قطعة من القماش ، لان ابنها يعشق امراة ، والزمها ان تشتري له قطعة من القماش يهديها لعشيقته ، وهي فقيرة لا تقدر على شرائها . فاشفق عليها صاحب الحانوت وقدم اليها قطعة من القماش . فشكرته المراة ورحلت بقطعة القماش الى بيت صاحب الحانوت ، وعندما اقتربت من البيت ، أبصرت الزوجة تطل من الشباك ، فاصطنعت انها قد تعثرت ووقعت ولم تستطع القيام لعجزها وضعفها. فلما رأتها الزوجة على هذا النحو . خفت اليها واعانتها على القيام وادخلتها بيتها وطلبت منها أن تستريح . ثم تركتها لكي تصنع لها قدحا من الشاي. فى أثناء ذلك اخفت المراة العجوز قطعة القماش تحت وسادة الاريكة التى اعتاد الزوج ان يستريح عليها بعد تناول الغداء . ثم شربت بعد ذلك الشاي وشكرت للزوجة فضلها وعطفها ورحلت . فلما رجع الزوج الى بيته،تناول الغداء وذهب ليستريح كالعادة على الاريكة . وبينما كان يقلب الوسادة ، وقعت عينه على قطعة القماش التي كان قد أهداها للمراة العجوز ليقدمها ابنها الى عشيقته . ولم يساوره شك فى تلك اللحظة فى ان زوجته هي بعينها عشيقة هذا الابن ، ومن ثم فقد اتهمها بالخيانة ، وسرحها الى بيت أبيها . ولما تأكدت العجوز ان خدعتها قد تمت بنجاح ، رحلت الى ابليس لتحكي له فى زهو عن فعلتها التي يعجز هو عن اتمامها ، ولكنه سخر منها وقال لها انه يفعل مثل هذا الفعل مئات المرات كل يوم ، وان عليها ان تفتق ذهنها عن عمل يعجز هو حقا عن فعله . فعادت المراة الى حانوت الرجل واعترفت للزوج بفعلتها القبيحة ، واعلنت له براءة زوجته . فرحل الزوج على الفور الى زوجته واعتذر لها واعادها اليه .

ولما علم ابليس بذلك قال للعجوز : هذا حقا مالا أقدر على فعله ، ثم ترك لها البلد .

فاذا ظهرت فى القصص الشعبي شخصية أمنا الغولة بشعرها المنفوش ، وأسنانها البارزة ، وملامحها الهرمة الكريهة ، فانها تكون مساوية تماما لسائر الشخوص الشريرة التي تظهر لبطل الحكاية الخرافية مثل المارد والتنين ،وتكون مهمتها عندئذ اختطاف البطل والحيلولة بينه وبين العودة الى بيته . فاذا لم يتمكن البطل من ان ينفلت من قبضتها التهمته . وليست هذه الصورة ، وفقا ليونج كذلك ، سوى تجسيد للقوى المعوقة داخل الانسان ،وهي تلك القوى التي تصدر له الامر مفزعا حتى لا يقدم عليه ويحقق تقدما ما فى حياته . فاذا لم يكن الانسان واعيا بتلك المعوقات ، ابتلعه اللاشعور ، تماما كما تبتلع أمنا الغولة البطل .

وقد نتسال بعد ذلك : لماذا خص الادب الشعبي المراة العجوز بتلك الصورة الكريهة ، فى حين جعل الرجل العجوز تجسيداً للحكمة وطيبة القلب . قد يرجع هذا الى ما عرف عن النساء العجائز من ممارستهن السحر ، والسحر الاسود بصفة خاصة . (انظر فصل ساحرة عين دور فى كتاب الفولكلور فى العهد القديم – الجزء الثاني – الترجمة) وربما يرجع هذا الى ما عرف عن النساء من ان لهن باع طويل فى الحيل والمكر ، وربما يرجع كذلك الى ما ترسب فى نفوس البشرية من تأثير الام، وهو ما اصطلح على تسميته بتأثير النمط النموذجي للام . فالام هي مصدر الخصب ،

وهي التي تمد الابناء بالطعام والدفء ، وقد يكون تأثيرها ايجابيا الى أبعد من ذلك عندما تتيح للابناء فرصة الانطلاق مع ارتباطهم بجذورهم ، وهي في هذه الحالة تعينهم على الوصول الى الحكمة والابداع . وقد يكون تأثيرها عكس ذلك تماما عندما تكون عائقا نفسيا عن الانطلاق الروحي ، ونمو الشخصية وتكاملها . وهذا السلوك الاخير للام هو ما جسدته الاساطير في الآلهة حارسة العالم السفلي ، وفي الساحرة اليونانية كيرك ، كما جسدته الحكايات الخرافية في صورة أمنا الغولة .

وعندما أصبح الانسان الشعبي أكثر واقعية في عصرنا الحاضر ، لم يعد يتطلب من بطل الحكاية ان يخوض مغامرة مجهولة من أجل الوصول الى الاميرة المسحورة فيخلصها من قبضة المارد، او من أجل الوصول الى التفاحة السحرية التي تتدلى من فرع شجرة تنمو في غابات مظلمة بعيدة لا يمكن ان يصل اليها الانسان العادي . كما أنه لم يعد يفترض ان البطل لا يمكنه الوصول الى غرضه ، وان خاض في سبيل ذلك الاهوال ، الا عن طريق الاداة السحرية التي يستخدمها في الوقت المناسب . بل أصبح يتطلب من البطل ان يعبر عن مشكلاته الواقعية التي يعاني منها ، سواء كانت تلك المشكلات تنتمي الى عالمه المرئي ، او الى عالمه غير المرئي . وطبيعي ان الانسان الشعبي يدرك تماما عجزه عن حل هذه المشكلات ، لانها مشكلات نجمت اما عن عيب في بناء مجتمعه مثل مشكلة الظلم ومشكلة الفوارق الاجتماعية ، او أنها نجمت عن ارادة القوى الغيبية ، وهي ارادة ليس للانسان ان يتدخل فيها . ومع ذلك ، فان الانسان الشعبي ، اذ يعبر عن هذه المشكلات الواقعية التي أصبح يحسها ويعاني منها كل المعاناة ، لا يكتفي بتصويرها في قصصه ، بل انه يجتهد في تفسيرها او ايجاد حل لها . ومن ثم فقد خلق في قصصه الذي يحكيه اليوم ، شخصية تشبه الى حد كبير شخصية الرجل الكهل الحكيم التي تظهر في القصص الخرافي ، وان اختلفت عنها تماما في وظيفتها . ذلك ان هذه الشخصية لم تعد تمنح البطل الاداة السحرية، بل اصبح يمنحه الحكمة ويبصره بواقع الامور التي يعجز عن ادراك كنهها .

فقد كان هناك ملك له ابنة واحدة يحبها ويعزها ، وذات يوم استدعى المنجمين لكي يقرأوا له طالع ابنته ويخبروه بأي رجل سوف تتزوج ، فلما نظر المنجمون في حساباتهم الفلكية ، سكتوا واطرقوا رؤوسهم . فادرك الملك ان في الامر شيئا ، فصرخ في وجوههم ليخبروه بما رأوا. فقالوا له ان طالع ابنته يخبر بانها لن تتزوج الا بعبده مرجان . وعلى الرغم من ان الملك كان يحب هذا العبد ، فان أول خاطر خطر له في تلك اللحظة هو ان يتخلص منه ، ومن ثم فقد كلفه بحمل رسالة الى ملك الشمس وان يأتيه بردها . ولم يكن ملك الشمس هذا في الحقيقة سوى شخصية وهمية ، وقد وصف له الطريق المؤدي لها وكان طريقا محفوفا بالمخاطر . ولهذا فلم يساور الملك شك في أن العبد مرجان سيهلك في هذا الطريق. وحمل العبد مرجان الرسالة وسار في طريقه ممتطيا صهوة جواده . وفي منتصف الطريق برز له شيخ عجوز جالسا في الخلاء ، فلما اقترب منه مرجان سأله الشيخ عن مقصده ، فأخبره مرجان بان الملك كلفه بحمل رسالة الى ملك الشمس لكي يأتيه بردها . عند ذلك اخبره الشيخ بأنه هو بعينه ملك الشمس وطلب منه الرسالة ، فلما فضها الشيخ ، كتب في أسفلها عبارة « اللي في علمه يتمه » ، ثم أعاد الرسالة الى العبد الذي شكره وسار في طريقه قافلا الى سيده الملك . فلما جن عليه الليل استراح عند جذع شجرة بعد ان ربط حصانه وراح في نوم عميق . ولكنه استيقظ على صوت صهيل حصانه وهو يركل الارض برجله بشدة . فلما نظر العبد مرجان الى المكان الذي يضرب فيه الحصان برجله بشدة ، ابصر فجوة وبداخلها كنز . فاخذ يستخرج من الكنز حتى تجمع

لديه مال وفير ، وفكر اثر ذلك انـه لا داعي للعودة لسيده وان يشرع فى بناء قصر ليعيش فيه حياة رفاهية ورخاء،وابتنى العبد مرجان قصرا شامخا تحيط به البساتين وتتدفـق فيه النافورات . وذات يـوم كان يستحم فى النافورة ، فلما خرج منها ونظر الى نفسه فى المرآة ، رأى ان لونه قد تحول من السواد الى البياض فيما عدا بقعة سـوداء ظلت علـى جبينه .

وذات يوم خرج الملك مع وزيره ليتريضا . وقادهم الطريق الى القصر الشـامخ ، قصر العبد مرجان ، الذي يقف فى بهـاء وروعـة وسط الرياض والبساتين ، وتعجب الملك من ان يكون فى مملكته مثل هذا القصر الرائـع ، ولهذا فقد طرق بابـه ليتعرف على صاحب هذا القصر ، ورحب بهما العبد مرجان وهو يعرفهما تماما ، وبالغ فى ترحابهما ، وبعد ان مكث الملك والوزير عنده أياما فىحفاوة بالغة ، عرض عليه الملك ان يزوجـه ابنته . ورحب مرجان بذلك ، وما هي الا أيام حتـى كانت ابنة الملك تحمل الى العبد مرجان فى صحبة أبيها وأمها والخدم والحشم .

ومكث الجميع فى ضيافـة العبد مرجان طيلة شهر دون أن يتوقف الملك على حقيقـة هذا الرجل الثري المضياف الذي بالـغ فى تقدير ابنته . وذات يوم فاجاه الملك بالسؤال عمن هو ، والى أى أصل ينتسب . وكان رد مرجان على ذلك بانه بعينه العبد مرجان الذي كلفه ذات يوم بحمل رسالة الى ملك الشمس، كما اخبره بانه مازال يحتفظ بالرسالـة التي تتضمن رد ملك الشمس عليها . فلما فض الملك الرسالة وجد مكتـوبا فى أسفلهـا تلك العبارة : « اللي فى علمه يتمه » .

فشخصية الرجل العجوز المجهول فى هذه الحكاية ، لم تظهر فيها الا لكـي تبصر الملك الذي يعد رمزا للسلطة والتسلط الدنيويين ، بحقيقة ميتافيزيقية ليس من شأن الانسـان ان يخوض فيها ، بل له ان يصارعها ، وهي ان هناك أمورا مقدرة للانسان لا يمكنـه أن يتجنبها مهما كانت سطوته وقوته البشرية . ونلاحظ أن الرجل العجوز فى هذا المثال لم يمنح البطل الاداة السحرية لكي يحارب بها التنين والمارد وينتصر عليهما ، بل منحـه الحكمـة التي اصبح يحتاج اليها الانسـان المعاصر لكي تعينه على مشقات الحياة .

واذا كان القصاص الشعبي قد عبر فى هذه الحكاية عن مشكلة غيبية تشغل الانسان ، فهو لم يعبر عنها بقصدتشكيك سامعيه فيها، بل انه يسعى على العكس من ذلـك الى بث الطمأنينة فى نفسه من حيث انه لا ينبغي عليه ان يفكر فى أمور المستقبل التي ليس مـن شأنه التدخل فيها ، اذ لا يكيف تلك الامور سوى الارادة العليا التي تتصف بالقـدرة والرحمـة فى الوقت نفسه . ذلك ان ابنـة الملك لم يقدر لها ان تتزوج بالعبد الا بعـد ان تغيرت صورته كلية ، حتى لون جلده .

فاذاذ تناول القصاص الشعبي مشـكلة اجتماعية تحير ابناء الشعب ، فانه يستعين كذلك بشخصية الرجل العجوز الحكيم لعله يجيب عن تساؤلاته المحيرة . وفى هذه الحالة قد لايجد هذا الحكيم جوابا شافيا عن هذه التساؤلات ، ذلك ان المشكلة من وجهـة نظر الشعب ، قد أصبحت من التعقيـد بحيث يحتار فيها الحكماء أنفسهم .

فقد اجتمعت الكـلاب البلديـة ذات يوم وتساءلت : لماذا تعيش الكلاب الرومية (وهو اصطلاح شعبي للكلاب التي يقتنيها أصحاب البيوت ويعتنون بها ويدللونها) مرفهة ، فلا تتناول سوى اللحم والخبز الشهي ، فى حين أنها قد قدر لها ان تظل تعدو فى الشوارع ليل نهار على غير هدى ، ولا تتناول من الطعـام سوى ما تعثر عليه فى القاذورات. ولما لم تجد الكلاب البلدية جوابا شافيا عن هذا التساؤل، قررت ان ترسل خطابا فى مؤخرة كلب الـى

الملك سليمان ، ذلك الشيخ القديم الذي يفهم لغة الحيوان ، لتسأله فيها عن هـذا الامر . ولكن الكلب لم يعد حتى اليوم برد الرسالة ، ذلك أن النبي سليمان نفسه لم يجد بعد الرد المقنع عن هذه المسألة المحيرة . ولكن الكلاب ما تزال تنتظر الجواب حتى اليوم . ولهـذا فانها ، عندما ترى كلبا مقبلا نحوها ، تجتمع حوله وتشمه من مؤخرته ، لعله قد أتى برد الرسالة .

واذا كان الشيوخ يمتلكون الحكمة والعلم الى هذا الحد ، فان أصحاب السلطة يخشون نقدهم الذى يمكن أن يهيج الرأى العام ضدهم ولهذا فقد أصدر ملك من الملوك مرسومايقضى بأن يقتل كل شاب أباه الكهل حتى تخلو له البلاد من هؤلاء الحكماء الذين ينتقدون سلوكه على الدوام . واذعن كل شاب لامر الملك فقتل اباه ، فيما عدا شابا واحدا أبى أن يفعل هذا مع ابيه ، واكتفى بتخبئته فى البيت ، ولما اطمأن الملك الى أن شيوخ بلدته قد قتلوا عن آخرهم ، كان كل يوم يجمع شباب البـلد عند الجبل ويرهقهم بشق الارض الصـلبة دون أن يهدف من وراء ذلك تمهيدا للزرع .

وذات يوم سأل الاب الشيخ الذى ظل على قيد الحياة ، سأل ابنه عما يفعله مع سـائر الشباب ، فاجابه الابن بأن الملك يجمعهم كل يوم عند جبل ويطلب منهم ان يشقوا الارض الصخرية دون أن يدركوا هدفا لهذا العمـل المضنى . فلما سمع الاب ذلك قال لابنـه : اذا جاءك الملك ليمر عليكم فاصطنع أنك ترفع يدك الى اعلى فمك ، وانك تضع شيئا فيه . فاذا سألك عما تفعل ، قل له ، ان ما نزرعه نأكله . فلما فعل الابن ذلك وسمع الملك منه تلك العبارة الحكيمة ، قال له على الفور : ان هذا القول ليس قولك ، بل هو قول رجـل شيخ . اذهب واحضر اباك الذى لم تنفـذ فيه أمرى . فذهب الابن واحضر أباه الذى مثل امام الملك . فسأله الملك : اين كنت وقت أن أصدرت المرسوم ؟ فرد الاب قائلا لقـد كنت مسافرا وشغلت عن عودتى بأمر عسير ، فلما عدت كان المرسوم قد نفذ وانتهى الامر . فسأله الملك مرة أخرى : وما هو ذلك الامـر العسير الذى اخر عودتك ؟ فاجاب الرجـل : لقد كنت ياجلالة الملك أحضر حفل زواج ابنة البومة من الغراب . وقد دب الخـلاف بين الطرفين فى اللحظة الاخيرة . وكان يحتم علينا، نحن المدعوين ، أن نفض النزاع . ذلك ان البومة اشترطت أن يكون مهر ابنتها خمسـين بلدا خربا . وقد اقنعنا الغراب بقبول ذلك ، فقبل وانتهي الامر . عند ذاك قال له الملك : وهل من المعقول أيها الرجل المغفل ان هنـاك خمسين بلدا خربا على وجه الارض ؟ فردعليه الرجل الشيخ قائلا : نعم ياجلالة الملك ، ان كل بلد يحكمه رجل أخرق ، فهو خرب .

واسقط فى يد الملك ، واقر بخطئه وقال : حقا « اللي ما لوش شيخ ، شيخه الشيطان » وقد أصبح هذا القول مثلا .

والشيخ فى القصص الشعبى لا ينطق بالقول الحكيم فحسب ، بل هو قادر كذلك على فهم الاسئلة الملغزة ، وهو وحده القادر على فك رموزها .

فقد خرج الملك والوزير يتفقدان احـوال الرعية . فوصلا الى شاطىء البحر وابصرا صيادا كهلا يجر سمكة كبيرة من البحر . وفى أثناء ذلك جرحته السمكة بزعانفها القـوية فادمت يديه ، ولكنه لم يأبه بذلك واستمر يجرها . فوقف الملك والوزير عنده وسـأله الملك : كيف حال البعيد ؟ فأجاب الصيـاد : لقد أصبح البعيد قريبا . ثم سأله المـلك : وكيف حال الجماعة ؟ فأجاب الصياد : لقـد تفرقت الجماعة ولم يعد من الممكن لم أشتاتها فسأله الملك : وكيف حال الاثنين ؟ فأجـاب الصياد : لقد أصبح الاثنان ثلاثة . عند ذاك قال له الملك : اياك أن تبيع رخيصا ! فأجاب الرجل : انك لن توصى حريصا . وبهذا انتهى حديث الملك مع الصياد الشيخ . وفى اثنـاء

عودة الملك والوزير سأل الملك الوزير عما اذا كان قد فهم شيئا من حديثه مع الصياد ، فأجاب الوزير بالنفى . عند ذاك طلب منه الملك ان يفسر له مادار بينه وبين الصياد والا قطع راسه ، ثم اعطاه مهلة اسبوع .

واخذ الوزير يدير فى راسه العبارات التى سمعها من كل من الملك والصياد عله يصل الى مغزى هذا الكلام ولكن دون جدوى . واخيرا استقر رأيه على أن يذهب ليقابل الصياد وينفحه بعض المال لكي يفسر له الكلام الذى دار بينه وبين الملك . ولكن الصياد ابى أن يفسر له شيئا الا اذا تنازل له عن الوزارة ولم يجد الوزير مجالا للخيار فوافق على ذلك. عند ذاك اصطحبه الصياد الى الملك لكي يتنازل أمامه رسميا عن الوزارة فى مقابل ان يفسر له الحديث . فلما ابصرهما الملك بادر الصياد بالسؤال وقال له : هل بعت رخيصا ؟ فأجاب الصياد : لقد اخبرتك ياجلالة الملك انك لن توصى حريصا ، لقد بعت الاجابة عن الاسئلة فى مقابل الوزارة . ثم شرع يشرح للوزير مادار بينه وبين الملك ، فقال : لقد سألنى الملك عن حال البعيد ، وهو يعنى بذلك بصرى الذى كنت أرى به بعيدا وأنا شاب ، فأجبته بأن بصرى قد ضعف مع هرمى ، وبذلك صرت لا ابصر الا الشىء القريب ، ثم سألنى عن الجماعة وهي اسنانى فاجبته بأنها قدتفرقت مع كبر سنى . ثم سألنى بعد ذلك عن الاثنين وهو يعنى به قدمي ، فاجبته بأنهما أصبحتا ثلاثة ، اذ لم اعد أسير الا بمساعدة عكازى .

وبهذا تنحى الوزير عن الوزارة وتقلدها الصياد . وبينما كان الوزير الصياد عائدا ذات يوم الى بيته ، صادف رجلا يبيع خيارا ، فوقف ليشترى منه . ولما كان الخيار طازجا للغاية فقد آلمه شوكه الرفيع ، ولهذا فقد رمى الخيار للبائع ، ورحل ومكث فى بيته بعد ذلك اياما لم يذهب فيها الى الوزارة ليباشر عمله . وقلق الملك عليه وذهب ليسال عنه . فأخبره الصياد الوزير أنه وقف ليشترى خيارا ولكن شوك الخيار الرفيع آلمه وتسبب فى مرضه . وتعجب الملك لذلك وذكره باليوم الذى رآه فيه على شاطىء البحر يجر السمكة الكبيرة وقد جرحته زعانفها الصلبة فسال دمه . ولكنه لم يكن مكترثا بذلك واستمر يجر السمكة . وظل الصياد ينصت للملك ولما فرغ من كلامه ، رد عليه قائلا : ان هذا صحيح يا جلالة الملك ، ولكنه من الغباء التام ان يجد الانسان فرصة للنعيم والرفاهية ولا يغتنم هذه الفرصة .

وتهدف هذه الحكاية ، كما يتضح تماما من مضمونها العام ، الى ابراز عيب خلقى ، ولا نبعد اذا قلنا انه عيب سياسى ، وهو أن من يتولى منصبا قياديا من ابناء الشعب ، سرعان ما تلهيه حياة الرفاهية عن التفكير فى أحوال الشعب الذى كان ينتمى اليه ذات يوم ،ويعانى مما يعانيه . ولكن الملك لم يخطىء عندما أسند الوزارة الى ذلك الشيخ ، وان كان صيادا بدلا من الوزير ، لأن الأول حنكته الايام ، وعمقت ادراكه بحقائق الامور . فى حين قصر عقل الثانى عن ادراك ابعاد مشكلات الحياة ، وهو ماترمز اليه الحكاية عنا بفشله فى حل الاسئلة الملغزة .

●●●

- ٧ -

ومن الطبيعى أن تكون هناك بعض الامثلة الشعبية التى تلخص فلسفة الشعب فى الشيخوخة والهرم . والمثل الذى سبق أن ذكرناه وهو : « اللى ما لوش شيخ ، شيخه الشيطان » يصور تقدير الناس لمسنيهم ومدى احساسهم بقيمة وجودهم بينهم . ومن ثم فقد سمى رجال الدين بالشيوخ ، بصرف النظر عن مقدار أعمارهم ، لان الشيخ مجمع للمعرفة والحكمة والقدرة على تبصير الناس بجوهر الحياة .

وكل هذا يشير الى مدى احترام الناس

لتقادم الايام على الانسان ، وهم لذلك يحثون على احترام الصغير للكبير ، لأن اضافة يوم فى عمر الانسان معناه زيادة فى علمه وخبرته . وهم يقولون فى ذلك : « أكبر منك بيوم يعرف عنك بسنة »

ومع هذا لا تخلو الامثلة الشعبية من نظرة الشعب السلبيةالى الشيخوخة . فالشيخوخة هي نهاية المطاف فى حياة الانسان ، ولن يعود الشيخ بعدها شابا بحال من الاحوال . وفى ذلك يقول المثل الشعبى فى صيغة سؤال استنكارى : « هو الرائب يبقى حليب » ؟! فاللبن الحليب هو الاصل . وهو يتحول بعد عملية بيولوجية الى لبن رائب . ولا سبيل الى أن يصبح اللبن الرائب حليبا مرة اخرى . حقا أن اللبن الرائب له فوائده التى ربمافاقت فوائد اللبن الحليب ، ولكن هذا لا ينفى الحقيقة وهوان اللبن الحليب هو الاصل الطازج للبن الرائب . وربما ذكرنا هذا المثل بقول الشاعر القديم :

اترجو ان تكون وانت شيخ
كما قد كنت أيام الشباب

لقد كذبتك نفسك ليس ثوب
دريس كالجديد من الثياب

واذا كان الامر كذلك ، فواجب على الشيخ أن يحتفظ بوقاره بما يتلاءم مع سنه وعقله . فاذا حاول الشيخ أن يتصابى ، قال فيه المثل : « الشايب لما يدلع يبقى زى الباب المخلع » . أو يقول : عجوز ومتصابى ! فاذا لم يكن الرجل الكبير متسما بالحكمة والعقل اللذين يزينانه بعد بلوغه سن الشيخوخة ، قال فيه المثل : « شابت لحاهم والعقل لسه ما جاهم » .

•••

هذه جولة مع الانسان الشعبى وصراعه مع الزمن . وقد حرصنا فى الجزء الأول من البحث أن نبرز صور هذا الصراع من خلال اشكال تعبيره من ناحية ، كما حاولنا ان نستخلص منها فلسفته فى فكرة الزمن بوجه عام من ناحية اخرى . وصراع الانسان مع الزمن يعنى رفضه للزمن الحسى ، وهذا الرفض يتمثل فى امرين : **الامر الاول** ، رفض التاريخ ، بمعنى انه أحداث يسلم بعضها الى بعض بحيث لايمكن تجنبها أو تجنب نتائجها. فالانسان الشعبى فى هذه الحالة لا ينظر الى هذا الحدث ، مهما كانت نتائجة ، على انه نهاية حتمية لا مفر له من أن يخضع لها ويستسلم فى يأس ، بل أن علاقته الروحية القوية بالقوى العليا سرعان ما تزيل مخاوفه ، وتقوى امله فى تغير الحياة وتجددها ، كما هو شأنها منذ الازل ، اما **الامر الثانى** فهو رفض الاستسلام للحظة تبدو فيها الحياة ، سواء كانت الحياة الطبيعية او حياة الانسان ــ انها قد أجدبت أو فنيت . ذلك أن الجدب والفناء يأتىبعدهما الخصب والبعث لا محالة ، وهذا يعنى أن الخصب دائم والزمن دائم ، وان تخلل ذلك فترات من الضعف والجدب والموت المؤقت .

اما الجزء الثانى من البحث فقد انتقلت فيه من فكرة الزمن المجرد الى فكرة الزمن المجسد فى العجز والهرم والشيخوخة ، كما تتمثل فى القصص الشعبى والامثال الشعبية.

وبهذا يكون الانسان الشعبى قد عبر عن فكرة صراعه مع الزمن على تحد يتسم بالشمولية والتنوع والتفاؤل الذى يَجبِ التشاؤم . وربما كان أروع من هذا كله انه لم يتقوقع داخل ذاته ليعبر عن مأساته ، بل عبر عن نفسه بوصفها نفسا تخفق بين أنفاس الكون النابضة ، وبوصفها ايقاعا من ايقاع الحياة الذى يتردد صداه فى جميع الاجواء ، فى الفضاء وفى الانهار وفى الجبال وفى البحار ، ومع حفيف الاشجار ، وانغام الطيور ، وربما مع الاصوات الهامسة الصادرة من العالم غير المرئى .

١٠٤١

الحياة فى عالم مزدحم بالسكان

أحمد أبو زيد

حين صدر كتاب مالثوس عن السكان عام ١٧٩٨ تحت عنوان :

An Essay on the Principle of Population as it affects the Future Improvement of Society.

اعتبر أول دراسة تقوم على أسس دقيقة من جمع المعلومات بقصد الاجابة عن الأسباب المؤدية الى شقاء الجنس البشرى وبؤسه وتعاسته ، بل ان البعض ذهب الى حد اعتباره بداية للدراسة الاجتماعية الحديثة بوجه عام (١) . ولقد حاول مالثوس فى ذلك الكتاب أن يركز على مسألتين على جانب كبير من الأهمية ، وهما البحث عن الأسباب التى تقف دون تحقيق سعادة الانسان ، ثم البحث عن مدى امكانية القضاء على تلك الاسباب ، أو على الأقل التخفيف من وقعها ونتائجها على مايذكر هو نفسه صراحة في الصفحة الأولى من الكتاب . وفى سبيل ذلك وجد مالثوس أنه يتعين عليه أن يعالج بعض القضايا الهامة مثل العلاقة بين السكان والطعام ، على اعتبار أن وفرة الطعام عامل أساسى فى تحديد عدد السكان فى المجتمع ، وأن زيادة الطعام فى مجتمع ما كفيلة بأن تؤدى الى زيادة السكان، ما لم يكن هناك ما يمنع من ذلك ، وذلك كله لكي يصل فى آخر الأمر الى قضية من أهم

(١) Bogardus, E.S. ; The Development of Social Thoughts, Mckay N. Y. 1960, p. 222.

القضايا التى كان يؤمن بها ، وهى أن التعفف الأخلاقى ، وكبح الغريزة الجنسية هما خير وسيلة لتحقيق الملاءمة المنشودة بين السكان والطعام ، على أساس أنها تؤدى الى قلة النسل ، وبالتالى الى التحكم في سكان المجتمع. وهذا معناه أن الانسان الفرد هو الذى يستطيع فى آخر الأمر أن يجنب نفسه والمجتمع الانسانى عموما كثيرا من النتائج الضارة التى تنجم عن التزايد السكانى ، وذلك عن طريق الامتناع ووضع القيود والضوابط على نشاطه الجنسى الخاص . ولن يتيسر للفرد ذلك الا عن طريق التربية والتعليم ، وبالذات تعليم الفقراء وتدريبهم على تأجيل زواجهم الى سن متأخرة، وعلى العمل على خفض معدلات المواليد بينهم، ثم الاقتصاد فى الانفاق ، وتشجيعهم على التوفير ، واستثمار مدخراتهم .

ولقد وجدت آراء مالثوس غير قليل من المعارضة. وليس هنا مجال التعرض للانتقادات الكثيرة التى وجهت اليه من بعض رجال الدين، ورجال المال ، ورجال الحرب ، ورجال الفكر على السواء . ولكننا نكتفى هنا باعتراض واحد وجهه اليه بعض المفكرين والفلاسفة الاجتماعيين وهو اعتراض لايزال يجد له صدى عند كثير من الكتاب المحدثين ، ويتردد كثيرا فى كتاباتهم من أن للانسان القدرة على اعادة التوازن بين السكان والغذاء عن طريق البحث عن المصادر التى لم تكتشف بعد ، وبخاصة فى المناطق البكر الشاسعة فى افريقيا وأمريكا الجنوبية ، وانه بناء على ذلك ليس ثمة مايدعو الى تلك النظرة التشائمة التى تميز كتاب مالثوس وتصبغ تفكيره بلون أسود قاتم . بل انه ليس مايدعو الانسان الى أن يفرض على نفسه وعلى حياته الجنسية تلك القيود التى يوصى بها مالثوس باسم التعفف ، مثل تأخير الزواج على ما فعل هو نفسه . فلقد تغيرت الأمور والأوضاع الاجتماعية كثيرا منذ عهده ، وأمكن للمرأة بوجه خاص أن تتحكم فى النسل برغبتها وارادتها الحرة ، بعد أن كانت مجرد أداة للحمل والولادة ، وذلك نتيجة لتحرر المرأة ، وبخاصة فى المجتمع الغربى ، من سيطرة الرجل وشعورها بالمساواة معه فى الحقوق والواجبات ، ومن هذه الحقوق حقها فى أن تحدد بنفسها عدد الاطفال الذين تحب هي أن تنجبهم . وذلك كله بالاضافة بطبيعة الحال الى ازدياد شعور الناس وادراكهم لضرورة العمل على توفير مستوى اقتصادى واجتماعى معين يعيشون فيه ويوفرونه لانفسهم وأولادهم . فهذه كلها أمور من شأنها أن تؤدى فى آخر الأمر الى التحكم فى عدد السكان ، بحيث لايتعرض العالم لكارثة كتلك التى يتنبأ بها المتشائمون من الكتاب .

بيد أن الوضع السائد الآن في العالم يبين أن هذا التفاؤل فيه هو ذاته كثير من الغلو والمبالغة ، وأن كل ما يقال عن حكمة الانسان وتعلقه ووعيه وقدرته على التحكم فى نسله لم يمنع من ازدياد السكان فى العالم ككل زيادة رهيبة وبسرعة فائقة ، مما يثير القلق ويدعو الى ضرورة الاسراع بوضع سياسة حكيمة يمكن بمقتضاها اعادة التوازن بين السكان وموارد الطعام ، أو بقول أعم بين الموارد البشرية والموارد الطبيعية وبخاصة الطعام . ويعتبر ذلك من أهم الاسباب التى تكمن وراء الاهتمام المتزايد فى الوقت الحالى بمشكلات التخطيط من أجل التنمية الاقتصادية والاجتماعية فى المجتمع المتخلف على الخصوص ، نظرا لأن هذه المجتمعات هي التى تعانى اكثر من غيرها من فقدان ذلك التوازن نتيجة للزيادة السكانية السريعة فيها . ولكن هذا لا يعنى أن المجتمعات المتخلفة هى وحدها التى تعانى من هذه المشكلة ، فالشعور بالزيادة السكانية وتكدس السكان مع عدم التنسيق مع موارد الطعام المتاحة اصبح شعورا عاما ، وبدأ كثير من الكتاب يكتبون عن ظاهرة ازدحام العالم بسكانه باعتبارها من أخطر الظواهر التى تواجه المجتمع الحديث بوجه عام ، ويحاولون التعرف على أسباب وخصائص ونتائج ذلك الازدحام ، والمشكلات المترتبة عليه ، وكيف يمكن حل تلك المشكلات ، ومتطلبات الحياة

فى ذلك العالم المزدحم بالسكان ، ونوع التنظيم الذى يجب أن يسود في المجتمعات الحديثة المزدحمة ، وغير ذلك من المسائل التى تمتلىء بها الآن الكتابات السوسيولوجية والانثربولوجية التى تعنى بمشكلات السكان والتنمية فضلا عن كتابات عدد كبير من الديموجرافيين (علماء السكان) .

والمعروف أنه حتى عهد غير بعيد كانت المعدلات المرتفعة للوفيات نتيجة لانتشار الأمراض وتفشى الأوبئة وكثرة تعرض المجتمعات الانسانية للمجاعات والحروب تعتبر عاملا محددا للخصوبة العالية بين جميع الشعوب بغير استثناء . ولكن التقدم الذى أحرزه الانسان فى الفترة الأخيرة ساعده على التغلب على اثنتين من تلك المحددات الطبيعية للزيادة السكانية ، ونعنى بهما **المرض والمجاعات** . وكما يقول فيليب هاوزر (٢) ، قد يكون من الصعب علينا أن نتصور الآن كيف كانت المجاعات تلعب دورا هاما فى تحديد الزيادة السكانية . فقد بَعُدَ العهد بهذه المجاعات فى كثير من المجتمعات بعد أن كانت تفتك بأعداد كبيرة من البشر . فآخر مجاعة كبرى حدثت فى أوروبا مثلا كانت فى ايرلنده عام ١٨٤٦ ، وذلك حين تعرضت لنقص شديد في المواد الغذائية ، واستمر ذلك ست سنوات . وفى روسيا أدت الحروب والامراض بين عامى ١٩١٤ و١٩٢٦ الى ارتفاع حالات الوفاة لحوالى ٢٥ الى ٣٠ مليون حالة أكثر من العدد الذى كان يتوقع حدوثه فى الظروف العادية . ومع ذلك فهناك مجاعات أخرى حدثت فى تواريخ أقرب من هذه ، مثل المجاعة التى حدثت فى الهند عام ١٩٤٣ ثم فى عام ١٩٥١ ، وكذلك المجاعة التى تعرضت لها البرازيل عام ١٩٦١ وفتكت بمئات الآلاف من البشر . وليس ببعيد تلك المجاعة التى حدثت منذ سنوات قليلة في أنحاء واسعة من افريقيا نتيجة (للعطش) أو عدم سقوط الامطار وجفاف الارض وموت الحيوان ، ولا تزال واضحة حتى الآن حيث لازالت تفتك ، رغم كل الجهود المبذولة ، بآلاف الارواح التي يصعب تحديد عددها بالضبط نظرا للظروف غير المواتية التى تعيش فيها افريقيا ، والتى تمنع من الحصول على أرقام دقيقة عن كثير من جوانب الحياة . ومع ذلك فانه يمكن القول بوجه عام ان اثر المجاعات فى تحديد الزيادة السكانية فى الوقت الراهن ضئيل ، ولا يكاد يقارن بما كان يحدث فى الماضى .

وما يقال عن المجاعات يمكن أن يقال عن الامراض والاوبئة .. وتاريخ الشعوب ملىء بأحداث الامراض التي كانت تفتك بأعداد كبيرة من سكان العالم . فهناك مثلا وباء الموت الاسود الذي أودى بحياة أكثر من ربع سكان أوروبا فى القرن الرابع عشر ، وهناك الطاعون الذي فتك بحياة سكان لندن فى عامي ١٦٦٤ و ١٦٦٥ ، وهناك الكوليرا التي انتشرت في نيويورك فى اعوام ١٨٣٢ ، ١٨٤٩ ، ١٨٥٤ ، وادت الى ارتفاع معدلات الوفيات الى أكثر من ٤٥ فى الالف ، ولم يهبط المعدل الاجتماعي للوفيات هناك الى أقل من ٣٠ فى الالف الا بعد عام ١٨٧٠ (٣) .

والمهم هنا اذن هو ان التغلب على المجاعات والامراض والاوبئة ، وبالتالي القدرة على التحكم فى معدلات الوفيات ترتب عليها زيادة هائلة فى السكان في العالم أجمع ، بما فى ذلك

---

(٢) فيليب هاوزر : الازمة السكانية ، ترجمة حسن ساروق وراشد البراوى ، المكتب المصرى الحديث الاسكندرية ١٩٧٠ . صفحات ١٤ ـ ١٥ والاصل الانجليزى للكتاب هو :

Philip Hauser ; The Population Dilemma, Prentice - Hall, N.J. 1963

(٣) المرجع السابق ذكره .

المجتمعات المتخلفة التي عرفت الخدمات الصحية طريقها اليها أخيرا . وكل هذا كان خليقا بأن يدفع الى التفكير في مدى ما يمكن للمجتمع الانساني ككل ، وكل مجتمع على حدة ، أن يتحمله من حيث الزيادة السكانية.

(١)

وتاريخ الزيادة السكانية المطردة في العالم موضوع طريف الى أبعد حدود الطرافة ، وان كان يثير الكثير من القلق حول مستقبل الجنس البشري . والمعروف ان علماء الانثربولوجيا يختلفون فيما بينهم اختلافا شديدا فيما يتعلق بتحديد بدء ظهور الحياة البشرية على وجه الارض ، بل وأيضا حول المقصود بكلمة « البشر » ، ومن هنا تتفاوت تقديراتهم بين ٥٠٠٫٠٠٠ سنة و ٢٠٠٫٠٠٠ سنة ، ولو أن الكثيرين منهم يميلون الآن الى القول بأنها بدأت قبل هذا بكثير جدا ، معتمدين في ذلك على نتائج الاكتشافات التي يقعون عليها من حين لآخر في مجال البقايا الحفرية . وليس هذا موضوع حديثنا على أي حال ، انما الذي يهمنا هنا فيما يتعلق بالزيادة السكانية هو أن ثمة أدلة كثيرة تشير الى أن الامر احتاج الى عدة آلاف من السنين قبل أن يصل عدد سكان العالم الى ربع بليون نسمة ، وكان ذلك في الاغلب منذ حوالي ٢٠٠٠ سنة ، ثم استغرق الانسان ستة عشر قرنا لكي يضيف ربع بليون نسمة أخرى الى ذلك العدد بحيث يرتفع تعداد سكان العالم الى نصف بليون نسمة . وهذا معناه أن الجنس البشري احتاج لعدة مئات من القرون لكي يصل الى ذلك الرقم (نصف بليون) وهي فترة طويلة جدا حين نقارنها بالوقت الذي استغرقه الانسان لكي يضيف الى ذلك نصف بليون نسمة أخرى جديدة ، اذ لم يتطلب الامر في الحقيقة أكثر من قرنين فقط ، وهذا يشير الى مدى التسارع الرهيب في الزيادة السكانية خلال فترات أقصر فأقصر من الزمن . والواقع أن كل اضافة جديدة لنصف بليون جديد من البشر بعد ذلك كانت تستغرق فترات أقصر بشكل واضح . فنصف البليون **السادس** مثلا الذي استكمل به الانسان تعداده الى ثلاثة بلايين لم يتطلب أكثر من عشر سنوات. ولو استمرت معدلات النمو السكاني على هذه السرعة نفسها فسوف يستغرق نصف البليون **الثامن** والذي سيرفع سكان العالم الى أربعة بلايين ، ست أو سبع سنوات على أكثر تقدير (٤) . وهذا هو ما يثير الهلع في نفوس الكثيرين من المفكرين ، وان كان هناك كما ذكرنا من يحاول التهوين من شأن هذا الخطر ويستخف بذلك الهلع على أساس أن مستوى المعيشة والصحة العامة بين شعوب العالم في تحسن مستمر رغم الزيادة العددية ، وأنه ليس من المعقول أن يعجز التقدم العلمي والتكنولوجي عن سد حاجات الاعداد الجديدة من البشر الذين يضافون كل يوم الى سكان العالم ان لم يرفع من مستوى معيشتهم عن المستوى الحالي . ولكن الرأي السائد على العموم هو ان مستقبل الانسان محفوف بكثير من المخاطر ان لم يتدارك الانسان نفسه الامر ، ويتحكم في الزيادة السكانية التي يضيفها هو ذاته الى تعداد العالم . وقد يكفي لتبيين نوع المخاطر

---

(٤) المرجع السابق ذكره ، صفحة ١٩ ، ٢٠ ــ انظر ايضا الاعداد الخاصة من مجلة اليونسكو عن مشكلات السكان. والفقرة التالية من العدد ١٥٦ الصادر في يونيو ١٩٧٤ تلقي مزيدا من الضوء على هذه الحقائق : « استغرق الانسان علي الاقل مليون سنة لكى يصل عدده الى رقم المليون . ولعل مجموع سكان العالم بلغ ٥ الى ١٠ ملايين قبل ان تظهر الزراعة المستقرة بها قبل ٨٠٠٠ عام . وبمجيء التنظيم الاجتماعى الاكثر تعقيدا امكن اعالة اعداد اكبر من السكان وقبل ٢٠٠٠ سنة تقريبا بلغ سكان العالم ما بين ٢٠٠ و ٤٠٠ مليون نسمة . وقد وصل البشر الى رقم البليون حوالى سنة ١٨٠٠ ، وجاء البليون الثانى بعد ١٣٠ سنة تقريبا ، أما البليون الثالث فلم يستغرق مجيئه سوى ٣٠ سنة ، ولن يستغرق مجيء الرابع اكثر من ١٥ سنة » ومجلة اليونسكو عدد ١٥٦ بعنوان (وغدا كم يصبح عددنا) صفحة ٦

التي تهدد الانسان في المستقبل ان نقتبس هذه العبارة من فيليب هاوزر الذي يعتبر من أكبر المشتغلين فى الوقت الحالي بمشكلات السكان ومستقبل الانسان حيث يقول : ــ « اذا استمرت الزيادة السكانية على هذا النحو لمدة عشرة أو عشرين عقدا من السنين لوصلت هذه الزيادة الى ما يجعل الكرة الارضية أشبه ما تكون بجبل من النمل .. فالاربعة البلايين من الاشخاص المتوقع وجودهم فى عام ١٩٧٥ سوف يصبحون ٣٢ بليونا بعد قرن واحد ، ويصبحون بعد قرن وربع قرن أي عام ٢٢٠٠ نحو ٥٠٠ بليون نسمة . واذا وزع هذا العدد توزيعا متساويا على سطح البسيطة ــ بما فيها من صحراوات وجبال وغابات والمناطق القطبية المتجمدة ــ فان كثافة السكان تكون أقل قليلا من الكثافة فى واشنطن عاصمة الولايات المتحدة فى سنة ١٩٦٠ (٥) .

ولقد شغف العلماء وبخاصة في السنوات الاخيرة بمحاولة وضع تقديرات للحد الاقصى للسكان الذين يمكن للعالم ان يستوعبهم بحيث يستطيعون الحصول على حاجياتهم بغير مشقة تذكر . وبعض تلك التقديرات متواضع الى حد كبير ، بينما يصل البعض الاخر الى درجة عالية جدا من المبالغة والمغالاة . ففي عام ١٩٤٥ مثلا كان هناك من العلماء من يعتقدون ان العالم لا يستطيع ان يستوعب أكثر من ٢ر٨ بليون نسمة . ولكن من الواضح ان سكان العالم في الوقت الحالي ــ أي بعد ثلاثين سنة من ذلك التقدير ــ تجاوزوا ذلك الرقم بالفعل . ومن ناحية اخرى نجد عالما مثل هاريسون براون Harrison Brown يذهب فى تفاؤله الى القول بأن العالم يمكنه ان يستوعب خمسين بليون نسمة يعيشون بغير ضيق ، ويحققون كل ما يحتاجون اليه من تقدم ، ويوفرون لانفسهم ما يكفي لاشباع حاجياتهم ومطالبهم المختلفة . ومع ان التقدير الاول يغلب عليه طابع التشاؤم ويغفل امكانيات التقدم العلمي والفني واستخدامها فى توفير الطعام فان ذلك لا يعني ان العالم يستطيع ان يستوعب اضافات سكانية جديدة بغير حدود أو قيود . وعلى العموم فان معظم التقديرات فى الوقت الحالي تذهب الى ان العالم يمكنه استيعاب ما بين خمسة بلايين وسبعة بلايين نسمة ، وان كان يبدو ان هذا الرقم ذاته سوف يتحطم مع نهاية هذا القرن .

وعلى اية حال فلا بد فى اي محاولة لتقدير مدى ما يمكن للعالم ان يستوعبه من سكان ، أو على الاصح تقدير الحد الاقصى للسكان فى العالم ، من ان تأخذ في الاعتبار التفاوت بين امكانيات المناطق المختلفة . فالتوزع السكاني لا يمكن ان يكون متساويا فى كل انحاء العالم نظرا للاختلافات الهائلة بين الموارد الطبيعية من ناحية واختلاف درجة التقدم العلمي والتكنولوجي من ناحية اخرى . ومن الصعب أن تزول هذه الفوارق والاختلافات تماما نظرا للاعتبارات السياسية بالذات التي تباعد بين مختلف الشعوب . ومن هنا فان الزيادة السكانية قد تصل الى نقطة الانفجار والخطر فى مجتمع معين أو في دولة معينة قبل ان يتأثر العالم ككل بتلك الزيادة أو حتى يشعر بوطأتها ويدرك مغزاها وخطورتها بالنسبة اليه . وعلى الرغم من كل ما يقال عن الخطر الذي يتهدد العالم نتيجة لاختلال التوازن بين

---

(٥) فيليب هاوزر ، المرجع السابق ذكره ، صفحة ٢٣

السكان والموارد الطبيعية وبخاصة الطعام فان التعرض لذلك الخطر يتفاوت من دولة لأخرى ومن شعب لآخر ، كما أن الدول المتخلفة أو النامية تتعرض له بشكل أوضح من المجتمعات الراقية المتقدمة .

والى ان يأتي اليوم الذي تتحقق فيه الملاءمة بين السكان والموارد الطبيعية فى العالم اما عن طريق تحكم الانسان فى نسله بحيث تضيق الفجوة الواسعة بين معدلات المواليد والوفيات ،أو عن طريق استغلال كل الامكانيات الطبيعية وبخاصة مصادر الطعام بالذات بحيث توفر للسكان كل احتياجاتهم ، فان كل الحلول الاخرى لا بد ان تكون حلولا جزئية ومؤقتة ، بمعنى انها قد تحل المشكلة في مجتمع محلي معين أو فى منطقة معينة اوفىدولة معينة أو حتى فى قطاع معين من السكان فحسب . ولا بد للانسان اثناء ذلك كلهمن ان يقبل الحقيقة الواقعة ، وهي أن عليه ان يعيش فى مجتمع مزدحم بسكانه بوجه عام ، رغم ما قد يكون هناك من اختلاف فى درجة الكثافة السكانية بين مختلف المناطق والمجتمعات بحيث تضيق بعض تلك المجتمعات بسكانها ، بينما تشعر مجتمعات اخرى بانها فى حاجة الى مزيد من السكان حتى يمكن الاستفادة من الموارد الطبيعية المتاحة بشكل افضل . ومن هنا كانت المناطق الاقل ازدحاما والاكثر غنى في مواردها الطبيعية وامكانياتها الاقتصادية تجذب اليها السكان الذين يزيدون عن حاجة وامكانيات المناطق الاكثر فقرا وتخلفا . وقد نجم عن هذه التحركات السكانية ظاهرتان متكاملتان لهما خطرهما فى المجتمع الحديث ، ونعني بهما الهجرات الداخلية والخارجية من ناحية ، وظهور التجمعات السكانية الهائلة التي تتمثل فى المدن الكبرى أو المدن العملاقة والامصار من ناحية اخرى ، وما يترتب على هاتين الظاهرتين المتكاملتين من آثار اجتماعية واقتصادية وظهور تنظيمات جديدة تتلاءم مع هذه الاوضاع الناشئة .

(٢)

منذ حوالي ربع قرن تقريبا قام عالم البيولوجيا الامريكي جون املين John Emlen بتجربة على عدد من الفئران لمعرفة معدلات توالدها ، فوضع خمسة ازواج منها فى مخزن بقبو مستشفى Wisconsin ، وكان يترك لها ٢٥٠ جراما من الطعام فى كل يوم من الايام التي استغرقتها التجربة . وتوالدت الفئران فى المخزن ، وارتفع عددها بسرعة حتى جاء الوقت الذي اصبحت كمية الطعام المحددة تكفي بالكاد لاطعامها ، وحينئذ بدأت بعض الفئران تترك المخزن وتنتشر في المبنى كله ، وكانت هذه الهجرة ـ على ما يقول ديفيد هاي David Hay هي الاستجابة من الفئران لعدم كفاية الطعام المتاحة لها لاطعامها جميعا (٦) .

وهذا الموقف هو الذي نجده بحذافيره فى المجتمعات الانسانية بل وفى كل المجتمعات الحيوانية ، وهو موقف يعبر عن وجود علاقة قوية بين عدد السكان وكمية الطعام المتوفرة لهم . ولقد ترجم مالثوس هذا الموقف بطريقته الخاصة فىقانونه المشهور عن التزايد السكاني وزيادة انتاج الطعام ، كما ان هذا الموقف هو احد الاسباب الرئيسية وراء الهجرات والتحركات السكانية فى كثير من مناطق

(٦) Hay, G.; Human Populations, Penguin, London 1972, 0p.37

العالم ، وذلك حين يزداد حجم الجماعة زيادة هائلة بحيث لا تكفيها كميات الطعام ، فيضطر بعض أفرادها الى النزوح الى مناطق اخرى جديدة . ولقد أجريت دراسات عديدة على هجرة بعض أنواع الحيوانات ، وانتهت كلها الى أن تلك التحركات تنجم فى الاغلب عن زيادة أفراد القطيع لدرجة لا تتناسب مع مساحة المكان الذي تعيش فيه أو قلة كفاية الطعام . وصحيح أن نسبة معينة من الحيوانات المهاجرة تموت أثناء هذه التحركات ولكن يتبقى بعد ذلك العدد الملائم في الاغلب ، وبذلك تعتبر هجرات هذه الحيوانات أو الانواع والفصائل الحيوانية بمثابة وسيلة لتخفيض حجمها — أي تقليل الكثافة السكانية — الى الحد الذي يتناسب مع مقدار الطعام أو سعة المكان . وكما هو الحال بالنسبة للهجرات البشرية ، فان (رواد) هذه التحركات والهجرات (هم) فى العادة الافراد الاصغر فى السن والاقدر على الحركة والمغامرة وحب الارتياد ، ويكونون بذلك اهم العوامل التي تؤدي الى انتشار افراد النوع خارج الوطن الاصلي .

والسائد لدى عدد كبير من علماء الانثربولوجيا ان الجنس البشري نفسه كان قد نشأ فى موطن واحد محدد هو فى الاغلب افريقيا ، وان كانت هناك نظريات كثيرة متعددة لا داعي للدخول فى تفاصيلها ، ثم انتشر الجنس البشري من هذا الموطن الاول الى بقية أنحاء العالم خلال التاريخ البشري الطويل . وكانت بعض هذه الهجرات ميسرة أو ميسورة نتيجة لعدم وجود عوائق طبيعية، ولامتداد الارض الى مسافات واسعة متصلة كما كان الحال في امتداد واتصال افريقيا وآسيا واوروبا التي تكون كتلة من اليابسة متصلة ومتماسكة الى حد كبير ، مما سهل عملية الانتقال ، بينما كانت هناك صعوبات فى الانتشار الى القارات الاخرى التي يعتقد أنها لم تسكن الا فى فترات حديثة نسبيا من التاريخ البشري ، وان كانت هذه القارات ذاتها قد أصبحت مأهولة بالسكان فى عصر البلايستوسين Pleistocene منذ ما يقرب من ثلاثين الف سنة تقريبا ، كما هو الحال بالنسبة لاستراليا ، وذلك نظرا لصعوبة عبور المسطحات المائية الواسعة التي تفصل هذه القارة عن آسيا ، وان كانت مناطق العبور هي بالضرورة تلك التي تقترب فيها القارات بعضها من بعض بحيث تضيق الفواصل المائية الى أقل حد ممكن (٧) .

والمهم هنا هو أن هذه الحركات الهجرية التى ساعدت على انتشار الجنس البشرى واستيطان الارض كانت دوافعها بيولوجية الى حد كبير ، تتمثل فى عدم التلاؤم بين عدد السكان وكمية الطعام المتوفر ، وان كان هذا لاينفى بطبيعة الحال العوامل الاخرى السيكولوجية والاجتماعية مثل حب الكشف والارتياد والمخاطرة. الا انه يصعب رد التحركات السكانية الهائلة الى مثل هذه العوامل وحدها . والواقع انه على الرغم من أهمية

---

(٧) ويبدو ان وصول الانسان الى امريكا كان فى عصر البلايستوسين ايضا وحوالى هذا التاريخ ذاته وان كان البعض يرون انه لا يرجع الى ابعد من عشرين الف سنة .والمعروف ان للهنود الحمر ملامح منغولية . والسائد ان الانسان عبر آسيا الى امريكا عن طريق ما يعرف الان باسم مضيق بيرنج Behring Strait من سيبريا الى الاسكا حيث كانت مياه المحيط متجمدة ، وبذلك امكن له العبور والانتقال ثم استيطان امريكا والانتشار فيها — انظر المرجع نفسه ، صفحة ٣٨ .

هذه العوامل البيولوجية فانهــا لم تعــد هى العوامل المتحكمة الوحيدة فى هجرات السكان في العصر الحديث ، على الاقل بشكل مباشر. ذلك أن التقدم التكنولوجى فى الوقت الحاضر يعفى الناس من كثير من المتطلبات أو الضغوط البيولوجية ، بحيث تكاد الهجرات البشرية الآن تكون نتيجة لاســباب اجتــماعية أو اقتصادية أو سياسية أو ثقافية أكثر مما يمكن ردها للاسباب البيولوجية التقليدية ، وان كان هذا لا يمنع من وجود قيود بيولوجية عــلى البيئة البشرية ، فرغم التقدم التكنــولوجى لا يمكن للانســان مثــلا أن يعيش باســتمرار وبطريقة مريحة فى أجواء شديدة الحرارة أو قارسة البرد أو فقيرة فى تربتها بحيث لا تنتج الطعام الكافي وما الى ذلك .

ولقد شهد العصر الحديث كثيرا من الهجرات السكانية ، الا ان اكبر هجرة من هذا النــوع هي فى الأغلب هجرة الأعداد الكبيرة من الاوروبيين فى القرن التاسع عشر الى أمريكا . وهى تعتبر اكبر هجرة في التاريخ البشرى بأسره ، اذ يقدر عدد من شملتهم هذه الهجرة الواســعة بحوالى سبعين مليون نسمة استقروا فى الاغلب فى أمريكا واستراليا وجنوب افريقيا . وقبل ذلك التاريخ كان معظم الذين يهــاجرون هم من الرواد والمغامرين ، فضــلا عن اللاجئــين السياسيين أو الهاربين من الاضطهاد الدينى أو حتى من المجرمين المطرودين أو المنفيــين من بلادهم . وثمة أسباب كثيرة لتلك الهجرات السكانية الجماعية الهائلة التى شهدتها أوروبا فى القرن الماضى ، وهى أسباب معظمها اقتصادى يتمثل فى قلة مساحة الارض بالنسبة للنمو السكانى ، ثم ما نجم عن التطور الصناعى من هبوط وانخفاض فى الأجور بعد اعتماد الصناعة على الآلات ، وزيادة البطالة الى جانب تحسن المواصلات . ومن هنا لم يكن امام تلك الجموع الا أن تهاجر الى أرض جديدة ، حيث كانت تتوقع أن تجد مصادر جديدة للعمل والرزق والكسب والدخل الوفير .

فكأن حجم الهجــرات الســكانية يرتبط ارتباطا وثيقا بالظروف والأوضاع الاقتصادية وهذا يصدق على الهجرات الخارجية الى حد كبــير . فالهجرات الى أمريكا مثــلا تزداد في أوقات الانتعاش الاقتصادى هناك ، كما أن الهجرات من العالم العربى وبخاصة من بلــد مثل مصر فى السنوات الاخيرة ارتبط ارتباطا قويا بالأحوال الاقتصادية السيئة هنــاك مع الانتعاش الاقتصادى فى بعض البــلاد العــربية نتيجة للكشف عن البترول وما ارتبط بذلك من تقدم عمرانى كبير فى تلك البلاد .

وعلى الرغم مــن اهميــة هذه **الهجــرات الخارجية** فهى ليست الشكل الوحيد للتحركات السكانية ، اذ هناك **الهجرات الداخلية** التى قد لا تكون على مثل هذه الدرجة من الوضوح ولكنها تلعب مع ذلك دورا هاما فى حيــاة المجتمعات . وتتميز هذه الهجرات الداخلية ــ أو تحركات السكان من مكان لآخر داخل الوطن الواحد ــ بقصر المسافات التى يقطعها المهاجرون ، كما انها تتجه فى معظم المجتمعات الى مناطق وجهات معينة بالذات ، فهى تتجه في بريطانيا مثلا فى الاغلب نحو الطرف الجنوبى الشرقى ، وفى مصر من الجنوب الى الشمال ، وفى المانيا من الشرق الى الغرب ، وفى ايطاليا من الجنوب الى الشمال أيضا ، وهكذا . وعلى العموم فان هذه التحــركات السكانية الداخلية تخرج من المناطق الاكثر فقرا وتخلفا الى المناطق الأكثر غنى وتقدما والتى توفــر مجالات أوسع للعمل والكسب . ومن هنــا كانت معظم الهجرات الداخلية من المنــاطق

الريفية المتخلفة الى المراكز الحضرية والصناعية، الى حيث تتوفر مشروعات التنمية الزراعية التى تجذب اليها بعض الايدى العاملة فى الزراعة . والنمط السائد على أى حال هو اتجاه الأيدى العاملة الى مناطق الصناعة المتقدمة المعقدة مما يترتب عليه اتساع المدن الصناعية ونموها وامتدادها ، وزيادة تعقد الحياة الاجتماعية والاقتصادية فيها بشكل غير مألوف ، وهذا يؤدى بدوره الى ظهور ما يعرف باسم المدن العملاقة . (٨)

•••

وليس ثمة شك فى أن لهذه الهجرات الواسعة أثرا كبيرا واضحا على التركيب السكانى فى البلد الطارد للسكان ، أى الذى تخرج منه هذه الهجرات ، وكذلك الذى يستقبل هذه الجماعات الوافدة ، أى المنطقة الجاذبة للسكان وهذه تأثيرات معروفة ، وقد كتب عنها الكثير فى كتب الاجتماع والانثربولوجيا والاقتصاد، ولذا فليس ثمة ما يدعو الى التعرض لها هنا بالتفصيل ، وان كان يمكن مع ذلك الاشارة بسرعة وبوجه عام الى هذه التأثيرات وبخاصة على النمط السكانى التقليدى فى المجتمعات الجاذبة للسكان ، لانها هي في الاغلب المناطق التى تتعرض للتغير بدرجة أكبر من المجتمعات الطاردة للسكان والتى يتميز نمط الحياة فيها بالركود الى حد كبير نتيجة لظروفها واوضاعها الاجتماعية والاقتصادية .

وربما كان أهم هذه التغيرات فى نمط التركيب السكانى هو زيادة نسبة الذكور عن الأناث فى المجتمعات التى تستقبل المهاجرين، وذلك نظرا لان المهاجرين عموما ، سواء في الهجرة الداخلية أو الهجرة الخارجية ، هم فى الأغلب من الرجال الذين يسبقون عائلاتهم الى مقر الاقامة الجديد للكشف عن الأوضاع الجديدة حتى يوفروا لمن يعولونهم سبل العيش . ويتمثل هذا بوضوح في المجتمعات النامية التى لم تحتل فيها المرأة بعد نفس المركز الذى يحتله الرجل ، أو على الأقل حيث لا تمارس المرأة كل الاعمال وأوجه النشاط التى يمارسها الرجل . كذلك يتمثل هذا التغير فى نمط التركيب السكانى التقليدى ثانيا فى ازدياد العزاب عن المتزوجين زيادة كبيرة فى المجتمعات الجاذبة ، نظرا لأن الرجل غير المتزوج يكون في العادة أقدر على الحركة والهجرة والانتقال من الرجل الذى يرتبط بعائلة ويكون مسئولا عنها . وأخيرا تتمثل هذه التغيرات فى ازدياد عدد الشبان وبالتالي اختلال الهرم السكانى ، الطبيعى أو المألوف الذى نجده فى المجتمعات

---

(٨) ولكن على الرغم من كل ما يقال عن التحركات السكانية وسهولتها وكثرتها نتيجة لسهولة الحركة والانتقال وتقدم وسائل المواصلات ، فلا يزال الجانب الاكبر من الارض غير ماهول او مسكون ، كما لا تزال هناك مساحات كبيرة يسكنها اعداد قليلة من السكان الذين يتناثرون فيها فى شكل تجمعات متفرقة صغيرة ، ولا تزال المناطق الكثيفة السكان او المزدحمة بالسكان مناطق قليلة معدودة نسبيا . ويميز علماء الديموجرافيا والانثربولوجيا بين أربع مناطق رئيسية للكثافة السكانية العالية فى العالم هى الشرق الاقصى والهند واوروبا وشمال شرق امريكا ، وذلك فضلا عن عدد من المراكز السكانية الاصغر فى المساحة مثل حوض النيل والساحل الباسفيكى لامريكا الشمالية . كذلك رغم كل ما يقال عن تحركات السكان من المناطق الاكثر كثافة الى المناطق الاقل كثافة فان ذلك لا يصدق فى كل الاحوال .

فلقد كان وادى النيل دائما كثيف السكان ومع ذلك فان التحركات السكانية منه الى المناطق المجاورة الاقل كثافة كانت قليلة دائما او حتى معدومة . ومن هنا فان العلماء يفضلون الآن الكلام عن التحركات السكانية من المناطق التى لا تهيىء الا فرصا وامكانيات أكبر واشمل واكثر تنوعا ...كانت مصر مثلا فى وقت من الاوقات تستقبل مهاجرين من الدول العربية فاذا بالعكس هو الذى يحدث الان ، وتقوم مصر بتصدير عدد كبير من السكان الفائضين عن حاجتها الى البلاد التى كانت فقيرة او معدمة قبل ان تزدهر اقتصادياتها بظهور النفط وتنمو وتصبح مناطق جذب سكانى . ولكن هذا ايضا يدخل فيه كثير من الاعتبارات البيولوجية والجغرافية كالمناخ ونوع الارض والتربة . انظر نفس المرجع السابق ، صفحات ٤٣ وما بعدها .

السوية أو التى لا تتعرض لمثل هذه الموجات السكانية الصادرة منها أو الوافدة اليها .

وليست المسألة مجرد مسألة تغيرات فى نمط التركيب السكانى من حيث النوع أو العدد فحسب ، بل المهم هنا هو التغيرات التى تطرأ على نمط الحياة الاجتماعية المألوفة ، وبخاصة على العادات والتقاليد المتوارثة وظهور ظواهر اجتماعية جديدة قد تعتبر شاذة أو غير سوية سواء فى الجانب الاجتماعى او الاقتصادى . اذ ليس من شك فى أن ازدياد حركات الوافدين الى منطقة من المناطق سوف يؤدى في آخر الأمر ، ان لم توضع قيود على هذه الحركات ، الى زيادة الايدى العاملة فى المجتمع الجديد عن حاجة العمل ، مما يترتب عليه انخفاض الأجور أو حتى ظهور البطالة ، على الاقل بين فئات معينة من الوافدين ، وبخاصة غير المهرة . فان المسألة هنا هى مسألة التناسب بين وفرة الايدى العاملة وفرص العمل المتوفرة ، بحيث نجد انه فى بعض الاحيان حين تختل هذه النسبة تبدأ بعض الحركات الهجرية تخرج من هذا البلد الجاذب للسكان الى مناطق أخرى جديدة وهكذا . **وقد يصل الامر الى الحد الذى يعتبر فيه هذا البلد الجاذب للسكان مكتظا هو أيضا ، اى انه اخذ يعانى من مشكلة الاكتظاظ السكانى او الازدحام الذى كانت تعانى منه المجتمعات الطاردة ، وبخاصة اذا استقبل هذا البلد اعدادا كبيرة من الوافدين فى فترة قصيرة لا تسمح له باستيعابهم وتقبلهم وتمثلهم فى حياته ، وما ينجم عن هذا كله من مشكلات** فى المواصلات والاسكان وغير ذلك ، وما يرتبط بهذا من مشكلات اجتماعية اخرى تتمثل فى سرعة انتشار الامراض وتفشى الجرائم وانتشار العلاقات الجنسية والدعارة والامراض التناسلية ، بل وتعاطى المخدرات والادمان على الخمور وهى كلها مشكلات اجتماعية تعانى منها المجتمعات الجاذبة للسكان بغير تفرقة مع بعض الاختلافات فى الدرجة . وهذه كلها أمور معروفة ، **ولكن قد يحسن ان نضرب هنا مثالا من احد المجتمعات النامية الذى تعرض اخيرا لبعض حركات الانعاش الاقتصادى الذى تمثل فى محاولة التصنيع ، وما ارتبط بهذا من تحركات سكانية وهجرات أدت الى ظهور كل هذه المشكلات الاجتماعية .**

●●●

والمثال الذى نضربه مستمد من افريقيا ومن يوغندا بالذات ، ونقصد بذلك ظهور مدينة جنجا كمركز للتصنيع والجذب السكانى

ويرجع اكتشاف جنجا كقرية زراعية صغيرة جدا الى عام ١٨٦٢ على يدى الرحالة البريطانى الشهير سبيك Speke الذى يعتبر من أوائل مكتشفى منابع النيل . ولم تكن جنجا تلعب اى دور واضح فى اقتصاديات يوغندا فى ذلك الحين ، ولكنها لم تلبث أن تحولت فى بداية هذا القرن (١٩٠٠ ـ ١٩٠١) الى مركز ادارى صغير لاحدى المقاطعات ، وذلك نظرا لموقعها الاستراتيجى الممتاز ، وظلت كذلك حتى الاربعينات من هذا القرن حين فكرت حكومة يوغندا بالاتفاق مع الحكومة المصرية في تنفيذ بعض مشروعات الرى فى تلك المنطقة . وقد قام مهندسو الرى المصرى بوضع الخطة لذلك المشروع الذى بدأ تنفيذه عام ١٩٤٨ . ولم يلبث المشروع أن تطور من مجرد مشروع للرى الى مشروع لاستغلال مساقط المياه المعروفة باسم مساقط اوين Owen Falls فى توليد الكهرباء ، وبالتالى استخدام الكهرباء فى تشغيل المصانع وادخال بعض الصناعات ، وبذلك تحولت جنجا من قرية صغيرة أو مركز ادارى مغمور الى مدينة صناعية من اهم المدن الصناعية فى شرق افريقيا ، بحيث اصبحت من حيث النمو الاقتصادى أكبر مدينة بعد كمبالا Kampala العاصمة . وقد انتهى المشروع عام ١٩٥٤ حين انطلقت أول شرارة كهربائية مؤذنة بالتغير الاقتصادى الهام وبكل

ما ترتب عليه من تغيرات اجتماعية .. ففى ذلك العام (١٩٥٤) تم توليد حوالى ١٢٠ الف كيلووات / ساعة من الكهرباء يمكن زيادتها الى ١٥٠ الف كيلو وات / ساعة ، وهومقدار من الكهرباء يكفى ليس فقط لتشغيل مصانع جنجا أو حتى انارة يوغندا كلها فحسب بل وايضا تزويد كينيا بمقادير كبيرة جدا من الكهرباء . وقد تم الاتفاق حينذاك بالفعل على ان يتم تزويد كينيا بهذا القدر من الكهرباء لمدة خمسين عاما تبدأ من عام ١٩٥٥ ، وذلك فضلا عن اقامة عدد كبير من المصانع في جنجا ذاتها وفى المناطق المحيطة بها . وانشئت عدة مصانع للمنسوجات القطنية والاسمنت ومصانع قطع الخشب وتكرير السكر والسجاير والبيرة وكلها تستخدم الكهرباء في ادارة الآلات ، الى جانب انشاء عدد كبير جدا من المصانع المحلية الصغيرة أو الورش . ومن هذه الناحية التكنولوجية البحتة يمكن اعتبار جنجا نموذجا لمجتمع أوروبى صناعى فى وسط تقليدى متخلف .

والذى يهمنا هنا هو أن هذا التحول الى الصناعة جعل من جنجا مركز جذب للسكان ، ومجتمعا معقدا الى أبعد حدود التعقيد ، بحيث نجد أن السكان فيها فى الوقت الحالى يتألفون من بعض العناصر الوطنية مع عناصر أخرى وافدة ، بعضها آسيوى وبالذات من الهند وباكستان ، وبعض العمال العرب من حضرموت وعدن ، بالاضافة الى بعض العناصر الاوروبية التي تعمل كموظفين واداريين ومهندسين . وأهم هذه العناصر الاوروبية هم الانجليز والايطاليون والدينماركيون على التوالى .. والأكثر من ذلك أن العنصر الوطنى فى جنجا يضم ممثلين من كل قبائل يوغندا الثمانين فضلا عن عدد من الأفراد من كثير من القبائل الاخرى من شرق افريقيا . وهذا كله يوضح لنا كيف أن مناطق الجذب السكانى تتميز فى الاغلب بالتعقد العرقى أو الاثنى ethnic الذى تفتقر اليه المناطق المتخلفة الراكدة التقليدية . ولعل هذا يمثل أهم تغير فى التركيب السكانى نتيجة لتلك الهجرات الداخلية والخارجية التى تنشأ عن النمو الاقتصادى ، وتلازم ظهور فرص جديدة للعمل والكسب ومصادر جديدة للثروة .

واقد كان من الطبيعى ومن المنطقى ان يلازم هذه الهجرات عدد من المشكلات الهامة في كل مجالات الحياة ... فهناك **أولا** المشكلات العنصرية والسلالية الناجمة عن تعدد الانتماءات العرقية والسلالية والقبلية وما يرتبط بذلك من تدرج اجتماعى فى هذا المجتمع الصغير . ويتمثل هذا فى شعور السلالات الاوروبية البيضاء بامتيازها واستعلائها على السلالات الآسيوية التى تشعر بضعفها وتخلفها أمام تلك العناصر البيضاء من ناحية ، وتميزها واستعلائها من الناحية الأخرى على الافريقيين والزنوج . ومن الطريف أن نجد مثل هذا التدرج الطبيعى والاجتماعى بين الافراد الذين ينتمون الى القبائل الافريقية المختلفة ذاتها ، وان كان الافريقيون جميعا ينظرون الى غير الافريقيين من العناصر الأوروبية والآسيوية الاخرى على انهم دخلاء عليهم وعلى المجتمع الافريقى ، وانهم يغتصبون حقوق أبناء البلد الاصليين فى العمل . وهناك **ثانيا** المشكلات اللغوية الناجمة ليس فقط عن اختلاف اللغات الأوروبية والافريقية والآسيوية بل وايضا عن تعدد اللغات الافريقية ذاتها . فالمعروف أن لكل مجموعة من القبائل الافريقية لغتها الخاصة التى لاتكاد تفهم خارج أفراد المجموعة ... ثم هناك **ثالثا** المشكلات الادارية التى تتمثل فى التنافس بين الأوروبيين بعضهم وبعض على المراكز الادارية الكبرى ، خاصة وأن هذه المنطقة كانت من الناحية التقليدية التاريخية منطقة نفوذ بريطانى ، ولكن حركات التحرر والاستقلال جعلت اليوغنديين يشجعون هجرة العناصر الأوروبية الاخرى ، مما نجم عنه نشوب حزازات شديدة بين الانجليز من ناحية وبقية الجنسيات الأوروبية من ناحية أخرى .

انما الذى يهمنا حقا هنا نهو التغيرات التي طرات على **النمط السكانى** فى چنچا نتيجة لذلك، وربمايمكن الاستدلال على هذه التغيرات من بعض الأرقام المتاحة ، رغم انها أرقام قديمة بعض الشيء (٩) .

وتتمثل هذه التغيرات في النمط السكانى من ناحية فى انه ما بين عام ١٩٣٤ وعام ١٩٥٤ الذى تم فيه المشروع ،أى فى مدى عشرين سنة، ارتفع عدد السكان من ٥٠٠٠ نسمة الى حوالى ٨٥٠٠ نسمة ، ولم يلبث ذلك العدد أن ارتفع عام ١٩٦٢ ، اى خلال ثمانية أعوام فقط الى ثلاثين الف نسمة ، اى أن عدد السكان تضاعف حوالى أربع مرات خلال ثمانى سنوات . وليس من شك فى أن هذه الزيادة لايمكن أن تكون نتيجة للزيادة الطبيعية الناجمة عن التناسل والولادة ، وانما هى زيادة فى السكان نتيجة للهجرة .

كذلك حدثت تغيرات هائلة فى البناء العمرى والجنسى للسكان ، ويمكن أن نجمل هذه التغيرات فيما يلى :

(أ) ان ٧ من كل ١٠ من السكان كانوا من الذكور (أى أن ٧٠ ٪ من السكان كانوا ذكورا وهذا يبين مدى الاختلال بين الجنسين عن النسب المألوفة في المجتمعات فى حالتها السوية) .

(ب) ان ٦ من كل ١٠ من السكان كان عمرهم يتراوح بين ٢٠ ، ٤٥ سنة ، وهذه هي سن القدرة على العمل . ومعنى ذلك أن هذا المجتمع يتغير من المجتمعات الشابة التى تضم نسبة عالية جدا (٦٠ ٪ من السكان) من الأيدى العاملة التى تقوم فعلا بالانتاج .(١٠)

(ج) أن ٥٠ ٪ من السكان من الذكور غير المتزوجين .

(د) أن ٥٠ ٪ من المتزوجين النازحين لم يأتوا بزوجاتهم معهم .

(هـ) أن نسبة كبيرة جدا من النساء المقيمات داخل المدينة ذاتها، وبخاصة المتزوجات يمارسن بعض الأعمال فى المصانع والورش ، وفى ذلك خروج على النمط التقليدى السائد فى المجتمعات الافريقية . اذ المعروف أن عمل المرأة الرئيسى فى هذه المنطقة هو الزراعة بينما يقوم الرجل بالرعي فضلا عن جميع الاعمال غير المتعلقة بالزراعة والتى تعتبر **محرمة** تماما على المرأة . ولكن فى چنچا نجد أن الصناعة ، وبخاصة التى لا تحتاج الى مهارات خاصة أو كفاءات معينة ، تقوم بها المرأة ، وبذلك فان المرأة تسهم اسهاما فعالا في النشاط الاقتصادى وقد ترتب على ذلك دخولها الى المجال السياسى حيث نجدها أصبحت عضوا فى الأحزاب السياسية الوطنية هناك ، وأن لم يكن لها في ذلك الحين حق الانتخاب والتصويت .

ويكفى هذا القدر من المعلومات عن چنچا ، وهو قدر يكفى لالقاء الضوء على المشكلة السكانية والاجتماعية التى تنجم عن الهجرات السكانية من المناطق الفقيرة الى المناطق الاكثر غنى والتى توفر للسكان امكانيات كثيرة ومتنوعة

---

(٩) نعتمد هنا فى المحل الاول على الدراسة الحقلية التى قمنا بها عام ١٩٦٢ والتى جمعنا خلالها بعض المعلومات الاثنوجرافية ، وذلك فضلا عن بعض المقالات والكتابات المتوفرة لدينا .

(١٠) الواقع ان كل الارقام تشير الى ان كل الذكور البالغين كانوا يشتغلون بالفعل فى بعض الاعمال ، سواء فى مجال الصناعة او الزراعة وان كانت غالبيتهم تشتغل فى الصناعة . (المصانع او الورش) ، كما أن النساء الموجودات فى المنطقة كان لهن اقارب (ازواج او اباء او ابناء) وان كان هذا لا يمنع من وجود نسبة معينة من نساء المنطقة وليس من المدينة ذاتها وافدات بدون عائل ، ولذا كن يمارسن بعض الاعمال والمهن ، ويقيم هؤلاء النساء فى العادة على اطراف المدينة وليس داخليا نظرا لشدة ازدحام المدينة بالسكان .

العمل ... وواضح من ذلك أن هذا الحراك السكانى تترتب عليه كثير من المشكلات الناجمة عن تعدد الانتماءات والثقافات والمستويات الاجتماعية ، وهى كلها من المعايير التي ترتبط بالمجتمع المعقد أو الاكثر تعقيدا وتركيبا، بينما تختفى من المجتمعات التقليدية المتجانسة الصغيرة المساحة والقليلة العدد .

– ٣ –

وواضح من هذا الى أى حد يؤدى التحرك السكانى الى ظهور المراكز الحضرية وبخاصة حين يكون هذا الحراك الافقى مرتبطا بظهور مشروعات للتنمية الصناعية ، ونشأة مراكز صناعة أو مراكز للتعدين تجذب اليها الايدى العاملة من المناطق الفقيرة . والواقع أنه حتى للهجرات الداخلية من المناطق الريفية الى المناطق الحضرية وشبه الحضرية أثرا كبيرا جدا في اتساع مدى التحضر ، وظهور ليس فقط مدن جديدة بل وأيضا تضخم حجم المدن الموجودة بالفعل وتعقد الحياة فيها . والسائد فى الكتابات الانثربولوجية والسوسيولوجية أن القرن العشرين ، وبالذات النصف الثاني منه ، يعتبر عصر ثورة حضرية جديدة ، ليس فقط بالنسبة للمجتمعات النامية بل وأيضا بالنسبة للمجتمعات المتقدمة ذاتها لدرجة أن هناك من العلماء من يصفون القرن الحادى والعشرين بأنه سوف يصبح بحق عصر المدن الكبرى ، بعكس الحال بالنسبة للقرون الماضية التي تعتبر عصر المجتمعات الريفية أو عصر المدن الصغيرة التى يتعدى تعدادها مئات الآلاف ، أو على أقصى تقدير بضعة ملايين قليلة من السكان . وهذا معناه ببساطة أن « ظاهرة المدن » هى ظاهرة سكانية الى حد كبير من حيث ارتباط التحضر ، على الاقل في المجتمعات المتقدمة ، بكبر حجم السكان وتعقد الحياة الاجتماعية والاقتصادية وكذلك الى الحد الذى تدين فيه هذه المدن بوجودها الى الهجرة من الريف الى المناطق التي تتوفر فيها فرص العمل .

ولقد حاول علماء الاجتماع والانثربولوجيا تحديد المحكات التى يقيسون بها الحياة الحضرية واختلفوا فيما بينهم في ذلك اختلافا كبيرا ، ولكنهم يكادون يتفقون مع ذلك . – مع **لويس ويرث** Louis Wirth في الأخذ **بثلاثة محكات رئيسية هى حجم السكان ، وكثافة السكان ، والتغاير او اللاتجانس فى التركيب السكانى** ... وقد كان معظم الاختلاف يبدو بالذات حول حجم السكان أو على الاصح العدد الذى حين يتوفر فى أى مجتمع محلى يكون ذلك المجتمع قد تخطى الشكل القروى أو الريفى الى الشكل الحضرى .

وبينما نجد بعض علماء الاجتماع مثلا يعتبرون عشرين الفا هى الحد الفاصل بين نوعى المجتمع يرتفع البعض الآخر فى تقديراتهم الى خمسين ألف نسمة أو حتى التى اكثر من ذلك . والواقع ان هذا التقدير لايصدق على كل التجمعات البشرية فى المجتمعات المتخلفة او النامية حيث قد يصل بعض هذه التجمعات الى عدة ملايين دون أن تنطبق كلمة (مدينة) بالمعنى الحقيقي الدقيق عليها . **ولايزال عدد كبير من علماء الاجتماع الحضرى فى الغرب مثلا يتشككون فيما اذا كانت (مدن) مثل بغداد أو دمشق تؤلف مدنا بالمعنى الدقيق للكلمة . بل أن هناك من هؤلاء العلماء من يرون أن كلمة (مدينة) لا تصدق الا على القاهرة وحدها دون غيرها من (مدن) العالم العربي أو حتى (مدن) الشرق الاوسط .**

فمسألة حجم السكان اذن مسألة نسبية الى حد كبير . وهذه النسبية ذاتها تنطبق على المحك الثاني وهو **كثافة السكان** . فحجم السكان أى عدد السكان في المجتمع – لايصلح مهما كبر أن يكون وحده أساسا لتكوين مجتمع حضرى اذا كانت كثافة السكان (أى عدد الافراد فى الكيلو متر المربع مثلا) ضئيلة ، كما

هو الحال حين ينتشر السكان في مساحات شاسعة جدا من الارض . ومن هنا كان **المحك الثالث** ، وهو عنصر التغاير أو اللاتجانس ، يعتبر في نظر غالبية هؤلاء العلماء أهم هذه المحكات فى قياس درجة التحضر . والمقصود بالتغاير هنا أو عدم التجانس هو الاختلاف أو التباين الشديد فى المستويات الاجتماعية والاقتصادية وفى التخصص وفى الانتماءات السياسية والحزبية واعتناق الايديولوجيات المختلفة . (١١)

ومهما يكن من شيء فان العلماء الذين يهتمون بمشكلات السكان وتزايدهم وظهور المدن وكبر حجمها ونموها وبخاصة فى العالم الثالث يهتمون فى دراساتهم بثلاثة موضوعات أساسية تنعكس كلها بالضرورة في المدن الناشئة التي ظهرت نتيجة لمشروعات التنمية، وهذه الموضوعات هي :

أ ــ الناحية الايكولوجية Ecological :
والمقصود بها اختيار الموقع الذى تنشأ فيه المدن وأنواع النشاط الاقتصادى والاجتماعى الذي يرتبط بكل مدينة منها ، بحيث يعتمد هذا النشاط على الموارد الطبيعية المتوفرة فى ذلك الموقع المحدد .

وقد كان الدافع الرئيسي للاهتمام بايكولوجيا المدن هو مانجم من تخريب فى المدن الأوروبية بعد الحرب العالمية الثانية ، والرغبة في انشاء مدن اخرى فى المناطق التى دمرت ، واستدعى ذلك التساؤل عن جدوى اقامة مدن جديدة مكان تلك التى تم تدميرها ، واهم الشروط البيئية التي يجب ان تتوفر فى اقامة هذه المدن الجديدة .

كذلك دفع الى ذلك الاهتمام بالايكولوجيا محاولة ادخال مشروعات التصنيع فى المجتمعات المتخلفة والنامية وبخاصة فى افريقيا حيث كان يتعين على اصحاب رؤوس الاموال ان يختاروا أنسب المواقع لاقامة مراكز الصناعة التي تتوفر فيها شروط النجاح المؤكد .

ب ــ الناحية التنظيمية Organizational
وليس المقصود بذلك التنظيم المادى المتعلق بتخطيط المدينة أو انواع المساكن والمباني أو المرافق والخدمات ، وانما المقصود هو الحياة الاجتماعية فى تشابكها وتعقدها والعلاقات الانسانية التى توجد فى المدينة سواء اكانت هذه المدينة هى المدينة الناشئة نتيجة لتنفيذ مشروعات التصنيع او التهجير أو **المدينة العملاقة** Megalopolis ، وما يترتب على ذلك كله من ظهور مشكلات خاصة بالصراع والتنافس او التعاون بين الجماعات المختلفة التى تقيم فيها .

ج ــ الناحية السيكولوجية الاجتماعية Psycho-social : التى تسود في المدن الحديثه الناشئة ، وبالتالي اهم ملامح شخصية سكان المدينة وما يتعرض له المهاجر الجديد من شعور بالضياع والوحدة والعزلة

---

(١١) راجع مقال : ــ Wirth, L., „Urbanization as a Way of Life''

وهو يعتبر المقال الرئيسى الذى اطلق كثيرا من النظريات والآراء حول ظاهرة التحضر .

راجع ايضا المقال الذى كتبه الاستاذ بارك Park بعنوان « المدينة كمعمل اجتماعى
''The City as Social Laboratory''

حيث يبين لنا فيه كيف ان الباحث الاجتماعى يستطيع ان ينظر الى المدينة بنفس النظرة التى ينظر بها عالم الفيزياء الى المعمل الذى يعمل فيه بحيث يلاحظ اختلافات العناصر البشرية والتفاعل بين هذه العناصر المختلفة وما ينتج عن هذا التفاعل من ظهور هم نظم اجتماعية مختلفة ومتباينة .

حين يأتى لاول مرة الى المدينة . ويظهر هـذا بنوع خاص فى انفصال العمال الوافدين من المناطق الداخليه والقبلية الى المدن الحديثة وانفصالهم عن مجتمعاتهم الاصلية . كما تتمثل في شعور الرجل الامريكي بالضياع فى المدن الامريكية الكبرى وهو الموضوع الذى عالجه بدقة ويزمان فى كتابه The Lonely Crowd .

وتعتبر مشكلة نمو المدن الآن من اهم المشاكل التى تقابل علماء التخطيط فى البلاد النامية والمتقدمة على السواء ، بمعنى ان كل المجتمعات تعانى الآن معاناة شديدة من المشكلات الناجمة عن الاتجاه نحو زيادة معدلات التحضر . ولكن طبيعة هذه المشكلات تختلف في المجتمعات المتقدمة عنها في المجتمعات النامية او المختلفة . والملاحظ على العموم انه قد بدا فى العالم المتقدم بالذات اتجاه نحو خلق وايجاد طراز جديد من المدن يسود الاعتقاد انه سوف يكون النموذج لما يجب ان تكون عليه مدينه المستقبل،وان ذلك النموذج سوف يعم جميع انحاء العالم نتيجة للتقدم العلمى والتكنولوجي ، وهو ما يطلق عليه الآن اسم **« المدينة العملاقة »** Megalopolis التى تتميز تميزا كبيرا عما يعرف **بالمدينة الام** او **المدينة الكبرى** او **العاصمة** Metropolis مثل نيويوركولندن والقاهرة وغيرها من المدن التى يقرب تعداد سكانها من عشرة ملايين نسمة .

والتفكير فى انشاء هذه المدن العملاقة تفكير قديم يرجع الى العصور اليونانية ، حيث تجد اول محاولة لاقامة مثل هذه المدن ، وان كان لا يمكن ان نقيس بطبيعة الحال ضخامة تلك المدينة بما هو قائم الآن ، وبخاصة على طول الساحل الشرقي لامريكا الشمالية . وتتميز هذه المدينة العملاقة بعدة ميزات تعتبر بمثابة الخصائص التي يجب توفرها فى مدينة المستقبل ، والتى يمكن تلخيصها فيما يلى : ـ

أولا : ان المدينة العملاقة ليست « مدينة » بالمعنى الدقيق للكلمة ، وانما هى عبارة عن اقليم متسع يضم عددا من المدن الصغيرة الموجودة الآن بالفعل والتى تعتبر كل منها بمثابة مركز حضرى يدور حوله عدد من التجمعات الريفية او شبه الحضرية التى تمده باحتياجاته من الطعام بل والسلع المصنعة ، مقابل ما يقدمه هو اليها من مختلف الخدمات . وهذا الوضع السائد الآن في المدينة العملاقة الامريكية يعتبر نقطة الانطلاق نحو تخطيط المدينة العملاقةفىالمستقبل . والمعروف أن المدينة التقليدية كانت تتجه فى نموها من المركز نحو الأطراف في كل الاتجاهات بحيث يظل لتلك المدينة مركز واحد ثابت مهما اتسع نطاقها ، أما المدينة العملاقة فانها تنمو ــ ان صحت هذه التسمية ــ وتمتد في اتجاه واحد فقط بحيث تظهر مراكز حضرية عديدة يقوم كل منها بخدمة المناطق التى تقوم حولها ، وبحيث تبدو المناطق الريفية وشبه الحضرية كما لو كانت ضواحى تفصل بين المراكز الحضرية والصناعية المتتالية .

ثانيا : الخاصية الثانية خاصية سكانية تتمثل فى تزايد عدد السكان في تلك المدينة العملاقة زيادة تفوق كل ما عرف حتى الآن في المدن الكبرى ، مما يترتب عليه ظهور كثير من ملامح التغاير السكانى سواء فى الثقافات او السلالات او الاصول الاولى على ماهو حادث الآن فىالمدينةالعملاقة الامريكية . فالمدينة العملاقة تجذب اليها فى العادة عدة ملايين من البشر وليس مجرد بضعه الاف من الناس ، كما هو الحال الآن فى المراكز الصناعية الجديدة . ومع ان علماء السكان والاجتماع والانثربولوجيا والتخطيط ينظرون الى ذلك بكثير من الخوف والارتياع ، الا ان هذه الزيادة السكانية الهائلة فى المدينة

العملاقة سوف تعتبر عاملا ودليلا وحافزا على مزيد من التقدم وليس العكس ، وذلك نظرا لعدة عوامل لاتتوفر فى الوقت الحالى للمدن الكبرى القائمة الآن . وتنشأ هذه العوامل في الاصل عن التقدم الهائل فى التطبيق التكنولوجى في كل المجالات ، وهذا سيؤدى بدوره الى مزيد من العمل والانتاج سواء فى المجال الصناعى او المجال الزراعى .. ففي منطقة الساحل الشرقى لامريكا مثلا ، الذى ينظر اليه كمثال للمدينة العملاقة التى سوف تسود في المستقبل ، تصل الكثافة السكانية الى اكثر من ٧٠٠ شخص للميل المربع الواحد ، بينما هى لاتزيد فى امريكا ككل عن خمسين شخصا فقط . ومع ذلك فان هذه المنطقة تمتاز بالتقدم الهائل فى الصناعة ومعدلات الانتاج الزراعى على السواء ، بل انها تكاد تصبح الآن المركز الثقافى للعالم بأسره على اعتبار ان فيها اكبر الجامعات من ناحية ، واكبر الشركات الصناعية واهم الصناعات الثقيلة من ناحية ثانية ، كما انها تجلب اليها اعدادا كبيرة جدا من العلماء والمفكرين والفنانين من كل انحاء العالم . وقد بلغت بعض هذه الجامعات حجما كبيرا بالنسبة لاعداد الطلاب الذين تضمهم ، واصبح يطلق عليها اسم الجامعة العملاقة او جامعة الاعداد الكبيرة Megaversity وبلغت التخصصات فيها درجة عالية جدا من الدقة والتفرغ .

وعلى الرغم من ان الغالبية العظمى من سكان المدينة العملاقة سوف يعملون فى المراكز الحضرية ، فان مواطن السكن والاقامة ستكون فى المناطق الريفية او شبه الحضرية ، كما ان معظم السكان (الريفيين) سوف يجمعون بين خصائص الحياة الريفية والحياة الحضرية من حيث الثقافة واستخدام الآلات المعقدة فى العمل الزراعى الذى يمارسونه ، مما سوف يترتب عليه قلة الايدى العاملة فى مجال الزراعة الى حد غير مألوف في الوقت الحاضر . والمعروف انه على الرغم من الطابع الصناعى الذى يطبع المجتمع الامريكي بوجه عام ، فان نسبة كبيرة من السكان لا تزال تعمل بالزراعة ، كما ان قدرا كبيرا من العمل الزراعى نفسه لا يزال يدويا اكثر منه آليا ، الا في تلك المنطقة الممتدة بطول الساحل الشرقى حيث نجد لاول مرة ان المشتغلين بالاعمال الزراعية يؤلفون نسبة ضئيلة جدا من مجموع الايدى العاملة فى المنطقة ، مع ان نسبة الانتاج الزراعى هناك اعلى بكثير جدا منها في اى منطقة اخرى فى امريكا ذاتها .

ثالثا : وتتعلق الخاصية الثالثة بالحياة الاقتصادية وبخاصة فى مجال العمل ، ذلك أن المشتغلين بالتخطيط يرون ان العالم مقبل على ما يسمى باسم الثورة فى المجال المهنى أو Job revolution نتيجة للتغيرات التي تحدث الآن في المدن الكبرى من ناحية ، والتحام تلك المدن بعضها ببعض لتكوين مدن عملاقة تتضاءل أمامها هذه المدن الكبرى ، بحيث تصبح مجرد مراكز حضرية تدخل فى تكوينها وتؤدى وظائف وأدوار محددة في بنائها وحياتها من الناحية الأخرى ، وهي وظائف وأدوار تتلاءم والتقدم التكنولوجى الهائل الذى يتمثل على اقل تقدير فى ازدياد الاعتماد على الآلات في الانتاج الزراعى وتطبيق الأوتوميشن فى المجال الصناعى ، وبالتالى الاستغناء عن نسبة كبيرة جدا من الايدى العاملة فى هذين المجالين اللذين يشار اليهما باسم اعمال **الفئة الاولى** primary (الزراعة) **واعمال الفئة الثانية** Secondary (الصناعة) ، وما يترتب على ذلك كله من تحول هذا الفائض من الايدى العاملة الى **الفئة الثالثة** Tertiary وهي الاعمال الخاصة بالخدمات . والواقع ان هؤلاء المشتغلين بالتخطيط في الوقت الحالى يحاولون ان يتعرفوا على مجالات التخصص المختلفة التى سوف تقتضيها ظروف الحياة فى مدينة المستقبل ، وهى تخصصات سوف تبلغ من الدقه ومن التفرع حدا يتمثل فيما اعلنت عنه

اخيرا **مؤسسة القرن العشرين** عن حاجتها الى مهندسين ينتمون الى ما لا يقل عن ٣٩ تخصصا دقيقا فى مجال الهندسة الانسانية وحدها ، حتى يمكن لها تنفيذ أول مشروع من مشروعات المدن العملاقة فى شرق افريقيا .

وكل هذا سوف يقتضى بالضرورة ادخال تغييرات جذرية فى نظرة السكان فى تلك المناطق الى العمل ومعناه، والى ضرورة توفير مجالات جديدة لتمضية أوقات الفراغ ، بمعنى أن المشكلة التى يأخذها علماء التخطيط في اعتبارهم لن تكون هي مشكلة ازدحام المناطق السكنية بالسكان وما يترتب على ذلك من تفشى الامراض وانتشار الجريمة والبطالة كما هو الحال فى الوضع الراهن في المدن الكبرى ، ولن تكون هي انخفاض مستوى الحياة وانخفاض الدخل نتيجة لزيادة العمالة عن فرص العمل المتوفرة ، وانما ستكون بالأحرى هى مشكلة ارتفاع الأجور الى حد غير مألوف حتى الآن وما قد ينجم عن ذلك من مشاكل التضخم النقدى وما اليها ، كما أن انخفاض ساعات العمل الى عشر ساعات أو خمس عشرة ساعة اسبوعيا على الأكثر سوف تدفع الى التفكير فى ايجاد اساليب ووسائل جديدة وغير معهوده لتمضية أوقات الفراغ .

بل سوف يظهر فى المستقبل القريب أن التخصصات القائمة الآن والتى تعتبر تخصصات دقيقة لن تكون كافية ، وأن الامر سوف يتطلب قيام تخصصات أخرى جديدة فى مجال الخدمات، وبخاصة في مجالات البحث العلمي الدقيق واتخاذ القرارات السياسية والادارية ومشاكل الادارة العليا بالذات والاعتماد على السيرتاطيقا فى أداء هذه الاعمال المتخصصة بل واستخدام الاجهزة الحاسبة الاليكترونية فى كثير من الميادين غير الميدان الاقتصادى البحت ، كأن يستعان بها فى اجراء العمليات الجراحية الدقيقة مثل الانفصال الشبكى في العين وما الى ذلك . والواقع أن هناك من الآن ميلا واضحا الى خلق وظائف أخرى جديدة تدخل ضمن ما يعرف باسم وظائف أو **أعمال الفئة الرابعة**، ولكنها كلها لا تزال في بداياتها الأولى .

• • •

كل هذه الامور كفيلة بأن تثير عدة تساؤلات حول شكل الحياة ونوع العلاقات الانسانية فى تلك المدن العملاقة الجديدة ، والى اى حد تتفق هذه الانماط من الحياة مع ما هو سائد فى الوقت الحالى ؟ وهل يمكن تنفيذ واقامة هذه المدن العملاقة فى كل المناطق وكل المجتمعات سواء في ذلك المجتمعات المتقدمة أو المتخلفة ؟ أو أن هناك انماطا أخرى من الحياة الحضرية يمكن الوصول اليها بحيث تتلاءم مع التقدم العلمى والتكنولوجي فى الوقت الحالى ، وبحيث تهيىء فى الوقت ذاته فرصا أحسن وأكثر تنوعا من العمل الذى يحتاج الى التخصص الدقيق ؟

― ٤ ―

الواقع أن الاتجاه نحو انشاء هذه المدن العملاقة كحل لمشكلة زيادة السكان والهجرات السكانية وكاسلوب للحياة فى هذا العالم المزدحم بسكانه يلقى كثيرا من النقد والاعتراض من جانب عدد كبير من العلماء والمفكرين الذين يعتقدون أن قيام هذه المدن سوف يؤدى الى ظهور كثير من المشكلات الجانبية الخطيرة التى سوف تواجه السكان مثل ارتفاع تكاليف

الحياة والعيش فيها (١٢) ، وما تتعرض له اجواؤها ومياهها وتربتها من عوامل التلوث . والمعروف أن **مشكلة التلوث البيئى** تعتبر من أخطر المشكلات التى تواجه العالم الحديث بأسره وبخاصة المجتمعات الصناعية المتقدمة، وهى مشكلة تخصص لها الحكومات الآن والهيئات والاجهزة الدولية المتخصصة كثيرا من العناية والجهد والاموال لبحثها ومحاولة التغلب عليها ، كما يعقد لها الكثير من المؤتمرات الدولية . يضاف الى ذلك أن امتداد هذه المدن العملاقة الى مسافات شاسعة يؤدى الى التباعد بين مقر الاقامة ومكان العمل ، وهذه سمة أساسية تميز المدن الكبرى فى الغرب وسوف تكون أوضح بغير شك في المدن العملاقة ، بل انها بدأت تمتد الى المدن الكبيرة في المجتمعات النامية ذاتها وتسبب كثيرا من الصعوبات والمتاعب لسكانها . وسوف يلقى السكان فى المدن العملاقة كثيرا من العناء والعنت فى الانتقال نتيجة للتزاحم على سبل المواصلات وكثرة حوادث المرور ، وارتفاع تكاليف السفر ، وانه فى كثير من الاحيان قد تفصل مئات من الكيلومترات بين مقر الاقامة ومكان العمل . كذلك سوف يؤدى هذا البعد بالضرورة الى ضياع كثير من الوقت والمجهود ، مما سيترتب عليه انخفاض انتاجية العمال والموظفين اثناء فترة العمل المحددة ، وان كان يمكن التغلب على ذلك بطبيعة الحال باستخدام التكنولوجيا الحديثة المعقدة .. وصحيح أن هناك بعض وسائل التيسير على العاملين في الدول المتقدمة فى هذا المجال وبخاصة فى أمريكا مثل استخدام الهليكوبتر والطائرات العمودية بحيث أصبح الانتقال بالطائرات بين المدن فى أمريكا أمرا من أمور الحياة اليومية وبحيث تستخدم الطائرات بنفس السهولة واليسر الذى تستخدم به الحافلات والسيارات العامة فى الدول والمجتمعات الاخرى ، كما أن هناك بعض المشروعات التى قد تبدو خيالية وصعبة التنفيذ مثل مشروعات الشوارع المتحركة التى كانت تفكر فيها نيويورك ، أو الارصفة المتحركة بما عليها وبمن عليها كما تفكر لندن، لكى تسهل من مشاق الانتقال مع اختصار الوقت . ولكن مثل هذه المشروعات يصعب تنفيذها نظرا لما تتكلفه من نفقات باهظة رهيبة ، كما انها لن تحل سوى مشاكل الدول الاكثر تقدما والاكثر غنى ، وهى الدول التى تعانى أقل من غيرها من المشكلة السكانية.

ولكن الاهم من هذا كله من الناحية الاجتماعية البحتة هو شعور الفرد بالضياع في تلك المدن العملاقة ، وبخاصة الفرد الذى يفد من المناطق الريفية ، وهذا الشعور بالضياع كثيرا ما يؤدى الى الانحراف والجريمة وانتشار الرذيلة بكل الوانها بين هؤلاء الوافدين ، والى ازدياد اتساع الهوة بين السلالات المختلفة التى تؤلف تلك المجتمعات الحضرية المركبة . ولقد كانت أمريكا دائما أكبر مثال لذلك الصراع بين السلالات ، ولكن يبدو أن هذا الموقف انتقل اخيرا الى بعض المجتمعات التى كانت مشهورة بالاعتدال أو

---

(١٢) فالحياة اليومية فى المدن العملاقة سوف تعتمد اعتمادا كبيرا كما ذكرنا على نتائج التقدم التكنولوجى . وهذه التكنولوجيا المتقدمة غالية التكاليف فى الاغلب بحيث لن يقدر عليها غالبية افراد المجتمع ، مما سيؤدى بالضرورة الى ظهور هوة اجتماعية واسعة وسحيقة بين الفئات القادرة على الاستفادة من التطبيقات التكنولوجية للعلم الحديث ، وتلك التى تعجز عن امتلاكها والافادة منها .

التسامح مثل بريطانيا حيث أصبحت التفرقة العنصرية الآن في المدن الكبرى واضحة ولاتقل فى آثارها المدمرة عما هو موجود فى أمريكا ، وذلك نتيجة لازدياد حركات الهجرة السكانية من الخارج ، وازدياد التباعد الاجتماعى بين مختلف السلالات التى تعيش فى المدينة الواحدة واختلاف الثقافات والقيم وأنماط السلوك . وليس من شك في ان هذه الهوة سوف تزداد اتساعا وعمقا نتيجة لازدياد تدهور المناطق الفقيرة فى تلك المدن العملاقة بحيث تصبح هذه المناطق بمثابة (جيوب) للتخلف، بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى وماتؤدى اليه من نتائج وآثار .

ومهما يكن من شيء ، فان الاتجاه الذى ساد لفترة من الزمن بين عدد من المشتغلين بتنمية المجتمعات المتخلفة من امكان اقامة مثل هذه المدن العملاقة فى تلك المجتمعات أو فى بعضها على الاقل مثل بعض مجتمعات شرق افريقيا – كوسيلة لحل المشكلات الاقتصادية والسكانية التى تعانى منها هذه المجتمعات والارتفاع بها الى مستوى الدول الصناعية الحديثة . قد بدأ ينحسر ، واخذ أصحاب هذا الاتجاه يراجعون مواقفهم وحساباتهم فى ضوء الصعوبات والمشاكل التي تلازم قيام هذه المدن ، خاصة وان المدن العملاقة نشأت – كما هو الحال في امريكا الشمالية نشأة تدريجية نتيجة لعوامل النمو الطبيعى Natural growth وان اقامتها في المجتمعات النامية كجزء من خطة التنمية معناه الخلط بين عملية النمو الطبيعي التلقائي التدريجي وعملية التنمية المقصودة التى يخطط لها عمدا والتى يتم تنفيذها خلال فترة زمنية قصيرة ومحدودة بحيث ينتقل سكان المنطقة من حياتهم التقليدية المتخلفة الى اقصى درجات التحضر واكثرها تعقدا خلال هذه الفترة القصيرة ، مما لا يتيح لهم الفرصة الكافية لامتصاص كل الوسائل والاساليب التكنولوجية الحديثة وما يرتبط بها بالضرورة من أنماط الحياة والسلوك . وسوف يؤدى ذلك بغير شك الى تفكك المجتمع التقليدى وتدهوره وضياع القيم الاجتماعية التقليدية مع عدم وجود بديل يمكن ان يحل محلها .

والغريب فى الامر هو أن المناطق النامية التى يراد انشاء بعض المدن العملاقة فيها كلها بلاد لا تعانى ، حتى الآن على الاقل ، من زيادة سكانية خطيرة . فالمعروف ان دول شرق أفريقيا مثلا التى تعتبر فى نظر بعض المخططين الامريكيين المكان المثالي لتنفيذ مثل هذه المدن تعانى من قلة السكان على العموم ، كما ان الكثافة السكانية فيها بوجه عام لا تزيد على شخصين اثنين فى الميل المربع ، وانه يكفى اقامة مدينة او مدينتين كبيرتين لاستيعاب غالبية السكان في اى بلد فى تلك المنطقة وتوفير الحياة الحضرية لهم . يضاف الى ذلك ان هذه المجتمعات النامية لا تملك فى حقيقة الامر رؤس الاموال اللازمة رغم كل ما يقال عن امكانياتها الاقتصادية الكامنة ، كما أنه سوف يكون من العسير عليها امتلاك كل الاساليب التكنولوجية الحديثة وتمثلها واستيعابها بكفاءة فى وقت قصير، فضلا عن قلة المتخصصين الاكفاء ذوى المهارات الحديثة العالية والمتنوعة التى تلزم لقيام الحياة فى تلك المدن العملاقة. وهذا كله سوف يعنى في نهاية الامر ان تقام المدن العملاقة – لو اريد تنفيذها بالفعل – بأموال اجنبية ، كما ان ادارتها واداء الاعمال الخاصة بالخدمات فيها والاضطلاع بأعباء الادارة العليا واتخاذ القرارات التى تعتبر في قمة التخصص المهنى ستكون ايضا فى ايد أجنبية ، وهذا ما يلقى كثيرا من المعارضة من القوى الوطنية المتحررة فى تلك المجتمعات .

ولكن اذا كان الامر كذلك ، فكيف يمكن التغلب على الصعوبات الناجمة عن هجرة الايدى العاملة من الريف الى المدن والى المناطق الاكثر تقدما ــ ولو نسبيا ــ مع تحقيق الميل المتزايد الى التحضر الذى يعتبر احدى السمات الرئيسية التى تميز العنصر الحديث ؟

• • •

يبدو أن هناك اتجاها مضادا تماما لاتجاه انشاء المدن العملاقة قد بدأ يشيع وينتشر بين الكثيرين من المهتمين بشئون التخطيط والتنمية وعلماء الاجتماع الحضرية والانثربولوجيا السكانية بالذات ، ويهدف الى تشجيع اقامة ما يعرف الآن « **المدن الصغيرة الجديدة** New Towns كأفضل واسرع وسيلة لحل المشكلات الناجمة عن التزايد السكانى وهجرة السكان من المناطق الريفية المتخلفة وما يترتب على هذه الهجرة من تدهور الحياة الاجتماعية فى كل من الريف والحضر على السواء . وقد عقد لهذه المشكلة مؤتمر دولى كبير فى موسكو فى الستينات الى جانب عدد كبير من المؤتمرات الاقليمية والقومية . والواقع أن هذا الاتجاه ليس جديدا تماما ، اذ ظهر منذ أواخر القرن الماضى فى بريطانيا وبالذات فى عام ١٨٩٨ على أيدى احد علماء الاجتماع المهتمين بدراسة المشكلات الصناعية والعمال فى المراكز الصناعية البريطانية وكذلك مشكلات الاقامة فى مدينة لندن نفسها ونعنى به الدكتور هاوارد Howard الذى أصدر فى ذلك كتابا عن «**المدن ومشكلاتها فى المستقبل القريب**» .

ولقد بين هاوارد فى كتابه كيف أن المدن الصناعية الكبرى تستقبل كل عام أعدادا كبيرة من المهاجرين الذين يأتون أصلا من المناطق الريفية بقصد العمل وبقصد التمتع بحياة المدينة والمعيشة فى مستويات أكثر ارتفاعا من تلك التى تسود فى المجتمعات الريفية . وقد ادى هذا الى اكتظاظ لندن والمدن الصناعية الاخرى ، وخلق مشكلة ضخمة للاسكان وانتشار الجرائم الناجمة عن تزاحم السكان فى منطقة صغيرة فقيرة متخلفة ، كما ادى من الناحية الاخرى الى هجرة المزارع واهمالها اهمالا يكاد يكون تاما . ومن هنا كان هاوارد يرى أن الحل الطبيعى هو العمل على تخفيض سكان تلك المناطق الحضرية الصناعية المزدحمة ، ليس عن طريق ترحيل العمال الى مناطقهم الاصلية التى وفدوا منها وردهم الى العمل الزراعى ، وانما عن طريق انشاء مدن صغيرة تجمع بين العمل الزراعى والعمل الصناعى . اى ان هذه المدن تقوم فى مناطق ريفية أساسا ولكن تنشأ فيها بعض الصناعات المتقدمة ، وتخطط على منوال المدن الحديثة بحيث تتوفر كل أساليب الحياة الحضرية من تعليم وتسلية ومواصلات وتجارة وما الى ذلك ، بحيث يشعر ساكنها بنفس التعقد فى أساليب الحياة التى يتمتع بها ساكن المدينة نفسها ، وفى الوقت ذاته يمارس جانب من سكان هذه المدن العمل الزراعى فى الحقول مع اقامة بعض المصانع التى تستخدم الحاصلات الزراعية مثل مصانع التعبئة والتعليب وحفظ الخضروات والفواكه وتجفيفها وما الى ذلك .. فكأن الفكرة الاصلية نشأت كنوع من الاستجابة أو رد الفعل للاوضاع السائدة فى لندن حينذاك ، ومحاولة حل تلك المشكلات التى كانت تقابلها تلك المدينة وغيرها من المدن الكبرى .

والظاهر أن هذا الاتجاه القديم الذى ظهر منذ حوالى ثمانين عاما قد وجد له صدى

لدى بعض المنظمات الدولية بعد الحرب العالمية الثانية ، وهى المنظمات التي تهتم بمشكلات الاسكان والتنمية وتزايد النمو السكانى ، بحيث اتخذت هذه المنظمات في كثير من الاحيان هذه الفكرة اساسا لسياستها فى التنمية فى المجتمعات المتخلفة حتى يمكن المزاوجة ، كلما امكن ذلك ، بين النشاط الاقتصادى التقليدى القائم على الزراعة أو حتى تربية الحيوان ، والنشاط الاقتصادى الحديث الذى يعتمد على الصناعة ، اى أن هذه السياسة ترتكز على فلسفة ادخال الحياة الحضرية الحديثة التى تتوفر في المدن — والمدن الصناعية بوجه خاص — الى تلك المناطق المتخلفة ، بدلا من نقل السكان الى المراكز الحضرية المتقدمة . وهذا يؤدى فى آخر الامر الى ملء الفجوة أو الهوة التى تفصل بين المجتمع الريفى التقليدى والمجتمع الحضرى الصناعى ، مما يترتب عليه استقرار السكان فى مناطقهم الاصلية وممارسة تلك الاعمال التى قد ينصرفون عنها فى بحثهم عن حياة أكثر تقدما وثراء .

● ● ●

ومع الأعتراف والتسليم بأهمية هذه (الحلول) التى يقترحها المشتغلون بالتخطيط والتنمية وبعض علماء السكان للتغلب على مشكلة الازدحام التى تعانى منها بعض المناطق ، مع توفير مستوى لائق من الناحية الاجتماعية والاقتصادية ، الا ان كل هذه الحلول تعتبر حلولا جزئية لمشكلة محدودة ، ولا تمس المشكلة الرئيسية بشكل مباشر ، ونعنى بها مشكلة الزيادة السكانية التى لا تكاد تخضع لاية قيود أو ضوابط أو منطق معقول ، بحيث اصبح النمو السكانى المطرد يمثل خطرا على المجتمع الانسانى بأسره لا يقل عن الاخطار التي تهدد البشرية من جراء قيام حروب نووية مثلا . بل أن هناك من الكتاب والمفكرين من يعتقدون ان هذا النمو السكانى الرهيب أشد خطرا أو فتكا بمستقبل البشرية من احتمال قيام حروب نووية ، لان قيام مثل هذه الحروب يتوقف — على الاقل — على ارادة عدد محدود من الدول التى لا يعوزها حسن الادراك وتقدير الامور بدقة ، بينما النمو السكانى موكول الى رغبة وادراك مئات الملايين من الافراد المتزوجين او القادرين على الانجاب . ومن الصعب ان يتفق كل هذا العدد الهائل من الناس على اتخاذ القرار الصحيح السليم ... وسواء استقر رأى علماء التخطيط والتنمية والسكان أو لم يستقر على اقامة مدن عملاقة أو مدن صغيرة ، أو وضع قيود على تحركات السكان من الريف الى الحضر ، ومن بلد لآخر او اطلاق حرية الناس فى تلك التحركات ، فان المشكلة التى يجب ان تكرس لها الجهود هى كيف يمكن التحكم في هذا النمو السكانى المطرد . وربما كانت الدول الاكثر تقدما قد استطاعت الوصول الى بعض الحلول فى ذلك بحيث تتحكم في عدد سكانها ، ولكن الدول الاكثر فقرا وتخلفا لا تزال تفتقر الى مثل هذه الحلول التى تفترض وضع قيود وضوابط على السلوك الجنسى للافراد . وقد تتعارض هذه الضوابط والقيود على الاوضاع السائدة فى الثقافات التقليدية .

وليس ببعيد ما حدث فى الهند نتيجة لتدخل الحكومة ومحاولتها فرض بعض اجراءات معينة على الرجال بقصد تنظيم الزيادة السكانية هناك ، وذلك على الرغم من ادراك الجميع لابعاد المشكلة وما يتهدد

الهنـد من أخطار . فلقد بلغ سكان الهنـد حوالى ٦٤٠ مليون نسمة كما أنهم يتزايدون بمعدل مليون نسمة كل شهر .

ومع ذلـك فلم يفقـد علماء السـكان والانثربولوجيا السكانية والاجتماع والمهتمون بالمشكلة السكانية الامل تماما ، ولا تزال هناك كثير من الاجراءات التى يمكن اتخاذها ،وكلها تدور حول تنظيم هذا النشاط الجنسى بطرق لا تتعارض مع القيم السائدة في المجتمـع ، وبحيث يمكن الوصول في آخر الامر الى الوضع المثالى الذى يتزايد فيه السكان بمعـدلات منخفضة ، كما تنخفض فيه معدلات الوفيات مما قد يؤدى الى استقرار حجم السكان فى العالم ككل وفى كل مجتمع على حدة . ولكن ذلك نفسه يحتاج لبذل كثير من الجهـد من التوجيه والتوعية . وسوف يتطلب ذلك وقتا طويلا ، ولكنه جهد خليق بأن يبذل .

* * *

ماذا يحدث في العلوم البيولوجية

عبد المحسن صالح

من الاسطورة الى الحقيقة

وردت فى اساطير القدماء مخلوقات خرافية ما انزل الله بها من سلطان ، اذ تخيلوا وجود كائنات تجمع فى تكوينها أجزاء مختلفة من حيوانات متباينة ، فلا يزال تمثال أبى الهول، الرابض بجوار أهرامات الجيزة ، تجسيدا لمثل هذه التصورات ، فتراه تارة يحمل راس انسان وجسد اسد فى التصور المصرى القديم ، وتارة أخرى له أجنحة نسر ثم راس امراة وثدياها في التصور الاغريقى ، واحيانا ما ياتى هذا المخلوق بنصفه العلوى على هيئة انسان ، ونصفه السفلى على هيئة ثور ، او يظهر على هيئة حورية من حوريات البحر لها راس امراة وثدياها وشعرها وجسدها ، ثم ينتهى ذلك بذيل سمكة وزعانفها ، أو قد يتصورون هذا المخلوق على هيئة كائن أسطورى له راس اسد وجسم شاة وذنب حية ، .. الى آخر هذه المخلوقات الخرافية النابعة عن تصورات قديمة ورديئة !

لكن .. ما دخل مثل هذه الكائنات الخرافية فى دراسة تتحدث عن انجازات العلماء فى العلوم البيولوجية ؟

ان هذا التصور الردىء القديم قد بدات رائحته تفوح الآن فى معامل نخبة ممتازة من علماء الحياة ، ولقد بداوا بالفعل في تخليق كائنات خطيرة لا تخرج فى فكرتها عن الفكرة التى راودت أجدادنا القدماء ، مع فرق

جوهرى واحد ، ذلك أن المخلوقات الاسطورية التى ذكرناها والتى لـم نذكرها لـم يكن لها وجود الا فى الخيال ، لكن مخلوقاتنا الاسطورية «الحديثة» قد ظهرت جذورها بالفعل فى معامل العلماء ، ومن أجل هذا ــ ولاول مرة فى التاريخ بدأ العلماء فى التراشق فيما بينهم بالاتهامات والاخطار والمصائب التى يمكن ان تحيق بهذا الكوكب ، فلا تبقى مخلوقاته ولا تذر ، ولأول مرة ايضا يضع بعض العلماء أمام المتحمسين لهذه التجارب المثيرة العراقيل والحـدود ، وكأنما بهذا نعود الى افكار كأفكار العصـور الوسطى ، وهى التى حرمت فيها الكنيسـة على العلماء أن يبحثوا فى اسرار الطبيعة ، والا ينشروا أية آراء تخالف آراء الكنيسة !

هل يعنى هذا أن العلماء فى طريقهم الى تخليق كائن يشبه « كنج كونج » العجيب ؟ .. وهل من الممكن اعادة اسطورة فرانكشـتين لتصبح حقيقة واقعة ؟ .. او هل يسـتطيع العلم حقا أن يقوم بتخليق كائن يجمع فى جسده راس انسان ، وجسم فيل ، وأرجل حصان ، وذيل حية .. الى آخر هذه التصـورات الساذجة ؟

ليس ذلك تماما ، وان كانت الفكرة لاتخرج فى أساسها العميق عن مثل هذا التصـور الغريب ، وهى بلا شك ستؤدي الى نتائج لا يمكن لانسان أن يتصور مداها ، ذلـك أن البحوث التى تجريها الآن بعض معامل قليلة خاصة بمثابة سيف ذى حدين : فى حد منه قد تكمن شرور لا يمكن التنبؤ بها ، وفى الحد الآخر تبرق آمال بغير حدود .

اذن .. ما هى قصة هذه البحوث التـى يتكتمها العلماء ، وتقيدها الحكومات بتشريعات معوقة ؟ .. وما هو اثرها فى مجال العلـوم البيولوجية ؟ .. وهل سيفيد منها الانسان ؟ أو هل سترجع عليه بالبلاء والاخطـار التى لا يمكن تجنبها ؟ ..

الواقع أن لكل شيء جذورا قديمة ، لهذا .. فمن الأوفق أن نبدأ القصة من أولها .

•••

من زراعة الاعضاء الى زراعة مقومات الخلايا

من الانجازات العظيمة التى حققها العلماء والاطباء في مجال العلوم البيولوجية والطبيعية تبرز انتصارات لا نكاد نحصيها عدا ، لكن الأمر الاعظم الذى استولى على اهتمام الناس ، واثار فى نفوسهم كثيرا من الاعجاب والجدل والحيرة يتركز فى امكان نقل عضو من انسان وزراعته فى انسان آخر يحتاج اليه ، فاذا بالذى يكاد يموت ، يعيش بكلية غيره ، أو قلبه ، أو بأى عضو آخر يصلح للنقـل والزراعة .. صحيح ان هذه المحاولات البارعة قد حققت نجاحا محدودا فى الوقت الحاضر ، وصحيح أنها تصطدم بصعوبات بيولوجية ؛ اهمها على الاطلاق أن الجسم الحى يرفض دائما الاستجابة لوجود اى عضو غريب فيه ، وصحيح أن العلماء قد تغلبوا فى بعض الحالات على هذا «العناد» الذى يبديه الكائن الحـى ، والذى نطلق عليه اسم **المناعـة الحيويـة** ، وصحيح أن المحاولات لازالت مستمرة للتغلب على هذه الصعوبات ، وهى بالتأكيد تحتاج الى فهم ودراسة وصقل وتطوير .. كل هذا وغيره صحيح ومعروف وشائعة أموره بـين العامة والخاصة ، وكتبت عنه اجهزة الاعلام واطنبت فيه ، وراحت تدعو ((**لبنوك**)) من نوع جديد يطلق عليهـا ((**بنوك**)) **الاعضـاء البشرية** ، أو قطـع الغيـار البيولوجية أو الجسدية التى تحتاجها الأجسام المعطـوبة ، اسوة بما يحدث فى قطع الغيار الآلية ، مع الفرق طبعا بين التكنيك هنا وهناك .

ولقد حاول بعض المتزمتين محاربة زراعة الاعضاء البشرية مرتكزين فى هـذا الى آراء عقائدية أو اخلاقية أو انسانية ، لكن محاولاتهم لم تجد لها صدى بين الناس والعلماء ، نقول هذا لأن هناك ثورة بيولوجية اخرى لا تختلف

كثيرا عن الثورة التى اثيرت حول زراعة الاعضاء البشرية ، أو استبدال عضو بعضو آخر ، لكن الذى يقود هذه الثورة الآن علماء متخصصون ضد علماء آخرين من المهنة ذاتها، والمتزمتون من العلماء هنا يبذلون قصارى جهدهم لمنع زملائهم من التمادى فى هذه الزراعات الجديدة التى قد تؤدى الى عواقب وخيمة .

وليس المقصود بهذه الزراعات ـ التى لم يسمع بها الناس ـ أن ينقل راس انسان ليزرع على راس أسد ، أو ان يحدث خلط بين اعضاء من حيوانات مختلفة لنحصل فى النهاية على مخلوق خرافى من ذلك النوع الذى ورد في أساطير الأقدمين .. الخ ، ليس هذا هو المقصود طبعا ، ولو سعى العلماء الى ذلك لكانوا من الهازلين ، لكن سعيهم يتناول الخلط بين الكائنات من الاساس ، والأساس دائما خلية ، أو بتحديد ادق مكونات هذه الخلية ، أو بتحديد ادق وادق جزيئات محددة فى تلك الخلية !

وقد يبدو ـ من اول وهلة ـ أن مثل هذه البحوث على مستوى الخلية لا تستحق كل هذا الاهتمام ، أو لا تتطلب مجابهات وتحديات بين العلماء ، لكن الأمر اخطر مما يتصور البشر ، اذ لم يحدث فى تاريخ العلم كله أن يحد العلماء من نشاط علماء آخرين ، حتى فيما يختص بتصنيع القنابل الذرية ، ذلك أن عملية الخلط بين خلايا الانواع المختلفة يبشر باخطار قد تفوق أخطار القنابل النووية .

والواقع أن الذعر الذى يسيطر على بعض العلماء من جراء خلط مكونات خلايا بخلايا اخرى قد لا يختلف فى درجته عن درجة الذعر التى قد تصيب رجل الدين الاصيل عندما يفاجا بان كتاب الله قد حدث فيه خلط بما ليس فيه او منه ، فهو يعلم أنه فى ((لوح محفوظ)) ، ((وانه لكتاب عزيز لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد))(سورة فصلت..آية ٤١ـ٤٢)).

وبمثل هذا المفهوم ايضا ، او بشىء قريب منه يصرخ **الفريد فيلوشى** عمدة الاجتماعات العلمية محذرا ومنددا باللعبة مدينة كمبريدج الامريكية فى احدى الاجتماعات العلمية محذرا ومنددا باللعبة الخطرة التى يقوم بها العلماء فى جامعة هارفارد الشهيرة والتى تقع فى حدود اختصاصه ، وهى واحدة من الجامعات القليلة الشهيرة بالسبق فى بحوث عمليات الخلط بين مكونات الخلايا من الانواع المختلفة للكائنات ، وكأنما فيلوشى يخشى على مدينته من وباء مدمر قد يخرج من معامل العلماء يوما ، ولهذا يلوح مهددا « انالله وحده يعرف ماذا يمكن انيزحف علينا من هذه المعامل القريبة منا ، اذ ربما يخرج منها وباء مدمر لا يستطيع احد أن يجد له علاجا ،او ربما ينطلق منها « غول » « رهيب » ! .. ثم يتساءل فيلوشى « هل يسعىالعلماء حقا الى تحقيق حلم فرانكشتين وجعله حقيقة واقعة من خلال هذه البحوث المدمرة ؟ » .

لكن مما مما شك فيه ان **فيلوشى** كان يتدخل فيما لا يعنيه فهو اولا وأخيرا لا يدرك المغزى العميق من هذه البحوث التى قد تحدث تطورا هائلا فى فهمنا للاسس البيولوجية التى تقوم عليها الكائنات ، ثم هى قد تقودنا الى انجازات ربما لا يستطيع العقل البشرى ان يسبر أغوارها ، فالامر لايهم فيلوشى بقدر ما يهم العلماء ، ولا شك انهم ـ اى العلماء ـ يستاءون اشد الاستياء عندما يتدخل فى أمورهم من لا يفقه شيئا فى مغزى بحوثهم ، لكن الامور قد تطورت فى الوقت الحاضر تطورا خطيرا ، وتدخلت فيها الهيئات والحكومات ، وعقدت لها المؤتمرات والندوات ، وجرت حولها مناقشات لم تنته حتى يومنا هذا ، وقد تستمر لسنوات طويلة ، ولقد وضعت لهذه البحوث مواصفات ، وسنت لها شرائع

واحكام ، وهذا ما اثار ثائرة العلماء المهتمين بمثل تلك البحوث التي سوف نعرضها علك ، لتعلم الى اى عصر من عصور العلوم البيولوجية نحن مقبلون .

• • •

تخطى حدود الخالق فيما خلق !

لكى نتصور ابعاد المرحلة الحالية والمقبلة التى يتناولها العلماء فى بحوثهم البيولوجية ، كان علينا ان نتصور اننا قد زاوجنا بين انسان ذكر وقردة انثى ، او العكس ، أو اننا قد فعلنا الشيء نفسه بين حمار ولبؤة ، او بين بطة وديك ، او بين قط وفأرة ،حتى بين نبات وحيوان .. او اى نوع من انواع الكائنات نشاء .

وهذا بلا شك نوع من انواع الافكار الرديئة، اذ لم يحدث هذا لا فى الواقع ولا فى الخيال ، ولو حدث بطريق الخطأ او عن طريق وسيلة من وسائل العلم التجريبى ، لما ادى ذلك الى نتيجة تذكر ، ذلك أن الخالق قد وضع لكل نوع من الكائنات حدوده ، وقدر له سلوكه ، وارسى فيه الاحكام المعوقة لمثل هذا الخلط العشوائى بين الانواع ، اذ لو حدث مثل ذلك، لكانت الفوضى ، والحياة لا يمكن أن تقوم على فوضى !

لكن العلماء قد تخطوا حدود الله فى خلقه ، وفعلوا بالكائنات ما يجعلنا نحسب للمستقبل الف حساب وحساب ، ثم ان تخطى مثل هذه الحدود قد يصيب اصحاب العقائد بالفزع والقنوط ، فليس من حق الانسان ان يتدخل فيما خلق الله بالتغيير والتحوير والتبديل ، ولكن العلماء لهم وجهة نظر اخرى ، ذلك انهم يفعلون ما يفعلون من اجل رفاهية هذا الكوكب ، بما فى ذلك السيطرة على معظم الامراض الخطيرة التى تصيب الانسان والحيوان والنبات ، ثم ان تخليق انواع من الكائنات الجديدة قد يؤدى الى الحصول على خيرات كثيرة لا هى مقطوعة ولا ممنوعة !

ونقول هنا ان العلماء يسعون الى تخليق انواع جديدة لاخلقها ، ذلك أن التخليق غير الخلق ، فالخلق ابتكار ، اما التخليق فتقليد، وشتان ما بين هذا وذاك ، فالخلق لله ، والتخليق او التقليد للانسان !

لكن .. كيف توصل العلماء الى انتاج مخلوقات جديدة عن طريق التزاوج بين أنواع من الكائنات لا تنتمى لبعضها فى قليل او كثير؟

الواقع ان ذلك قد تم على مستوى الخلايا ، وليس على مستوى الكائنات الكبيرة ككل .. صحيح ان الاساس فى التزاوج بين الكائنات من النوع الواحد هو خلط المكونات الوراثية للذكر بالمكونات الوراثية للانثى ، ومن هذا الخلط يأتي مولود جديد يختلف عن والديه فى بعض التفاصيل ، لكنه لا يزال يحتفظ بصفات النوع الاساسية ، فالانسان لا يلد الا انسانا ، ولا تنجب القرود الا قرودا ، وعلى هذه الوتيرة تكون ملايين الانواع من المخلوقات .. بداية من الميكروب والدودة والحشرة والنبات ، حتى الحصان والقرد والانسان !

ثم ان عملية التزاوج او الخلط بين مكونات الذكر والانثى تتم اساسا عن طريق الخلايا الجنسية ، فالذى يمثل الذكر خلية جنسية ذكرية (حيوان منوى) ، والذى يمثل الانثى خلية جنسية انثوية (بويضة) ، ومن اندماج هاتين الخليتين فى خلية واحدة ، تتحدد صفات المخلوق من البداية .. اذن فالبداية دائما خلية ، وعلى هذه البداية بدأت بحوث العلماء فى عصرنا الحاضر تتخذ نغمة اخرى لم تعرفها الحياة على هذا الكوكب منذ أن نشأت بكائنات جد بسيطة من حوالى ثلاثة آلاف مليون عام .

اذن .. فلنبدأ من البداية .

• • •

الاساس دائما خطط وراثية فى خلية

كل المخلوقات ــ صغيرها وكبيرها ــ تتكون من خلايا ، فالانسان البالغ مثلا يضم فى جسده اكثر من ٦٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ خلية (اى ٦٠ مليون مليون) ، ولا شك أن هذا العدد الهائل قد نشأ من خلية أولى ملقحة ثم اذ بها تنقسم وتمر بمراحل محددة ، فتتطور الخلايا ــ التى كانت تبدو متشابهة ــ الى أنسجة وأعضاء مختلفة ، رغم أن الاصل واحد ، ولقد دأب علماء الخلية والوراثة على دراسة سر هذا التطور أو التحول منذ عشرات السنين ، وجمعوا فيه حقائق كثيرة لا تكفيها دراسات طويلة ، ولهذا فلن نتعرض لها هنا ، حتى لا نخرج عن موضوعنا الاساسى ، لكن يكفى ان نذكر ان سر هذا الاختلاف بين خلايا المخ والامعاء والعضلات والعين والجلد والغدد ... الخ ... الخ ، يكمن فى الخلية ذاتها ، فهى تمتلك المفاتيح او الخطط الوراثية التى تحولها الى خلية فى لسان أو رئة أو قلب أو طحال أو كبد ... الخ ، ثم ان الخلايا ــ فى مراحل محددة من تطور الجنين ــ « تتفاهم » مع بعضها بلغات كيميائية على درجة هائلة من الدقة والتعقيد ، ومن خلال هذه اللغة الرائعة تؤثر في بعضها ، فتتحرك وتهاجر وتتماسك وتتحد وتتميز فى أنسجة وأعضاء شتى ، ولقد اجرى العلماء ــ فى هذا المجال ــ تجارب كثيرة هادفة قادتنا الى أسرار ضخمة وعظيمة عن ابداع الله فى خلقه ، وليتبين لنا بحق أنه « خلق كل شىء فقدره تقديرا » .. ولا يزال العلماء يبحثون فى هذه الامور للكشف عن المزيد من أسرارها الرائعة .

على ان السر الاعظم يكمن في الخلية ذاتها ، فهى ــ والحق يقال ــ مخزن أو مستودع بديع لاسرار هائلة ، ولا يزال العلماء فى العالم يحصلون من الخلية على مئات وربما آلاف الاسرار سنويا ، حتى ان عدد البحوث البيولوجية المختلفة ــ التى نشرت فى المجلات العلمية المتخصصة ــ تربو على عشرات الالوف ، ان لم يكن مئات الالوف ، ورغم ذلك فلا تزال الخلية تحتفظ فى جعبتها بأسرار اكثر وادق وأعمق ، حتى ليبدو لنا أن أسرارها لن تنتهى بدا .

ورغم أن عطاء الخلية كثير وغزير ، الا ان أعظمه على الاطلاق يكمن فى جزىء واحد له بناء عجيب .. هذا الجزىء يعرف علميا باسم حامض « دى اوكسى ريبونيوكليك Deoxyribonucleic acid » أو « ح د ن » من باب الاختصار ليس الا ، أو اذا أردنا اسما شائعا فلنسمه الحامض النووى ، لانه يوجد ــ فى اغلب الاحيان ــ في نواة الخلية .

واذا كنا قد سمعنا عن عصر البخار والكهرباء والآلة والذرة والصاروخ ، فان عصرنا هذا سيشهد ثورة هائلة فى عالم الحياة والاحياء ، وسوف يطلق عليه ــ ان آجلا او عاجلا ــ عصر الجزىء ، او بالتحديد عصر الجزىء الوراثى « ح د ن » الذى سبق ان أشرنا اليه !

فاذا كان الناس يعتبرون أن آدم أبو البشر ، فان هذا الجزىء « ح د ن » ــ بلا شك ــ هو « آدم » كل الجزيئات العضوية ، وهو « ادم » الخلايا ، وهو أيضا « آدم » كل المخلوقات .. بداية من الفيروسات والميكروبات حتى ننتهى بالانسان سيد المخلوقات .

وعلى آدم الجزيئات هذا تركزت البحوث وتعمقت منذ حوالى ربع قرن من الزمان ، فهو بمثابة « الكتاب المكتوب » أو « اللوح المحفوظ » لكل نوع من ملايين الانواع من المخلوقات التى ظهرت على الارض منذ آلاف الملايين من السنين .

وفى هذا اللوح او السجل الوراثى العظيم بدات خطة التغيير والحذف والتبديل والتزييف ، وكأنما العلماء هنا « يلعبون لعبة

الله فى مخلوقاته » على حد تعبير الباحثين فى هذا المجال .

ولكى تستوعب معنا خطورة هذه اللعبة المثيرة ومغزاها في حياتنا الحاضرة ، أو فى حياة الاجيال القادمة ، كان لا بد ان نطلعك على بعض اسرار هذا الجزىء العظيم باختصار شديد .

●●●

من الجزىء الباعث الى الرسول !

ان أعظم ما فى بحوث الحياة الآن هى تلك البحوث التى تتعامل مع ما يسمى **بعلوم الحياة الجزيئية** Molecular Biology ، ذلك ان حياة كل مخلوق وفد ويفد الى هذا الكوكب انما تعتمد اساسا على خطة محددة ، وتنفيذ متقن ، وتفاعل مقدر ، وتجاوب مقنن ، وهدف عظيم لا خلل فيه ولا فوضى ، حتى لكأنما لهذه الجزيئات فى عالمها اقدار ومخططات ورسالات لا تختلف كثير عما نعرفه فى حياتنا اليومية .

فهناك الجزىء الباعث ، وهو الحامل للخطة الوراثية ، وهو المعبر عن كل صفة من الصفات التى تتميز بها الكائنات الحية ، ولهذا كانت له السيادة على كل الجزيئات الاخرى التى تزخر بها الخلية الحية ، ومن هنا فقد وضعته الحياة فى مكان امين حتى لا يختلط بالجزيئات الاقل شأنا .. وجزيئات الباعث أو « السيد » هو « ح د ن » ، ومكانه او « لوحه المحفوظ » هى نواة الخلية .

وهناك ايضا **الجزىء الرسول** Messenger ويعرف علميا باسم حامض ريبو نيوكيك او « ح ر ن » من باب الاختصار (Ribouucleic acid or R N A) وهو قريب الشبه من باعثه « ح د ن » ، لكنه لا يرقى اليه ، فقد حذف منه الباعث شيئا ، واضاف اليه شيئا (بالطبع حذف واضاف اشقاق كيميائية) ،

ومن هذه « السياسة » الكيميائية الجزيئية الحكيمة لايستطيع « الرسول » الجزيئى ان يتصرف في مقدرات الخلية الوراثية بحال من الاحوال ، فكل مهمته ان يخرج من ساحة باعثه بالخطة الوراثية المسجلة فى كيانه بجزيئات كيميائية خاصة ، وهو لا يستطيع ان يبدل او يغير فيما خرج به ، حتى ولو كان فى ذلك خطأ يحتمل او لا يحتمل (ومن هذه الاخطاء تظهر كثير من الامراض الوراثية نتيجة لخطأ حل بالخطة التى يحملها الباعث ح د ن) .

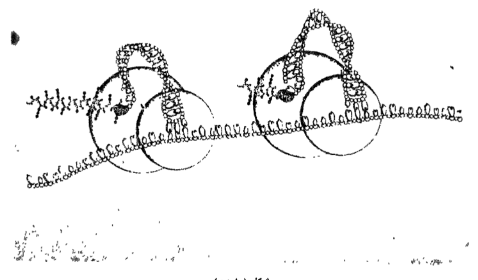
وفى ساحة الخلية توجد ملايين فوق ملايين من مصانع او مطابع دقيقة تسمى ريبوسومات Ribosomes (شكل ١ أ ، ب) ، وفى هذه المطابع تنفذ الخطة التى يحملها الرسول ، وعلى اساسها تخرج البروتينات والخمائر (الانزيمات) ، هذا ويقدر العلماء ان كل خلية من خلايا الانسان تحتوى على أكثر من مائة الف خطة ، لصناعة مائة الف نوع من البروتينات والانزيمات ، وأى خطأ فى الخطة ، ينعكس على خطأ فى البروتين او الخميرة ؛ فيؤدى هذا الى عملية كيميائية خاطئة ، أو الخمائر هى بمثابة الهيئة التنظيمية او الادارية فى ساحة الخلية ، وهى التى تشرف على كل خطة كيميائية ، وتنفذ كل عملية حيوية ، وهى التى تهدم وتبنى ، وهى التى ترمم وتعالج ، ومنها ما يحارب ويذيب كل جزىء غريب دخل الى الساحة . . . بالاختصار فهى التى تقوم عليها اعمدة حياة الخلية ، ولكن على اساس خطة محددة تهيمن عليها جزيئات « ح د ن » الكامنة هناك فى النواة .

لهذا ، فان التلاعب او التغيير فى جزيئات الخلية الاساسية او الوراثية أى (د ح ن) ، انما هو تلاعب بصفات المخلوقات التى اوجدها الله ، وسوف يؤدى ذلك الى بعث خطة دخيلة تؤدى ايضا الى عملية كيميائية لم تعرفها قبل ذلك على الاطلاق .



شكل (١ ا)

صورة بالميكروسكوب توضح تراص المورثات أو الجينات وفيها تظهر آلات تصنيع البروتينات على هيئة نقط صغيرة متراصة على جدار خلوية داخلية خاصة ، الا أن هذه الآلات الجزيئية (أو النقط) لا تكاد تبين لقصور كبير فى قوى الميكروسكوبات الالكترونية ، وقد استعان العلماء على توضيح بعض تفاصيلها بطرق فيزيائية وكيميائية تطول شرحها (انظر شكل ١ ب) .



شكل (١ ب)

نموذج توضح تفاصيل أكثر لوحدات تصنيع البروتينات (أى الريبوسومات) وفيها يمر الشريط الرسول أو المبعوث ، ((فيفهم)) الشفرة المسجلة عليه ، وتبدأ فى عملية تجميع الأحماض الأمينية (وهى الوحدات الصغيرة التى تكون ألف باء البروتينات) فى جزيئات بروتينية كبيرة ، مثلها فى ذلك كمثل تجميع الحروف فى المطابع لتكوين جمل وفقرات .

على ان اعظم التنظيمات او المخططات الدقيقة التي اكتشفها العلماء في نواة الخلية قد أوحت للعلماء بمزيد من التلاعب ، ذلك ان كل صفة وراثية ، او عملية حيوية ، تتحدد عن طريق معلومة معينة تعرف باسم **المورثة او الجينة** Gene ، وقد نرى هذه المورثات او او الجينات احيانا وهي تتراص على هيئة عقد او حبات (شكل ٢) ، فاذا ارادت الواحدة منها ان تنفذ امرا لصالح الخلية ، كان لا بد ان تخرج من انطوائها ، وتظهر لنا على هيئة شريط دقيق غاية الدقة ، ولقد امكن تصوير هذا الشريط بالميكروسكوبات الاليكترونية (شكل ٣) ، وقد لا يثير هذا الشريط في نفسك عجبا ، لكنك او اطلعت على باطنه لرأيت ثم رأيت نظاما عجيبا، وبناء فريدا، ثم انك لو استطعت أن تقرأ لغة الحياة على هذا الشريط كما يقرؤها العلماء ، لعرفت أبدع سر طوته الحياة عن العيون وعن العقول ، ولعلمت انها تتخذ لنفسها « شفرة » Code من مركبات كيميائية أربعة لاغير (هى آدينين وثايمين وجوانين وسيتوزين Adenine, Thymine, Guanine, Cytosine .. وكل مركب من هذه المركبات يتالف بدوره مع جزيء خاص من السكر (اسمه ريبوز Ribose) وجزيء آخر اسمه فوسفات ، وكل وحدة متآلفة من هذه الوحدات تسمى نيوكليتدة Nucleotide وهى رمز الشفرة .. فكأنما كل شفرة من هذه الشفرات الاربع تقابل حرفا من حروف لغتنا ، وهذا يعني ان ملايين الانواع من المخلوقات ـ مما نرى ومما لا نرى ـ قد قامت وسارت وتحددت كل صفاتها من خلال هذه الشفرة الكيميائية الرباعية المتراصة على هيئة سطر او شريط كيميائي له في عالمه الدقيق شأن عظيم ، وملك قويم (شكل ٤).

لكن شريطنا الوراثي لايوجد آحادا ، بل يتجمع أزواجا أزواجا ، بمعنى ان الشريط يتزاوج او يرتبط بالشريط الآخر وجها لوجه، ولهذا الارتباط قوانين كيميائية لا تحيد عنها الجزيئات ولا تميل ، ومن هنا نرى الآدينين يرتبط دائما بالثايمين ، والجوانين بالسيتوزين (ا مع ث ، ج مع س ـ شكل ٥) .. اضف الى ذلك ان نمو الخلايا والكائنات يرجع اساسا الى هذا الشريط المزدوج ، اذ انه يستطيع ان يصنع نسخة طبق الاصل من ذاته (شكل ٦)، ومن هنا تتضاعف اعداد الخلايا ، وتنمو الكائنات ، وتحتفظ كل الانواع بصفاتها التى جاءت عليها ، ما لم يحدث خطأ او تلاعب او تبديل فى النظام .. وهذا ما سعى اليه الانسان فى عصرنا الحالى ، بعد ان عرف بعض اسرار الحياة المطوية .

اذن .. كيف حدثت اللعبة فيما خلق الله فقدر ؟ .

●●●

الخلية تمتلك ادواتها « الجراحية » !

الواقع ان اللعبة قد نشأت من الخلية ذاتها ، فعندما اكتشف العلماء سرها ، وعرفوا سلاحها ، نفذوا مخططاتهم بنفس السلاح المكتشف .

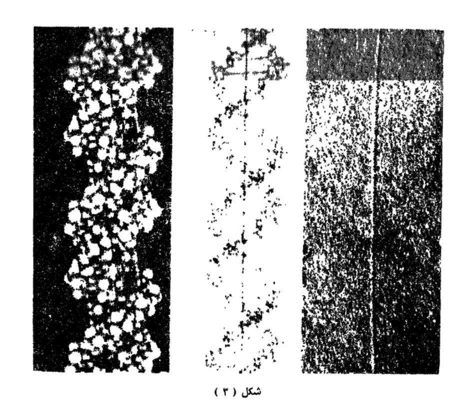
ففي عام ١٩٦٧ وما بعدها ، اكتشف العلماء عددا من الانزيمات او الخمائر المثيرة فى بعض الخلايا الميكروبية ، وتبين ـ فيما بعد ـ ان الخلايا تستخدم هذه الانزيمات كما نستخدم نحن المقصات والمباضع والابر وخيوط الانسجة فى العمليات الجراحية التى نجريها في مستشفياتنا .

بمعنى آخر نستطيع ان نقول ان الخلية تمتلك الأداة او الادوات الكيميائية التى تستطيع ان تصلح بها شأنها ، وترمم ما تهتك من مرافقها ، وتوصل ما تقطع من كيانها ، ثم هي قد ملكت أيضا الانزيمات التى تمكنها من



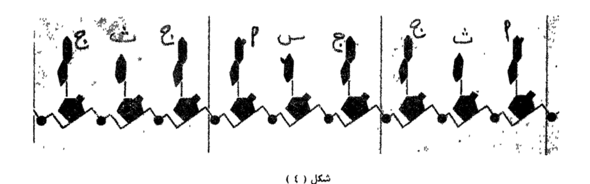
شكل (٢)

صورة بالميكروسكوب توضح براص المرثات أو الجينات على هيئة حبات أو عقد على واحد من الكروموسومات ، وفى داخل كل جينة يوجد شريط وراثى مطوى ، ويحمل خطة وراثية محددة ، مسئولة عن عملية حيوية واحدة مقدرة (طبيعى ان الشريط لا يمكن ان يرى هنا لضعف التكبير) .



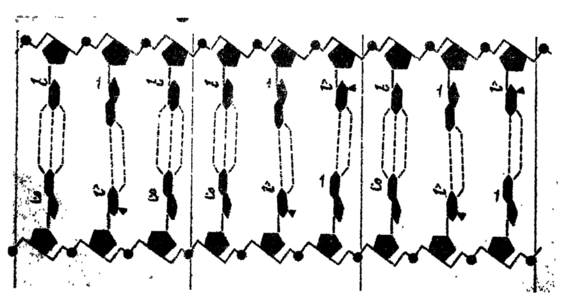
شكل (٣)

الشريط الوراثى ح د ن كما يظهر تحت الميكروسكوب الالكترونى مكبرا عشرات الالوف من المرات (الى اقصى اليمين) . وفي الوسط تتضح بعض تفاصيله الخارجية (أو حدوده) كما أظهرتها التحاليل الكيماوية والخواص الفيزيائية ... والى اليسار نموذج المكونات الذرى المعقد للشريط نفسه .



شكل (٤)

نموذج يوضح شفره الحياة الثلاثيه على أحد أنصاف جزىء الشريط الوراثى .. فالشفرة الثلاثية ا ث ج تعنى أمرا محددا فى حياه الخليه ، وهى تختلف عن مضمون الشفره المجاورة ج س ا ، والشفرة ج ث ج (هذه الحروف ليست الا اختصارا لاسماء قواعد كيميائية فى جزيئات ح د ن الوراثية)



شكل (٥)

تتآلف شفرة الحياة في شرائطها دائما أزواجا ... وكل زوج يعرف زوجه ويرتبط به دون سواه ، فالأدنين (أ) لا يتآلف الا مع الثامين (ب) وكذلك لا يرتبط الجوانين(ج) الا بالسيتوزين (س) .



شكل (٦)

تتكاثر جميع الكائنات عن طريق تكاثر الشريط الوراثي ،ويظهر هنا وهو يضاعف ذاته ، أو كأنما هو يكون نسخه أخرى طبق الأصل من النسخة القديمة ، فيصبح الشريط شريطين ، أو الخلية خليتين .

تقطيع او وصل شريطها الوراثى فى أماكن محددة ، أو لتدمير اشرطة وراثية غريبة قد « تدنس » ساحتها .

وبدون الدخول فى التفاصيل أو المعمعة العلمية نقول ان العلماء قد أخذوا هذا السر من الخلية الحية ، وتساءلوا : ما دامت الحياة تمتلك هذه الادوات الدقيقة التي تستطيع ان تقص الأشرطة الوراثية وان توصلها ، فلماذا لا نقوم نحن بعزلها ودراستها ومعرفة اسرارها، ثم بعد ذلك نستخدمها فى عملية « زرع » أو « تطعيم » أو « تهجين » وراثى بين شرائط خلايا الكائنات المختلفة ؟

ومن خلال هذه الفكرة العظيمة بدأ العلماء بالفعل فى اجراء ادق عمليات « جراحية » غير منظورة ، ونقول غير منظورة لان الادوات المستخدمة فيها لا ترى على حقيقتها وهى تقوم باجراء ما وقر في عقول العلماء من افكار، ذلك ان هذه الادوات تقع ـ لدقتها المتناهية ـ فيما وراء حدود عيوننا و « عيون » مجاهرنا الضوئية وربما الاليكترونية ايضا ، لكن نتيجة هذه العملية الدقيقة جدا سوف تتضح من خلال تغير صفات الخلية او الكائن ، فاذا اكتسب صفة وراثية جديدة ومحددة ، دل ذلك على نجاح العملية ، واذا كان غير ذلك ، دل على الفشل ، ولابد ـ والمجال كذلك ـ من تطوير وتحوير وصقل العملية حتى يمكن أن تعطى ثمارها المرجوة .

اى كأننا نعود بذلك الى ما وقر فى خيال القدماء من وصل أجزاء من كائنات مختلفة لتعطى مخلوقا اسطوريا ، ولكن ذلك ـ كما ذكرنا ـ خيال سقيم ، أو كأننا نعود ايضا الى فكرة تطعيم نبات على نبات من نفس السلالة او النوع ، كأن نطعم مثلا البرتقال على النارنج والخوخ على البرقوق ، والكمثرى على السفرجل .. الخ ، فيكون النبات من نباتين: المجموع الجذرى لنبات ، والمجموع الخضرى للنبات الاخر ، أو قد نرى ثمار هذا وذاك على اصل واحد .. وهكذا ، وطريقة وصل نبات بنبات قريب الصفات منه جدا معروفة منزمن طويل ، ولقد افادت الانسان فى الاحتفاظ بجودة الصنف فى الثمار ، ومقاومة الامراض ، وسرعة الاثمار ، واستكثار نباتات فى تربة لا تلائم نمو جذورها ... الخ .

ثم انتقلت فكرة التطعيم من عالم النبات الى عالم الحيوان ، واراد العلماء تطبيقها فى الانسان والحيوان ، وهذا ما عرفناه حديثا بزراعة الاعضاء ، ونقلها من انسان لانسان ، او من حيوان لآخر .. صحيح أن الهدف من التطعيم وزراعة الاعضاء مختلف ، لكن الفكرة واحدة ، والاساس واحد ، وهى تقبل انسجة لكائن في كائن آخر من نفس سلالته ونوعه .

• • •

بحث بيولوجى للجسد :

على ان فكرة الخلط او الالتئام بين انسجة النوع الواحد قد انتقلت من حيزها الواسع المنظور ، الى حيز دقيق غير منظور ، ونعنى بذلك ان نقل الانسجة والاعضاء من كائن لآخر قد حل محله نقل اجزاء من خلية الى خلية اخرى ، ويعرف ذلك باسم **عمليات الجراحة الدقيقة للخلايا** Cellular Micro-surgery .

لكن قبل ان نتعرض لبعض تفاصيل موضوعنا الاساسى ، وهو خلط الصفات الوراثية بين الانواع المختلفة عن طريق الاشرطة الوراثية التى اشرنا اليها قبل ذلك ، كان لابد ان نشير الى بعض الانجازات الهامة التى تمت فى العلوم البيولوجية ، والتى لها صلة وثيقة بموضوعنا هذا ، ومنها سنرى كيف ان البحوث تتطور ، والافكار تتبلور ، والتجارب تتعمق وتصقل ، لتصل الى اعمق اسرار الحياة، والزمن وجهود العلماء كفيلان بالاتيان بكل ما هو مثير وعجيب .

فى الكائنات الراقية يتم التزاوج بين الذكور والاناث ، وفى التزاوج يحدث التلقيح بين خلية جنسية ذكرية ، واخرى انثوية ، تتحد مع هذه مع تلك ، فيؤدى ذلك الى سبيكة وراثية جديدة لايمكن ان تتكرر أبدا بين ضفدع وضفدع ، وحمار وحمار ، وانسان وانسان . يستثنى من ذلك فقط حالة التوائم المتماثلة او المتطابقة Identical twins ، لانها تنتج من السبيكة الوراثية ذاتها ، وذلك بعد أن تنفصل هذه السبيكة الموحدة الى جزئين أو نصفين متشابهين ومتماثلين تماما (من حيث الصفات الوراثية بطبيعة الحال) ، وعندما ينمو كل نصف ليعطى جنينا مستقلا ، فكان الجنينين يكونان متشابهين ومتطابقين فى كل صفاتهما الوراثية .

لكن بعض التجارب التى يجريها علماء النبات على النبات ، وعلماء الحيوان على الحيوان ، قد الغت هذه الطريقة ــ طريقة التزاوج بين الذكر والانثى ، وامكن الاستعاضة عنها بالحصول على نباتات جديدة من النبات نفسه ، او حيوانات من الحيوان نفسه ــ ليس ذلك عن طريق خلايا جنسية فى انابيب الاختبار او غير ذلك مما يجول فى العقول من أفكار ، بل جاء عن طريق خلايا جسدية ، وهذا هو الامر المثير والغريب .

يعنى هذا ــ ببساطة شديدة ــ اننا نستطيع ان ناخذ خلية جسدية من امعاء ضفدع ليخرج منها ضفدع طبق الاصل من الضفدع الاول ، او قد نحصل على خلية من ذنب ذئب ، لتعطى ذئبا ، او من عين عصفور ، لتكون عصفورا ، وما قد يجرى على الضفادع والعصافير والذئاب قد ــ يجرى ــ من حيث المبدأ ــ على الاسماك والقرود والحمير والبشر ــ فالاساس واحد ، وان اختلفت الصور !

هذه اللعبة الخطرة قد نجحت بالفعل مع بعض النباتات والحيوانات ، وقد تنجح مع سائر أنواع الحيوان ، بما فى ذلك الانسان ،

الا ان نجاح ذلك يحتاج الى تفهم أعمق ، والى « تكنيك » اقوم ، وبحوث أعظم ، وامكانيات اضخم ، اذ ليست أسرار الحياة بالامر الهين .

لكن تدخل الانسان فى شئون الخلق ، واحلاله التكاثر عن طريق اندماج الخلايا الجنسية بعملية التزاوج الطبيعية المعروفة ، محل التكاثر عن طريق الخلايا الجسدية قد يؤدى الى تصورات رديئة وعويصة ، وان ذلك يستلزم تغيير الشرائع والسنن والقوانين ، ويتطلب نظاما اجتماعيا لم تعرفه الارض قبل ذلك أبدا .

فمعنى تحويل خلية جسدية من اى عضو فى اعضاء الجسد الى خلية شابة تستطيع أن تنقسم وتتكاثر وتتطور كما يتطور الجنين فى الرحم .. معنى ذلك انك سوف تحصل على نسخة جديدة من ذاتك ، نسخة طبق الاصل منك ، اى كانما انت تعود فى الزمن الى الوراء ، او كانما طفولتك قد بعثت من جديد ، ثم تمر بنفس مراحل النمو التى مررت بها قبل ذلك ، وكانما ذاتك الطفلة او الشابة تقف أمام ذاتك الهرمة او الكهلة .. الى آخر هذه التصورات الرديئة التى قد يحققها العلم يوما .

لكن ذلك كلام لا شك غامض وغريب ، ويحتاج الى شرح وتفسير .

● ● ●

التكاثر بخلية بدلا من البذور !

لكى نستوعب شيئا مما يطوف باذهان العلماء ، ومما يجرى فى معاملهم ، كان علينا أن نقدم اولا مثلين من الامثلة التى نجحت فيها هذه التجارب ، ولنبدا بنباتين معروفين: نبات التبغ ، ونبات الجزر ، فكلاهما يتكاثر عن طريق البذور ، والبذرة جنين نائم فى مهد من غذاء مختزن ، وهو نتيجة حتمية لاندماج حبة لقاح (خلية جنسية ذكرية) مع بويضة

فى مبيض زهرة (خلية جنسية انثوية) ، وهذا هو الأمر الطبيعي في حياة هذين النباتين او فى حياة كل النباتات الاخري التى تتكاثر بالبذور ، لكن بعض العلماء قد ضربوا بهذا المبدأ عرض الحائط ، واستطاعوا انتاج نباتات طبق الأصل من النبات الاصلي عن طريق خلايا جسدية ... لا جنسية !

فى جامعة كورنيل الامريكية كانت تجارب الجزر ، وهناك نجح عالم النبات ف . س . ستيوارد فى انتاج الجزر عن طريق آخر غير طريق البذور ، فعندما احضر جزرة ، وجهز منها عديدا من الشرائح الرقيقة ، اخذ منها نسيجا خاصا يعرف باللحاء Phloem ، وهى خلايا حية مسئولة عن نقل العصارة الغذائية من الاوراق الى جميع اجزاء النبات ، ثم وضع انسجة اللحاء على جهاز ميكانيكى رجراج فى دورق به غذاء خاص معقم ، وعندما رجت الانسجة رجا شديدا على هذا الجهاز ، ادى ذلك الى انفصال بعض الخلايا اللحائية ..اما فرادى أو فى مجموعات ، واخذت الخلايا ووضعت في دوارق واطباق شاكلة على غذاء ذات مكونات وعناصر متناسبة ، ومرت الايام وتكاثرت الخلايا، ثم بمعاملات كيميائية خاصة تحولت الى انسجة ، ومن الانسجة برزت جذور ، وعندما نقلت هذه الى اطباق بها غذاء هلامى متصلب كالجيلاتين ، تفرعت الجذور هنا وهناك، وبدأت تمتص عناصر الغذاء من الطبق ، وتبعث بها الى الانسجة المتكورة ، وحدث امر اشبه بالمعجزة ، اذ انبثق من النسيج ساق واوراق ، ونقلت النباتات الى ارض زراعية ، فنمت وتضخمت جذورها، واستطالت اوراقها ، واصبحت نباتات كاملة تسر الناظرين ... والاهم من ذلك كله انها كانت من الوجهة البيولوجية او الوراثية نسخا طبق الأصل من النبات الذي حولناه الى شرائح ، فانسجة ، فخلايا جسدية ، لتصبح كل واحدة منها كفيلة باعطاء نبات يانع بطريق غير طبيعي، ولاول مرة فى تاريخ الحياة على الارض !

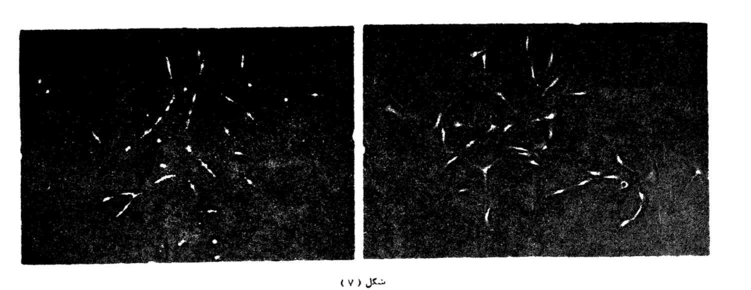
وبعد ذلك ، قام كل من ف . فاسيل ، أ.س. هيلبرانت بتحقيق نتائج ستيوارد ، لكنهما استخدما نبات التبغ فى تجاربهما ، وحصلا منه على شرائح من نسيج يعرف باسم اللب او النخاع Pith ولا يهم ان كان هذا النسيج من ورقة او جذر أو فرع أو ساق ، المهم انهما فصصا هذا النسيج الى خلايا ، وزرعت الخلايا مباشرة على جيلاتين به غذاء خاص ، وتكاثرت الخلايا ، وأعطت كل خلية نسيجها ، **ثم تحولت الانسجة ـ بمرور الايام** وبالرعاية والعناية ـ الى جذور وسوق وأوارق وأزهار ، ولاول مرة ايضا فى تاريخ **الحياة على الارض يتم انتاج ذرية لنبات الدخان من خلايا جسدية ـ لا جنسية .**

هذا ـ باختصار شديد ـ بعض ما جرى فى عالم النبات .. فماذا تم فى عالم الحيوان ؟

اليوم ضفدع .. وغدا انسان !

شيء آخر مختلف .. وذلك ان الامور فى عالم الحيوان اكثر تعقيدا ، وابعد منالا ، ثم ان الوصول الى النتائج يحتاج الى صبر جميل ، واساس فى العلم عميق ، وحساسية فى الاداء لا يقدر عليها الا كل باحث دؤوب ، ثم ان النتائج غير مضمونة ، ونسبة النجاح فيها ضنينة ، ولكن المتفائلين من العلماء يقولون : ليست كل بداية دائما موفقة ، كما أن كل شيء يبدأ صغيرا ومتواضعا ، وبعدها يصقل ويتطور الى الاحسن دائما .

صحيح ان العلماء يستطيعون الحصول على اى نسيج يشاءون ، من اى مخلوق يرغبون ، وبوسائل خاصة يفككون الانسجة الى خلايا ، ومن الممكن ان نمد تلك الخلايا الهائمة بمحاليل غذائية ومعقمة ، فاذا بها تنقسم وتتكاثر وتنمو (شكل ٧) ، لكنها مع ذلك لن تتشكل وتتحول الى مخلوقات تسعى، ولو حدث هذا كما يحدث في التجارب التي اجريت فى عالم النبات ، لاستطعنا ان نقدم



شكل (٧)

يستطيع العلماء الآن عزل الخلايا من أجسام الانسان والحيوان ، ثم تربيتها فى المعامل على محاليل خاصة معقمة . تتغذى وتتنفس وتتحرك وتفرز وتتكاثر ، والصورة توضح بعض هذه الخلايا الهائمة فى محاليلها ، وعليها يجرى العلماء تجاربهم لفهم أكثر وأعمق لسر الحياة الغامض (الصورة الى اليسار لخلايا صغيرة والى اليمين خلايا فى تمام نموها) .

لك من ذاتك نسخا عديدة لا يمكن لاحد ان يميز بين صفاتها الظاهرة والباطنة ، ولا أن يميز بينك وبينها ... فالامر لا يحتاج الا لشريحة جد دقيقة من البشرة أو الاصبع أو الساق او الكبد أو الى اى جزء تريد من اى عضو تشاء ، ومن مئات الخلايا الجسدية المفككة أو ربما الآلاف (فذلك يتوقف على حجم الشريحة المعزولة) ، يمكن تحويلها الى مئات الاجنة ..هذا لو امكن ان يمول الانسان مئات النساء اللاتي يقبلن ان يصبحن حاضنات لتلك الخلايا لتتشكل فى الارحام ، وعندئذ تظهر الخلايا الجسدية على هيئة أجنة تنمو وتتطور وتولد وتحبو وتمشى وتكبر لتكرر تجسيدك البيولوجي في غير الزمان والمكان .. زمانك انت ، ومكانك أنت !

مثل هذه الامور لا يمكن أن تحدث بسهولة في عالم الحيوان الذى يتكون من انسجة معقدة ، واعضاء متباينة ، ومرافق حيوية تخدم بعضها بعضا ، لكنها قد تحدث مع الحيوانات الدنيا التي ليس لها مثل مالنا ، والتجارب الكثيرة التي اجراها العلماء ويجرونها الآن توضح هذه الحقيقة تماما ، لكننا لن نتعرض لهذا الموضوع المثير هنا لضيق المجال ، اذ يكفي ان نذكر أن هناك كثيرا من التجارب والانتصارات البيولوجية التي توضح لنا الكثير مما خفى علينا من أسرار الخلق ، ثم ان هذه الاسرار قد تفتح لنا الابواب الى اسرار اعمق واعمق ، فلربما تنفعنا مستقبلا فى تفهم بيولوجية الانسان التي بدأنا نغزوها بصعوبة !

لا علينا من كل هذا الآن ، ولنتعرض هنا لتجارب مثيرة كان ميدانها معهد بحوث السرطان في فيلادلفيا بالولايات المتحدة الامريكية اذ جرت فى هذا المعهد امور غريبة غيرت ما وقر فى النفس ، وصدقه العقل .. نقول قولنا هذا بعد أن تمكن كل من العالمين توماس كنج وروبرت بريجز من انتاج اجنة ضفادع بغير طريق الخلايا الجنسية أو التزاوج ،

ويجىء بعدهما عالم الحيوان ج. جوردون من جامعة اكسفورد بانجلترا ليعلن ــ لاول مرة فى التاريخ ــ انه تمكن من انتاج ضفادع كاملة التكوين بطريقة تختلف تماما عما يحدث فى الطبيعة .. اى دون أن يكون هناك تزاوج أو تلقيح بين خلايا جنسية .

والواقع ان هذا الانجاز العلمى العظيم يقوم على أساس عمليات جراحية دقيقة ، وهى عمليات لاتستخدم فيها الادوات الجراحية التقليدية ، لاننا نتعامل مع خلايا لا ترى الا بالميكروسكوبات الضوئية ، ومن أجل هذا استنبط العلماء ادوات جد دقيقة لتناسب هذا العالم الدقيق ، وبها يستطيعون زراعة نواة خلية فى خلية اخرى بعد تفريغها من نواتها ، ولا شك ان هذه العمليات تتم تحت مجاهر خاصة ، وهى تستلزم مهارة العالم وحساسيته واتزانه ومثابرته التى لا تعرف الكلل والملل .

ولكى يتم انتاج نسخ ضفدعية عن طريق الخلايا الجسدية لا الجنسية ، يقوم العلماء بسحب نواة من خلية في امعاء ضفدع ، أو من اى نسيج آخر مناسب ، ثم يحضرون بويضة انثى لم تخصب بعد ، وتفرغ البويضة من نواتها ، وبعد التفريغ تزرع فيها نواة الخلية الجسدية لضفدع من النوع ذاته ، وتحاط البويضة الجديدة بالرعاية فى حوض به ماء ، ليرى العلماء ان كانت العملية قد نجحت أو فشلت ، تماما كما يضع الجراحون مرضاهم الذين نقلت اليهم قلوب أو كليات غيرهم تحت المراقبة الطبية الصارمة ، ليروا ان كان الجسد قد تقبل العضو المزروع أو لم يتقبل!

واحيانا ما تدوس النواة الجسدية على « زنادة » السيتوبلازم الخاص بالخلية الجنسية (اى البويضة) ، أو قد يحدث العكس ، فلا احد يدرى ، فتنطلق فيها قذيفة الانقسام ، فتتكاثر وتتكاثر ، وتتطور وتنمو ، وتتحول فى النهاية تحت سمع العلماء وبصرهم الى أبى

ذنبية (وهو طور من أطوار نمو الضفادع) الذى يسبح أمامهم فى الماء ، ثم اذ بأبى ذنبية يتحول بدوره الى ضفدع يافع .. ضفدع طبق الاصل من ذلك الضفدع الذى سحبنا نواته وزرعناها في تلك البويضة .

لكن .. ماذا تعنى هذه التجربة حقا ؟

انها تعنى أمرا بالغ الخطورة والتعقيد ، اذ لو امكن ـ فى المستقبل القريب او البعيد ـ تطبيقها على الانسان ، لأحدث ذلك مصاعب ومواقف لا يمكن ان تكون فى الحسبان .. ولكى نوضح ذلك ، دعنا نتعرض باختصار للاساس .

• • •

طبعات مكررة من ذات المخلوق !

ان أية نواة فى أية خلية جسدية مشتقة أساسا من النواة الاولى فى البويضة الملقحة ، حيوان منوي مع بويضة فى رحم انثى ، أو بالتحديد من نواة تحمل كل صفات الذكر ، واخرى تحمل كل صفات الانثى ، ومن أجل هذا يأتى الجنين ثم الوليد حاملا لصفات ابويه (شكل ٨) .

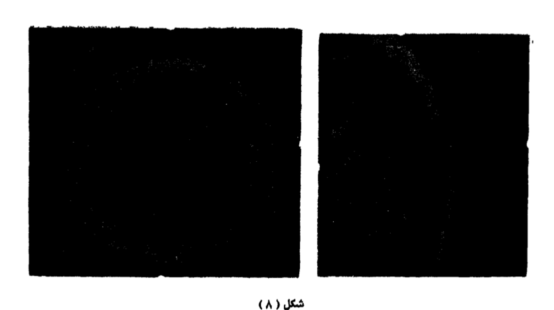
أى كأنما النواة فى البويضة الملحقة بمثابة سجل وراثى متكامل ، او طبعة جديدة لمخلوق قادم ، وان كل ملايين الملايين من الخلايا الجسدية المختلفة مشتقة حتما من الخلية الاولى الملقحةمن خلال عملية التكاثروالانقسام، وفى هذه العملية « تطبع » المادة الوراثية ـ أو بالتحديد الجزيئات الوراثية (ح د ن) التى سبق أن أشرنا اليها ـ ملايين وبلايين النسخ من ذاتها ، وتحفظ في انبوبة تتوزع فى كل الخلايا الجسدية لتدير بها شئونها .

ولكى نوضح ذلك نقول:عليك مثلا أن تتأمل هذه النسخة من المجلة التى بين يديك .. انها واحدة من آلاف ، والآلاف نشأن من اصول كتبها كتابها ، وجمعت فى مطابعها ، وانتظمت فى ابوابها ، ودارت آلات الطبع بهذه الاصول ، لتنتج آلاف النسخ التى لا يمكن ان تختلف في مادتها ، ومن الممكن أن تطبع عشرات الالوف أو الملايين ، وكل النسخ ـ بطبيعة الحال ـ متشابهة ، حتى اخطاؤها متشابهة أيضا ، وكذلك تكون كل الخلايا الجسدية التى اشتقت من الخلية الاولى (وهى هنا بمثابة النسخة الاصلية التى جمعت فى المطبعة) ، فمادتها الوراثية نسخة طبق الاصل من المادة التى نشأت بها البويضة الملقحة من زمن .

والى هنا قد يبرز سؤال هام : صحيح ان كل نسخ الطبعة الواحدة فى الكتب والمجلات متشابهة تماما ، ولكن كيف نفسر اختلاف الخلايا الجسدية وتنوعها فى المخلوق الواحد ؟

الاجابة على هذا السؤال تحتاج الى صفحات وصفحات ، لكن يكفى أن نقول ان الذى يؤثر على تشكل خلايا المخ والعين والجلد والامعاء والدم والعضلات وما شابه ذلك هى المادة الوراثية فى نواة الخلية ذاتها ، ففي كل مرحلة من مراحل نمو الجنين ، تؤثر الخلايا فى بعضها البعض عن طريق رسالات كيميائية خاصة ، فتتحول هذه الرسالات الى ما يشبه المفاتيح والاقفال ، فتفتح فى المخطط الوراثي لكل خلية « ملفات » ، وتغلق اخرى ، أو كأنما هي تظهر فقرات من كتاب ، وتطمس اخرى ، فأما المطموس او المغلق فيبقى ساكنا ، وأما الذى فتحت فقراته ، فعليه ان ينفذ ما جاء فى هذه الفقرات من اوامر ، وتحمل الاوامر رسل ، وبها تتوجه الى ساحة الخلية ، فتحولها الى بروتينات وانزيمات ، هي التى تسيطر على تشكيل الخلية ، وتجور فى عملها ، حتى يتناسب ذلك مع وظيفتها .

فمن المؤكد مثلا ان خلايا الكبد لا تشبه خلايا المخ ، ولا خلايا المخ تشبه خلايا اللسان ولا العضلات ولا البشرة ولا الرئة ... الخ ...



شكل (٨)

· البويضة الى اليسار لا تستطيع ان تنتج ذرية الا اذاتقابلت مع حيوان منوى (الصورة الى اليمين) ، وعندئذ يلج اليها ، وتختلط اشرطته الوراثية بأشرطتها ، ومن هذهاللحظة تبدأ حياة الكائن الحقيقية .

الخ ، هذا رغم ان كل هذه الخلايا قد اشتقت من خلية اولى ، وهذه بدورها انقسمت الى خلايا متشابهة لا يمكن تمييزها (شكل ٩) ، انما يأتي التمييز فى مراحل زمنية محددة، وكأنما هذه الخلايا تحمل معها زمنها (١) ، فتخرج الاوامر الكيميائية لتغلق كل الخطوط الوراثية فى خلايا الكبد مثلا ، وتترك ما بين ١ ـ ٥٪ فقط فى حالة عمل ، وهذه النسبة البسيطة هي التي « تفتح » ملفاتها الوراثية لتشرف على تحويل خلايا محددة في الجنين الى خلايا كبد ، هذا رغم ان نوى خلايا الكبد تحمل كل المخططات الوراثية الصالحة لتحويلها الى خلايا عصبية او دمعية او طحالية أو كلوية ... الخ ، ولكنها مغلقة جميعا ، الا ما صلح فقط مع رسالة خلايا الكبد ... وعلى مثل هذه الوتيرة تكون كل المخططات فى الخلايا الاخرى.

آن الآن أن نسأل ـ بناء على ما قدمنا ـ سؤالا : ماذا لو حصلنا على نواة من خلية فى كبد او امعاء او طحال .. الخ ، واستطعنا ان نفتح فى كل منها جميع مخططاتها الوراثية المغلقة ؟

فى هذه الحالة سوف تعيد النواة ـ المتحررة من اغلالها ـ قصة حياة الكائن الذى عزلت منه اول مرة .. بداية من حالته الجنينية الى طفولته وصباه وشبابه ورجولته .. تعيده صورة طبق الاصل ، او كنسخة بالكربون فى بصماته وبروتيناته وصوته ومزاجه ولونه وكل صغيرة وكبيرة فيه ، وبحيث لو نقلت نسيجا او عضوا من « النسخة » المبعوثة للحياة الى النسخة الآفلة عن الحياة ، أو العكس ، فان احد الجسدين لن يرفض ما ينقل اليه ، ولن يتعرف على ان ما نقل اليه

(١) انظر فى هذا الصدد دراستنا عن « الزمن البيولوجى » فى العدد الثانى من المجلد الثامن من هذه المجلة

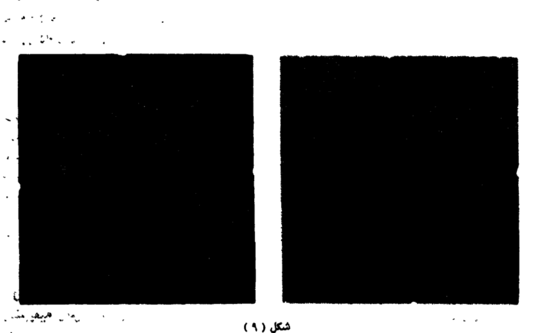
هو جزء من الذات الاخرى ،حتى ولو اختلفت مراحل النمو فى الاجساد ، ذلك ان الخطط الوراثية التى اشرفت على تكوينه في المرة الاولى عن طريق التزاوج ، هى التى ستنفذ « الطبعة » الثانية ، وربما الثالثة والرابعة.. الخ عن طريق تحرير نواة خلية جسدية من كل اغلالها .

وهذا ما حدث بالضبط فىحالة الضفدع.. فعندما انتقلت نواة خلية جسدية من امعاء هذا الكائن ، الى بويضة انثى افرغت من نواتها ، اثر السيتوبلازم على النواة ، وحررها من اغلالها ، وافتح كل ملفاتها ، وعادت الى حالتها الجنينية مرة اخرى ، وبهذا اعطت ضفدعا طبق الاصل من الضفدع الذى نشأ اول مرة ، او كأنما هى طبعت منه طبعة ثانية لا تغيير فيها ولا تبديل !

هذه اذن واحدة من الانجازات البيولوجية المثيرة والغريبة ، وحمدا لله انها قد حدثت مع ضفدع ، ولم تحدث مع انسان .. صحيح ان اليوم ضفدع ، ولكن غدا قد تكون الجولة مع فأر او حصان او انسان .

ولماذا لم يفعلها العلماء مع انسان ؟

الواقع ان نجاح نسبة من التجارب فى الضفادع يرجع الى اسباب : منها ان الضفادع لا تمتلك ارحاما كما هو الحال فى الحيوانات الثديية ـ بما في ذلك الانسان بطبيعة الحال ، فمن المعروف أن أنثى الضفدع تضع بويضاتها فى الماء ، وفيه تخصب وتنمو وتشكل وتخرج من بويضاتها على هيئة حيوانات جد صغيرة تضرب بذيولها أو أذنابها فى الماء ، ولقد كان لوفرة بويضات الضفادع ، وكبر حجمها بالنسبة لحجم بويضات الحيوانات الثديية ،



شكل (٩)

تبدأ البويضة الملقحة فى سلسة من الانقسامات المتتالية ،وتتحول الى خلايا متشابهة لا يمكن التمييز بينها (الخلايا الأربعة الى اليسار) ، لكنها فى مراحل تالية تتميز الىبدايات خلايا مختلفة (الصورة التى الى اليمين وهى لطور من اطوار الانسان عمره ما بين ٥ ـ ٦ أيام) ، ثم تتحول الخلايا الى انسجة متباينة ... فما الذى يشكلها ؟ (راجع الدراسة) .

ما ساعد العلماء على اجراء عملياتهم الجراحية الخلوية فيها .

لكن كل هذه الامور ليست ميسرة فى حالة الانسان على وجه الخصوص ، وهى ـ بلا شك ـ تصطدم بالعديد من المشاكل العلمية والتكنيكية والاجتماعية والعقائدية .. لكن الزمن وجهود العلماء كفيل بتذليل تلك الصعاب ، فكم من امور حسبنا الوصول اليها خيالا ، فاذ بها تتحقق ، وتصبح ملء سمع الناس وأبصارهم .

• • •

تصورات رديئة !

لكن .. هل تستحق تلك التجارب ـ تجارب اعادة نسخ انسان بذاته ، او حيوان بعينه ـ كل هذه الاهتمامات ، آخذين فى الاعتبار كل ما تتطلبه من جهد ووقت وصبر ومال وامكانيات ؟

الجواب : ان ذلك قد يكون مفيدا فى حالة الحيوان دون الانسان ، فانتاج نسخة من حصان لم يجد به الزمان من قبل أمر مرغوب فيه ، وكذلك يكون الحال مع ثور قوى خصيب ، او فحل جاموس معتبر ليورث صفاته الحسنة الى أجيال قادمة .. او ما شابه ذلك من خصال محمودة يجب المحافظة عليها « بطبع » نسخ طبق الاصل منها ، أسوة بما حدث مع الضفدع .

لكن اعادة طبع نسخة او نسخ من انسان سوف يحدث ثورة فكريةواجتماعية ونفسية وتشريعية وغير ذلك من امور لا تطرأ لنا على بال .. صحيح ان بعث نسخة طبق الاصل من انسان مدبر عن الحياة (يستوى فى ذلك الذكر او الانثى) سوف تضعنا فى مآزق فكرية رديئة ، اذ كيف سيتعامل افراد الاسرة الواحدة مع نسخة من اب او ام في دور الطفولة ؟ .. وما مصير هذه النسخة بالنسبة للاولاد ؟ .. وهل سيتعامل معها على انها احد الوالدين ، او على انها اخت او اخ ؟ .. وما هو حكم الميراث الشرعى فى مثل هذه الحالات ؟ .. ثم ماذا سيكون موقف العائلة لو حدث الاستلطاف بين نسخة جديدة من الاب ونسخة جديدة من الام ؟ .. وما هو حكم الشريعة لو حدث التزاوج بينهما ؟ .. وكيف سيكون حال ذريتهما ؟ .. وما صلة القرابة بينهم وبين افراد العائلة التى جاءت من النسختين القديمتين (اى الاب والام الكهلين) ؟ .. الى آخر هذه الاسئلة العويصة التى تنبع من تصورات سخيفة ، وأفكار رديئة !

ونعوذ بالله من حدوث مثل هذه الامور المفزعة فى المستقبل القريب او البعيد ، رغم ان البحوث اليوم قد نجحت فى ضفدع ، وربما تنجح في البشر ، وعندئذ قد لا تبقى فى التقاليد المتوارثة ولا تذر !

ومع ان مثل هذه البحوث البيولوجية الخطيرة قد نشرت فى المجلات العلمية ، الا انها مع ذلك لم تثر زوبعة ولا اعتراضا كتلك الزوبعة التى نشهدها الآن فى مجال نقل وزرع احدى مكونات النواة من خلية ، الى مكونات النواة فى خلية اخرى ، اذ ان ذلك سيكون بمثابة تخطى الحدود التى رسمها الله لحفظ الانواع المختلفة من الخلط والتبديل والتغيير ، ولقد فعلها الانسان ، ومن هنا قامت قيامة بعض العلماء والهيئات والحكومات منددة بخطر قد يكتسح الارض اكتساحا ، والى هنا قد يتحقق القول الفصل « **حتى اذا اخذت الارض زخرفها وازينت ، وظن اهلها انهم قادرون عليها ، اتاها امرنا ليلا او نهارا ، فجعلناها حصيدا كان لم تغن بالامس » (سورة يونس ـ آية ٢٤)**

ومع ذلك ، دعنا نتعرض لآخر مرحلة دقيقة من مراحل البحوث البيولوجية التى

تتسم بالعمق والاصالـة والصقل والتطور ، لنرى لماذا يعترض بعض العلماء على هذه البحوث رغم علمهم انها ستطـور معارفنا لفهـم اعمق وادق لكثير مـن اسرار الحياة التـى لا زالت صعبة المنال .

• • •

بداية بحوث اغرب واخطر

قبل ان نلج فى هذا الموضوع ،الهام نرى انه من الاوفق ان نستعرض سـريعا التصورات والانجازات التى راودت الانسان من قـديم الزمن ، وما تحقق منها حتى الآن .

فى البدايـة تصـور الانسـان مخلوقـات اسطورية تجمع بين أجزاء مختلفة من حيوانات معروفة ، ثم يجىء على الانسان عصر يتوصل فيه الى تطعيم نبات على نبات ، ويتلوه عصر آخر ينجح فيه فى نقل عضو من انسان الى انسان (زراعة الاعضاء) ، واخيرا استطاع ان ينقل نواة من خلية جسدية ويزرعها في خلية جنسية مفرغة من نواتها ، فتعطي نسخة طبق الاصل من الحيوان القديم ، وكأنما هو يبعث من جديد ، ثم فى الوقت ذاته ينجـح علماء النبات فى انتاج نباتات من خلايا خضرية (او جسدية) معزولة من بعض النباتات ، وبمعاملتها بمواد كيميائية خاصة تعطي نباتات طبق الاصل من النبات الاول ، وهذا يعني انه لاول مرة فى التاريخ ينتج العلماء نباتات عن طريق خلايا جسدية بدلا من زراعة البذور التقليدية ، واخيرا نجح العلماء فى نقل صفة محددة من كائن ، وزرعها في كائن آخـر ، ليكتسب صفة جديدة لم يعرفها طيلة حياة نوعه الذى ربما ظهر على الارض منذ مئات الملايين من السنين .

ولكي نوضح مغزى نقل الصفات الوراثية بين الانواع المختلفة متخطين فى ذلك كل الحدود الفاصلة بين الانواع ، كان علينا ان نتعرض لاول محاولة تمت فى هذا المجال .

ففى صيف عام ١٩٧١ ، وفى أحد المعاهد الامريكية الخاصة ببحوث السرطان ، كان العالم الشاب **روبرت بولاك** يحاضر عن كيفية تداول الفيروسـات المسببة للسرطان فـى البحوث الجارية بطريقـة سليمة ومأمـونة العواقب ، وبعد ان انتهى من محاضرته ، سمع مـن عالمة زائرة للمعـهد أن رئيسهـا البروفيسور بول بيرج بالمركز الطبي بجامعة ستانفورد ينوى القيام بتجربة مثيرة ورائدة فى هذا المجال ، فهو يعد العدة لكي يزرع الفيروس المعروف باسم س ف ـ ٤٠ فـى داخل ميكروب يعيش عيشة تعاونية ومسالمة فى امعاء الانسان والحيوان ، وهذا الميكروب يعرف باسم **البكتريا القولونية (ايشيريشيا كولاى** Eschicherichia coli) امـا الفيروس المراد زرعه فى الميكروب ، فهو واحد من الفيروسات التي ثبت انها تسبب نوعا من السرطان في حيوانات التجارب .. صحيح ان الفيروس قد عزل من القرود ، وصحيح انه لا يسبب لها اوراما سرطانية فى بيئتهـا الطبيعية ،الا ان الامر يختلف فى حالة حقن هذا الفيروس فى حيوانات المعامل ، اذ أنه ـ فى هذه الحالة ـ يحدث فيها أوراما سرطانية ، اضف الى ذلك انه يستطيع ان يصيب خلايا الانسـان المعـزولة والمزروعـة في الدوارق والانابيب المعقمة، ويحولها الى خلايا سرطانية، رغم انه لم يثبت ـ ولو مرة واحدة ـ ان هذا الفيروس يمكن ان يسبب اوراما سرطانية فى الانسـان ، علما بانه كان يدخل مع اللقاحات المضادة لشلل الاطفال بطريق الخطأ ، ولو كان فيه ضرر ، لظهرت آثاره بعد ذلك على البشر.

ولقد ذعر بولاك عند سماعه هذا الخبر ، وطافت بعقله الهواجس عن احتمال نجاح مثل هذه التجربة ، وما قد تتمخض عنه نتائـج او اضرار لا يعلم مداها ـ فى الوقت الحاضر احد ، ومن ثم طلب جامعة استانفورد على الهاتف ، ليتحدث شخصيا مع البروفيسور بيرج ليتاكد بنفسه من الخبر ، وتمت المكالمة واستمع البروفيسور الى الشاب باهتمام، وهو

يسرد عليه مخاوفه من جراء اجراء مثل تلك التجارب ، وعندئذ طمأنه الأستاذ ، وأسر اليه انه لا داعى للخوف أو القلق ، فمنذ سنين طويلة ، ومعامل العالم اجمع تتداول هذا الفيروس دون ان يسبب للانسان اية اعراض تذكر .

ثم يذهب الأستاذ الى ابعد من ذلك ، ويشرح للشاب وجهة نظره ، ذلك أن اختياره لزرع الفيروس فى الميكروب يرجع الى اسباب: منها ان هذا الفيروس بالذات بسيط التركيب جدا ، وانه يحتوى على عدة مورثات (جينات) قليلة ، وان هذه المورثات قد درست بالتفصيل ، وامكن قراءة شفرتها (الكود Code الوراثى) ، ثم يبدو من نتائج التجارب التى حصل عليها العلماء ان هذا الفيروس يحوى جينة محددة ، وانها قد تكون المسئولة عن تحويل الخلايا المعزولة (من القرود ومن البشر) والمزروعة فى الدوارق الى خلايا سرطانية ، وان نجاح زراعة هذا الفيروس فى ميكروب ، ثم دراسة سلوكه مع الميكروب ، قد يوضح لنا المزيد من اسرار هذه المورثة ، وربما يقربنا ذلك الى تفهم اعمق لبيولوجية السرطان ، وفوق كل ذلك ، فقد يؤدى مثل هذا الكشف المثير الى تطوير علومنا البيولوجية،ولا يستبعد أن يحوز على اعظم جائزة عالمية متمثلة فى جائزة نوبل للعلوم الطبية أو ما شابهها !

وبدأ خبر هذه التجربة ينتشر ، وتناقش العلماء فيها وفى مغزاها ، فمنهم من ايدها ، ومنهم من اعترض عليها وجافاها ، وعندما احس بيرج بأن التيار فى غير صالحه ، وشعر بأن مثل هذه التجارب يمكن ان تجر امورا قد لايحمد عقباها ، تخلى عن القيام بها ، وهجرها هجرا جميلا .

ويرجع سبب تخوف العلماء المعترضين على مثل تلك التجارب ـ تجارب زرع فيروسات او جينات فى خلايا لم تعرفها قبل ذلك ـ يرجع تخوفهم الى احتمال حدوث تغير وراثى فى الميكروب المسالم ، وقد يكون هذا التغير فى غير صالح اجسامنا واجسام الحيوانات الأخرى ، خاصة وانه يعيش فى امعائنا ، ويعتبرها بيئة فى صالحه وصالحنا ، فماذا لو تغير وقلب علينا الموائد ، وعندئذ قد لا يبقى فى الحياة ولا يذر ؟

بين اشرطة الحياة واشرطة البشر !

ولقد لزم العلماء جانب الحذر ، لكن يبدو ان الكشوفات البيولوجية الهامة كانت تدفعهم دفعا لارتياد آفاق اعمق واخطر ، اذ حدث ـ بعد ان ألغى بيرج تجربته المثيرة ـ أن باحث بعض الخلايا الحية بأسرارها التى سال لها لعاب العلماء ، وعندئذ بدات سلسلة من التجارب البيولوجية كانت أدهى وأمر !

وقبل ان نتعرض لمثل هذه الأمور العلمية العويصة ، كان لزاما علينا ان نمهد لذلك بشىء من واقع عالمنا ، فنحن نعرف جميعا أشرطة التسجيل ، ثم اننا اذا اردنا انسجل شيئا على شريط ، فلابد ان يكون التسجيل امينا ومتقنا وكاملا بدون شوائب او تداخل او ما شابه ذلك ، سواء كانت المادة المسجلة محاضرة قيمة ، أو سيمفونية خالدة ، أو ذكريات غالية ، أو اغنية محببة .

وفى جهاز التسجيل الذى يدور عليه الشريط يوجد « عداد » ليحدد لك اول مقطع الاغنية ، أو بداية الحديث ، كما يحدد لك نهايته ، ثم بداية الاغنية التالية وهكذا .

لكن قد يحدث أن يأتى من يريد ان يداعبك مداعبة ثقيلة ، فيأتى بموسى وبشريط لاصق ثم يقطع من شريطك المسجل جزءا من اغنية، أو شطرا من حديث ، ويدس جزءا من مقطع اغنية اخرى ، أو حديثا لشخص آخر ، أو قد يلصق تسجيلا لنهيق حمار ، أو صياح ديك .. أو ما شابه ذلك ، وقد تستمع بـ

الى هذا الشريط المزيف ــ دون سابق علم بما حدث ، وعندئذ قد تفزع لما تسمع ، وتسخط على من فعل !

وأحيانا ما تقوم ادارة المخابرات فى بعض الدول بعمليات تمويه غريبة فى الاشرطة المسجلة وبحيث يضاف اليها عبارات بصوت من يريدون اتهامه ، أو تحذف منها كلمات أو عبارات لتدين الانسان البرىء ، وعند اعادة تشغيل مثل هذا التسجيل المموه على اسماع من يريدون اتهامه ، يصعق بما جاء فيه ، فهو يعلم تماما انه برىء مما يدعون .. هذا رغم ان الصوت صوته ، والاعتراف اعترافه، ولكنها البراعة فى التزييف والاتهام .

هذا التغيير او التمويه او الخلط المقصود أو الاعتباطى في أشرطة التسجيل التى نديرها على اجهزتنا يماثل بالضبط الخلط الذى بدأ العلماء يجرونه الآن على « أشرطة » تسجيل الحياة التى طبعت عليها الشفرة الوراثية بجزيئات كيميائية .

والواقع أن أشرطة الحياة دقيقة غاية الدقة ، ومع ذلك فهى تحوى من المعلومات الوراثية ما يملأ عشرات من المجلدات الضخمة فلو اننا فحصنا اية خلية جسدية من خلايا الانسان (عدا كرات الدم الحمراء) ،لوجدناها تحتوى على نواة .. النواة تحتفظ فى داخلها بثلاثة وعشرين زوجا من الأمشاج أو الكروموسومات ، جاء ثلاثة وعشرون منها من الخلية الذكرية (الحيوان المنوى) ، والثلاثة والعشرون الاخريات من الخلية الانثوية (البويضة) ، وعلى كل كروموسوم تتراص آلاف الجينات أو المورثات على هيئة عقد ، وكل جينة تحتوى على شريط محدد ومعلوم من جزىء ح د ن (وهو الحامض النووى أو الوراثى الذى سبق أن أشرنا اليه) ، وكل شريط يحتوى بدوره على آلاف النيوكليدات أو الشفرات الرمزية (أ ، ث ، ج ، س التى قدمناها قبل ذلك ــ انظر ايضا شكل ٤) ،

ولو تصورنا اننا قد أوصلنا هذه الأشرطة الوراثية الموجودة فى نواة خلية واحدة ، لبلغ طولها حوالى المترين، لكن سمكها لايتجاوز جزئين اثنين من مليون جزء من المليمتر .. وهذا يعنى انك لو طويت هذا الشريط الوراثى، فانه لن يظهر ، حتى ولو نظرت اليه بالميكروسكوبات العادية ، ورغم ذلك فهو يحتوى على أكثر من ثمانية آلاف مليون شفرة وراثية ، وهذه هى التى تحدد كل صغيرة وكبيرة فى صفات الانسان البيولوجية والوراثية !

وطبيعى أن هذه الاشرطة الكامنة فى جيناتها تعمل فى تناسق وتفاهم تام ، ولولا ذلك لدبت الفوضى فى الاجسام ، ثم ان تحديد صفاتنا يتوقف على انتظام الشفرات فى أشرطتها بطريقة خاصة ، وان اى تلاعب فى هذا النظام ، أو أى تغيير فيه بالحذف او الاضافة ، سوف يؤدى حتما الى نتائج خطيرة .

ولاشك أن الحديث عن هذه الاشرطة العظيمة سوف يتشعب ويطول ، ولكن يكفى هنا ما قدمنا فأوجزنا ، ولنعد الآن الى الحديث عن كيفية تلاعب العلماء بهذه الاشرطة ،وكيف زوروا فيها !

●●●

فصل « المشارط » الكيميائية من « جسد » الخلية !

علينا أن نعود فنذكر أن المهيمن على القدر الوراثى لكل كائن حي على هذا الكوكب ــ صغر شأن هذا الكائن أو كبر ــ هو شريط أو عدة أشرطة سجلت عليها الشفرة الوراثية، وان كل كائن قد جاء بسجلاته التى حفظت له فيها صفات نوعه ، ولقد اكتشف العلماء ان لهذه الاشرطة ــ فى بعض أنواع البكتيريا ــ « مقصات » تقصها فى مواقع محددة ، وما

هذه المقصات الا خمائر او انزيمات تعرف باسم **الانزيمات القاصة او القاطعة للجزيئات الوراثية** Restriction enzymes وظيفتها ان تهاجم أشرطة الجزيئات الوراثية الغريبة ، وتقطعها الى أجزاء ، وبهذا تبطل عملها ، وفي الوقت ذاته تنقذ نفسها من كل دخيل (والدخيل يتمثل لنا فى الفيروسات الأدق التى تهاجم البكتيريا وتقتلها) . . الا انه من المثير حقا أن هذه البكتيريا تحمى اشرطتها من هذه « المقصات » أو « الامواس » الكيميائية بوضع موانع من جزيئات صغيرة على المواقع التى يمكن أن يحدث منها الهجوم والتقطيع ، فاذا جاء الانزيم ليشطر ، وجد الباب فى وجهه موصدا !

ولقد استطاع كل من **هاملتون سميث وتوماس كيلى** الباحثين فى مدرسة الطب التابعة لجامعة جون هوبكنز ببلتيمور أن يعزلا احد هذه الانزيمات بحالة نقية من بعض سلالات من البكتيريا المعروفة **باسم هيموفيلاس انفلونزا** Haemophilus influenzas واستطاعا ان يحددا المواقع التى تستخدم فى القص او الفصل ، ثم تبعهما عالمان آخران من المركز الطبى بسان فرنسيسكو والتابع لجامعة كاليفورنيا (وهما هربرت بوير وهوارد جودمان) فى فصل انزيم آخر مختلف من البكتيرة التى تعيش في أمعاء الانسان والحيوان وجاء كل من دانيال ناثانز وكاثلين دانا من جامعة جون هوبكنز أيضا ليدرسا فعل هذا الانزيم القاطع او البتار على الفيروس المعروف باسم س ف ــ ٤٠ ، وهو نفس الفيروس الذى كان بول بيرج ينوى زراعته فى احدى الخلايا الميكروبية ، ثم قامت فى وجهه زوبعة ، فالغى تجاربه (وهذا ما سبق ان اوضحناه) المهم أن هذين العالمين قد أوضحا ان هذا الانزيم قد استطاع ان يقص الشريط الوراثى للفيروس الى احدى عشرة قطعة محددة ، فى حين أن مجموعة أخرى من العلماء قد جربوا فعل الانزيم الآخر على الفيروس ذاته ، فتبين انه لم يقطعه الا فى موقع واحد محدد ، فبدلا من وجود الفيروس على هيئة حلقة ، قطعه الانزيم وحوله الى شريط له بداية ونهاية (هذا ويبلغ طول ذلك الشريط حوالى جزء من الف جزء من المليمتر ، وبه حوالى ٥٠٠٠ نيوكلبتدة أو شفرة) .

والى هنا شعر العلماء بأنهم قد وضعوا أيديهم على عائلة من الانزيمات الغريبة ، وان كل انزيم منها يستطيع أن يقطع الاشرطة بطريقة تخالف طريقة الانزيم الآخر ، وانه بالامكان استخدام هذه الادوات البيولوجية الدقيقة فى تفكيك الاشرطة الوراثية الى اجزاء محددة ، ثم دراسة كل جزء منها على حدة ، للتعرف على شفرته أو « لغته » المكتوبة ، وكيفية تحويل هذه اللغة الى امر كيميائى ، او الى خطة عمل !

● ● ●

علم جديد اسمه هندسة الوراثة !

ثم يجيء كشف آخر اعظم واهم ، فبينما العلماء منكبون على دراسة الانزيمات القاطعة أو الحادة ، تظهر لأول مرة عائلة أخرى تسمى الانزيمات الرابطة او الواصلة ، وهذه يطلق عليها **اسم خمائر الليجيز** Ligase enzymes والغريب انها اكتشفت في وقت واحد فى خمسة معامل مختلفة ، وهذا ينبئك بأن هناك تنافسا شديدا بين العلماء فى كشف اسرار الخلية ، ومن لا يسارع منهم بنشر ما اكتشف ، ضاعت عليه ثمرة اكتشافه ، واصبحت من نصيب غيره !

والى هنا تساءل العلماء : اذا كنا الآن قد حصلنا على السر الذى تصل به الخلية ما تقطع من اشرطتها الوراثية ، فلماذا لانستخدم هذه الانزيمات الجديدة فى وصل قطع مختلفة من اشرطة وراثية جاءت من خلايا متباينة ؟

وتركزت على هذا التساؤل بحوث كثيرة وعميقة ، اذ ليس التطبيق ميسرا كهذا الكلام، ثم ان « لحام » شريط بشريط يتطلب عمليات بيولوجية على درجة هائلة من الدقةوالتنظيم، ولابد ـ والحال كذلك ـ من معرفة تفاصيل ما يجرى فى الخفاء ، فليست اسرار الحياة بالامر الهين .

فهناك بعضالجينات أو المورثاتأو الوحدات الوراثية المراد نقلها من خلية الى اخرى ، والتى توجد على هيئة حلقات مغلقة أو مقفلة، ولقد اكتشفت مثال هذه المورثات فى الفيروسات وتسمى **بالاحماض النووية الفيروسية الدائرية** circular viral D N A واكتشفت ايضا فىداخل خلايابعض الميكروبات واطلقوا عليها اسم **البلازميدات** Plasmids (شكل ١٠) ، وطبيعى انه لايمكن لحم هذه بتلك ـ طرفا بطرف ـ الا اذا شطرنا الحلقة ، ليتحرر طرفاها ، ثم وصل الاطراف فياشرطة أطول ، ثم ارجاعها الى حالتها الاولى ـ اى الى حلقات اكبر ، تحمل صفات جديدةمختلفة (شكل ١١ أ ، ب) .

والبتر والوصل ، او القطع واللحم ليسا بالمشكلة العويصة الآن ، لان العلماء يملكون الآن الوسائل أو الانزيمات التى تقوم بتلك العمليات ، وبهذا يستطيعون ان يحصلوا على خطوط تشغيل وراثية ، اسوة بخطوط التشغيل التى نراها مثلا فى تجميع قطع الآلات والسيارات فى المصانع الكبيرة .

ومن هذا المنطلق الحديث فىدراسةالصفات الوراثية للكائنات ، وتجميع خططها فى أشرطة جديدة ومختلطة ، ثم تشغيل هذه الخطط ، وتحويلها الى مخططات كيميائية أو صفات وراثية مكتسبة ، ثم التلاعب بهذه الاشرطة بين الكائنات المختلفة ، وبحيث تضاف اليها ، أو تحذف منها (كعمليات الاستئصال او الزرع العضوى الذى نعرفه فى عالم الجراحة الآن) صفات بعينها .. كل هذا وغيره قد تمخض عن علم حديث جدا قائم بذاته ..هذا العلم يطلقون عليه اسم **علم الهندسة الوراثية** Genetic Engineering ، وهو تعبير له ما يبرره ، ذلك ان بعض صفات الكائنات الوراثية قد بدأت تخضع ـ من خلال أشرطتها ـ للنقل والقطع واللحم والتشغيل والتداول على « خطوط » جديدة ، لانتاج صفاتمبتكرة لم تعرفها الحياة فى كائناتها حتى الآن .

ومن المستلزمات الاساسية لكى تنجح هندسة الوراثة ، وتصبح سلاحا رهيبا فى ايدى العلماء ، ان تقوم على اربعة اعمدة هامة:

اولها : تشغيل طريقة لقطع ولحام الاشرطة الوراثية .

وثانيها : وسيلة نقل لحمل هذه الاشرطة الجديدة ، او الصفات المبتكرة ، ثم لابد من دفعها للتكاثر ، وتكوين نسخ من ذاتها .

وثالثها : طريقة لزرع الشريط او ادخاله فى جسم الخلايا .

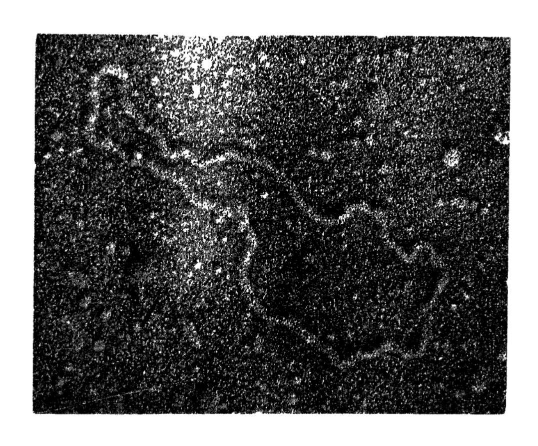
ورابعها : انتقاء الخلية التى تقبلت زراعة الشريط الوراثى الغريب ، وعبرت عنه وراثيا بصفات جديدة لم تعرفها من قبل .

ولقد تحققت كل هذه الخطوات الاساسية بالفعل فى غضون عدد من السنوات لايتعدى عدد اصابع اليد الواحدة ، او على اكثر تقدير عدد اصابع اليدين !

كائنات جديدة معدلة !

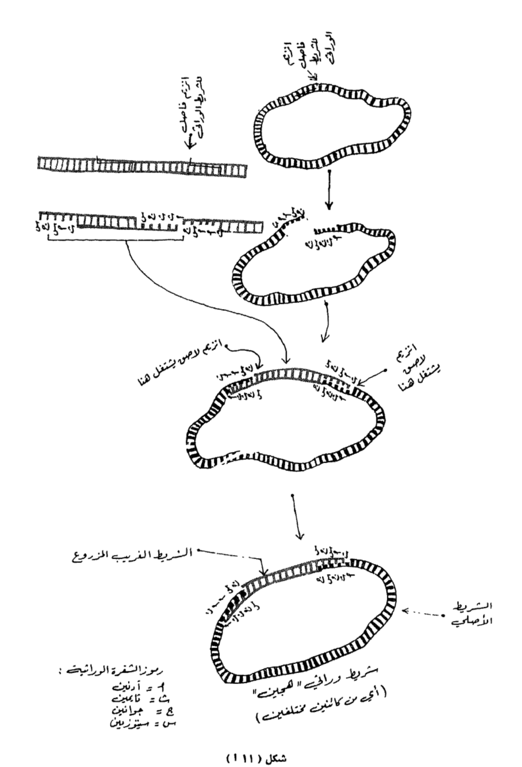
وتتوالى بعد ذلك الانجازات العلميةالمثيرة.

ففى عام ١٩٧٣ نجحت مجموعة من علماء مدرسة الطب بجامعة ستانفورد فى انتاج أول شريط وراثى « هجين » ـ أى يجمع بين



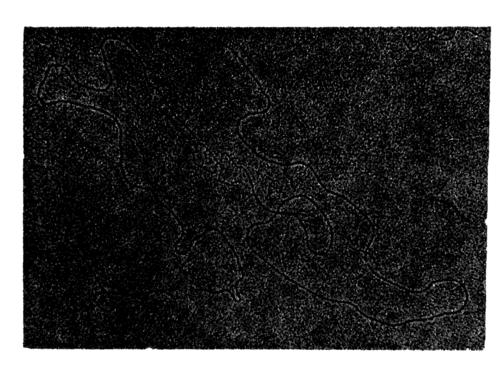
شكل (١٠)

أحد الاشرطة الوراثية الحفيفية أو المغلقة (البلازميد)التى فصلت من بعض الميكروبات ، وهى هنا مكبرة حوالى ٢٣٠ الف مرة .



شكل (١١١)

رسم توضيحي يبين كيفية قطع الاشرطة الوراثية في أماكن محددة بخمائر او انزيمات خاصة ، ثم كيف توصل باشرطة غريبة بانزيمات اخرى ، لتنتج اشرطة هجينة ، فتكسب الكائنات صفات لم تعرفها من قبل .



شكل (١١ ب)

صورة بالميكروسكوب الاليكنرونى لشريط ح دن الـذى‌تقبل في كيانه قطعة من شريط وراثى لكائن آخر (المشـار اليها بالسهم ، والمبينة فى رسم توضيحي مرافق) .

شريطين مختلفين من الكائن البكتيرى الذى يعيش فى أمعاء الانسان والحيوان (وهو بكتيرة ايشيريشيا كولاى التى سبق ان أشرنا اليها قبل ذلك واصبحت الآن بمثابة الكائن المفضل لمثل هذه التجارب الرائدة) ، ولقد تمت هذه التجربة في أنابيب الاختبار ، ثم أمكن زراعة الشريط المزدوج فى الخلية البكتيرية ، وعندما انقسمت الخلية الى ملايين الخلايا فى عملية التكاثر السريعة التقليدية (من المعروف أن هذا الكائن أو غيره من كائنات البكتيريا يستطيع أن يعطى ذرية تقدر بالملايين فى غضون ساعات) ، انقسم الشريط الهجين ايضا مع كل انقسام خلوى ، وتكاثر جنبا الى جنب مع الخطة الوراثية الاساسية للخلية البكتيرية ، ثم عبر عن نفسه بانتاج صفات وراثية كيميائية لكل من الشريطين أو المورثتين الملتحمتين فى شريط واحد !

ثم بدات خطوة اخرى اجرأ ، وحاولت المجموعة نفسها نقل جينة او مورثة من كائن بكتيرى الى كائن بكتيرى آخر مختلف ، ولقد تمت هذه المحاولة بنجاح ، وعبرت الجينة المنقولة فى الكائن البكتيرى الذى احتضنها عن نفسها ، وانقسمت معه ، ومنحت ذريته صفة وراثية مكتسبة لم يعرفها « الآباء ولا الاجداد » منذ ملايين السنين !

ثم ينجح العلماء بعد ذلك في نقل جينة من ميكروب يعيش فى امعاء المواشى الى الميكروب الذى يعيش فى امعاء الانسان ، والمعروف ان هذه الجينة المنقولة هى من ذلك النوع الذى يحمل الخطة الوراثية لصناعة بروتين على هيئة خميرة أو انزيم يستطيع ان يحلل مادة السيليلوز الموجودة فى النباتات التى ترعاها الحيوانات ، ثم يحولها الى مادة سكرية ، تمتصها امعاؤها ، وهذا يعنى ان نقل هذه الجينة الى الميكروب الذى يعيش فى امعائنا ، معناه ان الانسان قد يستفيد من أكل الالياف النباتية مستقبلا كما تستفيد بها الحيوانات المجترة ، وطبيعى انه ممنوع - فى الوقت الحاضر - تداول هذه الميكروبات التى اجريت عليها بعض التعديلات الهندسية الوراثية ، ولا خروجها من معاملها بأية حال من الاحوال ، وسبب ذلك المنع سنتعرض له في حينه .

ومن بعض الميكروبات التى فقدت حساسيتها للمضادات الحيوية ، عزل العلماء بعض الجينات من ساحتها الخلوية ، وتبين ان هذه الجينات هى من ذلك النوع الحلقى المغلق ، وهو الذى اطلقنا عليه قبل ذلك اسم **البلازميدات** . . صحيح ان هذه البلازميدات لا تحدد ولا تتدخل فى الخطة الوراثية للميكروب ، ولكنها تحذو حذو هذه الخطة فى التكاثر والانقسام والتركيب والنظام الجزيئى ، كل ما فى الامر انها معلومة وراثية محددة ، تضع خطة مقننة لصناعة انزيم أو خميرة معينة ، وبهذه الخميرة تستطيع ان تدمر المضاد الحيوى الذى يتعاطاه الانسان للقضاء على ميكروب مسبب لمرض من الامراض وبهذا يفقد الدواء مفعوله ، ونقول وقتها : ان هذا الميكروب بالذات قد اصبح ذا مناعة ضد مضاد حيوى معين .

وطبيعى ان كثيرا من الميكروبات قد اكتسبت هذه المناعة ، وسر مناعتها يكمن فى خطتها المحددة على جينتها الحلقية المنتشرة فى مادتها الحية ، ولكل مضاد حيوى خميرة تحطمه ، أو انزيم يبطل مفعوله . . المهم ان العلماء قد عزلوا بعض هذه الجينات التى تحيل الميكروبات المسالمة الى كائنات مستأسدة او خطرة ، واستطاعوا زراعتها في الميكروب المسالم الذى يعيش فى امعائنا ، فاذ به يستأسد - من خلال هندسته الوراثية التى منحه العلماء اياها - ويصبح منيعا ضد مضاد حيوى بذاته .

ومن الممكن - بطبيعة الحال - ادخال الجينات الفيروسية المسالمة او الممرضة الى بعض الكائنات البكتيرية ، وزراعتها فيها ، لتصبح جزءا من جهازها الوراثى ، فتتكاثر معها اذا تكاثرت ، وتسكن اذا سكنت ، وتعبر

عن نفسها بمرض قد يصيب الانسان والنبات والحيوان ، هذا اذا كانت الجينة المزروعة من ذلك النوع الذى يسبب الامراض لهذه الكائنات ولقد تم زراعة بعض هذه الجينات الفيروسية ، الا أن ذلك يحدث فى أضيق الحدود ، وفى معامل جد قليلة تناسب مثل هذه الهندسة الوراثية الخطيرة .

●●●

امكان نقل شيوعية الصفات بين كل الكائنات!

لكن .. هل من الممكن نقل جينة او مورثة من حيوان اوانسان ، لتوضع فى خط التشغيل الوراثى للميكروب ، او العكس ؟

الواقع ان هذه التجربة قد تمت بالفعل ، وانها قد نجحت منذ ثلاث سنوات مضت ، واشترك فيها عدد كبير من الباحثين ، وعلى رأسهم ستة من اكفأ العلماء فى هذا الزمان ، وينتمون الى عدة معاهد وجامعات امريكية مشهود لها بالاصالة وعمق البحوث المنشورة فى هذا المجال ، وبدون الدخول فى التفاصيل العلمية نقول ان هؤلاء العلماء قد اختاروا عدة جينات مناسبة من نوع من الضفادع يعرف باسم **زينوباس ليفيس** Xenopus laevis . وامكن اقحامها فى البكتيريا القولونية ، فتقبلتها قبولا حسنا !

ولقد تمكن بعض العلماء البريطانيين حديثا من تهجين مكونات خلية حيوانية بمكونات خلية نباتية .. صحيح ان هذه التجربة سابقة لاوانها وصحيح انها لايمكن ان تنتج ـ على الاقل فى الوقت الحاضر ـ كائنا جديدا يجمع بين صفات الحيوان والنبات او بين صفات الحيوان والانسان ، او الانسان والنبات ، ولكنها تدل على ان العلماء قد بداوا يكسرون الحواجز التى تفصل بين الخلايا المختلفة للانواع المتباينة من المخلوقات ، وكانما هم يريدون انتاج « سبائك » وراثية مبتكرة ما انزل الله بها من سلطان !

ولقد بدات تجارب الهندسة الوراثية تنمو وتتطور وتتشعب وتنتشر فى معامل كثيرة ، وكانما قد جن جنون العلماء بهذه اللعبة الخطرة ، وتسابقوا فى زراعة الجينات ، ونقلها دون ضوابط او روابط بين الانواع المختلفة من الكائنات ، واصبح الآن من المبادىء المسلم بها انه من الممكن نقل صفة بذاتها من خلية كائن الى خلية كائن آخر لا ينتمى اليه من قريب أو بعيد .. بداية من الفيروس والميكروب والنبات ، الى الانسان سيد الكائنات !

على ان اهم هذه الانجازات العظيمة التي تمخضت عنها الهندسة الوراثية اخيرا هو ما نشرته حديثا مجلة « العالم الجديد » البريطانية New Scientist **بعدديها الصادرين فى ٢ يونيو ، ١٦ يونيو عام ١٩٧٧ عن محاولة العلماء نقل الجينة المسئولة عن صناعة جزىء الانسولين الى البكتريا القولونية ، بغرض دراسة خطة التشغيل الوراثية لفهم اعمق لهذه العملية التي تؤثر في صحة نسبة كبيرة من البشر المصابين بداء السكر ،** وهي ـ على اية حال ـ محاولة جريئة قد تتمخض مستقبلا عن اصلاح الجينات المسئولة عن تصنيع الانسولين فى بنكرياس البشر .. صحيح أن جينة الانسولين المنقولة كانت من احد خلايا بنكرياس احد أنواع الفئران ، لكن قد تكون اليوم فئران ، وغدا قد ياتي الدور على الانسان .

فماذا هناك حقا من أنباء أخرى عن هذا الموضوع الهام ؟!

نقل جينة الانسولين من حيوان الى ميكروب !

فى جامعة كاليفورنيا بدات التجربة تأخذ مجراها على أيدى مجموعة من العلماء تحت

اشراف كل من البروفيسور ويليام وهوارد جودمان ، وبالفعل نجحا فى عزل الجينات الخاصة بصناعة هرمون الانسولين لاحد الفئران ، وزراعتها في البكتريا القولونية المعزولة من امعاء انسان او حيوان ، وتعتبر هذه الخطوة من الخطوات الهامة المؤدية الى امكان دراسة تكوين الانسولين خطوة خطوة في الخلايا البكتيرية اثناء تكاثرها وانقسامها بسرعة لا يجاريها فيها اى كائن حى آخر ، ثم ان نجاح هذه الزراعة ، وما قد يتبعها من تشغيل جينات انتاج الانسولين فى اجسام البكتيريا قد يؤدى الى انشاء صناعة هامة لهذا الهرمون الذى يحتاجه ملايين البشر ، وسيكون المنتج الاساسي فيها هو هذه البكتيريا الجديدة التي تعمل بخط تشغيل هندسي وراثي من ابتكار الانسان العظيم !

ويعلق البروفسور بول بيرج استاذ البيولوجيا بجامعة ستانفورد ــ وهو الذى سبق ان أشرنا اليه ، واعتبرناه الرائد الاول فى هذا المجال ــ يعلق على هذه التجربة المثيرة بقوله « لقد تحققت نبوءة ظلت تراود عقول العلماء طيلة السنتين الماضيتين » ... ثم يضيف بيرج : لكن لابد ان نشير الى ان هناك العديد من الخطوات والمشاكل العويصة التي تحتاج الى حلول جذرية قبل ان تشتغل هذه الجينة بكفاءة فى بيئتها الجديدة (وهو يعني جسم البكتريا الدقيقة) ، ثم انه يعتقد ان حل هذه المشاكل سوف يحتاج الى فترة أطول من الشهور الستة التي حددها رواد هذه التجربة الكبيرة (وكان روتر قد صرح انه وزملاؤه سوف يسيطرون على هذه الجينة لانتاج الانسولين قبل نهاية عام ١٩٧٧) .

ويتطلب نقل الجينة الى البكتيريا عدة خطوات هامة : اولهما : عزل الجينة او الجينات المسئولة عن تصنيع الانسولين من بين مئات الالوف من الجينات التي تحتويها نواة خلية البنكرياس ، وقد تحقق ذلك * . **وثانيها** : تركيب هذه الجينة فى الجينة المعزولة من البكتيريا والتي عرفناها قبل ذلك باسم البلازميد الحلقية ، وقد تم ذلك عن طريق اجراء عملية فك ولحام لكل من الشريط الوراثي فى جينة الانسولين وجينة البكتيريا (البلازميد) ، وفي ايدى العلماء الانزيمات اللازمة لاتمام هذه العملية الهندسية على مستواها الوراثي .. **وثالثها** : ايجاد سلالة او طفرة من البكتيريا القولونية تقبل هذه الزراعة وقد وقع الاختيار على طفرة يطلقون عليها « س ١٧٧٦ » ، وهي من الطفرات التي جهزها العلماء خصيصا للاستعانة بها فى بحوث هندسة الوراثة ، فلكي يدخلوا الجزء المراد زرعه فى « جسد » البكتيريا الدقيق ، كان لابد من تعريضها لصدمة حرارية ، مع معاملة كيميائية بمحلول خاص .. فيؤتى بالبكتيريا فى انبوبة اختبار ، ومعها تخلط الاشرطة الهجينة او الملتحمة ، وتوضع البكتيريا فى محلول مثلج من ملح كلوريد الكالسيوم ، ثم تسخن فجأة وبسرعة ، فيؤدي ذلك الى فتح ابواب او منافذ دقيقة فى « جلد » البكتيريا ، لتسمح بمرور الشريط الجديد الى الداخل ، وبعد فترة ، تغلق المنافذ ، وتعود البكتيريا الى طبيعتها .

ونحن الآن فى انتظار ما تاتى به الايام !

(*) الواقع ان العلماء قد استطاعوا ان يعزلوا الامر الكيميائى الذى يحمله « الرسول » الوراثى (ح ر ن ـ الرسول Messenger - R N A ـ الذى اشرنا اليه) ..وهو امر مطبوع او جزيئات كيميائية مبعوثة من الشريط الاصلى الذى يحمل الخطة في جينته (ح د ن ـ او الحامض النووى) ، واستطاعوا بعد عمليات دقيقة وعويصة ـ ان يتوصلوا الى عمل « طبعة » عكسية من هذا الامر الكيميائى فى انبوبة الاختبار ، اى طبع شريط اصلى من الشريط المبعوث ، مع بعض تحويرات بسيطة يعرفها العلماء حق المعرفة ، ولقدتم ذلك فى سبع خطوات طويلة متتابعة .

بداية فرض القيود على هندسة الوراثة !

ومع ان بحوث الهندسة الوراثية تبشر بآمال عريضة ، ومع انها ستفتح لنا آفاقا واسعة ، وانها ستقودنا الى تفهم أعمق لاسرار الحياة ، الا انها لا تسير وفق ما يأمل العلماء المتحمسون لها ، اذ ــ لاول مرة ــ تصطدم البحوث العلمية بالعديد من السلاسل والقيود التي تشلها عن الانطلاق بحرية تامة ، ولاول مرة ايضا لا يرحب فريق من العلماء بأبحاث فريق آخر من التخصص ذاته في المضي في هذا الطريق المحفوف بالمخاطر ، وكانما ، وكانما نحن مقبلون على « **قنابل** »**وراثية** اخطر بكثير من القنابل الذرية ، ومن اجل هذا عقدت المؤتمرات ، وقدمت الاقتراحات ، وانهالت الاعتراضات ، وسنت القوانين والشرائع ، وقدمت نماذج جديدة لتشييد انواع خاصة من المعامل وحرمت تجارب ، وامتعض العلماء من تدخل من لايفقهون شيئا في تفاصيل بحوثهم ، وكانما هم قد أصبحوا تحت وصايتهم ، او كانما يعيشون في جو قريب من جو العصور الوسطى ، حيث كانت الكنيسة تتدخل في شئون العلماء ، فلاتدعهم يبحثون في شيء يتعارض مع ما وقر في عقول البابوات والناس !

على انه ينبغي علينا هنا أن نقدم بعض آراء العلماء الضالعين في مثل هذه البحوث ، والمدركين لمعظم جوانبها العميقة ، لان ذلك ــ بلاشك ــ يوضح الأهمية التي سوف تتمخض عنها بحوث هندسة الوراثة !

يقول دكتور روبرت شينشايمر
R. Shinsheimer رئيس قسم البيولوجيا بمعهد كاليفورنيا التكنولوجي « لقد وصلنا في عصرنا الحاضر الى نقطة حاسمة في مسألة تطور الحياة على الأرض ، ولهذا السبب فانني اعتقد انه يجب علينا ان نفكر طويلا وجديا في طبيعة عملية التطور التي سنتدخل فيها عنوة من خلال هندسة الوراثة ، وذلك قبل ان يحيق بنا ــ في غفلة منا ــ دمار رهيب ، اننا ندرك جميعا أن هناك عمليات خلط ناجحة بين جزيئات الوراثة في الفيروسات والبكتيريا ، وان هذه الخطوات لازالت متواضعة بالنسبة لمستقبل سيكون فيه خلط المورثات بين النباتات المختلفة ، والحيوانات اللافقارية والفقارية ــ وبدون شك أيضا في الانسان ــ أمرا محتوما ومتطورا .. انني لست معترضا على هذه البحوث ، بل انني على يقين ان هناك نتائج باهرة سوف نحصل عليها في مجال هندسة الوراثة ، وان بعض هذه النتائج ستكون ضرورية من اجل رفاهية كوكبنا واستمرار الحياة فيه ، لكنني لازلت ارى جانبا آخر مظلما من جراء هذه البحوث ، لهذا فان التحفظات التي وضعتها هيئة المعاهد القومية للصحة (في الولايات المتحدة) على تلك البحوث ليست كافية للحد منها ومن اخطارها !

وسر تشاؤم شينشايمر وتخوفه يرجع الى اعتقاده ان هذه البحوث ستتطور الى الدرجة التي يتحكم فيها الانسان في اصول الوراثة على مستوى كل الكائنات ، فيغير فيها ويبدل كيف يشاء ، فاذا كان العلماء قد حصلوا على هذا الكنز العظيم من المعلومات الوراثية في غضون ربع قرن فقط ، فما بالنا بما سيفعله العلماء في القرون المقبلة ؟

ويذهب شينشايمر الى شرح وجهة نظره ، ويذكر أن كل انواع المخلوقات التي نراها الآن هي ثمرة حتمية لعملية تطور طويلة .. طويلة، وانها أخذت من عمر هذا الكوكب حوالي ثلاثة آلاف مليون عام لتضع كل مخلوق في مكانه ، ولقد حافظت الطبيعة على « المخزون » الوراثي لكل نوع من الكائنات ، وحمته من التلوث أو « الدنس » او الخلط مع « المخزون » الوراثي لاى نوع آخر ، ثم ان نشأة الانواع وتطورها كانت تأتي هينة لينة ، وعلى خطوات جد بطيئة ، ولقد كان للطبيعة وسائلها الفعالة

والمعقدة لتأمن وتضمن عدم الخلط فى المادة الوراثية بين الأنواع المختلفة .

واخيرا يجىء الانسان بتحدياته ، ويتخطى الحدود ، ويقتحم سنن الحيـاة اقتحاما ، ويخلط ما يشاء له الخلط بين جينات من نبات وحشرة ، أو بين عفن (فطر) وانسان ، أو اى مخلوق يشاء ، صحيح أن بعض هذا الخلط سيكون عشوائيا ، لكن بالتجارب المرسومة والمقننة ، سوف يتوصل الى تصميم كائنات تدمر ، وأخرى تعمر ... » الخ .

بحوث هندسة الوراثة . تؤجج نيران النقاش !

ومن جهة اخـرى كتبت دكتورة ماكسين سنجر Maxine Singer رئيسة قسم خمائر الاحماض النووية فى المعهد القومى لبحـوث السرطان بالولايات المتحدة دراسة عن هـذا الموضوع الشائك فى منتصف عـام ١٩٧٧ ، وتحت عنوان **« العلماء وانضباط العلم »** تقول « عندما كنت اشارك فى رئاسة مؤتمر جوردون الخاص بالأحماض النووية (شفرة الوراثة) فى عام ١٩٧٣ قلت لزملائى المجتمعين : اننا جميعا نتقاسم الحماس والاعجاب بما ذكره متحدث الامس عندما اشار الى ان البحوث التى القيت فى هذا المؤتمر سوف تسمح لنا بوصل اجزاء من الأحماض النووية (اشرطة الوراثة التـى سبق ان تحدثنا عنها) ، وان هذا سيؤدى الى نتائج مثيرة ، وكـان سبب تحمسنا ان تلـك البحوث ستطوراولا معارفنا عن هذه الجزيئات المدهشة وعن بيولوجيتها المذهلـة ، وسوف تقودنا ثانيا الى استنباط وسائل هامة لكـى نصلح بعض الامراض الوراثية التـى تصيب الانسان ، ورغـم ذلك ، كان لابـد ان نكـون مدركين ان هذه التجارب سوف تثير العديد من القضايا الاخلاقيـة والادبية والاجتماعيـة نتيجة للاخطار المحتملة التى قد تتولد عنها .. ولكوننا ـ نحن معشر العلمـاء ـ نقوم بهـذه التجارب ، ولكوننا نعرف مـاذا تعنى ، كـان الواجب علينا ان نتحمل مسئولياتنا فى حماية جميع المشتغلين فى هذه البحوث من العلمـاء الشبان والفنيين وعمـال المعامل ، ثـم هـى مسئولياتنا ايضا نحو عامة الشعب .. وعلينا ان نبدأ بها من الآن » !

ولقد كان هذا المؤتمر ـ مؤتمـر جوردون الذى عقد فى ١١ ـ ١٥ يونيو عام ١٩٧٣ ـ بداية الشرارة التى اشعلت النار ، وامتدت حرارة المناقشة الى الهيئات العلمية المعنية ، والى الكونجرس ، ثم الـى رئاسة الدولة هنـاك ، وانطلقت عبر المحيط حتى وصلت الى أوروبا، ومما زاد الطين بلة ان اجهزة الاعلام قد تدخلت فى الأمر ، وكتب عـن هندسة الوراثة مقالات مثيرة ومتسرعة ، وبها شحنت رجل الشارع ، وهيأت له المناخ لكى يطالب بأخذ رايه فيمـا يجرى بين جدران المعامل ، لأنه اولا واخيرا هو دافع الضرائب ، وهو الممول لهذه البحوث .

ففى أوروبا ـ وعلى سبيل المثال ـ عقداول مؤتمر فى دافوس بسويسرا فى الاسبوع الثانى من شهر اكتوبر عام ١٩٧٤ لمناقشة الاحتمالات التى ستؤدى اليها بحوث هندسة الوراثة ،وفى بداية افتتاح هذا المؤتمر وقف دكتور ماكس بيرنستيـل Birnstiel مـن معهـد بحـوث الجزيئات البيولوجية وقال : **« اننا الآن على حافة انفجار علمـى فى التحكم الجينى »** (اى **وحدات الوراثة)** .

ولم يكن سبب عقد هذا المؤتمر فى سويسرا ان دول اوروبا قد خاضت هندسةالوراثة ،او توصلت فيها الـى نتائج تدعو الـى المناقشة واقتراح ورقة عمل للمستقبل ، بل كان السبب ـ فى المقام الاول ـ هى تلك الزوبعة التى اثيرت فى الولايات المتحدة حول تلك البحوث ، ولقد حضر هذا المؤتمر بول بيرج الذى تزعم ـ بادىء الامر ـ فى امريكا فكرة الهندسة الوراثية ، ثم هجر معمله طوال اشهر ستة . طاف فيها معظم معامل العالم المتقدم داعيا الى تقييم هذه البحوث

على المستوى العالمي ، وليس على مستوى الدول ، واتخاذ قرار حاسم بشانها ، لكنه فوجيء بأن المؤتمر لم يناقش الموضوع من جوانبه العلمية ، بل انقلب ــ على حد تعبير مجلة نيوساينتست New Scientist البريطانية الى مؤتمر اخلاقى عقائدى دينى ، وكأنما مسائل العلم قد تحولت فيه الى دعوات دينيه مثل العلماء فيها دور رجال الدين، وظل الناس ورجال الصحافة يرقبون ويتعجبون ، ولا يستطيعون ان يدلوا فى الموضوع برأى ناضج !

ولقد اراد بيرج ان يلفت نظر اعضاء المؤتمر انه لم يأت ليناقش موضوعا عقائديا او اخلاقيا او اجتماعيا ، بل ان الامر ينصب على مناقشة الاخطار التى يمكن ان تتمخض عنها هذه البحوث ، واثرها على مستقبل الجنس البشرى خاصة ، وحياة الكائنات الاخرى عامة .

ويعلق تشارلز وايزمان من معهد بحوث بيولوجيا الجزئيات الوراثية بزيوريخ على ما جاء فى اشارة بيرج ويذكر ان البحوث الاساسية هى التى تبحث دائما عن الحقائق ، وان الحقائق ليس لها دلالة او مفهوم اخلاقى او عقائدى ، ثم ان الاخلاقيات ــ على حد قول وايزمان ــ تتغير بالوقت ، لكن الحقيقة لا تتغير ، وان ما يجرى فى هذه القاعة من مناقشات (ولقد كان حوالى ٢٥٪ من المشتركين فيها من غير العلماء) سوف يعطى انطباعا سيئا لدى الناس عن طبيعة هذه البحوث . هذا ومما يذكر ان الحكومة السويسرية قد شطبت جزءا كبيرا من الميزانية التى خصصتها قبل ذلك لبحوث هندسة الوراثة ، عندما تسرب الى علمها ان مثل هذه البحوث تحمل بذور الشر للبشر ، كما ان الحكومة الامريكية او الهيئات التى تمول معامل هندسة الوراثة بدأت بدورها فى التقتير فى ميزانياتها .

ولقد تعمد البروفيسور هنرى هاريس العالم البريطانى الشهير (من جامعة اكسفورد) الا يحضر هذا المؤتمر عندما علم ــ فى آخر الامر ــ ان الصحافة والناس سوف يدسون انوفهم فيه ، وانهم ــ اى غير العلميين ــ قد لا يدركون ابعاد هذا الموضوع العميق ، وقد يشوهون ما يسمعون ، او قد يتدخلون فى ما لا يعرفون ، مما قد يسبب ضياع الوقت والجهد ، ويعوق اتخاذ القرارات العلمية المناسبة ، فمثل هذه المؤتمرات تعقد اساسا ليتحدث فيها العلماء الى العلماء ، ولقد صدقت توقعات هاريس ، لان المناقشات طالت وتفرعت وتمزقت دون التوصل الى نتائج ايجابية لها وزنها !

بداية التشريعات المنظمة لبحوث هندسة الوراثة .

والحق ان موضوع هندسة الوراثة قد لقى من الاهتمام والمناقشات وعقد المؤتمرات والاجتماعات مالم يحظ به اى موضوع علمى آخر ، كما ان العلماء لم يختلفوا على شيء مثلما اختلفوا فى هذا الموضوع ، ونحن لانستطيع ان نتعرض للآراء التى تسانده أو تعارضه لضيق المجال ، ولكنه يعيد الى اذهاننا الجدل الذى ثار بين العلماء والناس حول نظرية التطور لداروين فى القرن الماضى ، مع الفرق بين مضمون هذا وذاك ، فسواء اصابت نظرية داروين او لم تصب ، فان ذلك لن يؤدى الى نتائج تؤثر تأثيرا مباشرا فى حياة الناس ، لكن ان يغير الانسان فى طبيعة المخلوقات ، دون ان يدرى شيئا عما يمكن ان يحمله المستقبل من مفاجآت ، فهذا يتطلب ان ان نعالج الموضوع بدقة وحذر .

ولقد تمخضت الدراسات والمؤتمرات والمناقشات الساخنة التى درات بين العلماء والعلماء ، أو بين العلماء والهيئات والحكومات والناس على مدى سنوات أربع عن تقييم لمدى خطورة تلك البحوث ، ولقد وضعت كل دولة الشروط او الخطوات التى يجب على العلماء اتباعها اثناء القيام بهذه التجارب ، وهى ــ

وان اختلفت فى بعض التفاصيل ــ الا انها تتفق فى المضمون .. هذا وتنوى هيئة الصحة العالمية ، والهيئة الاوروبية للبيولوجيا الجزئية (وبالتحديد جزئيات الوراثة) والمجلس العالمى للاتحادات العلمية فى التعاون بفرض تقديم برامج محددة لتلتزم بها الدول التى تنوى الاضطلاع بمثل هذه البحوث .

ولقد قامت الهيئات العلمية الامريكية بتصنيف التجارب التى يقوم بها العلماء الى درجات أربع :

أولها : تجارب عادية ، وهى التى تقوم بدراسة التركيب الوراثى للميكروبات والخلايا دون اقحام مكونات هذه وتلك فى بحوث هندسة الوراثة ، ويستلزم ذلك بعض الحرص الكائن في معامل الميكروبيولوجيا التقليدية (اى معامل الكائنات الدقيقة كالبكتريا والفطريات والفيروسات) ، ويكفى اجراء هذه التجارب فى المعامل القائمة من قبل .

وثانيها : تجارب الدرجة الثانية ، وهى اكثر من عادية ، وتحتوى على بعض الخطر ، ولهذا تستلزم درجة أكبر من الحذر ، فلا يسمح لهذه الكائنات بالانتشار داخل المعمل أو خارجه ، ولابد من عمليات تطهير أو تعقيم كلما لزم الامر .

وثالثها : تجارب الدرجة الثالثة وهى اخطر من سابقتها ، ولابد من معامل خاصة تصمم على أن يدخل الهواء اليها ، ولا يسمح له بالخروج منها ، خشية أن تتسرب احدى الكائنات التى اجريت عيها عمليات هندسية وراثية ، فغيرت طبائعها .

ورابعها : وهى أخطرها على الاطلاق ، وهذه تستلزم كل مافى هذا الكوكب من حرص وحذر ، ولابد ان تشيد لها معامل ليس فيها ثقب واحد يسمح بمرور الهواء من الداخل الى الخارج ، وتستلزم ان يغير الباحثون ملابسهم كلما خرجوا او دخلوا ، وان يرتدوا ملابس معقمة خاصة ، وبعد الانتهاء من عملهم ، يذهبون الى حمامات بها « أدشاش » ترش عليهم وابلا من الماء المختلط بالمواد المطهرة ، ومنها يخرجون عن طريق مسالك خاصة الى حجرات تغيير الملابس ، وفى داخل المعامل ــ حيث تجرى التجارب ــ توضع احتياطات شتى ، فلا يسمح للعامل أو الفنى الباحث بأن يمسك شيئا من الادوات او الدوارق أو الانابيب ، بل عليه أن يتناولها بمقابض خاصة ، وان يتم ذلك داخل « كابينة » صغيرة معزولة عزلا تاما عن المعمل وعن العالم الخارجى .. وفى هذه المعامل ــ معامل الدرجة الرابعة ــ يتم زراعة الفيروسات فى الميكروبات ، أو نقل الجينات بين نوع ونوع ، أو دراسة الجينات الخطرة او الممرضة ، ثم فصل شرائطها الوراثية وتقطيعها ثم لحمها وزرعها .. الخ ، وفي هذه المعامل تنتج كائنات غريبة وجديدة لم تعرفها الارض قبل ذلك أبدا !

●●●

تصميم ميكروب مناسب للتجارب !

لكن الحذر ايضا يبلغ منتهاه عندما يتخوف بعض العلماء من امكان تسرب بعض هذه الكائنات خارج المعامل ، نتيجة لخطأ غير مقصود ، أو لانفجار فجائى يؤدى لانتشارها في الهواء والتربة والماء ، ومنها الى امعاء الانسان ، فتستعمرها وتعيش فيها كما تعيش الميكروبات الاخرى متوازنة ، أو قد تقلب التوازن ، فلا تبقى فينا ولا تذر .

وما يدرينا ان امعاءنا صالحة لها ، أو ان بيئتها ــ أى الامعاء ــ توافق مزاجها ؟

لان الميكروبات التى يختارها العلماء لهذه التجارب واسعة الانتشار جدا فى الطبيعة ، وان الاختيار يتم على اساس أن هذا الميكروب قد درس اكثر من غيره دراسة وافية ، وان المعلومات الوراثية التى جمعها

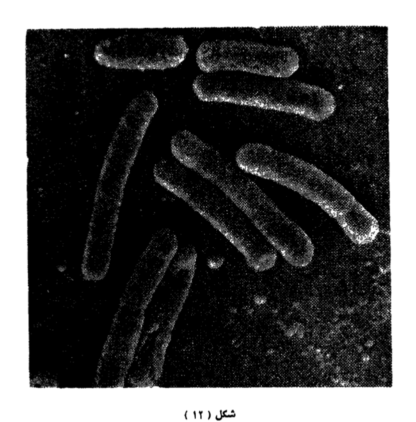
عنه العلماء من قبل تمهد لهم سبل البحث والتجربة، والانسان ـ بطبعه ـ يختارمايعرف ويترك ما لا يعرف ، هذا ، ولم يحظ أى ميكروب بالدراسة والتحليل الدقيق قدر ماحظى الميكروب الذىيعيش فىامعائنا وامعاء الحيوانات ذات الدم الحار (وهو ميكروب أيشير يشياكولاى الذى سبق أن أشرنا اليه .. شكل ١٢) ، ثم ان جزءا من خريطته الوراثية، أو خط التشغيل البيولوجى الكامن على أشرطته قد عرف ، فبعد ثلاثين عاما من الدراسة والتحليل والبحث العميق استطاع العلماء فى جميع بقاع العالم ان يفكوا ثلث رموز الشفرة الكائنة على كروموسومه الوحيد ، وسوف يحتاجون الى سنواتطويلة قادمة لمعرفة باقى التفاصيل !

وقد تنتابك هنا حيرة وتساؤل : هل بعد كل هذه السنين الطويلة من البحوث المتقدمة لم يتوصل العلماء الا لفك ثلث الشفرة الوراثية لميكروب واحد .. ميكروب دقيق لاتكاد العيون تراه ؟ .. واذا كان الامر كذلك مع كروموسوم وحيد فى ميكروب صغير، فهل يعنى هذا ان فك الشفرات الوراثية للانسان سوف تحتاج الى زمان طويل ؟

نعم .. ربما مئات السنين. وهذاينبئك بالخبر اليقين ، خبر أن أسرار الحياة على مستواها الدقيق ليست بالامر الهين ، كما ان ميكروبنا هذا يحتوى في كروموسومهحوالى اربعة آلاف جينة أو مورثة أو « خطة عمل » مسجلة على الشريط ح د ن ، لتشرف على تصنيع وتسيير وتوجيه ما يزيد على أربعة آلاف عملية كيميائية حيوية هى التى توجه دفة هذا المخلوق فى الحياة .. وعلى ذلك الشريط ـ الذى لا يتجاوز طوله ملليمترا واحدا ـ يتراص اكثر من سبعة ملايين رمز شفرى Genetical Code ، فى حين أن طول شريط الفيروس لا يتجاوز جزءا من ألف جزء من الملليمتر ، وعليه ١٧٠ الف رمز شفرى وراثى تكفى لصناعةمئات الانواعمنالبروتينات المختلفة التى يغزو بها الفيروس الخلايا (شكل ١٣) .. اضف الى ذلك ان الفيروسات ضئيلة غاية الضآلة ، لدرجة أن الملليمتر المكعب الواحد يحتوى على ١٠٠،٠٠٠،٠٠٠،٠٠٠،٠٠٠ فيروس (أى مائة مليون مليون !) وهذا يعنى ببساطة شديدة ان العلماء يتعاملون مع عالم يقع فيما وراء حدود الاحاسيس والخيال ، وهم أيضا لا يرون الاشرطة على حقيقتها ، بل هناك أجهزة تحلل وتقدر وتريهم مالا عين رأت ، وعلى هذا العالم غير المحسوس تجرى تجارب هندسة الوراثة ، فربما يساعدنا ذلك على فهم ما يجرى فى خلايانا ، اذ ليس هناك شك الآن فى أن أساس الحياة واحد ، وشفرتها التى تتعامل بها مع كل الكائنات واحدة ، والفكرة بينها جميعا موحدة ، ولهذا فلا فرق بين ميكروب وثعبان وانسان من حيث المبدأ، بل تتجسد الكائنات كما نراها من خلال « كتبها » المكتوبة .. نعنىطريقة انتظام شفرة الحياة على تلك الشرائط !

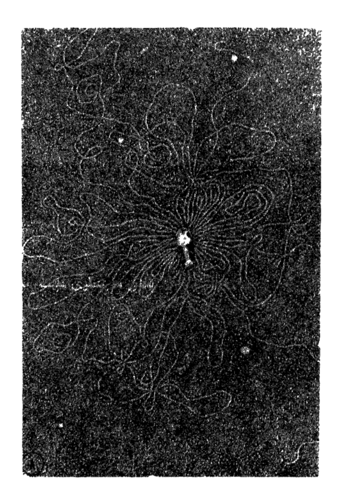
لكن .. لا علينا من كل ذلك ،فالحديث فيه قد يتشعب ويطول ، ولنعد الىميكروبنا الذى يعيش فى امعائنا ، والذى عزله العلماء ودرسوه أكثر من غيره ، ثم اتخذوه بمثابة « حيوان تجارب » في بحوث هندسة الوراثة، ولقد برزت بعض تساؤلات فى أحد المؤتمرات التى عقدت بغرض التوصل الى وسائل كفيلة بمنع انتشار الميكروب « المعدل » هندسيا ، اذ ربما يؤدى بتصميمه الوراثى الجديد الى وباء مدمر ، وتساءل عالم الوراثة روى كيرتس Curtiss : هل يمكن اجراء تغيير وراثى فى « خريطة » الميكروب بحيث نجعله لا يستطيع مقاومة الحياة خارج معامل العلماء ، وعندئذ نضمن عدم انتشاره فيالطبيعة او امعاءالانسان والحيوان ؟

ولقد تحقق ما رمى اليه كيرتس ، اذ أمكنه ـ بمساعدة زملائه ـ من تخليق ميكروب



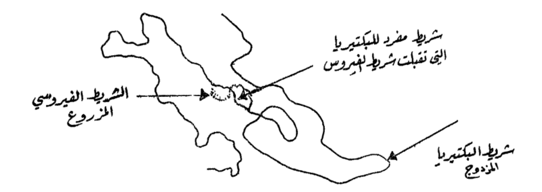
شكل (١٢)

بكتيرة القولـون (ايشير يشيا كـولاى) كمـا يظهرهـا الميكروسكوب الالكترونى .



سكل (١٣)

بوسيله علميه ذكيه أمكن تحطيم (رأس) هذا الفيروس ،فخرج ((مخه)) أو شريطه الوراثى كخيط واحد طويل ، لكنه لا نزيد فى عالمه عن جزء من ألف جزء مـن المليمر (التمفرهالوراثيـة لا تظهر هنـا لأنهـا تقـع فيمـا وراء حـدود المكروسكوبات الاليكترونيه) .



جديد من الميكروب الاصلى ، واجريت عليه التصميمات الوراثية المناسبة بحيث يدمر نفسه فى اية بيئة جديدة غير البيئة التى ارتضاها له العلماء في معاملهم ، ولقد نفذ كيرتس فكرته بخطة ذكية ، ففى المركز الطبى التابع لجامعة آلاباما جرت البحوث على اساس الا « ينسج » الميكروب لنفسه « رداء » سليما يحمى به مادته الحية من التشتت والضياع ، ولقد توصل الى تحديد الجينة ، أو المورثة الحافظة للخطة المسئولة عن تصنيع مادة كيميائية محددة لبنائها فى جدار الميكروب ، وبهذا تعطيه قوة وصلابة وحماية ومناعة (**والمادة اسمها حامض داى امينوبا يميليك** Diamino Pimelic acid) .. ولكى يعيش الميكروب المخلق بهذه الصفة الجديدة ، كان لابد من امداده فى المعامل بالمادة الناقصة التى لا يستطيع لها تصنيعا (بعد تدمير جينتهالمسئولة عن هذا التصنيع)، وبهذا يأخذها ويكمل بها جداره ويعيش ،فاذا فرض وتسلل الميكروب الى خارج المعامل لاى سبب من الاسباب ، فانه لن يستطيع مواصلة الحياة ، ذلك ان احدا لن يمده بما ضاع ، ولهذا يكتب عليه التمزق والانفجار والموت .. فميكروب بغير جدار بقية ،كانسان بغير جلد يحميه !

الميكروب يتحدى العلماء ويقاومهم !

وفرح العلماء بهذا الانجاز العلمى كثيرا، لكن فرحتهم لم تدم طويلا ، اذ من خلال عمليات الطفرة (التغير) التى تحدث فى الميكروبات سريعا (نظرا لتكاثرها تكاثرا رهيبا)، استطاع الميكروب ان يطفر ليعطى سلالة جديدة (يكفى لذلك ميكروب واحد من آلاف الملايين) تستطيع بدورها ان تعيد الى كيانها ما هدمه العلماء بهندسة الوراثة .

ولم يفقد كيرتس وزملاؤه الامل ، فتمكنوا من اكتشاف جينة جديدة ، فأوقفوا خط تشغيلها ، وجاءت ذريتها بالملايين والبلايين دون ان تظهر بينها طفرة وحيدة ترمم ما تهدم !

وفرك العلماء أيديهم فرحا ، لكن ذرية الميكروب المعدل كانت اكثر حيلة وعنادا وتشبثا بالحياة ، اذ استطاعت أن تعيش وتتكاثر حتى ولو لم يمدها العلماء بالخامة التى تبنى بها جدارها ، هذا رغم انها لم تستطيع ايضا ان تصنع هذه المادة بنفسها .

اذن .. كيف عاشت وتكاثرت بدون جدار يحميها ؟

لقد اوقع الميكروب العلماء فى حيص بيص ، الا ان الشاب دينيس بيريرا Pereira ــ وهو خريج حديث يعمل تحت اشراف كيرتس فى هذا الموضوع بالذات ــ قد اكتشف ان الميكروب يسلك سلوكا مثيرا لكى يحمى مادته الحية من التشتت .. اذ كانت الملايين والبلايين منه تتجمع وتلتصق وتتماسك عن طريق مادة هلامية لزجة تحيطها وتحميها ، ولقد أمكن معرفة هذه المادة (اسمها حامض كولانيك Colanic acid) ، وامكن ايضا حرمان الميكروب من خط التشغيل الوراثى المسئول عن صناعتها ، وبهذا فقد اخر خطة وراثية يملكها لاتمام تشييد جداره، ليس هذا فحسب ، بل ان الميكروب اصبح حساسا للاشعة فوق البنفسجية ، ومجرد تعريضه لضوء الشمس يفقده حياته ، وهذا هو المراد حقا !

ثم ظهرت في الافق مشكلة جديدة ،ولابد لها من حل جذرى ، حتى لا «يتزاوج» الميكروب المخلق مع الميكروب الطبيعي ، اذ من المعروف انه تحت ظروف خاصة تمتد بين الميكروبين قناة تزاوج جد دقيقة ، ومن خلال هذه القناة تنتقل المادة الوراثية من أحد الميكروبين الى الآخر ، وفى هذه العملية المختلطة ، تنتج « سبيكة » وراثية جديدة

تحمل صفات الكائنين معا »، (وهو يماثل عملية التزاوج في الكائنات الارقى بما فيها الانسان بطبيعة الحال). وهذا يعنى ان الميكروب الضعيف المنهك الهارب من المعامل لا يزال يشكل خطرا ، اذ قد تواتيه الفرصة لان يتحد مع ميكروب سليم ، حتى ولو كان الهارب فى « رمقه » الاخير ، اذ ما دام التزاوج قد تم ، فلابد ان تحمل الذرية القادمة « بذور » الشر التى زرعها فيها العلماء .

على العلماء اذن أن يصمموا ميكروبا ـ من خلال هندسة الوراثة ـ بحيث لا يستطيع ان يكون جدارا ، ولا ان يلتحم بغيره ليحمى نفسه بمادة لاصقة ، ولا أن يتزاوج مع ميكروب سليم ، ولقد تم الشرطان الاولان بنجاح ، وتبقى مسألة تخليق الميكروب « العنين » .. اى الذى لا يستطيع ان يتزاوج ، ولا يزال كيرتس ومعاونوه يضعون الخطط لطمس الجينة أو الجينات التى تقوم باعطاء الامربصناعةمركب الثايمين (أو«ث») .. وهو أحد القواعد الاربع التى تشكل لغة الحياة على الشريط الوراثى كما سبق أن المحنا ، فاذا تم ذلك ، عاش في المعمل (لانهم يمدونه بالمركب المذكور جاهزا ، واذا خرج من المعمل ، لم يستطع تزاوجا ، ولو استطاع فلن تقبل الخلية الاخرى مادته الوراثية التى جاءت مختلة ، وسيكون مآله الموت سريعا لا محالة !

ومع ذلك ، فبين يدى العلماء الآن مزارع ميكروبية فصلت جيناتها تفصيلا ، لتكون مناسبة لهذه البحوث الجديدة التى يطلقون عليها اسم بحوث هندسة الوراثة ، وهي بحوث بدأت تشق طريقها بصعوبة ، بعد ان توقفت زهاء سنتين حتى يؤذن للعلماء بالسير فى طريق اكثر امنا وسلامة ، وبميكروبات أقل ضررا !

ما بين الطفرة الطبيعية وهندسة الوراثة

بعد هذه الجولة السريعة فى اهم واخطر ما يجرى فى بحوث علوم الحياة (البيولوجيا) فى وقتنا الحاضر ، آن لنا ان نتساءل : ما هى الآفاق المحتملة التى يمكن ان تؤدى اليها هذه البحوث ؟ .. ولماذا يخشاها الناس وبعض العلماء حقا ؟ .. وهل من فائدة ترجى من ورائها ؟ .. ثم ماذا يحمل لنا المستقبل القريب او البعيد من مفاجآت ؟

الواقع اننا تعرضنا قبل ذلك لشرح **بعض ما تنطوى عليه بحوث هندسة الوراثة** من اخطار ، ونضيف الى ذلك ان بعض العلماء ـ وكثيرا من الناس المعنيين بالموضوع خارج نطاق المعامل والبحوث ـ يخشون انتشار بعض الميكروبات (« المعدلة » أو « المحورة » وراثيا بطريق الخطأ او الصدفة أو التلوث او ربما عن طريق حادثة غير متوقعة ، فلا احد يضمن شيئا من الاحتياطات التى يتخذها العلماء فى معاملهم ومع ميكروباتهم التى « فصلوها » تفصيلا لتناسب بحوثهم الجديدة .

ونحن قد نذهب بدورنا الى أبعد من ذلك ونقول : ان بعض الميكروبات التى عايشت الانسان من قديم الزمن ما زالت تعيش بيننا ، وتضرب ضربتها المباغتة دون ان نستطيع القضاء عليها ، صحيح ان جهود العلماء والهيئات الصحية في العالم قد جعلت من بعض الاوبئة اثرا بعد عين (كالطاعون والتيفوس والجدرى الذى ينتشر الآن فى اضيق الحدود) ، الا ان ميكروبات الكوليرا والتيفود والانفلونزا وشلل الاطفال ... الخ ، ما زالت جميعها تعيش بيننا ، دون ان نستطيع القضاء عليها قضاء مبرما .. اضف الى ذلك أن اجسام البشر من قديم الزمن لم تستطع ان تكتسب مناعة تامة ضد بعض انواع الميكروبات والفيروسات .

•••

ففيروس الانفلونزا مثلا لا يضرب ضربته الباغتة القوية ، ويجتاح العالم كله كوباء يمرض مئات الملايين كل بضع سنين ، لا يفعل ذلك الا بعد ان يغير قليلا في شفرة حياته ، ويتحول الى طفرة جديدة لم تتعامل معها اجسام البشر من قبل ، ولهذا يستأسد الفيروس ويشتد ، ثم بعد عدة أسابيع أو شهور تنحسر موجة الوباء ، بعد ان تكون الاجسام قد تعلمت كيف تقاوم هذا البلاء ، ولكى ينتشر من جديد كان لابد ان يغير الشفرة مرة ومرة ومرات ، وهذا ما نعرفه علميا باسم الطفرات ، أو باسمائها الدارجة كفيروس هونج كونج ، أو الانفلونزا الآسيوية أوانفلونزا الخنازير.. الخ.

فاذا كان حال اجسامنا هكذا مع هذا التغير الطفيف فى الفيروس ، فما بالنا اذا قلب الانسان امور التوازن الوراثى في الكائنات ، وتخطى الحدود التى اوجدتها الحياة لتحافظ على الانواع من عمليات خلط قد تؤدى الى فوضى ليس لها من قرار ؟

ثم ان هذا التغير الجذرى السريع قد يؤدى الى قلب الموائد على رءوسنا ، فلا تستطيع الاجسام ان تتصرف حيال كائنات لم تتعامل معها من قبل بهذه الصورة ، وكأنما هى كائنات قد جاءتها من كوكب آخر ، وهنا قد تحل لعنة الحياة على من تلاعبوا بسنن الحياة ، وعلى من لم يقاوموا هذا التلاعب !

ومن البحوث التى تشكل نوعا من الخطورة تلك التى تتناول وصل فيروس بفيروس لانتاج فيروس هجين ، أو زرع أنواع خاصة من الفيروسات فى الميكروبات المعدلة المعزولة من امعائنا ، وبعض هذه الفيروسات له اتصال وثيق بحدوث طرز من السرطان فى أنواع خاصة من الحيوانات .. صحيح أن هذه الفيروسات لم يثبت أنها تسبب أوراما خبيثة فى الانسان ، الا ان انتشارها ، ثم غزوها لامعائنا (فى حالة ما اذا استأسدت السلالة الميكروبية وخرجت من ضعفها ، وانتشارها فيها ، قد يؤدى الى طفرات جديدة الله اعلم بها ، فلا احد يستطيع ان يتنبأ مقدما ما اذا كانت الطبيعة ستضرب ضربتها لتدخلنا فى شئونها ، أو أنها ستتغاضى عن ذلك وتترك الامور تجرى على علاتها ، ولا نظن ذلك ، لان أى خلل في التوازن الطبيعى او الفيزيائى أو الحيوى وما شابه ذلك ، سوف يؤدى الى خلل فى نظمها التى جاءت بهامتوازنة من قديم الزمن (كالخلل الذى أصاب البيئة مثلا نتيجة لتلوث مائها وهوائها وترابها) .

كائنات مفصلة قد تقلب التوازن الطبيعى

ولكى نوضح جانبا آخر من تخوف العلماء من الخلط الموجه بين السلالات والانواع ، كان لابد ان نعود الى التجربة التى نجح فيها دكتور اناندا شاكرا بارتى Ananda Shakrabarty الذى يعمل فى مركز جنرال اليكتريك للبحوث والتنمية بنيويورك .. فبعد سلسلة من التجارب توصل الى عزل الجينة المسئولة عن هضم السيليلوز فى امعاء الحيوانات من البكتريا التى تعيش فيها ، وزرعها فى الميكروب الذى يعيش فى أمعائنا ، وبعد أن تمت التجربة بنجاح ، تخوف من أمكان انتشار هذا الميكروب المعدل فى امعاء البشر ، وقد يؤدى ذلك — كما يظن بعض العلماء — الى اصابة الامعاء باسهال مزمن ، أو قد يكون مميتا !

ويذهب البعض الى أبعد من ذلك ويقول : ان هضم السيليلوز في امعائنا سوف يؤدى الى نواتج قد لا تستطيع امعاؤنا أن تمتصها ، وعندئذ ستعيش على هذه النواتج ميكروبات اخرى ، وتحولها الى غازات كثيرة ، ويعنى هذا قلب امور التوازن الطبيعى والميكروبي الذى عرفته امعاؤنا من قديم الزمن ، ثم ان تناول أى نوع من انواع الخضروات (وهى تحتوى جميعا على نسب متفاوتة من السيليلوز) سوف يؤدى الى تحول امعاء الانسان الى مخزن معتبر للغازات ، ولابد من التخلص

منها أولا بأول ، وهذا امر لا يدعو الى الراحة أو الاحترام !

من اجل هذا ـ وكما يقول شاكرا بارتي ـ وبدون أن اتحقق تجريبيا من ثبوت هذه الظنون ـ قمنا بتدمير هذا الكائن الجديد حتى لا نتحمل وزر ما قد تاتي به الايام (وقد تم القضاء على هذا الميكروب بالفعل منذ سنتين ـ أي عام ١٩٧٥) .

ولقد بدات بعض المعامل في عزل الجهات المسئولة عن تكوين السموم في انواع خاصة من الميكروبات ، وأراد وا زرعها في الميكروب المعزول من امعائنا ، وعندئذ ارتفعت الاصوات منادية بضرورة وقف مثل هذه التجارب الخطرة ، وبالفعل قد أوقفت ، وحسن أنها اوقفت ، اذ لو انتشر هذا الميكروب بسمومه ، فان بيئته الطبيعية ستكون امعاء الانسان ، ولا يمكن لامعاء او انسان ان يعيش والسموم القاتلات تنتشر في داخله ليل نهار !

ثم ان امثال هذه البحوث ستكون بمثابة بذرة لادوات تدمير «شيطانية» في بعض معامل انتاج الميكروبات المستخدمة في الحروب البيولوجية .. صحيح ان بعض المعامل قد توقفت الآن بفضل معاهدات دولية ، لكن احدا لا يستطيع ان يضمن مثل هذه المعاهدات على المستوى العالمي ، وما أكثر ما نقض منها ، ولو تم « تفصيل » ميكروب جديد (كما يفصل الناس الملابس على المقاس) ، لاستخدامه في الحروب ، فان ذلك سيكون اشد دمارا في الأحياء من دمار القنابل النووية وما يصاحبها من اشعاع .

ومما يؤيد انتشار هذه البحوث ـ ربما على جميع المستويات ـ ان الشركات الكبرى ـ لتصنيع الادوية قد اسرعت الى تبني بحوث انتاج ميكروبات « مفصلة » لاستخدامها في انتاج سريع وميسر لبعض المشتقات الدوائية الصعبة المنال ، فهناك احصائية تشير الى وجود اكثر من ١٨٠ معملا لبحوث تخليق كائنات جديدة بطريقة هندسة الوراثة المستخدمة ، وان كل هذه المعامل موجودة في الولايات المتحدة وحدها ، وان ميزانياتها تربو على ٢٠ مليونا من الدولارات ، ولا أحد يدري ان كانت كل هذه المعامل والمصانع قد استحدثت الامكانيات الكفيلة بعدم انتشار هذه الكائنات الغريبة في كوكبنا ، أو أنها لم تستحدثها .

مزيد من الخوف والقيود القاسية !

ولقد صعدت هذه المخاوف وغيرها الموضوع برمته الى أعلى المستويات ، حتى وصل الى الكونجرس الامريكي ، والى الرئيس جيمي كارتر ، **ولقد تشكلت هيئة برئاسة السناتور ادوارد كينيدي لتضع مشروع قانون يحد من حرية العلماء في بحوث هندسة الوراثة** ، ومن المعروف الآن ان هذا القانون سيصدر بعد عدة اسابيع قليلة بعد ان تنتهي الهيئة من وضع لمساته الاخيرة ، ولقد احس العلماء انهم قد اصبحوا لا يملكون التفكير ولا التعبير عن تفكيرهم ونظرياتهم بالتجارب الهادفة .. والا فما فائدة ان تفكر دون أن تعبر أو تجرب ، اللهم الا اذا كنت تعيش في مجتمع رهيب يضع الحدود على أفكار الخيرة ممن يملكون زمام العلم وتقدمه ؟ .. وهل هي ردة او نكسة كالتي اصابت العلم والعلماء في عصور الظلام ؟

ومما زاد الطين بلة ان هذا القانون القاسي سوف يضع القيود الصارمة على نوع التجارب القادمة ، فلا يستطيع معمل او عالم او هيئة ان يجري بحثا الا اذا اخذ ترخيصا من الهيئة العليا المشرفة على هذه البحوث ، واذا حصل على الترخيص ، فلا بد من خضوعه لحملات تفتيشية لترقب ما اذا كانت التجارب تتبع اللوائح بحذافيرها ، واذا ثبت غير ذلك ، فان الغرامات سوف تصل الى عشرة آلاف دولار عن كل يوم انتهكت فيه التشريعات المقيدة لتلك البحوث !

ولاشك ان هذه اول ماساة يتعرض لهـا الفكر العلمى فى عصرنـا الحالي ، وطبيعى ان العلماء لم يقفوا مكتوفى الايدى ، فكان ان دعوا الى مؤتمر عاجل لينا قشوا امورهم ، وانعقد هذا المؤتمر بالفعل فى الاسبوع الثانى من يونيو الماضى (١٩٧٧) ، وكان ذلك المؤتمر نفسه ـ مؤتمر جوردون ـ قد عقد قبل ذلك باربـع سنوات ليتحدث العلماء الى العلماء عن آفاق هندسة الوراثة ، وما يمكن ان يكـون لها او عليها ، وهم بهذا يعرفون ما لهم وما عليهم ، وانهم يتعاملون مع ضمائرهم ، ولا يفرطون في الامانة الملقاة على عاتقهم ، ويدركـون كيـف يتخذون السبل الكفيلة بعدم الاضرار بشعوبهم دون وصاية من أحد ، او نصيحة من مخلوق بل هم أوصياء على أنفسهم ، ولابد ان تنبع النصيحة منهم .

لكن هذا المؤتمر ـ مؤتمر جوردون ايضا ـ المنعقد فى نيوها مبشاير من ذلك العام يختلف عن سابقه ، ففيه يحاول العلماء الافلات مـن قبضة من يريدون تنصيب انفسهـم اوصياء عليهم ، ويطالبون بحريتهم فى بحوثهم ، مـع التزامهم بشرف مهنتهم ، وانتهى المـؤتمر ـ بعد مناقشات ساخنة ـ الى كتابة صيغـة خطاب مفتوح الى الكونجرس الامريكي (وقد نشر ايضا فى مجلة العلم الامريكية وانتقل منها الى المجلات العلمية الاخـرى ، وايضا الـى الصحافة) ، وقد وقعه ١١٠ عالما من المائـة والستين المشاركين فى هذا المؤتمر (وفى نهاية المؤتمرات ينصرف البعض لارتباطهـم بمهام اخرى ، ولهذا فان عدد غير الموقعين لا يدل على عدم موافقتهم ، بل لانصرافهم) .

ولقد كان هوارد جورمان (وهو الذي وضع جينة انسولين الفأر في البكتريا بفرض انتـاج الانسولين كما سبق ان اوضحنا) هو المحرك الاول للمؤتمر ، وهو الذي اوعز الى المجتمعين ان يرسلوا الى الكونجرس خطابا شديدا ، فكان ان تكونت هيئة تضم دكتور والي جيلبرت ، ودكتور ديفيد بوتستاين ، وكلاهما من معهد ماساشوسيتس التكنولوجي ، ودكتور فريد بلانتر من جامعة واشنطن ، مع دكتور هوارد جوردون (الذى أشرنا اليه) ليكتبوا صـيغة الخطاب ، هذا فى الوقت الذى كان فيـه ١١ عضوا منتخبين من قبل الرئيس الامريكـي كارتر يضعون قانون تقييد تلك البحوث منهم ستة خبراء فى مجالات الطب والقانون والاخلاق والشئون الاجتماعية المختلفة ، وليس لهم المام بشئون بحوث جزئيات الوراثة ولا يتبعـون الهيئات الممولة لتلك البحـوث ، والخمسـة الباقون من العلماء ، لكن ليس مهما ان يكونوا من المشاركين فى الوراثة) .

ولقد جاء فى الخطاب المفتـوح الـذي اقره مؤتمر بحوث الوراثة الاخير ما يلي : « اننـا قلقون لان الفوائد التي ستتمخض عنها بحوث اعادة جمع » « حدن » (وهو اختصار لاسـم جزئيات الوراثة .. اي حامض دي أوكس ريبونيوكليك) سوف تنكرها الدولة وتحرمها من خلال تشريع قاس لا داعى له . فمنذ اربع سنوات مضت كان اعضاء مؤتمر جوردون ـ الخاص بمناقشة موضوع الاحماض النوويـة عام ١٩٧٣ ـ هم أول من أثاروا اهتماما عامـا بالاخطار الممكن حدوثها من جراء بحوث اتحاد جزئيات حدن ، ولقد تمخضت المناقشات التي دارت فى هذا الاجتماع عن ورقة عمل وضعتها المعاهد القومية للصحة في عام ١٩٧٦ لرسـم الخطوط العريضة لهذه البحوث » .

« اننا نحن اعضاء مؤتمر جوردون عام١٩٧٧ لبحوث « حدن » قلقون من جراء التشريـع الذي قد يوافق عليه الكونجرس أو الولايات أو السلطات المحلية ، اذ ان هذا التريع سيكون غير عملى وصعب التطبيق ولا يمكن التنبؤ بما جاء به ، مما سيشكل خطورة بالغة على تثبيط البحوث فى هذا المجال ،ثم اننا نشعر ان الحافز لمثل هذا التشريع هو التهويـل او المبالغة فى الاخطار الافتراضية الناتجة عن ذلك التشكك» .

« ان هذا الاجتماع قد اوضح امكان بزوغ الكثير من المعرفة الحقة الناشئة عن اتحاد جزيئات حدن . ثم ان الخبرة التي مارسناها طوال السنوات الاربع الماضية قد اعطتنا المؤشر بانعدام وجود اي خطر حقيقي . لهذا فان القيود التى فرضت على العلم الآن والتى لم يسبق لها مثيل لا مبرر لها » .

« واننا نطالب الكونجرس بالحاح ان يضع هذه الآراء فى الاعتبار ، واذا رأى الكونجرس ان التشريع ضروري ، فعليه ان يكون متسقا بحيث لا يعوق تقدم مثل هذه البحوث » .

صعوبة لغة الحياة وتصحيح مفرداتها !

والواقع ان معظم العلماء حريصون على الاستمرار فى بحوث هندسة الوراثة ، فاذا كانت هناك اخطار ، لكانوا اول ضحاياها ، فهم اقرب الناس حقا ــ بحكم عملهم ــ لهذه الاخطار ، وان يخاطر الانسان بنفسه من أجل الوصول الى الحقيقة ، فذلك ــ بلا شك ــ يدعو الى الاكبار لا الى الانكار ، فهم ــ أي العلماء ــ يشعرون بمرارة من هؤلاء الذين ينكرون عليهم معرفة قد تنطوي على فوائد كبرى لمستقبل الحياة على هذا الكوكب .

فمعرفة لغة الجينة تؤدى الى معرفة الخطأ الذى قد نقع فيه .. فمرض السرطان الرهيب ليس معروفا حتى الآن ، لاننا مازلنا نجهل لغة الحياة المسجلة على شرائطها الوراثية ، وكلما عرفنا تفاصيل اكثر ، وضحت امامنا الحقائق اعظم .

وفى الحديث الشريف « من تعلم لغة قوم امن شرهم » .. صحيح ان هذا الحديث ينطبق على البشر ، ولكنه ينطبق ايضا ــ بمفهومنا الحديث ــ على الخلايا التي لا تصدر منها همسة ولا كلمة ولا شيء مما يدور في عالمنا ، ولكنها تحتوي على اعظم قاموس وراثي كيميائي .. قاموس به لغة ذات حروف اربعة متراصة بنظام بديع ، ولا يقرأ هذه اللغة العجيبة الا نفر قليل جدا من العلماء الذين وهبوا انفسهم وحياتهم ليفكوا **الف باء** الحياة .. صحيح انهم قد يقضون سنين طويلة ، او ربما العمر كله فى لغة « فقرة » كيميائية فى جينة ، لكي يعرفوا منها امر البروتين ، ولقد توصلوا ــ فى هذا المجال ــ الى فك شيفرة عشرات البروتينات المختلفة ، ومنها جزيء الهيموجلوبين الموجود فى الدم ، فهذا وحده يتكون من ٦٠٠ حامض اميني مختلف (عدد انواع هذه الاحماض عشرون ، وهي تؤلف « حروف لغة » البروتينات) ، والذي يجمعها فى هذا الجزيء العملاق اكثر من ١٨٠ شفرة وراثية مرصوصة على شريط غير منظور، ولنتصور التيه الرهيب الذي يعيش فيه العلماء وهم يقرأون سطرا او شريطا عليه كل هذا العدد غير المنظور .. وطبيعي ان اجسامنا تحتوي على اكثر من مائة الف نوع مختلف من البروتين ، ولكل منها شريطه .. ثم ان اى خطأ فى ترتيب الشفرة الكيميائية ، او استبدال حرف بحرف (أي شفرة وراثية محل اخرى) ، سوف يؤدي حتما الى مرض وراثي .. هذا ولقد اكتشف العلماء حتى الآن أكثر من الف مرض وراثى بسبب هذه الاخطاء التي تتعرض لها الجينات ، وكأنما وهم يتعمقون في فهم لغة الجينات ، أو معرفة خط تشغيلها ، يريدون ان يصلحوا للحياة اخطاءها ، أو يصححوا لها هفواتها ، أو يجرون ادق عمليات جراحية لاحلال الصحيح محل الخطأ ! .

لكن المتاهات الضخمة جدا فى خلية الانسان تمنع تشغيل هندسة الوراثة فيها ــ الآن على الاقل ، أو ربما تمنعها لاجيال طويلة قادمة ، فصعوبة التطبيق فوق ما نتصور ، وطبيعي ان أمل العلماء لا يتركز الآن على الانسان ، بل يريدون اولا ان يتعلموا اللغات البسيطة ، وهذه ميسرة وموجودة فى الكائنات الدقيقة ، وعلى هذه الكائنات بدأت البحوث حقا .

ومع ذلك فالعلماء يأملون فى دراسة هندسة الوراثة فى الخلايا السرطانية ، والخلية السرطانية كانت في الاصل خلية عادية عاقلة ، لكنها اصيبت بالجنون ، والجنون فى البشر والحيوان يتركز فى المخ ، وكذلك الحال مع الخلية ، فمخها هو نواتها ، وفى النواة تحفظ الشرائط الوراثية ، ولا بد ان يكون احد هذه الشرائط قد تعرض لشيء من التبديل ، والتبديل أمر جد خطير ، اذ قد يؤدي الى اعطاء أوامر خاطئة تفقد الخلية توازنها ، فيصيبها جنون التكاثر دون ضابط او رابط ، فيظهر على اساسها ورم خبيث .. وطبيعي ان البحوث فى هذا المجال ليست سهلة كهذا الكلام ، بل هي فى الواقع اكثر غموضا من الغاز السماء او اي شيء آخر في الكون .. لكن البداية تكون دائما متواضعة ، ثم تتطور الى الاحسن دائما .

أي ان غاية القصد من هذه البحوث هو انقاذ الانسان من عذابه وآلامه الناتجة من خطأ فى احدى شرائط حياته ، وهندسة الوراثة — حتى ولو بدات على الميكروبات المطعمة ببعض جينات الانسان — كفيلة بارتياد هذه الآفاق المجهولة لمعرفة طوفان زاخر من الاسرار التي لا تنتهي أبدا .

• • •

آفاق عظيمة تفتحها هندسة الوراثة .

لكن العلماء يأملون فيما هو انفع واجدى ، اذ من خلال هذه البحوث يستطيعون عزل واختيار وزرع الجينات المحمودة من كائن الى كائن آخر يستطيع ان يعبر عنها نقل اليه بطريقة اكفأ واسرع واجدى .

ولكي نوضح نقول : ان هناك قلة قلية من الميكروبات التى تمتلك خط تشغيل جينى لاصطياد النيتروجين الجوي وتثبيته فى سلسلة من العمليات الكيميائية الهامة ، وهي تقوم بهذا العمل دون ضجة او اعلان او اشراف من احد ، وهو نفس العمل الذي تقوم به بعض صناعات الاسمدة الضخمة ، لكن هذه الصناعات تتكلف طاقة وجهدا ومالا ، ومع ذلك فنحن فى حاجة ماسة اليها لكي نمد محاصيلنا بما تحتاجه من سماد .

والى هنا تراود العلماء بعض الآمال فيتساءلون : لماذا لا ندرس الجينات المسئولة عن صناعة السماد فى الميكروبات ، ونعرف هندسة خط التشغيل الوراثي فيها ، فننقله الى معظم الميكروبات التي تسكن الثرى ، أو تنتشر فى مياه البحار والمحيطات ، فيعم الخير ، ويتضاعف الطعام ، ليسد بلايين الافواه الجائعة التي سيزدحم بها هذا الكوكب في الاجيال القادمة)

ولو تم ذلك دون مشاكل جانبية ، لكان هذا بحق أضخم واروع هدف يحققه العلماء منذ بدء الخليقة حتى الآن .. ذلك أن معظم ميكروبات الارض والبحار سوف تتكفل بتسميد هذه الرقع الهائلة تسميدا يجعل الناس يحمدون الله على ما آتاهم بفضل هؤلاء العلماء ، اذ مما لا شك فيه ان الانسان خليفة الله على الارض ، والعلماء هم حاملو راية هذه الخلافة بحكم سعيهم الدائب نحو الحقيقة ، وما تتمخض عنه غالبا من خير ورفاهية وتيسير لامور الانسان .

فعدد انواع الكائنات الدقيقة التي «تصطاد» النيتروجين الجوي وتثبته لصالحها ولصالح النبات والحيوان والانسان قد لا يزيد على عشرة انواع ، هذا وهناك عشرات الالوف من الكائنات غير المنظورة التي تعتمد على غيرها فى نيتروجينها لبناء بروتينها ، اذ ان النيتروجين هو اساس البروتين الذي تقوم عليه كل صور الحياة ، ولو امكن السيطرة على تشغيل عدد لا باس به من الميكروبات فى تثبيت النيتروجين الجوي عن طريق وصل خط تشغيلها الوراثي بخط التشغيل الوراثى (أو الجينات) المعزول من اترابها (اي الكائنات الطبيعية التي تثبت

هذا الغاز) ، لتضاعف انتاج السماد ، ولاغلقنا كل المصانع التي انشأها الانسان لهذا الغرض، وعندئذ تصبح هندسته وآلاته شيئا بدائيا ومتواضعا بالنسبة لهندسة الوراثة، يريد السيطرة عليها وتوجيهها لصالح الحياة !

ان احدا ـ فى وقتنا الحاضر ـ لا يستطيع تسميد البحار والمحيطات ، حتى ولو اشتغلت لها اضعاف ما يملك الانسان من مصانع السماد ، ذلك أن هذه المسطحات الهائلة من المياه أكبر مما نتصور ، فيها اكثر من ١٤٠٠ مليون طن من الماء ، وتركيز النيتروجين فيه لا يتعدى نصف جزء فى المليون فقط ، ولهذا كان ذلك الغاز الهام (او مركباته) من العوامل التي حدت من خصوبة البحار ، ولو أمكن مضاعفتها من خلال خطوط التشغيل الوراثية المنقولة الى بعض الميكروبات السائدة فى تلك المياه ، لتضاعفت تبعا لذلك خيرات البحار ، ولأعطتنا باليمين وباليسار .

الفكرة بلا شك جميلة وجذابة وتدعو للانبهار ، وتبشر أيضا بآمال عراض ، الا ان لنا تحفظا وحيدا نسجله هنا لما قد تأتي به الايام.. فزيادة خصوبة المياه من خلال الكائنات الدقيقة المزمع تخليقها قد يؤدي على المدى القصير او الطويل الى خلخلة في التوازن الطبيعي والحيوي الذي عرفته الارض منذ آلاف الملايين من السنين ، وقد ينتج عن ذلك ان تتحول البحار الى « شوربة » غريبة لا يفوح منها الا كل ما هو كريه وفاسد ، ذلك ان زيادة العناصر عن مقنناتها المضبوطة (وخاصة مركبات النيتروجين) ، سوف يؤدي الى تغيير لا يعلم مداه الا الله، فلوا اشتغلت الميكروبات الجديدة، وزادت تبعا لذلك العناصر الغذائية ، فان المستفيد الاول بها ستكون الصور الدقيقة للحياة ، وسوف تتكاثر هذه دون رابط أو ضابط ، وكلما زادت العناصر الغذائية ، زادت تبعا لذلك أعداد هذه الكائنات ، وهنا نقول ان الانسان قد لوث البحار بما ليس فيها ، فالتلوث يقود الى اخلال التوازن ، واخلال التوازن يؤدي الى التلوث .. اي ان هذا ينبع من ذاك ، وعندئذ قد يقول الانسان ، فلندع ما لله لله ، وما لقيصر لقيصر .. لكن قد يقولها بعد فوات الاوان، وعندئذ لا تنفع صلوات ولا دعوات لاصلاح خلل جسيم لا يقدر عليه الانسان .

الا ان هناك فكرة اخرى ـ فى هذا المجال ـ قد لا تنطوي على اخطار جانبية ، فبدلا من زراعة جينات خطوط تصنيع السماد فى الميكروبات، لتمد بها ـ اي الميكروبات ـ غيرها من كائنات لا تستطيع تصنيعه ، بدلا من ذلك ، قد يمكن تحقيق زراعة هذه الجينات راسا فى النباتات التي نمدها من عندنا بالسماد ، بمعنى اننا قد نختار نبات القمح او الذرة أو الارز أو اية شجرة من أشجار الفواكه ... الخ ، ونحاول « غرس » جينة او اكثر فى خططها الوراثية ، من خلال خلية معزولة من اي من هذه النباتات ، ثم نحاول دفع هذه الخلية الجسدية الى التحول الى نبات يافع ليزهر ، فينتج بذوره وثماره التي تحتوي بدورها على الخطة الوراثية المتكلفة بتصنيع السماد من نيتروجين الهواء ، فاذا زرعنا هذه البذور ، فقد تكون البداية الحقيقية لنباتات يافعة قوية غنية بالبروتينات ، وفوق كل هذا لا تحتاج الى سمادنا ، بل هي تسمد نفسها بنفسها ، وفى الوقت ذاته تسمد ارضنا من خلال ما يعود الى هذه الارض من بقايا تلك النباتات ، اسوة بما يحدث الآن مع النباتات البقولية ، فهذه تستطيع ان تعيش عيشة تكافلية مع بعض انواع البكتريا التى تصنع السماد من نيتروجين الهواء ، فهى ـ اى البقوليات ـ تكفل لها حياتها بامدادها بالسكريات التى لا تستطيع لها تصنيعا ، والبكتريا تكفل لتلك النباتات الخضراء مددا من سماد يظل ساريا ما دامت حياتهما قائمة معا، فاذا وصل النبات الى نهاية حياته ، توقفت عملية التكافل ، وتتحلل بذلك جذور النباتات بما عليها من عقد بكتيرية غنية بالمواد

النيتروجينية ، فتستفيد به الارض كسماد لمحصول قادم .

لكن ان ننقل هذه الفكرة وراثيا داخل تكوين النباتات ذاتها عن طريق بحوث هندسة الوراثة الحالية ، ليتكفل كل نبات بنفسه ، دون الاعتماد علينا ، لو حدث ذلك لكان فاتحة لعصر يختلف فى جديته واثارته عن كل العصور الماضية ، وسيكون ذلك اكثر فائدة من اصلاح الاخطاء الوراثية فى الانسان ، كما انه سيكون ــ نسبيا ــ اسهل منالا ، واعظم عطاءا .

يكفى ان نذكر هنا ان واحدة من الحسابات التى اجراها بعض العلماء تقول : انه بحلول عام ٢٠٠٠ فان ارضنا الزراعية سوف تحتاج الى سماد تصل قيمته الى اكثر من مائة الف مليون دولار ! .. وعلينا ان نقارن ذلك بمائة مليون دولار فقط ــ هى تكلفة بحوث هندسة الوراثة لتطبيقها بكفاءة فى النباتات ، والاختيار هنا امر سهل ، فانتاج نباتات « مفصلة » على الجاهز لتصنيع سمادها ، اوفر واكفا حتما من انتاج سماد المصانع المكلف .. هكذا يعلق دكتور جيمس دانيللى رئيس قسم البيولوجيا النظرية بجامعة نيويورك !

●●●

اداة لتصنيع الدوائيات والفيتامينات والهرمونات

على ان هناك آمالا اخرى تتعلق بكثير من الصناعات ، فتصميم المصانع والآلات وهندسة الانتاج التى ظهرت مع ظهور عصر الصناعات الثقيلة والآلية هى من عند البشر ، وتصميم « آلات » الحياة الجزيئية الدقيقة هى من عند الله الذى اتقن كل شىء صنعا ، وطبيعى انه لا وجه للمقارنة بين هذا وذاك ، ولهذا لجأ العلماء الى ما صنع الله ، ففيه كنوز لا تفنى ، لكن هذه الكنوز لا تنفتح الا للعقول التى تبحث عن اسرار الخالق المبدعة ، ثم انها لا تفصح عن مكنونها من اول طرقة ، ولا تستجيب الا لكل باحث دقيق صبور ، فسر الجينة او الجينات هو حجر الاساس فى كل المخلوقات لان كل جينة ــ كما سبق اوضحنا مرارا ــ مسئولة عن كل صفة تظهر بعد ذلك فى المخلوقات ، والجينة لا تشتغل بذاتها ، ولا تكفى ، بل لا بد من معرفة دقيقة ايضا « بالمفاتيح » الكثيرة التى تفتح فيها مراكز تشغيل ، وتغلق اخرى .. مثلها فى ذلك كمثل شريط التسجيل فى عالمنا ، فالشريط بذاته لا قيمة له ، ولا كذلك لما هو مسجل عليه ، ولكى نوضح مضمونه ، فلا بد من آلة التسجيل المعقدة لتظهر ما خفى فيه !

ومن خلال طوفان هذه الاسرار العويصة والمتداخلة والمعقدة يأمل العلماء فى الاستعانة بما خلق الله فى كائناته ، ليخلقوا بها صناعات جديدة لم تظهر على الارض قبل الآن (يستثنى من ذلك طبعا الكائنات الحية) ، ولكى تنجح اية صناعة من الصناعات ، فلا بد من اخذ سرعة الانتاج وتكلفته فى الحسبان ، ثم انتقاء الجينة المناسبة ، لوضعها فى الكائن المناسب ، لتشغيلها فى البيئة المناسبة فى تجهيزات صناعية من ابداع الانسان ، وهذا يعنى ان هناك هندستين : هندسة وراثية وهى الامر الاصعب والابعد منالا ، وهندسة ميكانيكية وانشائية ، وهى الاسهل !

وليس كالميكروب اداة حية فى سرعة التشغيل والانتاج ، ذلك انه ــ اى الميكروب ــ لو وجد البيئة المناسبة ، فان ذريته تتضاعف كل نصف او ثلث او حتى ربع ساعة ، وهذا بلا شك سيؤدى الى انتاج كميات خيالية من المادة الحية فى اليوم الواحد ــ كميات قد تصل بلايين فوق بلايين من الاطنان ، اذ كلما اردت محصولا اكثر ، فعليك ان تمدها بغذاء ميسر .

لكننا لا نريد مادة الميكروبات العضوية (اللهم الا اذا كان ذلك بغرض انتاج محصول

وافر من البروتين والدهون وما شابه ذلك لتحويله الى علف للحيوان ، او طعام غنى بالبروتين للانسان) .. بل نريد بدلا منها مركبات كيميائية محددة من الصعب تصنيعها فى المعامل ، او تصنع بصعوبة ، مما يؤدى الى ارتفاع اسعارها ، لكنها — اى هذه المركبات الغالية — تصنع فى الكائنات الحية بسهولة قد نحسدها عليها ، فهى من قديم الزمن تمتلك شرائط وراثية تطبع منها نسخا او خطط عمل خاصة لتصنع فيها تلك المركبات ، ولهذا فان لعاب علماء هندسة الوراثة يسيل على تشغيل هذه الخطوط من خلال تحكمهم فيها بعيدا عن الكائنات الحية ، اذ ان الكائن الحى يصنع هذه المركبات بحساب ومقدار ، وغالبا ما يحتاج منها كميات جد ضئيلة ، فبعض الهرمونات والفيتامينات والمركبات المسيطرة على اطلاق الاشارات العصبية فى امخاخنا .. الخ ، قد لا يزيد تركيزها عن عدة اجزاء من الف جزء من الجرام ، او ربما من مليون جزء من الجرام ، ثم ان اجسامنا بدورها لا تستطيع ان تصنع بعض هذه الفيتامينات ، ولا بد ان تحصل عليها من الطعام .. اضف الى ذلك ان استخراج بعض هذه المركبات من مصادرها يتطلب عمليات كيميائية عويصة فيها ضياع الجهد والمال .

ومن هذا المنطلق يامل العلماء فى العثور على هذه الجينات فى كائناتها ، ثم عزلها منها ، ووصلها فى الشريط الوراثى لميكروب ، فاذا انقسم انقسمت معه بسرعته الكبيرة المعهودة ، وهذا يعنى اننا سنحصل فى نهاية الامر على بلايين النسخ من الجينة المطلوب تشغيلها ، لكن هذه النسخ — رغم نجاح زراعتها وتكاثرها — قد لا تجود بانتاجها ، ولا بد ان يهيىء العلماء لها الجو المناسب ، او « الملحقات » الكيميائية التى تسيطر على تشغيل الخطة ، واعطاء الامر لانتاج المادة الكيميائية المطلوبة ، او قد يتوصلون الى السر الكامن وراء تشغيل الخطة او ايقافها فى خلاياها الاصلية (اى دون اللجوء الى نقلها الى الميكروبات) ، وعندئذ يستطيعون « الضغط » على «زرارها» لتنطلق العمليات دون توقف ، وبهذا يدوم الانتاج كما يشاء العلماء ، لا كما تشاء الخلايا ، اذ — من خلال هندسة الوراثة — سيصبح الامر بيد الانسان ، لا بيد الحياة !

ولو سيطر العلماء على هذه العمليات حقا ، فسوف تعيش الارض فى خيرات قطوفها دانية ، ولن يشكو الناس فقرا ولا مسغبة ، ولكى نوضح ذلك اكثر كان لا بد ان نتعرض لاضخم واعظم عملية تتوقف عليها حياة كل الكائنات على هذا الكوكب .

التحكم فى عملية التمثيل الضوئى :

لا شك ان النبات الاخضر هو المستفيد الاعظم بالاشعة الشمسية ، وهو القادر على استغلال طاقتها ، وتحويلها الى طاقات كيميائية مختزنة فى الجزيئات العضوية التى تتكون فى كل الكائنات الحية ، وعندما تحترق هذه الجزيئات او تتفكك الى وحدات جزيئية اقل ، فانها تطلق طاقاتها داخل الخلايا والمخلوقات لتستفيد بها فى ادارة كل عملياتها البيوكيميائية .

وعملية تحويل الطاقة الشمسية الى طاقة كيميائية فى النبات الاخضر يطلق عليها اسم التمثيل الضوئى او الكلورفيلى .. وهى اضخم واكبر عملية حيوية على الاطلاق ، اذ يدخل فيها سنويا مئات الالوف من ملايين الاطنان من غاز ثانى اوكسيد الكربون مع مئات الالوف من ملايين الاطنان من الماء ، لانتاج كل صور المادة العضوية فى جميع الكائنات الحية .

ولقد درس العلماء هذه العملية بالتفصيل ، وما زالت بعض اسرارها غامضة حتى الآن ، ويامل العلماء فى معرفة تفاصيل لغة الجينات التى تسيطر على تصنيع جزيئات الكلوروفيل فى النباتات ، وهم يأملون ادخال هذه العملية

تحت بنود بحوث هندسة الوراثة الجزيئية ، ليزيدوا من كفاءتها وسرعتها وتمثيلها ، اذ ان النباتات لا تستطيع الآن ان تستفيد بأكثر من نصف بالمائة من الطاقة الشمسية ، ولو ضاعف العلماء - بطريقة او بأخرى - استفادة النباتات بهذه الطاقة ، لتضاعف انتاجها تبعا لذلك ، ولاعطت ثمارا وحبوبا وانتاجا يسر الناظرين.

او قد يدفع العلماء النباتات - من خلال بحوث هندسة الوراثة ايضا - الى الاسراع فى معدلات نموها ، بمعنى ان يختصروا الفترة التى يمكثها النبات فى الارض (لكى يجود بمحصوله) الى النصف او الثلث او الربع ، وبهذا يمكن زراعة الارض باكثر من ثمانية او عشرة محاصيل سنويا .. كل ما هنالك ان يتعمقوا فى الضوابط التى تسيطر على خط التشغيل الوراثى ، ومن هنا قد يفتحون العيار على اخره ، اسوة بما يحدث فى السرعات المختلفة التى يمكن ان تنطلق بها اية آلة او سيارة ، فان شئت اسرعت بها ، وان شئت ابطات ، فلكل امر هنا تحكم آلى هندسى ، وهكذا ربما تتطور بحوث هندسة الوراثة ، وتسرع بعمليات الكائنات ، او تبطىء فيها من خلال خطوط تشغيلها .

والواقع ان هناك كثيرا من الآمال المعقودة على هندسة الوراثة .. صحيح ان الصعاب التى تكتنفها ليس لها حدود ، وان تداخل العمليات الحيوية المعقدة قد يصيب اعظم العقول بالحيرة والغثيان ، لكن حماسة العلماء ، وجاذبية اسرار الحياة ، والتنافس العظيم الكائن بين معامل البحوث والجامعات ، والميزانيات الكبيرة التى ترصدها الدول الغنية لبحوث الحياة .. كل هذا وغيره كفيل بالاسراع فى تحصيل كنوز هائلة من المعرفة لكى نغزو بها هذا العالم المثير ، ومما يشجع على ذلك ان ما ينشره العلماء الآن من بحوث فى سنوات ، يساوى كل ما نشره الاسبقون فى عشرات او ربما مئات السنين ، وهذا قد ينبئك بأن مفاجآت المستقبل القريب او البعيد قد تكون اغرب من تصورات البشر وخيالهم ، فكل شىء يتطور الآن بسرعة مذهلة ، « ولكن أكثر الناس لا يعلمون » !

هندسة الوراثة قد تحور فى انسان المستقبل !

على ان هذه البداية المثيرة والعظيمة فى بحوث هندسة الوراثة ، ثم استجابة بعض الكائنات لمساعى النخبة الممتازة من علماء هذا الزمان ، ثم النجاح المبدئى الذى تحقق ، فشجع الرجال على خوض جميع التحديات .. كل هذا وغيره قد اثار فينا بعض الخيال ، ورب فكرة تكون اليوم خيالا ، فتصبح حقيقة فى المستقبل القريب او البعيد ، فما اكثر الافكار الخيالية التى تحققت بالمساعى العلمية الحميدة.

اذن - فماذا يدور فى العقل من تصورات ؟

ان النفس تراودنى ، والعقل يحاورنى ، والخيال يداعبنى بان بحوث هندسة الوراثة قد تذهب - بعد مئات السنين - الى ابعد مداها ، وتحاول التلاعب بجينات الانسان ، وتفصلها حسب هواها ، فتضيف اليها ، او تحذف منها ما تشاء ، على اساس ان تبقى للانسان صفاته الطبيعية ، بالاضافة الى صفات اخرى نقلت اليه من كائنات شتى ، ليصبح مخلوقا يجمع صفات الانسان والنبات ، او بعض صفات حميدة من الحيوانات !

فانسان المستقبل الناتج من تشغيل خطوط وراثية اخرى قد لا يلتهم اللحوم ولا الدهون ولا النشويات ولا اى نوع من انواع الاطعمة الصلبة ، وقد ينظر الى تاريخنا وعاداتنا الماضية ، بعد ان نكون قد انقرضنا كنوع رمام يعيش على اجساد غيره من نبات وحيوان .. قد ينظر الينا ويقول : كم كانوا متوحشين هؤلاء الذين عاشوا فى القرون الماضية !

فانسان القرون القادمة قد يتحول الى انسان كلوروفيلى او اخضر اللون ، هذا لو تصورنا مثلا ان العلماء قد وضعوا فى خط

تشغيله الوراثى الجينات المسئولة عن صناعة الكلوروفيل ، وانه من خلال بحوث عميقة وطويلة ومضنية قد امكن تشغيل هذه الجينات، لتنتج المادة الخضراء التى تنتشر على بشرتنا، جنبا الى جنب مع مركبات الدماء ، وما على الانسان لكى يشبع الا ان يعرض جسمه للشمس قليلا او كثيرا ـ يتوقف ذلك على درجة جوعه، فاذ بهواء زفيره يتحول الى مركبات سكرية، وهذه قد تختزن على هيئة نشا حيوانى او دهون .

وماذا اذن عن البروتين او اللحوم ؟

قد ينجح العلماء فى نقل الجينات التى تستطيع تحويل الاملاح النيتروجينية الى مركبات بروتينية ـ تماما كما يفعل النبات ، ولهذا يكفى هذا النوع الانسانى الجديد (او الانسان الاخضر) مشروب خاص مضاف اليه تلك الاملاح او هذا السماد الانسانى ، مع مزجه بمواد ذات نكهة طيبة ليكون المحلول لذة للشاربين !

وقد تأتى السلالات البشرية بروائح عطرية طيبة ، فبدلا من هذا العرق الذى يظهر على جلودنا ، وقد يتحول ـ بالاهمال ـ الى روائح فيها بلاء للمستنشقين ، بدلا من ذلك قد يعرق الجسم بنفسجا او وردا او ياسمينا .. الخ ، والفضل فى ذلك يرجع الى هندسة الوراثة التى استطاعت ان تزرع جينات الروائح العطرية ـ كلا على حدة ـ فى الخلايا البشرية!

اننا بلا شك مقبلون على عصر قد تتحقق فيه امور لا تطرأ على عقل بشر ، ولقد وضع الانسان الحالى البذرة، وسوف ترعاها الاجيال القادمة بالتهذيب والصقل والتطوير ، حتى تؤتى ثمارها ، وانا لمنتظرون ، ونرجو الا يطول الانتظار ، لنرى تحقيق بعض هذه الامال الكبار ، ولنعلم ان كل شىء يسير بحساب ومقدار ، ولا يدرك ذلك تمام الادراك، الا كل من بحث فجمع فأوعى فعرف فقدر الله حق قدره . . **« وما قدروا الله حق قدره »** ، فابداع خلقه يمتد امام عقولنا وعيوننا بغير حدود ، « ولكن اكثر الناس لا يعلمون » .

* * *

المراجــع

١ ـ دكتور عبد المحسن صــالح : « اليــوم ضفدع وغدا انسان » ، آفاق عربية (العراق) عدد ٧ (١٩٧٦) .

2. Bennet, W. and Gurin, J.,; "Public and Science Regulation". The Atlantic (Monthly) Febr. 1977.

3. Cohen, S.W. „The Manipulation of Genea". sci. Amer. Vol. 233. No. 1. 1975.

4. Ched, G., „Genetic Engineers discuss and our Future". New Sci. Vol. 65 No. 939 1975.

5. „Threat to U.S. Genetic Engineering". New Sci. Vol. 71 No. 1007 1976.

6. Davis, B.D. and Wald G. „Genetic Engineering Debated by a Spirited Pair". Sci. Dig. Vol. 81 No. 6 1977.

7. Hogness, D.S. „Human Use of Genetica", In The Great Advernture. Perennial Labr. 1974.

8. Holliday, R,., ,Should Genetic Engineering be Contained? New Sci. Vol. 73 No. 1039 1977.

9. Hyde, Margaret. The New Genetica. Pub, Franklin Vette, New York, 1974.

10. Jones, A. and Bodmer, W., Our Future Inheritance : Choice or Chance? Oxford University Press 1974.

11. Lewin R., „The Future of Genetic Engineering". New Sci. Vol. 64 No. 919, 1974.

12. "U.S. Genetic Engineering in a Tangled Web". New Sci. Vil. 73 No. 1043 1977.

13. „Scientists blacklash against U.S. legislation on DNA" New Sci. Vol. 74 No. 1057 1977.

14. Michael W. Berns. "The Carbon-copy world of cloning". Encyc. Brit. Yearbook of Science and the Future 1975.

15. Shinsheimer, R. "An Evolutionary Perspective for genetic Engineering". New Sci. Vol. 73 No. 1035 1977.

16. Singer, Maxine " Gemetic Engineering. Four Year on Scientists and the Control of Science. New Sci. Vol. 74 No. 1056, 1977.

17. Time Special Report : Tinkering with Life. Vol. 109 No. 16, 1977.

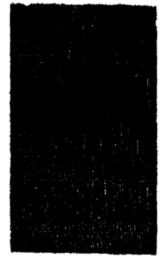
18. Tooze, J. "Genetic Engineering in Europe" New Sci. Vol. 73 No. 1642, 1977.

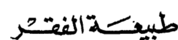
13. Wade, N. „Hazzards and Restraints in Genetic Engineering" Science Vol. 195 1977.

20. Ziff, E. „Benefits and Hazzards of Manipulating DNA", New Sci. Vol. 60 No. 869, 1973.

* * *







عرض وتحليل : الدكتور يحيى فايز الحداد

على الرغم من العنوان المضلل الذى يحمله هذا الكتاب الا أنه يقدم لنا دراسة تفصيلية للتغير الاجتماعى والاقتصادى الذى تعرضت له قرية افريقية من قرى جامبيا خلال الفترة الواقعة بين ١٩٤٧ و ١٩٧٤ . لقد شاركت مؤلفة هذا الكتاب فى دراسات ميدانية أجريت فى هذه القرية عامى ١٩٤٧ و ١٩٦٢ ، أما الدراسة التى يتضمنها هذا الكتاب فقد قامت المؤلفة باجرائها عام ٧٣ ــ ١٩٧٤ . ومما يعطى لهذه الدراسة نوعا من التفرد والتميز هو استخدام المؤلفة لنفس الفريق الميدانى الذى اشترك معها فى الدراستين السابقتين ، وكذلك اتباع طرق القياس الكيفية والكمية التى استخدمتها فى دراستها الاستطلاعية عام ١٩٤٧ .

ان صورة التغير الذى تلقى هذه الدراسة الضوء عليها هى صورة قاتمة وكئيبة ، فالتغير التكنولوجى الاساسى الذى تم احداثه خلال ربع قرن هو استخدام الماء كمصدر للطاقة وتطوير الحصول على الطاقة الحيوانية ، هذا بالاضافة الى الطاقة الانسانية التى يمتلكها المجتمع . وبينما كان يفترض ان يؤدى ذلك ــ من حيث المبدأ ــ الى زيادة كبيرة فى كمية الطاقة الجديدة المكتسبة نظرا لتعاظم الامكانيات المتوفرة لانتاج هذه الطاقة ، الا ان الشواهد الامبريقية التى اكدتها هذه الدراسة تشير الى استمرار فقدان الرأسمال الانسانى القادر على الانتاج نظرا للاهمال الشديد الذى تتعرض له هذه الطاقة الانسانية ، وظهور طبقة جديدة فى القرية تتحكم بالمجتمع وبموارده . فالارصدة المتوفرة اصبحت تنفق ــ وبشكل متزايد ــ لتمويل أشكال جديدةمن الحاجات الاستهلاكية بدلا من استخدامها فى مجالات الاستثمار ، كما اضحى الفقر مقننا Institutionalised . فالخوف من الجوع قد اختفى الى حد بعيد الا أن الفقر بمعناه العام ــ العجز بأن نعيش حياة

مشبعة ـ هو الذى يولد الخوف اليوم. فشباب القرية الذين حالفهم الحظ ونجوا من مرض عضال أو عجز جسمانى سوف يحاولون بلا شك الهرب من ظلمة وكآبة حياة القرية الى اضواء المدينة المتلألئة ، وذلك في بحثهم اللامنتهي عن الهوية والاشباع .

ويبدو أن مدى الضرر النفسى الذى تتعرض له نسبة كبيرة من سكان المناطق الاستوائية وشبه الاستوائية نتيجة لانخفاض انتاجها الزراعى ، ذلك البلاء الذى مصدره بلاشك المجتمعات الغنية (لسيطرتها الشاملة على موارد الغذاء العالمية وعدم اكتراثها المبكر للمؤشرات التى تنذر بقرب حلول كارثة فى كمية الغذاء العالمى المتوفر) . يصعب الآن تقديره وتحديد النتائج المترتبة عليه . ان أول ضحايا مخططات التنمية الغربية (برامج المعونة الغذائية والعجز عن الادراك بان شعوب البلاد الاكثر فقرا ليست جموعا عاجزة عن الحركة والانتاج ولكنها نماذج بشرية قادرة على الاستجابة للحوافز الشخصية) هى بلاشك حكومات ومجتمعات الدول الاكثر تخلفا وفقرا.

لقد شكلت الممارسات الزراعية التقليدية طريقة لحياة المواطنين الريفيين الذين يخضعون للعزلة النسبية ، فكان عليهم تكييف نشاطاتهم الاقتصادية بما يتلاءم ودورة فصول السنة ، والقبول بنموذج من اقتصاد الوفرة والندرة فى الموارد الغذائية يخضع للتقلبات الجوية التى لا سيطرة لهم عليها .

ولكن تدخل الوكالات الدولية وكفاحها من اجل الحصول على مزيد من مساعدات التنمية التى تقدمها الدول الغنية لما يسمى بالدول الفقيرة قد دفع العديد من الحكومات الوطنية فى دول العالم الثالث الى اتباع المسار المضلل للنمو . وبسبب بطء عملية النمو فى سوق العمالة الحضرية فان الاعداد الضخمة من السكان الريفيين الذين تزخر بهم حاليا مجتمعات الدول النامية سوف تتزايد خلال العقود المقبلة بصورة مضطردة ومطلقة . هذا ولن تفلح ضغوط مايسمى « بالبروليتاريا الفلاحية » فى التمكن من اقامة مجتمع استهلاكى شبيه بذلك المجتمع الذى تتمتع به الصفوة الحضرية ، وذلك بسبب مواصلة انغماس هذه البروليتاريا فى انتاج المواد الغذائية التى تكفل لها البقاء على قيد الحياة .

وهكذا فان مانلاحظه اليوم من احتجاج شعبى صاخب على نقص الغذاء العالمى لايعدو عن كونه تقنين للفقر Institutionalisation of Poverty واقرار به ، فى الوقت الذى يطبق فيه الجهل فى القطاعات الريفية للمجتمعات النامية بدوافع الانتاج وحوافزه .

استمرارية النماذج القديمة فى ظل التنظيمات الجديدة :

ان الشواهد التى تقدمها هذه الدراسة عن حياة مواطنى هذه القرية ـ عبر ربع قرن من الزمن ـ تعزز الآراء التى اشرت اليها سابقا ، حيث أن ما تتعرض له من نقص فى كمية الغذاء المحلى المتوفر لديها فى عام ١٩٧٣ هو نفس النقص الذى كانت تعانى منه فى عام ١٩٤٧ ، وما استجد الآن هو تدخل تلك السلسلة المتصلة من العوامل الخارجية ـ سياسية ، اجتماعية ، اقتصادية ـ والتى تأثرت بها العلاقات الانسانية ومصادر الطاقة البشرية .

وهكذا لا يجوز القول بان النقص الحقيقى فى كمية الغذاء العالمى ـ الذى تعانى منه البشرية الآن ـ ظاهرة عالمية ناجمة عن الاعتماد الكلى للانسان على العوامل المناخية . ان تخوف

الانسان المستمر من امكانية التعرض للخطر وبحثه الدائب عن الطمأنينة يشكل فى حد ذاته ابرز الخصائص الانسانية سيطرة واكثرها تحكما فى سلوكه وتصرفاته . وتتمثل هذه الخاصية فى ادنى مستوى لها فى حاجة الانسان الى الأمن وسعيه الدائب لتأمين احتياجاته الاساسية من أجل البقاء : الماء ، الغذاء والمأوى . ان ما تعرضت له الطاقة البشرية فى دول العالم الثالث من اهمال قد نجم عن الزيادة الحاصلة فى انتاجية الوحدات الزراعية للدول التى تبنت التكنولوجيا الحديثة واستخدمتها بنجاح ، ولقد اتاحت شبكة المواصلات الحديثة الفرصة لنقل الفائض الغذائي المتراكم لدى تلك الدول الى المجتمعات التى تعانى نقصا فى تلك المواد الغذائية .

ولايبدو أن هذا الاتجاه السائد ــ تحويل الفائض الغذائي الى الدول المحتاجة ــ منذ عام ١٩٣٥* هو الذى أدى الى احداث تغيرات فى قيم وتنظيمات تلك المجتمعات التى اعتمدت على هذا الفائض . فمزارعو تلك المجتمعات يفتقرون الى التقاليد أو الخبرة فى العمل التعاونى ــ الا على المستوى المحلى الضيق ــ ، ويبدو ان اهم ما تعرضت له تلك المجتمعات الريفية من تكاثر عدد التجار المحليين وزيادة عدد أصحاب المحلات الصغيرة واستحداث شبكة مواصلات افضل ، حيث يقوم هؤلاء التجار وأصحاب المحلات فى مواسم الحصاد بشراء فائض المحاصيل الزراعية بأسعار زهيدة ، كما يمنحون القروض للمزراعين فى أوقات الضيق بفوائد مرتفعة . فالاهمية المترتبة على وجود التجار المحليين يمكن تبينها من مدى اعتماد المزراعين على التجار فى تأمين حاجات العيش والبقاء ، فالمشترى المحلى مهم جدا كمصدر للسيولة النقدية اللازمة للحصول على المواد الغذائية وغيرها من الحاجات الشخصية .

ويمكن اقتفاء اثر هذا النموذج من التعامل فى المجتمع التقليدى على الرغم من تغير وسائل التبادل ، ان عملية الحصول على المعونة والمساعدة فى تلك المجتمعات التقليدية تقوم على مجموعة من قواعد السلوك المتفق عليها ضمن اطار سلطة العائلة الممتدة . ففى ظل اقتصاد مغلق يعتمد كليا على المجهودات الذاتية لافراده من أجل توفير احتياجاته من الغذاء ، يكون فى مقدور الفرد الذى تتعرض مزروعاته لموسم حصاد سيء الاعتماد على أقربائه لمساعدته فى تجاوز هذه المحنة على أساس السداد العينى فى موسم الحصاد التالى . ويترتب على استخدام هذا الاسلوب من التعامل فى مجتمع يقوم على الاقتصاد النقدى أسوأ النتائج . فالصفقة التى تتم بين المزارع او التاجر الصغير والدائن تؤدى الى ربط ذلك المزارع او ذلك التاجر بحلقات متصلة من الديون التى يعجز عن الايفاء بها والتخلص من ربقتها . وفى مجتمع تغزو البضائع الاستهلاكية أسواقه ويشجع أبناءه على شرائها ، فى حين ان دخلهم الذى يعتمد على الانتاج الزراعى ــ المنخفض المردود المادى ــ لايتيح لهم فرصة الحصول على هذه البضائع ، فى هذا المجتمع تسود صورة من الحاجة الدائمة ــ الفقر الدائم ــ تؤدى الى التوقف عن الانتاج (لسوء الحالة الصحية وانخفاض الكفاءة والفعالية) مما يترتب عليه خسارة للمجتمع وهدر لطاقاته .

---

* فى عام ١٩٣٥ قامت عصبة الامم بتنبيه الحكومات لاول مرة ــ الى مشكلة النقص فى كميات المواد الغذائية وسوء التغذية الذى تعانى منه بعض المجتمعات الانسانية .

فلسفة الاقتراض من أجل الغذاء

The Philosophy of " Borrow and Eat"

تعتمد الزراعة فى المجتمعات البدائية على الحرث اليدوى ، ونظرا لانخفاض مستوى انتاجية اراضى تلك المستوطنات فان كمية الغذاء المنتجة تكون محدودة وهامشية ، مما يؤدى بالضرورة الى الاقتراض المتبادل للغذاء بين الأسر المختلفة ضمن اطار سلطة العائلة الممتدة . وعندما تتعرض هذه المعادلة للخلل نظرا لتدخل عوامل جديدة واستخدام مصادر أخرى للطاقة ، مما يؤدى الى تحطيم القيود الموسمية وتجاوز امكانيات الطاقة البشرية ، فان ذلك قد يعنى بالضرورة زيادة فى الانتاج الزراعى تؤدى بدورها الى توفير احتياجات المجتمع الغذائي وتحقيق درجة عالية من الاشباع والطمانينة لدى أبنائه .

ولكن طالما يتجاهل رجال التكنولوجيا ، من ناحية ، الفائدة المترتبة على استغلال تلك الطاقة البشرية الكامنة والقادرة على الاستفادة من استخدامات التكنولوجيا الحديثة والتى تستهويها البضائع الاستهلاكية التى تغمر الاسواق ، فى حين تقوم التعاونيات الممولة والمدارة من قبل وكالات الحكومة ، من ناحية اخرى ، بتشجيع المنتجين لأخذ القروض لتغطية احتياجاتهم المعيشية فى مقابل رهن محاصيلهم . وما يمكن تسميته فى هذه الحالة تقدما ، ليس هو فى الحقيقة والواقع الا فقر مدقع ومقنن . وتزداد خطورة هذا الموقف عندما تشرع غالبية المزراعين فى وضع التشريعات والقوانين التى تكفل لهم مصدرا « رخيصا » لقروض منظمة ، باعتبارها واحدة من الوسائل الرئيسية التى تؤمن الحصول على الخبز اليومى ، وهذا يعنى ضمنا السماح للاستهلاك بأن يفوق الانتاج فى القطاع الزراعى الذى يعانى من نقص التمويل الاستثمارى . ولكن طبيعة هذه المصروفات الاستهلاكية والتى تبدو كمعيق للتنمية هى فى الواقع جزء لا يتجزأ من فلسفة اقترض وكل Borrow and Eat .

ان النتائج المترتبة على استخدام الادارة العصرية فى تعبئة الموارد وزيادة الانتاج لاتفوق من حيث الأهمية ذلك الرأسمال البشرى الذى يمتلكه ذلك الشعب . والخطوات التى كان مأمولا تنفيذها لتنمية الموارد خلال ربع القرن الأخير لم تتعرض فقط للتباطؤ الشديد فى تنفيذها دون مشاركة حقيقية من السكان المحليين ، وانما تركزت الجهود أيضا على العمل لزيادة سرعة النمو الاقتصادى باستخدام الاختراعات التكنولوجية التى استهدفت تحديث القطاع الزراعى ، مهملة فى ذلك أى مشاركة ممكنة للعنصر البشرى فى هذه العملية الانتاجية ، مما أدى الى ضعف هذه الطاقة الانسانية نتيجة تعرضها لامراض فتاكة ومزمنة وعجزها عن القيام بدورها الانتاجى فى القطاع الزراعى . ان الاقتصاد الذى يقوم على عمالة تنتشر الامراض المزمنة بين أفرادها انما يتعرض لضغوط شديدة تتمثل فى النفقات الاضافية اللازمة لتوفير الدواء والحصول على التعويذات (السحر) لحماية الجسد ، والمساعدات اللازمة لتخفيف العناء والشقاء الانسانى ، وتأمين المواصلات للحصول على المعالجة الطبية ، وتوفير الصابون والمساحين التى تحقق النظافة الصحية ، هذا بالاضافة الى توفير السجاير والمشروبات المسكرة (الروحية) .

لقد تلاشى اليوم لدى معظم شعوب المناطق الزراعية ذات الدخل المنخفض ذلك الخوف من الجوع ، الى حد بعيد ، وذلك نتيجة للدور الذى يقوم به الوسطاء الدوليون ، والسهولة

الكبيرة التى تتم بها تعبئة الفائض المحلى ونقله الى اى بقعة علـى الكرة الارضيـة فى سرعـة متناهية . لقد زالت ظاهرة الاحساس بالخوف من عدم امكانية توفير المواد الغذائية الاساسية، وذلك بسبب الثقة الساذجة لدى أفراد المجتمع بحتمية قيام الحكومة بتوفير هذه الحاجـات بطريقة ما ومن مكان ما اذا ما اقتضت الضرورة ذلك . وقـد أدى ذلك الـى اختفاء فلسفـة (اقترض وكل) التى لاتستند الى أى تبرير اقتصادى .

اعادة صياغة تعريف ((الفقر Poverty)) :

ان الفكرة السائدة والقائلة بسيطرة الطبيعة وتحكمها فى حياة الانســان ومعيشتــه ، قـد أغفلت على مايبــدو المرونة التـى يتمتع بهـا الانسان فى تعامله مع مختلف التغيرات التـى تتعرض لها البيئة الطبيعية ، حيث يذكرنـا جروف Grove مثلا بأن ((دور الانسان فى ارتياد الصحراء والتغلب على قساوة الحياة فيهـا قديم جدا ، لقد عرف الانسان كيفية الحصول على النار منذ العصور القديمة ، وقام منـذ عشرة آلاف سنة برعى حيواناته على أطراف الصحارى ، كما قام باستغلال المناطق الاكثـر ملاءمة للزراعة ، وأقام المستوطنات الكبيرة ، واستخدم اخشاب الاشجار التى قام بقطعها للحصول على الوقود وتشييد الأبنية . (١)

فالكوارث والنكبات كانت ملازمة للانسان دوما ، كما انه سيستمر وقوعها بفعل العوامل المناخية والطبيعية . ولكن عندما تستخـدم الوكالات الدولية حدوث مثل هذه الكوارث او تنبئها بامكانية حدوثها كمبرر للقيام بعمليات اغاثة وبرامج تنموية ضخمة فان ذلك سيهدد ذلك الميكانيزم الحساس لمقدرة الانسان على البقاء بالانهيار التام . كمـا ان طبيعة الفقر تتحدى ذلك التعريف القائل بحدوث الفقر عند تلـك النقطة التى ينعـدم فيها التوازن بين حاجات الانسان وانتاجية الارض ، حيث لن يكون بمقدور الانســان ان يستمر فى اعتماده على الخصوبة الطبيعية للأرض من أجل بقائه.

ولقـد أوضـح لاوتون Lawton (٢) بأن ((هناك عاملا اساسيا ومهما فى تطور وتقـدم المجتمع الانسانى المعقد ، الا وهو قدرة عدد قليل من افراده على تأمين الحاجات الغذائية لاعداد كبيرة من السكان)) ، ولكن هذه الانظمة التى ابتكرناها لتوفير الغذاء باهظـة التكاليف وتعتمد كليا على مصادر الطاقـة الجاهـزة (الخارجية) التى تقود هذا النظام وتتحكم فيه . ويحذر لاوتون من ان التنظيم الحالى للمراكز الحضرية المعزولة عن مواقع الانتـاج الفعلية للمواد الغذائية وتعيل اعدادا سكانيـة ضخمة ، لايمكن الحفاظ عليه بدون استمرار توفر طاقـة كبرى تغـذى النظـام الانتاجى الزراعى لهذا المجتمع مصدرها باطـن الارض (فحم ، بترول ، غاز) والتى قد لايدوم أو يسهل توفرها . فطبيعة الفقر فى هذا السياق يمكن ان تعرف بأنها تلك الحالـة التى تعجز

---

(١) Grove, A.T. "Desertification in the African Environment, African Affairs, Vol. 73 (1974), P. 145

(٢) Lawton, J.H., The Energy Cost of "Food Gathering", in B. Benjamin, P.R. Cox and J. Peel (eds.,) Resources and Population (London, 1973), pp. 59-75

فيها الطاقة المتوفرة عن تلبية حاجات المجتمع بنفس المستوى الذى اعتاد عليه سابقا .

وتؤكد الشواهد الامبريقية لهذه الدراسة على ان الاستخدامات البسيطة للطاقة المستخرجة من الماء وتسخير العمالة الحيوانية بالاضافة الى استغلال تلك الطاقة البشرية المتوفرة لانتاج الغذاء تمثل التقدم التكنولوجى الحقيقى فى مجتمع كامل التريف ، لانها استراتيجية منخفضة التكاليف نظرا لارتفاع كمية الطاقة المكتسبة اذا ما قورنت بالطاقة المبذولة لانتاجها ، وهى بذلك تفوق فى فعاليتها عملية استخدام الطاقة المستخرجة من الارض والطاقة البشرية للحصول على المواد الغذائية نظرا لارتفاع نسبة نفقات الطاقة المبذولة اذا ما قورنت بقيمة الطاقة المنتجة فى هذه الحالة .

فمن هذا المنطلق يصبح تعديل التعريف السائد للفقر فى هذه المجتمعات امرا لامفر منه ــ فى اطار الوضع الجديد من انخفاض كثافة الطاقة المطلوبة وانخفاض تكلفة هذه الطاقة ــ ففى ظل النموذج الجديد لاستخدام مصادر الطاقة فان نسبة الطاقة المنتجة (المواد الغذائية) تفوق الطاقة المبذولة فى ظروف كل من الزراعة « الجافة Dry » التى توظف عمالة انسانية وحيوانية ، والزراعة « الرطبة Wet » التى توظف عمالة انسانية وتستخدم المياه للرى . وفى هذه الحالة يمكن تخزين الفائض المتراكم لتامين عملية تموين منتظمة من المواد الغذائية لتوفير احتياجات المجتمع على مدى شهور السنة ، ولامداد غير العاملين فى القطاع الزراعى ، والذين نحن فى حاجة لاستغلال مهاراتهم فى مجالات أخرى . واذا لم يتم الوصول الى هذه المرحلة من التوازن بعد اجراء التغييرات اللازمة فى مصادر الطاقة ونمطها، فان الفشل قد يكمن فى عدم تخصيص الاستثمارات اللازمة للحفاظ على صحة الانسان وتحقيق رفاهيته ، وعلى وجه الخصوص صحة الاطفال الصغار الذين يشكلون اجيال المستقبل وبناته .

الحاجة لسياسة موجهة لرفع مستوى الخدمات فى المناطق الريفية :

لقد أوضح هتبر وفورستر Hutber and Forster (٣) ــ فى دراستهما عن مصادر الطاقة ومدى كفايتها لحاجات الانسان ــ بأنه منذ عام ١٩٤٥ فقط بدأ مستوى استهلاك النفط فى المملكة المتحدة يزدادارتفاعا سنة بعد اخرى بشكل ملحوظ . ان نمو الحاجة للطاقة وازدياد الطلب عليها لا يشكل بحد ذاته ضرورة حيوية من اجل بقائنا أو للاحتفاظ بسلامتناالجسمية والعقلية فحسب وانما يعبر بشكل رئيسى عن مواصلة السعى لاقتفاء اثر ذلك المفهوم الغامض « مستوى معيشى أعلى Higher Standard of Living والذى تسبب فى تلك الحياة المأساوية لشباب مجتمعات الدول النامية الذين تدفقوا على المنطقة الحضرية ملتحقين بوظائف غير منتظمة أو متدنية الأجر ، وذلك نظرا لما يحدثونه من اختلال واضطراب فى خدمات المدينة غير المهيأة

(٣) Hutber, F.W., and Forster, C.I.K., "Sources of Energy and their Adequany for Man's Needs, in B. Benjamin, P.R. Cox and J. Peel (Eds.), Resources and Population (London, 1973)

لاستقبالهم ، كالمواصلات والاسكان والصحة العامة والوقائية .

ولا شك ان اهمالنا لمشاكل البيئةالانسانية فى القطاع الريفى فى الوقت الذى نكثف فيه الجهود لحل المشاكل التى يتعرض لها القطاع الحضرى ، ان هى الا سياسة قصيرة النظر . فالقطاع الريفى قادر على الانتاج اذا تهيأت له الظروف لذلك .

لقد تبين أن أبرز الثغرات وضوحا فى برامج التخطيط للدول النامية فى أعقاب الحرب العالمية الثانية هى اقامة تلك السلسلة من المبانى المتلاصقة والشوارع الضخمة وخطوط المواصلات السريعة التى تربط بين النقاط المركزية وتفتقر الى الروافد الفرعية لتغذيتها . فالسهولة العصرية التى تمكن المسؤولين ورجال الاعمال والخبراء الدوليين من الانتقال من مدينة الى أخرى ، مستخدمين مثل هذه الشبكة من الطرق والشوارع الواسعة ، لعبت دورا ملموسا فى العزلة الكلية للقطاع الريفى عن نظيره الحضرى . ولم يعد يتوجب على المسؤولين الاهتمام بالطرق الفرعية أو الترابية التى تدخل ضمن حدود المناطق الريفية ، كما لم تعد القرى تحظى بأى اهتمام لاقامة المنشآت الفندقية أو الاستراحات الليلية فيها ، فقد أضحى ممكنا قطع مسافة ١٠٠ كم أو أكثر عبر الريف خلال ساعات الصباح في وسيلة نقل مريحة والعودة الى المدينة فى الوقت المحدد للغداء دون الاضطرار للاعتماد على أى من الخدمات فى المناطق الريفية التى تخترقها طرق المواصلات السريعة ، ودون مشاهدة أى من الظروف والاوضاع الريفية المتخلفة . ولكن قد يتساءل البعض عن السر الذى يكمن فى تلك العجلة التى تحكم سلوك أولئك الذين يستخدمون هذه الطرق السريعة ؟ ؟ ألا يوجد هناك أى مخرج على هذه الطرق الرئيسية يقود الى أماكن تشجع المسافرين على ارتيادها ؟ ؟

ان مرور الزمن لم يغير كثيرا من تلك الحوافز التى تتحكم بالسلوك الانسانى « كالخوف من التورط Fear of Involvement فما زالت القاعدة السائدة اليوم تقوم على أساس تجاهل وتجنب ما لم تقع أعيننا عليه اذا كان ذلك يجلب لنا التعاسة أو اذا كنا لسنا بحاجة اليه . وقد تختلف تلك الاسباب التى تحفز الانسان على عدم التورط أو تقديم التضحيات ، فقد أوضح ويتز Weitz انه « لكى نرفع مستوى الخدمات فى المناطق الريفية فاننا نحتاج الى قوة عمل مؤهلة لادارتها والاشراف عليها ، الا أن عناصر قوة العمل هذه لا تتوفر لديها الرغبة للاقامة فى القرية بسبب انخفاض مستوى الخدمات المتوفرة فيها » .

ويؤكد مكريجور McGregor على ضرورة اعطاء الاولوية للعلاج الوقائى والاجتماعى ، لأن الوقاية من تلك الامراض المستوطنة يمكن ان تتحقق من خلال وضع الخطط وتوفير الامكانيات والوسائل التى تضمن تطبيقها ، وهذه الخطط ترتبط الى حد بعيد بالعادات الغذائية والنظافة الشخصية ونظافة البيئة ، ولا يمكن طبعا استثناء الدور الذى تلعبه العوامل المناخية . الا انه كما يشير هيتشينسون Mutchinson فان « الانسان ليست لديه القدرة على السيطرة أو احتمالات السيطرة على الاشعاعات الشمسية ، ونمط توزيع الحرارة ، وطول الليل والنهار ، وانما عليه أن يقبل كل ذلك ويتعايش معه كما هو » .

ان الشواهد الامبريقية التى تتضمنها هذه الدراسة تعتبر فريدة ومتميزة من حيث منظورها الزمنى، لانها تحذر من تلك الخسارة الكبيرة في اثمن موجودات هذا العالم ، الا وهو « الرأسمال الانسانى » ، وذلك عندما تهمل صيانته باعتباره مصدرا للطاقة لا أمل فى تحويلها الى الوضع المرغوب فيه . وتزداد فى هذه الايام الحملة القائلة باحتمال استنزاف ونضوب المصادر الرئيسية للطاقة الانسانية والتى تكمن فى العطاء التقليدى للارض ومنتجاتها، ويستطرد دعاة هذه الحملة فى القول بأن الامكانية لتجديد هذه المصادر ــ التى تزعم التكنولوجيا الحديثة توفيرها ــ انما تكمن فى مدى الاستعداد الذى تبديه الشعوب لقبول المعرفة المستوردة من الخارج واستخدامها .

ان مساهمة الاختراعات التكنولوجية في زيادة الحاصلات الزراعية لجماعة تتسم باللامبالاة ، بددت معظم طاقاتها الداخلية بفعل عوامل خارجة عن سيطرتها تبدو ضئيلة. فالعالم قد انتهى به الأمر الى القبول بحتمية وقوع تلك الكوارث التى تتعرض لها المجتمعات الانسانية بفعل العوامل المناخية ، ولم يكن العالم مهيأ على الاطلاق لاتخاذ خطوات عاجلة للتخفيف من حدة ويلات هذه الكوارث . ولكن عدم الانتظام ــ بالمقياس الانسانى ــ فى المجرى الطبيعى للحياة والناجم عن فرص ومساعدات مقدمة من مصادر ووكالات اجنبية ــ حيث بامكان عدد قليل من السكان الاستفادة منها بسبب غياب سلسلة مكملة من الخدمات التى تحد من التفاوت القائم فى توزيع الدخل ، وتزيد من فرص الاستفادة منها من قبل أفراد المجتمع ككل ــ لم ينظر اليها باعتبارها تحد من نشاطات وجهود أولئك المهتمين بالسياسة الزراعية ، فى حين ترك أولئك المناضلون ، فقراء الريف الشجعان ، باسم التقدم التكنولوجى ليدافعوا عن بقائهم فى ظل ظروف غاية فى القسوة والشراسة .

الارادة « السياسية » لوضع التشريعات التى تكفل القدرة التنموية للاجيال القادمة :

ان الحرية السياسية التى تتمتع بها الشعوب حديثة الاستقلال لها معنى خاص ، فأولئك الذين يمسكون بمقاليد الامور تكبلهم أحداث الماضى وسياسات الادارات السابقة بدرجة أو بأخرى ، ومثل هذه الظروف تستدعى وجود قيادة قوية وشجاعة لتعبئة كافة قطاعات المجتمع في معركة البناء .

ان الدرس الذى نستقيه من هذه الدراسة الامبريقية هو أن الاكثرية الممثلة بالضعفاء ــ التى تعيش على الكفاف ــ قد أجبرت على قبول ظروف حياتية فرضتها عليها الاقلية الممثلة بالاقوياء التى ورثت واكتسبت الثروة المادية ، بالاضافة الى تمتعها بالصحة الجسمانية وتطوير قدراتها العقلية .

وهكذا فان التغير الاجتماعى والاقتصادى قد أدى الى خلل فى تنسيق الخدمات وسوء فى توزيع الموارد ، مما يؤكد مدى الحاجة الى وضع التشريعات اللازمة التى تكفل المقدرة التنموية للمجتمع الحالى والمستقبلى وتحميها. فتطوير استخدامات الطاقة الحيوانية مثلا ، يتطلب تشريعا يضمن اتباع الممارسات السليمة للزراعة الحيوانية (تربية الدواجن) ، فاذا كنا نستهدف الحصول على انتاجية افضل فان ذلك يتطلب أشكالا مكثفة من عمليات الانتاج . « فمع وجود الادارة السيئة والتغذية الرديئة تلعب الامراض والطفيليات دورا مهما

فى احداث الفوضى التناسلية فى قطاعات الماشية فى تلك المناطق الاستوائية وشبه الاستوائية»(٤) وامتلاك قطاعات الماشية ، باعتبارها موجودات رأسمالية ، دون الاهتمام او معرفة وسائل وطرق التعامل معها والعناية بها ، يشكل في النهاية خسارة للمجتمع تثقل كاهله ويعجز عن تحملها .

وكذلك فان عدم وجود تنسيق فى عملية استخدام الاراضى واستغلالها ، فى الوقت الذى نحصل فيه على الابتكارات التكنولوجية ويزداد فيه الضغط السكانى يشير الى الحاجة الملحة لاتخاذ اجراءات تشريعية لاقامة نظام مناسب لتسجيل الاراضى وتحديد طريقة استعمالاتها.

ويؤكد دوسلدورب Dusseldorp (٥)الى أن هناك علاقة قوية بين مجمل مخططات التنمية لمنطقة زراعية وظروف الحياة والمعيشة فيها . واذا ما توفر لدى المخططين بُعد النظر هذا ، فانه أهمية خاصة سوف تعطى لعملية تخطيط المستوطنات البشرية وتصميم منشآتها ووحدات الخدمات فيها ، فالظروف المعيشية لمنطقة ما تقررها الى حد بعيد كمية ونوعية وطريقة توزيع وحدات الخدمات الاجتماعية والاقتصادية المنتشرة فى هذه المستوطنة .

الخاتمة :

على الرغم من أهمية هذا التحليل الذى تقدمه لنا هذه الدراسة لاسباب التخلف والفقر الذى تعانى منه الدول النامية ، الا أن هذا التفسير المحافظ لظواهر التقدم والتخلف والنمو فى ضوء مقولات فكرية وقيمية وسيكولوجية تركز على قضايا النظام والتوازن والتساند داخل النسق ، وترجع ظواهر الفوضى والتخلف الى افتقاد القيادة القادرة على الضبط والتنظيم والتحكم ، ان هذا التفسير يعجز عن تحقيق الفهم السوسيوتاريخى المتكامل لابعاد التخلف ، وبالتالى لا يسهم فى مساعدة مجتمعات الدول النامية في نضالها ضد هذا التخلف واطلاق حركة النمو الذاتى داخلها بطريقة فعالة ومؤثرة . ولعل هذا هو ما يحتم على الباحثين فى هذه الدول معالجة قضية التخلف والتنمية من مدخل مختلف قادر على مواجهة الاهداف والتطلعات القومية والمحلية .

ان الفقر الذى تعانيه مجتمعات الدول النامية يرجع تحليليا الى مختلف العوامل التاريخية المتشابكة المتفاعلة ، ويتطلب اسلوبا مختلفا فى المواجهة يستند الى تصور مختلف عن الانسان والمجتمع ، ووظيفة الدولة فى الحياة الاجتماعية وعن العلاقة بين الفرد والمجتمع وعن التزامات المجتمع تجاه الفرد .

وهكذا لا تتمثل التنمية فى مجرد اعادة صياغة العلاقات بين المتغيرات الاقتصادية الصورية ، ولا تقتصر على محاولات استحداث تغيرات فى انساق القيم والاتجاهات ومجالات الاهتمام ، فهى في الدرجة الأولى تجمع بين كل هذه التصورات أو المتغيرات الى جانب اسلوب ومسارات التوجيه .

(٤) Payne, W.J.A. Cattle Production in the Tropics, Vol. I (Longman, 1970), P. 298.

(٥) Van Dusseldorp, D.B. W.M., Planning of Service Centres in Rural Areas of Developing Countries, International Institute for Land Reclamation and Improvement (Wageningen, 1971).

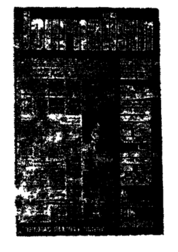
وفى ضوء هذا الفهم يمكن القول بأن مختلف عمليات التنمية فى الدول النامية تتمثل فى تلك العمليات المخططة التى يتحول من خلالها المجتمع من نسق اجتماعى يعكس شكلا معينا من أشكال التنظيم الاجتماعى والاقتصادى والسياسى الى نسق آخر يعكس شكلا مختلفا يحقق التقدم الاجتماعى لجماهير المجتمع فى اطار من العدالة الاجتماعية .

والواقع أن التحليل الموضوعى للتخلف ، يجب أن يتجنب النظرة المسحية الوضعية السطحية ، وأن ينبثق من اطار نظرى يتسم بالشمول والتكامل ، مع أخذ البعد التاريخى فى الاعتبار ، كبعد محورى في صياغة التخلف، وكمنطلق فى رسم سياسة التنمية . ان أى تحليل موضوعى يجب الا يعزل تلك الدول ، عند دراسة ظواهر التخلف ، ليجعل منها شيئا فى ذاته ، بل على العكس يجب أن يضعها فى شبكة علاقات التبعية والاستغلال التى تعرضت لها تاريخيا ، والتى مازالت واقعة فى شراكه وان تغير الشكل ، والتى يجب ان تتخلص منها لانطلاق اقتصادياتها القومية من أسر التبعية والاستغلال .

فلقد وقعت الدول النامية خلال مرحلة تاريخية معينة في شرك التبعية السياسية أو تبعية المستعمرات . ومن خلال هذه التبعية وظفت كافة أنواع النمو الاقتصادى والتربوى والادارى ... الخ لصالح القوى الخارجية . ان بطء نمو القوى الانتاجية فى الدول النامية، ظاهرة ملحوظة نتيجة لتجميد البناء الاقتصادى، ويرجع التجميد الى عوامل خارجية بفعل قوى خارجية كالاستعمار والاحتكارات ... الخ ، والى عوامل داخلية مثل ضعف التراكم وسوء توجيهه ، وبعض العوامل الاجتماعية كالانفاق البذخى Conspicious Consumption وارتباط البرجوازيات الوطنية بالاحتكارات العالمية . يضاف الى هذا بعض العوامل الثقافية مثل سيادة الروتينات الجامدة ، والتحجر القيمى ، وضعف الشعور بالمسؤولية ، ونظم التعليم والتدريب المتخلفة.

وبوجه عام نستطيع القول ان الدراسة الموضوعية لقضايا التخلف والنمو تتطلب منا تبنى مدخل متعدد النظم ، حيث نحلل هذه القضايا من جميع الجوانب الاقتصادية والسكانية والثقافية ، فى اطار السياق التاريخى الملائم . ولعل ما يتمخض عنه هذا الفهم من نتائج يمكن أن يسهم اسهاما ايجابيا فى رسم خطة المواجهة .

* * *



الصحافة في أمريكا (١)

مدخل الى وسائل الاعلام

عرض وتحليل : الأستاذ ياسر الفهد

للصحافة دور كبير معروف في حياة الامم وتأثير هائل فى أفكار الناس وقيمهم ومعتقداتهم . ولاريب ان الصحافة ، بصورة عامة ، أكثر رقياء فى البلدان المتقدمة منهـا في وطننا العربي . لذلك فان اطلاعنا على الصحافة الاجنبية ، وفتح المنافذ والكوى علـى آفاقها ومنجزاتها يوفر الفرص أمام تطور صحافتنا . ومن هنا كان اهتمامنا بكتاب أجنبي جديد صدر باللغة الانجليزية خـلال عام ١٩٧٦ عن دار نشـر هيستنجس هاوس فى الولايات المتحدة . قام بتأليف الكتاب الدكتور توماس اليوت بيرى Thomas Elliott Berry الذى ظل يعكف على تدريس فن الصحافة لمدة (٢٦) عاما . وكان بيرى قد الف ١٢ كتابا آخـر فى وسائل الاعلام منذ أن نال شهادة الدكتوراة من جامعة بطسبرغ . ويعد الكتاب الذى بين أيدينا ويضم بين دفتيه ٣٨٠ صفحة من القطع الكبير ، مصدرا صحفيا هاما يتقصى أدوار كل مـن وسـائل الاعلام الرئيسية الأربع : (الصحيفة ـ المجلة ـ الراديو ـ التلفزيون) وأسس الكتابة اليها . وهو بترتيبه وتنظيمه الفريدين ، واخراجه الجميل ، ومعالجتـه العملية يمثـل مرجعا لأولئك الذين ينشدون معرفة المزيد عن وسـائل الاتصال واسـس الكتابة الصحفيـة المعاصـرة . ويستفيـد العاملون في سلك الصحافة ، بشكل خاص من الكتاب نظرا لانه يلقي الكثير من الاضواء على معظم جوانب مهنتهم العظيمة . يتناول الكتاب كلا من وسائل الاعلام الاربع بصورة مستقلة ، مبينا مدى تأثيرها الجماهـيرى ونفوذها لدى المجتمع الاميركى . اما الطالب الذى يعتزم دراسـة فن الصحافة والاعـلام فيجد فيه مسارد وتمارين ترافق كل فصل من فصوله . وهكذا فهو يعد كتابا ثقافيـا وتعليميا فى آن واحد . ويشتمل الكتاب على مقدمة واربعة عشر فصلا .

(١) هيستنجس هاوس ، ٣٨٠ ص ، الولايات المتحدة المؤلف توماس اليوت بيرى .

١ ـ الفصل الاول وعنوانه : الصحافة ـ نظرة عامة

ويعالج دوروسائل الاعلام وتأثيرهاوقيمتها وعلاقتها بالتثقيف الجماهيرى ، كما يتعرض للتطورات الحديثة فى الصحافة الاميركية .

٢ ـ الفصل الثانى وعنوانه (المشكلات الحديثة فى حقل وسائل الاتصال)

ويتعرض لقضايا الاذاعة والتلفزيون ومستقبل الصحافة اليومية ومسألة حرية التعبير .

٣ ـ الفصل الثالث وعنوانه (القصةالاخبارية)

ويتناول موضوعالاخبار وماهيتها والعثور عليها وطريقة تشويهها ، وكذلك القصة الاخبارية وكتابتها واسلوبها .

٤ ـ الفصل الرابع وعنوانه (المقابلةالصحفية)

ونقرأ فيه عن مستلزمات المقابلة الصحفية الناجحة، وأنواع المقابلات والمشكلات المتصلة بها .

٥ ـ الفصل الخامس وعنوانه (القصة الشخصية)

وهى على الاغلب قصة غير واقعية ، وفيها يظهر الاتجاه الشخصى بشكل واضح ،فينقل الكاتب آراءه الخاصة ومشاعره الشخصية والانسانية . وهذا خلاف ماهو عليه الحال في القصة الاخبارية حيث الجو باكمله غير شخصى ، فلا نجد فيها أى رأى أو اشارة خاصة أو تعبير انساني .

٦ ـ الفصل السادس وعنوانه (الصور فى الصحف)

ويعالج موضوعالصور ومصادرهاووسائل تحسينها .

٧ ـ الفصل السابع وعنوانه (تحرير المواد فى الصحف اليومية) .

ويتصدى هذا الفصل لمهام المحررين الذين يراجعون المواد المعدة للنشر ويدققونها ويصححون اخطاءها ويعدلون بعض أفكارها عند اللزوم قبل دفعها الى الطباعة . ونجد فى الفصل نفسه ايضا عرضا لتاريخ الطباعة بدءا من الطباعة بالاحرف المنضدة ، ومرورا بالاوفست ، وانتهاء بالوسائل الطباعية الحديثة ومنها طريقة أنبوب اشعة كاثود (CRT) وهى احدث طرق الطباعة واكثرها سرعة وكفاءة وتوفيرا .

٨ ـ الفصل الثامن وعنوانه (الاخراج الفنى)

ويتناول فن تنظيم المواد المنشورة على شكل أعمدة أو صفحات ، وترتيبها حسب اهميتها ومضمونهاوارفاقهابالصور والوسائل التوضيحية .وبينما يعد الاخراجفنا بالدرجة الاولى الا انه أيضا علم بالدرجة الثانية .

ان المحتوى الفنى أهم من المحتوى العلمى فى الاخراج ، لان الخلق الجمالى فيه الاساس كما الحال فى الرسم والموسيقى وغير ذلك من الفنون التى تعد فيها الناحية الجمالية عنصرا رئيسيا .

٩ ـ الفصل التاسع وعنوانه (السياسة التحريرية)

ويتعرض لسياسة الصحيفة او المجلة في التحرير ، وهى السياسة التى تمنحها

خصائصها الخاصة وتميزها عنباقى الصحف والمجلات ، كما يتعرض لمسؤوليات الصحافة والاعتبارات المختلفة التى تتدخل فى تقرير النشر وهى الاعتبارات التجارية والاجتماعية والعرقية والدينية والشخصية والمزاجية . (ومعظم هذه الاعتبارات واردة في الصحافة العربيةباستثناء الاعتباراتالعرقية والدينية، كماان الاعتبارات التجارية غير قائمة بالنسبة للصحف والمجلات التى تصدرها الدولة على نفقتها لان غايتها تثقيفية لا تجارية) .

١٠ ــ الفصل العاشر وعنوانه (الافتتاحية)

ويعالج ماهية الافتتاحية واهميتها وطريقة كتابتها وانواعها ، وكذلك الخطوط الارشادية التى يمكن الاستعانة بها عند كتابتها .

١١ ــ الفصل الحادى عشر وعنوانه (العمود)

وهو خاص بالنواحى المتعلقة بالعمود المخصص لكاتباو موضوع معين . وفى اميركا يعدتحرير العمود الخاص فى الصحيفةاليومية عملا هاما وممتعا له اسلوبه الخاص الذى يختلف عن اسلوب المقال العادى وللمحرر أن يكتب فيه كما يحلو له . وينظر الى هذا العمل على أنه ابداعى من الدرجة الاولى ويتقاضى صاحبه لقاءه تعويضا كبيرا جدا . وللعمود عادة قراؤه الخاصون به .

١٢ ــ الفصل الثانى عشر وعنوانه (الصحيفة المدرسية)

ويدور حول الصحيفة المدرسية التى تشكل جزءا من الحياة المدرسية ووسيلة تعبير بالنسبة للطلاب المهتمين بالنشر . هناك ايضا الجامعية وهى ارقى من الصحيفة المدرسية ، وللصحيفتين مبادئهما ومشكلاتهما .

١٣ ــ الفصل الثالث عشر وعنوانه (الكتابة للاذاعة والتلفزيون) :

ويعرض شرحا للمبادىء الاساسية التى تدخل في اسس الكتابة للاذاعة والتلفزيون . ومن المسائل التى يتصدى لها : اعدادالتعليق ونشرة الاخبار ، وكذلك الفرق بين النشرة الاذاعية والنشرة التلفزيونة .

١٤ ــ الفصل الرابع عشر وعنوانه (الكتابة للمجلات)

وهو اكبر الفصول واهمها ، ويتناول المجلات وانواعها وكتابها واشكال الكتابة اليها . بعد هذا العرض السريع للخطوط الرئيسية الكبرى فى الكتاب ننتقل الى تقديم بعض الملاحظات حوله ، ثم الى تناول أهم الافكار الواردة فيه تناولا مفصلا :

يستمد كتاب الصحافة فى أميركا أهميته من ناحيتين :

ا ــ كون مؤلفه صحفيا ممتهنا تفرغ للعمل لفترة طويلة من الزمن لصالح واحدة من أهم الصحف اليومية الاميركية ، فى حين كان يمد عددا كبيرا من الصحف والمجلات الاميريكية الاخرى بمقالات خارجية . وقبل تأليف الكتاب استأنس المؤلف بآراء عدد من كبار الصحفيين الاميركيين واعتمد على نصيحتهم ومشورتهم . ثم اضاف الى كل ذلك خبراته كأستاذ جامعى فى كلية الصحافة .

ب ــ تأثر الراى العام الاميركى الى حد كبير بالصحافة ووسائل الاعلام . وقد أظهرت

الاستفتاءات ــ وجاء هذا في مقدمة الكتاب ــ أن ٩٨٪ من الشعب الاميركي يعتمد على اجهزة الاعلام للحصول على ٩٥٪ من المعلومات والحقائق المتعلقة بنشاطات حكومته والحكومات الأخرى . وهذه المعلومات هي التي يستخلص المواطنون في ضوئها النتائج حول الشؤون الداخلية والخارجية للبلاد . وتتعرض وسائل الاعلام في أميركا الى النقد والمديح في آن واحد ، فالتلفزيون مثلا يلقى الاستحسان لأنه يأخذ المشاهدين الى اقاصي العالم ، ويعرفهم بأحدث المكتشفات والمستطرفات ، ويطلعهم على شؤون العالم وأحداثه . ولكن كثيرا من المسؤولين ، من جهة أخرى ، يتضايقون منه ومن أجهزة الاعلام الاخرى بسبب تأثيرها الواسع في الرأي العام ، ودورها في اثارة موجات الانتقاد وتحريك المشاعر ضدهم في بعض المناسبات . وهناك آخرون يباركونها لأنها تعمل من اجل المصلحة العامة وتعبر عن مفهوم حرية الرأي .

وعلى الرغم من تأثير الصحف اليومية والاذاعة والتلفزيون فان للمجلات في أميركا دورا مهما بشكل خاص ، وهي تمثل الوسيلة الاعلامية التي تجذب اكبر عدد من الكتاب الطامحين الى الكتابة ، الهواة منهم والمتمهنين، الناشئين والمشهورين . ففي كل شهر يقوم هؤلاء بتقديم مجموعات هائلة من الاعمال الكتابية الى المجلات الاميركية تحدوهم الى ذلك الرغبة في التعويض المادي او الشهرة أو القناعة الشخصية . ويعرف الكتاب الناشئون ان مجال النشر أمامهم ضيق في هذه المجلات ولكنهم مع ذلك يستمرون في دفع مقالاتهم الى المجلات . ويوجد في أمريكا (٧٠٠٠) نشرة دورية يمكن أن نطلق عليها اسم مجلة . وتتباين هذه المجلات تباينا كبيرا في محتواها وأهدافها واسلوبها . وبعض المجلات تقتصر على نشر الموضوعات التي ينتجها جهاز تحريرها الخاص مثل مجلة كومباني Company وبعضها الآخر ينشر انتاج الكتاب الخارجين فقط ومثال عليها مجلة سكولارلي Scholarly وهناك زمرة ثالثة من المجلات تجمع بين نشر المواد من داخل جهاز التحرير وخارجه ومنها مجلة ستردى رفيو Saturday Review

وهذه الزمرة يدخل فيها أكبر عدد من المجلات . والكتاب الرئيسيون ، في أهمها واكثرها رواجا ، هم خبراء مشهود لهم في مجالات اختصاصاتهم (كالطب والقانون والتربية ... الخ) وتتسم المجلات الاميركية بميزة هامة وهي التجديد والتبدل ، فهناك باستمرار اتجاهات جديدة في السياسات التحريرية ، وكذلك زوايا وكتاب جدد ، كما أن هناك دائما مجلات جديدة تظهر الى الوجود، ومجلات اخرى تحتجب مؤقتا أو تختفي .

انواع المجلات الاميركية

يمكن تقسيم المجلات الاميركية مبدئيا الى الزمر التالية :

١ ــ المجلات النوعية quality magazines
اى المجلات التي تتناول الموضوعات الفكرية والادبية والفنية الراقية ، وهي موجهة الى صفوة المفكرين الذين يهتمون بالظواهر الاكثر مغزى واهمية في الحياة . ومن الامثلة عليها :
مجلة اتلانتيك منثلى Atlantic Monthly
ومجلة هاربرز ماجازين Harper's Magazine
ومجلة الستردى ريفيو Saturday Review
ومجلة اتلانتيك ريفيو Atlantic Review
وهذه المجلات تشكل مصدر اغراء قوى للكتاب

الطامحين الى النشر بسبب ماتكسبهم مـن شهرة ، فالكاتب الذى ينشر في مجلة كمجلة اتلانتيك ريفيو يصبح شهيرا لأن اسمه يضاف الى الأسماء اللامعة التى اقترنت بها هـذه المجلة أمثال امرسون وهولمز وثورو وسمث واتشيزون ... الخ . وتدفع هذه المجلات أجورا عالية تتناسب مع مكانة الكاتب وشهرته (واقرب نوع الى هذه المجلات فى الوطن العربي المجلات الثقافية المنوعة ،ومنها : عالم الفكـر (كويتية) ، أفكار (أردنية) ، الهلال (مصرية) المعرفة (سورية) ، الثقافة (جزائرية) الـخ ...

٢ ـ المجلات المهنية Professional Magazines

وهى كما يدل عليها اسمها موجهة الـى اعضاء مهن مختلفة . ومعظم مقالات هـذه المجلات يكتبهـا متخصصـون مهنيون أمثـال الاطباء والمحامين والمهندسين والمعلمين..الخ. ومثال عليها المجلة الطبية الاميركية American Medical Journal ومجلة الرابطة القوميةللتربية National Education Association

٣ ـ مجلات العمل Business Magazines

بما ان العمل التجارى والصناعى بأشكاله العديـدة يؤلف أساس النظـام الاقتصادى الاميركي ، كان لابد من اصدار مجلات فى كل حقل من حقول العمل تقريبا كى توجهالمختصين وتمدهم باخبار المهنة ،واحدث تطوراتها . ومن هذه المجلات مجلة Nation's Business (ويوجد فى الوطن العربي مجلات اختصاصية مهنية كثيرة) .

٤ ـ المجلات التقنيـة Technical Magazines

وهي تجمع بين خصائص المجلات المهنيـة ومجلات العمـل وتنشر الاعمـال التى تفيد المختصين ذوى التدريب العالى أمثالالمهندسين والعلمـاء والتقنيين . والكاتب الـذى يريد الاسهام في الكتابة الى هذه المجلات يجب أن يعلم أن ذلك يستلزم دقة علمية خاصـة . (وهناك مجلات عربية اختصاصية عربيـة شبيهة بهذا النوع مـن المجلات مثل مجلـة المهندس الطليعى السورية . ومجلة نفط العرب الكويتية) .

٥ ـ المجلات الزراعيـة Farm Magazines

بما ان اميركا تعتمـد اعتمادا قويا علـى الزراعة ، فمن الطبيعي ان نجد فيها عنايـة خاصة بهذا النوع من المجلات . ويوجد هناك حوالي (١٤٠) مجلة زراعية أشهرها المجلة الزراعية ، Farm Journal التى توزع حوالى ثلاثة ملايين نسخة من كل عدد . وهذه المجلات على نوعين : أ) الزراعية العامة ، وهى مجلـة شبه منوعة يمكن ان تفيد جميع القراء علـى اختلاف مشاربهم ، ولكنها تركز تركيزا خاصا على نشر الاعمال المتصلة بالزراعة .

ب ـ الزراعية المتخصصة : وتختص كل منها بجانب معين من جوانب الزراعة (الالبان ـ الحبوب ـ القطن .. الخ) . وهذه المجلات قريبة الشبه بالمجلات المهنية .

٦ ـ مجلات الشركات Company Magazines

تصدر عن معظـم المنظمـات والشـركات التجارية او الصناعية مجلة أو اكثر ، هدفها بناء علاقة سليمة بين الموظف ورب العمل . وفى معظم الحالات فان الشركة هى التي تعين رئيس التحرير وهيئة التحرير . اما الكتاب مـن خارج هيئة التحرير فان فرص النشـر امامهم ضئيلة فى هذه المجلات .

٧ ــ المجلات المتخصصة

Special-interest Magazines

وهى المجلات التى تنشر موادا في حقــل متخصص معين كالمسرح والرياضة والاذاعــة والتلفزيون والسفر ، بطريقة شعبية يمكن ان يفهمها غير المتخصصين . ومن هذه المجلات :
مجلة مرشد التلفزيون T.V. Guide
ومجلة الفنون المسرحية Theatre Arts

٨ ــ المجلات الشعبية Popular Magazines

وهى موجهة الى القراء من الطبقة المتوسطة، وتنشر قصصا ومقــالات واشعارا واحجيات ورسائل الى المحرر ، ورسوما كاريكاتورية . . أى انها مجلات منوعة بكل معنى الكلمة . ومن هذه المجلات ستردى ايفننج بوست Saturday Evening Post ومجلة ليبرتى Liberty and Colliers وكوليرز

٩ ــ المجلات النسائية Women's Magazines

وبما ان النساء فى أميركا يقرأن أكثر مــن الرجال فان المجلات النســائية هناك تجــد رواجا كبيرا . وتهتم هذه المجلات عادة بشؤون الازياء والزينة والاثاث وتربية الأطفال . ومنها مجلة ليدزهوم جورنال Ladies Home Journal

١٠ ــ مجلات الرجال Men's Magazines

وهى تحتوى على موضوعات تهم الرجال فقط بوصفهم ذكورا ، ومنها مجلــة بليبوى Play Boy التى توزع اكثر من مليون نسخة (وليس لهذه المجلات مثيلات عربيات).

١١ ــ مجلات الاطفال والمراهقين

Children and Adolescents' Magazines

ومعظمها توزع فى المدارس . وتركز مجلات الاطفال بشكل خاص على القصص القصيرة ، لأن الاطفــال يولعون عادة بهــذا النوع مــن القصص . ومن مجــلات الاطفال : تشلدرنز دايجست Children's Digest وتتســم الاعمال المنشورة فيها بقصر الجمل وسهولة المفردات وبالاسلوب التخاطبى المشوق (ولهذه المجــلات مثيلاتها العربية مثــل مجلــة سعد الكويتية) .

اما مجلات المراهقين فموادها اكثر نضجا من مواد مجلات الاطفال . ومنها مجلة جاك وجل Jack and Jill ويقابلها مجلة تان تان المصرية العربية) .

١٢ ــ المجلات الحــرة Free Magazines

ولا يمكن اعتبارها مجلات مخصصة لفئة ما من القراء لأنها تغطي حقولا عديدة . وهى اقل مرتبة مــن المجلات ، واشبه مــا تكون بالنشرات . وتوزع هــذه المجلات عادة ضمن الشركات او الوزارات او المكاتب ، ولاتباع في الأسواق العامة .

كما أنها على الاغلب لاتدفع اجورا للكتاب لأنها تنشر مقالات مكررة سبق نشرها . ومن هذه المجلات وومنزدى Woman's Day

خصائص المجلات الاميركية

تتمتع المجلات الاميركيــة بعدة خصائص مميزة منها :

١ ــ ليس هناك مجلة اميركية تحتكر نوعا محددا من انواع الاعمال الكتابية أو مجلــة يحظر عليها نشر اى نوع ، فالاتجاه نحو التنوع يزداد الآن اتســاعا فى الصحافــة الاميركية وهذا عكس الحال في المجــلات العربية فهناك

عدد كبير جدا من المجلات الاختصاصية التي تنفرد بنشر لون واحد من ألوان المعرفة دون سواه ، مقابل عدد ضئيل من المجلات المنوعة.

٢ ــ المجلات الاميركية أصبحت مجلات بصرية تكثر من نشر الصور والشروحات التوضيحية ، لذلك كثيرا ما يتقرر قبول مقال أو رفضه فى ضوء ارفاقه أو عدم ارفاقه بصور توضيحية .

(وهذا اتجاه سليم لان الصفحات المكتظة بالكلمات والجمل الجامدة تنفر القارىء وتسئمه ، أما تلك المزينة بالصور المشرقة الجذابة فتفتنه وتجعله يقبل عليها) .

٣ ــ ان سرعة القرن العشرين قد تركت بصماتها على المجلات الاميركية والقت بظلها على اتجاهاتها التحريرية ، فالحياة الحديثة تؤكد على الاختصار والوضوح . لذلك تجد المجلات في أميركا ترحب بالمقالات المقتضبة السريعة كتلك التي يمكن قراءتها فى الباص أو فى غرفة انتظار طبيب الاسنان أو ردهة الاستقبال في النادى (وهذا الاتجاه له مايبرره غير أنه لابد من الجمع بين المقالات المنهجية المطولة والموضوعات القصيرة المقتضبة ، فكلا النوعين مكملا للآخر ولا يمكن الاستغناء عن احدهما لحساب الآخر) .

٤ ــ ان المجلات الاميركية الحديثة أصبحت تتجه نحو معالجة مشكلات الساعة اليومية بدلا من المعالجات الادبية التقليدية ونحو تبنى المادة العملية عوضا عن الموضوعات النظرية .

٥ ــ المجلات الاميركية تتأثر بالعامل التجارى ، فالتكاليف اللازمة لاصدار مجلة أو الاستمرار فى اصدارها كبيرة جدا ، الامر الذى يدفع بالمجلات الى التنافس لبيع أكبر عدد من النسخ ، لذلك نراها مضطرة الى التسابق على الكتاب الذين تروج مقالاتهم وتجد صدى أكبر عند القراء . وهى تدفع لهم أجورا عالية لقاء نشر هذه المقالات . وهذا التنافس هو فى صالح الكتاب طبعا . (واذا قارنا هذا الوضع بالمجلات العربية نجد انه ينطبق في معظم الاحيان على المجلات الخاصة أما المجلات التى تصدرها الدولة على نفقتها فلا تهتم بالربح المادى طبعا لان اصدارها يدخل ضمن الواجبات الثقافية للدولة) .

عوامل النشر فى الصحافة الامريكية :

قبل ان يفكر الكاتب فى تدبيج مادة وعرضها على صحيفة أو مجلة ما فان اول ما يجب ان يهتم به مدى امكانية نشر هذا المادة . وتعتمد الصحف والمجلات الاميركية فى تقويمها للاعمال الكتابية المرشحة للنشر وتقرير امكانية نشرها على عدة مقاييس منها :

١ ــ قابلية رواجها ، فكل مجلة تحاول ارضاء فئة معينة من القراء ، وكذلك مدى انسجام مادة النشر مع الخطة التى تنتهجها المجلة .

والمحررون في أمريكا على نوعين :

أ ــ محررون يمدون المجلة بكتاباتهم

ب ــ محررون يقومون المواد المعروضة ويبتون بمدى صلاحيتها للنشر ، وهؤلاء يتمتعون عادة بحدس خاص حول سوق النشر والاعمال الكتابية التى تلقى قبولا أكبر عند القراء .

٢ ـ الجدة : فالمجلات تمنح أولويــة النشر للمقال الذى يحتوى على معلومات جديــدة ومبتكرة . فقد لاقي مثلا مقال عن انحــراف الاحداث نشرته مؤخرا احدى كبريات المجلات الاميركية رواجا هائلا ، فعلى الرغم من أن موضــوع المقال شائع وســبق أن كتب فيــه الكثير الا أن المعالجة فيه كانت جديدة كــل الجدة ومبتكرة فقد عالج الكاتب موضــوع انحراف الاحداث بطريقة طريفة وقدم مقترحات عملية اصلية لحلها ، لم يسبق أن قدم لها .

٣ ـ فاعلية التعبير : فالعمل الكتابي ينبغي أن يتسم بالوضوح والقوة ودقة المعلومات ، واذا كان المقال يتمتع بجودة كبيرة ولكن يفتقر الى قوة التعبير فان المجلة قد تشترى المقال وتدفع ثمنه ثم توعز الى محرريها كي يعيدوا سبكه وصياغته من جديد (ونعتقد أن هذا نهج ســديد حبذا لو ســارت عليه مجــلاتنا العربية التي كثيرا ما يصلها مقالات جيــدة المضمون بشكل غير عادى ولكن تعوزها حلاوة اللغة وتتناثر فيها بعض الاخطــاء اللغــوية والنحوية فتمتنع المجلة عن نشرها . والاجدى من ذلك أن يعمد جهاز تحرير المجلة الــى تنقيحه وتعديله ثم نشره . ولكن تبرز هنــا مشكلة ما اذا كان ينبغي نشر المقــال باسم الكاتب أم لا . والحــل الوســط المعقول أن ينشر المقال بالاحرف الاولى من اسم الكاتب لا باسمه الكامل الصريح .

٤ ـ شــخصية الكاتب .. من هــو .. ما أهميته .. ما اختصاصه .. ما مركزه .. هل هو كفؤ ؟ هل هو أهل للثقة ؟ وهنــاك كثير من المقالات تقبلها المجلات الاميركية وتوافق على نشرها فورا حتى قبل قراءتها فى بعــض الحالات لان أصحابها معروفون ومــوثوقــون لديها بدرجة كافية . وهذا لايعنى أن كــون الكاتب مغمورا يحرمه من فرصة النشر ، بل أن جــودة المقال وجدته يعوضان أحيانا عن عدم شهرة الكاتب . وفى الحالات التى يستطيع فيها شــخص عادى غير متمرس بالكتــابة تمرســا كافيا أن يكتشف حدثا هاما جديدا ، كما حدث بالنسبة لكاتب المقال الذى كشف النقاب عن حادث الاقتحام في ووترغيت ، فان محرر المجلة يقدم المقال مشيرا الى اسم مؤلفه الاصلى اشــارة عابرة ، أو ينشره باسم رمزى بعد تنقيحه وصياغته صياغة مقبولة .

اشكال الاعمال الكتابية فى الصــحافــة الاميركية :

ان الاشــكال الرئيسية للاعمال الكتابيــة هى القصة والمسرحية والمقالة والقصيدة .. ولكل شكل منها عدة أنواع . وبعض المجلات يهمها فقط مضمون المادة واهميتهــا بصرف النظر عن الاســلوب اللغوى ، ولكن بعضــها الآخر يضع الاسلوب اللغوى فى الدرجة الاولى من سلم الاهتمام .

١ ـ القصة القصيرة : وهى الشكل الذى يجربه الكتاب الناشئون أكثر من باقي الاشكال . وتحظى القصة القصيرة بشعبية كبيرة بــين الكتاب بسبب شعبيتها بين القراء . وحسب تقديرات المحررين المقومين للاعمال الكتابيــة فان محاولات تأليف القصة القصيرة تزيد على المحاولات الادبية الاخرى جميعها بمعدل ١/٣ وبالطبع فان عددا قليلا جدا من قصص الكتاب الناشئين يتاح لــه فرصة النشــر . ولكتابة القصة القصيرة الناجحة لابد من توافر عدة شروط :

١ ـ الالهام
٢ ـ القدرة على الادراك

٣ ــ القدرة على التصوير .

أما الالهام فيرتبط بالرغبة ، فما لم يكن الكاتب شغوفا بالكتابة فانه لا يستطيع ان يامل الا باحراز القليل من النجاح . ويجب أن تصل درجةتشوقه للتاليف الى الحد الذى يجعله يتحمل كافة المشاق المتصلة به . فاذا تمتع بعزيمة ماضية لا تثبط بسهولة أمكنه عندئذ أن يحاول ويحاول ثم يعيد المحاولة الى ان يصيب النجاح ، متحملا جميع أنواع النقد .

واما القدرة على الادراك فتعنى القدرة على تعرف مادة القصة بدءا من خطوطها العريضة ثم دقائقها وعقدها . ويعتقد البعض ان هذه القدرة فطرية بينما يرى آخرون امكانية تطويرها بالممارسة ، وبالنسبة للقدرة على التصوير فان المقصود بها القدرة على ايجاد الكلمات والتراكيب والصور البلاغية الاكثر تأثيرا وفعالية ، وبتعبير آخر القدرة على اختيار أحسن طريقة لرواية القصة ، وليست هناك قواعد لتعليم هذه القدرة الا أن من المؤكد انها تتحسن بالممارسة . والخطوة الاولى تجاه تطوير القدرة على تأليف القصة القصيرة ان يملك الكاتب حسا نقديا سليما تجاه هذا النوع من القصص . وعليه من اجل ذلك ان يبدأ بقراءة قصة ثم يتساءل : ما المميزات التى جعلت كاتب هذه القصة ناجحا ؟ ما نقاط الضعف والقوة فيها ؟ ماالذى يجعل القصة من النوع العادى أو غير العادى ؟ وعندما يتمكن الكاتب من الاجابة عن هذه الاسئلة بشكل مرض يكون قد دخل الطريق الى تطوير حسه النقدى . وفي أثناء هذه العملية يجب على الناشىء ان يتجنب الوقوع فى الشرك الذى كثيرا ما يقع فيه بعض زملائه ويتمثل بالاتجاه نحو تقليد انتاج الكاتب المشهور واسلوبه .

فقد اصبحت اعمال كبار الكتاب امثال ارنست همنجواى ووليام فوكنر وجيمس بالدوين وغيرهم مصائد لكثير من الكتاب الناشئين ، فتقليد هذه الاعمال من قبلهم يقتل فيهم أصالتهم ، ويودى بامكاناتهم الحقيقية ، ويحولهم من مبتكرين الى مقلدين . والقدرة على التصوير هى أصعب ما يواجهه الكاتب الناشىء . فهناك كثيرون يستوعبون الحوادث والخبرات ويتوقون الى الكتابة عنها ولكنهم يعجزون عن ايجاد الكلمات والتعبير عن انفسهم كتابيا .

ب ــ المقالة : وهى أكثر الاعمال الكتابية شيوعا فى المجلات الاميركية ، وتقسم من حيث الشكل الى نوعين :

أ ــ المقال الشكلى المنظم Formal essay ويتسم بالجدية والرصانة والتنظيم .

ب ــ المقال العابر informal essay وهو مقال عرضى غير جدى فى اسلوبه ولكنه هادف في محتواه ، ويكون أحيانا هزليا وساخرا .

ويتمتع هذا النوع من المقالات بشعبية ورواج كبيرين . وتقسم المقالات من حيث المحتوى الى :

١ ــ المقال التأملى (أو الخاطرة) reflective essay ويعبر عن وجهة نظر الكاتب وانطباعاته تجاه حالة أو حادثة أو مشكلة .

٢ ـ الصورة الادبية الوصفية Perconality sketch) ان أى شخصية مهمة ، سياسية كانت أم ادبية أم غيرها ، مرشحة لان تكون موضوعا لمقال . ويواجه كاتب الصور الوصفية عدة مصاعب ، ذلك انه مامن كاتب يرقى الى مركز سياسي أو علمى أو ادبى جديد حتى يدخل دائرة الضوء وتبدأ الاقلام بالكتابة عنه . فاذا أراد كاتب أن يدبج مقالة وصفية ناجحة عليه أن يكون البادىء فى الكتابة عن هذه الشخصية الكبيرة تجنبا للازدواجية . والصعوبة الثانية ان هذا النوع من الكتابة يستلزم من الكاتب أن يجرى لقاء مع الشخصية الجديدة ، مما يمثل مشكلة بالنسبة للكاتب غير المشهور لان الشخصيات البارزة تكره التعامل مع الكتاب المغمورين لعدم وجود ضمان لنشر الموضوع وللامانة في نقل الحقائق بدقة وتعاطف وموضوعية بعيدا عن أى تزوير أوتحريف.

٣ ـ مقالة الخبرة الشخصية :

personal experience account

ان القراء تسحرهم عادة النشاطات النادرة غير العادية التى يمارسها الآخرون ، فمثلا ان المواطنين المثقفين تبهرهم استكشافات الفضاء وتستحوذ على اهتمامهم ، وبخاصة منها محاولات الانسان غزو الكواكب الاخرى، لذلك تراهم يراقبون وسائل الاعلام لتتبع اخبار الفضاء ، ويهتم هؤلاء عادة بالخبرات الفعلية للابطال الذين يشتركون فى رحلات الفضاء ، فما الذى يخطر ببال رجل الفضاء عندما يجلس فى المركبة ينتظر اقلاعها ؟ ما شعوره حينماتغادر المركبة منصة الاطلاق ثم تحلق في أعالى الكون موغلة فى أقاصيه ؟ ما احساساته عندما يخطو خطواته الاولى على أرض القمر ؟ الجمهور يريد أجوبة لهذه الاسئلة من فم رجل الفضاء مباشرة مفضلا ذلك على الحصول عليها بواسطة ناقل آخر بعد تكثيفها أو تحريفها .

وتحظى الموضوعات التى تجىء على لسان اصحاب الخبرات النادرة مباشرة بشعبية عظيمة بين القراء .

٤ ـ المقالات المبسطة للحقائق :

Popularizing facts

ان حقل تبسيط الحقائق وجعلها فى متناول الجمهور العادى يمثل مصدرا غنيا للكتاب الاميركيين . ومرجع ذلك الى ان معظم القراء يجدون متعة كبيرة فى المقالات الشعبية التى تبحث في بعض النواحى الغامضة غيرالواضحة بالنسبة للرجل العادى فى حقل مثل الطب أو العلوم أو الاقتصاد ، بطريقة مألوفة تقربها الى الاذهان ، وتجعلها واضحة نيرة لا تدق على الافهام ، ولا تستعصى على العقول .

٥ ـ المقالات العملية النافعة Utility article

وهذه المقالات تشرح كيفية القيام بعمل ما أو تطوير مهارة معينة (مثل : مقال كيف تلعب الشطرنج أو كيف تمارس السباحة بنجاح ... الخ وأهم شرط لرواج هذا النوع من المقالات هوالجدة فىالموضوع والمعالجة، وكون صاحبه مرجعا موثوقا في مادة اختصاصه التى يكتب فيها . وسوف هذه المقالات رائج عند الذين يهمهم موضوع المقال لانهم يستفيدون من تطبيقه عمليا . وينجح المقال بشكل خاص عندما يبنى على معلومات مستقاة من مصدر خبير فريد من نوعه . مثال ذلك أن احد الصحفيين الاميركيين المغمورين أفلح فى الحصول على معلومات طريفة ومفيدة حول تزوير

التحف الفنية من أحد نجاري الموبيليا العريقين في مهنتهم ، وكان هذا قد أوضح له كيف ان بعض الاشخاص الذين لا تتطرق اليهم الشكوك يتمكنون من صنع نسخ مزيفة عن التحف الاصلية . ونجح الصحفي في بيع المقال بثمن مرتفع الى أحدى كبريات المجلات فلاقى بعد نشره اقبالا شديدا من القراء . ويعود الفضل في ذلك الى ان المصدر الاصلي للمعلومات التي تكون أرضية المقال ، وهو نجار الموبيليا ، صاحب خبرة واسعة في شؤون التزوير والتقليد ... أفليس اساس عمله خلق نماذج جديدة تشبه نماذج قديمة ؟

جـ ـ **الشعر** : واهميته آخذة بالاضمحلال في المجلات والصحف الاميركية على عكس ما كان الحال في الماضي .

عملية التاليف :

عندما يعتقد الكاتب أن في جعبته ما يصلح للنشر عليه أولا أن يفكر بالشكل الادبي الذي يريد أن ينتجه فيقرر ما اذا كان سيؤلف مقالا أم قصة قصيرة أم غير ذلك ، حسب مقدرته وموهبته ، أما الخطوة الثانية فتتمثل بدراسة السوق الادبي وفرص النشر . أي أن على الكاتب أن يحدد الصحف والمجلات التي يمكن ان ترحب بنشر مقاله . فمن المعلوم ان المجلات لا تسير جميعها على منوال واحد بل أن لكل منها خطتها وطابعها الخاص بها . ومن الافضل للكاتب ألا يبدد جهوده في ارسال مقالات الى مجلات لا تناسبها ولا تتوافق مع اتجاهاتها مما يؤدي الى رفضها وعدم نشرها . ان مسألة السوق الادبية مهمة جدا لدرجة ان بعض كبار الكتاب ينزلونها المنزلة الاولى من الاهمية ويرون أنها تسبق جميع الاعتبارات الاخرى .

لذلك فان استكشاف هذه السوق يمثل أول خطوة يتخذونها في عملية الكتابة . وهكذا فان على الكاتب أن يقرر اسم المجلة التي يمكن ان ترحب بنشر مقاله ثم يشرع في الكتابة حتى لا يقع في محظور احتمال اهمال مقاله بسبب عدم ملاءمته لخط المجلة . فمثلا ان مقالا عن الرياضة في المدارس الثانوية يصعب نشره في مجلة مثل مجلة فيلد اندستريم Field and Stream الاميركية ، بينما يمكن أن توافق على نشره اي مجلة رياضية . وكذلك فان مقالا عن فن الطهي يصلح للنشر في مجلة هاربرز ، ولكن المجلات النسائية هي أكثر استعدادا لنشره . والخطوة الثالثة في عملية الكتابة هي التخطيط الفعلي . وعلى الرغم من أن التخطيط يختلف باختلاف شكل الكتابة (مقال ... خاطرة .. قصة .. الخ) فان هناك عدة حقائق تجدر ملاحظتها وأولاها أن التخطيط يجب ان يكون شاملا ومغطيا جميع جوانب العمل الكتابي المقترح . اي أن على الكاتب ان يقلب الموضوع في عقله من كافة وجوهه . وهذا التمعن الاولي ينطوي في رأي الكثيرين على أهمية كبيرة . وبعد ذلك ينتقل الكاتب الى تدوين جميع الافكار التي تخطر له حول الموضوع دون اهمال اي فكرة مهما صغرت . وعندما تكتمل قائمة الافكار تصبح اساسا للخلاصة النهائية للموضوع .

وهكذا يتضح أن (كتاب الصحافة في أميركا) قد عالج مشكلات وأمورا كثيرة تهم كل كاتب وصحفي . صحيح أن الصحفي الاميركي يستفيد من الكتاب أكثر من غيره ، الا ان اي عامل في سلك الصحافة في أي بلد كان لابد أن يعثر فيه على كثير من الحقائق التي تهمه في ممارسة مهنته . وقد لاحظنا ان

الكتاب يتمحور بصورة رئيسية حول المجلات لان هذه هى الوسيلة الاعلامية الاكثر تأثيرا في الولايات المتحدة ، وقد انعكس هذا الاتجاه على عرضنا للكتاب فوجدتنا نتناول المبادىء الاساسية فى فصل المجلات بكثير من التفصيل.

ولابد لنا قبل اختتام هذا التحليل من ابداء ملاحظة بسيطة وهى ان المكتبة العربية تفتقر الى كتب ناجحة فى موضوع الصحافة ، ذلك أن معظم الكتب المتوافرة انما تدور حول تاريخ الصحافة . ونحن الآن بحاجة الى كتب من نوع جديد تنهج نهجا تقويميا نقديا وتقترح السبل العلمية السلمية لتطوير الصحافة وتخليصها من السلبيات التى تعوق مسيرتها.

* * *

من الكتب الجديدة

كتب وصلت الى ادارة المجلة ، وسوف تعرض لها بالتحليل في الاعداد القادمة

1. Bluhm, William T., Ideologies and Attitudes, Modern Political Culture, Prentice Hall. Inc., Englewood Cliffs, N.J.

2. Currell, Melville, Political Woman & Littlefield, N.J., 1974.

3. Dickens, A.G., The Age of Humanism and Reformation, Europe in the Fourteenth, Fifteenth and Sixteenth Centuries, Prentice Hall, Inc., Englewood Cliffs, N. J. 1972.

4. Henderson, C. William, Awakening, Ways to Psychospiritual Growth, Prentice-Hall, Inc., Englewood Cliffs, N. J. 1975.

5. Tugwell, Franklin, Search for Alternatives : Public Policy and the Study of the Future, Winthrop Publishers, Inc., 1973.



العدد التالى من المجلة

العدد الاول . المجلد التاسع

ابريل – مايو – يونية – ١٩٧٨

قسم خاص عن

العلوم عند العرب

بالاضافة الى الابواب الثابتة

الخليج العربي	٥	ريالات	سوريا	٣	ليرات
السعودية	٥	ريالات	القاهرة	٢٥٠	مليمًا
البحرين	٤٠٠	فلس	السودان	٢٥٠	مليمًا
اليمن الجنوبية	٤٠٠	فلس	ليبيا	٣٥	قرشًا
اليمن الشمالية	٤,٥	ريال	مسقط	٤٠٠	بيزة
العراق	٣٠٠	فلس	الجزائر	٥	دنانير
لبنان	٢,٥	ليرة	تونس	٥٠٠	مليم
الأردن	٢٥٠	فلسًا	المغرب	٥	دراهم

الاشتراكات :

للاشتراك في المجلة يكتب إلى : الشركة العربية للتوزيع - ص.ب ٤٢٢٨ - بيروت

مطبعة حكومة الكويت